

السَّنوية دين ودولة

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك

تأليف

دكتور محمد فؤاد شكرى

B. A (Hons), M. A, Phd.

أستاذ التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

دار الفكر العربي

١٩٤٨

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



السُّنُونِيَّةُ دِينٌ وَدَوْلَةٌ

تأليف

دكتور محمد فؤاد شكرى

B. A (Hons), M. A, PhD.

أستاذ التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

دار الفكر العربي

١٩٤٨

الفهرس

صفحة

تصدير

٦	فاتحة القول : إحياء العالم الإسلامي	—	الفصل الأول
١١	الدعوة السنوسية	—	الفصل الثاني
٢٣	برقة وانتشار الدعوة	—	الفصل الثالث
٤٥	الإمارة السنوسية	—	الفصل الرابع
٥٦	الخليفة الاول : السيد محمد المهدي السنوسي	—	الفصل الخامس
٩٦	الجهاد : الحرب الليبية الإيطالية	—	الفصل السادس
١٥٧	السنوسية والحرب العالمية الاولى	—	الفصل السابع
١٨٣	الزعامة الجديدة : السيد محمد إدريس المهدي السنوسي	—	الفصل الثامن
٢٢١	بيعة الإمارة	—	الفصل التاسع
٢٦٤	كفاح العرب في برقة وطرابلس	—	الفصل العاشر
٣٢١	الاستعمار الإيطالي : صحائف سود	—	الفصل الحادي عشر
٣٦٣	التحرير والخلاص	—	الفصل الثاني عشر
٤٠٨	خاتمة القول : بين الماضي والمستقبل	—	الفصل الثالث عشر
٤١٣	مصادر البحث		

الوثائق

- ١ — خطاب ابراهيم باشا درويش ياور أكرم حضرة السلطان (عبد الحميد) إلى السيد محمد المهدي السنوسي في ١٨ جماد الأول ١٣١٣ و ٣ نوفمبر ١٨٩٥ . (أنظر صفحة ٨٥)
- ٢ — خطاب باشكاتب سراي يلدز السلطاني إلى السيد محمد المهدي السنوسي في ٢ ربيع الآخر ١٣١٣ و ٢٢ سبتمبر ١٨٩٥ . (أنظر صفحة ٨٦)
- ٣ — تفويض البرقاويين والطرابلسيين المهاجرين بالديار المصرية والصادر إلى سمو السيد محمد إدريس بمدينة الإسكندرية في ٦ و ٩ رمضان ١٣٥٨ و ٢٠ و ٢٣ أكتوبر ١٩٣٩ (أنظر صفحة ٣٣٩)
- ٤ — الطرابلسيون يحددون بيعة غريان بالإمارة على القطر الليبي لسمو السيد محمد إدريس السنوسي في ٢٨ رمضان ١٣٦٣ و ١٦ سبتمبر ١٩٤٤ (أنظر صفحة ٤٠٦)

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، أما بعد درج الكتاب من الأفرنج على اعتبار السنوسية إحدى الطرائق الصوفية فحسب ، وانبرى الطليان من سنوات مضت يعملون لتعزيز هذا الاعتقاد بكل الوسائل ، يحدوهم إلى ذلك الأمل في صرف أذهان سواد الناس عن التفكير في أصول السنوسية الحققة والتسليم بأنه ما دامت السنوسية طريقة من الطرق الصوفية فهي بعيدة كل البعد عن العناية بغير شئون الدين ، بل ولا يحق لها أن تعمل لمطالب الحياة والدنيا ؛ ووجه الخطر في هذا الاعتقاد إذا رسخ في الأذهان ظاهر واضح . ذلك بأنه يحرم السنوسية كنتيجة منطقية في النهاية من التطلع إلى الحكم وتشديد صرح الدولة الإسلامية العتيقة ، تلك الدولة التي جاهد الليييون سنوات طويلة من أجل إرساء قواعدها في ليبيا . ومع ذلك فقد فات الطليان ومن حذا حذوهم أن الإسلام لا يعرف تفرقة بين شئون الدين والدنيا ، ولا يفصل بين العقيدة والدولة . وما كانت السنوسية في أدوار تاريخها الحافل ، طريقة ، تقصر اهتمامها على شئون العبادة من غير نظر في أحوال الشعوب التي أخذ (الايخوان) السنوسيون على عاتقهم إرشادها حتى تتحرر من قيود الجهالة وتعم بهدى المعرفة . آية ذلك نجاح السنوسية في إقامة نوع من الحكومة المصلحة الرشيدة على أسس عملية ظاهرة في كل مكان أنشأوا فيه زواياهم في القطر الليبي أو في أفريقية الغربية خصوصاً ، وذلك منذ تأسيس (الطريقة) في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري إلى الوقت الحاضر .

فقد ترك السنوسيون في هذه الأقطار التي قامت بها دعوتهم أثراً واضحاً جعل الدولة العثمانية صاحبة الأمر في طرابلس الغرب (ليبيا أو لوييا) وقتذاك تعتمد الاعتماد كله على جهود السنوسيين في حكومة البلاد الداخلية ، ثم مكافحة الاستعمار الأجنبي الذي بدأ يتغلغل في أفريقية الغربية من أواسط القرن الماضي تقريباً ، وتدعمت العلاقات بين دولة الخلافة الإسلامية وبين السنوسية ، وانفرد السنوسيون بالحكم من الناحية العملية في بلادهم واعترفت تركيا في مناسبات عدة بتلك (الحكومة) التي جعل السنوسيون مركزها في الجغبوب تارة وفي الكفرة تارة أخرى . وتوطدت أركان هذه الحكومة وقوى بأسها حتى أنه عندما أغار الطليان على ليبيا في عام ١٩١١ حملت السنوسية راية الجهاد المقدس ضد العدو الغاصب نيف وثلاثين عاماً . وما يزال كثيرون على قيد الحياة يذكرون صيحة الجهاد التي أطلقها

الليبيون مدوية عند بدء الحرب الإيطالية الطرابلسية (أو الليبية) ، وقد تجاوزت أصداء هذه الصيحة المدوية في أنحاء العالم العربي وفي مصر خصوصاً ، وأسهم عديدون من المصريين بنصيب وافر في الجهاد إلى جنب الليبيين سواء أكان ذلك بالاشتراك مع المجاهدين في مختلف ميادين الحرب كما فعل محمد صالح حرب (باشا) وكثيرون من الضباط والجند المصريين ، أم بجمع الاكتابات وإرسال التبرعات والقيام بأعباء الخدمة الطيبة كما فعل أصحاب الأريحية المصريون (وعلى رأسهم المغفور له الأمير عمر طوسن) وأطباء الهلال الأحمر المصري ، أم بالاندماج في صفوف المجاهدين وتبادل الرأي مع زعمائهم وقادتهم وبذل الجهد لجمع كلة الطرابلسيين وتوجيههم في جهادهم الوجاهات النافعة كما فعل المجاهد العربي القديم عبد الرحمن عزام (باشا) .

وكانت قصة الجهاد في ليبيا قصة رائعة حقاً ، سواء في ميدان الحرب والنزال ، أو في خضم السياسة ومعتزكها . ذلك بأن هذه القصة تزخر بأمثلة البطولة الحية الصادقة في أسمی مظاهرها ، تلك البطولة التي حمل لواءها الشهيد السيد عمر المختار الذي ظل يكافح الطليان أعواماً عدة حتى وقع في أسرهم فأعدموه جزاء على إيمانه الراسخ ونضاله المرير من أجل تحرير الوطن . وبرزت مواهب الليبيين السياسية عندما حاول زعيمهم في برقة السيد محمد إدريس أن يتزع من الطليان انتزاعاً اعترافاً صريحاً بحق إنشاء الحكومة الوطنية في ليبيا ، وحاول قادة طرابلس إقامة صرح الجمهورية في قطر رضع أبنائه لبنان الحرة ، وما كانوا يرضون عن هذه الحرية العزيزة عليهم بديلاً من الحكم الأجنبي الغاشم ، وسطر السيد بشير السعداوى (بك) أحد أفضال الليبيين وأقدر رجالهم بيعة أهل طرابلس بالإمارة للسيد محمد إدريس يعقدون لواءها للسوسية على القطر الليبي بأجمعه صوتاً لوحدة الوطن السيامية والاقتصادية وتعزيزاً لهضة البلاد الاجتماعية والعمرائية . وكان في سبيل تحرير ليبيا من قبضة المستعمر الغاصب أن انضم الليبيون بزعامة أميرهم السيد محمد إدريس السنوسي إلى جانب بريطانيا العظمى والأمم الديمقراطية ضد إيطاليا وألمانيا في الحرب العالمية الأخيرة منذ أغسطس سنة ١٩٤٠ إلى وقت انتهائها .

أما جهاد الليبيين عموماً والسوسيين خصوصاً في تلك الحرب ، فقد كان بلا مرأه صفحة مجيدة في تاريخ الشعوب الحية الفتية . وإني لأذكر كما يذكر القاريء الكريم أيام العليين العصبية ، وأعرف كما يعرف كثيرون أن السوسيين كانوا يحفظون مؤخرة جيوش ويفل وأوكتلك وموتجمرى إبان زحف روميل المشهور على الحدود المصرية ثم ارتداده منها ، وفي أثناء معركة العليين الحاسمة . وقد كانت هذه الحملة التاريخية (حملة الصحراء)

كافية لأن تجعلني أكثر اشتياقاً لمعرفة كل ما يمكن معرفته عن هؤلاء الليبيين الأجداد الذين لم يترددوا لحظة واحدة في الوقوف إلى جانب دولة بقيت وحدها تكافح من أجل الحياة ذاتها ضد عدو متتصر دانت أوروبا لسيطرته وبات يطمع في بسط سلطانه على العالم أجمع .

وكان في أواخر عام ١٩٤٣ بعد أن اندحرت جيوش روميل نهائياً أن هيأت لي ظروف عمل كفتش للتعليم الثانوي بوزارة المعارف العمومية أن أقابل رجلين قاضين من أبناء ليبيا المجاهدين هما الأستاذ علي أسعد الجربي وكيل إدارة التعليم في برقة وقتئذ والأستاذ الدكتور علي نور الدين العنيزي وكان يمثلاً في ذلك الحين منصب مستشار حضرة صاحب السمو السيد محمد ادريس السنوسي ؛ إذ اقتضى خروج الطليان من ليبيا أن يعيد الليبيون النظر في أحوال بلادهم تمهيداً لوضع أسس النهضة الجديدة ، واتجهت عنايتهم إلى التعليم فأخذوا يدرسون نظمه ووسائل نشره وتعميمه في أوطانهم ، وحضر الأستاذ علي أسعد الجربي إلى مصر حتى يدرس برامج التعليم بهذه البلاد ويزور المدارس المصرية ، ورحبت وزارة المعارف العمومية بالأستاذ وزميله الدكتور علي نور الدين العنيزي ترحيباً كبيراً ، وكان من نصيبي أن صحبت الأستاذين عند زيارتهما لطائفة من معاهد التعليم بالقاهرة ، وتناول الحديث شئنا عدة ، كان من أهمها إلى جانب التعليم ، ذكر نضال الليبيين المجيد في سبيل الخلاص من ظلم الطليان ، والتمتع بالاستقلال والحرية . وقد راعني ما لمست في الأستاذين من روح وطنية عالية وإيمان صادق بالقومية العربية وما ينتظر العالم العربي قاطبة من مستقبل زاهر إن شاء الله بفضل تآزر شعوبه الفتية الناهضة والتي يربط بينها جميعاً اتحاد الغايات النبيلة واستمساكها بمثل الإنسانية العالية . ثم تعددت مقابلاتنا بعد ذلك وتوطدت أواصر الصداقة بيننا . وقد زارني الأستاذان في آخر ديسمبر ١٩٤٣ ، وحضر هذا الاجتماع صديقي الراحل الكريم الأستاذ عبد الله حسن رحمه الله رحمة واسعة ، ودار الحديث حول نضال الليبيين ، وتاريخ برقة وطرابلس ، وقد حدث في أثناء هذا الاجتماع أن اطلعت الأستاذين علي كتاب كنت أقرأه وقتذاك ، صاحبه الرحالة الدانمركي كنود هليبو يروي فيه قصة أسفاره في برقة خصوصاً ويصف مشاهداته بها ، ولشد ما كانت دهشتي عندما عرفت أن ذلك الليبي العربي الذي ذكر الرحالة الدانمركي أنه استطاع بفضل جهوده أن يقف على حقيقة الأحوال في برقة وأن يجتمع بنخبة من أبناء البلاد في الحفاء ، كان الأستاذ علي أسعد الجربي نفسه وهذا على الرغم مما كان يتعرض له الأستاذ من انتقام الطليان الشديد لو أن هؤلاء علموا بنشاطه . وما أن تبين الدكتور العنيزي رغبتى الصادقة في دراسة تاريخ القطر الشقيق دراسة جدية واقية حتى أقبل يمدني بكل ما أحججه لإتمام هذه الدراسة من كتب قد يصعب الوصول إليها في ظروف الحرب القائمة وقتذاك . ولما كان أكثر هذه باللغة الإيطالية

التي يجيدها حضرته فقد تفضل بمساعدتي في ترجمتها شهورا طويلة ، ثم لم يقنع الدكتور بذلك بل إنه عمل على إتاحة الفرصة لي حتى أتمكن من استكمال نواحي هذه الدراسة ، وذلك بمقابلة زعماء الليبيين وقادتهم ، وأصحاب الرأي فيهم ممن اشتركوا في الجهاد من أيام الحرب الإيطالية الليبية في عام ١٩١١ ، ولا يزال أكثر حضراتهم ينقلون بالتواتر عن آباءهم أو أجدادهم الكرام ما وقع من حوادث هامة إبان نضال السيد محمد المهدي بن السيد محمد بن علي السنوسي الكبير ضد الاستعمار الفرنسي في أفريقية الغربية خصوصا ، ثم ما كان يقوم من علاقات بين مؤسس السنوسية والسيد محمد المهدي والسيد احمد الشريف من جانب وبين دار الخلافة والسلطان العثماني والدول الأوربية من جانب آخر . وواجب علي أن أذكر في هذا المقام أنه قد تبين لي عند «لخص» هذه الروايات ، خصوصا عليا دقيقا أنها جميعها صحيحة حتى في أدق تفاصيلها ، وكذلك كان شأن ما يذكره حضراتهم من حوادث وقعت بعد ذلك في ليبيا وأسمهم حضراتهم فيها بنصيب وافر أو نقلوه عن أفراد حضروا هذه الوقائع بأنفسهم . ولذلك فإنه يطيب لي أن أذكر شاكرا ما تفضل علي به من معلومات قيمة حضرات السيد محمد الرضا السنوسي ، والسيد محمد صفي الدين ، والسيد محمد الصديق من البيت السنوسي الكريم ، وحضرات السادة يوسف بك لتقي ، وعمر فاتق شنيب بك والشيخ محمد الأخضر العيساوي و ابراهيم بك الشلحي .

وفضلا عن ذلك ، فقد استطعت في أثناء مقابلاتي الكثيرة مع حضرة صاحب السمو الأمير السيد محمد ادريس ، وحضرة صاحب السعادة بشير بك السعداوي أن أجمع قدرا من الحقائق والمعلومات أنار لي سبيل البحث والدراسة إنارة تامة سوف يلس القاريء الكريم آثارها ولا ريب عند قراءة هذا التاريخ .

ولما كان قد اشترك كثيرون من المصريين في حوادث الجهاد من وقت أن غزا الطليان طرابلس الغرب ، فقد حرصت على تدوين مذكرات وافية عن الزعيم العربي والمجاهد «الليبي» المعروف حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا ، ويحتل معاليه في قلوب الليبيين مكانا رفيعا بفضل جهاده المستمر في سبيل نجاح «القضية الليبية» . وإني لأذكر كذلك بكل تقدير وثناء ما لقيته من اهتمام بالغ بالحقيقة والتاريخ من جانب مجاهد مصري آخر لازم السيد احمد الشريف من وقت الحملة على حدود مصر الغربية إلى وقت مغادرة سيادته طرابلس وذهابه إلى استانبول ، حضرة صاحب المعالي محمد صالح حرب باشا . وقد تفضل المغفور له الشيخ المحترم عبد الستار بك الباسل رحمه الله فأملئ علي قبل وفاته مذكراته عن الحرب الإيطالية الليبية وحملة سيوه خصوصا .

على أنه لا ينبغي أن يفوتني أن أذكر كذلك ما لقيته من معاونة الأصدقاء والاخوان الأوفياء عند إعداد هذا الكتاب للطبع ، فأذكر بالشكر والثناء جهود الأستاذ عبد المقصود العناني ، والأستاذ سيد محمد خليل ، والأستاذ احمد فريد علي مصطفى ، والأستاذ محمد خليل السيد مترجم تركي بديوان حضرة صاحب الجلالة الملك ، فلهضراتهم جميعا شكرى وتقديرى .

القاهرة فى سبتمبر ١٩٤٧ .

المؤلف

الفصل الأول

فاتحة القول

إحياء العالم الإسلامي

بحث كثيرون من الكتاب والمفكرين في أواخر القرن الماضي على وجه الخصوص في أسباب الضعف الذي ألم بالعالم الإسلامي . ودعاهم هذا البحث إلى التنقيب في حوادث التاريخ الإسلامي عليهم يظفرون بما يشخصون به أمراض هذا المجتمع الإنساني الكبير من ناحية ، ورجاء أن يستطيعوا وصف الدواء الناجع لهذه الأمراض من ناحية أخرى . وكان مفكرو الشرق أسبق من غيرهم إلى تعرف مواطن الداء ووصف الدواء تحذوهم الغيرة إلى ذلك ، وعلى الخصوص بعد ما شاهدوه من طغيان الغرب على أقطاره ، ينتزعا من أهلها ويفرض عليها سيادته الأجنبية ، ويوغل في استنزاف دمايتها بدعوى العمل على إصلاحها ونشر الحضارة في أرجائها . بل أنه لم يلبث أن ظهر بين الغربيين أنفسهم طوائف صارت تهتم بشئون العالم الإسلامي ، فكان يدفع بعض هؤلاء إلى ذلك سأمهم من هذا العدوان المذموم وياتوا يعقدون الأمل على يقظة العالم الإسلامي حتى يرد عن نفسه كبد المعتدين ، بينما ظلت جماعة أخرى لا تسأم من رؤية هذا العدوان ، بل كانت تبقى المزيد منه ، فظلت تكشف عن مواطن الضعف ، وتدل إلى مكان القوة في جوانب هذا العالم حتى يسترشد بذلك أصحاب الغزو والاستعمار . وقد انفقت كلمة الفريقين على أن العالم الإسلامي منذ نشأته حتى نهاية المائة الماضية وبداية القرن الحاضر مر في أدوار ظاهرة بين نهوض وتعثرت حتى جاءت نهضته الأخيرة المباركة بين عامي ١٧٥٠ ، ١٩٠١ .

• وهذه النهضة تستند في اعتبارهم إلى دعوات قام عليها صرح العالم الإسلامي في الحقيقة من اللحظة الأولى ، أهمها التفاف هذا العالم حول دستور واحد هو القرآن الكريم ، وما فرضته الشريعة السمحة الكريمة على كل مسلم قادر على الحج إلى بيت الله الحرام . ثم تأتي دعامة الخلافة ، وكان لها شأن تاريخي عظيم في أوائل عهدها ، ثم تقلبت عليها الأيام فترة حتى جاء سلاطين الترك فاتخذوا لقب الخليفة ، واعترف السنيون لهم بها . ومع أن الخلافة في عهد العثمانيين لم تكن إلا ملكا عضودا ، وكان بين خلفائهم من اتصف بالظلم والغواية ، أو

اشتهر بالعدل والحكمة ، وكانت خلافتهم تغاير في شروطها الصحيحة خلافة الراشدين الأولى ، فقد ظل العالم الإسلامي في دور هذه النهضة يعترف بخلافة آل عثمان خوفاً من انتشار الفتن الداخلية وتعرض العالم الإسلامي للتفكك والإتهيار بسبب ذلك ، ومن جراء ما يوجه إليه الأعداء الطامعون في ملك هذا العالم من ضربات قاتلة . ولذلك فقد ظلت وحدة العالم الإسلامي تستند إلى الحج والخلافة في شد أزرها وتقوية دعائمها .

وكان الحج ولا يزال بمثابة (المؤتمر) السنوي العام تعقده وفود الحجاج الآتين من مشارق الأرض ومغاربها ، يملأ صدورهم الحماس لدينهم ، ويلبس العارفين في أثنائه وعند أعمال الفكر وتداول الرأي مأخذ ضعف المسلمين ، وينظرون في وسائل إحياء الأمة والذود عن بيضة الإسلام . وفي القرن الماضي كان بيت الله الحرام قبلة كل قاصد علم يبغى التفقه في الدين والانقطاع للعبادة . وكانت أرض الحرمين الشريفين موطن التفكير الديني الخالص ومنتبت كل دعوة وإرشاد . يدلك على هذا أن كبار رجال الدعوة والإرشاد في القرن التاسع عشر الميلادي زاروا هذه البلاد المقدسة للحج أو لطلب العلم أو للإقامة . وإنا نذكر من هؤلاء على وجه الخصوص ثلاثة . فمن المعروف أن صاحب دعوة الوهابيين (محمد بن عبد الوهاب) أقام بالمدينة المنورة قرّة قبل أن ينشر دعوته في الدرعية . وكذلك فعل حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى ، حيث قصد الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وظل بها نحو سنة وهو ينتقل من بلد إلى بلد حتى وافى مكة المكرمة (١٢٧٣ هـ) . والذي تريد أن توجه إليه النظر ما فعله أيضا العارف بالله الشيخ والسيد محمد بن علي السنوسى الكبير . فقد قصد سيدى محمد بن علي السنوسى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ولطلب العلم ، وأقام بها مدة وأنشأ بها أولى زواياه . (١٢٥٧ هـ ، ١٨٤١ م) .

وهؤلاء العظماء الثلاثة هم من غير شك أكبر دعاة الإسلام لإحياء الأمة ، اتفق تشخيصهم للرض الذى ألم بجثمان العالم الإسلامى ، واختلفوا في طرائق معالجة هذا المرض وإحياء هذا الجثمان . وأفلح الوهابى في الشرق فقامت دولة فنية على أساس تعاليمه ، ونجح السنوسى في الغرب فكانت دعوته من وسائل إنتشار الإسلام في أفريقية الغربية ، ثم اقتضى نشر هذه الدعوة الدينية إقامة صرح الامارة الليبية . وأما الأفغانى فقد نهج سبيلا مغايرا لما سلكه الحكيمان الأولان ، فأخذ على عاتقه نشر الدعوة لإحياء الخلافة في العالم العثمانى وصار يدعو الشيعة لقبولها ، وكان من رأيه أن الخلافة القوية في مقدورها أن ترد عدوان المعتدين وتحمى أقطار المسلمين في المشارق والمغارب ، وفاته أن الجامعة الإسلامية ، وإن كانت تعتد بالخلافة العثمانية من حيث أنها سياج يمنع اعتداء المعتدين على أقطارها ، لا ترضى شعوبها بالحكومة الاستبدادية

على النمط الحميدى — نسبة إلى السلطان عبد الحميد — الذى خدمه وآزره السيد الأفغانى ، كما لا ترضى بأن تفتى شخصيتها — ولكل من هذه الشعوب مزاجه وطبعه الخاص به — فى شخصية دولة الخلافة العثمانية . ومع هذا فقد نجح الأفغانى فى استنهاض الهمم وتنوير الأذهان وإحياء الشعور الإسلامى فى بلاد الشرق : فى الأفغان والهند وفارس والشام ومصر . وعندما احتجزه السلطان العثمانى فى دار الخلافة ، وقصر السيد نشاطه على الدعوة لخلافة آل عثمان فى شخص عبد الحميد الثانى ، حمل مصباح الهداية فى أقطار الشرق القريب تليذه ومريده السيد الإمام الشيخ محمد عبده .

ومن البداية لا يجد الكاتب مناصا من ذكر طرف من مسلك هؤلاء الدعاة الذين أرادوا بالإسلام وأهله خيرا ، والذين تقوم على أكتافهم نهضة الإسلام ويقظته فى الدور الذى نحن بصدده — نحو الخلافة من حيث أنها دين ودولة ، لما فى هذا من فائدة لمعرفة شئ من تاريخ السنوسية ذاتها من بدء نشاطها وظهورها فى وجود الخلافة العثمانية إلى وقت زوال هذه الخلافة . ولتبدأ بالوهابى ، فمن المعروف أن شيخ الوهابية كان مجددا للإسلام فى بلاد نجد وذلك بإرجاع أهله عن الشرك والبدع التى فشت فيهم إلى التوحيد والسنة ، ومن الناحية السياسية حارب الوهابيون الخلافة العثمانية ، فجروا على أنفسهم عداوة القوة العثمانية ، زد على هذا أن فسوتهم فى محاربة البدع وما إليها جعل من المعتذر أن تستقيم لهم الأمور سنين طويلة حتى تم لهم الأمر فى عصرنا هذا بحمد السيف وغلب السياسة . على خلاف هذا كان موقف السنوسية من الخلافة ومن الإصلاح الدينى . فالسيد محمد بن على السنوسى ما كان يريد غير العبادة وإقتفاء أثر السلف الصالح ودعوة اخوانه ومريديه إلى الدين القويم الصحيح وإرشاد عباد الله لما فيه سعادتهم فى الدارين ، ولا ينشر دعوته بحمد السيف ، بل طريقه إلى ذلك التعليم والهداية والإرشاد . ثم لم يكن من مقاصده مناوئة الخلافة أو التعرض لها بلجملته أسباب ، أولها : أنه يريد هداية العالم الإسلامى أجمع ، فلم تكن دولة الخلافة العثمانية إلا قطرا من أقطار هذا العالم الواسع الذى يبنى إصلاحه ، ولذلك لم تشغل الخلافة ذاتها كنظام ودولة حيزا كبيرا من تفكيره . أضف إلى هذا أن السيد ما كان يرى ضرا فى بقائها وهى وقتئذ رباط العالم الإسلامى ودعامة الجامعة الإسلامية فى نظر المفكرين ، ولو أن مشروع هذه الجامعة فى ذلك الحين كان مبهما ، لا يبدو أن يكون مشروع عاطفة وولاء دينى وحسب . زد على ذلك أن السلطنة العثمانية ، وهى التى ضمت إليها من أزمته طويلة أرض برقة وطرابلس والجزائر وتونس كانت قد تضعفت قوتها . وفى برقة التى يهم السنوسيين أمرها على وجه الخصوص ، ما كان السلطان العثمانى يتعدى السواحل ، بينما بقيت الدواخل فى أيدي شيوخ القبائل ورؤسائها ،

كما أن الأمم الإسلامية كانت ترتجى السلامة في بقائها في تلك الآونة ضمن أملاك الدولة العثمانية. — دولة الخلافة — خشية الوقوع في براثن المستعمر الأوربي الذي أغار على الجزائر في وقته وطفق يبسط سطوته بوسائل التبشير وما إليها حتى تغلغل نفوذه تدريجياً في الشواطئ ثم في داخل أفريقيا الغربية ، في صحرائها الكبرى ، حتى تخوم السودان الإسلامي . فإذا ذكرنا أن الدعوة السنوسية في جوهرها دعوة إرشاد وعبادة ، تقصد إلى معرفة الدين الصحيح ، وتعمل على نشر الفضيلة وتحض على الابتعاد عن الرذيلة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتبني قوتها الروحية على تنظيم الزوايا للتعليم والتعلم ، ثم اقتضى نجاح دعوتها شد أزر دعائها في إمارة كان لا مندوحة من إقامة صرحها حتى تتولى إلى جانب نشر الدعوة المنظمة الدفاع عن كيان الإسلام في مجاهل القارة الأفريقية . نقول إذا ذكرنا هذا كله ، لتبين لنا أن السنوسية كانت تنضوي تحت لواء الخلافة ما دامت هذه الخلافة قائمة . وقد ظل أساطين الدعوة وأمراء السنوسية آمنين على عهدهم حتى ذهبت الخلافة .

ووجه الأهمية فيما ذكرنا أن السنوسية وهي كما نعرف دعامة من دعائم اليقظة الإسلامية . كانت دعوة دينية في جوهرها . ومع هذا فهي تقترب اقتراباً كبيراً من حيث الرغبة في تعميم الإصلاح وإرشاد العالم الإسلامي ، من طبقة أو جماعة المصلحين المسلمين الذين تزعمهم جمال الدين الأفغاني ثم الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم السيد أحمد خان (١٨١٧ - ١٨٩٨) منشىء كلية (عليكرة) المشهورة ، المدرسة الإسلامية العظيمة في الهند . ويتفق هؤلاء المصلحون في أنهم بنوا دعوتهم إلى إيقاظ العالم الإسلامي على ضرورة نشر التعليم الديني الصحيح ونيل التعصب ، والاستفادة من تفكير الغرب بالقدر الذي ينفع في شحذ ذهن الشرق وينهض بقومه . ولعل حركة الإصلاح الاجتماعي والديني الكبيرة التي قام بها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هي أقرب الحركات في معالمها الواسعة وأشدها شهاً بالدعوة السنوسية . فإن الإصلاح الذي نشده الإمام كان يقوم على ضرورة الرجوع إلى السلف وتطهير الدين الخفيف بما دخل عليه من بدع وأكاذيب ، وتعميم التعليم الديني والاكثار من الدعوة والارشاد ، وطريقة التبليغ عنده المدارس ودور العلم . وبالمثل عملت السنوسية على نشر الدين الصحيح ورفع لوائه عالياً وتعميم التعليم الديني . ولا يزال طريق السنوسيين في ذلك إنشاء الزوايا وهي دور عبادة وتعليم ومراكز حياة واجتماع ومقر سلام ونظام في أقطار السنوسية . بأجمعها .

ومع أن نهضة العالم الإسلامي في هذه الفترة (١٧٥٠ - ١٩٠١) كانت تقوم على ركنين أساسيين هما الحج والخلافة ، فقد وجد ركن ثالث لهذه النهضة — أو أقل اليقظة —

الإسلامية - نجم عن انتعاش الطريقتين القديمتين : القادرية والشاذلية ، ثم قيام الطريقتين الجديديتين : التيجانية والسنوسية . فالقادرية لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني عظم أتباعها في المغرب وفي أفريقية الغربية وقاموا بنشر رسالة الإسلام من السنغال إلى الغرب من مصب النيجر ، يفتحون (الكتائب) أو المكاتب الصغيرة في زوايا الطريقة وفي جميع القرى ويلقنون بها صغار الزنوج الدين الإسلامي ثم يرسلون النجباء منهم إلى مدارس طرابلس والقيروان وإلى الجامع الأزهر بمصر ، حتى إذا أتوا دراستهم نشروا الدعوة إلى الإسلام بين أقوامهم . وأما الشاذلية ، فكانت من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب ، ومن أهم أشياخها سيدي العربي الدرقاوي . وكان لهذه الطريقة جهاد معروف في مقاومة الفتح الفرنسي في المغرب . والتيجانية طريقة جديدة أسسها أحمد بن محمد التيجاني المتوفى في قاس عام ١٧٨٢ ، وقد كثر أتباعها وعظم شأنهم حتى صاروا من أشد أنصار الإسلام وفي أواسط القرن التالي كانوا سادة السودان الغربي من تمبكتو إلى شواطئ الأطلس مدة نيف وأربعين سنة . والسنوسية هي الطريقة التي أسسها السيد محمد بن علي السنوسي بعد أن تبحر في أصول الدين الحنيف ودرس الطرائق على شيوخها وعظمت همته وسمت أغراضه عندما صار يحزنه ما كان يراه من سوء حالة المسلمين وما هم عليه من تأخر ، فعقد النية على أن يخصص وقته وحياته لهدايتهم وإرشادهم . فأشرق من هذا العزم الصحيح منشأ السنوسية التي اختلفت عن الطرائق السابقة في أن أتباعها ما كانوا ينشدون العزلة فقط لكي يتفرغوا للعبادة وذكر الله وإحياء الدين والملة بالدعوة والإرشاد ، بل أنهم كانوا يحرصون على العناية بأمر دنياهم أيضا على اعتبار أن الحياة الدنيا الرشيدة ، وفق تعاليم القرآن الكريم وهدية وإرشاد السنة واقتفاء أثر السلف الصالح ، من شأنها التمديد لحياة باقية سعيدة ، ولذلك فقد عنى السنوسيون لصالح إحياء العالم الإسلامي وعلى الخصوص في المجهل الأفريقية الغربية بإنشاء الامارة وتدعيم أركانها إلى جانب نشر الدعوة إلى الدين الصحيح على أساس العمل بالسنة والشريعة بدون شرط ولا قصور .

وفي الفصول التالية سوف نحاول بإذن الله بيان أثر السنوسية كدعوة وإمارة في إحياء ويقظة العالم الإسلامي في أفريقية الشمالية والغربية ، وما يرجى من نشر ألوية الحضارة وال عمران في الديار التي تمت وترعرعت فيها : وهي الأقاليم التي تزعم فيها أمراء السنوسية وشيوخهم حركة المقاومة والكفاح العظيم ضد الاستعمار الأجنبي في برقة - طرابلس .

الفصل الثاني

الدعوة السنوسية

وصاحب هذه الدعوة السنوسية السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي ينحدر من أسرة عريقة . فهو من سلالة ملوك الأدارسة الذين أسسوا الدولة الإدريسية ، فكثروا بفضل هذا الفتح من انتشار الإسلام وتوطيد أركانه في الغرب . والمعروف أن أول خلفاء الأدارسة هو أدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل بن السيد الحسن المثنى ابن الإمام السيد الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب . فكأن نسب صاحب الدعوة السنوسية يتصل بأحد الخلفاء الذين تولوا الخلافة الإسلامية الكبرى وهو السيد حسن السبط ، كما أنه من أحفاد الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وأحد الخلفاء الراشدين وزوج فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونشأ صاحب الدعوة في بيت عالم ودين وفضل هو بيت آل سيدي عبد الله بن الخطابي ببلدة مستغانم بالجزائر حيث ولد في ١٢ ربيع الأول ١٢٠٢ (٢٢ ديسمبر ١٧٨٧) على ضفتي وادي شلف ومينا من ضواحيها في محلة يقال لها (الواسطة) . وكان أبناء البيت السنوسي كلهم منتسبين إلى العلم ، فوالده وجدته وأعمامه وأبناء أعمامه ، وكثير من نساء هذا البيت الكريم مثل جدة السيد لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا جميعاً علماء . وكانت السيدة فاطمة من فضليات أهل زمانها ، متبحرة في العلوم منقطعة للتدريس والوعظ ، محضرة دروسها ومواعظها الرجال . وكان والده السيد علي يجمع إلى العلم والصلاح والتقوى القرومية والرماية إلى الدرجة القصوى . ولكن السيد علي لم يلبث أن توفي وهو في شرح الشباب بعد عامين فقط من ازدياد ولده ، فتولت السيدة فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة . ومن أول الأمر أظهر السيد محمد بن علي شغفاً عظيماً بتحصيل العلوم ، فأخذ يتطلب للعلوم من ذوبها بالحضرة المستغانمية والحضرة المازونية وغيرهما من بلاد الواسطة ، فقرأ على السيد محمد السنوسي القرآن الكريم واتفقه وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والتصوف . وكان من العلماء الأجلاء الذين درس عليهم السيد محمد بن علي في بلدة مستغانم الشيخ محي الدين ابن شبله ، والشيخ عبد الحلیم ، والشيخ محمد بن عبد القادر بن أبي زويته ، والسيد عبد القادر ابن عمور . وسيدى محمد بن الكندوز (القندوز) . وكان سيدي محمد بن الكندوز قد

نال شهرة كبيرة بسبب اعتداده برأيه وابتعاده عن طلب الزلفى لدى الحكام ، فأثار مسلكه هذا حفيظة حاكم الجزائر في ذلك الوقت (حسن بك) وكان يبغض (الاخوان) ويجد في السيد محمد بن الكندوز خطراً من واجبه التخلص منه فقبض عليه وأحضره إلى (مازونه) وأعدمه في عام ١٨٢٩ . وما يذكر أن سيدى ابن الكندوز عندما بلغه عزم الحاكم القدر به ، لم يشأ الخروج والنجاة بنفسه ، بل قال : « سوف ينزل السوء بمازونه من جراء أخطائه (أى أخطاء حسن بك) وسوف ينزل بالأتراك السوء بسبب ابن الكندوز ، . وتحققت نبوءة سيدى ابن الكندوز عندما أغار الفرنسيون على الجزائر بعد عام واحد وقدها الأتراك . وكان لهذا الحادث وقع عظيم في نفس السيد محمد بن علي السنوسى . فظل من ذلك الحين شديد الحيلة والحذر من العثمانيين ولا يستطيع أن يركن إليهم في شيء . وفي (مازونه) درس السيد علي الشيخ أبي طالب المازوني ، وسيدى محمد بن علي الشارف المازوني وفي (المعسكره) كان أستاذه الشيخ أبو راس المعسكرى (١٧٥١ - ١٨٢٣) .

وما هو جدير بالذكر أن السيد في حديثه كان يميل إلى الإنزواء والانفراد يمضى وقته في التفكير فيما يرى حوله من أحوال الإسلام . وكان وهو في هذه السن شديد الشعور بضرورة العمل من أجل إحياء الملة الإسلامية وتوحيد الصفوف في العالم الإسلامي للنهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة قوية . حدث ذات مرة أن وجدته بعض الشيوخ جالساً فوق كتيب من الرمال تبدو عليه دلائل التفكير العميق ، فلما استوضحوه السبب في ذلك ، كان جوابه أنه إنما يفكر في حال العالم الإسلامي الذي لا يبدو عن كونه قطعياً من الغم لاراعى له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقة وعلماؤه . فع ان هناك عدداً كبيراً من المرشدين وعلماؤ الدين الموجودين في كل مكان ، فان العالم الإسلامي لا يزال مفتقراً أشد الاقتتار إلى مرشد حقيقى يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد . والسبب في هذا أن انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الخلفات القائمة بينهم قد فرقتهم شيعاً وجماعات فأصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة ولا يهتمون بأوامر الدين الحنيف ، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد وجمع الكلمة . زد على هذا أن على هؤلاء العلماء والشيوخ واجب عظيم في حق الملة الإسلامية ؛ إذ أن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من أفريقية الغربية — لاتزال تعبد الأوثان ، ومع هذا فانهم بدلا من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم ، مازالوا يفضلون القبوع في كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لاهم لهم إلا الراحة أجسامهم ، حريصين على لذاتهم ، غير قائمين بواجبات مراكرمهم ، لاضمائهم لهم توتنهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء

المساكين ، الوثنيين . ومع ذلك فقد بلغ السيد من القوافل الواصلة إلى بلده مستغاثم .
أنت الإسلام مقلوب على أمره في كل محل ، وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب
من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق ، فالإسلام في حالة التدهور الخفيف ، ثم ختم
السيد كلامه بقوله : « هذا ما أفكر فيه ! » فلما سأله وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافي
ما ذكرت ، أجاب : سأجتهد ، سأجتهد .

وهذا الحادث يدل على ما انطوى عليه روح السيد الكبير من علو الهمة . فهو من عهد
تلقيه العلم في حدائه وصباه ما كان يقل عن كامل الرجولة والكهول حصافة عقل وبعد
نظر وإعمال فكر وتدبر ، لم تفته ملاحظة ما يجري حوله ، يجمع أخبار الأقطار المجاورة
ولا يبغى من ذلك سوى الوقوف على حال المسلمين .

وواضح أنه كان يؤلمه وهو في هذه السن ما كان عليه المسلمون من ضعف وتخاذل . وحق
علينا ونحن لا تزال في هذا الطور من تكوين السيد أن نذكر أمرين ظاهرين : أولهما ، أنه قد
فطن إلى حقيقة حال العالم الإسلامي وعرف جيد المعرفة أن هذا العام مريض ، بل في حال
التدهور الخفيف ، عند ما كانت تذهب من أيدي المسلمين — كما قال — المقاطعات والخطط
المعمورة بسرعة البرق ، وثانيهما — أنه فطن إلى سبب هذا التدهور الخفيف كما فهمه وأدركه ،
وهذا لم يكن إلا نتيجة خمول العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الراحة والدعة وابتعادهم عن
إجهاد الجسد والعقل في نشر كلمة الله العلي العظيم ، ورفع ألوية السنة والشريعة عالية ، وإحياء
نور الإسلام وسط دياجير الوثنية . وكان لو وصول السيد إلى هذه النتيجة عند بحثه علة تدهور
الإسلام نتائج خطيرة في تفسير أسباب الضعف الذي لحق بالعالم الشرقي الإسلامي عموماً أمام
علم الغرب المستبد الغشوم ؛ ثم في تعيين الأهداف والأغراض التي عمل السيد في سبيل تحقيقها
من حينه ، ثم ضمنها دعوته الرشيدة إلى الإصلاح الديني واليقظة الإسلامية لنصرة الدين وإنعاش
الإسلام في أرجاء ما كان يريد أن يصبح عالماً إسلامياً موحداً ومنتحداً قوياً . وكان لذلك كله
آثار بعيدة في حياته وتفكيره .

وأما ما نجم مباشرة عن تفكير السيد في حال هذا العالم الإسلامي فكان شدة انكبابه على
تحصيل العلم بنهم وشغف عظيمين ، حتى إنه لم يكتف بما حصله في بلده ، بل قصد إلى محروسة
(فاس) محط رحال العلماء ، والوقت إذ ذاك وقت والعلماء علماء ، ومكث بها سبع سنوات
تقريباً (١٨٢٢ — ١٨٢٩) ، فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علماء (فاس) مثل سيدي
الشيخ حموده بن الحاج ، وسيدي حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج وسيدي الطيب الكيراني
(ابن كيران) وسيدي محمد بن عامر المعواني وسيدي أبي بكر الأدرسي والشيخ ادريس بن

زيان العراقي والشيخ محمد بن منصور والشيخ محمد بن عمر الزروالي والشيخ محمد البازغي وسيدى العربي بن أحمد الدرقاوى وغيرهم . وما تجدر ملاحظته أن السيد الدرقاوى كان من أشياخ الطريقة الشاذلية . فان السيد محمد بن علي السنوسى ما كان يدع فرصة تفوت من غير التبصر في معرفة الطرق إلى جانب التفقه في علوم الدين وغيرها كما سياتى في أدوار تكوينه المقبلة . وهكذا فان السيد لم يلبث طويلا حتى أجازته في العلوم التي درسها من كان أهلا لذلك ، فحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرسا بالجامع الكبير بمدينة (فاس) .

وفي أثناء إقامته بفاس ظهر فضل السيد وأقبل عليه تلاميذه ونال شهرة علية عظيمة . ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته في أن يرى العدل باسطا جناحيه على أهل السلطنة (مراكش) وعلى شعوب الإسلام طرأ ، مما كل ما يريد في حياته ، فقد أكثر من الموعظة الحسنة في أثناء دروسه ، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن بمقر السلطنة في فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدّة أخرى . ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثر ثمرتها . بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان (مولاي سليمان) إلى هذه الدعوة وتلبس الخطر من جانبها ، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية قد تعصف بالسلطنة على غرار ما يحدث من أزمنة بعيدة حيث كانت تبتدىء الحكومات في هذه الديار أولا بالمشيخة والإرشاد ثم تنتهى بالحكم والسلطان . وعلى ذلك شددت الحكومة في مراقبة السيد ، فوجد أن لا فائدة ترجى من بقاءه بفاس . وقرر الارتحال عنها في عام ١٢٤٥ هـ (أواخر ١٨٢٩) . ولكنه لم يعد إلى مستغانم بلده ، لأنه إنما كان يريد الاستمرار في بث دعوته إلى الدين القويم ونشر ألوية الهداية والإرشاد بين الشعوب المجاورة ، أضف إلى هذا أنه كان يريد دراسة جميع الطرائق المعروفة وزيارة زواياها الشهيرة ، ومقابلة (مقدمي) هذه الزوايا وسؤالهم . وقد عنى السيد في أثناء إقامته بفاس بدراسة الطرائق القادرية ، والشاذلية والدرقاوية والناصرية والحبيبية والجزولية وغيرها . وعلى ذلك فقد سافر السيد سفرا طويلا ، وصار يتنقل من مكان إلى آخر . وعهد في أثناء رحلته هذه إلى زيارة الزوايا والاجتماع بالإخوان ومعرفة مختلف الطرائق ، مثل الزيانية ، والمحمدية ، حتى بلغ (عين مهدي) فدرس بها الطريقة التيجانية ، ثم قصد (لاغوات) وفضل رحمه الله الإقامة بها مدة لأهمية موقعها بجنوب الجزائر بجوار (خطة توات) حيث كانت معتبرة من مفاتيح الصحراء وتجتمع بها القوافل الآتية من السودان (الغربي) والذاهبة إليه . فسكث بها بعض الوقت يلقي دروسا في الفقه والشريعة .

يد أن السبب الذي جعله يترك (فاس) وهو رغبة السيد في العمل من أجل إصلاح العالم

الإسلامي ، سرعان ما جعله يرى أيضاً فائدة التنقل من (لاغوات) إلى غيرها من المراكز الصالحة لبث الدعوة ونشر الموعظة ، فارتحل من هذه المدينة إلى (مسعد) ثم إلى (حلفة) ، ومنها إلى (بوسعده) ، فأقام بها بضعة شهور ، حدث في أثنائها بحجى الحملة الفرنسية إلى الجزائر ثم سقوط مدينة الجزائر في أيدي الأجانب الفاتحين . فأراد الرجوع أولاً إلى وطنه عليه يستطيع أن يدفع عنه الضرر وأن يقاوم المحتلين ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك عندما جاءه في (رؤيا) مشهورة أن من الخير والواجب أن يستمر في سيره صوب الشرق .

ومع أن السيد عندما غادر بوسعده (١٨٣٠) لم يكن قد أصبح رئيساً لطريقة معينة من الطرائق التي درسها أو (مقدما) لزاوية من الزوايا التي زارها ، فانه من جانب آخر لم يكن ذلك الطالب ، الذي يبغى التزود من العلم والمعرفة وحسب ، بل صار علماً من الأعلام الموهوبين والمشهور لهم بالكفاءة والمقدرة ، يجمع حوله الطلاب ، ويلقى عليهم الدروس ويحرك شعورهم الديني ويجذب إليه القلوب . وقد ذكر السيد في (الفهرسة) التي تركها - وهي التي ضمنها أسماء الكتب الكثيرة التي درسها والشيخ العديدين الذين أخذ عنهم العلم حتى اكتمل له ما صار يؤهله للتدريس والمحاضرة - شيئاً من نشاطه في هذه الفترة الزاخرة من حياته ، فبين كيف أنه استطاع في أثناء أسفاره هذه أن يوثق أواصر المحبة والصدقة وينشئ الصلات العتيقة التي ساعدته فيما بعد مساعدة كبيرة على نشر تعاليمه وبث دعوته في هذه الجهات حتى يتسنى له إنشاء ذلك العالم الإسلامي اليقظ والمتحد الذي أراد . وأما السيد فقد غادر (بوسعده) ومر ببلدة تمسين ثم زار قابس وطرابلس الغرب وبنغازي وفي كل من هذه المدن الثلاث الأخيرة لم يشغل السيد وقته بشيء غير الوعظ والإرشاد للصلحة الإسلامية العامة .

ومع هذا وبالرغم من علو كعب السيد في علوم الدين وغيرها ودراسته الواسعة وقيامه بالوعظ والإرشاد بين المسلمين عن جدارة ومقدرة ، فقد كان رحمه الله عظيم الشغف بالجلوس إلى كبار علماء الشرع الشريف والدين الحنيف ممن اشتهر ذكركم وعرف العالم الإسلامي أمرهم وعلا قدرهم ولذلك فقد رغب السيد في الأخذ عن هؤلاء العلماء الأفاضل والسفر إلى مراكز التعليم والتفكير الديني في أقطار الإسلام الشرقية في مصر وفي الحجاز من أجل ذلك أضف إلى هذا أن الأحوال في بلاد الجزائر سرعان ما تبدلت ودخلها الاضطراب من جراء غزو الفرنسيين لها ، فشهد السيد دليلاً جديداً أضافه إلى ماسبقه من أدلة ذلك (التدهور الحنيف) الذي انغمس فيه العالم الاسلامي . ولا يبعد أن يكون السيد قد أدرك ما يعترض في هذه الظروف دعوته إلى إصلاح حال المسلمين وجمع كلمتهم من صعوبات إذا ظل مستقراً بالجزائر أو أقام في طرابلس ، وأن من المفيد أن يتقوى في عزمه بزيادة الارشاد من

متاهل العلوم ، ثم يقصد إلي حيث يستطيع أن يبلغ دعوته الإصلاحية إلى أعظم جمهور من المسلمين في ديار كان يعاود ذكرها في ذلك الحين (مصر) ، أوفى أخرى كانت من مسارح حركة الروهابين الدينية الخطيرة وهي أرض الحجاز .

وعلى هذا يم السيد محمد بن علي السنوسي وجه شطر الديار المصرية ، ووليا وقتذاك وصاحب شأنها محمد علي باشا الكبير منشيء الدولة المصرية الحديثة ومؤسس حكومتها المدنية العتيدة . وقد اشتهر من بين علمائها في الأزهر الشريف جملة من الأئمة منهم الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ القويسني وغيرهم ، فحضر السيد السنوسي مع هؤلاء العلماء واجتمع بهم ، ثم كان من بين من أخذ عنهم بمصر أيضا الميلي التونسي والشيخ ثعلب والشيخ الصاوي بيد أن السيد عندما حضر إلى مصر كان يتمتع بشهرة كبيرة كعالم جليل ، و «أستاذ» حضر عليه تلامذة كثيرون . كما أن ما أظهره من شدة تمسكه باستقلاله في الرأي واعتداده بشخصه وعلمه وكفائته وعدم مبالاته بالحكام أو اهتمامه باجتذاب رضاهم إليه كما حدث له (في قاس وغيرها) لم يلبث ذلك كله أن جعله موضوع خوف ووجل كبير من جانب علماء عصره الذين كانت تربطهم بالسلطات الزمنية روابط وثيقة ، ويخشون من بطش هذه السلطات وقوتها . ولذلك فقد كانت زيارته للقاهرة في هذه الآونة مليئة بجملة صعوبات منشأها أن السيد لم تطب نفسه للإقامة في الأزهر في وقت كانت تسود فيه هذه المؤسسة الدينية القديمة علاقات شديدة بالرسومية ، تربط علماءه وشيوخه بالسلطات القائمة — حكومة محمد علي الكبير — أو بكبار الرجال (العثماني) . فلم يجد فيه بغيته من الاهتمام بالعلم والروحانيات بالدرجة التي كان يتوقها أو يرجوها . ثم لم تلبث أن زادت متاعبه عندما وجد بعد فترة قصيرة أن يبدأ هو بإلقاء الدروس بدلا من الاقتصار على تلقي العلم وحضور الدروس ، على أمل أن يستطيع نشر دعوته وأن يبك تعاليمه . فأثار بعمله هذا معارضة شديدة من جانب شيوخ الأزهر وعلمائه الذين عدوا السيد متطرفا في آرائه الدينية وتعاليمه . ثم زادت معارضتهم له لدرجة أن انبرى أحدهم (الشيخ الحنيس) مخطئا السيد وطلب من جمهور المسلمين الابتعاد عنه كبتدع في الدين . ويقال إن الشيخ الحنيس هذا حاول زيادة على ذلك أن يدس السم للسيد للتخلص منه .

ومع أن السيد السنوسي لم يلبث أن غادر القاهرة إلى الحجاز بعد هذا الحادث ، فقد أتاحت له الفرصة كما سيأتي لزيارة القاهرة بعد ذلك في طريق أسفاره بين الحجاز والمغرب ، وكان لهذه الزيارات خصوصا في أيام محمد علي الكبير أثر ظاهر في تفكير السيد وشدة تمسكه بعقيدته وهي التي كانت تدعو في جوهرها إلى إصلاح العالم الإسلامي ونشر ألوية

الدين الخفيف . ولم يكن السيد مرتاحاً إلى نوع الحكم الذي أقامه محمد علي باشا في مصر بلجة أسباب : منها أن حكومة الوالي الكبير ما كانت تنظر إلى العلماء بتلك العين التي تعود من سبقه من الولاة أن ينظروا بها اليهم . زد على ذلك ما كان السيد يشعر به من غضاضة وألم بسبب انصراف الوالي العظيم عن دعوة نقباء الأمة ، لاستشارتهم في تدبير شئون الحكم ، وكذلك لم تبهر نظر السيد تلك الانتصارات التي أحرزها محمد علي باشا في نضاله مع السلطان العثماني صاحب الخلافة في العالم الإسلامي ، كما لم تظفر بإعجابه وتقديره تلك الإصلاحات الواسعة التي حاول بها محمد علي إنشاء حكومة مدنية قادرة وفي استطاعتها السير إلى جنب الدول الأوروبية في طريق الحضارة وال عمران . فكان للسيد في ذلك كله آراء لم يتحول عنها ، ووصل من مشاهداته إلى نتائج زادته إيماناً وثقة بما كان قد أخذه على عاتقه ووطد العزم على تحقيقه منذ زمن بعيد ولعل أهم ما أحدثته زيارة السيد الأولى للديار المصرية من آثار ما ذكره المؤرخ التركي شهبندر زاده أحمد حلي في قوله : « وقد أحدثت هذه الزيارة في نفسه تبديلاً عظيماً وانتقش في ذهنه أن الدولة العثمانية العظيمة في طريق الانحطاط والاضمحلال . » وكانت لهذه الملاحظة جملة نتائج ، بعضها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموقفه من الخلافة عموماً من ذلك الحين ، والبعض الآخر يتصل بجهوده المباشرة في سبيل إحياء العالم الإسلامي ويقظته . وكان أول ما هداه إليه الفكر أن ضعف الدولة العثمانية كان السبب في عجزها عن دفع شر الغزو الفرنسي عن بلاده (الجزائر) ، كما أن هذا الضعف نفسه قد أفضى إلى انتصار محمد علي باشا في مصر . وكما كان السيد يأخذ على الدولة العثمانية تقصيرها في دفع الأذى عن أحد الأقطار الإسلامية وإخفاقها في الاضطلاع بالمسئولية الملقاة على عاتقها كدولة الخلافة والإمامة العظمى ، كان يجد هذه الدولة بسبب ما جرته على نفسها من ضعف وعجز مسئولة أيضاً عن تمكين العناصر التركية ، من الغلبة على شعوبها العربية وإقامة الحكومة الاستبدادية في بلاد هذه الشعوب . وعلى ذلك فإن دولة الخلافة القائمة كانت في نظره مقصرة في أمرين : الذود عن بيضة الإسلام وعدم دفع الأذى عن شعوبها العربية ، ثم ما يقوله المؤرخ التركي السابق من أن السيد كان يعد استيلاء محمد علي باشا على مصر ، نتيجة لشدة حرص الأتراك على حكم العالم العربي واضطهاد العربي ثم محوا لشخصيتهم . ، والحقيقة أن السيد رحمه الله ما كان يرى في إصلاحات محمد علي باشا في مصر سوى « الإفراط والمبالغة » الذي جعل هذه الإصلاحات المفيدة « من الأمور التي يقصد بها — كما رأى السيد — الإستهفاف بالحقوق الإسلامية والاحتقار للجنسية العربية ، والظاهر أن مفكرى الإسلام في ذلك العصر والعصر الذي يليه ما كانوا يختلفون في هذا المعنى عند النظر في الإصلاحات التي تمت على أيدي الوالي الكبير في مصر . ودليل ذلك ما وجهه

اليها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده نفسه من نقد لاذع ، وتبعه في هذا تلميذه ومؤرخه السيد محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار الإسلامية المشهورة . فإذا أضفنا إلى الجناية، التي ارتكبتها دولة الخلافة في عدم الدفاع عن الجزائر ثم إتاحتها الفرصة بسبب عجزها لإقامة حكومة «مستبدة» في مصر لاتستند إلى الشورى في ممارسة شئونها ، أن السيد كان يأخذ « بفكرة لزوم الخلافة الإسلامية بيد شريف قرشى » ، لأدركنا حقيقة موقف السيد من هذه الخلافة . حقيقة ذكر (لوى رين) Louis Rinn أن هدف السنوسية كان « الإمامة » ، أو تشييد صرح الدولة الشيوقراطية (التي يدير شئونها رجال الدين) في العالم الإسلامى ، ولو أن السنوسية في رأيه ما كانت تريد الوصول إلى ذلك عن طريق العنف وإشعال الثورات ، أو بالاتفاق مع الدول المسيحية أو الأخرى الإسلامية التي كانت تبغى إزالتها من الوجود ، حتى يتسنى لها إنشاء هذه « الإمامة » ، لأن كلا الأمرين كان يضعف مركز السنوسية ويمنعها من تحقيق غايتها في النهاية . ومع هذا فإن الباحث لايجد دليلاً ما على أن « الإمامة » كانت هدف السنوسية في مختلف أدوارها ، سواء في عهد مؤسس الطريقة نفسه السيد محمد بن على السنوسى الكبير أو في عهد خلفائه كما سيأتى بيانه ، بل إنه كان من الواضح أن منشأ نقد السيد السنوسى لدولة الخلافة في عصره ، كان رغبته في أن تظل الدولة العثمانية ، مادامت قائمة ، وما دامت دولة الخلافة — ذلك السياج الذى ينبغى أن يحيط العالم الإسلامى ويدفع عنه عدوان المعتدين ، كما أن كل ما أحدثه إخفاقها في تحقيق هذه الرغبة وكونها — دولة الخلافة — لاتستند إلى أساس وشروط صحيحة في تأليفها وقيامها ، هو أنه صار متباعداً عنها . ولم يكن من سياسة السيد وخطته مناصبة دولة الخلافة القائمة العداوة أو الخروج عليها .

والذى يهمنى الآن أن السيد كان يعزو السبب في اضمحلال دولة الخلافة من جهة ثم قيام حكومات في العالم الشرقى على غرار حكومة محمد على باشا في مصر من جهة أخرى إلى حقائق ظاهرة : هي أن المسلمين كانوا في حاجة ملحة إلى وجود المصلحين الذين يقومون بنشر الدعوة للدين القويم ، (وثانياً) تشتت كلمة المسلمين وتفرقتهم شيعا وأحزاباً ، وعدم تضافرهم ، ثم يركونهم إلى الاستبداد في الرأى وتفضيل أنواع الحكومة المطلقة على غيرها من الحكومات التي تأخذ بمبدأ الشورى وفق التعاليم الإسلامية الصحيحة . و (ثالثاً) خمول علماء المسلمين وتقاعدهم وتقاعد حكوماتهم عن نشر التعليم بين جميع الطبقات وتعلم الصنائع وتعميمها لسد حاجت الشعب ، وتعميم الرياضة واستعمال السلاح ثم تحجيب الفروسية إلى قلوب العامة والمحاصة ، كما أنه كان من أسباب تدهور الإسلام التسوية وعدم الإقدام على العمل . وظاهر أن السيد السنوسى الكبير ، إنما كان يتفق في الحقيقة مع ماذهب إليه من بعده حكيم

الشرق وفيلسوفه الأفغانى ثم تليذه الإمام الشيخ محمد عبده عهد وصف العلة التى أضعفت الاسلام وساقته إلى التدهور .

ولذلك فقد كان من المنتظر أن يصل السيد السنوسى من أعمال الفكر والرأى فيما شهد ولحظ إلى تيجتين هامتين ، لخصهما أيضاً المؤرخ التركى السابق فى قوله : إن أحدهما كانت تأكده من أنه فى حاجة عظيمة إلى تحصيل علوم كثيرة خلاف العلوم العقلية والنقلية التى استفادها أيام مقامه فى بلاد المغرب . فمع أن السيد السنوسى كان بعيداً عن أوروبا وعن التأثير بها ولم يكن عنده علم بما جدد فيها من اختراعات ونهضة فى جميع مرافق الحياة . . . فان الأسباب الحقيقية التى وقفت أوروبا للتقدم لم تكن مجهولة لديه ، لأن ماله من الدهاء والذكاء النادر المثال خوله الوقوف على أن تفوق أوروبا هو وليد العلم وثمره الأخلاق ، وأن هذه العلوم التى سببت هذا التفوق لم تكن هى العلوم النقلية والشرعية والمنطق واللغة فحسب كما ظن أولاً ، بل أهمها العلوم الصناعية والرياضة والفنون الحربية العملية . . . وأما النتيجة الثانية فهى تحققه من أن الحواجز والعقبات التى منعت تقدم الإسلام وعطلت اتحاده فى الآمال والأفعال ، إنما كانت اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحكم الفردى والاستبدادى ، والذى لاشك فيه أن آمال السيد من مدة طويلة كانت تنحصر فى اتحاد جميع شعوب الاسلام وتعاونهم على المصلحة العامة التى تضمن حقوق المسلمين وتمنع عنهم أطماع المعتدين .

* * *

هذا ولما كان غرض السيد الأول لا يزال الإكثار من تحصيل العلوم ، فقد قصد بعد خروجه من القاهرة الأقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج ، وحتى يظفر كما يقول أحد أفاضل الكتاب ، الشيخ محمد الأخضر العيساوى ، بمقابلة دضالته المنشودة ، وهو الشيخ الكامل الربى الذى طالما اشتاقت نفسه إلى لقائه ليتكلم به ، حيث أن (الديار الحجازية) مهبط الوحي وهى لا تخلو من ثمرات الرجال ، كما لا تخلو من الثمرات الأخرى ، كما نوهبت به الآية الشريفة .

ويذكر السيد محمد بن على السنوسى نفسه سبب خروجه من القاهرة ، فيقول إنه حدث ذات يوم عند فراغه من الوضوء فى الجامع الأزهر أن اصطدم بفلاح فقير غير متعمد لضيق الباب الذى هم بالخروج منه ، فقال الرجل : ولماذا تصنع معى هكذا ياسنوسى ، فتعجب السيد من مخاطبة الرجل له باسمه وسأله كيف عرفه وهو الذى لم يره فى حياته قط . فأجلب الفلاح بكلام يفهم منه أنه كان من أولياء الله الصالحين . فلما قال السيد إنه يكون إذن ذلك

القطب ، الذي ينشد لقائه منذ أمد بعيد أجاب الرجل : كلا . إن الذي تقصده موجود بمكة ، فعليك بالذهاب إليها . فلم يتردد السيد في مغادرة القاهرة بعد ذلك والسفر إلى الحجاز وكان هذا في أوائل الثلاثينات من القرن الميلادي الماضي .

وكانت زيارة السيد لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها . وساعد على هذا جملة أسباب . منها وجود السيد وإقامته بمكة وهي المدينة المقدسة التي يقصدها ويحج إليها المسلمون من مختلف الأقطار ، فأعطى السيد ذلك الفرصة حتى يقف على معلومات عظيمة عن أحوال وأخلاق المسلمين الواقفين على مكة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتباين طباعهم وكان السيد يتهم الفرصة لمباحثة جميع فضلاء ومفكرى الإسلام عند وفودهم إلى هذه الديار ، يتلقى عنهم المعلومات ، ويتعمق معهم في البحث والتحصيل ، حتى إذا اطمان إلى صدق نظرهم وعلو تفكيرهم وتشوقهم إلى خدمة الملة ورفع ألوية الإسلام عالية ، تحدث اليهم فيما يسعى إليه ويريدوه وبني النفس بتحقيقه وهو إصلاح أحوال المسلمين على أساس الاتحاد وجمع الكلمة والتآزر وشد الصفوف . وعندما استكمل السيد درسه وبحته واطمان إلى تفقه وعلو منزلته في الدين والعبادة أخذ يلقي هؤلاء الأفاضل الذين اجتمع بهم وخبرهم ووثق بطهارة نفوسهم الطريقة المحمدية التي عرفت فيما بعد باسم الطريقة السنوسية المشهورة ،

والحق أن السيد أقام بمكة مدة يشتغل بنشر العلوم وتحصيلها والمناظرة فيها واجتهد في دراسة المذاهب الإسلامية . وكان غرضه من هذه الدراسة الواسعة أن يحدد مخاطبة جميع العالم الإسلامي حتى يتسنى له إقناع هذا العالم باتخاذ مذهب واحد يعينه على الاتجاه نحو هدف واحد هو الاتحاد الإسلامي وسيلة الخلاص والنجاة ووقف ذلك (التدهور الخيف) الذي ما برح يزعم السيد ويقض مضجعه منذ طلبه العلم في حداته وصباه في بلده مستغاثم ثم في فاس .

وعلى ذلك فقد أخذ السيد بأرض الحجاز عن الشيخ سليمان العجمي حفيد أبي البقاء ومولاي عبد الحفيظ بن محمد ، والشيخ أبي حفص بن عبد الكريم العطار ، ثم الإمام أبي العباس أحمد بن عبد الله بن ادريس القاسمي مؤسس الادريسية ، وحصل على إجازتهم له ، ثم طفق بعد هذا يدرس الطريقة الشاذلية بجميع فروعها عن الإمام أحمد بن ادريس المشار إليه ، ثم الطريقة الناصرية عن الإمام ابن ناصر ، ثم القادرية عن العرائشي ، ثم التيجانية عن أبي العباس التيجاني نفسه . وقد سبق ذكر أثر هذه الطرائق كعامل حاسم من عوامل إحياء قوة العالم الإسلامي ويقظته في القرن الميلادي الماضي .

وكان من محاسن الصدق حقيقة أن وجد السيد السنوسي بمكة ، ضالته المنشودة ، العارف

بالله المربي السيد أحمد بن ادريس المتقدم ذكره . وكان سيدي ابن ادريس الفاسي رئيساً للخضيرية منذ ثلاث وثلاثين سنة ، فاجتمع به السيد ولازم دروسه ، وتوثقت العلاقة بين السيد السنوسي والشيخ ، فكان السيد لا يقطع أمرا دونه ، وكان الشيخ يشاور السيد في كل الشؤون ، وظل أمرهما على ذلك حتى ارتحل الشيخ إلى (صيا) اليمن .

وكان سبب ارتحال السيد ابن ادريس ما لقيه من عنف السلطات الحكومية ، ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار أنه كان لا يتفق في منهجه ودرسه مع ما اعتاد عليه هؤلاء العلماء من أزمان طويلة ، حتى صاروا يعدونه مبتدعا ، ثم انقلب نقدهم إلى اضطهاد اضطر بسببه السيد ابن ادريس إلى مغادرة مكة في النهاية إلى (صيا) العسير .

وأما السيد محمد بن علي السنوسي فقد تبع أستاذه إلى (صيا) ، وأقام معه هناك حتى توفي السيد ابن ادريس في عام ١٨٣٥ - (وفي قول عام ١٨٣٧) . وعند وفاة السيد ابن ادريس ، انضمت أقلية من أتباعه (الخضيرية) إلى سيدي محمد صالح المغربي وأسسوا زاوية في (دار خيزران) بمكة وسموا أنفسهم إدريسيين ، بينما انضمت الأكثرية إلى السيد محمد بن علي السنوسي ، الذي رجع إلى مكة ، ثم أنشأ بها زاوية في (جبل أبي قيس) في عام ١٨٣٧ فكانت هذه أولى زواياه . ثم أقام السيد بهذه الزاوية مدة ، يلقي دروسه وينشر تعاليمه ، حتى تضافت الأسباب التي دعت السيد إلى مغادرة مكة والانتقال إلى بركة في عام ١٨٤٠ .

فقد استطاع السيد بفضل ما أتاه الله من سعة العلم وطلاقة اللسان ودقة الفكر ثم ما حياه جل شأنه من ميزات أخرى عديدة أهمها شدة التمسك بالمبدأ والعقيدة مع لطف المعشر والهيبة أن يجمع حوله من التلاميذ والأشباع والمريدين أعداداً عديدة ، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه وينقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسنة في دروسه واقتفاء أثر السلف الصالح في إرشاده وتعليمه ، وإقامته للحجة على أن الاجتهاد لم ينقطع وهكذا ، - كما فعلوا مع أستاذه السيد ابن ادريس الفاسي من قبل زد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بالأخطار التي كانت ولاشك تهدد نفوذها من جراء التفاف كثيرين من الأهلين المتذمرين من السلطات العثمانية والعربية (الشريعية) معا بهذه الأقطار ، عندما كان السيد نفسه على عادته المعروفة يتعد كل البعد عن الهيئات الحكومية ، وتمنعه مبادؤه وتعاليمه ، ثم شمه وأباؤه من أن يسعى للتقرب منها أو نوال الحظوة عندها . وكان مما أعفاه السلطات الحكومية أن السيد ظل يتصل بأبناء أستاذه السيد ابن ادريس الفاسي في (صيا) وهي أرض وهابية ، وكان العداء مستحكما بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة وبين الوهابيين .

ومع هذا فقد كانت هناك أسباب أخرى دعت إلى ترك مكة والعودة إلى الأقطار اللبية (اللوية) ذلك أنه كان من بين المسلمين الذين اجتمعوا حوله عدد كبير من أهل طرابلس الغرب حضروا إلى السيد حتى ينالوا البركة منه ، وإن كانت أفهامهم تدق عموماً عن إدراك حقيقة تعاليمه السامية ، وقد وجد السيد أن يطلب منهم الاكثار من العبادة والتقشف والصوم على أمل أن يؤدي ذلك كله إلى تنقية نفوسهم وصفائها ، حتى إذا عجز ضعاف الإرادة عن سلوك هذا السبيل الصارم انصرفوا إلى شأنهم ، واستطاع أهل الزاوية — في أبي قبيس — أن يتفرغوا للدرس والعبادة . ومع هذا فقد ظل يكثر عدد هؤلاء المتحمسين للطريقة حتى حدث ذات مرة عندما كاد يشرف بعضهم على الهلاك من كثرة الصوم مدة طويلة ، أن ذهب أحدهم إلى قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، يشكو ما وصل إليه ويرجو الرشد والهداية ، فشهد السيد السنوسي بعد ذلك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في رؤيا ، يطلب إليه أن يعمل هؤلاء الأتباع والمريدون في بناء بيوت العبادة والزوايا ، فصعد السيد بما أمر به وتقرر أن يتأدر هؤلاء مكة لإنشاء الزوايا في البلدان الأخرى ، كما قرر السيد نفسه أن يعود إلى بركة لهذا الغرض نفسه . وكان انتقال السيد من الحجاز إلى بركة بدء انتشار الدعوة السنوسية في الأقطار اللبية .

الفصل الثالث

برقة وانتشار الدعوة

كان إنشاء زاوية أبي قيس بمكة المكرمة مؤذناً ببداية الدعوة الواسعة من أجل اتباع الطريقة السنوسية ، ثم قيام هذه الطريقة العتيدة وثبوتها في الأعوام التالية في أثناء حياة صاحبها ومؤسسها رحمه الله ، كشمعة من نور للإرشاد والهداية ، ودعامة من دعائم الدين الصحيح ، وأساس قوى لبنان إماراة لم تكن دينية وحسب ، بل جاءت أيضاً دنيوية يصلح بقيامها ووجودها حال المسلمين في الأقطار التي انتظمت تحت لوائها . ولذلك فإن حياة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير كانت تتميز في الفترة التالية بجهود السيد المتصلة من أجل تنظيم الدعوة ونشرها ورفع عماد تلك الإمارة الدينية والدنيوية العظيمة والتي سيطرت على أرواح ونفوس تابعيها ومريديها ومؤيديها حتى صارت من أعظم الأسس التي بنى عليها صرح الدين وقام عليها العمران في أفريقية الشمالية الغربية على وجه الخصوص حتى يومنا هذا .

وظاهر من تاريخ تأسيس هذه الدعوة وقيامها أن أرض الحجاز المباركة كانت الموطن الذي نبت فيه وترعرت ، حتى إذا نمت وازدهرت امتدت فروعها إلى الأراضي الليبية وتأصلت بها جذورها . وتاريخ الدعوة السنوسية من وقت إنشاء زاوية أبي قيس حتى وفاة مؤسسها وصاحبها قصة مجيدة من قصص الجهاد السليبي الرائع في سبيل نشر ألوية الإسلام الصحيح وهداية الناس إلى ما فيه صلاحهم دنيا وأخرى ، وقد غذى هذه الحركة المباركة ولا شك نشاط مؤسسها وصاحبها العظيم . وفي نظرنا يرتبط تاريخ انتشار الدعوة السنوسية بتاريخ السيد الكبير مؤسس هذه الطريقة ومبتدعها ، فيدخل في ذلك تتبع ظهور أمر السنوسية في الحجاز ثم انتقالها إلى الأراضي الليبية ، ثم وقوع اختيار السيد علي برقة حتى يكون هذا الاقليم مركز الدعوة وقاعدة تنظيمها . فانه مما لا شك فيه أن بقاء السنوسية كدعوة وإمارة إنما مرجعه جهود السيد السنوسي الكبير ومثابرته وبعد نظره إلى جانب صلاحه وورعه وتقواه .

أقام السيد بالحجاز مدة ، ثم ارتحل عنه إلى المغرب ، ثم عاد إليه بعد ذلك فعاش بأرضه المباركة فترة حتى غادر الحجاز إلى برقة مرة أخرى . وفي برقة استقر به المقام أخيراً في زاوية الجغبوب الشهيرة حتى وافاه الأجل المحتوم في عام ١٢٧٦ هجرية و١٨٥٩ ميلادية . فكان السيد

رحمه الله منذ تأسيس زاويته الأولى في أبي قبيس إلى وفاته دائب الحركة والنشاط منكبا على العبادة عاملا على نشر طريقته ، يؤسس الزوايا ويجمع حوله الأخوان والمريدين والاتباع ، ويضع أنظمة السنوسية التي كفلت لها اتصال الحياة والبقاء ثم متابعة الذبوع والانتشار من بعده .
أما في الحجاز فقد أسس السيد زاوية بالمدينة المنورة ، ثم جملة زوايا أخرى في أنحاء هذا القطر : في الطائف وجدة وينبع وبدر وغيرها . ثم ما لبث أن جاءت الوفود من كل مكان لتأخذ عنه الطريقة ، ولتنفع بنصحه وإرشاده وتجييب الدعوة إلى الدين القويم . وكان لطول بقائه في الحجاز في قرات متنوعة أثر كبير في سطوع نجمه وذبوع فضله حتى انتفع بعله ودينه وأدبه أناس عديدون وتخرج على يديه علماء كثيرون من أهل الحجاز ومن غير أهل البلاد من مشايخ المسلمين الذين قصدوا الحجاز وقتئذ للحج إلى بيت الله الحرام أو للإقامة به طلباً للعلم أو انقطاعاً للعبادة . وكان من أشهر الحجازيين الذين تلمذوا على السيد وانتفعوا بعله وصلحه وورعه الشيخ سيدي فالح الظواهري من الحراء بالحجاز ، وقد لازم هذا الشيخ السيد السنوسي الكبير ثم ارتحل إلى الجيوب وأقام بها عندما صارت هذه مقر الدعوة السنوسية العتيدة .

والحقيقة أن السنوسية سرعان ما ظهر أمرها في الحجاز وارتفع ذكرها حتى أصبحت تحتل مكاناً عظيماً في القلوب ، يهابها ويخشى بأسها ولساطانها القاصي والداني ، وآية هذه الهيبة وما كانت تحتله السنوسية من مقام رفيع في قلوب الحجازيين ، أن ركبها إلى الحج كل عام كان موضع احترام العرب الذين درجوا في هاتيك الأيام الخوالي على قطع الطرق ونهب قوافل الحجاج ، فما كان يعتدى على السنوسيين في حلهم وترحالهم أحد .

ومع هذا فإن السيد السنوسي الكبير ما كان ليرضى بالمكوث بالحجاز وحده وهو صاحب الدعوة الذي يريد ذبوعها بين أكبر طائفة وجماعة من أخوانه المسلمين . ولذلك فقد بات من المنتظر أن يحتل النظر في وسائل نشر الدعوة السنوسية مكاناً كبيراً من تفكير السيد ، وكان ولا شك من أهم وسائل ذلك ، التنقيب عن المكان الذي يصلح لاتخاذ مقرراً للطريقة الجديدة وركزاً لنشر الدعوة منه . ثم اهتدى السيد بفكره الثاقب ونظره البعيد إلى اختيار برقة مكاناً صالحاً لبث الدعوة والعمل على ذبوعها ووضع أسس تلك الأمانة التي لم يكن هناك مناص من قيامها إذا رغبت السنوسية — ولا يشك إنسان في أنها ترغب — في أن تهيم لاتباعها ومريديها ، وهم أهل برقة جميعاً ، الحياة الصالحة في الدنيا وفي الآخرة معاً .

والأسباب التي دعت السيد إلى هذا الاختيار عديدة ومنوعة ، يزجج بعضها إلى معرفة السيد لحقيقة أمر البيئة التي تتميز بها هذه البلاد من غيرها والتي جعلت منها كما سنرى أرضاً

صالحة لبث دعوة الإصلاح الديني الجديدة . وهذا بينما يتصل البعض الآخر بتاريخ هذه البقعة الليبية منذ أن بسط الأتراك العثمانيون سلطانهم عليها في منتصف القرن السادس عشر الميلادي والقرن العاشر الهجري .

وبرقة ذات تاريخ شيق حافل لاجمال للتوسع في ذكره الآن ، وإنما يكفي أن نذكر من قصصها أن أول ساكنيها كانوا اليونان الذين أسسوا في الأزمنة القديمة جملة مدن مشهورة منها بنغازي قصبة هذا الإقليم في معظم عصور تاريخها . وعندما فتح العرب هذه البلاد في القرن السابع الميلادي دخلها دين الإسلام واستتب بها الأمن وظهر العدل ونالت أرض برقة من العمران قسطاً كبيراً . وقد ظلت القبائل العربية تتوزع في أرجائها بعد ذلك حتى القرن الثاني عشر الميلادي . وعندئذ دب فيها الضعف ، وتلاشت قوتها تدريجياً ، إلى أن أغار العثمانيون عليها في أواسط القرن السادس عشر الميلادي ، فاستولوا على مدينة طرابلس الغرب ، ثم على بنغازي عاصمة برقة في عام ١٥٥١ ميلادية (٩٥٩ هجرية) . وفي ظل هذه السيادة ، ضم الأقليم (برقة وطرابلس) ومنح استقلالاً إدارياً فعدت (طرابلس الغرب) من إيلات الدولة العثمانية . مثلها في ذلك كمثل إيالة تونس وغيرها . وصارت الآستانة تعين الولاية لحكومتها ، حتى إذا كان عام ١١٢٣ هجرية (١٧١١ ميلادية) عينت الدولة لطرابلس وملحقاتها - (ومع طرابلس برقة) - أحمد باشا القرميني أو (القره مانلي) رب أسرة (القرامانلية) المشهورة والتي ظلت في حكم البلاد حتى عام ١٢٥١ هجرية ١٨٣٥ ميلادية . وقد احتل مؤسس هذه الأسرة مكانة عالية في نفوس الأهلين الذين رغبوا في تنصيبه واليا عليهم لما كان معروفاً عنه من العدل والإنصاف ، واعترافاً بما كان لمؤسس هذه الأسرة من منزلة سامية ، صدر من الآستانة أمر سلطاني جعل الحكم في طرابلس في عقب أحمد باشا القره مانلي بتوارثه الواحد بعد الآخر . وفي عام ١٨٣٥ أي بعد (١٢٧) عاماً تقريباً أبطلت الدولة العثمانية حكم هذه الأسرة وعينت والياً على طرابلس الغرب . ثم بعد ثلاثة أعوام فقط فصلت برقة من طرابلس وجعلتها ولاية قائمة بذاتها ، ثم ولت عليها حليم باشا ومركز حكومته في بنغازي « برقة » ، وجعلت على أشقر باشا (عشقر على باشا) والياً على طرابلس في عام ١٢٥٤ هجرية و ١٨٣٨ ميلادية . وقد بقيت برقة وطرابلس في أيدي الولاة العثمانيين حتى عام ١٣٢٩ هجرية و ١٩١١ ميلادية ، وهو وقت إغارة الإيطاليين على هذه البلاد ، وقد ظلت بنغازي (برقة) تارة ولاية وأخرى لواء مستقلاً طوال هذه المدة .

وتنحصر أهمية هذا العهد العثماني بالنسبة إلى انتشار الدعوة السنوسية في البلاد الليبية ، ثم اتخاذ برقة ذاتها مركزاً تدار منه هذه الدعوة وأقلها يشهد لإنشاء وتأسيس الإمارة السنوسية

في جملة مسائل ، بعضها سياسي والآخر اجتماعي . فانه مما يجدر ملاحظته أن العثمانيين حين بسطوا سيادتهم على هذه البلاد ، ما كان نفوذهم في الحقيقة يتعدى السواحل وبعض المدن والموانئ التي كانت قريبة من متناول أجنادهم وأسطولهم ، وكانت مراكز لولايتهم ومقرا لحكومة هؤلاء الولاة . وأما دواخل البلاد — إذا تغفل المرء جنوباً ضارباً فيافي الصحراء الليبية — فقد ظلت بعيدة عن سلطان الترك ونفوذهم ، يستقيم بها الامر لشيوخ القبائل العربية المتنقلة في أرجائها الشاسعة البعيدة وحدهم ولذلك رضيت الدولة العثمانية بأن تترك الحكومة في ايدي أسرة محلية مشهورة هي أسرة (القرامانية) ما يزيد على قرن من الزمان ثم ظل الحال على ذلك حتى ظن الأتراك أن في مقدورهم إدخال هذه البلاد النائية في حوزتهم قولاً وفعلاً . قولوا عليها الولاة من قبلهم وأعادوا احتلالها . وحاول هؤلاء الولاة جمع السلطة في أيديهم ، فنجم عن ذلك اصطدام بين قوى الحكومة وبين قوى الزعماء في داخل البلاد ، ونفر العرب نفوراً شديداً في برقة وطرابلس من هذا النظام الجديد ، وعارضوا الاحتلال . فاحتدم الشر بينهم وبين الأتراك مدة طويلة ، حتى بات الأتراك يتوقون إلى إزالة هذا الشر المستطير ، ووضع حد للخلاف والاصطدام ، وذلك باستمالة زعماء العرب وأصحاب النفوذ في البلاد . فكانت هذه الرغبة من جانبهم السبب الأكبر والمباشر الذي دعا العثمانيين إلى الاعتراف بالسنوسية ليس فقط كدعوة (وطريقة) بل كأمانة (وسياسة) كما سيأتي بعد .

أما من الناحية الاجتماعية فقد كان من أثر الضعف الذي ألم بالبلاد ، وتفشي الجهل بين القبائل ، ثم ضياع نفوذ الحكومة في دواخل هذه الأقطار ، أن انصرف الناس عن إقامة شعائر الدين واشتغلوا بأمر دنياهم . وما كان الاهتمام بالدنيا في عادات هذه القبائل المتنقلة والبعيدة عن نفوذ الحكومة وسلطانها سوى الامعان في أعمال السلب والنهب وقطع الطرق على القوافل . ولذلك فقد كان أهل هذه الأقطار أشد الناس حاجة إلى الارشاد لمعرفة قواعد دينهم ، والتحلي بأداب الإسلام العالية حتى يصلح حالهم دنيا وآخرة . فاذا تذكرنا أن الانحطاط الميستوي على الحكومة العثمانية في ذلك الوقت كان لا يجعلها تفكر في ضبط مقاطعة (مجهولة ، كبرقة لا نفوذ لها بناتاً في دواخلها . وإذا تذكرنا أن صاحب الدعوة ، وكل إنسان يريد تحويل الناس عما ألفوا وسوقهم إلى إتجاه غير ما عرفوا ، ينبغي عليه أن يختار مكاناً صالحاً لنشر دعوته : أولاً ، من حيث توقعه أن يقبل أهل هذا المكان الدعوة وأن لا يبدوا أية معارضة أو مقاومة لتعاليمه وآرائه . وثانياً ، من حيث أن يكون المكان مرتبطاً بالأجزاء وغير متفكك ، ويتوسط الأقطار التي يريد صاحب الدعوة نشر دعوته بها ، ويسهل الاتصال

بينه وبين هذه الأقطار . وإذا تذكرنا أن السيد السنوسي الكبير قد أكثر في تنقله وأسفاره من زيارة أقليم برقة وشاهد ما كانت عليه القبائل في هذا الأقليم ، غارقة في بحار الجهالة ، دأب (أهلها) السلب والنهب وقطع السبيل ، ، لأدركنا قيمة الدوافع التي جعلت السيد رحمه الله يختار برقة مركزاً لدعوته . زد على ذلك أن منطقة الجبل الأخضر ذات خصوبة عظيمة ويصلها بالعالم الخارجي نفرا بنغازي ودرنه ، كما تمر بالجبل الأخضر جميع القوافل الذاهبة إلى طرابلس الغرب وفزان ومصر وبرنو وواداي ، أو تلك الآتية من كل من هذه البلدان وما يجاورها . ولذلك تستطيع السنوسية أن تجد في جميع هذه الاتصالات سبلا مهيأة لنشر دعوتها وبسط نفوذها ، وهو نفوذ في جوهره لا يعني غير إقامة الدعوة لعمل المعروف والابتعاد عن فعل المنكر ، ونشر تعاليم الدين الصحيح ، ومكافحة ذلك « التدهور الخفيف ، الذي كان يهدد الإسلام ويخشاه السيد الكبير من زمن بعيد .

وعندما تم رأى السيد وصحت عزيمته على تأسيس الزوايا في برقة واتخاذها مركزاً لدعوته وكان مطمئناً إلى ظهور واستواء طريقته بأرض الحجاز ، قرر الرحلة إلى الأقطار الليبية . وقد ذكر السيد أحمد الشريف — حفيد السيد — خبر هذه الرحلة في رسالة كبيرة نجت أجزاء منها من التلف ، كتبها السيد أحمد بخط يده ، راوياً ما سمعه من سيدي محمد بن الشفيح الذي صحب السيد محمد بن علي السنوسي الكبير من وقت خروجه من الحجاز ، فقال إن السيد غادر مكة في آخر ذي الحجة ١٢٥٥ هجرية (٢٩ فبراير ١٨٤٠) ، قاصداً المدينة المنورة للوداع ، فأقام بالمدينة سبعة أيام ، ثم ارتحل منها إلى (ينبع) فوصلها في أواسط صفر من العام التالي (أبريل ١٨٤٠) ، وفي (ينبع) قسم السيد الإخوان إلى جماعتين : ركبت الأولى منهما البحر ومعها أسرة السيد على نية السفر إلى مدينة (قابس) على شاطئ البحر الأبيض غربي مدينة طرابلس ، بينما رافقت الجماعة الأخرى السيد نفسه . وكان رحمه الله معتزماً السفر براً إلى مصر ، ومنها إلى المغرب ، على أن يلحق بأسرته هناك . فقبل السيد بعد ذلك (بالخوراء) ، ثم غادرها إلى (الوجه) ، ثم إلى (المويلح) و (النخيلي) ، ومر (بآبارثمود) ثم بلغ (العقبة) فارتحل منها إلى (عجرود) ، وسار من (عجرود) إلى (البركة) بـ (بركة الحجج . وكان السيد في كل سفره هذا مراقباً للحمل المصري ، إلا أنه غير خالط برحله فيه . فلما وصل الحمل البركة ضرب المدفع في نصف الليل وأرسل المبشر تأخر الأستاذ (السيد محمد بن علي) رضي الله عنه بمن معه . فلما وقف الحمل يتهباً للدخول ، تقدم (السيد) ومعه جماعة من الإخوان وتأخر الباقون عند الأثاث ، ودخل مصر (رحمه الله) ليلاً . وكان وصول السيد إلى مصر في منتصف ربيع الأول ١٢٥٦ هجرية (١٧ مايو ١٨٤٠) ، فضرب

(خيمته) بالحصوى ، وهى خارج البلدة ، بينما نزل رحمه الله عند الشيخ محمد بوراده . حتى إذا كان اليوم الرابع ، أرسل إلى الإخوان وأمرهم بالدخول إلى البلد ونزلوا عند الشيخ عمر الزوارى فى بولاق وأقاموا بها ثلاثة أشهر ، . ولا يذكر السيد أحمد الشريف فى تاريخه شيئاً عن نشاط السيد فى أثناء إقامته بمصر فى هذه المرة .

وفى أغسطس ١٨٤٠ غادر السيد مصر (بولاق) ويم وجهه شطر القيوم ، فبلغها بعد ثلاثة أيام ونزل عند الشيخ زيدان بو منديل ؛ ثم قصد إلى (البهنسا) ومنها إلى (الواح البحرية) ، « ونزل بمحل يقال له (مندبشه) وأقام بها أربعة أيام وارتحل منه إلى (الزبود) وأقام بها يومين ، وارتحل منها وسار أربعة أيام ، ودخل بلدة (سيوه) ونزل بمحل يقال له (الطنبسى) وهو خارج البلد ، فأقام به ثلاثة أشهر ، مرض فى أثناءها بالحصى فنقله الإخوان وكان منهم سيدى عبد الله التواتى إلى بلدة سيوه ذاتها . ويقول السيد أحمد الشريف أن مدة السيد بسيوه كانت تسعة أشهر . « وفى مكوثه هناك سود مسودة لسيدى محمد بن الشفيح يريد كتابتها لسيدى محمد الفهارى وسيدى محمد الخالدى ومن جملة ما قاله لهم فيها ، نحن متوجهون إلى جهة المغرب عندنا ولد هناك مرادنا نجتمع به ، . ثم ارتحل السيد من (سيوه) قاصداً إلى (جالو) ، وكان معه جماعة من المجابرة . فقطع المسافة فى اثنى عشر يوماً ، ثم ارتحل من (جالو) إلى (أوجله) . ثم سار إلى برقة الحمراء ، « ونزل عند قبيلة الواطلى ، ومنهم رحل إلى برقة البيضاء ونزل عند الشيخ على الأطيوشى ، وصار مع (السيد) فى أرض (سرت) سبعة أيام إلى أن وصلوا إلى (الهيشه) . وبين (سرت) و (الهيشه) ستة أيام ، وتلقاه عيلت (عائلة) المنتصر فحلوه وساروا فى خدمته إلى (مصراته) ومن (مصراته) إلى (طرابلس) ، . وكان وصول السيد إلى طرابلس فى أواسط جمادى الثانية ١٢٥٧ (أوائل أغسطس ١٨٤١) . وكان والى طرابلس وقتئذ أشقر على باشا (عشقر على) ، وله محبة عظيمة فى الأستاذ ، فخرض (أسرة) ابن المنتصر على خدمته . وأن يقدموا له كل ما يجب من الخدمة والاحترام والاتصال به وأقام السيد عند عائلة ابن المنتصر بأبنيتهم التى بالمنشية سبعة أيام ، وفى اليوم الثامن توجه قاصداً قابس ، فزل أولاً (بأزواره) ومكث بها مدة ، ثم سار إلى قابس ، وهناك التقى السيد بأهله والإخوان الذين أركبهم البحر من (ينبع) فسبقوه إلى الغرب قبل وصوله إلى طرابلس بمدة طويلة .

بيد أن إقامة السيد بقابس كانت قصيرة ، لأن الفرنسيين وقت وصوله كانوا قد بسطوا سلطانهم على بلاد الجزائر (منذ حملة ١٨٣٠) ، ومنذ أن علموا بوصوله أخذوا يدبرون الخطط من أجل القبض عليه وذلك لأنه أحد أهالى الجزائر ، فقرر السيد عندئذ الخروج من قابس

بكل سرعة ، فغادرها فجأة إلى طرابلس ، هو وابن الحاج المغربي وعبد القادر المكاوي سايس الخليل ، هم الثلاثة لا غير ، ، ويقول السيد أحمد الشريف في (تاريخه) أن هذه الرجعة (كانت) بانزعاج منه وما كان الإخوان يظنون ذلك ، وكان مراد الكفرة الغدر به هناك ، وكان وصول السيد إلى طرابلس في رمضان ١٢٥٧ (سبتمبر ١٨٤١) .

وبعد قدومه إلى طرابلس بشهرين ، أتى الإخوان الذين بقابس بأهل بيته والأثاث الذي معهم ، ومكث (السيد) بعد مجيء الإخوان شهرين ، واجتمع سيدي أحمد بن فرج الله الفيتوري بالأستاذ في تلك المسدة ، وكان درقاويا ، فأخذ عن السيد الطريقة المحمدية ، وشكى له من ضعف حاله فأمره الأستاذ أن يلحقه بأهله في الجبل الأخضر ، . وقد أركب السيد أهله والإخوان الذين جاءوه من قابس البحر إلى بنغازي ، ، وعند وصولهم إليها ، حملتهم عائلة الكزة إلى وطن البراعة ، وحملهم البراعة إلى محل الزاوية البيضاء وشرعوا في تأسيسها قبل قدوم الأستاذ رضي الله عنه ، . وأما الأستاذ فقد ارتحل من طرابلس قاصداً بنغازي بعد ذلك ، بطريق (سرت) و (العقيلة) ، فبلغها قبل حلول رمضان من العام التالي ثم أقام بها طول شهر رمضان ١٢٥٨ (٦ أكتوبر — أول نوفمبر ١٨٤٢) . و أتى هناك رجل من العواقر من قبيلة عائلة الكزة بأناس معه ، وحملوه إلى الزاوية البيضاء ، . فبلغها في أواخر شوال من العام نفسه ، ومكان الزاوية قريب من ضريح سيدي رافع الأنصاري . فكانت (البيضاء) هي ثاني الزوايا التي أسسها السيد بعد زاوية (أبي قيس) ، ولكنها كانت أهم الزوايا إطلاقاً لأنها تعتبر ولا شك أم الزوايا ، والمكان الذي انبثق منه نور الطريقة المحمدية ، والدعوة السنوسية العتيدة .

وأما هذه المرحلة من نشاط السيد ، أي منذ أن غادر القاهرة حتى وصل إلى الزاوية البيضاء (أغسطس ١٨٤٠ — نوفمبر ١٨٤٢) ، فقد تميزت من غيرها من مراحل جهاد السيد ونشاطه في الدعوة للدين الحنيف ونشر الطريقة المحمدية السنوسية بجملة أمور كانت ذات شأن في استتباب الأمر للدعوة السنوسية في أرض برقة وطرابلس نهائياً وبزوغ أنوار هذه الطريقة ، يحمل أتباعها والإخوان ألوية الدعوة إلى دين الله الحنيف إلى قلبه أفريقيا الغربية ، وعلى وجه الخصوص بين الوثنيين (أو الفيتيشيين) المنتشرين بين تخوم السودان وشواطئ المحيط الأطلسي . فقد عمد السيد في أثناء رحلته الطويلة من مصر إلى بنغازي إلى إرشاد أهل البلاد التي مر بها إلى قواعد الدين الصحيح ، ونشر ألوية السلام والإخاء بين القبائل المختلفة القاطنة بها ، يدعو أهل القبائل وساكني البلاد والقرى إلى نبذ التباغض والتنافر ، والإقبال على التعاضد والتآزر والتعاون فيما بينهم ، كما حجب إلى نفوسهم العدل

ونهاهم عن إتيان المنكر ، ونشر بينهم الفضائل الإسلامية ، وأثمرت دعوته هذه إيما إثمار حتى بات يوجد في كل بلد وقرية وحي من أحياء العرب جماعة من الوجوه والأشراف يفصلون بين الناس فيما يقع بينهم من خصومات بدون أجر أو مكافأة . بل بمحض حبهم - كما قال أحد المؤرخين - لإحقاق الحق الناتج عما غرسه فيهم هذا المصلح العظيم من الروح السامية والأخلاق العالية . فانصلح حال أهل هذه الجهات ، واطمأن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم بفضل هديه وإرشاده . ونجم عن نجاح دعوة السيد عل هذا الوجه إتساع دائرة محبيه ومريديه وتعلق نفوسهم به وازدياد شأنه رفعة بين الأهلين ، فأولوه ثقتهم العظيمة ومحبتهم . وكان في هذا كله منبت تلك الثقة التي تمتع بها السيد السنوسي الكبير ثم خلفاؤه من بعده ، وما صار الأهلون في الأراضى اللبية يعلقون على السيد وعلى آله وبنيه آمالا كباراً ، يستقيم بتحقيقها أمر دينهم وتصلح حال دنياهم .

وكان هذا الأثر الذي أحدثه وجود السيد بين الأهلين العرب كبيراً وظاهراً ، حتى أدركت السلطات العثمانية في البلاد خطورته ، فصارت تفكر في أجدي الطرق التي تكفل لها الانتفاع بهذا الأثر في إخماد الفتن والقلقل التي اشتعلت نارها وعظم ضررها ، على الخصوص في ولاية طرابلس منذ أخذت الدولة العلية على عاتقها احتلال البلاد وتوطيد سلطانها على نحو ما تقدم ذكره . ولذلك فإنه بمجرد أن قصد السيد مدينة طرابلس في طريقه إلى قابس ، ثم عند عودته إليها من قابس قبل ارتحاله إلى بنغازي ، أسرع والى طرابلس (أشقر باشا) بملاقاته بمفاوة بالغة وأكرم السيد إكراماً عظيماً ، ثم لم يلبث أن أخذ عنه الطريقة وصار من أتباع (الطريقة السنوسية) ؛ فظل السيد موضع إكرام وتبجيل طوال إقامته في طرابلس متنقلاً بين مدن طرابلس ومصراته وسرت (١٢٥٧ هجرية) . فكان هذا العمل من جانب الوالى التركي اعترافاً ظاهراً بالمركز الرفيع الذي يتمتع به السيد ، ثم اعترافاً بحاجة دولة العثمانيين إلى الاستفادة من نفوذ السيد وعلو قدره لإصلاح ما كان قد فسد من علائق بين الترك والعرب من سبع سنوات مضت تقريباً ، الأمر الذي يدل في جوهره على حقيقة أخرى : هي أن سلطان العثمانيين ما كان يتعدى المنطقة الساحلية بمدنها الكبيرة ذات العدد القليل ، وأن الدولة كانت في حاجة واضحة إلى يد قوية تستعين بها في ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات في داخل البلاد . وما كان لأحد غير السيد الكبير بما ظهر من تعلق العرب به واصغائهم لنصحه وإرشاده ، أن يتمكن من إسداء هذا المعروف لمصلحة السلم والطمأنينة واجتماع الكلمة ونبذ التنافر والحصام بين جميع المسلمين وشعوبهم . ولم يكن السيد إلا داعية عظيماً للاتحاد ويقظة العالم الإسلامى . وقد أثمر اعتراف

الدولة العثمانية — عن طريق واليها في طرابلس — بالإمارة الواقعة للسيد السنوسي الكبير خير ثمرة ؛ فكانت العرب تحترم أوامره وتطيع الأتراك بناء على نصائحه . والسيد كان يرى في هذه الطاعة فائدة وقوة للمسلمين . ومن جهة أخرى ، ترك العثمانيون من ذلك الحين حكومة دواخل البلاد في أيدي السادة السنوسية . وهكذا شهد تاريخ السيد الكبير بداية هذه الحركة العظيمة تنتقل من مجرد دعوة إلى الدين الصحيح وإرشاد لاتباع أثر السلف الصالح ، إلى دعامة من دعائم الحكم في العالم الإسلامي ، وإمارة ، منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية . ولو أن آراء السيد بصدده هذه الخلافة ، وهي آراء سبق ذكرها ، جعلته يتعد ما أمكن عن ولاية الدولة ورجالها في بلاده . ومنذ أن أجمع العرب بعد وفاة السيد على اختيار ولده خليفة له صارت السنوسية (إمارة) وراثية في عقبه ، ثم بقيت هذه الإمارة تعترف بخلافة السلطان العثماني ، كما اعترفت بها وبوجودها (أي الإمارة) السلطنة العثمانية ذاتها ، كما يتضح من تاريخ السنوسية في الأديوار التالية .

وأما الأثر الثاني ، فكان بناء البيضاء (أم الزوايا) ثم إنشاء زوايا السنوسية بعد ذلك بالقطر الليبي . فإن أهل السيد وأخوانه بعسده أن ركبوا البحر ووصلوا إلى بنغازي من طرابلس على نحو ما تقدم ، لم يلبثوا أن وجدوا بها أشرف العواقر وهم عائلة الكزه وعائلة اللواطى ، ثم أشرف البراعصة ، وكان هؤلاء جميعاً في انتظارهم بالإبل ومعدات السفر ، فأركبهم إلى المحل الذي أسست به الزاوية وشرعوا في بنائها ، حتى إذا تم بناؤها رحل إليها السيد في الظروف التي سبق ذكرها . ولهذه الزاوية (البيضاء) في تاريخ السنوسية مقام كبير ، لأنها ، كما تقدم ، أول الزوايا التي أنشأها السيد محمد بن علي في برقة ، وزيادة على ذلك فإن بعض معمرى الجبل الأخضر كانوا إلى مدة قريبة لا يزالوا يذكرون أنهم سمعوا السيد يقول في أثناء بناء هذه الزاوية : « إن الأفرنج سيأتون يوماً إلى هناك ويهدمون قبة الصحابي سيدى رافع رضى الله عنه ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية البيضاء ، يأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه عبارات لاتينية » . ويذكر الأمير شكيب أرسلان ، أن هؤلاء المعمرين الذين سمعوا منه هذا الكلام رأوا مصداقه كله في آخر حياتهم ، لأن الطليان جاءوا وهدموا قبة سيدى رافع — وإن كانوا جددوا بناءها بعد ذلك — وربطوا خيولهم في مسجد البيضاء ، وأخذوا الحجر الذي عليه اللاتيني من الجدار ، والواقع أن السيد رحمه الله كان يتوقع سقوط هذه البلاد بأيدي (النابليان) أي أهل نابولي الإيطاليين . ولذلك فإنه عما تجدر الإشارة إليه أن السيد اختار للزاوية البيضاء موقعا (استراتيجياً) صعب المسالك ، ومن الميسور الدفاع عنه بعدد قليل من الرجال . زد على

ذلك أن السيد قد اتبع نظاماً خاصاً في إنشاء بقية الزوايا فاختر لها أمكنة على شاطئ البحر بحيث تبعد كل زاوية عن التي تجاورها مسافة ست ساعات . ثم أنشأ خلفها جميعاً زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها ، حتى إذا هوجمت الزوايا الأمامية التي بالشاطئ استطاع الإخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة إلى الزوايا الخلفية . وكانت (مسوس) القاعدة الأولى لهذه الزوايا ، وفي الجنوب زاوية الجنبوب المركز الرئيسي فيما بعد ، كما سيأتي بيانه .

هذا ، ولما دخل (السيد) الزاوية البيضاء مكث بها - كما يقول السيد أحمد الشريف في تاريخه - مدة قليلة ، ثم أتاه الخبر بقدم سيدي أحمد بن فرج الله (الفيتوري) إلى بنغازي ، فأرسل إليه أربعة جمال ، وأرسل معها ابن الحاج ليحمله عليها إلى الزاوية البيضاء ، وفي أوائل ذي الحجة ١٢٥٨ (يناير ١٨٤٣) ، حضر السيد أحمد بن فرج الله إلى الزاوية ، فلم يمكث بها إلا قليلاً حتى خطب السيد إحدى بناته في أوائل محرم من عام ١٢٥٩ (فبراير ١٨٤٣) ثم عقد عليها خارج الزاوية في محل يقال له (دنقره) ودخل بها ، ثم أعقب منها ذرية صالحة ، فولد له السيد الإمام محمد المهدي في محل يقال له (ماسه) في الجبل الأخضر في ذي القعدة من سنة ١٢٦٠ هجرية (نوفمبر ١٨٤٤) ، وكان السيد في درنة . ثم ولد له في أوائل رمضان ١٢٦٢ (أغسطس ١٨٤٦) السيد محمد الشريف بدرنة .

وقد خرج السيد بعد ذلك من برقة قاصداً الحجاز في عام ١٢٦٢ هجرية (١٨٤٦ ميلادية) فأقام به ثمان سنوات . وفي أثناء إقامته هناك طلب السيد أن يوجهوا إليه ابنه السيد محمد المهدي ، وكان قد توسط في السابعة مع زوج خالته والدة السيد محمد علي الغماري ، والسيد زين العابدين ، فارتحل به وصحب معه ابنة المرتضى فرকাশ التي تأهل بها السيد المذكور بعد سفر الأستاذ (أي السيد محمد بن علي السنوسي الكبير) من غير استئذانه ، وأتوا إلى درنة ، وأقاموا بها أياماً ينتظرون مركباً يوصلهم إلى الإسكندرية ، فلم يجدوا إلا مركباً توصل إلى خانيه ، فركبوا بها ونزلوا بنغازية ، وأقاموا بها شهرين وقدم إلى خانبة الحاج أحمد بن المنتصر من الحجاز وأكرمهم ثم أتت مركب مسافرة إلى الإسكندرية فركبوا بها ونزلوا بالإسكندرية ومكثوا بها يومين ، وسافروا بمركب غير الأولى ونزلوا بمرسى (آخر) ثم ارتحلوا إلى وادي النيل من قرية إلى قرية حتى وصلوا القصير ، فنزلوا في بحر القلزم قاصدين مكة يظنون أن الأستاذ بها ، فلقيتهم مركب كان فيها من أخبرهم أن الأستاذ بالمدينة . فولوا وجوههم شطر ينبع ثم ارتحل (السيد محمد المهدي) من ينبع إلى المدينة فاجتمع بالوالد ولما دخل في سن التاسعة ، سافر الوالد إلى مكة للحج وفي جمادى الثانية من سنة تسع

وستين (مارس ١٨٥٣) ، أرسل له بالقدوم إلى مكة ، فسافر منه المدينة في رجب يوم
عشرين منه ، (٢٩ إبريل سنة ١٨٥٣) .

وفي هذه السنة أيضاً (١٨٥٣) . أرسل السيد إلى الإخوان المقيمين بالجبل الأخضر
حتى يرسلوا إليه ابنه السيد محمد الشريف مع والدته وجدته السيد أحمد بن فرج الله الفيتوري ،
و قارتحل (السيد محمد الشريف) من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجدته سيدي
أحمد بن فرج الله ، ومروا على العقبة ثم منها إلى الاسكندرية ، ثم إلى كرداسة ، ثم إلى
مصر ، ونزلوا بيت الشيخ عمر الزواري وأقاموا به أياماً ، ثم إلى السويس ، وركبوا البحر
قاصدين جدة ، فلما وصلوا إليها نزل بعض من كان معهم ودخل جده ، ثم أتتهم ریح عاصف
فلعب بالركب حتى أيقنوا بالفرق وتقطعت الأشعة وآخر الأمر سلمهم الله تعالى ، ورمهم
الريح على الينبع ، فنزلوا بها وأقاموا أياماً للاستراحة ، ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة على
صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فزاروا الروضة الشريفة المعظمة شرفها الله ، ولما
اجتمعوا بالبasha الذي بها أهدى إليه هدية وهو كيس به مائة مجدي وساعة ذهب ... وكان
بزاوية الأستاذ بالمدينة يومئذ سيدي عبد الله التواتي ، فأكرمهم غاية الإكرام ، وأقاموا
عنده ثلاثة أشهر ونصف ، ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة في منتصف ذي القعدة الحرام سنة
تسع وستين (١٧ أغسطس ١٨٥٣) صحبة سيدي عبد الله التواتي . وبعد أن فارقوا المدينة
بأربعة أيام تخلف سيدي عبد الله التواتي عن القافلة لوجع برأسه وحى ، فنام هو ورفيقه
ليستريح ويلحق القافلة . فانقض عليه فجأة بعض العربان يريدون نهب الأمتعة والرواحل
فقتلوه وجرحوا صاحبه . وأرسل الوالي عسكرياً يحرسون (القافلة) من المدينة المنورة
إلى مكة . واجتمع السيد محمد الشريف بوالده الأستاذ في مكة المكرمة . ثم شاء المولى
سبحانه وتعالى أن ينتقم من المعتدين الناهبين الذين قتلوا السيد عبد الله التواتي ، فحلت بهم
الكوارث ، ونخرت أبدانهم الأمراض الخبيثة . فكان من أثر ذلك أن صار جميع الحرامية
بعد ذلك إذا سمعوا بأن الركب سنوسى يحضرون إليهم للزيارة ويأتونهم بالذبايح ولا يأذونهم
أبدأ بل يحترمونهم ويطلبون منهم الدعاء .

وفي أواخر ١٢٧٠ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) غادر السيد السنوسى الكبير أرض الحجاز
قاصداً (العزيات) بالجبل الأخضر ، فخرج من مكة إلى جدة ثم إلى الوجه ومنه إلى السويس
ثم إلى كرداسة ومنها إلى حوش ابن عيسى ، ثم إلى العزيات ، فكان وصوله إليها في غرة ربيع
الأول ١٢٧١ هجرية (٢٢ نوفمبر ١٨٥٤) . فلم ينقض عام واحد من وصوله إلى العزيات
حتى طلب إلى سيدي عبد الرحيم المحبوب السفر إلى الزوايا لتفقد أحوالها ، ثم أمره بالذهاب

إلى الحجاز حتى يحضر إليه ولده السيد المهدي إذا وجد ، الأحوال بالحجاز متغيرة ، أو يتركه إذا وجدها هادئة ، حتى يتم قراءته . ففعل السيد عبد الرحيم ذلك ، ولما كانت الأحوال هادئة بالحجاز فقد ترك به السيد المهدي ، وحج إلى بيت الله الحرام ونقل راجعاً إلى (الجنايب) وحدث في أثناء إقامة السيد بالعزيات أن قدم لزيارته (الشيخ محمد بلوا الدناوي) ، وقد دون الشيخ خبر هذه الزيارة . واستطاع أحد الإخوان حديثاً أن ينقل ما كتبه الشيخ من ورقة وجدت بزواية درنة ، ضمن أوراق قديمة عند ورثة الشيخ . وقد جاء في هذه الورقة ، ببعض التصرف « أنه لما قدم أستاذنا سيدي محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي رضي الله عنه من الحرمين بغرة ربيع الأول ١٢٧١ (٢٢ نوفمبر ١٨٥٤) ، ونزل بقصر العزيات وشرع في بيان زاويتنا ، توجهت قاصداً السلام عليه . وكان اجتماعنا يوم الجمعة الموافق لعشرين يوماً خلت من الشهر المذكور (١١ ديسمبر ١٨٥٤) وجلسنا بين يديه رضي الله عنه ، وتفاوضنا في رحلته وما وقع له في الطريق . قال رضي الله عنه ، كان العزم الذي خرجنا له زيارة القدس . ثم في أثناء السفر أتانا الإذن بالذهاب إلى هنا — (ثم بعد بعد حديث طويل في شؤون مختلفة) — أشار رضي الله عنه بالاستعداد ، فقال رضي الله عنه يجب على كل مؤمن أن يستعد ويأخذ هيئته ، ولم يصرح لي بالوقت . والملاحظ من إشارته رضي الله عنه القرب ، وإن كان قريهم بعيد أو بعيدهم قريباً . وقال رضي الله عنه في أثناء كلامه متى يقع الصلح العام تخلص أرضي طرابلس بصابة لأنت ولا تأتي فيما بعد ؛ وفي ذلك العام تؤخذ طرابلس الغرب وتونس والاسكندرية . . . فقلت له ياسيدي أي القرانات (يعنى الدول) يأخذ الاسكندرية ، فقال الانقليز (الانجليز) ، ثم قال رضي الله عنه إن النابيطان (أهل نابولي) أخذ طرابلس الغرب وسواحلها عام وفاة سيدي أحمد زروق وانزاحت أهل القرى والبادية إلى البساط وبنوا مثل هذا القصر ، ولعله من بنيانهم ، ولما فتحت طرابلس الغرب وسواحلها رجعت الناس إلى أمماتهم ، وأخذت طرابلس الغرب وسواحلها سنة ١٠٦٥ (١٦٥٥ ميلادية) ؛ وفتحت عام مرور سيدي أحمد بن ناصر إلى الحرمين ؛ ومن ذلك قد علم أن تؤخذ ثالثاً كما ذكر رضي الله عنه . ، وقد ذكر السيد أحمد الشريف خبر هذا الحديث بين الشيخ محمد بلوا الدناوي والسيد محمد بن علي الكبير في تاريخه .

وواضح أن توقع اغارة الطليان على طرابلس الغرب ، و (أخذها مرة ثالثة) كان السبب الذي دعا السيد إلى اختيار ذلك الموضع (الإستراتيجي) الذي شيد عليه الزاوية البيضاء ، ثم اختيار أما كن بقية الزوايا التي تم انشاؤها في عهده في الأراضي الليبية بالشكل الذي سبق بيانه . وفي الحقيقة كان أهم ما شغل به السيد منذ قدومه إلى برقة ، وفي المدة التالية لإنشاء الزوايا

في جميع أنحاء ليبيا في الجبل الأخضر وفي دفنا وبقية طرابلس الغرب وجنوبي تونس ، وهذا عدا الزوايا التي انشئت في مصر وبلاد العرب ومرزوق وضاك وغدامس وإنسالة وتوات ولدى التوارق وفي السودان حتى بلغ عدد هذه الزوايا عند نهاية حياته الاثنتين والعشرين ، منها ثمانية عشر زاوية في برقة وحدها . والمشهور من هذه الزوايا كثير ، فقد أمر رحمه الله أبا القاسم العيساوي أن يبنى زاوية طرابلس الغرب ، ثم زاوية الجبل الغربي ، وأمر الشيخ عبد الرحيم المحبوب أن يبنى زاوية بنغازي ثم زاوية أم شخنب . وأمر الشيخ مصطفى المحبوب أن يبنى زاوية دريانة وهكذا .

على أنه مما يجدر ذكره أن إنشاء هذه الزوايا المتعددة من جهة ، ثم انتشار تعاليم السيد وذيوع الطريقة السنوسية من جهة أخرى لم يلبث أن أثار عداة السلطات الحكومية (العثمانية) التي بدأت تخشى من سلطان السيد في الجهات التي أنشئت فيها الزوايا وكثر بها الإخوان والاتباع والمريدون خصوصا في الاقليم الذي كان يحده في الشمال شاطئ البحر الأبيض من الأسكندرية إلى قابس ، ثم يمتد صوب الجنوب إلى بلاد الزنوج ، أضف إلى هذا أن علماء الدين الذين ما كانوا يرضون بأي جديد — و « الجديد » في الطريقة السنوسية لم يكن في الحقيقة سوى تمسك صاحبها بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ، ثم قوله بأن الاجتهاد لم ينقطع وبابه مفتوح — سرعان ما زادت نفقتهم عليه ، خصوصا علماء وشيوخ القسطنطينية ومكة ومصر . ومن الأمثلة المشهورة على ذلك ما قصه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في كتابه (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) عند الكلام عن « عداوة علماء العصر للعلوم والفنون » فقال : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) — ومزاد الأستاذ الإمام السيد محمد بن علي السنوسي والد السيد محمد المهدي رحمهم الله ورضي عنهم — كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه من يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين ، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الأزهر الشريف ، فعمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سيلا غير سيلا المؤمنين ؛ وربما كان يجترى الأستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه ؛ وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقه الأستاذ المالكي . وفي التهميشة ، لناشر الكتاب الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، أن الشيخ المالكي ، وهو الشيخ (محمد) عيليش الذي كان ينكر على السيد جمال الدين (الأفغانى)

والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما في تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف ، . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الشيخ محمد عيش أحد الشيوخ المالكية في القاهرة انبرى في عام ١٨٤٣ (لتكفير) السيد السنوسي ونفى دعواه بعدم انقطاع الاجتهاد وبأنه في إمكانه مخالفة أئمة المذاهب المعروفة ما دام مستندا في اجتهاده الى ما جاء في الكتاب والسنة . فكان (تكفير) السيد بهذه الصورة أقصى ما بلغه العلو والتطرف في المعارضة من جانب المقلدين خصوصا .

وعلى ذلك فقد وجد السيد أن من الحكمة أمام ازدياد عداة السلطات الحكومية والعلماء المتمسكين بالقديم ، أن يتخذ مقراً جديداً لدعوته غير الزاوية البيضاء ، فان إنشاء هذه الزاوية بمحل قريب من الساحل جعلها في الحقيقة قريبة من سلطان حكومة بنغازي العثمانية التي لم تلبث أن زادت مخاوفها أيضاً عندما وجدت هذه الزاوية بعد فترة قصيرة من إنشائها تكاد تصبح مدينة كبيرة يقصدها الزوار من كل مكان ويلجأ اليها الكثيرون . فأراد السيد أن ينشئ زاوية غيرها تكون بعيدة عن الساحل وعن متناول سلطان الحكومة القائمة ونفوذها فاختار لهذا الغرض واحة الجغبوب . وكان اختيارا موفقا ، وبدل — كما قال أحد المؤرخين — على شدة تفكير وبعد غور في السياسة ، من جانب السيد . ذلك أن جغبوب كانت في مكان تكثر به القبائل العربية المستقلة والتي قبلت الدعوة السنوسية ودخلت في عداد الإخوان السنوسيين ، واصبح لذلك من المستطاع أن يعتمد السيد على أهلها في نشر دعوة الإسلام في مجاهل الصحراء . وفي الجهات المجاورة التي مازال أهلها حتى ذلك الحين على وثنتهم القديمة . زد على ذلك أن السيد رحمه الله كان يشعر بدنو استيلاء الأجانب على البلاد كما يظهر ذلك بما سبق ذكره . ففضل أن ينتقل الى الجنوب ويقم زاويته الجديدة في جوف الصحراء ، في مكان يصعب الوصول اليه ، فوق اختياره على الجغبوب وهي (سوقا) القديمة على مسافة ثلاثة أيام من سيوة . وكان يربط الجغبوب بداخل أفرقية الغربية حتى بحيرة (تشياد) طريقان : أحدهما شرقى ، من سوكنة إلى مرزوق ، والآخر غربى ، من غدامس والعمير . وكانت جغبوب في تلك الآونة واحة ملحة ياوى اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها . فلما اختارها (السيد) مقراله وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية . فغرس بها الأشجار ونسق الجنان واستنبت العيون وتوسع في البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مريدى الطريقة أجلس للتدريس فيها جلة العلماء .

وعندما قرر السيد الانتقال إلى الجغبوب ، ارتحل (رحمه الله) من العزيات آخر يوم

من محرم الحرام (١٢٧٢ هجرية) - ٢٠ سبتمبر ١٨٥٦ - قاصدا الجنبوب ، والمسافة التي بينه وبين العزيات - كما يقول السيد أحمد الشريف في تاريخه - مع الطريق المعتادة الآن بالأبل المثقلة هي ما بين الثمانية إلى العشرة أيام ، إلا أنه رضى الله عنه في سفره لم تكن طريقه ، لأنها لم تستعاد (أى لم تكن مطروقة) إلا بعده ؛ وإنما أتى على البطنان ، وهي المعتادة في ذلك الوقت ، إلى سيوه ، والآن مهجورة لطولها لا يمر معها إلا قليل ؛ وإنما المعتادة الآن هي طريق الحكيمات ، وهو وادى به صريح بجمع ماء السماء كان مردوما وأصلحه السيد العم رضى الله عنه (أى السيد محمد المهدي) ، كما أنه جعل ييرا بالدفنة التي بينهما طوله نحو الستين قامة ، بينه وبين العزيات نحو من يوم ونزل بالجنبوب في صفر ،

« ولما وصل الأستاذ الجد رضى الله عنه (السيد محمد بن على السنوسى الكبير) بالجنبوب سنة ثلاث وسبعين (أكتوبر ١٨٥٦) ، أمر سيدى عبد الرحيم (المحبوب) بالرجوع إلى الحجاز في تلك السنة ليأتيه بالسيد المهدي رضى الله عنه إلى الجنبوب ، فخرج سيدى عبد الرحيم إلى الحجاز فخرج بالسيد المهدي من مكة إلى جدة في آخر ذى الحجة (٢١ أغسطس ١٨٥٧) ونزل في بيت مصطفى قاضى الحضرى وهو رجل تاجر محب للأستاذ محبة قوية هونت عليه دنياه في جانبه ، فبذل أموالا لا تحصى فيما يعجب الأستاذ رضى الله عنه ، منها بناء زاوية بمجدة صرف عليها أموالا عديدة . . . (ثم) ارتحلوا من جدة ليلة هلال المحرم فاتحة سنة أربع وسبعين بعد المائتين وألف (سبتمبر ١٨٥٧) قاصدين السويس فى مركب شرعى ، ولم يتيسر لهم ريح يسيرها فوصلوا طور سيناء على خمسة وعشرين يوما من جدة ، بعد أن مر على الوجه والخوراء ومالها من المراسى ، ثم نزل الأستاذ العم (السيد محمد المهدي) ومن معه وهم سيدى عبد الرحيم وسيدى محمد الغمارى ليسافروا برا إلى السويس . . . ووصلوا السويس على ستة أيام من الطور . . . (ثم) ركبوا السكة الحديد إلى مصر وأقاموا ببيت سيدى أحمد الحلوى قريبا من شهر ينتظرون الرفقاء والغائبين بالبحر حتى قدم الغائبون ، وسافروا من (عند سيدى أحمد الحلوى) قاصدين سيوه ، فخرجوا إلى كرداسة . . . ثم وصلوا سيوه فى اليوم التاسع من المولد النبوى فحضروا المولد بها (و آخر أكتوبر ١٨٥٧) ؛ ثم سافروا قاصدين الجنبوب ، فوصلوا فى اليوم الرابع من سفرهم . . . وفى سنة خمس وسبعين أهله بالخالة أبة الجد السيد عمران بن بركة . . .

« ثم أرسل الأستاذ الجد رضى الله عنه (السيد السنوسى الكبير) إلى الوالد (أى السيد محمد الشريف) والد السيد أحمد الشريف صاحب هذا التاريخ ، بأن يقدم إلى ينبع ، أى ينبع البر ، ثم إلى الخوراء ؛ فخرج فى ركب عظيم من أشرف مكة نحو خمسين قاصدين

المدينة المنورة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم التوجه إلى ينبع ، ومنه إلى الحوراء .
قلما وصل بدر اخذ غدرية صغيرة وصار يحركه فيها فتكلمت في صدره ، وثبتت رصاصتها في
عظم كتفه ، فأثروا بمن له معرفة في فن الجراحة وشقوا عليها وأخرجوها ... ومكث بيدر
مريضا أربعة أشهر ، وتفرق ذلك الجمع وذهبوا إلى المدينة ، وزاروا ورجعوا إلا ما كنهم ،
وأرسل الأخوان الذين معه أجوبة لوالده الأستاذ الأكبر رضى الله عنه يخبرونه بما قدره
الله وقضاه على ابنه من الإصابة بالرصاص بيدر وأنهم يقيمون معه مجتهدون في معالجاته ،
وأرسلوا له الرصاص التي أخرجوها من كتفه والجواب مع سيدى محمد الزيتون وسيدى محمد
شمرا وأرسلوا له الجواب بخط الأستاذ الوالد ليكون دليلا على معافاته ... (ثم مكث ثلاثة
أشهر بالحوراء وهي على شاطئ البحر بينها وبين ينبع البر ثلاثة أيام ، ثم أتاه الطلب من
والده الأستاذ بالقدوم عليه بالجعبوب ، أواخر رمضان (إبريل ١٨٥٩) ... فارتحل الأستاذ
السيد محمد الشريف من الحوراء ثاني يوم من شوال (٥ مايو) وركب البحر إلى بلدة صغيرة
تسمى الوجه ، وأقام بها ثلاثة أيام ثم رجع إلى البحر مكدرا ونزل بالقصير ومنه توجه إلى البر
إلى أن وصل إلى الريف ، وتوجه منه إلى البحر فصار يمشى من بلد إلى بلد إلى أن وصل الواحات
بجهم غفير ، ومنها خرج في البر إلى سيوة مسيرة سبعة أيام . ومنها إلى الجعبوب ثلاثة أيام ،
وصل به يوم الجمعة آخر يوم ذى الحجة الحرام خاتم سنة خمس وسبعين بعد المائتين والف .
(٣٠ يولية ١٨٥٩) ،

على أنه حين قدوم ولده السيد محمد الشريف ، كان السيد نفسه يعاني آلام المرض الذى
بدأ رحمه الله يشعر به من منتصف شعبان ١٢٧٥ (٢٠ مارس ١٨٥٩) ، ثم اشتدت وطأة
المرض عليه ، وبقي المرض معه كذلك إلى انتهاء رمضان ، ثم ارتفع بعد ذلك إلى منتصف
شهر محرم فاتح سنة ستة وسبعين بعد المائتين والف ... (ثم) تزايدت عليه الأمراض وصار
يغيب أحيانا ويفيق أحيانا إلى أن دعاه مولاه فاجاب دعاه يوم الأربعاء بعد طلوع الشمس
في اليوم التاسع من شهر صفر الخير سنة ١٢٧٧ . ٧ سبتمبر ١٨٥٩ . هذا ، وبعد وفاته
الف (السيد عمران بن بركة) خطبة وصعد على المنبر وخطب بها يوم الخميس بعد صلاة
الظهر ، ودفن السيد (رحمه الله) يوم الجمعة بعد الظهر في البقعة الشريفة التي هو بها الآن
(بالجعبوب) . وصار جميع الأخوان ومن له قدرة على القراءة يقرأون القرآن العظيم بالمحل
الذى توفي فيه وعلى قبره ليلا ونهارا إلى أن تمت أربعين يوما بعد دفنه ، ثم بنيت عليه أولا
قبة صغيرة ثم في سنة اثنين وثمانين (١٨٦٥) جددت ووسعت وجلب من أجلها الأسطاوات
الماهرين من مكة المشرفة فكانت من عجائب الدنيا ومدة إقامته رضى الله عنه بالجعبوب قبل
وفاته سنتين وتوفي في أول السنة الثالثة في الشهر المذكور .

وكان السيد رحمه الله قد استطاع قبل وفاته أن يجعل من الجغبوب مركزاً لنشر الإسلام بين الزوج الوثنيين (أو الفيتيشيين) في واداي وفي الأقاليم المجاورة لها . فقد تغلغت السنوسية في عهد السيد في هذه الجهات وعلى وجه الخصوص في (واداي) ، التي قبل سلطانها محمد شريف أن يدخل الطريقة السنوسية في سلطنته وكان السيد رحمه الله قد أنشأ معه صلات وثيقة منذ قابله بمكة المكرمة في أثناء إقامة السيد بها ، وظل محمد شريف من أكبر أنصار السيد في مكة مدة ، وقبل وصوله إلى الحكم ، حتى إذا اعتلى عرش واداي في عام ١٨٣٨ ، وكان قد فطن إلى الفوائد العظيمة التي انتظر أن تجنيها بلاده من انتشار السنوسية بتعاليمها القويمة ، وما أخذه الإخوان على أنفسهم من تهذيب النفوس والإرشاد إلى الدين الصحيح طفق يعمل على تأييد الطريقة في بلاده كما ظل طوال مدة حكمه من أكبر أتباع السيد ومريديه والصادعين بامرهم والمستمعين لنصحه وإرشاده حتى وافته منيته في عام ١٨٥٨ . ويذكر (رين) Rinn أنه بما ساعد السيد أيضا على أن يجعل من الجغبوب قبل وفاته مركزاً لنشر الإسلام بين الوثنيين ، تمكنه من أعداد جماعة من هؤلاء الزوج أنفسهم للتبشير بالدين الخفيف في بلادهم . وتفصيل ذلك ان بعض البدو أغاروا على إحدى القوافل التي كانت تحمل عبيدا من أهل واداي ليعملهم في أسواق الرقيق ، وكان سطوهم عليها وهي لا تزال في طريقها إلى مصر على الحدود البرقاوية المصرية ، فاشتري السيد منهم جميع الرقيق ، وأحضرهم إلى الجغبوب . حيث أشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم في الزاوية ، ثم حررهم وأرسلهم إلى بلادهم (واداي) كي ينشروا الإسلام ويدعوا إلى الطريقة السنوسية بين الزوج . ومن ذلك الحين صار أهل (واداي) يحضرون بمحض إرادتهم إلى الجغبوب ، يتلقون العلم في زاويتها كما أقبلوا على الخدمة في بقية الزوايا السنوسية عن طيب خاطر .

بيد أنه مما يجدر ذكره أن السيد كان يلقي معاونة في نشر التعاليم السنوسية من جانب كبار الإخوان والشيخ ومن أمهم هؤلاء ، المقدم سيدي عبد الله السني المتوفى في سنة ١٨٧٧ ، ثم المقدم سيدي الحاج أحمد التواتي ، ثم المقدم سيدي عبد الله التواتي . فقد تم إنشاء سبعة زوايا على أيدي سيدي عبد الله السني في مصراته ومزده وأورفله وحرابه ، وسنوان ، ومتريس ، وتونن . بينما أشرف سيدي الحاج أحمد التواتي على إنشاء الزوايا في مريزوق ، وزويله ، وقطرونه ، وواو الشعوف ثم في فزان . وأما سيدي عبد الله التواتي فقد سبق ذكر طرف من نشاطه في الحجاز حيث قتل بالقرب من المدينة في عام ١٨٥١ .

وهكذا كانت السنوسية عند وفاة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير . قد توطلت أركانها نهائياً ، وانتشر نفوذها حتى قطعت شوطاً بعيداً في سبيل قيام الدعوة والإرشاد وتشديد دعائم تلك الأمانة التي صارت إلى جانب مالها من سلطان وروحي عظيم ، تتمتع بقدر كبير من مظاهر السيادة الزمنية الفعلية في برقة على وجه الخصوص .

الفصل الرابع

الإمارة السنوسية

أما وقد فرغنا من ذكر ذلك الجهد العظيم الذي قلم به صاحب الدعوة القويمة ومؤسس صرح الإمارة السنوسية العتيقة ، فقد بات النظر ضرورياً في أصول هذه الدعوة الجديدة ، ثم ما أحدثته ذبوعها في عهد صاحبها من آثار بين الأقاليم الذين اصطفاهم السيد السنوسي الكبير نصراء له وخلفاء يدعون إلى فعل المعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون الدين الحنيف على قوائم صحيحة تعتمد على الكتاب والسنة وتطهر الإسلام من البدع التي أدخلها عليه المحدثون وكثيرون من المقلدين بعد عهد السلف الصالح والخلفاء أو الأئمة الراشدين ، — عهد الإمامة العظمى الرشيدة قبل أن يجعلها الأمويون ملكاً عضوداً يتوارثونه في أعقابهم ويتبعهم غيرهم في ذلك ، حتى استنوا جميعاً سنة إمامة الضرورة والتغلب بالقوة . وكذلك فإنه لما كان الإسلام ديناً وسياسة ومنوطاً به تدبير شئون الدنيا وعالم الآخرة ، فقد ترتب على ظهور السنوسية في الأصقاع التي انتشرت بها صلاح أحوال أقوامها واستقامة أمورهم ، حتى إذا نضجوا وتغلغلت تعاليم الدين القويم في نفوسهم وعرفوا الهداية على أيدي السيد محمد بن علي السنوسي الكبير وعلى أيدي خلفائه من بعده ، تعذر عليهم الخنوع والخضوع وانقضى زمن تفرقهم القديم ، ووجدوا في السنوسية بوصفها دعوة وطريقة ما يسكون به زمام أنفسهم ويجمعون حوله كلمتهم حتى يعيشوا في بلادهم أحراراً قوامين على أنفسهم حافظين لدينهم وملتهم ، لا يقنعون إلا بالحياة الحرة الطليقة . وكان للسنوسية أن تفخر بهذه الزعامة التي اعتمدت منذ قيامها على الدعوة للحق ، بحمل الأخوان والأتباع ألويتها إلى مجاهل أفريقيا الوثنية ، فتبى السنوسية عرشها على الأقدرة والنفوس ، ويدعم بنيانها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فضيلة الإسلام كما أظهرها السيد المؤسس بهدى من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

وفي هذا البحث محاولة تفصيل ما أوجلتنا في بيان الأصول التي قام عليها صرح هذه الإمارة . وأولها الأصل الديني ، وهو ما تقتق عنه ذهن السيد بعد دراسة مستفيضة للعلوم الدينية ، وما اهتدى إليه من طريقة ينبغي بها إحياء الملة وإصلاح أحوال المسلمين . وثانيتها

الأصل الاجتماعي الذي توصل منه السيد إلى نشر فضائل الإسلام ، فكانت وسيلته إلى ذلك الزوايا التي أنشأها ، ثم تلك التي أنشأها خلفاؤه من بعده والإخوان في الأقطار الليبية وفي غيرها من الأقطار القريبة والبعيدة ، وما تبع ذلك من نشر ألوية الإسلام خفاقة بين الوثنيين من شعوب أفريقية الغربية خصوصا والسودان من أجزاء القارة المجهولة . وثالثها الأصل السياسي ، مما يتضمن القواعد التي قامت عليها إمارة السادة السنوسية . ويدخل في ذلك جهود السيد محمد المهدي خليفة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير . وقد نشر الله جلات قدرته دينه الحق في أفريقية الوثنية على يديه ووطد به وبعمله أركان الإمارة الجديدة .

والسيد محمد بن علي السنوسي الكبير مالكي ، درس أصول الدين الحنيف وتفقه فيه ، وكسب بفضل جهده وما تحلى به من صفات نبيلة ، ثم قيامه أمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر أقتدة القوم حوله ، فبوءوه بسبب علمه وتفقهه في الشريعة مكانا عاليا . وقد نفعه رحمه الله الاجتهاد ، فأصبح من كبار الأئمة المجتهدين . وللسيد الكبير دروس وأبحاث في الفقه ، هي أركان دعوته والأساس الذي بنى عليه الطريقة السنوسية المشهورة . من هذه البحوث والدروس ما هو الآن مطبوع . قام على ذلك وحرص عليه حفيد المؤلف وصاحب الإمارة السيد محمد ادريس المهدي السنوسي ، معقد آمال العرب في الأقطار الليبية وإخوانهم المسلمين في أقطار المعمورة . ومنها ما يزال مخطوطاً محفوظاً حتى يتم طبعه ، فيكمل الانتفاع به . إن شاء الله .

فن مؤلفات السيد محمد بن علي المطبوعة كتاب مشهور سماه صاحبه (كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد و خلاصة المراصد) . وكان الانتهاء منه في يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٢٦٤ هجرية (٢٣ أبريل ١٨٤٨) . ثم كتاب آخر سماه (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) . وعدا ذلك كتب السيد (المسائل العشرة) في الأحاديث النبوية ، كما يوجد بهامش كتاب (المسائل العشر) كتيب صغير اسمه (السلسيل المعين في الطرائق الأربعين) . وأما الكتب الأخرى التي لم تطبع ، فن أشهرها (المنهل الراقق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق) ثم (الشمس الشارقة في أسماء مشايخ المغاربة والمشاركة) ، ثم عمالة في أول من ألف في فن الحديث تصلح لأن تكون مقدمة للهوطاً . وللؤلف كذلك كتابة في التاريخ معروفة ، وكتابه (الدرر السنوية في أخبار السلالة الأدرسية) نقله أحد كبار شيوخ السنوسية في ديسمبر ١٨٧٦ ، وطبعه حفيد المؤلف في القاهرة عام ١٩٣١ .

و (الدرر السنوية) كتاب يشتمل على موجز أخبار من ملك المغرب منذ فتح المسلمون أفريقية في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأفرد المؤلف فصولا أقاص الكلام

فيها على دولة الأدارسة وفروعهم في البلاد المغربية وما جدده من الدين فيها ، ثم فصل خبر وفاة السيد إدريس الأكبر ، وسبب وفاة ابنه السيد إدريس الأزهر باني مدينة فاس . وختم كتابه بذكر الخلفاء الأربعة ثم خامسهم سيدنا الحسن السبط بن علي رضي الله عنهما . ثم أثبت ذكر خلفاء بني أمية جميعاً ، حتى إذا فرغ من ذلك اتبعهم بخلفاء بني العباس .

ولهذا الكتاب (الدرر السنية) قيمة كبيرة في تاريخ الأمانة السنوسية ، لأنه يتضمن تاريخ السلالة الطاهرة الشريفة التي ينحدر منها الأئمة السنوسيون ، حفدة الأدارسة الكرام أبناء إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة البتول بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهم سلالة الرسول الكريم والنبي العظيم وحفدة أشرف قريش ، وأصحاب الإمامة . كما قال السعد — وهو العلامة السعد التفتازاني ، وقد جاء في شرحه للمقاصد (مقاصد الطالبين في علم أصول عقائد الدين المطبوع في الآستانة ١٣٠٥ هجرية صفحة ٢٧١ من الجزء الثاني) ويشترط فيه — أي الإمام والخليفة — أن يكون مكلفاً مسلماً عدلاً حراً ذكراً مجتهداً شجاعاً ذا رأي وكفاية سمياً بصيراً ناطقاً قريشياً ، فإن لم يوجد في قريش من يستجمع الصفات المعتبرة ولي كنانى ، فإن لم يوجد فرجل من ولد اسماعيل ، فإن لم يوجد فرجل من العجم .

وإننا لنجد في كتاب السيد (المسائل العشر المسمى بغية المقاصد و خلاصة المراد) و (إيقاظ الوستان في العمل بالحديث والقرآن) ، إلى جانب ما كتب ودون البرهان الساطع على ما وصل إليه صاحبه من درجة إتقان الكاملة في العلوم الدينية ، كما أن (البنية) و (الإيقاظ) يتضمنان ما وصل إليه السيد من آراء أصولية نتيجة اجتهاد عظيم ، وهو الذي يجمع في شخصه ولا شك كل ما يشترطه العلماء في المجتهد من الشروط الوصفية والإيقاعية ، أي من الصفات القائمة به والأمر المحققة لإيقاعه . وغايته التمسك بالقرآن الكريم والسنة الشريفة والعمل بهما . فقد بدأ كتاب (المسائل العشر) بمقدمة لبيان جلاله مقادير السلف ثم اتبع المقدمة بمراصد ، فكان المرصد الأول في وجوه الهدى لسنة الأئمة الراشدين في فصول في المداهب والفتوى والقضاء ، وذكر النصوص المتعلقة بالتقليد والاجتهاد والفروق بينهما ، وبيان أنواع الاجتهاد والمجتهدين ، ثم الكلام فيما للأصوليين وللحديثين والفقهاء في العمل بالحديث وتفرقه فيه . وفي المرصد الثاني قصر السيد الكلام في كيفية صلاة أهل الاصطفاء في صفة صلاته صلى الله عليه وسلم ، ثم في آكد مبادئها المتصلة ، وصفة أقوالها وأفعالها المجملة ، ثم في كيفية الصلاة وفروعها وأركانها مفصلة . وفي المرصد الثالث ذكر نصوص الأئمة في المسائل العشر ، أي في حكم رفع اليدين في الصلاة ، والقبض والسككات

الثلاث وما يقال فيها وفي حكم الاستعاذة وهل هي للقراء أو للصلاة ، ثم في البسمة للفاتحة والسورة ، ثم في التأمين والتكبير لقيام الثالثة ، وفي السلام والخروج من الصلاة وفي القنوت ورفع اليدين حال الدعاء ، ثم في تطويل الصلاة وتقصيرها . وقد ختم السيد مؤلف هذا البحث بذكر أحوال القوم الفاخرة في تمهيد ثم سبعة فصول ، عن النفس الأمانة والنفس اللوامة والمهمة والمطمئنة والراضية والمرضية والكاملة . وفي كل هذه المقاصد والأبواب والفصول التزم السيد المؤلف أحكام القرآن الكريم ثم نصوص السنة الشريفة ، والمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما أجمعت عليه كلبة الأئمة الراشدين والسلف الصالح .

وأما كتاب (إيقاظ الوسنان) فكان مداره وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، وبيان أن دلالة الكتاب والسنة واحدة ، وتضمن أدلة وجوب اتباعهما وتقديمهما على رأى كل مجتهد وفي هذا الكتاب تصدى السيد المؤلف بطبيعة الحال إلى الكلام عن الحديث الشريف فذكر طرق العمل به لدى الأصوليين والمحدثين والفقهاء على غرار ما يتحدث به أيضا في كتاب المسائل العشر ، كما صار يتحدث بأسباب عن الاجتهاد والتقليد . وقد أفرد السيد المؤلف في كتاب (إيقاظ الوسنان) فصلا خاصا في رد زعم الانقطاع ودعوى أنه إجماع ، فذكر قول الشعراني في (الميزان) فان قلت هل يصح لأحد الآن الوصول إلى مقام أحد من الأئمة المجتهدين فالجواب نعم ، لأن الله على كل شيء قدير ، ولم يرد دليل على نفيه ، ولا في نفس الأدلة الضعيفة . . . ، وأما فيما للعلماء في انحصار التقليد في الأئمة الأربعة رضى الله عنهم فقد جاء في (إيقاظ الوسنان) أنه لا واجب إلا ما أوجب الله ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله ، ولم يوجب الله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلده دينه دون غيره ، إلى أن قال . بل لا يصح للعامى مذهب ولو تمذهب به ، ثم أقام الحجة على ذلك بقوله بعد كلام . فالعامى لا يتصور أن يصبح له مذهب ولو سلم لم يلزمه ولا أحد من الخلق قط أن يتمذهب لرجل من الأمة بأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره كلها ، وهذه بدعة قبيحة حدثت في الأمة لم يقل بها أحد من أئمة الاسلام . . . فيا لله العجب ماتت مذاهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومذاهب التابعين وتابعيهم وسائر الاسلام ، وبطلت جملة إلا مذاهب أربعة أنفس فقط من بين الأئمة والفقهاء . وهل بذلك قال أحد من الأئمة أو دعا إليه أو دلت لفظة واحدة من كلامه عليه ، والذي أوجبه الله ورسوله على الصحابة والتابعين هو الذى أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة لا يختلف الواجب ولا يتبدل ، وإن اختلفت كيفية أو قدره باختلاف القدرة والعجز والزمان والمكان والحال ، فذلك أبدا تابع لما أوجبه الله ورسوله ، ،

وما تقدم يتبين أن السيد محمد بن على السنوسى الكبير قد أقى العمر في التدقيق في جميع

المذاهب الاسلامية المقبولة ، ما فتر العمل به وقل أو انقطع وما يزال قائما — أى مذاهب الأئمة الاربعة — ، ثم استخرج من جميع ما درس أصح الأقوال وأكملها . ولم يقتصر جهده على هذا بل أنه لما كان مجتهدا عدلا عالما شريفا ذا عقل ناضج وفكر ثاقب وإيمان قوى ، فقد مزج هذه المذاهب بما صح وكمل من أقوالها ، ثم أضاف إليها ما استنبطه من السنة والمذاهب التي لم يعد هناك اتباع لها واستطاع أن يجعل منها مذهباً واحداً ، هو مرآة المذاهب الاربعة السنية وزبدتها ، ومع هذا فقد امتنع السيد من إعلان مذهبه الجديد على حدة بل قصره على الإخوان السنوسيين ، « تحاشيا لإثارة بعض الظنون السيئة » .

وكما درس السيد هذه المذاهب واختار المذهب الذى هداه اليه الاجتهاد والتوفيق بعد بحث وتدقيق وعبادة طويلة ، فقد دفعه يقينه وإيمانه الصادق إلى الإكثار من الإجتماع بالأئمة الأعلام فى الدين والعلم فى كل مكان يأخذ عنهم علومهم وينعم النظر فى طرائق عبادتهم وذكر الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى اجتمع له علم كثير بطرائق عدة ، درس أصولها ووقف على تاريخها ومنشئها وما كان عليه اتباعها وهكذا . ثم استطاع بعد ذلك كله أن يكتب فى هذه الطرائق جميعها ؛ فكان هامش (كتاب المسائل العشر) وهو المسمى (السلسيل المعين فى الطرائق الأربعين) . وجاء فى مقدمة (السلسيل) قول السيد رحمه الله ، « وقد حصل لنا والله الحمد التمام بأئمة أعلام وجهابذة من أهل الله نجام ، ووصل إلينا من طرائقهم أخذنا وإجازة عدة وافرة وجملة متكاثرة (ثم) بدا لى أن ألتخب من تلك الطرائق أربعين سوية وأفردها برسالة مينة لأسانيدها السنية ، . وعلى ذلك فقد تكلم السيد فى كتابه هذا عن الطرائق المحمدية والصديقية والأويسية والقادرية والرفاعية والسروردية والأحمدية والشاذلية وغيرها . وكان من أثر ذلك كله أن انفرد السيد وأتباعه باتباع طريقة خاصة بهم هى الطريقة السنوسية .

وما يجدر ذكره أن السنوسية لم تكن شعبة من الطريقة الشاذلية ، بل إن التعريف الصحيح لهذه الطريقة ، هو الجمعية السنوسية ، لأن دقة النظام الذى تشكلت منه هذه الجمعية لم يسبق له مثيل فى سائر الجمعيات سياسية كانت أو دينية خفية أو علنية . ولذلك تميزت السنوسية من غيرها من الطرائق بذلك الأثر الاجتماعى والسياسى الكبير الذى أحدثته والذى جعل منها فى الحقيقة وسيلة دعوة جديدة إلى الدين القويم بما يحض عليه هذا الدين من وجوب التمسك بالقرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ينتجم عن هذا كله من ذبوع فضائل الإسلام بين أهل هذه الطريقة أو الجمعية فى البلاد التى تنتشر فيها فيرفرف على هذه البلاد السلام وتسودها الطمأنينة على الأنفس والأموال والأعراض . ثم هى ، أى السنوسية ، وسيلة

لإنشاء الإمارة لأنها أوجدت بفضل النظام الدقيق الذي وضعت له اتباع الطريقة نوعاً من السيادة الدينية والدينية معا على خير ما يقيمه الإسلام من أسس لذلك ، حتى أصبحت السنوسية تسيطر على أفئدة المسلمين الذين بلغتهم هذه الدعوة المصلحة . وقد قبل هذه السيطرة الروحية والزمنية عالم من عوالم الإسلام في الأقطار اللوية ، يدين بالطاعة الكاملة لشيخ الطريقة بل إمامها وأمامهم ، بفضل ما يستحقه هؤلاء الشيوخ والأئمة من مكانة عظيمة وهم القوامون على إخوانهم وأبنائهم في الدين والملة والذين نشروا كلمة الله الحق والسنة الشريفة في ربوع الأقطار اللوية وحملوا أنوار الدين الحنيف إلى مجاهل القارة الوثنية ، وهذا فضلا عما يتمتعون به من نسب عتيدي يصلهم ويصل جدودهم الصالحين بالنبي القرشي العظيم (محمد) صلى الله عليه وسلم .

وكان من أسباب ذبوع الطريقة السنوسية أو دعوة الإصلاح الديني والاجتماعي الجديدة بساطة الطريقة ذاتها ثم إنشاء الزوايا باعتبارها مراكز لبث الدعوة والإرشاد في الأقطار التي غدت مياديننا لذبوعها . فالطريقة السنوسية تخلو من الحكم المغلقة التي يصعب على الفكر الوصول إلى كنهها ، كما يظهر الكرامات والحواريق أو التواجد والشطح ، كما أن مؤسس الطريقة رحمه الله وخلفاءه والاخوان والاتباع لا يعنون بعرض الدنيا الزائل ، فليس من دأبهم وديبتهم جمع الأموال وتكديسها . زد على ذلك أنه ليس لهذه الطريقة مواسم ورياضيات أو شيء مغاير للنطق والفكر الصحيح ، إذ هي أولا وقبل كل شيء تقوم على حكمة عملية واجتماعية أساسها الاخوة والتعاون ، فهم — أي السنوسيون — يجتمعون في ليلتي الجمعة والاثني من كل أسبوع إلى جانب أيام المواسم الإسلامية فيطعمون الفقراء ويواسونهم . وفي هذه المناسبات يجتمعون في الزوايا تحت رئاسة الشيخ أو المقدم في كل زاوية فيقرأون مجتمعين بعضا من القرآن الكريم مع مزاعة أحكام التجويد بدون ترنم أو ترديد ، ويعرفونها باسم قراءة الوقف ثم يتلون الصلاة المعروفة بالصلاة العظيمة ترتيب السيد احمد بن أدريس .

وقد توخى مؤسس الدعوة البساطة عند مخاطبته الأهلين ، يطلب إليهم إقامة فرائض الدين الحنيف ، ويأمرهم بما أمر الله به عباده الصالحين في كتابه الكريم ، وينهاهم عن فعل ما نهى الله عنه حتى يصلح حالهم وتستقيم أمورهم في طاعة الله ورسوله . من ذلك قوله رحمه الله في كتابه بعث به إلى أهل (واجنقة) . « أسألكم باسم الإسلام أن تطيعوا الله ورسوله ، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ، (أيها المؤمنون أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ويقول كذلك (من أطاع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يطع الله ورسوله فأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) . نسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدوا الصلوات الخمس كل يوم وتصوموا شهر رمضان وتؤتوا الزكاة وتؤدوا

فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ، وتجنبوا ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس بغير حق وشرب الخمر وتأدية شهادة الزور وغير ذلك بما أمر الله باجتنابه . فإذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمة الإسلام ومنحك الخير والرزق الدائمين . يا أهل واجنقة إنا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الأعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعيدون أولادكم ويبتزون أموالكم وإنا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به في كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ويقول سبحانه وتعالى (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم ، .

وهذه رسالة جزلة القول واضحة المعاني لاتعقيد فيها ولا إبهام ، تنفذ إلى الأسماع وتأخذ بمجامع القلوب ، وقد ظل شيوخ الطريقة والمقدمون يحذون حذو السيد المؤسس في رسائلهم التي نشرها على الإخوان والاتباع والمريدين ، ديدنهم في جميع ما كتبوا البساطة وتقريب المعاني إلى الأذهان والاستناد قبل كل شيء فيما وعظوا به وأمروا باتباعه ونهوا عن اتباعه إلى آى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، مثال ذلك ما جاء في كتاب لأحد مقدمى السنوسية فى عام ١٨٦٩ ، السيد الحبيب بن عمار شيخ زاوية (النجيلة) فى دفته ، حيث قال مامعناه ، منقولاً بتصرف عن ترجمة بالفرنسية لتعذر الوقوف على الأصل ، - أوصيكم يا إخوانى بتلاوة الذكر سرا وعلانية ، وعليكم أن تجعلوا اعتمادكم كله على الله تعالى وعلى كتابه الحكيم وسنة نبيه الكريم . . . إذ يجب أن تتوجه دائماً إلى المولى عز وجل ، ونطلب منه تعالى العون والمؤازرة . . . واخشوا الله دائماً ولا تفعلوا إلا ما أمر به ، وابتعدوا عما نهى عن فعله ، وعظموا كلمته الحق سبحانه وتعالى . وتجنبوا أولئك الذين شغلوا بمتاع الدنيا الزائل ، والذين يكذبهم يخرجون من رحمة الله إن رحمة الله واسعة ، وكريم ونيل ذلك الذى فتح أبواب هذه الرحمة . وعند الله نعيم مقيم لا أول له ولا آخر . عليكم بتلاوة الذكر فهو يقربكم من الله ، إذ ينال رضاه تعالى ورحمته كل إنسان يعرف الحق تجلت قدرته بتلاوة الذكر وترديد أسماء الله الحسنى . ويصل إلى معرفة الحق يقينا كل من يطلب ذلك لأن الله تعالى كريم ورحيم . قال الإمام رزوق (أترك الخلق وما دفعوا إليه ، فراد الله فى خلقه ما للناس فيه) . والله سبحانه وتعالى لا يظهر أمره قسراً لولى أو لعجمى ، فهو تجلت قدرته الواحد الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . يا إخوانى ، لاتهملوا ما نوصيكم به وما يوصيكم به شيوخنا أيضاً إذا استطعتم ذلك . قال تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه فى

يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) - سورة الميراج (٧٠) آية (٤) ، أوليست أرض الله واسعة الفضاء فلماذا لاتضربوا في جوانبها إذن ؟ إن أولئك الذين يمتنعون عن المهاجرة في سبيل الله ورسوله فسوف يكون مقرهم جهنم وبئس المصير . وإنما الذين يتألون عفو الله وغفرانه فهم الضعفاء من الرجال والنساء الذين لا يقدرّون على المهاجرة ولا يجدون من يرشدهم إلى الطريق . قال تعالى (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما . وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلوة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) - سورة النساء ، (٤) آيات ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ . وإذا عرف تعالى أن في قلوبكم خيرا يعوضكم بأحسن مما أخذ منكم ويغفر لكم . قال تعالى (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى أن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) - سورة الأنفال (٨) آية ٧٠ . وهذا حتى ولو كنتم في أرض كفار ولم تجدوا وسيلة للخروج منها . ولكن إذا بقيتم بها لأنكم تفضلون ذلك فسوف يجمعنا يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون . قال تعالى (ولا تحزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) - سورة الشعراء (٢٦) آيات ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ . وقال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدون فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) سورة التوبة (٩) آية ١٠٠ ، وقال تعالى في سورة التوبة أيضا الآية (١١١) (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) ثم قال تعالى في سورة التوبة أيضا آية ١١٧ : (لقد تاب الله على النبيين والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) وأخيرا قال تعالى في سورة آل عمران (٣) الآية (٣١) : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم والله غفور رحيم ، صدق الله العظيم .

وواضح أن الذي كان يهتم به كبار شيوخ السنوسية في كتاباتهم ورسائلهم إنما هو كلمة الله الحق ، فلا يكون لأشخاصهم قول عند التذكير بضرورة بذل النفس في سبيل معرفة أوامر الدين الحنيف ونواهيهِ ونشر كلمة الحق جلّت قدرته والدعوة إلى الطريق القويم .

هذا وأما الدعامة الثانية التي يقوم عليها صرح السنوسية فهي الزوايا ، والزوايا هي المكان الذي يجتمع فيه الأخوان للعبادة ونشر الدعوة والإرشاد بين أهل البلاد المجاورة أو بين القبائل القاطنة بجهتها أو رجال القوافل الذين يبرون هذه الزوايا في غدوهم ورواحهم والزوايا معروفة في الأقطار الإسلامية من أزمنة بعيدة . وكانت جميعها على نمط واحد ، فكان على رأس الزاوية وازع يعرف (بالمقدم) يتمتع بسلطة واسعة على سائر اخوان الزاوية . بيد أن أهل هذه الزاوية في طورهم الأول كانوا منقطعين للعبادة ومنصرفين عن شئون الدنيا ، يعرف رؤساء كل حلقة من حلقات هؤلاء الأخوان باسم الدراويش ، وكثرت الزوايا وتعددت بعدد الطرائق وتنوعها . ثم كثيرا ما كانت يؤدي التنافس والاختلاف بين هذه الزوايا ومقدميها ودراويشها إلى المنازعة ، فينشأ من الخصومة تباغض وتباعد حتى صاروا متفرقين ولا رابط يجمع بينهم أو يؤلف بين قلوبهم ليصبحوا قوة ذات أثر في شئون الإصلاح الديني أو الاجتماعي أو السياسي . وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى ظهرت الطرائق الحديثة ، وفي طلعتها بلا مراء الطريقة أو الجمعية السنوسية التي وضع السيد محمد بن علي السنوسي الكبير نظامها على أساس ديني واجتماعي ، وكسب السنوسيون بفضل هذا التنظيم الجديد سلطانا واسعا كان له أثر واضح في قيام الإمارة السنوسية ذاتها .

فإن الزوايا السنوسية لم تكن صوامع أو أديرة . للنسك والرهبان والمتعبدين المنقطعين للعبادة ، أو حلقات للدراويش المنصرفين عن شئون الدنيا . بل أن أهم ما يجب أن يلفت النظر إليه في شأن هذه الزوايا السنوسية هو أنها كانت ولا تزال مراكز نشاط اجتماعي وديني كبير . إذ يعني الشيوخ والأخوان أصحاب الزوايا والمقيمون بها وحولها بشئون الدين والدنيا معا . ذلك لأن الطريقة السنوسية تحرم قبل كل شيء على اتباعها التسول ، بل وتأمرهم بالكد والسعي من أجل عيشهم على أساس الأخوة والتعاون . فتطلب من الأخوان العمل في الزرع والتعمير والإنشاء . ومن العادات المعروفة أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة التي تبنى بأرضها الزاوية بجماعة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم من أرض الزاوية ، وهكذا حتى سهل عمران الزوايا في غير مشقة أو نفقة ، فأينما حل السنوسية عمروا وتمروا ، ووجدت الأراضي اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، حتى ندر أن يمر الإنسان بزاوية من زواياهم من غير أن يجد لها بستانا أو بستانين فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار وأصناف البقول والخضر ويزيد من قيمتها مصادقة الإنسان لها في تلك القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات . ثم بلغ من عناية السنوسية بالعمران أنها حتمت على شيوخ الزوايا أن يعرفوا معرفة طيبة أماكن الأسواق التجارية في جهاتهم ثم حالة هذه الأسواق ، وأمرتهم بالتجارة على أن يخصص قسم

من الأرباح للزوايا ، بينما يخصص القسم الباقي للطريقة أو الجمعية السنوسية عامة . زد على ذلك أن السنوسيين المقيمين بجوار الزوايا يحضرون طعامهم إلى الزاوية يطعمون منه الاخوان الموجودين ثم عابري السبل المنتجحين إلى الزوايا ، وهذا بخلاف ما تخرجه الزاوية ذاتها من الأطعمة كل يوم . ولذلك فانه سرعان ما صارت الزوايا السنوسية نتيجة لهذا العمران والنشاط الاجتماعي ملاجئ هامة لانظير لها في الصحراء وبخاصة للمسافرين والتائهين والشاردين وغيرهم . واختار السنوسيون لأغلب زواياهم أجل البقاع وأخصب الأرضين ، فأنشأوها حيث توجد الآبار ذات المياه الكثيرة . وفي الجبل الأخضر أقاموا هذه الزوايا بجوار العيون والأنهار ، فاشتهرت من بينها زوايا كثيرة ، مثل مارة ومرطوبة وأم ارزم بالقرب من درنة وشحات وغيرها .

واتبع السيد محمد بن علي نظاما دقيقا في إنشاء هذه الزوايا وترتيبها حتى غدت كل واحدة منها بمثابة حكومة ذات سلطان عظيم على جميع الأهلين المقيمين في جهتها ، فالزاوية هي مركز العلم والتعليم بالناحية أو القبيلة ، وشيوخ الزاوية يعلمون الأهلين شئون دينهم وديانهم ويفصلون فيما يقوم من منازعات وخصومات ، ويردون المنهوبات إلى أصحابها وينشرون أروية الأمن والطمانينة ، ويندرون بذور الحضارة أينما وجدوا . ويقوم نظام السنوسية في الزوايا على اختيار (مقدم) لكل زاوية هو شيخها والقيم عليها والذي يتولى أمور القبيلة أو الناحية ويفصل في الخصومات بين أهلها ؛ ثم يلي المقدم (الوكيل) ووظيفته كوظيفة الحاكم المدني ؛ فهو وكيل الدخل والخرج وينظر في زراعة الأراضي وجميع الشئون الاقتصادية . وزيادة على ذلك فللكل زاوية شيخ يقيم الصلاة في مسجدتها ويعلم الأحداث القراءة والكتابة ؛ ومن وظائفه أيضا مباشرة عقود النكاح والصلاة على الجنائز وهكذا ومن أهم ما تعنى به الزوايا تعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم والعقيدة الصحيحة والطريقة ؛ وفي هذه الزوايا يتمتع كل من المقدم والوكيل بسلطة عظيمة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة ؛ ويستمد كلاهما هذه السلطة من الرئيس الأعلى ومؤسس الطريقة ثم من خلفائه من بعده . وعمل هذا فالامر الذي يصدره المقدم أو الوكيل مقرونا باسم السيد السنوسي إنما هو أمر واجب الطاعة على الجميع .

ثم بلغ من بعد نظر السيد رحمه الله أنه لما شرع يرسل وكلاءه إلى أصقاع العالم الإسلامي بعد أن أسس زواياه الأولى في أفريقية وبلاد العرب ، صار يتبع سياسة حكيمة وخطة رشيدة من أجل توطيد سلطان الجمعية أو الطريقة الجديدة ، فعنى باختيار شيوخ ورؤساء للزوايا الجديدة من أبناء المناطق التي تبنى بها الزوايا بعد أن يقوم السيد نفسه بترتيبهم وتعليمهم . وسلك السيد هذا السبيل أيضا عندما اختار وكلاءه المعينين في الأقطار البعيدة ؛

م ربط بين جميع هذه الزوايا المتفرقة والقاصية يرباط متين من المخابرات والمخاطبات وفق نظام دقيق تلتق أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية ، وهي زاوية الجغبوب . ولما كانت زوايا السنوسية منتشرة في تونس والجزائر وفاس وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان وبرنو وتوات (لدى التوارق) ثم امتدت إلى الهند وتركيا ، فقد صارت تقارير الخلفاء والوكلاء ترد من هذه البلاد النائية إلى بنغازي أولا ثم تقوم هذه برسالتها إلى زاوية الجغبوب المركزية بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة .

وقد خدمت هذه الزوايا الاسلام خدمة جليلة ، كما أنها ساهمت مساهمة جديدة وفعالة في نشر الفضائل ومحاربة الرذائل . فهي إلى جانب تعريف القبائل بشئون دينهم القويم — وكان لكل فخذ منها زاوية إذا تعددت فروع القبيلة الواحدة — ونشر الرسالة المحمدية السامية ، وحمل هذه الرسالة على وجه الخصوص إلى الشعوب الوثنية (الزنوج) في قلب إفريقيا الغربية والسودان والصحراء الكبرى حتى إهدت هذه القبائل المتوحشة البدوية إلى الاسلام طائفة مختارة ، فقد كان لذبوع الفضائل الاسلامية على أيدي أخوان الزوايا وسهر هؤلاء الاخوان على إقامة أحكام الشريعة الغراء والقضاء على البغي والفساد — وأعظم أثرا من هذا جميعه تعليم القبائل القراءة والكتابة ونشر دعوة الخير على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم القرآن الكريم — نقول أنه نجم عن ذلك كله أن صلحت حال هذه الشعوب وتهدبت طباعهم وذهبت الحدة من نفوسهم ، وامتنع أكثرهم عن طلب العيش بالإعتداء على الغير ، حتى صدق قول أحد كبار السنوسيين (سيدي أبو سيف بن مقرب المتوفى بزوايه الجوف عام ١٨٩٦ في قصيدة طويلة يمدح فيها شيخه السيد محمد المهدي خليفة المؤسس وابنه الأكبر ويتحدث عن هداية البدو على أيديهم :

فمنها : فكم من حريم قد أباحوا وأحجفوا بمال غنى لا يخافون عاديها
فارشدهم للرشد من حل بينهم فلا زال مهديا ولا زال هاديها
ومنها : وكم بدوى في القفلة خلف نوقه يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلقاه في مهد الضلالة هاويا فأصبح نجما في الهداية عاليها
وكم من جهول أسود اللون خلقه كساه لباس العلم أبيض صافيا

وقد عظم شأن هذه الزوايا في عهد خليفة المؤسس ، السيد محمد المهدي على نحو ما سيأتي ذكره .

ومن الكلام على الزوايا يسهل الانتقال للكلام عن الأصول السياسية التي استندت إليها الدعوة السنوسية فقد سبق كيف خرجت الإمارة السنوسية إلى عالم الوجود منذ أن لجأ العثمانيون إلى المؤسس . حتى يستخدمون نفوذه في إصلاح ذات البين بين العرب والترك

فاعترفت الدولة العثمانية عن طريق واليها في طرابلس بزعامة السيد وامارته . ولم يكن اعتراف الأتراك بهذه الأمانة السنوسية أمراً غريباً في بابه بل إن ما فعلته الدولة العثمانية كان يتفق مع الخطة التي اتبعتها في سياستها الشرقية أو العربية العامة عندما وجدت من الخير للحفاظ على كيانها أن تكون على وفاق مع الإمارات العربية التي لم يكن في استطاعة الدولة القضاء عليها أو إخضاعها بالقوة لسلطانها ففضلت إنشاء العلاقات الطيبة مع هذه الإمارات حتى تضمن مؤازرتها للدولة عند الحاجة في وقت الخطر . ولذلك إعتبر العثمانيون بإمارات آل سعود على نجد وآل رشيد على حائل وآل الصباح على الكويت . وكان العثمانيون لا يرون أية غضاضة أو خطراً على كيانهم من وجود هذه الإمارات ما دامت منضوية تحت لواء الخلافة العامة ، فلم يكن اعترافها بإمارة السادة السنوسية في عهد السيد الكبير وفي عهد خلفائه أمراً غريباً أو منافياً لمصلحة الدولة .

ولهذه الحقيقة أهمية ظاهرة : مجملها أن السنوسية بدأت طريقة ثم اشتد أثرها فقويت دعوتها إلى إحياء العالم الإسلامي ثم عظم إرشادها فحملت رسالة القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة إلى الأقطار المختلفة ، ثم ظهر أثر هذه الدعوة وأثر هذا الإرشاد — بل قل هذا الدين المصلح الجديد — بين الشعوب التي انضوت تحت لوأها ، نقول إن السنوسية لذلك كلة لم تلبث أن احتلت مكان الإمارة والصدارة ، ولم يكن ثم مناص من حدوث هذا التطور في عهد مؤسسها وأميرها الأول السيد محمد بن علي السنوسي الكبير .

وزيادة على ذلك فانه بما لا شك فيه أن تأسيس الزوايا ووجود ذلك النظام المتقن الذي جمع بين هذه الزوايا المنتشرة في بقاع الأرض المختلفة وبين الزاوية الكبرى التي أنشأها السيد في الجغبوب ، كان من الأركان المكيئة التي وطدت أقدام الإمارة وضمنت لها السيطرة على إتباعها الكثيرين في الأقطار التي إنتشرت بها ، وعلى الخصوص في برقة وطرابلس موطن الدعوة الجديدة . وإن كانت هذه السيطرة روحية في صميمها . فانه يتبين مما سبق ذكره أن هذه الزوايا كانت في الحقيقة عبارة عن مراكز حكومية بكل ما يحمله هذا الوصف من معنى ، ويتمتع شيوخ السنوسية بنفوذ عظيم في الأقاليم التي توجد بها زواياهم . وليس هناك أدل على مقدار ما بلغه سلطان السنوسية من الطريقة التي توصل بها هؤلاء الشيوخ أو الزعماء إلى تأمين طرق القوافل في قلب الصحراء الكبرى في أفريقيا . فلم تكن قافلة تأمن على متاجرها وأموالها ورجالها إلا إذا أخذت قبل قيامها وتوغلها في الصحراء (محررات) من شيوخ الزوايا السنوسية تصبح بمثابة (جوازات مرور) ، حتى تتمكن من اجتياز أرض قبائل التوارق وتبو وغيرها بأمن وسلام ، لأن هذه القبائل كانت تحترم محررات شيوخ السنوسية وتعمل بمقتضاها ومن المعروف أنه لم يسبق أن انضوت هذه القبائل تحت

لواء أى سلطان آخر قبل ذلك . وعلى هذا فقد أصبحت السبل آمنة فيما بين أفريقية الوسطى والشمالية ، بل ، وأصبحت القبائل التي كانت صاحبة الجسارة الكبرى على النهب وقطع الطريق هي القوة المحافظة على الأمن بتلك المفاوز والصحارى .

وأما أسباب هذا السلطان وهذه القوة فكانت مجتمعة في يد شيخ الزوايا الأعلى وأمامها مؤسس السنوسية ، وكان شخصه العظيم موضع التبريل والتكريم وكمته النافذة وقوله الفصل وبمجرد أن اتخذ الجنبوب مقراً ومركزاً للسنوسية عظم شأن هذه الزاوية تدريجياً حتى غدت (قصة) الإمارة السنوسية ، ترد إليها التقارير والرسائل وتصدر منها الأوامر والنواهي إلى مختلف بقاع الأرض ، ويشرف صاحبها ومؤسسها ويبسط سلطانه على عدد عظيم من المسلمين ثم عظمت قوة السيد تدريجاً حتى صار في إمكانه في النهاية لو شاء أن يجمع الأربعين والخمسين ألف مقاتل ، وعند الطلب له القدرة على أن يسوق لآية بقعة شاء جميع قبائل التوارق وعربان توات وجميع السودانين ،

ومع هذا وإلى جانب ما تقدم ، فقد كان لهذه القوة الفعلية التي تمتعت بها الإمارة الجديدة سبب آخر هو ما أجمله المؤرخ التركي شهبندر زاده في قوله . « إنه من الواجب على كل فرد من الإخوان ما دام قادراً وغير عاجز أو مشغول أن يكون مستعداً للطوارئ متى ما للحرب منتظراً للأمر منقاداً له بكل طاعته . وهذه حال جميع الإخوان الموجودين بأفريقية . وأما أولئك الذين هم في خارج أفريقية فأنهم غير مكلفين بهذا الاستعداد ولا يطلب منهم إلا المعاونة المادية فإخوان أفريقية مكلفون بتسليح أنفسهم ويجب على الأقل أن يكون لكل منهم راحلة ومن كان فقيراً فسلحه وراحته من الزوايا التابع لها أو من أغنياء الإخوان أنفسهم لأنهم ملزمون بالاستعداد على قدر طاقتهم ، ولذلك كان مما تعنى به الزوايا في الأقطار الليبية والأفريقية خصوصاً تعليم الرماية واستخدام السلاح .

بيد أنه قد يصح للسائل ، والحال كما وصفنا أن يسأل ولماذا إذن وهذه نظم الطريقة السنوسية وهذا مقدار استعداد الإخوان والاتباع للجهاد في أفريقية . وقد شهد المؤسس عدوان بعض الدول الأوربية على الأصقاع الإسلامية في هذه القارة ، ثم كان يتوقع عدوان البعض الآخر على أهم زواياها الأولى - الزاوية البيضاء - ثم احتلال (النايلطان) لطرابلس الغرب ، ولماذا إذن لم يناضل السيد نضال الحرب ضد أوروبا المعتدية ، ثم لماذا لم يفصل إمارته الجديدة عن جثمان الدولة العثمانية حتى يستقل بأمره وشأنه ويجمع كلمة الشعوب التي دانت لدعوته بالطاعة حول إمارة زمنية عتيقة ؟ ثم لماذا لم يستعن السيد ببعض الأتراك أو غيرهم ممن كان في مقدورهم إدخال الإصلاح المدني الواسع في إنحاء إمارته الليبية خصوصاً

على غرار ما فعل أحد معاصريه العظماء والى مصر الكبير محمد علي باشا ؟
أن الجواب على هذه المسائل يقتضى بحثاً في أصل آخر من الأصول السياسية التي قامت
عليها الإمارة السنوسية وهو علاقة السيد رحمه الله بدولة الخلافة أولاً ، ثم بالدول المسيحية
عموماً . أما فيما يتصل بصلاته مع الدولة العثمانية فقد سبق في أماكن كثيرة من هذا البحث
بيان حقيقة هذه الصلات ، وكان ظاهراً أنه لم يكن من رأى السيد الخروج على سلطان الخلافة
ولا الانفصال بإمارته عن جثمان الدولة العثمانية والاستقلال بشأنه وإمارته . وفيما عدا هذا
فإنه رحمه الله ما كان يرضى أن يستعين بالأتراك أو بغيرهم لإدخال الإصلاح المدنى على غرار
ما فعله صاحب مصر الكبير لجملة أسباب . (أولها) أن السيد لم يكن مرتاحاً إلى السياسة
والخطة التي اتبعها الأتراك عموماً مع الشعوب العربية الإسلامية الخاضعة لهم . فقد لمس السيد
في مشاهداته وما وصل إلى عليه في أثناء أسفاره المتعددة ، وبفضل إرتباطاته الكثيرة مع
بقية الأخوان والاتباع في أنحاء العالم الإسلامى ومع الأمم العربية ما يفعله العثمانيون من أجل
الضغط على العالم العربى وإرغامه على قبول السيطرة العثمانية المستبدة والخضوع لها حتى إن
السيد رحمه الله ما كان يرى في الحكومة التي أنشأها عاهل مصر الكبير إلا نوعاً من أنواع
هذا الضغط وهذه السيطرة (وثانيها) أنه لما كان هذا غرض الأتراك كما عرفه السيد وكانت
هذه أهدافهم ، تعذر عليه بطبيعة الحال استخدامهم في تنظيم شيء من شئون إمارته العربية
الصميمة بل على العكس من ذلك ، فإنه رحمه الله لم يلبث أن آثر الابتعاد عنهم واختار التوغل
في قلب الأقطار الليبية كلما أمكن كما سبق بيانه في موضعه . أضف إلى هذا أن السيد كان يعتبر
الأتراك مقصرين في الجهاد ضد الفرنسيين الذين شنوا عدوانهم على بلاد الجزائر وكان يعد
دولة الخلافة مسئولة عن الضعف الذين أعجز السلطات الحكومية في هذه البلاد عن مقاومة
الغزو والاستعمار الأجنبى . وزيادة على ذلك فإن الإمارة السنوسية كانت لا تزال في دور
تكوينها ، وهى في هذا الطور الأول من حياتها كانت لا تزال دعوة دينية ولا يزال بزجو
بطريق الدعوة والإرشاد الإصلاح الدينى الشامل وإحياء الإسلام ونشر فضائله . أى أن
السنوسية كانت في منشأها دعوة دينية واجتماعية صريحة ، ولذلك لم يجد السيد حاجة إلى وضع
نظم مدنية قد تتعارض وقواعد الشرع القويم ، ولا ضرورة في الحقيقة لهذه النظم ما دام
العمل بالقرآن الكريم والسنة الشريفة قائماً ، وما دامت مهمة الإمارة السنوسية الجديدة إلى
جانب تطهير الدين من البدع حمل رسالة هذا الدين القويم إلى الشعوب المختلفة ونشر ألوية
الإسلام خفاقة في داخل الأقطار الوثنية .

وأما القول بأن السيد لم يدخل في جهاد ضد العول الأوربية المعتدية ، فالردود عليه
كثيرة ، أهمها ما أثبتته المؤرخ التركى في قوله : « إن السيد كان يعلم علم اليقين أن الجهل إذا

تبارز مع العلم ، والقوة العادية إذا تبارزت مع القوة النظامية ، فالنتيجة اندحار الجهل وعدم النظام ووقوع الغلبة عليهما . كما يعلم أن عدم الحيلة والتعجل باجراء حركة قبل حلولها تنسف صروح أعماله العظيمة التي بناها وأنفق عليها جهوده الجيارة وعلق عليها آماله نفساً لا تقوم لها بعده قائمة . ولذلك لم يقم السيد بأية إجراءات فعلية ، بل أجل ذلك إلى أن يصل العالم الإسلامي إلى درجة الانتباه التام .

أضف إلى هذا أن السنوسية بعيدة كل البعد عن وسائل العنف والقوة في نشر دعوتها ، وإنما طريقها إلى ذلك الإرشاد والإقناع . فهي لا تلجأ إلى تحريك الثورة أو إثارة القلاقل والاضطرابات في البلدان المسيحية أو التي تخضع لحكومة المسيحيين ، حتى تجتذب إليها المسلمين الخاضعين لهذه الحكومات وتمهد لهم الدخول في عداد (جمعيتها) . بل إن كل ما كانت تبغيه السنوسية من أجل نشر دعوتها في البلدان المسيحية أو تلك الخاضعة لحكومات مسيحية أن يهجر المسلمون هذه الأقطار إلى (دار السلام) ، حيث تطيب الحياة في ظل الشريعة الإسلامية الغراء ، وتنفذ إل قلوبهم تعاليم الدين الصحيح . يدل ذلك على هذا إهتمام شيوخ السنوسية بنشر الدعوة (للهجرة) بين الإخوان والأتباع والمريدين ، ثم الاستشهاد بأي من الذكر الحكيم تأييداً لفضل المهاجرة من (دار الحرب) إلى (دار السلام) ثلثي نحو ما جاء في كتاب سيدى الحبيب بن عمار شيخ زاوية النخيلة الذي تقدم ذكره . ومن المعروف أن (دار الحرب) هي بلاد الكفار ، بينما (دار السلام) هي البلاد التي يقطن بها المسلمون ، ثم الذميون (أو الرعية) المسيحيون واليهود الذين يخضعون لحكومات إسلامية ، ثم المستأمنون ، وهم الأجانب الذين يزورون البلاد في مهمة أو في سفر ، وتؤمنهم السلطات المسلمة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وهكذا . ولذلك كان من المنتظر أن يعنى السنوسيون بأمر إخوانهم المسلمين المقيمين (بدار الحرب) حتى يعودوا إلى (دار السلام) حيث تقام شعائر الدين الخفيف ، وينالون الخلاص من اللعنة التي تنزل بهم ما داموا راضين بالإقامة في (دار الحرب) . ولا يقل عن هؤلاء سوء حال غيرهم من المسلمين الذين يقيمون في بلدان يحكم بها سلاطين أو حكام يخضعون لنفوذ أو إرشاد أو حماية دول أوروبية ، أو كان أصحابها تحت رحمة هذه الدول الأجنبية ، لا فرق في ذلك بين القسطنطينية والقاهرة وتونس وفاس . ووسيلة الخلاص من هذه اللعنة الهجرة إلى (دار السلام) . وهذا معنى استشهاد سيدى الحبيب بن عمار بكل تلك الآيات الكريمة لتجديد الهجرة في سبيل الله ورسوله . وقد تحدث (هنرى دى كاسترى) Kasteries عن أمر هذه الهجرة فقال : « وأكبر الطوائف وأشدها تمسكا بمبديتها هي طائفة السنوسية ، وهي التي يخشى منها أكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر إليه البعض كجامع وحدة الاسلام (ويقصد بهذا القول السيد محمد

المهدي بن السيد محمد بن علي المؤسس رحمهما الله (وهو رجل رأى أنه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنسية في الجزائر مقاومة صريحة ، فعدل عن فتح الجزائر إلى فتح أرض غيرها للإسلام . وعلم سيدي السنوسي ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين . كما علم موسى الذي نجاه الله ما أصاب قومه من فرعون وأراد خلاصهم من يد الكفار وأن يقودهم من (دار الحرب) إلى (دار السلام) ، فناداهم أن اخرجوا من دياركم إن أرض الله واسعة الفضاء . وانتقل إلى أرض فسيحة الجوانب خالية من السكان فلحق به كل مسلم لا يرى له بقاء مع المسيحيين ويود الهرب من معاشر الكافرين . ولكن ليس في تلك الأرض عمل يجرى ولا ضرع يدر كما كان في بلاد الكنعانيين ، بل هي صحراء ليبيا الشاسعة التي اختارها السنوسي لهجر العرب إليها بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والبيسفور ذي الرياض الفيحاء والمناظر الخلابة . ومع ذلك فالنداء يلي كل يوم من جميع بلاد الإسلام ويقم الواردون في تلك الرمال من غير سنخ ولا ضجر . وقد أخذت الصحراء تتحول بأعمال المهاجرين ففيها اليوم آبار ونخيل .

وأما آخر الأصول السياسية التي قامت عليها الامارة فأساسه تلك الوصية التي تركها السيد رحمه الله بإسناد رئاسة الطريقة السنوسية إلى الأكبر الأرشد من الأسرة السنوسية ، ثم نظام (البيعة) ذلك النظام الذي يكفل اجتماع كلمة العرب لتأييد صاحب الامارة الجديد . جاء في تاريخ السيد أحمد الشريف : وقال الأستاذ الجد رضي الله عنه (يعني السيد محمد بن علي السنوسي الكبير) المهدي له السيف ، والشريف (أي ولده الأصغر السيد محمد الشريف) له الكتاب وأبى الجد رضي الله عنه الأستاذ العم رضي الله عنه (أي السيد محمد المهدي) السيف بيده الشريفة ، وقال له تقدم لتصل بنا فتقدم وصلى به رضي الله عنهما ، وبعد الفراغ من الصلاة أوقفه بازائه ثم انصرف ، وقبل هذا ألبسه جردا بيده الشريفة وناوله سبحة أفرعها في يده ثم أفرعها في يد أستاذنا العم رضي الله عنهما . وبعد مصافحة والده الإخوان تشوقت نفسه الكريمة لمصافته . فكانت هذه الصلاة وهذه المصافحة بمثابة المبايعة له بالامامة من بعده وأجمع الإخوان وكبار السنوسية وشيوخها على قبول هذه الامامة في حياة والده ثم بعد وفاته . وعلى ذلك فكانت جمعت السنوسية في نظام الحكم بين مبدأ الوراثة الأصلية والعمل بمبدأ الشورى ، وحققت في هذا النظام بعض شروط الامامة . ومن المعروف أن الشورى كانت ركنا من أركانها . والواقع أنه لم يكن هناك مناص من هذه (البيعة) الاسلامية باعتبارها أصلا من الأصول التي قام عليها (بيت) شريف ينتهي في نسبه القرشي إلى الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه . وهكذا صار وارث الامارة بمقتضى هذا النظام ابن المؤسس الأكبر السيد محمد المهدي السنوسي .

الفصل الخامس

الخليفة الاول

السيد محمد المهدي السنوسي

السيد محمد المهدي هو الابن الاكبر لمؤسس السنوسية السيد محمد بن علي السنوسي الكبير . فقد سبق ذكر مولد السيد محمد المهدي بماسه في الجبل الأخضر في ذي القعدة من عام ١٢٦٠ هجرية (نوفمبر ١٨٤٤) ، قبل مولد أخيه الأصغر السيد محمد الشريف بستين تقريبا . وبالجبل الأخضر تلقى السيد المهدي تربيته الأولى حتى توسط السابعة فانتقل إلى الحجاز وبقى مدة يتعلم على أيدي كبار الاخوان وشيوخ السنوسية بزاوية أبي قبيس بمكة المكرمة حتى أرسله والده إلى زاوية جغبوب الجديدة في ربيع الأول من عام ١٢٧٤ (أكتوبر ١٨٥٧) وعندما توفي والده العظيم بعد عامين من قدومه إلى الجغبوب كان السيد المهدي يبلغ الستة عشر عاما ، ويقوم على إرشاده وتثقيفه مع أخيه الأصغر السيد محمد الشريف جماعة من خيار الاخوان السنوسيين وشيوخهم أمثال سيدي أحمد الغاري وسيدي المدني بن مصطفى بن احمد التلساني ، وقد ظل مستشارا أميناً للأخوين مدة طويلة ، ثم سيدي علي بن عبد المولى التونسي ، وسيدي عمران بن بركة الطرابلسي ، وسيدي أحمد الريني الذي اعترف بفضله أيضا السيد أحمد الشريف وابن أخيه السيد محمد الشريف الذي توفي في ظروف سوف يأتي ذكرها في حينه .

وأما السيد محمد المهدي فقد أظهر في هذا الوقت المبكر شغفا بالعلم وانكبابا على تحصيل المعارف ، وكان ذكي الفؤاد عالي الهمة تقيا ورعا ، وقد وصفه السيد أحمد الشريف في تاريخه فقال : « فهو رضى الله عنه مربع القامة ليس بالطويل ولا بالقصير ، أبيض اللون مشربا بالحمرة واسع العينين كحلما أهدب الأشفار أشقر الحاجبين قرنها بخط رقيق من الشعر الخفيف ألقى الأنف يرى فيه أحديداب مدور الوجه مدور اللحية كثها واسع الفم أفلج الثنايا واسع الجبهة أصلع الرأس شش الكفين يعيد ما بين المنكبين خصان القدمين في خده الأيمن خال يقتصد في مشيته . وهو رضى الله عنه يتكلم فيما يبدو له ولا يقول إلا حقا نطقه حكمة أكثر ضحكة تبسم وإذا اشتد به الضحك ضحك حتى ترقرقت عيناه بالدموع ولا يسمع

له صوت ولا قهقهة ، وإذا أراد التكلم يمسح بيده على فخذة الأيمن ولسانه فيه بعض ثقل في بعض الكلمات . وهو رضى الله عنه كثير الورع والزهد أوقاته كلها معمورة بالعبادة ويقوم بالليل بل لا ينام في بعض الأحيان سوى ثلاث ساعات ما بين الليل والنهار . وهو رضى الله عنه ذو حلم وعلم وشفقة ورحمة ورافقة على جميع الأمة ولا يحقر أحدا ويقوم لقاصده كبيرا أو صغيرا جليلا أو حقيرا متواضعا خاشعا خاضعا ، بالمؤمنين رؤوف رحيم يمشى على الأرض وعليه السكينة والوقار ولا يقابل أحدا بما يكره ذوى هيبة كأنه أمد ضارى ، كفه أسخى من البحر الزاخر كأنما عناء القائل بقوله :

ما قال لا قط إلا في تشمسه لولا التشهد كانت لاؤه نعم
وهو رضى الله عنه أكل الناس خلقا وخلقاً وراثه مصطفوية غير مشوبة بأخلاق رثية .
ثبت للوارث ما ثبت للوروث . قال البصيرى رحمه الله :

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من نعم
فهو سليمان زمانه ملوكانية ، وحكمة إقمانية ، وهورنة داوذية ، وجمال يوسفى وأخلاقه
محمدية .

ويفضل هذه الصفات جميعها سرعان ما صار السيد المهدي يحتل مكانة رفيعة في قلوب
الاخوان والاتباع ومريدى الطريقة ومؤيدى الدعوة . وكان مما حجب فيه القلوب أنه سار
على نهج والده الكبير يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبت العلوم في طبقات الأمة اللبية .
متبعا في ذلك حكمة كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وعلى أيدي السيد المهدي توطدت أركان الإمارة الجديدة ، وامتد نفوذ السنوسية في
الأقطار اللبية وفيما جاورها من بلاد وأقاليم إلى درجة بعيدة . وقد ساعد على ذلك إلى جانب
ما تحلى به السيد الكريم من علم وورع وتقوى وشخصية قوية جذابة ، شيثان : (أولهما)
طول مدة إمارته التي بلغت حوالى الأربعين عاما ونيف ، منذ توليته في عام ١٢٧٦ هجرية
(١٨٥٩) حتى وفاته في عام ١٣٢٠ هجرية (١٩٠٢) .

فكانت هذه المدة الطويلة بمثابة عهد استقرار ولم يكن هناك غنى عن هذا الاستقرار والهدوء
حتى تقوى أسس الجمعية السنوسية كما أنه كان من أهم أسباب هذا الاستقرار والهدوء في تنظيمات
الجمعية أن المولى سبحانه وتعالى تفضل على السيد المهدي بحبائه يبعد النظر وثاقب الفكر والرأى
الصحيح ، وقد تنبأ له والده السيد السنوسى الكبير بشأن عظيم ، وصدقت فرامته . وفي تاريخ
السيد أحمد الشريف الشىء الكثير من هذا وأما العامل الثانى في دعم صروح الدعوة والإمارة
الجديدة فكان عزم السيد المهدي على إتمام البناء العظيم الذى شيده والده ، والعمل بكل جهد .

وقوة من أجل نشر الدعوة السنوسية بين أهل البلاد القريبة والبعيدة في أفريقية الغربية خصوصا حتى ذاع صيت السيد ، وتمكن السنوسيون بفضل جهودهم المتواصلة من أن يصلوا بدعوتهم إلى قلب الصحراء الكبرى وأطرافها حتى جهات بحيرة تشاد وما يجاورها من إمارات إسلامية قديمة أو قبائل زنجية وثنية أو قبائل أخرى لم يكن قد صلح حال إسلامها بعد . وقد تعرضت أقطار هؤلاء جميعا لمطامع دول أوروبا الاستعمارية .

وكانت وسائل السيد المهدي في نشر الدعوة السنوسية ودعم أركان الإمارة الجديدة هي إنشاء الزوايا والإكثار منها في الأقطار الليبية ثم في أفريقية الغربية ، ممتدة في الجنوب إلى إقليم بحيرة تشاد، ثم إنشاء الصلات والروابط بين السنوسية وبين الإمارات الإسلامية المنتشرة على وجه الخصوص في واداي وبرقو وكانم وغيرها ، ثم تجنب الارتباط مع الدول الأوروبية الغربية في شأن من الشؤون التي كانت تبغى هذه الدول بواسطة مد نفوذها في الحقيقة إلى قلب القارة الأفريقية وبسط سلطانها على شعوبها الزنوج خاصة ، فاختط خطة حكيمة ، كانت مبنية على الحيلة والحذر ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجدد كما فعل مع فرنسا ، ثم أخيراً الحرص على استبقاء العلاقات الودية بينه وبين تركيا ، وهي دولة الخلافة الإسلامية القائمة ، وهذا على الرغم من مخاوف السلطان العثماني الذي كان يخشى في بعض الأحيان من أن تقوى السنوسية إلى درجة تستطيع معها أن تهدد مركز الخلافة ذاتها وذلك حتى يتسنى له التفرغ لتأدية رسالته الكبرى بين الشعوب الأفريقية المجاورة .

أما الزوايا التي أنشأها السيد المهدي فكانت كثيرة امتدت من طرابلس وبرقة إلى واحات الوجنقات : الوجنقة الكبرى والوجنقة الصغرى — وتقع وراء دارفور إلى الشمال — وهذا عدا زوايا السودان ثم زاوية كانو في بلاد النيجر والزوايا التي أسسها السيد في واحة ون وواحة قرو ثم عين جلك وهذا إلى جانب زاوية التاج المشهورة بواحة الكفرة وهكذا وكان عدد الزوايا التي أنشئت في حياة والده السيد محمد بن علي السنوسي الكبير اثنتين وعشرين زاوية وأما في حياة السيد المهدي فقد بلغت حتى عام ١٨٨٤ نحو المائة منتشرة في برقة وطرابلس وعلى طريق غدامس وفي الفزان وفي واحات جالو وأوجلة والجنوب وعلى طريق مصر وطريق واداي ثم في واداي ذاتها وفي بلاد العرب وفي مصر ومراكش والجريد التونسي ولدى التوارق وفي أنسالة وتوات وغير ذلك . ثم لم ينقطع إنشاء الزوايا بعد عام ١٨٨٤ حتى عمرت بهذه الزوايا واحات الصحراء الكبرى ، فآمن بها السيد وحشيتها ونصر غيرتها وأيقظ غفلتها ، ذلك أن السيد المهدي كان مثل والده قبله يهتم جد الاهتمام بالزراعة والغرس فحرم بجوار الزوايا البساتين وجلب لها — كما فعل والده أيضا — أصناف الأشجار الغربية من

أقصى البلدان فأدخلت في الكفرة والجفوب زراعات وأغراس لم يكن لأحد هناك عهد بها ومن اهتمام السيد المهدي بالتعمير والغرس أنه كان يقول للاخوان والمريدين الذين كانوا يطلبون إليه أن يعلمهم الكيمياء ، « أن هذه — أي الكيمياء — تحت سكة المحراث . وإنها هي كد اليمين وعرق الجبين ، . وزيادة على ذلك فقد كان يحرص على أن يتعلم الطلبة والاتباع الحرف والصناعات ، فلا يزدري بها أحد . وحتى لا يظن المشتغلون بها أنهم أدنى طبقة من العلماء ، كان يقول يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم ، ؛ بل إنه رحمه الله كان يتنزه الفرص للنزول معهم إلى الميدان فيعمل بنفسه وينخرط في سلك الصانع وأصحاب الحرف ، قائلاً وهو يعمل معهم : « يظن أهل الأوربيات والسيدحات (أي العابدين والقانتين) أنهم يسبقوننا عند الله . لا والله ما يسبقوننا ! ، فكانت الزوايا مراكز حركة ونشاط وعمل منتج مشر ، إلى جانب كونها مراكز هداية وإرشاد لنشر فضائل الدين الحنيف وتعليم الأهلين كتاب الله وسنة رسوله ، وهداية المسلمين إلى ما فيه صلاحهم دنيا وآخرة .

والواقع أن هذه الزوايا جميعها كانت مراكز للتعليم ولنشر الهداية الإسلامية وبذر بذور الإسلام خصوصاً بين الأقوام الوثنيين الزنوج في أواسط أفريقية . ولذلك فقد كانت أولى ثمار هذه الزوايا ذبوع الدين الإسلامي في قلب القارة المظلمة ؛ بل ونجحت دعوة السنوسيين في هذه الجهات لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوربية المنبثة في القارة الأفريقية كلها تجدد في الدعوة السنوسية خصماً عنيداً ولا قبل لها على التغلب عليه مع ما أوتيت من قوة ومال وتعزید كبير من جانب الدول الأوربية المستعمرة . وقد اقتضى إنشاء الزوايا وهي كما سبق بيانه مراكز تعليم الدين الإسلامي ونشر كلمة الله والعمل بالسنة الشريفة واداء تهذيب النفوس وهداية أهل الاقاليم المجاورة لها — أن يرسل السيد في هذه الاقطار دعاة ومبشرين بالاسلام دين الله الحق ، اشتهر منهم رجال من الطراز الأول أمثال الشيخ محمد بن عبد الله السني ، والشيخ حموده المقعاوي والسيد طاهر الدغماري وغيرهم . زد على ذلك أنه لما كان من تنظيمات السنوسية العتيدة إنشاء الصلات التجارية والمادية بين الزوايا وبين المراكز التجارية والاسواق المختلفة ونجم عن استتباب الأمن في هذه الربوع إنتشار الطمأنينة فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافي والصحراوات من غير تردد ، فظهرت بوادر العمران في الطرق الصحراوية ، وكان من الميسور على دعاة السنوسية أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار في رحلاتهم وأسفارهم يدعون إلى الطريقة ويقضون على الوثنية — أو الفيتيشية — يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصرفون الأهلين وخصوصاً

الزواج عن اعتناق غير الاسلام ديننا ، فيعطون بجهودهم هذه أعمال الرسالات المسيحية . وعلى ذلك فانه سرعان ما أدى إنشاء الزوايا والاكثر من إرسال الدعاة والمبشرين والهادين السنوسيين إلى إنتشار الإسلام وبخاصة في أواسط أفريقية مثل بلاد النيجر والكتنغو والكامرون وجهات بحيرة تشاد ، ثم ذبوع السنوسية عن طريق واداي وبرنو وكاتم وادامو او الداھومي وغيرها ، وبسط سيطرة السنوسيين الروحية على هذه الاقاليم ودعم أركان الامارة الجديدة في قلب أفريقية .

وكما كان السيد السنوسي الكبير يقصد من تأسيس (الجمعية السنوسية) الإنشاء وال عمران المادي إلى جانب تهذيب النفوس وهدايتها فإن خليفته الأول ما كان يقنع هو الآخر بمجرد العبادة دون العمل . بل كان رحمه الله يدرك تماما أن العمل بأحكام القرآن العظيم والعمل بالسنة الشريفة يقتضى وجود القوة والسلطان . ولذلك فقد ظلت الزوايا في عهده مراکز أيضا لتعليم الرماية . فكان يحث الإخوان والمريدين على إتقانها ويحث فيهم روح الأنفة والنشاط ويحملهم على الطراد والجلاد ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد . وكان السيد يمتلك خمسين بندقية خاصة يعنى بتنظيفها وإعدادها دائما بيده ولا يرضى بأن يؤدي هذا غيره من أتباعه الكثيرين قصدا وعمدا ، حتى يقتدى به الناس ويهتموا بأمر الجهاد ويحفلوا به .

وقد وصف كل من (دو فرنيه) و (لوى رين) حقيقة هذا النشاط في زاوية الجغبوب التي ظلت مقر الدعوة الرئيسي فترة طويلة منذ انتقال السيد محمد بن علي السنوسي الكبير اليها في عام ١٨٥٦ إلى وقت انتقال ولده وخليفته السيد محمد المهدي إلى زاوية الكفرة في عام ١٨٩٥ . فقال (رين) إن السنوسيين بهذه الزاوية كانوا دائما على قدم الاستعداد للدفاع عن الواحة ؛ فكان كل رجل منهم مزودا بالاسلح الكامل ، ولديهم جميعا حوالي أربعائة (بندقية) ومائتي (سيف) ، هذا عدا الاسلحة الأخرى المعدة لتجهيز قوة من نحو ثلاثة آلاف رجل ، محفوظة في نحو عشرين حجرة مليئة (بالرصاص) والبارود ؛ وهذا إلى جانب عدد من المدافع يتراوح بين ٤ ، ١٥ مدفعا اشتربت من مصر ثم نقلت إلى الجغبوب عن طريق الاسكندرية وطبرق ، وهي - أى طبرق - التي قال عنها (دو فرنيه) إنها أحسن ميناء صالح في الشمال كانت تهرب منه الاسلحة إلى الداخل . وزيادة على ذلك فإنه كان بالجغبوب عدد من الصناع الذين مهروا في صناعة الاسلحة وجميع ما يلزمها من معدات . ولما كانت الجغبوب قد نظمت على أن تكون بمثابة عاصمة (الإمارة) السنوسية ، ثم بمثابة (جامعة) تدرس بها العلوم الدينية خاصة ، فقد اتخذ السيد المهدي له أعوانا كانوا أشبه بالوزراء الذين كلف كل واحد منهم بأداء عمل معين ؛ ثم عهد إلى أخيه الأصغر السيد محمد الشريف ، وكان عالما كبيرا بالإشراف على

تعليم الدين للطلاب الذين صاروا يقصدون إلى الجغبوب من كل جهة ، وبلغ عددهم حوالى السبعائة وخمسين نسمة . وكان السود الذين يقومون بالخدمة والزراعة في الجغبوب يبلغون الألفين ؛ وهؤلاء على استعداد تام أيضا لحمل السلاح والجهاد إذا قامت الحرب . ويذكر (رين) أن السيد المهدي سئل ذات مرة إذا كان يقصد استخدام الأسلحة الموجودة لديه ضد الفرنسيين أو إنه يبغي استخدامها ضد الأتراك فكان جوابه أنه لا يقصد استخدامها ضد أحد من الفرنسيين أو الأتراك أو غيرهم ، ثم قال : إن والدي بدأ عملا من المنتظر أن يأتي بنتائج عظيمة ؛ وقد أخذت على عاتقي إتمامه ؛ وليس لدى أى غرض آخر ، ويبدو جليا من هذه العبارة أن السيد كان لا يبغي سوى الاستعداد للذود عن دعوته والدفاع عن الزوايا التي هي مراكز هذه الدعوة ، إذا دهمها الخطر . وقد أثبتت الحوادث في حياة السيد المهدي نفسه أن فرنسا كانت هي أكبر مصدر للأخطار التي هددت الدعوة والإمارة السنوسية في أفريقية الغربية .

والحقيقة أن تنظيم الزوايا وإحكام الصلات بين الزوايا المختلفة وبين الزاوية المركزية في الجغبوب ، بلغ شأوا كبيرا من الدقة في عهد السيد المهدي الذي أتم عمل والده العظيم من هذه الناحية ، فربط بين الجغبوب وبين بقية الزوايا بإنشاء نظام محكم من (المراسلات) بواسطة المهرات والخيول في طرق تمتد من الجغبوب إلى مصر ودفنه وبرقة وطرابلس وفزان وواداي ، فأشادت الزوايا وحفرت الآبار على طول هذه الطرق ؛ كما كفل توطيد أقدام السنوسيين في هذه الجهات انتشار الأمن واطمئنان القوافل على الغدو والرواح في فيافي الصحراء دون التعرض لأذى اللصوص ونهب قطاع الطرق . وكما كان الحال في الجغبوب ظلت بقية الزوايا تعنى بتعليم الرماية ؛ أضف إلى هذا أن طائفة من هذه الزوايا ، ومن بينها العزيات وأوجله وچالو والنخيله وغيرها كانت تحتفظ بعدد كبير من الجمال يتراوح بين الأربعمائة والخمسمائة على أهبة الاستعداد دائما للانتقال بأهل الزاوية إذا هددتها الدول الأجنبية أو هدها الأتراك أنفسهم بالإغارة عليها .

وهكذا أصبح سلطان السنوسية في جميع الأقطار الليبية والأفريقية الأخرى التي انتشرت بها الدعوة يستند إلى دعامتين قويتين : إحداهما روحية ، قائمة على الوعظ والإرشاد والعمل يهدي القرآن الكريم وبالسنة الشريفة ؛ والأخرى مادية ، أساسها تعلم الرماية وإتقان أساليب القتال . وكانت الزوايا مراكز للعبادة والتعليم ونشر رسالة الدين الخفيف من جهة ، وخلايا للعمل والإنتاج عن طريق الزراعة والتجارة ، وميادين للرياضة والتدريب على حمل السلاح وإتقان استخدامه من جهة أخرى ، وهي الأركان العتيدة التي حملت صرح هذا السلطان .

وفي عهد السيد المهدي بلغت الدعوة السنوسية غايتها من الانتشار وتوطدت أركانها بفضل

هذه الزوايا ، كما أدى ذبوع الدعوة بدوره الى الإكثار من إنشاء الزوايا وتعميمها ، وتوضح هذه الحقيقة من معرفة شيء عن الزوايا التي أقامها السنوسيون في مختلف الأقطار التي بلغت دعوتهم في أقل من نصف قرن تقريباً . وما يجب ذكره أن السنوسية استطاعت في كثير من الجهات أن تجد في الطرائق السابقة المنتشرة بها كالأشاذلية والتيجانية والقادرية وهكذا ما كان يهد لها سبيل الذبوع والتغلغل في كيان الشعوب أو الجماعات الإسلامية التي كثر فيها اتباع هذه الطرق . وأما أكبر الجهات التي سادت فيها الطريقة السنوسية ذاتها فكانت بطبيعة الحال تلك الأقاليم التي نبتت فيها الدعوة من أول الأمر في أفريقيا الشمالية ، أي في برقة وطرابلس الغرب .

وقد بلغ عدد الزوايا التي أمكن إحصاؤها في برقة وحدها في عهد السيد المهدي حتى عام ١٨٨٥ ثمان وثلاثين (٣٨) زاوية ؛ وهذا قبل إنشاء الزوايا التي أسسها السيد المهدي (وخلفاؤه) بعد هذا التاريخ في واحة الكفرة وغيرها والتي بلغت في عام ١٩٣٢ حسب ما أثبتته (فابريزيو سيرا) تسعا وأربعين (٤٩) . وكانت أشهرها زوايا البيضاء ، وبنغازي والقصرين والمرج والقصور والعزيات والتجيلة وأرجله ومسوس ، واللبة في جالو وغيرها ، ويدين بالطاعة للسنوسية في برقة قبائل الجرار والشواري والعرفه والطواهر والزوية والبراعصه والحسه والعييدات والفواخر والشيبات ، والدرسه والمغاربة الزوية والعريضات ، والعواقير وأولاد بوشالوفا والمجاربة وهكذا .

أما في طرابلس فقد بلغ عدد زوايا السنوسية ثمانية عشر زاوية (١٨) : من أهمها النزورات ، التي يرجع تأسيسها إلى عام ١٨٥٥ ، ثم الرجيبان (في ١٨٥٤) ، بومهدي ، العامره ، أورفله ، وغيرها . وفي الفزان بلغ عدد الزوايا (٢٢) ممتدة من الجنوب الى غات ومن غدامس إلى الكفرة ، ومن أهمها سنوان وغدامس (وكان بها وحدها زاويتان) ، والمزده ، وهي ذات أهمية كبيرة لقرتها من بلاد الجزائر فأضحت مركزاً للتجارة كما غدت ملجأً أميناً للجزائريين الذين يقومون بالثورة ضد الفرنسيين في بلادهم من وقت لآخر ، ثم مرزوق وزلة ، وسوكنة ، واوالشعوف وغيرها .

واستطاعت السنوسية بفضل انتشار القادرية في تونس أن تجد أرضاً صالحة لبث دعوتها في هذه البلاد فأنشأت خمس زوايا في منزل خير ، دويرات ، زاوية الحارث ، كرين . زاوية العرب ؛ وقد قدر (دوقريه) في عام ١٨٨٥ عدد الزوايا التي كانت للقادرية والتي كان من المنتظر انخراطها في سلك السنوسية في تونس بسبع عشرة زاوية . وفي بلاد الجزائر أسس السنوسيون خمس زوايا في مستغانم ومازونه وزاوية سيدي أحمد بن الناصر وزاوية بجهار

تحتاني التي أسسها في عام ١٨٧٤ السيد محمد بن العربي بن بو حفص (من أولاد سيدي تاج) الذي اشتهر باسم (بو عمامة) . وفي الجهات التي انتشرت فيها الطريقة التيجانية وجدت السنوسية سيلا إلى الذبوع بواسطة زوايا هذه الطريقة في مقاطعة (قسطنطين) خصوصا . أما في مراكش فقد تأسست منذ عام ١٨٧٧ ثلاث زوايا سنوسية في طنجة وطيوان وقاس ؛ وساعد على انتشار السنوسية في هذه البلاد أيضا وجود زوايا بها للطريقة الدرقاوية .

وفي الأقطار الإسلامية الأخرى أنشأ السنوسيون زوايا في طرق القوافل إلى مصر ؛ في سيوه ، والزيتون ، والحوش (حوش ابن عيسى) بجهة الاسكندرية ، والنطرون ، ثم في الفرافره (منذ عام ١٨٦٠) ، وفي التريبات بالقرب من الواحة الداخلة . وهذا عدا زواياهم في القطر المصري نفسه في الاسكندرية والقاهرة والسويس . وفي بلاد العرب كان للسنوسين اثني عشر زاوية في مكة وجده وينبع والمدينة المنورة وغيرها . ويذكر بعض الكتاب أن السنوسية لقيت انتشارا أيضا في العراق وفي ساحل الصومال الأفريقي ، ثم في القسطنطينية .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن السنوسية في عهد السيد المهدي لم تلبث أن انتشرت أيضا في قلب الصحراء الكبرى وفي مجاهل القارة الأفريقية ، بين القبائل التي ظلت على وثنيها قرونا طويلة قبل أن ينفذ الإسلام إليها على أيدي هؤلاء الرسل الجدد الذين انطلقوا من الزوايا التي انشئت بالقرب من هذه الجهات يحملون إليها الهداية ؛ فوصلت الدعوة السنوسية إلى قبائل (التبو) و (التوارق) في الأقاليم الممتدة جنوبا إلى بحيرة تشاد ، ثم بين غيرهم من الوثنيين القاطنين بالصحراء من حدود مراكش الجنوبية إلى نهر النيجر ثم إلى نهر السنغال غربا . فقد أنشأ السنوسيون في هذا الجزء الأخير جملة زوايا في توات وإنسالة - وإلى الجنوب الشرقي من إنسالة تبدأ بلاد التوارق - ثم بين قبائل جراره وأولاد الحاج وغيرهم . وكان مؤسس زاوية إنسالة الحاج أحمد التواتي المشهور ومن كبار السنوسية والذي كان يعتبره الفرنسيون ألد أعدائهم في هذه الجهات . وقد خلفه في عام ١٨٦٤ الحاج عبد القادر من أولاد باجوده . أما في بلاد التبو والتوارق فقد انتشرت السنوسية انتشارا كبيرا واعتقد كثيرون من الوثنيين بفضل جهودهم الدين الإسلامي ، واستطاع أصحاب الدعوة أن يؤسسون كثيرا من المدارس التي فتحو أبوابها للذكور والإناث الزوج على حد سواء لتعليمهم قواعد الدين الصحيح . وأهم القبائل التي أثرت فيها تعاليم السنوسية وقبلت سلطانها في جهات (تشاد) وما جاورها الأير أو الإزين والتبو السالفة الذكر - وقد اتخذ عامل السنوسية (الشيخ أسود) مقرا له منذ عام ١٨٧١ زاوية (نجورمه) - ثم قبائل بائيلي الوانيايجا والبائيلي النيدى ، وبرقو وأولاد سليمان السعدى وكاتبو على بحيرة تشاد ، ثم قبائل النيرى

توغني Enneri-Tougué أو (كوار) Kawor وزاويتها في شمندرو Chimmendro . وقد وصف الرحالة (ناخجال) نفوذ السنوسية الكبير في هذه البلاد عندما زار زاوية (شمندرو) في عام ١٨٧٠ بصحبة الحاج محمد أبو عائشة من قبيلة أولاد سليمان ، وهو قائم مقام غدامس ثم أورفله فيما بعد ، وكان وقتذاك من رجال المشير علي رضا باشا والي طرابلس الغرب (١٨٦٦) (١٨٧٠) ؛ فكان الحاج محمد أبو عائشة لا حول له ولا قوة أمام مقدم الزاوية الذي فرض سلطانه واحترامه على جميع الأهلين في هذه الجهات .

ومن واحة (كواز) أخذت السنوسية تمد نفوذها إلى بلاد (تو) Tou وتسكنها قبائل التيدا Tédâ وهي أحد فروع (التبو) ولكنهما أكثر نقاوة من أخوانهما . وقد استطاعت السنوسية أن تثبت أقدامها في بلاد (تو) وأنشأت أهم زواياها في (بردائي) منذ عام ١٨٧٢ ، وصار ملك هذه البلاد ، (أراي) آله مسيرة في أيدي مقدم الزاوية والأخوان .

وأما إنتشار السنوسية الكبير في واداي فقد سبق ذكر طرف من أسبابه . وكان تأسيس هذه السلطنة كدولة إسلامية في عام ١٦١٢ ، ثم ظلت مغلقة دون العالم الخارجي منذ تأسيسها وقد تقدم كيف استطاع السيد محمد بن علي السنوسي الكبير أن يمد نفوذ الطريقة إلى واداي في عهد سلطانها محمد شريف الذي توفي في عام ١٨٥٨ . ثم ظهر نفوذ السنوسية في واداي واضحا جليا عندما تدخل السيد المهدي معضدا أحد المتنازعين على عرش واداي بعد وفاة سلطانها علي (١٨٧٦) ، فتم الأمر بفضل تأييده للسلطان يوسف فكان من أعظم الأمراء إخلاصا وولاء لسيد الجغبوب .

ويقع إلى الشمال الشرقي من واداي ، (دويلة) تدين بالطاعة لها هي (النيدى) وأهلها من قبائل (البائلي) أو البيدايات الوثنية ، التي حرص دعاة السنوسية على نشر الإسلام بين أهلها ، فلقبت دعوتهم نجاحا في عام ١٨٧٢ ، فلم تمض سنوات قليلة بعد ذلك حتى كانت هذه القبائل قد دخلت جميعها في الإسلام ثم انخرطت في سلك السنوسية ، وأنشأ السنوسيون عدة زوايا في بلادهم ، وفي عام ١٨٨٦ كان ملك هذه البلاد يرسل إلى السيد المهدي كل عام من مدة طويلة هدايا كثيرة وعددا من الشبان للتعلم في زاوية الجغبوب ؛ ثم لم تلبث أن انتشرت السنوسية إلى جهات (البائلي) الشمالية وهم (الوانيايجا) ؛ فتأسست بها زاويتان هما زاوية سيدي عبد الرب وزاوية سيدي السنوسي .

وفيا عدا ذلك ، انتشرت السنوسية في جهات برنو ثم في جهات النيجر حول تمبكتو : وفي عام ١٨٧٦ شاهد (جيرار رولفس) في (زاوية الأستاذ) بواحة الكفرة بعض السنغاليين الذين حضروا لزيارة السيد المهدي ، ثم زاروا الجغبوب قبل العودة إلى بلادهم . وكذلك

انتشرت السنوسية في بلاد كانم . وكانت كانم من قديم ، موضعا للنزاع بين سلطان واداي و سلطان برنو حتى حدث في عام ١٨٤٥ أن حضرت إلى كانم من جهات (سرت) إحدى قبائل فزان العربية وهم أولاد سليمان ، فأقاموا بها وأخضعوا ما حولها من أقوام الكانمبو والتبو والبائلي ونشروا الاسلام بينهم ، فكان من المنتظر لذلك أن تنتشر السنوسية في كانم بسهولة . ويذكر (ناختجال) أنه عندما وصل إلى مكان أولاد سليمان في (بير البركة) في عام ١٨٧١ شهد مبشرين ، من السنوسيين حاولوا أن يمنعوا رئيس القبيلة (عبد الجليل) من السماح لناختجال وجماعته بالتقدم إلى جهات التبو والبائلي ، ثم انسحبوا إلى (برقو) .

هذا وقد نجم عن ذبوع الدعوة إلى الاسلام ونجاحها في أواسط أفريقية ، ثم توطيد سلطان السنوسيين في قلب الصحراء الكبرى بفضل التنظيمات الدقيقة التي وضعوها (لجمعيتهم) على أساس إنشاء الزوايا وإحكام الصلات بين هذه الزوايا المتفرقة البعيدة وبين الزاوية الكبرى مقر السادة السنوسية الرئيسي - سواء أكانت في الجغبوب (١٨٥٦ - ١٨٩٥) ، أم في زاوية التاج بواحة الكفرة (١٨٩٥ - ١٨٩٩) ، أم في واحة قرو (في برقو) (١٨٩٩ - ١٩٠٢) أن وجدت الرسائل المسيحية التبشيرية في السنوسيين خصوصا عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة ، إن لم يكونوا قد أفسدوا هذه الأعمال في بعض الجهات وأبطلوها . زد على ذلك أن نجاح الدعوة السنوسية ودعم أركان الإمارة الجديدة سرعان ما صار يقض مضاجع دول الاستعمار الغربية وخصوصا منذ أن قويت منافسة هذه الدول فيما بينها من أجل اقتسام القارة الأفريقية ، أي في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر . فإن دولة إنجلترا التي احتلت البلاد المصرية في عام ١٨٨٢ ، ثم أشارت على المصريين بإخلاء السودان ، ثم صارت تتأهب في التسعينات من القرن الماضي لاسترداده ، وكانت فوق هذا ذات مصالح حيوية في غربي أفريقية وجنوبها ، اضطرت إلى أن تحسب حسابا كبيرا للدعوة السنوسية وأن تسعى لتوقي خطر هذه الدعوة من ناحية السودان المصري خاصة . وكذلك كان حال فرنسا التي لم تقتصر على احتلال بلاد الجزائر في عهد مؤسس الطريقة السيد محمد ابن علي السنوسي الكبير ، على نحو ما أسلفنا ، بل أدخلت في نطاق ممتلكاتها تونس ، وصارت تتوغل من جهة الغرب في قلب أفريقية حتى وصل نفوذها إلى (واداي) ، وهذه كانت كما تقدم من الأقطار التي دانت للسنوسية وصارت من أقوى دعائمهم في جوف الصحراء الأفريقية الكبرى ، ولذلك فإن فرنسا سرعان ما وجدت نفسها في طريق الاصطدام عاجلا أو آجلا مع الإمارة السنوسية . أضف إلى هذا أن دولة إيطاليا الحديثة بعد أن أتت وحدتها وصارت

تطلع إلى امتلاك المستعمرات في أفريقيا إلى جانب دول أوروبا العظيمة ، ثم بيتت النية منذ أمد بعيد على اغتصاب القطر الطرابلسي من أيدي الدولة العثمانية ، غدت هي الأخرى تبذل كل جهد من أجل اجتلاب مودة السيد المهدي علما تظفر بسكوتها حينما تواتبها الظروف لتحقيق مآربها . بل إن الدولة الألمانية الجديدة لم تلبث بعد انتصارها في الحرب السبعينية أن أخذت تسمى هي الأخرى حتى تستميل السيد المهدي إلى العمل ضد فرنسا في أفريقية الغربية .

وفي وسط هذا النشاط السياسي وبسبب هذه الأطماع الاستعمارية سرعان ما ظهرت إلى عالم الوجود دعاية طويلة عريضة دبرها المبشرون الذين أفسدت الجمعية السنوسية عليهم عملهم في أواسط أفريقية ، وكان لأقوال هؤلاء المبشرين أثرها في كتاب الأفرنج ومؤرخيهم الذين تعرضوا لذكر السنوسية وأعمالها وبيان مدى نشاطها ونفوذها في أفريقية ، فألصقوا بها اتهامات كثيرة لا تستند إلى شيء من الحق والصدق . ومن أشهر هؤلاء الكتاب (دوقيريه) الذي تحدث عن السنوسية ومؤسسها الكبير السيد محمد بن علي السنوسي ، وكان يرى في جمعيتهم خطراً عظيماً يهدد المسيحية ، في القارة الأفريقية ويعطل مصالح الدول الأوروبية التي تريد استعمار شعوب هذه القارة المظلمة ، وتعرض الأهلين في الممتلكات الفرنسية وفي بلاد الجزائر خصوصاً على القيام بالثورة ، ولو أن كاتباً فرنسياً آخر هو (لوي رين) جزم بأنه لم يجد دليلاً ما يثبت اشتراك السنوسيين في تحريك هذه الثورات ضد الحكم الفرنسي .

ومن أشهر الذين كتبوا ضد السنوسية (موتيه) مؤرخ الرسائل الإسلامية ، في القرن التاسع عشر و(أرثر سيلفهاوايت) . وهو كاتب إنجليزي زار واحة الجغبوب (١٨٩٨) وأنشأ الفصول الطوال في ذكر أحوال السنوسيين وعاداتهم وبيان عقائدهم وهكذا . وكان أهم ما ألصق بالسنوسيين من اتهامات أنهم جماعة شديدة التعصب ضد المسيحية ، ويبلغ هذا التعصب ذروته في الصحراء خاصة حيث يكثر ، كما قالوا اغتيال أولئك الأوروبيين الذين دفعهم حب الكشف والاستطلاع إلى ارتياد مجاهل هذه الأصقاع الفسيحة . وكان أشد ما ألصق بالسنوسيين من اتهامات بالسنوسيين الكاتب (دوقيريه) فعدهم مسئولين مباشرة أو بطريق غير مباشر عن مقتل (ادوار فوجل) في واداي في عام ١٨٥٦ ، ثم (فون بورمان) في كانم في عام ١٨٦٣ . و(فون دردكن) ورفقائه على نهر جوبا في عام ١٨٦٥ والآيسة (تيني) المشهورة في الفزان بالقرب من مرزوق في عام ١٨٦٩ ، ثم الضابط الفرنسي (دورنو دويريه) على الطريق بين غدامس وغات في عام ١٨٧٤ ، ثم (الكولونيل فلاترو) والضابطين (ماسون) و(ديانوس) في عام ١٨٨١ ، وغير هؤلاء . زد على ذلك أن السنوسيين

كما ادعى هؤلاء الكتاب كانوا يمنعون المسيحيين قاطبة من زيارة جهات برمتها في طرابلس ، كما قالوا أن السنوسية كانت تطلب إلى فقراء السنوسيين الذين لا يملكون ما يدفعون عنه مالا (أو العشر أو العشور) للخزانة العامة ، القيام بخدمات معينة (للجمعية) وأن يعملوا كجواسيس لها أو قتلة . وزيادة على هذا فهناك طبقة واحدة من السنوسيين يصرح لأفرادها بالاتصال بالمسيحيين إطلاقا ، هي طبقة الوكلاء في الزوايا . بيد أن أهم ما عني هؤلاء الكتاب باظهاره وتصويره ذلك الخطر الذي قالوا إنه يهدد النفوذ الأوروبي ويمنع تغلغه في أواسط أفريقية ، ومنشؤه أن السنوسية هي أكبر وأنشط الوسائل التي يستطيع عن طريقها دعاة (الجامعة الاسلامية) وأنصارها تحقيق أهدافهم ؛ فقالوا أن السنوسية تحرم على أتباعها الاتصال بالثقافة الغربية ، وتغلق بلادها دون الحضارة الأوروبية ، وتعد قبول هذه الحضارة والأخذ عنها بدعة من الواجب عليهم محاربتها . ويدعى هؤلاء الكتاب إلى جانب ما تقدم أن السنوسيين لم يكتفوا بمناضلة الأوروبيين والمسيحيين عامة بل صاروا يعتبرون (الأتراك) أنفسهم غرباء عنهم ، ومن واجب السنوسية محاربة نفوذهم والقضاء على نشاطهم ، وعلى الرغم من إسلامهم حتى أن (دوفريه) نسب إلى السنوسية زورا وبهتانا قولهم على لسان سيدي الأخضر بن مخلوف ، الترك والنصارى إنى أقاتلهم معا وأضربهم ضربة واحدة ، وكذلك من المفتريات التي ظل أعداء السنوسية يرددونها مدة طويلة قولهم أن الطريقة ، كانت تعتبر اغتيال أى مسيحي عملا طيبا يستحق فاعله كل ثناء ومكافأة ؛ كما ادعوا أن السنوسيين كانوا يعتبرون من واجبهم عدم الدخول في بلد يخضع لسلطان المسيحيين .

بيد أن هذا كله — كما هو واضح جلي — لم يكن سوى أباطيل . أتى بها أعداء السنوسية حتى يقبلوا ضدهم الرأي العام الغربي على وجه الخصوص ، وحتى يجدوا مسوغا لأعمال إرسالياتهم التبشيرية في وسط القارة الأفريقية ، وهذا في الوقت الذي اشتدت فيه مطالبهم الاستعمارية في هذه القارة ، وأخيرا حتى يؤيدوا — كما توهموا — شكاياتهم التي تقدموا بها ضد السنوسيين إلى السلطان العثماني عبد الحميد فانه لما كان السيد المهدي لإيمانه بمحاولة هذه الدول من أجل التقرب إليه وفشلت وسائلهم في اجتذابه اليهم وأعرض عنهم ، عظمت مخاوفهم من تشكيلاته وحركاته ، وانكبوا يسعون لدى الآستانة ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميد كي يتوسط بوصفه الخليفة الأكبر في استدعاء السيد المهدي من أفريقية للإقامة بأرض الحجاز أو في دار الخلافة وعدم مغادرتها والعودة إلى وطنه . ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة في النهاية لجملة أسباب سوف يأتي ذكرها في موضعها . ومع هذا فانه لا يصعب على إنسان دحض مفترقات هؤلاء الكتاب الذين حملوا على

السنوسية وحاولوا تشويه سمعتها لغرض في أنفسهم ، ذلك أن السنوسية وهي التي تتركز
بكتاب الله العزيز وسنة نبيه الكريم ، وتتخذ شعارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وتتبع أثر السلف الصالح في أعمالها ، ما كان لها أن تغاير تعاليم ومبادئ الدين الإسلامي
الحنيف ، وهو دين الفطرة والتسامح ، ويكفي أن ثبت بعض ما جاء في رسالة تاريخية للسيد
محمد بن علي السنوسي الكبير بعث بها إلى أحد خلفائه بزاوية المدينة المنورة في ١٢ ربيع
الأول ١٢٦٤ (١٧ فبراير ١٨٩٨) ، حتى يتبين من قرائتها شيء من المبادئ التي كان يذيعها
مؤسس السنوسية والمصلح العظيم ويريد تربية أخوانه عليها والاتباع والمريدين . قال رحمه الله
« والمؤكد به عليكم وأفضل صلة وأصلة إليكم ما حدث به الحق سبحانه وتعالى وعم وأمر به
سائر الأمم فقال جل من قائل (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن
اتقوا الله) ، فليكن بتقوى الله العظيم باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والاكتفاء من ذكره
والصلاة والسلام على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أثناء الليل وأطراف النهار ليستثير بذلك
القلب ويتنور الباطن والظاهر . وعليكم بمراقبة الحق سبحانه وتعالى في جميع الأحوال في
الحركات والسكنات مظهر منها وما بطن . وابتذلوا جهودكم وقبوا على ساق الجد والاجتهاد
لنيل أسنى المراد ، وكونوا على المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، وحسنوا أخلاقكم ولينوا
جانبيكم للكبير والصغير . قال تعالى (وقولوا للناس حسنا) وقال جل وعلا (ادعوا إلى
سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجلادهم بالتي هي أحسن) ، وقال صلى الله عليه وسلم
(ارفعوا فان الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، وإن الحق ما كان في شيء إلا شانه) . وارفعوا
همتكم عن الخلق . وقال صلى الله عليه وسلم (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي
الناس يحبك الناس) . وعليكم بالمناجحة والمذاكرة وإرشاد عباد الله إليه ، والمدارسة
والاجتماع والتحاب والتوادد ، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى البر أعوانا ،
فبذلك تنالون الفوز الأبدى والربح السرمدي الذي لا يعتره خسران ولا يحوى حول حماه
حرمان والله يجعلكم أئمة اقتدا ، ونجوم اهتدى ، ويفتح بكم أعيناعيا ، وآذاننا صما ،
وقلوبنا غلقا وألسنا بكما ، ويمن عليكم برضاه الأكبر الذي لا يخط بعده . »

وأما السيد المهدي رحمه الله ، فهو القائل ولا تحقرن أحدا لأمسليها ولا نصرانيا ولا يهوديا
ولا كافرا ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك ، إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمته ،
وجمعية تهتدي بهدي القرآن الكريم وتعمل بالسنة الشريفة وتتبع أثر السلف الصالح ،
وهذا (قانونها) و (شعارها) ، كانت ولا شك بعيدة كل البعد عن أي تعصب لا يرضى به
الدين الإسلامي الحنيف ، وفي طبيعته العفو والمسامحة ، (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض

عن الجاهلين) ولا يمكن أن تقره (الجمعية) التي قال عنها أعداؤها أنفسهم أنها بفضل ما اقترنت به دعوتها من تسامح واسع ، استطاعت أن تجتذب إليها وتضم تحت لوائها ما لا يقل عن الأربعة وستين جماعة دينية تباينت آراء أعضائها واختلفت وجهات نظرهم لدرجة كبيرة .

والحقيقة أن السيد المهدي السنوسي كان رجل حكمة وعلم بعيدا عن التعصب ، زد على هذا أنه رحمه الله كان يتمتع بقوة فكر ورجحان عقل وبعد نظر ، ولس أدل على بعده عن التعصب من موقفه من الدول الأجنبية ومن جيرانه الأوروبيين فالسيد المهدي لم يكن في كل مواقفه معهم معتديا أو بادئا بحرب أو عدوان ، كما أنه لم يشأ أن يصبح آلة في أيديهم مجرد كونها كيف أرادوا ، تشهد على ذلك خطته الحكيمة مع هذه الدول ، ثم مع جماعة العراقيين في مصر ، ومع اتباع محمد أحمد المهدي في السودان ، كما تدل من جانب آخر قصة صراعه الطويل مع الفرنسيين في حدود (واداي) وغيرها على أنه ما كان يريد في الواقع من اشتباكه مع هؤلاء المغيرين سوى الدفاع عن الأقوام الذين انتشرت بينهم زوايا السنوسية ، ونما وترعرع الإسلام ، ضد اعتداءات الدول المستعمرة ، على أن يبان مواقف السيد المهدي من ذلك جميعه انما يكشف في الوقت نفسه عن مدى سلطان السيد وانتشار نفوذه .

ويبدو واضحا جليا أن البروسيين كانوا أول من أرادوا الاستفادة من النفوذ الذي يتمتع به السيد المهدي في الصحراء فحاولوا في عام ١٨٧٢ مفاوضته على أمل استمالته إلى تحريك الثورة في الجهات التي خضعت للفرنسيين في افريقية الشمالية والغربية ، ولكن محاولتهم ذهبت سدى ، لأن السيد المهدي رفض مقابلة الرسل الذين أوفدوهم إليه فغادر هؤلاء البلاد دون أن يتمكنوا من الحديث معه . ومع هذا فقد تكررت محاولات البروسيين في الأعوام التالية للفرض نفسه ، فاستطاع الرحالة (جيرار رولفس) في عام ١٨٧٦ أن يزور برقة والكفرة ثم قصد إلى الجغبوب لمقابلة السيد المهدي ، ووقف عند (بير سلام) بالقرب منها ، وقابله سيدي أحمد بن اليسكري جملة مرات ، ولكنه لم يستطع مقابلة السيد المهدي نفسه أو الحديث إليه .

وعندما اشتبك العثمانيون في حربهم المشهورة مع روسيا ، طلب السلطان من السيد المهدي أن يمدد بالجند من طرابلس وبرقة لمعاونته في الحرب الدائرة (١٨٧٧) . ولكن السيد المهدي لم يشأ التدخل في هذا النزاع ، ولم يغادر جندي واحد أرض طرابلس الغرب للاشتراك في هذه الحرب .

وظهرت رغبة السيد المهدي في الابتعاد عن المشاكل الأجنبية عموما ، والتفرغ لدعم أركان السنوسية بالاكتفاء من إنشاء الزوايا التي أتى على عاتق أهلها في الواقع عبء الدعوة

إلى الاسلام في الصحراء الافريقية ، عندما حاول الايطاليون بدورهم أن يستميلوه ، من غير جدوى ، إلى المحالفة معهم منذ عام ١٨٨١ على أساس تحريك الثورة ضد الفرنسيين في تونس بعد احتلالهم للبلاد التي كانت موضع أطماع الايطاليين وحالات ظروف متنوعة دون تحقيق مآربهم من مدة طويلة وهكذا عندما أرسل الايطاليون بعثة استكشافية برئاسة الضابط (كامبيو) إلى برقة ، نجحت هذه البعثة فقط في إثارة خواطر الأهليين ضدها في الجبل الأخضر ودرنة بدلا من استمالتهم .

وفي أثناء عمليات الانجليز العسكرية في مصر في عام ١٨٨٢ توقع كثيرون أن يلقي أحمد عرابي وجماعته تأييدا من جانب السيد المهدي ، ولذلك فانه سرعان ما بعث (دو فرييه) في أثناء محاكمة عرابي بعد فشله ، برسالة إلى محاميه المشهور (برودلي) في أول نوفمبر ١٨٨٢ يقول فيها أن عرابي لم يقدم على الثورة إلا بتأثير من السنوسية ، وانه إذا صح ذلك ، لم يكن إلا أداة فقط يحركها السنوسيون لتنفيذ أغراضهم ، ثم يرجو في نهاية رسالته ، أن يتفضل (برودلي) بأخباره إذا كان عرابي نفسه من أتباع الطريقة السنوسية .

وغنى عن البيان أن أحمد عرابي لم يكن في حياته سنوسيا ، كما أن السيد المهدي كان بعيدا كل البعد عن هذه الحركة . ويقول (لوى رين) تعليقا على هذه الجوادث ، أن السنوسية لم تحرك ساكنا في أثناء ثورة عرابي ، وذلك لأن رئيسها (أى السيد السنوسى) كان يعلم بوجود شبه اتفاق سرى بين عرابي وبين الرجال السياسيين في استانبول ، ولأنه بكل بساطة كان يعرف تماما أن الحرب ليست هي الوسيلة التي يمكن بها إعادة صرح الامامة العالمية على ما كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين .

يبد أن أهم الجوادث التي وقعت في هذه الفترة وأظهرت ما كان يتحلى به السيد المهدي من صفات الزعامة والامارة السامية ، وكشفت عن حقيقة النفوذ الروحي والزمنى الذي ظل يتمتع به السيد طيلة حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، كان قيام محمد أحمد (مهدي آبا) بالثورة في السودان المصري . وادعاؤه أنه (المهدي المنتظر) فقد استطاع محمد أحمد أن يجذب إليه كبار تجار الرقيق الذين ساءهم أن تجد الحكومة المصرية في مكافحة تجارتهم الشائنة ، ثم استطاع أن يلهب نفوس مواطنيه السذج بدعواه أنه إنما جاء مبعوثا من أجل تخليص البلاد من الشرور والآثام وإقامة صرح حكومة جديدة على أنس من الدين القويم . ثم ظهر أمره شيئا فشيئا ، وأحرز جملة انتصارات على الحكومة فداع صيته إلى الأقطار المجاورة ، وكان من بين الذين ساءهم القلق من هذه الحركة الخطيرة السيد محمد المهدي السنوسى نفسه . وكان لذلك جملة أسباب . أولها ولا شك كان دينيا ، لأنه على الرغم مما أجمع عليه التواتر ووصل إليه

الباحثون في هذه الموضوعات ، من توقع مجيء (المهدي المنتظر) في هذه الفترة من الزمان ، فقد كان من المستبعد أن يكون محمد أحمد هو ذلك المهدي وكان السنوسيون أعظم الناس رغبة في ذلك ، في وقت كان كثيرون من أهل برقة والأقطار التي انتشرت فيها السنوسية عموماً يعتقدون اعتقاداً كبيراً بأن السيد المهدي السنوسي نفسه ابن السيد محمد بن علي السنوسي الكبير كان هو (المهدي) حقيقة ؛ ولو أنه من المقطوع به أنه لم يكن هناك أي دليل على أن السيد محمد المهدي كان يعتبر نفسه (المهدي المنتظر) . فكان ظهور حركة محمد أحمد في السودان مدعاة لتحريك الخواطر في البلدان التي دانت لسلطان السنوسيين عامة . زد على هذا أن نجاح ثورة محمد أحمد في البلاد القريبة من الجهات التي انتشرت فيها زوايا السنوسية كان مصدراً لخطار عدة وبخاصة أنه كان من أهداف مهدي السودان أن ينشر دعوته في جميع الأقطار الإسلامية حتى لقد طلب إلى أمراء المسلمين الاعتراف له بالزعامة من أجل تأسيس (الدولة الدينية) — أو الثيوقراطية — التي كان من المتوقع إنشاؤها على غرار خلافة الأئمة الراشدين في صدر الإسلام . فلم يكن محمد أحمد إذن قانعاً بتشييد ملكه في السودان وحده ، بل أراد أن يبسط سلطانه على ما جاوره من شعوب وأقطار . ومعنى هذا ، فيما يهم السنوسية ، أنه لو أتيح له أن يتجح لانهار صرح تلك الإمارة التي وضع أسسها السيد السنوسي الكبير ، ووطئ أركانها السيد المهدي نفسه . أضف إلى ذلك أن جنوح محمد أحمد إلى الثورة وحمل السلاح في وجه حكومة إسلامية على الخصوص ، وكانت جزءاً في الحقيقة من أجزاء دولة الخلافة الكبرى ، كان لا يتفق مع جوهر مبادئ وتعاليم السنوسية كما وضعها السيد المؤسس ، وكما فهمها وسار عليها خليفته الأول ؛ لأن دولة الخلافة ظلت في اعتبار السيد المهدي ، كما كانت في اعتبار والده من قبل ، ذلك السياج الذي يحوط العالم الإسلامي ويمنع عنه كيد الكائدين وطمع الطامعين ، وليس من مصلحة الإسلام في شيء إضعاف دولة الخلافة . ولم تكن الدعوة إلى إيقاظ العالم الإسلامي ، كما وضع أسسها السيد المؤسس ، وكما فهم هذه الأسس وانترشد بها أيضاً ولده ، تهدف إلى تحطيم دولة الخلافة أو الانتقاص من شأنها وإنما كان هدفها الأول إحياء الدين وبهت الإيمان ونشر العقيدة الصحيحة قبل كل شيء ثم إنشاء الإمارة الإسلامية التي تأخذ على عاتقها الدعوة إلى دين الله الخنيف منضوية تحت لواء الخلافة والإمامة الكبرى . ومع هذا ، أو بسبب ذلك كله ، عنى السيد المهدي من أول الأمر بضرورة الوقوف على حقيقة هذه الدعوة التي انتشرت في السودان ، ولذلك فإنه لم يلبث أن أوفد من (واداي) رسولا مهمته الاستطلاع ، فوصل هذا الرسول إلى الأبيض عاصمة الكردفان عقب سقوط البلدة مباشرة في أيدي محمد أحمد (يناير ١٨٨٣) ، بعد حصار استمر أربعة شهور وحدثت بسببه مجاعة مخيفة . وعند احتلال الأبيض ارتكب أتباع محمد أحمد تحت بصره وبسببه فظائع

كثيرة مع السكان ، فكان من نصيب رسول السنوسية أن يشهد اتباع (المهدي المنتظر) يقتلون الأنفس ويسلبون الأموال ويهتكون الأعراض ، فأحدثت هذه الوحشية البالغة أثرا عميقا في نفسه وهو الذي نشأ في أحضان السنوسية ذات المبادئ والتعاليم الانسانية والدينية الرفيعة وعندئذ قرر السيد السنوسي ألا تكون له بهذا (المهدي المنتظر) صلة ، ولو أنه وجد في الوقت نفسه من أصالة الرأي عدم استثارته إلى حد قد يدعو إلى الاشتباك معه في حرب لا طائل تحتمها ومن آثارها ولا شك تعطيل السنوسية عن المضي في تأدية رسالتها الكبرى . ولكن محمد أحمد لم يشأ أن يترك السنوسية وأمرها .

فإنه لما كان السنوسيون قد أنشأوا زواياهم في السودان الغربي حتى حدود دارفور ، ثم في السودان المصري نفسه وكثر أتباعهم في هذه الجهات ، وذاع صيت السيد السنوسي وقوى ساعده وتوطدت أركان امارته فقد رأى محمد أحمد من أول الأمر أن يجذب إليه السيد المهدي بجملة أسباب ؛ لعل أهمها ما كان يرجوه محمد أحمد من نشر نفوذه وامتداد سلطانه إلى الامارات الإسلامية في أفريقية الغربية إذا دانت له السنوسية بالطاعة ، وهم جماعة منظمة ذات حكومة قوية الدعائم في هذه الجهات . أضف إلى هذا ما كان يرجوه محمد أحمد أيضا من استخدام السنوسيين في حربه المنتظرة ، وهم الذين اشتهروا بأنهم كانوا مسلحين تسليحا كاملا ومحسنون الرماية ويعرفون فنون الكر والفر ، وكان محمد أحمد قد بيت النية على غزو الديار المصرية لطرد الانجليز الكفار والاجانب المسيحيين منها ، فصار يبنى النفس بإمكان استمالة السنوسيين إلى موازرتة في هذا الجهاد ، وخصوصا وأن هؤلاء كانت لهم في هذه الآونة جملة زوايا ويكثر أتباعهم في جهات مصر الغربية من الصحراء الغربية ثم في الفيوم وفي بعض أقاليم الوجه القبلي .

وعلى ذلك فان محمد أحمد لم يكذب يقرر اختيار خلفائه الأربعة على الجيش ولولاية الحكم من بعده — على غرار ما حدث في صدر الاسلام عند تولية الخلفاء الراشدين الأربعة — حتى عول على أن يكون السيد محمد المهدي السنوسي نفسه خليفته الثالث ، (أي في مقام خليفة المسلمين عثمان بن عفان) ، فأرسل إليه بعد سقوط الأيوبيين (طاهر واد إسحاق) يعرض عليه عزم محمد أحمد على أن يضعه في مقام الخليفة الثالث ولأن مقام الخليفين الأول والثاني — كما قال — قد صار مشغولين بمن فيهما ، وفي نظير ذلك يقوم السيد السنوسي من جهته بشن الحرب على الانجليز في مصر . فقابل السنوسي رسول محمد أحمد وقام بواجب الضيافة نحوه ، ولسكنه رحمه الله أنجاب على دعوة محمد أحمد بقوله : كتاب محمد أحمد وصلنا ، والرد عليه هو أن مقام عثمان لا يناله لا أنا ولا هو ، ورجع الرسول أدراجه . ومع أن خبز هذه (المفاوضات)

— إن شئت أن تسميها كذلك — كان قد ذاع في طول البلاد وعرضها . وترددت الاشاعات عن قبوك السنوسية العمل مع محمد أحمد ، حتى تحدث كثيرون في ذلك الوقت عن انتقال شيخ السنوسية وزعيمها إلى الصعيد المصري تلبية لنداء محمد أحمد ، فإن هذه الدعوة ومثيلاتها ما كانت لتلقى في الحقيقة أى تأييد أو استجابة من قبل السيد السنوسى ، وهو الذى كان يرى في حركة محمد أحمد — على الأقل — ثورة لا يمكن أن تؤدي إلى إحياء الدين وأُمَّة ، ناهيك عن العوامل الأخرى التى سبق بيانها ، والتى جعلت السيد يتخذ كل الحذر من هذه الدعوة السودانية . وعلى ذلك فإن السيد المهدي السنوسى لم يلبث في يناير ١٨٨٤ أن طلب إلى الشعوب الإسلامية خصوصا في واداي وبرنو والبلاد المجاورة ، أن تمتنع عن تأييد مدعى المهدي محمد أحمد الذى لم يكن إلا مخادعا كاذبا ، وكان السيد قد أهمل أيضا الرد على رسالة أخرى بعث بها إليه محمد أحمد يطلب منه إما الهجوم على مصر وإما الحضور إليه والانضمام إلى صفوفه . (مايو ١٨٨٣)

ومع هذا وعلى الرغم من الموقف الصريح الذى اتخذته السيد المهدي من حركة محمد أحمد فقد ظل الدراويش في المدة التالية يتوقون إلى اجتذاب السيد إلى جانبهم ويتسمون أخباره ويودون لو أنه يستمع إليهم فيقوم من جانبه بغزوة كبيرة على مصر لطرد (الكفار) منها فقد حدث أن وقع في أيديهم أحد المغامرين الفرنسيين (أوليفيه بين) وكان قد شق طريقه إلى الأبيض بكل صعوبة حتى يعرض على الدراويش باسم دولته فرنسا التأييد والمساعدة ثم خضوع أمته لحكومة المهدي ، فلم يهتم الدراويش بدعواه بقدر اهتمامهم بالوقوف منه على أخبار السيد السنوسى ، وهل قام بحملته ضد الكفار في مصر أم لا يزال يمتنع عن مناصبتهم العداء . واستطاع (بين) أن يؤكد لهم قبل موته (في نوفمبر ١٨٨٤) أن السيد السنوسى لا يريد الاشتباك مع الإنجليز في نضال ما . وعندما توفي محمد أحمد (في يونيو ١٨٨٥) وتولى بعده الخليفة الأول عبد الله التعايشى جدد الدراويش مساعيهم حتى يجتذبوا إليهم السيد السنوسى ولكن من غير طائل . وكان موقف السيد من التعايشى كوقفه من سلفه بل إن السنوسية سرعان ما صارت مصدر متاعب متعددة للتعايشى ، حتى أنه لما قامت ثورة (الشيخ أبو حمزة) المشهورة في دارفور في عام ١٨٨٨ زعم كثيرون أن هذا الشيخ لم يكن سوى السيد السنوسى نفسه ، أو على الأقل مندوب السيد . واستطاع أبو حمزة وأنصاره بفضل استغلالهم هذه المزاعم ، وأدعائهم أنهم كانوا يتمتعون بتعضيد (شيخ جغبوب) أى السيد المهدي السنوسى ، أن يضموا إلى صفوفهم كثيرين من أهل البلاد في دارفور وبرنو وبرقو وواداي ، وهى جهات انتشرت فيها الطريقة السنوسية انتشاراً كبيراً . ثم أحرز أبو حمزة بعض الانتصارات على

الدرأويش وتفاقت الثورة ، ولم يخلص عبدالله التعايشي من شرها المستطير سوى الموقف الذي آثر أن يتخذه السيد السنوسي من (المهديّة) وشئوننا جميعها في هذه الآونة ، وامتناعه قطعا عن التدخل في مصلحة الثوار في دار فور . حقيقة كان السيد السنوسي يرى في رغبة عبدالله التعايشي تحويل الحج إلى قبر محمد أحمد بدلا من الحجيج إلى الكعبة بمكة المكرمة زيقا وخروجا على الدين ، ويؤيد في هذه المسألة موقف الشيخ أبي حمزة الذي كان يدعو إلى الدين الصحيح ولكنه لم يشأ أن يفعل أكثر من ذلك ، حتى أنه أشار على سلطان برقو الذي كان أصحاب الثورة في دار فور قد طلبوا إليه مؤازرتها ضد التعايشي ، وطلب السلطان رأى السيد السنوسي في ذلك ، أن يتجنب الانغماس في شئون السودان ولا يحرك ساكنا إلا إذا اعتدى الدراويش أنفسهم على ملكه . وقد وضع السيد المهدي خطة الجهاد ، الدقيق هذه بقوله . « انه إنما يعني بالدعوة إلى اصلاح الدين الخفيف سلما لا حربا ، بينما تنفر الملة التي يراد احياؤها نفورا عظيما ، بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها ، والجرائم التي يرتكبها في السودان أمثال هذا المهدي المزيف . ولذلك فانه لا يريد ولا يفكر في أن يتدخل في شيء مما يحدث ، بل من واجب محمد أحمد وخليفته هذا أن ينظرا وحدهما في الوسائل التي تكفل لشخصيهما النجاة أو الهلاك المحقق ، فجاء هذا القول إعلانا صريحا عن عزم السيد على التمسك بخطة أو سياسة عدم التدخل في شئون السودان . وعلى ذلك فانه بمجرد أن عرفت رغبة السيد السنوسي الحقيقية انفض الناس من حول (أبي حمزة) وضعف شأنه تدريجا حتى استطاع عامل الخليفة التعايشي (عثمان آدم) أن يلحق به في آخر الأمر هزيمة منكرة في فبراير ١٨٨٩ ، ثم مرض أبو حمزة بالجدرى ومات في الشهر نفسه .

يبدو أنه لما كان عبدالله التعايشي مع متاعبه الكثيرة لا يزال مصمما على غزو مصر ، ولا يزال يطمع في مؤازرة السيد السنوسي على الرغم من تمسك السيد بموقفه ، فقد أرسل إليه يطلب منه إعلان الجهاد ، ولكن على غير طائل ، للأسباب التي سبق ذكرها ، ولأن السيد المهدي كان لا يريد مناصبة الانجليز العداء في الوقت الذي اعتقد فيه رحمة الله ، أن خطرا قريبا سوف يهدد طرابلس وبرقة من جانب الطليان ، وأنه سوف يأتي يوم يقوم فيه الانجليز بمحاربة هؤلاء الايطاليين ويخلصون البلاد من طغيانهم . ولذلك لم يسكن من خطة السيد ولا من سياسته إثارة عداوة الانجليز ضده أو الاشتباك معهم في نضال ، أضف إلى هذا أن الحكومة المصرية حكومة إسلامية ولا يصح لهذا السبب إعلان الجهاد ضدها ، وهذا إلى أنها كانت لا تزال تابعة للعثمانيين وتخضع لسياسة الخليفة الاسلامي ، ومعنى قتالها الخروج على سلطان هذا الخليفة الشرعي . لذلك لم يعرض السيد دعوة التعايشي أي اهتمام . وكان موقفه في

هذه الظروف العصية بالنسبة لمصر خصوصا يدل على بعد نظر سياسي وحكمة خليفة بهذا الزعيم الاسلامي الكبير وزيادة على ذلك فان السيد في هذه الآونة كان لا يزال مهتما بنشر دعوة الاسلام في واداي وبرنو وكاتم واداموا وبرقو والداهومي وغيرها ، فلم يشأ أن يثنيه شيء عن عزمه هذا في خدمة الاسلام ونشر الدين الحنيف .

ولما لم يجب السيد لذلك دعوة التعايشي ، قرر خليفة محمد أحمد الانتقام من السنوسية فزحف الدراويش من دارفور في عام ١٨٩٠ حتى بلغوا حدود واداي . ولكن سلطانها يوسف الذي اعتلى العرش بتأييد من السيد المهدي نفسه وكان عظيم الاخلاص والولاء له لم يلبث أن قام يرد الدراويش عن بلاده فأوقف زحفهم ، ثم لم يستطع التعايشي في الأعوام التالية فعل شيء ما دام يوسف على عرش السلطنة ، واستمر الحال على ذلك حتى تولى السلطان إبراهيم عرش واداي في عام ١٨٩٨ ، فلم يلبث إبراهيم أن أظهر في علاقاته مع السنوسية ما كان يدل على أنه يريد مقاومة نفوذ السيد المهدي في بلاده . وعزا المؤرخون ذلك إلى تحريض عبد الله التعايشي له من أم درمان حتى ينقلب ضد السنوسية ويعمل على عرقلة مصالحهم ولكن أيام التعايشي نفسه وقتئذ كانت معدودة ، لأنه سرعان ما انهزم على أيدي المصريين والانجليز الذين هموا لتخليص السودان من طغيان (المهدي) فأوقعوا بجيوش الخليفة هزيمة نكراء في واقعة أم درمان المشهورة في ٢ سبتمبر من العام نفسه ، ثم لم يلبث أن انهزم التعايشي نفسه وقتل في واقعة (جديد) في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ . وبذلك انقضى نهائيا كل خطر كان يهدد السنوسية من ناحية السودان .

ومع هذا فإنه مما يجب ذكره أن الأخطار الحقيقية التي تعرضت لها السنوسية في هذه الآونة ثم من عدة سنوات مضت لم يكن مصدرها في الواقع حركة محمد أحمد وخليفته في السودان ، وإنما كان منشؤها (أولا) ما طرأ على علاقات السنوسية بدولة الخلافة (تركيا) من تغييرات كادت تؤدي إلى انفصام هذه العلاقات لولا ما أظهره السيد المهدي من حصافة رأي ومهارة سياسية ، ولولا ما كان يرجو تحقيقه السلطان العثماني عند الحميد على أيدي السنوسية ذاتها من آمال وأغراض ، و (ثانيا) تقدم النفوذ الفرنسي في أفريقية الغربية ، ومناصب دول إفريقيا الكبيرة العداء للسنوسية لدرجة اشتعال نيران الحرب بين الفريقين واشتباكما في نضال شديد لم يخفف من وطأته سوى نجاح الفرنسيين في نوال أغراضهم في أفريقية الغربية والوسطى ثم إغارة الظليان العابرة على طرابلس الغرب .

أما العلاقات بين دولة الخلافة الاسلامية والسنوسية فقد سبق ذكر شيء عن حقيقتها عند الكلام عن أهداف صاحب الدعوة ومؤسس الطريقة السيد محمد بن علي السنوسي وبما

هو جدیر بالذکر أن الوالی العثماني فی طرابلس الغرب (علی أشقر باشا) ، کان یکرّم السید المؤسس إکراماً عظیماً ویعتمد علی السنوسیة ونفوذها فی حکومتة دواخل برقة خصوصاً ؛ واعترفت الدولة للسید عن طریق والیها بالزعامة والامارة ، ثم بلغ من صفاء المودة بین الحكومة العثمانیة وهؤوس السنوسیة أن الدولة منحت السنوسیین (فرمانات) سلطانیة بأیدیهم أغفقتهم بها من الأموال الامیریة والأعشار الشرعیة . ثم هی لم تکتف بهذا بل ذکر المؤرخون أن السید محمد بن علی السنوسی الکبیر لم یلبث أن نال من السلطان العثماني عبدالمجید (١٨٣٩ — ١٨٦١) فی عام ١٢٧٢ هجریة (و ١٨٥٥ میلادیة) فرماناً جعله بمثابة الامیر المستقل بإماراته تماماً وحدث هذا فی أثناء إقامة السید بزایوة العزیات . ومع هذا وعلى الرغم من میل الحكومة العثمانیة الظاهر لا کتساب ود السید وصدائقه ، فقد ظل رحمه الله متخذاً کل حیطة وحذر من دولة الخلافة لأسباب أجملناها فیما سبق ، لعل أهمها أنه کان یعتبرها مسئولة عما لحق ببعض الأقطار الاسلامیة من أذى بالغ بسبب سقوطها فی أيدي المستعمرین الأجانب أو بسبب تغفل النفوذ الأجنبي فی بعضها الآخر . أضف إلى هذا اشتداد موجة المعارضة ضده وضد تعالیه ومبادئه ودعوته إلى الإصلاح الدینی فی الآستانة عاصمة دولة الخلافة ذاتها ، وفی غیرها من أمهات مدن العالم الاسلامی الخاضع لسلطان تركيا فی تلك الآونة ، مثل مكة والقاهرة ، إذ من المعروف — علی نحو ما سبق بیانہ — أن علماء هذه العواصم المتسکین بالتدیم كانوا ینعون علی السید قوله أن الاجتهاد لم ینقطع ، وأنه لیس من مصلحة الدین فی شیء أن یظل العلماء مصفدین بأغلال التقليد والدلیل علی حذر السید هذا أنه اختار عند عودته الاخرة من الحجاز الإقامة بزایوة العزیات البعیدة عن الساحل (١٨٥٤) ثم لم یلبث یعد ذلك أن انتقل إلى زاویة الجنبوب فی جوف الصحراء فی اکتوبر ١٨٥٦ وفی الجنبوب زاد نفوذ السید وبلغ ذروته حتی أصبح سید الصحراء المطلق . ولم یصب علاقته بالدولة أی تغییر بسبب ذلك ، بل ظل الولاة العثمانيون فی برقة وطرابلس یخطبون وده وبحرصون علی صداقته حتی وفاته فی عام ١٨٥٩ .

وفی عهد خلیفته الأول ، السید محمد المهدي ، بق السنوسیون فی سلام مع دولة الخلافة ولو أن (دوقریه) یذکر أن العلاقات فی أواخر أيام السلطان عبدالمجید كانت متغیرة بسبب ما أظهره السلطان العثماني من میل إلى « التقلیل من أهمية السید السنوسی » ، حتی أن السید فی عام ١٨٦١ لم یلبث کما قال (دوقریه) « أن وضع السلطان تحت الحرمان » ، ای أنه أصدر ضد السلطان العثماني قراراً یجرمانه من الرحمة والمغفرة علی نحو ما کان یفعله الباباوات مع أباطرة أوروبا فی العصور المتوسطة . ومع أنه من الجائز أن یکون السلطان

عبدالمجيد بعد وفاة السيد المؤسس قد بدأ يظهر عدم اهتمامه بالسنوسية لصغر سن السيد المهدي بشكل جعل السيد مع مستشاريه في تلك الآونة يعلنون أن السلطان العثماني قد أصبح (مهجورا) — على عادة السنوسيين كلها أرادوا اظهار غضبهم من إنسان وقطيعته بسبب عمل لا يرضى عنه الدين الصحيح وتنفر منه (الطريقة) ، وقد يكون هذا ما وصفه (دو قريه) بأنه قرار حرمان صادر ضد السلطان العثماني — فقد تعذر من جهة أخرى العثور على ما يثبت قول (دو قريه) هذا . ومع هذا فلعل أهم ما تجدر ملاحظته من هذا الحادث سواء أثبت وقوعه أم لم يثبت ، أن دولة الخلافة لم يكن يرضيها في الواقع أن تقوى شوكة السنوسية لدرجة تهدد معها الخلافة ذاتها إذا رغبت فعل ذلك .

والثابت أن نفوذ السنوسية سرعان ما بلغ ذروته في الأعوام القليلة التالية في الأقطار الليبية والصحراء الغربية حتى جهات تشاد حتى أن مقدمي الزوايا وشيوخها بهذه الأصقاع البعيدة أصبحوا بمثابة الحكام المستقلين الذين لا يعرفون غير سلطة السيد المهدي السنوسى نفسه ولا يعيئون بسلاطة غيرها . يدل على هذا ما ذكره (دو قريه) عن حادث وقع له نفسه أثناء زيارته لزواية (زويلة) في الفزان ، ويسميا (دو قريه) « مدينة الفزان المقدسة » ، في عام ١٨٦١ فتح أنه كان مزوداً بفرمان من السلطان العثماني عبدالمجيد لتأمينه ولتسهيل أسفاره ، وكان يصحبه جماعة من الشرطة (أو الجندرمة) من قبل حاكم المقاطعة . فإن مقدم الزواية وشيخها لم يهتم بهذه التوصيات والأوامر وصمم على ضرورة انسحاب (دو قريه) ورفاقه من الزواية بكل سرعة ولم يسع الفرنسي ورجال (الجندرمة) سوى الامتثال لأوامر المقدم السنوسى . وقد سبق ذكر ما شهدته الرحالة (ناخترجال) عند زيارته لزواية (شمندرو) في (الكوار) في عام ١٨٧٠ ، من خضوع الحاج محمد أبو عايشة رسول المشير العثماني على رضا باشا والى طرابلس الغرب وقتئذ وكان موفداً في مهمة إلى بلاد (برنو) ؛ إذ كان واضحاً أن المقدم السنوسى في (كوار) يتمتع باحترام ونفوذ عظيمين ، ويعترف رسول الوالى العثماني بهذه الحقيقة . أضف إلى هذا أنه كان في أثناء هذه الفترة القصيرة أن استطاع السنوسيون إنشاء زواياهم ونشر نفوذهم في بلاد (تبوه) و (التوارق) على نحو ما تقدم .

وكان من أسباب ازدياد نفوذ السنوسية في هذه الأصقاع ولا شك بعد الزوايا الجديدة عن مقر السلطات الحكومية في برقة وطرابلس من جهة ، ثم حرص دار الخلافة على استبقاء علاقات المودة والصفاء مع السنوسيين من جهة أخرى . واستمر الحال على ذلك حتى اعتلى العرش السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) . وكان أول حادث أظهر للسلطان الجديد قوة السنوسية واستقلالها الفعلى امتناع السيد المهدي عن إرسال نجدات من الأقطار البرقاوية الطرابلسية

لمساعدة الدولة في حربها المشهورة مع روسيا في عام ١٨٧٧ . ولذلك كان أول ما عنى به السلطان عبد الحميد الوقوف على حقيقة الدعوة السنوسية والتأكد من نياتها نحو الخليفة العثماني .

وفي الواقع لم يلبث أن أدى اهتمام الخليفة في هذه الآونة إلى بداية صفحة جديدة في تاريخ العلاقات بين دولة الخلافة الإسلامية وبين الإمارة السنوسية . بل إن هذه الصفحة الجديدة كانت لا تقل في خطورتها عن سابقتها ، وذلك لأسباب ، من أهمها أن السلطان العثماني سرعان ما صار يتخذ الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) قاعدة لسياسيته العربية الشرقية كما هو ذائع ومعروف ؛ وصار يبذل في سبيل تشييد هذه (الجامعة) قصارى جهده ونشاطه . ثم لم يكن من سياسته من أجل تحقيق أهدافه استعداد الإمارات الإسلامية الكبيرة ضد حكومته ، بل وجد في الاعتراف بهذه الإمارات خبير طريقة عملية تكفل انضواءها جميعا تحت لواء الخلافة وتضمن عدم خروجها على دولتها . وكانت الدولة العثمانية وقتئذ أشد ما تكون حاجة إلى العصبية الإسلامية تشد بها أزرها وتقوى ساعدها أمام مطامع الدول الأجنبية التي ما فتئت من مدة طويلة تتحين فرصة موت رجل أوروبا المريض حتى تنقض على ممتلكاته في أوروبا وفي خارجها . ولما كان ظل دولة الخلافة قد أخذ يتقلص رويدا رويدا في أفريقية الشمالية ، وبدأت الدول الأوروبية المستعمرة تمد نفوذها تدريجيا من شواطئ الاطلنطي إلى قلب الصحراء وتهدد الإمارات الإسلامية وغيرها في أفريقية الغربية والوسطى ، حتى بات من المنتظر عاجلا أو آجلا أن يزحف هؤلاء المستعمرون على حدود ولاية برقة وطرابلس الجنوبية والغربية ، فقد صار لذلك كله من الواجب على الخليفة العثماني أن ينظر في خير الوسائل التي يستطيع بها دفع هذا الخطر . وفي هذه الظروف كان في بقاء الإمارة السنوسية ذات السطوة والسلطان في الأقاليم الممتدة من شاطئ البحر الأبيض شمالا إلى بحيرة تشاد جنوبا ما يدفع غائلة المعتدين وينصون الأقطار الليبية على الأقل من عدوان الدول المستعمرة ويعود على دولة الخلافة الإسلامية ذاتها بفوائد عديدة ما دامت هذه الإمارة السنوسية منضوية تحت لوائها . وكانت هذه الحقيقة الأخيرة هي التي جعلت السلطان العثماني يحاول أن يعرف نوايا السنوسيين الصريحة حتى يطمئن إذا كان هؤلاء بزعامة السيد المهدي يخلصون للدولة ولا يحملون في قلوبهم سوى الولاء الصادق للخليفة العثماني .

وكلف السلطان بهذه المسألة رجال حكومته في بنغازي ؛ فلم يلبث هؤلاء أن أرسلوا التقارير الواافية إلى دار الخلافة ؛ وصاروا يؤكدون للسلطان عبد الحميد أن السيد المهدي غضد قوى للدولة في الحقيقة ، وإن في استطاعة الحكومة العثمانية أن تعتمد على مساعدته

وقت الحاجة لأن السيد كما قالوا إنما يربطه بدولة الخلافة الإسلامية الوفاء والاخلاص الكامل والطاعة التامة . فاطمأن عبد الحميد إلى السنوسية ، وشرع يعمل من ذلك الحين على كسب مودة السيد المهدي ويحرص على استبقاء صداقته ، وهذا على الرغم من مساعي بعض رجال الترك في الآستانة الذين ساءمهم صفاء العلاقات بين السلطان العثماني والسيد العربي ، فأكثر السلطان من إرسال الكتب والهدايا إلى السيد وصار من الميسور تجديد (الفرمانات) التي أعفت السنوسيين من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية .

وكان من آثار دعم هذه الروابط بين السلطان والسيد أن وجدت الدعوة السنوسية أتباعا أقوياء لها في الآستانة عند ما استمر أحد كبار الطرابلسيين الذين كانوا في الأصل من أتباع (السادة المدينة) - وهي من الطرائق التي انتشرت عن طريقها الدعوة السنوسية ذاتها - يقيم في قصر بلدز ويشرف على توجيه السياسة الإسلامية الجديدة ويسهر على مصالح السنوسية وهو الشيخ محمد بن جعفر أستاذ السلطان القديم وصاحب الأثر الظاهر في سياسة الدولة الإسلامية بين عامي ١٨٧٩ ، ١٨٨٣ . وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبار رجال الدولة الآخرين ، ومن أشهرهم (رضا بك) أحد أعضاء المجلس الخاص . وكما ظهر نفوذ السنوسية في الآستانة لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدي زواياها في الأقطار الليبية ، فكان مقدم الزاوية في بنغازي سيدي عبد الله بن زناد المريني هو صاحب الكلمة العليا (١٨٨٤) ، وليس للتصرف (أو الحاكم) التركي بجانبه أي نفوذ أو سلطان . بل إن كبار موظفي الترك وحكامهم صار لا يعينهم في هذه الآونة سوى إرضاء السنوسيين وكسب مودتهم وصداقتهم حتى إن والي برقة العثماني (علي كمال باشا) كان يعتبر نفسه «أولا وقبل كل شيء» خادما للسيد السنوسي ، ومن أتباعه ، ثم موظفا وحاكما عثمانيا بعد ذلك . وعند ما نصب بعده الحاج رشيد باشا واليا على برقة (١٨٨٦) ، وكان من الإخوان السنوسيين ، عظم شأن السنوسية . لأن رشيد باشا كان لا يقل عن سابقه بطبيعة الحال ولا من إخلاصا للسنوسية وميائتها وهكذا استمر مقدم السنوسية في بنغازي (سيدي عبد الرحمن المقبوض) يتمتع بكل نفوذ وسلطة ويتألم من الحكومة العثمانية ، كما فعل سيدي عبد الله بن زناد من قبل ، مرتبا شهريا منتظما . وأما مقدم السنوسية في طرابلس فكان في ذلك الحين ، سيدي حمزة بن جعفر شقيق الشيخ محمد بن جعفر مستشار السلطان عبد الحميد السابق . وكان من أثر ازدياد سطوة السنوسية في برقة - طرابلس أن الإخوان في الزوايا الساحلية صاروا بمعين رسميا من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية ، بينما كانوا لا يقدمون إلى الحكومة في الزوايا الأخرى الكبيرة في طرابلس والخمس وبنغازي إلا ما يرونه ملائما لمصالحهم . زد على هذا

أن السلطة الحقيقية — من روحية وزمنية — على الأهلين كانت بأيدي شيوخ الزوايا ، وخصوصاً في ولاية برقة حيث خضعت السنوسية لجميع القبائل تقريباً ، ما عدا قبيلة المغاربة التي امتدت مظاعتها إلى الغرب من بنغازي حتى (سرت) وكان يشغل الوظائف القضائية والمدنية المهمة سنوسيون . ولما كان نشاط السيد المهدي في أثناء ذلك كله يمتد خلاف الآستانة وبرقة وطرابلس إلى جهات أخرى عديدة سبقت الإشارة إليها ، فإنه لم يأت عام ١٨٨٨ حتى كان السيد المهدي يتمتع بشهرة بعيدة . ولدرجة أن السلطان العثماني بدأ من جديد يشعر بالقلق من ناحيته وتساوره الشكوك في نوايا السيد وأغراضه .

وكان من أسباب قلق السلطان وإثارة مخاوفه ما شهده من المساعي التي بذلتها بعض الدول لأغراض سياسية حتى تستميل السيد المهدي إلى جانبها ، — وهي المساعي التي سبق ذكرها ، ثم اتساع نفوذ السنوسية في أفريقية خصوصاً في (واداي) ، ودعم صلاتها بالإمارات المجاورة وإنشاء الزوايا الكبيرة في جوف الصحراء لنشر تعاليم الدين الإسلامي الصحيح وهداية الوثنيين في هذه الأصفاع النائية والتي كان يحاول المبشرون الأجانب استمالة أهلها إلى اعتناق المسيحية . وفي الواقع لا نكون مغالين إذا اعتبرنا أن منشأ بخاوف السلطان العثماني من السيد المهدي كان مسعى الدول الأوروبية في الآستانة وتكرر شكواها من السنوسيين الذين عطلوا بنشاطهم دعوة مبشرى (الرسالات المسيحية) في أفريقية الغربية ، فصاروا يصفون السنوسيين بأنهم أصحاب السلطان المطلق في الصحراوات الأفريقية والأقطار البرقاوية الطرابلسية ، كما طفقوا ينشرون الشيء الكثير عن مبلغ استعداداتهم العسكرية في مقر دعوتهم الرئيسي في (الجنوب) وفي غيرها من الزوايا ، وبخاصة زاويتي الغزيات والنجيلية ، وما كان لهم من قوة عظيمة في ولاية برقة تبلغ الألوف العديدة من مشاة وفرسان . كما أنهم صاروا يعززون إلى السيد المهدي الرغبة في إنشاء ملك عضود تحت سيادته المستقلة يضم أكبر جزء من القارة الأفريقية من حدود مصر شرقاً إلى ساحل الاطلنطي غرباً ومن شاطئ البحر الأبيض شمالاً إلى بحيرة تشاد جنوباً ، مما كان من شأنه جميعه إثارة الشكوك في نفس السلطان عبد الحميد من ناحية أغراض السنوسيين البعيدة والقريبة . ثم زاده إمعاناً في مخاوفه وشكوكه تلك الخطة التي اختطها السيد المهدي لنفسه ومدارها إهمال مساعي الدول الأوروبية لديه ، ثم المضي في تنظيماته وتشكيلاته بدلاً من التراخي الذي كانت ترجوه وتطلبه هذه الدول من ناحيته ، حتى كثرت زوايا السنوسيين ونفذت دعوتهم إلى جوف الصحراء الكبرى وأقبل يعتنق الإسلام أقوام كثيرون . فهال أمر هذه التنظيمات والتشكيلات السلطان عبد الحميد . وكان أعظم ما يخشاه قيام مهدي ، أشد خطراً على دولته وخلافته من محمد أحمد مهدي السودان

وعلى ذلك قرر السلطان أن يستوثق مرة أخرى من أمر هذه الإمارة ، وأن يقف على مبلغ الأخبار والأقوال التي بلغته عن السنوسية من الصحة ، فكانت هذه الرغبة سبباً في إرسال الحاج رشيد باشا والي بنغازي (برقة) في وفد كان من بين أعضائه عاصم بك المؤيد - من آل العظم المعروفين بدمشق الشام وأحد حجاب السلطان ، لزيارة السيد المهدي في مقره بواحة الجغبوب ، وذلك في عام ١٨٨٩ (١٣٠٧ هجرية) . ولما كان السيد المهدي لا يضر في الواقع إلا كل خير لدولة الخلافة ، وكان رشيد باشا رسول السلطان من الإخوان السنوسيين فقد لقي الوفد كل حفاوة وتكريم . وعند ما قال رشيد باشا ، ان السلطان يعتقد بوجود خزائن مملأى بالأسلحة والذخائر والقذائف لدى السنوسيين ، قام السيد المهدي وفتح خزائن الكتب الموجودة بالزاوية أمام رشيد باشا ، وقال مشيراً إليها ، هذه خزائنا ! . والحقيقة أن السيد استطاع بسهولة أن يدخل الطمأنينة على نفوس أعضاء الوفد . حتى غادروا الجغبوب وهم يعتقدون أن السيد السنوسي لم يكن إلا هادياً ومرشداً ، وأنه لا ينفك يدعو المولى سبحانه وتعالى أن يجعل النصر والتأييد من نصيب الدولة العثمانية ، وأن يهب الخليفة التوفيق والنجاح . وكانت هذه الأخبار ولا شك مطمئنة للسلطان وارتاح باله من غاحية السنوسية .

ولكن الدول الأوروبية سرعان ما جددت شكواها من نشاط السنوسيين ، فتخرج مركز السلطان واضطر إلى مضارحة السيد المهدي بحقيقة الموقف . ويذكر الأمير شكيب أرسلان رحمه الله قصة مساعي الدول هذه وآثارها كما تراها في تاريخ السيد أحمد الشريف الذي سبقت الإشارة إليه مراراً ، وكان السيد أحمد الشريف نفسه قد أطلع على هذا التاريخ فأشأ يقول ، وطالما ضغطت دول أوروبا على السلطان لأجل أن يستدعي سيدي المهدي إلى الآستانة ويأمره بالإقامة بها ولا يأذن له بالعودة إلى وطنه ، ليخلو للأوروبيين الجو في تقسيم أواسط أفريقية وخفض الشوكة الإسلامية في تلك الديار ، فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بضعف الأعداء . بل كان يلاطف السنوسي كثيراً بالهدايا والكتابات . إلى أن اشتد الضغط على السلطان في قضية السنوسي ، فأرسل رجلاً اسمه عصمت بك إلى بنغازي ومنها إلى الجغبوب بأمورية سرية ، فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه في أمر الدعاية السنوسية ، فأجاب السيد المهدي بحسب ما قرأت في التاريخ الذي تقدم ذكره بكلام لا يتضمن نفيًا ولا إيجاباً ، وإنما تلا له آيات كريمة في معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدي لم يعم بعدها أن فارق جغبوب إلى واحة الكفرة وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة في وسط الصحراء .

هذا وقد ذكر بعض من شهدوا هذه الحوادث أنه أشيع وقتئذ عند قدوم هذا الرسول العثماني أنه كان موفدا إلى السيد المهدي من قبل (مجلس الأعيان) باستانبول ولو أن هذا المجلس ما كان يستطيع أن يفعل ذلك في الحقيقة من غير موافقة السلطان عبد الحميد وأمره .

وظاهر من القصة التي رواها الأمير شكيب ، وهي قصة صحيحة في جوهرها وتفصيلها أنه كان من أثر زيارة عصمت بك لجغوب أن السيد المهدي لم يلبث أن قرر بعدها مغادرة الجغوب إلى الكفرة ، ويؤيد هذه الرواية ما جاء في ذلك الجزء الذي وقع بأيدينا من تاريخ السيد محمد الشريف . ويبدأ هذا الجزء بذكر « حكايتين عجيبتين عن الأستاذ (أي السيد محمد المهدي) رضى الله عنه عند ما أمر بالخروج من الجغوب وشق ذلك على أهلها ، ويقصد السيد أحمد الشريف (بالأمر) إرادة المولى جل شأنه وهما حكايتان بشير مضمونهما إلى السبب الذي دعا السيد المهدي إلى الخروج من الجغوب والارتحال إلى الكفرة . ويؤخذ من الحكاية الأولى أن من الخير لكل جماعة أن يبقى زعيمها ورئيسها في حفظ وضون لأنه متى كان الرأس موجودا ، فالذي يذهب (غيرها) يأتي الله من يكون مثله أو فوقه أو دونه ، . ويؤخذ من الحكاية الثانية ، أنه من الخير الانتقال إلى محل أكثر أمنا وأبعد مثلا في الجنوب اذا تحولت أنظار الناس إلى الجغوب . قال السيد المهدي رضى الله عنه رأيت نفسي فوق جبل متسع ، وهو جبل يراه الذاهب إل قارة الشيبات ، مع رجل من الصالحين السائحين بالجهة الجنوبية من أرض الجغائب . فذهب في إلى حافة الجبل ، واذا بالناس يرون من تحته ما بين رايح وغاد ويرفون بعض الأحيان وجوههم إلى أعلى الجبل ولا يرون شيئا . يظهر ذلك من روية أعينهم فقال لي أترام ينظروننا ، فقلت له لا . فقال وترام ينظرون اليك وهم لا يبصروننا فما داموا على هذه الحال فأنتم مستقرون في محكم الآن ، فاذا التفتوا اليكم فارحلوا هكذا ، وأشار إلى جهة الجنوب . ثم تنحى عن حافة الجبل وجلس فجلست معه وتحدثنا ساعة فطلع لنا رأس انسان من ناحية وطأطأ رأسه ، ثم آخر من جهة أخرى وطأطأ أيضا . فقال الصالح هيا وأشار بيده إلى الارتحال ، وقام مسرعا

وكانت مساعي الدول الأوروبية في الآستانة ضد السيد من ناحية ، ثم إرسال الرسل والوفود من قبل السلطان إلى السيد للاستطلاع ولاخباره بشكايات هذه الدول وتخرج مركز السلطان بسببها من ناحية أخرى ، دليلا كافيا على أن الجغوب قد أصبحت موضع أنظار الجميع ، وأن السلامة صارت تقضى بالانتقال منها والتوغل جنوبا في الصحراء الى مكان يكون أكثر أمنا من سابقه وبعيدا عن نفوذ الدول وتقلبات السلطان العثماني نفسه . وهكذا قرر السيد الارتحال من الجغوب إلى الكفرة .

د فنى يوم الاثنين الموافق تسعة من شهر شوال ، (١٣١٢ م) - الموافق ١٥ ابريل ١٨٩٥ - دخلا (أى السيد المهدي وشقيقه السيد محمد الشريف) الروضة الشريفة (حيث ضريح والدهما السيد محمد بن على السنوسى الكبير) للوداع ... وفى صبيحة يوم الخميس الموافق اثنين وعشرين من الشهر المذكور ، (و ١٨ ابريل ١٨٩٥) ودعا الأهل والإخوان . . وفى عشية ذلك اليوم المذكور كان ارتحالها من زاوية الجغبوب متوجهاً إلى الكفرة ، . فكانت رحلة طويلة استغرقت شهرين تقريباً . كتب أخبارها مفصلة فى تاريخه السيد أحمد الشريف ، وكان قد رافق والده السيد محمد الشريف فى هذه الرحلة ، فوصف الأودية وكثبان الرمال والواحات الصغيرة والخطايا (جمع حطية) المبعثرة على طول هذا الطريق الصحراوى ، والجبال (أو القارة والقارات) ، كما ذكر أنواع النبات التى تنمو فى هذه الجهات ، والحيوان الذى يعيش بها ، هذا عدا ما أثبتته من الحوادث التى وقعت لهم فى أثناء سيرهم . فكان من بين الخطايا التى نزلوا بها واستسقوا من مائها ، حطية الزريرى وأبى سلامه وأبى علاوة ، وهذه الحطية الأخيرة كان السيد محمد بن على السنوسى الكبير قد مر بها ، ثم مروا بآبار الطرفاوى والسبانية . وحدث فى أثناء نزولهم (بحجر البقر) أن قدم عليهم جماعة د من ناحية العقبة من محل يقال له الأخصاب وبه زاوية الأستاذ رضى الله عنه وأهلها يقال لهم عائلة بواصبيح ، وأتوا معهم بكتب من اخوان زاوية الجغبوب ، ثم مروا على (قارة) تسمى (بالفرودى) ثم نزلوا بعد ذلك بحطية خود . ومن الخطايا التى نزلوا بها ، حطية المحطم .

وفى أول مايو ١٨٩٥ ضربوا خيامهم بوادى قطمير ، ويقع شرقى بلدة جلو وبينه وبينها مسيرة نصف يوم ، وأقاموا بهذا الوادى ستة أيام ، وأرسلوا إلى الوكيل الموجود بزاوية جالو حتى يمدم بما يحتاجون إليه من (العلف) ، فسمع الأهلون بذلك : فجاءوا بخير كثير من كل ما يحتاج إليه تبرعاً منهم وطلباً للثواب من الملك الوهاب . وقدم فى هذا الوادى خلق كثير من المجاورة والأواجلة والزوية أكثر من ألف نفر وقدموا من الأغنام وغيرها شيئاً كثيراً ، وقدم قائمقام ذلك البلد ومعه نحو عشرين من عسكره والقاضى والكاتب ، فأجزلوا لهم الضيافة وأنعموا عليهم غاية الإنعام رضى الله عنهم . . . (ثم) قدم سيدى محمد بن الشفيح ، وهو من الذين رافقوا (السيد محمد بن على السنوسى الكبير) فى تغريبته الأولى من الحجاز إلى ناحية الجبل الأخضر ، ، ثم ارتحلوا من وادى قطمير ، ونزلوا فى زاويته ، وكان السيد السنوسى الكبير د يحرض على عمارتها كثيراً ، ولو أنها بعد إنشائها لظروف متنوعة أهمل شأنها : ثم نزلوا بمحل يقال له (الأثيلة) . وفى يوم ٢٥ ذى القعدة ١٣١٢ . (٢٥ مايو ١٨٩٥) بلغوا حطية تازربو ، بعد اجتياز مفازة صعبة المسالك . وتازربو هذه

أول وادى الكفرة ، وهى الكفرة البحرية ، وقد بنى السيد المؤسس الكبير زاوية فى محل يقال له الوادى ، وسكانها عرب يقال لهم (أزوية) . وفى هذه الخطية مرض السيد محمد الشريف مرضاً شديداً . ثم نزلوا بحطية (بالزيمة) . ويقول السيد أحمد الشريف ، أن السائح البروسى — ولعله يقصد جيرار رولف الذى زار الكفرة فى عام ١٨٧٩ — الذى أتى إلى الكفرة سابقاً قال هذه الخطية فيها ثلاثة معادن ذهب ونحاس حديد ، ثم قصدوا حطية ريانة . وأخيراً فى يوم الثلاثاء ١٧ ذى الحجة ١٣١٢ (١١ يونيو ١٨٩٥) دخلوا زاوية الجوف ، التى هى المقصود من هذا السفر .

واحتفل احتفالاً عظيماً بقدم السيد أهل الجوف وأهل الخطايا المجاورة وهى بومة وبوينة وبوام وبويم والزرق والتوبات والطلييب والطلاب والحوارى والهويورى ، والعزيلة والأراك ، ويقال لها جميعاً حطايا قباو ، وأكثر سكانها قبيلة من العرب يقال لهم (أزوية) وهم الأكثر ، وقبيلة من السودان يقال لها تباوية ، ثم جاءت الوفود ترحب بالسيد من كل مكان ، وكان من بين الذين حضروا للزيارة والترحيب أحد كبار الإخوان ومقدميهم ، سيدى محمد بن عبد الله السنى ، فى نفر من جهة فزان ، . وأما السيد المهدي فقد مكث بالجوف ثلاثة شهور تقريباً ، وكان أول ما عنى به ، أنه أرسل فى ٢٥ ذى الحجة — ١٩ يونيو — (المرتضى بن أبى خريص) يحمل كتاباً إلى يوسف سلطان واداي ، يخبره فيه بوصوله إلى الكفرة ، كما أرسل آخراً يدعى (رقاحة) بكتاب إلى والى ولاية بنغازى ، . وفى ٢ يولييه وصل سيدى محمد بن عبد الله التواتى من الجغبوب ومعه كتب من أهلها ، . وفى ربيع أول عام ١٣١٢ هجرية (وأغسطس ١٨٩٥) شرع السيد فى بناء زاوية جديدة اختار لها موقعا منيعاً فوق جبل شامخ بحرى زاوية الجوف وسماها (التاج) . ثم أرسل بعض الإخوان لبناء زاوية أخرى فى (ريانة) وكان الذى أنشأ زاوية الجوف ، عمر أبو حواء ، أحد تلامذة السيد محمد بن على السنوسى الكبير ، وقد أطلق عليها اسم (زاوية الأستاذ) تكريماً للسيد المؤسس .

وأما انتقال السيد من الجغبوب إلى الكفرة ، فقد أحدث ، كما قال بعض المؤرخين ، تضارباً فى الأفكار حتى غاض الناس فى أسبابه كثيراً ، فقال بعضهم إنه لما استقر قوم الإنجليز بمصر أجفل السيد السنوسى ووضع نصب عينيه الابتعاد فى الصحراء وانتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكاناً وأعز منالاً ، وقال آخرون بل إن السيد منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع الطليان . وإن هؤلاء لا بد فى يوم من الأيام أن يفزوا طرابلس وبرقة ، فشرع يهيئ اتباع الطريقة للمقاومة ، ويعلم فضائل الجهاد ، كما عزا آخرون هذا الانتقال إلى

رغبة السيد في أن يجعل مركزه بعيدا ما أمكن عن مطارح أنظار الدول الاستعمارية ليتخلو له الجو في تجهيز قوته وبث دعوته ، فانتبذ هذا المكان القصى في الصحراء في المنطقة الوسطى بين ساحل البحر الأبيض المتوسط والسودان ، زد على هذا أن السيد كان يقصد من وجوده بالكفرة إلى جانب الدعوة إلى الإسلام بين شعوب التبو والتوارق والسودان وغيرهم ، أن ينشر العمران في هذه الواحة (الكفرة) ويبني الزوايا التي هي دائما وسيلة لزيادة الغرس والفلاحة وترقية العقول والمدارك ، وفي رأى بعض الكتاب أن زيارة الحاج رشيد باشا للسيد في الجغبوب في عام ١٨٨٩ كانت من الأسباب التي جعلته يدرك أن قربه من مقر الحكومة والولاية العثمانين مجلبة للأخطار ، وإن من واجبه الابتعاد ما أمكن عن بنغازى وطرابلس ، وخصوصا بعد أن اتجهت إليه أنظار الدول الاستعمارية وكثرت شكاياتها من السنوسية ونشطت في الآستانة مساعيها ضده . أضف إلى هذا ما قاله آخرون من أن السيد « ساءته معاملة بعض مأمورى الترك والتقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية في الجبل الأخضر ، وشاع أن الدولة أخذت تشبهه في أمره وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة ، فقصده أن يعتزلها إلى الصحراء الكبرى وقد تكون بعض هذه الأسباب أو جميعها صحيحة .

على أن الذى يعنيننا أن السيد لم يلبث عند وصوله إلى الكفرة أن أوفد إلى الآستانة أجد الشيوخ الموثوق بكفاءتهم وإخلاصهم ، والذين خدموا السنوسية طويلا ، المرحوم الشيخ عبد العزيز العيساوى ، حتى يؤكد إخلاص وولاء السيد المهدي الخليفة المسلمين ، وصاحب الإمامة الاسلامية العظمى وتأيبده للدولة العثمانية ، ثم زوده بكتاب إلى جلالة السلطان يطلب فيه - إلى جانب إظهار الولاء - توكيد الفرمانات التي صدرت للسنوسيين والتي جردها وأكدها السلطان قبل ذلك مرة على أيدي الشيخ عبد الرحيم المعقوب والشيخ أبى القاسم العيساوى ، وحتى يصدر الباب العالى الأوامر والتعليمات اللازمة لرجال الحكومة في بنغازى وطرابلس ليعملوا بموجبها . فوصل المرحوم الشيخ عبد العزيز العيساوى إلى الآستانة في سبتمبر ١٨٩٥ ، وكان يصحبه في هذه الرحلة ابن أخيه الشيخ محمد الأخضر العيساوى ، أحد مؤرخى السنوسية الموقفين ، ونزلا ضيوفا على الدولة ، ولقى الشيخ عبد العزيز كل حفاوة وتكريم ، ونجح في مهمته نجاحا كبيرا ، فلم يلبث الباب العالى أن أصدر أوامره « وجرى التأكيدات المهمة إلى متصرفية بنغازى وولاية طرابلس الغرب بموجب ارادات سنوية في كمال الاهتمام والرعاية والاحترام والنظر في حق الاخوان جميعا مع كافة الزوايا الموجودين على موجب الفرامين (الفرمانات) الموجودة ومزيد الاعتناء في انفاذ أحكامهم العالية والحذر من المخالفة أو إيقاع أدنى شيء مغاير لأحكامهم ورضاء العالى (أى السلطان) ، . وفي ٣ نوفمبر

١٨٩٥ أرسل إبراهيم درويش باشا ، ياور أكرم حضرة السلطان ، خطابا إلى السيد محمد المهدي السنوسي يخبره فيه بالإجراءات التي اتخذها الباب العالي في هذا الشأن .

غير أن بعثة الشيخ عبد العزيز العيساوي كانت إلى جانب ذلك ذات آثار أخرى هامة فقد اتهم السلطان عبد الحميد فرصة حضور الشيخ بكتاب من السيد المهدي ، وقرر إيفاد صادق بك المؤيد مرة ثانية لزيارة السيد في الكفرة ، بصحبة المرحوم الشيخ عبد العزيز العيساوي ، وزوده برسالة سلطانية ؛ كما أرسل السلطان إلى السيد مع الشيخ عبدالعزيز نسخة مطبوعة من كتاب صحيح البخاري الشريف هدية له خاصة ، ، وهذا خلاف عشرة نسخ آخر تعطى من (طرف السيد) لمن فيه الأهلية ، ؛ كما أرسل إليه أيضا ، ساعة لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة له بصالح دعواته لجنابه العالي (أي للسلطان) ، وان كانت ليست بشيء غير أن القصد إبراز علامت توجهاته السنية .

وفي ٢ ربيع الآخر ١٣١٣ (٢٢ سبتمبر ١٨٩٥) بعث (باشكاتب سراي يلدز السلطانية) برسالة طويلة إلى السيد المهدي كان أهم ما جاء فيها - إلى جانب إخبار السيد بوصول رسوله وأحد أتباعه عبد العزيز أفندي يحمل « الأحزاب المباركة التي أهديتموها لسيدنا حضرة أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين وحامي الشرع الأنور المبين أيده الله ونصره الله وأعلا بدوامه كلمة الله في بلاد الله آمين ، ؛ ثم ذكر الهدايا التي تفضل الجناب العالي بإرسالها إلى السيد ، وإرسال صادق بك ، أحد الياوران الحضرة الملوكانية إلى صوبكم ، ؛ - كلام طويل في إظهار شأن الخلافة الكبرى والإمامة الإسلامية العظمى وواجب تأييدها ، ثم تحذير السيد من مساعي وأطماع الدول الأجنبية ، وعمل الرسائل التبشيرية في « ديار السودان » ، مما من شأنه جميعه إقامة البرهان على أن السلطان العثماني في هذه الآونة كان ينبغي أمرين : أولها ، استمالة المهيد قطعا إلى جانب الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة الإسلامية الكبرى ، وتأييد السلطان بوصفه خليفة المسلمين ؛ وثانيهما ، تحذير السيد من أطماع الدول المستعمرة من جانب ثم حثه على مواصلة الدعوة للإسلام والدين الصحيح بين الأقسام الذين يريد المبشرون والرهبان بفسر المسيحية بينهم . فجاء في هذه الرسالة : « ومثلكم من يعلم حق الخلافة الكبرى وشأن الإمامة الإسلامية العظمى . وحيث أن الخلافة المنصورة العثمانية والإمامة المقدسة الإسلامية قد أثبت الله منذ مئات من السنين في البيت العالي العثماني وجودها وحقق عهودها ؛ وقد اقترض الله نصر هذه الخلافة المؤيدة العثمانية وطاعتها على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر في الباطن والظاهر لا سيما في مثل هذه الأوقات ، فإن الأغيار من الكفار بل والملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالمون في السر والعلن خصومة للسنة

السنية على هدم منار الخلافة العثمانية الاسلامية (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) . وحتى من المسموع أن جماعة من الانكليز والاياليان وغيرهم قد تدرجوا إلى أطرافكم بطريق السياحة وأنتم تعلمون بالفراصة وقرائن الأحوال ما في أنفسهم وما يحتاج سرائرهم من المقاصد المضرة للدين وللسلطين ؛ فأول ما يؤمل منكم وان كان هو المفروض كما هو معلوم لدى حضرتكم ، أن تنوروا أذهان محبيكم ومن يواليكم من الطلبة والتلامذة قريبا وبعدا في جميع الاتجاه التي تسمع بها كلمتكم وتؤثر بها نصيحتكم بصدق الإخلاص للخلافة المقدسة العثمانية والإمامة الكبرى الاسلامية (التي لا يسمع الله ولا قدر) لو بلغ الأعداء والملاحدة فيها أربهم لانهم شرف الدين المين وتفرقت شيئا جماعات المسلمين ، ولصارت الأمة فرقا فرقا وتمزقت إربا إربا . وهذا والعياذ بالله يكون ذلا لكل موحد على وجه الأرض بالطول والعرض بل هو بما يجرب شأن الشريعة ويجعلها بعد العز وضيفة ، وذلك مما يحزن القلب الأطهر والأقدس النبوي في الضريح الأنور المصطفوي .

« وهل أنصار الخلافة المقدسة في كل عصر وزمن إلا مثلكم من العلماء الذين يخشون الله ويحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمل بصدقكم وديانتكم وطيد أن تنفروا من الأعداء وأن تربطوا قلوب الأوداء لمقام الخلافة السعيد ربطا صالحا شرعيا ينتج ودا خالصا دينيا . فان أمل سيدنا ومولانا خليفة المصطفى الأعظم صلى الله عليه وسلم السلطان الأعظم أيده الله وسلم بصدقتكم وكمال فطنتكم فوق هذا . على أن القصد العالى اتحاد المسلمين كما أمر رب العالمين ، وما الغاية من هذا كله إلا المدافعة عن الحقوق الدينية والسلامة والأمن في الممالك المحروسة الإسلامية العثمانية من التجاوزات الغير المشروعة من أولى الأطباع السيئة الردية وإعلامكم بكل ذلك وطلبنا للدعاء من طرفكم خاصة ومن جملة المحبين والتلامذة عامة بنصرة سيدنا الخليفة المعظم وسلامته وحفظه في ذاته وبلاده . إلى أن قال : « وأبين لحضرتكم أن من المسموع أن بعض الرهبان لعلمهم بأن السودان أكثرهم على جهل وغباوة ويرغبون بالخرز ومثله من الأمتعة اللماعة ، فهم يأخذون منها الكثير ويذهبون إلى ديار السودان ومعهم ترجمة الإنجيل وغيره من كتبهم بالعربية ، فبعد إهداء الأعيان أشياء من الخرز وأمثاله يقرأون لهم من كتبهم وكانهم من وعاظ الإسلام وبالتدرج يضلونهم والعياذ بالله ويدخلونهم في دينهم . فكذلك الاهتمام بهذا الشأن بواسطة العلماء والصلحاء من تلامذتكم هو من أهم المهمات الدينية فيلزم به بذل الوسع دفعا لهذا الضرر الدينى وقيام ما بواجب الإخوة الإسلامية . »

هذا وأما صادق بك فقد قام برحلته في نوفمبر ١٨٩٥ ، ووصل إلى بنغازى ، ثم سافر

منها إلى الكفرة في ركب حافل من كبار السنوسيين وأعيان بنغازي ، وجد في السير حتى كان يقطع مدة الست عشرة ساعة كل يوم على متون الإبل ، وعند وصوله إلى التاج استقبله السيد المهدي استقبالا كريما ، واحتفل بقدمه احتفالا عظيما ، وأقام صادق بك في ضيافته السيد أبياما ، وأبلغه تحيات السلطان ، وقدم إليه هدايا جلالة ، ونال من السيد جوابا بأنه لا يقصد من كل أعماله سوى خدمة الإسلام وبت الدعوة لطاعة السلطان خليفة المسلمين : وسر صادق بك ما شهده من حماس الإخوان ونشاطهم وولاء السادة السنوسية عموما للخلافة واستعدادهم لتأييدها ، فأنشأ قصيدة يمدح بها السيد المهدي ، جاء فيها :

يا ابن السنوسى يا من شمسك سطعت بدرا أضواء قلوب البدو والحضر
لو أرسل الله بعد المصطفى رسلا لكنت أول مبعوث إلى البشر

وقد أرسل السيد المهدي مع صادق بك خطابا إلى طاهر باشا متصرف بنغازي ، يدحض فيه مفتريات الأجانب وشاياتهم لدى السلطان ضده ، فقال رحمه الله : « وقد أشرت إلى ما بلغه (أى السلطان عبد الحميد) عن بعض الأجانب ، وغض الطرف عنه لكونه عاريا عما يوارى عورته من المين ؛ لم يخطر لدينا بخاطر ، وبحسب أن منبته يروج ، وأن أمنيته تذكو وتموج . كلا فإن الناقد بصير وميزان عدله نصره الله في غاية التحرير ، ولسان حاله حرى بالاستشهاد على رؤوس الأشهاد .

يخالون أن الطود يؤله الحصاة وأن السنت بالنيح يروع ..
فلا يملك العلياء إلا سميع وها أنذاك الأرنجى سميع

ومن ذلك الحين بقيت العلاقات بين السلطان عبد الحميد والسيد المهدي على خير ما تكون صفاء ومودة ، ومنذ أن أطمأن السيد إلى توكيد الفرمانات السلطانية في مصلحة السنوسيين وزواياهم العديدة في برقة وطرابلس ، شرع يهتم بما جاء من أجله إلى الكفرة ، فكانت هذه الواحة في السنوات القليلة التالية (١٨٩٥ - ١٨٩٩) مركز نشاط السنوسية العظيم في الصحراء الكبرى وأفريقية الغربية .

وفي الحقيقة كان ينتظر السيد المهدي عند انتقاله إلى الكفرة برنامج واسع ، حاول بعض الكتاب أن يصفوه استنادا إلى ما عرفوه عن نشاط السيد أيام وجوده بالجندوب ، ذلك النشاط الذى ذكرنا طرفا من حقيقته عند الكلام عن العلاقات التى حاولت بعض الدول انشاءها معه ، وتلك التى قامت بينه وبين السلطان العثمانى من جهة وبين الامارات الاسلامية الواقعة فى قلب الصحراء الكبرى الافريقية من جهة أخرى ؛ هذا عدا تأسيس الزوايا الكثيرة

والعمل على نشر نور الهداية والعرفان ، والتبشير بالاسلام بين شعوب التبو والتوارق وغيرهم وكان طبعيا أن يجد هؤلاء الكتاب صلة مباشرة بين انتقال السيد المهدي من الجنبوب إلى الكفرة ، وبين ما وقع بعد ذلك من حوادث ذات شأن في الجهات الممتدة من واحة الكفرة إلى بحيرة تشاد ؛ وهذا في الوقت الذي شاهدوا فيه السنوسيين ينشئون زواياهم في مراکش والجزائر وتونس وفي الصحراء الكبرى لدى التبو والتوارق ، ثم في مصر والصومال وبلاد العرب (الحجاز) والعراق ، وهذا عدا ما كان لهم من أتباع في الآستانة والهند ، ناهيك بزواياهم العدة في برقة وطرابلس .

ومع أن هذا النشاط العظيم كان يقض مضاجع الدول الغربية التي أخذت على عاتقها حماية الرسائل المسيحية التبشيرية التي ذهبت إلى مجاهل القارة الأفريقية تروج لدعوتها بالشكل الذي وصفه كتاب السلطان إلى السيد (في سبتمبر ١٨٩٥) ، ثم طفقت هذه الدول تبذل كل جهد من أجل الحد من نشاط السيد عن طريق الباب العالي تارة وعن طريق الاتصال المباشر بالسيد نفسه ومحاولة استمالته حتى يقلل من نشاطه تارة أخرى ، ووجدت عندما باتت مساعيا لدى السيد المهدي بالفشل ولم تلبس منه ذلك التراخي الذي كانت تنشده ، أن تهول من أمر الدعوة السنوسية الكبرى ، فأخرجتها عن الحدود التي وضعها السيد المؤسس والتزمها خليفته الأول ، كدعوة للإصلاح الديني والاجتماعي في العالم الاسلامي قاطبة ، وصارت تعزو إليها الرغبة في تأسيس ملك قوي الدعائم بنازع دولة الخلافة القائمة ذاتها السيطرة والسلطان على هذا العالم الإسلامي الواسع ، تبغى ولا شك من وراء هذا الزعم والادعاء إلقاء بذور الفتنة والاضطراب في العالم الإسلامي ، وإثارة عداوة دولة الخلافة ضد السنوسيين حتى تقوض أركان امارتهم ؛ - نقول ومع هذا كله فقد ظل هذا الزعم أو الادعاء يجد صدق في كتابات فريق من أولئك الذين بحثوا في زماننا هذا نشاط السنوسية العظيم في عهد السيد محمد المهدي وخصوصا في فترة انتقاله من الجنبوب إلى الكفرة ، ثم من الكفرة إلى (قرو) بعد ذلك . فذكر الكاتب الايطالي (سيرا) أن انتقال السيد إلى الكفرة ، في قلب الصحراء وبعبدا عن أي اشراف أو تدخل من جانب الحكومة العثمانية والحكومات الغربية على السواء ، قد كشف عن نواياه الصحيحة ، أو بالأحرى عن الأهداف الزمنية ، أو - الدنيوية السياسية - التي صارت (الطريقة) تبغى تحقيقها ، وهي إنشاء ملك مستقل كامل السيادة يمتد عبر القارة الأفريقية من الحدود المصرية شرقا إلى شواطئ الاطلنطي غربا ، فيضم بين جوانبه الأقطار الليبية وبرقة وطرابلس والقران ، ثم صحراء الجزائر ومنطقة تشاد ويسيطر على كل طرق التجارة من ساحل البحر الأبيض شمالا إلى السودان جنوبا ؛ ولا غنى

في تأسيس هذا الملك العضود عن إحكام السيطرة على كل من برقة ومنطقة (سرت) ، وذلك لأهميتهما كنافذ على البحر الأبيض المتوسط ، تأتي منها الأسلحة والذخائر والمؤن والمتاجر عموماً كما تصدر منها منتوجات هذه الأباطورية المستقبلية ، الشاسعة .

ومع أن السنوسية كانت مهيئة بفضل تعاليمها ومبادئها وتنظيماتها وتشكيلاتها ثم زواياها العديدة للاضطلاع بأعباء الحكومة وسياسة شئون الناس في أي مكان يثبت قدمها به ، ومهد لها هذا التهيؤ تشييد صرح تلك الإمارة التي فصلت أركانها في فصل سابق ، فالذي لا شك فيه أن هذه الأهداف الزمنية البحتة التي عزاها (سيرا) وأمثاله للسنوسية على أيام السيد المهدي ، وهو العهد الذي بلغت فيه السنوسية بلا مرأ أوج العظفة والكمال ، كانت خيالية أكثر من أي شيء آخر ؛ والأدلة على ذلك عديدة . لعل من أهمها أن السنوسية تعتمد قبل كل شيء على سلطانها الروحي الخالص في فرض سيطرتها على الشعوب التي دانت للإسلام أو تلك التي اعتنقت دعوة الإصلاح الديني عن اقتناع وعتيدة . ولم يذكر التاريخ مثلاً واحداً استند فيه السنوسيون إلى القوة والسلاح من أجل الترويج لدعوتهم . أضف إلى هذا أن الدعوة السنوسية كانت لا تعرف حدوداً دولية ، لاني عهد السيد المؤسس ولا في عهد خليفته الأول : فلم تظهر حاجة السنوسية لمثل هذه الحدود إلا في وقت متأخر عند ما حدث ما كان يتوقعه السيد محمد ابن علي السنوسي الكبير ، ثم السيد المهدي من بعده وظل كلاهما يتخذ العدة لتلافي خطره مدة طويلة : وهو إغارة الإيطاليين (أو النابليين) على برقة وطرابلس واحتلالهم هذه البلاد التي نبتت فيها السنوسية وترعرعت . حقيقة تعرضت السنوسية قبل ذلك لخطر الغزو على زواياها ومؤسساتها عندما اتفق المستعمرون على تقسيم القارة المظلمة وزحف الفرنسيون في عهد السيد المهدي نفسه على الإمارات الإسلامية في أفريقية الغربية والوسطى واشتبكوا مع السنوسيين في حرب مريرة كما سيأتي ذكره ، ولكن معقل السنوسية ذاته كان بمنأى عن هذه الأخطار جميعها ، وظل الحال على ذلك حتى قامت الحرب الإيطالية الليبية (١٩١١) . ومن ذلك الحين صار لا غنى عن رسم حدود هذه الإمارة لدفع الاعتداء عنها ، ولضمان بقائها تنشر من عقر دارها أنوار الهداية والعرفان ، وتدعو إلى استقرار السلام بين تلك الشعوب التي قبلت زعامتها الروحية من أزمنة طويلة : رسالة السنوسية الصحيحة .

وعندما انتقل السيد محمد المهدي من الجذب إلى الكفرة كان ينبغي تحقيق أغراض أكثر وضوحاً وبساطة من مشروع إنشاء تلك الأباطورية المستقلة التي تحدث عنها الكاتب الإيطالي (سيرا) . فكان يعني في الحقيقة - كما كان يعني ذلك أيضاً السلطان عبد الحميد نفسه - مقاومة جمود المبشرين في أفريقية الغربية ؛ ثم نشر الهداية والعرفان ، عن

طريق الدعوة إلى الاسلام بين التبو والتوارق والآير ، وغير هؤلاء من الأقوام الوثنيين أو غيرهم من الذين لم تتوطد بعد دعائم الاسلام بين ظهرانيهم . وكان سيل السنوسية إلى ذلك دائما إنشاء الزوايا التي لم تكن فقط (منائر) للهدى والعرفان ، بل كانت أيضا (مراكز) حكومية تسهر على الأمن وتعمل على استقرار السلام في الجهات التي تنشأ بها . أضف إلى هذا أن السيد المهدي كان يدرك تماما أن توثيق عرى الصداقة مع سلطنة (واداي) ، ثم إنشاء الصلات الودية مع بقية الامارات الاسلامية في جهات بحيرة تشاد مثل برقو وكاتم وغيرها ، خير وسيلة لانتشار الاسلام الصحيح وذيوع المبادئ والتعاليم السنوسية من جهة ، ثم تجنب الاخطار التي أحذقت هذه البلاد من جهة أخرى .

وكان يهدد هذه الأقاليم عندما قرر السيد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة (في عام ١٨٩٥) خطران كبيران ؛ نجم أحدهما عن قيام سلطنة راج المشهورة في السودان الغربي ؛ بينما كان عزم الفرنسيين على التوغل في القارة وبسط سلطانهم على الامارات الاسلامية في أفريقية الغربية مصدر الخطر الثاني .

وعلى ذلك فإن السيد المهدي بمجرد وصوله إلى الكفرة عمل على توطيد العلاقات بينه وبين واداي فأرسل إلى سلطانها يوسف بعد وصوله إلى (الجوف) بأسبوع واحد فقط رسولا هو (المرتضى أبو خريص) يحمل إليه كتابا منه ؛ ثم ازدادت الروابط بين السيد المهدي وسلطان واداي في المدة التالية ، حتى طلب يوسف في أواخر ١٨٩٧ أن يوفد السيد إلى (أبشه) أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوبا خاصا للسنوسية في عاصمة بلاده ؛ فأرسل إليه سيدي محمد بن عبد الله السني ، الذي ذكرنا أنه حضر في جماعة من الفزان لزيارة السيد والترحيب به عند وصوله إلى الجوف . وكان سيدي محمد السني من تلامذة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير ، وأسس في طرابلس زوايا السنوسية المشهورة في القصبات ، والجبله ، والحربة ، ومزده ؛ فوطد نفوذ السنوسية في واداي . وكذلك أدرك السيد المهدي نجاحا عظيما في (برقو) فأسس السنوسيون زواياهم في عين كلك وقايا والواجنقة وقرو . وطلق السنوسيون ينشرون نفوذهم في كاتم .

وفي هذه الأثناء كان أكبر ما يخشاه السيد المهدي ازدياد سطوة (راج) لدرجة تلحق الوهن بالامارات الاسلامية حول بحيرة تشاد ، فلا تستطيع مقاومة خطر أشد وأقوى كان يهدد سلطنة راج والسنوسية والامارات الاسلامية جميعا ، هو خطر الفرنسيين الزاحفين على هذه الأقطار يريدون امتلاكها . وكان راج هذا من عبيد الزبير باشا رحمت ، اشترك في ثورة سليمان بن الزبير ضد سلطان الحكومة المصرية في بحر الغزال ، حتى إذا انهزم سليمان

وقتل وأخفقت الثورة (١٨٧٩) ، جمع راج فلول الجيش وانسحب إلى (دار منغا) ، وطلق
يشن الغارات منها على البلدان المجاورة ؛ فكان تارة يفزو دارفور ، وأخرى واداي ؛ ثم
واصل غزواته في باطن السودان ، واتخذ البلاد الواقعة في جهة نهر شارى مركزا له ؛ وأخذ
ساعده يقوى تدريجاً حتى استطاع أن يخضع الإمارات المجاورة ، فاستولى على الباقرى
في عام ١٨٩٢ ، والتجأ سلطانها إلى بلاد الشارى الأسفل ومنها إلى واداي (١٨٩٤) ؛ ثم غزا
راج (بورنو) ، وهى مملكة في السودان إلى الجنوب والغرب من بحيرة تشاد ، فهزم
سلطانها هاشم ودخل عاصمتها (كوكا) ، وجعل عاليها سافلها ، ثم اعتصم ببلدة اسمها (ديكوا)
ومع أن المناوشات استمرت بين راج وبين عم سلطان بورنو السابق ، ثم أحد الزعماء
الدينين في هذه البلاد ، فقد ظل راج مسيطراً على (بورنو) . وبذلك استطاع راج بعد هذه
الحروب الطويلة أن ينشئ لنفسه ملكاً مستقلاً على ضفاف الشارى (وهو النهر الذى ينصب
في بحيرة تشاد) وحق له أن يطمع في تأسيس سلطنة عظيمة .

يد أن نجاح (راج) هذا كان له نتائج خطيرة ؛ لأن الفرنسيين الذين كانوا قد بدأوا
يتغلغلون في أفريقية الغربية عن طريق نهر السنغال ، سرعان ما وطدوا سلطانهم في جهات
السنغال الأعلى على أيدي (فيدهرب) (١٨٦٥) ، كما أنهم أسسوا مستعمرة جديدة في الكنفو
لم يلبث (دى برزا) أن وسع حدودها ووطد أركان الحكومة في أنحائها (١٨٨٥) ، ثم امتد
نفوذ الفرنسيين أيضاً على شاطئ النيجر الأعلى ، فتمكنوا من احتلال تمبكتو في يناير ١٨٩٤
على أيدي (بونيه) . ثم عقدوا في هذه الأثناء اتفاقاً مع الانجليز (١٨٩٠) لاعتبار معظم
الصحراء الوسطى والغربية منطقة نفوذ فرنسية ؛ وآخر مع الألمان (١٨٩٤) لاعتبار
الأراضي الممتدة حتى بحيرة تشاد من ناحية وخط تقسيم مياه الكنفو من ناحية أخرى
مناطق تخضع للنفوذ الفرنسى أيضاً . وأمام ذلك كله لم تكن ثم مندوحة عن أن يفزعهم ذلك
الملك الكبير الذى كان (راج الزير) يبنيه لنفسه في هذه الجهات ذاتها . ولما كان راج
قد استولى عنوة على الباقرى ، وأرغم سلطانها على الفرار والنجاة بنفسه ، فقد سهل على
الفرنسيين استيلاء هذا السلطان إليهم ، تمهيداً لغزو سلطنة راج .

وكان طبعاً أن يلس السيد للمدى هذه الأخطار جميعها ، ويبذل الجهد لتوقها ؛
واستطاع بحكمته أن يحفظ نفوذ السنوسية كعامل من عوامل السلام في هذه الأقطار التى كان
يهددها راج بغزوه بين حين وآخر ، وكان مما ساعد على دعم نفوذ السنوسية في برنو وواداي
وغيرها أن (راج) نفسه منذ أن اطمأن إلى ملكة الجديد طفق ينشئ الصلات الودية مع
الإمارات الكبيرة المجاورة ، وصار يهيم ولا ريب أن لا يشتبك مع السنوسية في منازعات

خطيرة لبعده عن مركزه عن مقر السنوسية وممكن قوتهم من جهة ، ولأن توسعه كان يجرى نحو الغرب على شواطئ بحيرة تشاد الجنوبية والغربية في مملكة (بورنو) خصوصا . وعندما أصبح الخطر الفرنسي مائلا ، لم ير السيد المهدي بدأ من التدخل بين راجح وبين أمراء الدويلات التي اعتدى عليها ، خصوصا سلطنة باقيرى . فطفق يدعو إلى السلام بين هذه الإمارات في عام ١٨٩٨ ، على أمل أن يولف بين قلوب سلاطينها حتى يصبحوا قوة متحدة تمكنهم من الوقوف في وجه الخطر الزاحف عليهم جميعا . ولكن العداوة بين راجح وسليمان الباقيرى (غاورانغ) كانت متأصلة لدرجة ذهبت معها محاولات السيد المهدي سدى . بل إن (غاورانغ) لم يلبث أن تحالف مع الفرنسيين ، كما أن راجح من جهة أخرى كان في عداوة مستحكمة مع سلطان (زيندر) الذي رفض أن يدفع له الأتاوة التي كان يدفعها سنويا إلى (بورنو) ، وكان للسنوسيين زاوية في (زيندر) .

وفي منتصف يونيو ١٨٩٩ وصل الضابط الفرنسي (بريتونيه) إلى (كانو) ، وكان بها زاوية للسنوسيين . وعندئذ تقدم إليه راجح بقوة كبيرة صاعدا نهر شارى ، وظل يتنقل من بلد إلى آخر حتى وصل إلى (كانو) ، فأخلاها (بريتونيه) ، وانسحب مع قوات حليفه (غاورانغ) سلطان باقيرى إلى مكان يصلح للدفاع . ولكن (راجح) لم يلبث أن أوقع به وبجليفه هزيمة ساحقة في ١٧ يولييه من العام نفسه ، واضطر الفرنسيون إلى إرسال حملة أخرى بقيادة (جنتيل) ، كانت أكثر توفيقا من سابقتها ، فأجلت (راجح) عن (كانو) في أكتوبر ١٨٩٩ . وفي أواخر العام نفسه بدأت تتضافر قوات الفرنسيين وجيوشهم للاتحام مع راجح في معركة فاصلة .

وفي أثناء ذلك كله ، كان من الواضح إذا قدر للفرنسيين الانتصار على راجح في النهاية ، كما توقع كثيرون ، أن تكون خطوتهم التالية ، بمجرد وصولهم إلى شاطئ بحيرة تشاد احتلال كانم ، فينزعون من السنوسيين منطقة كانت بمثابة مخافر أمامية ، ويسبب ضياعها من أيديهم القضاء على نفوذهم في برقو وانيدى والكوار وغيرها ، ثم يمدد للفرنسيين بعد ذلك الاشتباك مع السنوسيين في حدود بلادهم . ولذلك قرر السيد المهدي الانتقال من الكفرة إلى محل قريب من مكان هذه العمليات الخطيرة . فغادر التاج إلى زاوية قرو في (برقو) في عام ١٨٩٩ (١٣١٧ هجرية) ، وخرج معه ابن أخيه السيد أحمد الشريف ، ثم مستشاره المخلص الأمين السيد أحمد الربى . وكما حدث عند انتقال السيد من الجغبوب إلى الكفرة قبل ذلك بخمسة أعوام تقريبا ، اختلف الكثيرون في تفسير أسباب هذا الانتقال وتوعدت أقوالهم ، ولو أنه كان من الواضح أن السيد إنما يريد من وجوده بواحة (قرو)

أن يستطيع تنظيم المقاومة واتخاذ الأبهة لمواجهة قوات الفرنسيين الزاحفة صوب بحيرة تشاد، والتي كانت تهدد (كانم) تهديدا كبيرا . فأرسل سيدي محمد البراني إلى (كانم) ، فبنى زاوية في (بير العلالى) ، وطلق يجمع جيوشا من التبو والتوارق وأولاد سليمان والزوية والمجابرة لمواجهة الزحف الفرنسى .

وأما الفرنسيون فكانوا قد استطاعوا إدخال (واداى) ضمن منطقة نفوذهم بفضل التصريح الانجليزى الفرنسى المعروف فى ٢١ مارس ١٨٩٩ . ومرت قبل ذلك فترة ، ضعف فيها نفوذ السنوسية بعد وفاة السلطان يوسف فى العام السابق ، لأن ابراهيم السلطان الجديد كان يريد التحرر من سيطرة السيد المهدي . ومع أن ابراهيم لم يلبث أن قتل (١٩٠٠) ، وتولى بعده السلطان أحمد ، ثم داود مره (ديسمبر ١٩٠١) ، فقد كان ظاهرا أن الفرنسيين بدأوا ينجحون فى التفاهم مع (واداى) وتوطيد أقدامهم فى هذه السلطنة ، وساعدهم على ذلك ولا ريب انتصار الجيوش الفرنسية على راجح الزير . وتشتيت ملكه . فقد زحفت إليه معا جنود البعثة الصحراوية ، وبعثة أفريقية الوسطى ، وبعثة شارى ، بقيادة (جولاند) و (مانيه) فى ديسمبر ١٨٩٩ ؛ ثم انضم إليهما فى السنة التالية القائدان (فورو) ، و (لامى) . وفى معركة فاصلة فى (لخته) دارت رحى الحرب فانكسر راجح وقتل فى ٢٢ ابريل ١٩٠٠ ؛ ثم ما لبث الفرنسيون بعد ذلك أن شتوا شمل القوات التى صمدت لهم بعدموت راجح بقيادة أولاده . وكان من أثر انهزام راجح وقله أن احتل الفرنسيون بلاد حلقائهم (الباقيرى) . كما باتوا يهددون (كانم) مباشرة .

وبالفعل تقدم الفرنسيون صوب (كانم) ؛ واستعد السنوسيون لمقابلتهم ، فوضعوا حامية كبيرة فى (بير العلالى) ، وعهد السيد المهدي إلى ابن أخيه السيد أحمد الشريف بإدارة الحرب والجهاد ضد الفرنسيين ، واشترك فى القتال قواد من السنوسيين مرزون على رأسهم سيدي محمد البراني نفسه ، ثم قائد آخر أحرز فيما بعد صيتا وشهرة عظيمة ، وهو السيد عمر المختار . واستطاع المجاهدون أن يحرزوا بعض الانتصارات ، ولكن معدات الحرب الحديثة كانت لها الغلبة فى النهاية ؛ فانهزم سيدي محمد البراني فى معركة دامية فى يناير ١٩٠٢ على أيدي الضابط (تيتار) ، وسقطت (بير العلالى) فى أيدي الفرنسيين ، فهدم هؤلاء زاويتها وبنوا على أنقاضها قلعة منيعة ، وتم لهم احتلال كانم . فأحدثت هذه الهزيمة دويا كبيرا ، وكان من آثارها الخطيرة أن (واداى) التى ظلت طوال عهد السيد المهدي تقريبا من أشد الامارات الأفريقية الإسلامية ولاء وإخلاصا للسنوسية ، لم تلبث أن اعترفت فى نوفمبر ١٩٠٣ باحتلال

الفرنسيين رسمياً للباقيري وكاتم وغير ذلك من الأقطار التي دانت لسلطانهم . ومع ذلك فقد استطاعت السنوسية أن تسترد شيئاً من نفوذها القديم في (واداي) ذاتها ، بل وتمكنت بعد ذلك من تحريض سلطانها (داود مره) على استئناف الجهاد ضد الفرنسيين . ولكن لم يكن مقدرًا للسيد محمد المهدي نفسه أن يشهد حوادث هذا الجهاد الأخيرة . فقد وافاه القدر المحتوم فجأة وهو في (قرو) في ٢٣ صفر ١٣٢٠ (وأول يوتية ١٩٠٢) ، ونقل جثمانه الظاهر إلى الكفرة . وبذلك تكون قد انتهت حياة عظيم ، وأسدل الستار على فصل مجيد من تاريخ السنوسية الحافل بثقى المآثر الطيبة .

الفصل السادس

الجهاد : الحرب الليبية الايطالية

كان اشتباك السيد محمد المهدي مع الفرنسيين الطامعين في امتلاك السودان الغربي مؤذنا ببداية ذلك الجهاد الذي ظل السنوسيون يعدون أنفسهم لخوض غماره من مدة طويلة ؛ واستطاع السيد المهدي بفضل الخطة الحكيمة التي اتبعها مع الإمارات الإسلامية الأفريقية من جهة ، ومع دولة الخلافة على وجه الخصوص ، ثم مع الدولة التي أقامها محمد أحمد وخلفاؤه في السودان ، ثم مع بقية الدول الأوروبية ~~من جهة أخرى~~ ، أن يكرس جهود السنوسيين لمقاولة هذا الخطر الداهم .

وقد تقدم كيف أن السيد المهدي حاول أن يجمع كلمة امراء هذه الدويلات الاسلامية التي كان يهددها الغزو الفرنسي مباشرة ؛ ولكن العداوة المستحكمة بين هؤلاء الامراء تغلبت على كل حكمة وأصالة رأى ، قتم للفرنسيين احتلال باقيرمي ، وفوضوا عرش إمارة (راج) الكبيرة ، واستولوا على كاتم ؛ وعندما انتهت حياة السيد المهدي كانت برقوق قد خرجت من أيدي السنوسيين في الحقيقة بعد هزيمة (بير العلالى) ، وأضحى نفوذ السنوسية في (انيدى) و (التبستى) أو بلاد (التبو) ، والكوار أو (انيرى توغى) — وهى المناطق التي أطلقت فيها أيدي فرنسا بمقتضى اتفاقاتها مع إنجلترا في عامى ١٨٩٠ ، ١٨٩٩ ، مهددا بالزوال ، ثم تعرضت (واداي) ذاتها وهى السلطنة التي اعتمدت عليها السنوسية قبل أى شىء آخر في بقاء نفوذها في هذه الجهات النائية لخطر الانحلال واستيلاء فرنسا عليها .

وبما لا ريب فيه أن وفاة السيد المهدي في هذه الظروف زادت الموقف حرجا على حرج ولذلك كان ضروريا أن ينهض بعقب هذا النضال الجسيم زعيم قى استطاعته أن يصون على الأقل حدود الامارة السنوسية ذاتها ؛ وأن يكمل العمل الذي بدأه السيد المهدي ؛ وكذلك كانت سرعة الفصل في اختيار خليفة للسيد المهدي من جانب السنوسيين ، ثم وقوع هذا الاختيار على ابن أخيه السيد أحمد الشريف من الأمور التي مكنت السنوسية من مواصلة الجهاد مسترشدة في ذلك بسياسة السيد المهدي نفسه . فانه لما كان السيد محمد ادريس أكبر انجال الأمير الراحل ، صغير السن ولا يكاد يبلغ الثلاثة عشر عاما ، فقد أوصى السيد المهدي

بزعامة السنوسية لابن أخيه السيد أحمد الشريف على أن يكون السيد أحمد في الوقت نفسه وصيا على السيد محمد ادريس نجل السيد المهدي الأكبر والخليفة الشرعي .

وأما السيد أحمد فكان يبلغ الثلاثين عاما ، وهو حفيد السيد محمد بن علي السنوسي الكبير وابن السيد محمد الشريف ، ولد بواحة الجغبوب في عام ١٢٩٢ هجرية (١٨٧٥) ، ووالدته كريمة السيد عمران بن بركة ، كانت من فضليات السيدات ، فنشأ السيد أحمد في هذا البيت الكريم ، وقربه منه عمه السيد محمد المهدي ، فشب الابن على غرار آبائه وأجداده ، وانكب من حداثة على القراءة والدرس ثم حفظ القرآن الكريم ، فظل يتلوه من الذاكرة طوال حياته من غير تردد أو توقف . وكان السيد أحمد الشريف منذ بدء حياته عظيم الاحترام وشديد الاعتقاد والاعتداء بأئتين : أولهما عمه السيد المهدي الذي كان لا يرى أحدا يجاربه في علمه وورعه وتقواه وأخلاقه السمحة النبيلة ، حتى أنه أفرد الفصول الطوال في تاريخه يتحدث فيها عن صفاته ومناقبه رحمها الله ؛ وثانيهما أستاذه ومرشده السيد أحمد الربيعي ، وكان هذا السيد من أركان الطريقة وأكابر السنوسيين ، قرأ في فاس . وأتقن العلوم ومنها الملك والاسطرلاب والهندسة والرياضيات ، فأخذ السيد أحمد عنه ذلك كله قال الأمير شكيب أرسلان في وصف السيد أحمد الشريف : « رأيت في السيد حبرا جليلا وسيدا غطيفا وأستاذا كبيرا ، من أنبل ما وقع نظري عليهم مدة حياتي ؛ جلالة قدر ، وسراوة حال ، ورجاحة عقل ، وسجاجة خلق وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأي ، وقوة حافظنة مع الرقار الذي يغض من جوانبه الوداعة والورع الشديد في غير رثاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد في الليل أكثر من ثلاث ساعات ويقضى سائر ليله في العبادة والتلاوة والتهدد . . . وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ووقائعهم وسير سلفه السيد محمد بن علي بن السنوسي والسيد المهدي وغيرهما من الأولياء والصالحين . وإذا تكلم في العلوم قال قولا سديدا ، سواء في علم الظاهر أو علم الباطن . . . وقد صحبه عمه معه عند انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة فدون السيد أحمد أخبار هذه الرحلة ، كما دون خبر وفاة والده السيد محمد الشريف في ٢٧ رمضان ١٣١٢ (مارس ١٨٩٦) في الجغبوب بعد عودته من الكفرة ، وكان قد خرج إليها مع أخيه السيد محمد المهدي . وظل السيد أحمد الشريف مقربا من عمه ، يرقب الأمور عن كثب ويزداد خبرة ومرانا ، حتى إذا كان الجهاد ضد الفرنسيين في السودان الغربي وانتقل عمه إلى (قرو) صحبه إليها ، ثم اشترك في الجهاد ، وكان موكولا إليه الاشراف على نشاط المجاهدين وقيادتهم . وفي أثناء ذلك كله ظل السيد أحمد متمتعا بثقة عمه العظيمة ، حتى إذا شعر السيد المهدي بقرب منيته ، وتوسم في ابن أخيه القدرة على الاضطلاع بأعباء الإمارة ، والوصاية على الخليفة الشرعي السيد محمد ادريس

عهد إليه بالأمر من بعده . وكان ولا شك اختيارا موقفا . ضادف ارتياحا وقبولا عظيمين من جانب الأخوان جميعهم ؛ فلم تمض ثلاثة أسابيع على وفاة السيد المهدي ، حتى كان الأخوان وكبار السنوسيين قد اجتمعوا بالكفرة في ١٢ ربيع الأول ١٣٢٠ (١٩ يونية ١٩٠٢) ، وجرى الاحتفال بانتخاب السيد أحمد الشريف على سجادة الإمامة . وكان من الواضح أن هدف الامام الجديد إنما هو قبل كل شيء مواصلة الجهاد ضد الفرنسيين . وفي ذلك الحين أقبل السيد أحمد يدير شئون السودان بكل همة من واحة الكفرة التي ظلت مقر حكومة السنوسيين ومركز نشاطهم في عهده .

وكان أهم ما عنى به السيد أحمد الشريف عند استلامه أزمة الحكم أمرين : الحرص على أن تظل سلطنة (واداي) صديقة للسنوسيين وموالية لهم ؛ ثم شحذ الهمم وبذل الجهود من أجل إمكان الصمود أمام الفرنسيين ووقف تقدمهم . وكان دون الوصول إلى هذين الغرضين صعوبات جمة . وتفضيل ذلك أن استبقاء سلطنة (واداي) للسنوسية كان عملا شاقا مستعصيا منذ لحقت الهزيمة بالسنوسيين في (بير العلالى) ، وضيقت كانم من أيديهم نهائيا . ثم كان من أثر انتصارات الفرنسيين المتتالية من ناحية ، ثم محاولتهم استمالة سلطان واداي (داود مره) والتفاهم معه من ناحية أخرى ، إن وقفت واداي مترددة بين ولائها للسنوسية وبين رغبتها في العيش بسلام مع الفرنسيين الأقرباء الذين أصبحوا الآن من جيرانها ولا مندوحة من اعترافها بوجودهم . وقد تقدم كيف اعترفت واداي أخيرا باحتلال الفرنسيين للباقيري وكانم وغيرها في نوفمبر ١٩٠٣ . ومع ذلك لم يفقد السيد أحمد الشريف الأمل في إمكان تحريك هذه السلطنة ضد أعدائها الجدد . وفي الأعوام التالية أحكم السيد أحمد صلاته بقدر المستطاع بسلطانها (داود مره) ونجحت مساعيه عند ما نقض (داود مره) عهده مع الفرنسيين وأغار على مرا كزهم في إقليم الشباري في عام ١٩٠٤ وأزله بهم الهزيمة وأسر عددا كبيرا من الرقيق ؛ واستمر القتال بين الفريقين دائرا في السنوات القليلة التالية في قرعات متعصمة حتى إذا كان عام ١٩٠٨ أعلن (داود مره) الجهاد ضد الفرنسيين من جديد ، وآزره السنوسيون وباتكن النصر كان حليف الفرنسيين في النهاية فاحتلوا واداي في يونية من العام التالي (١٩٠٩) ولما كان هؤلاء يريدون احتلال الدولات ، التي خضعت قديما لنفوذ واداي وصارت الآن تعز باستقلالها وهي (دارتامة) ، و (دارسولا) و (دارمساليت) ، فقد ظلت العمليات العسكرية قائمة في السنتين التاليتين ، واستطاع (المساليت) خصوصا في يناير و في نوفمبر ١٩١٠ أن يوقعوا بالفرنسيين هزيمتين كبيرتين ، ذهب ضحية في الأولى منهما (الكولونيل فيجنشوس) وفي الثانية الكولونيل (مول) . وكان سلطان دارفور في هذه الآونة (على دينار) يتنازع

الفرنسيين السيطرة على هذه الجهات . فاحتل (دارتامة) وظل شوكة في جنب الفرنسيين ، حتى تمكنت حكومة السودان (المصرى الانجلىزى) من هزيمته بعد ذلك بجملة سنوات . وأما واداي فقد استتب الأمر فيها للفرنسيين نهائيا في عام ١٩١٢ .

وكان من الطبيعي في هذه الظروف أن يحاول السيد أحمد الشريف استمالة سلطان دارفور إلى جانبه في الجهاد المستعربينه وبين فرنسا . وكان على دينار من أحفاد السلطان محمدالفضل صاحب الشهرة الكبيرة ، قد أصبح صاحب الحق في عرش دارفور بعد مقتل ولدى ابراهيم سلطان دارفور (الذى قتله الزبير رحمت في عام ١٨٧٥ عند فتح هذه البلاد) ؛ ولكن الدراويش سلبوا على دينار كل سلطة . فأظهر خضوعه الكامل للخليفة عبد الله التعايشى ، حتى إذا كانت واقعة أم درمان المشهورة في ٢ سبتمبر ١٨٩٨ . وكان على دينار وقتئذ في إقليم الكردفان ، أسرع بالعودة إلى الفاشر ونجح في تخليصها من قبضة الدراويش ثم أعلن نفسه سلطانا على دارفور . ورضيت حكومة الخرطوم الجديدة أن تتركه وشأنه مادام يدفع لجزائرها إتاوة سنوية ؛ واعترفت به رسميا في عام ١٩٠٠ . ولكن على دينار كان طاغية شديد المطامع مستبدا في حكومته ؛ ثم ما لبث أن أظهر ميولا واضحة نحو الاستقلال بسلطته . كما كان شديد العداء لفرنسا أيضا بسبب رغبتها في الاستيلاء على الدويلات الحدودية، الصغيرة بين دارفور وواداي بعد استيلائها على سلطنة واداي . وكانت عداوة (على دينار) هذه الظاهرة لفرنسا هي السبب الذى جعل السيد أحمد الشريف ينتظر منه المؤازرة . ولكن على دينار الذى كان شديد الغيرة على سلطته ويزعمه انتشار نفوذ السنوسية في بلاده . لانه كان لا يريد ذبوع دعوة قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن شأنها إذا استتب الأمر لاتباعها مقاومة طغيان هذا الحاكم المستبد وإصلاح أحوال رعاياه ، لم يلبث أن اختط لنفسه خطة تلامم مع مصالحه ، فعارض في إنشاء أية زوايا للسنوسيين في بلاده ؛ ولكته من جهة أخرى لم يقطع صلته بالسيد أحمد الشريف ، بل إن السيد سرعان ما أنشأ زاوية في طريق القوافل بين الكفرة ودارفور . واستمر الحال على ذلك حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فأعلن على دينار الثورة على حكومة السودان في ظروف سوف يأتي ذكرها .

يد أن الجهاد الحقيقى كان بين السنوسيين والفرنسيين في جهات التبستى (تو) وبرقو وائدى وائيرى - تونغى ، فقامت بين الفريقين مفاوضات عديدة ، وأظهر السنوسيون في هذا النضال تحت زعامة السيد أحمد الشريف جلدا وعزيمة قوية ، واستطاعوا أن يكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة في الأرواح والأموال ؛ واشتهر من رجالهم في أثناء هذا الكفاح كثيرون ، منهم السيد عبد الله (طوير) الزوى الذى أزعج الفرنسيين وأفض مضاجعهم

وضيق عليهم المسالك ، حتى إعترفوا له بالمقدرة والشجاعة . وكان من عادة السيد الزوى أن يحمل عليهم في غزوات ليلية متلاحقة حتى لقبه الفرنسيون بالحرامي ، وكان لقب مجد ونجار له وللسنوسيين المجاهدين عموما . واثق السيد الزوى حثفة في إحدى هذه الغزوات الليلية . ولما كان هذا الجهاد طويلا وصارما فقد استشهد كثيرون منهم السيد أبو عقيلة الزوى . ومع هذا فقد استطاع الفرنسيون بفضل أسلحتهم الحديثة وقواتهم المتدققة أن يحرزوا انتصارات هامة فاحتلوا كوار في (انيرى - توغى) في عام ١٩٠٦ ؛ وفي العام التالي هاجموا (عين كلك) في برقو . فتشبت بينهم وبين السنوسيين معركة كبيرة ، كان النصر فيها حليفهم ، فقتلوا (سيدى اليرانى) منشىء زاوية بئر العلالى وقائد السنوسيين المحنك ، وكانت وفاته خسارة كبيرة . ثم مهد لهم هذا الانتصار احتلال (واداي) هائيا بعد ذلك بعامين تقريبا على نحو ما تقدم (١٩٠٩) ، وبمجرد أن دانت لهم هذه البلاد أسرع الفرنسيون إلى هدم زوايا السنوسيين وإلغائها ، الأمر الذى أثار اهتمام تركيا التى صار يعنىها وهى دولة الخلافة مؤازرة السنوسيين المنضوين تحت لوائها ، فاستطاع السيد أحمد الشريف أن يدخل مع الأتراك في مفاوضات في العام التالى (١٩١٠) أسفرت عن ارسال جند من النظاميين إلى برقو والتبسى وتأسيس قائممقامية في الكفرة ، عين بها الشيخ كيلانى الأطيوش من قبيلة المغاربة الرعيضات — وهو والد صالح باشا الأطيوش ، كما دعا السنوسيون الأتراك إلى برقو ، فأرسلوا اليوزباشى رفقى الذى رفع الراية العثمانية إلى جانب الراية السنوسية في (ون) بالقرب من عين كلك . وكان ينظم المقاومة في برقو في الأعوام التالية (١٩١١ - ١٩١٣) المهدي السنى ، وهو ابن السيد محمد السنى الذى أرسله السيد المهدي إلى (إبشة) عاصمة واداي عقب انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة . وهكذا ظلت المناوشات دائرة بين السنوسيين والفرنسيين ، واستطاع (الكولونيل لارچو) في ديسمبر ١٩١٣ أن يلحق بالمجاهدين هزيمة كبيرة في (قرو) حيث جرح ولدا السيد المهدي السنى نفسه (عبدالله وعبدالعال) ووقعا في أسره .

يبد أن هذا الجهاد الطويل كانت قد خفت حدته من مدة بلجة أسباب ؛ منها أن العثمانيين كانوا في أثناء ذلك كله يعتبرون أنفسهم في حالة سلم مع فرنسا . فلم يقطعوا علاقاتهم بهذه الدولة المعتدية ، ثم ازداد تمسكهم بأهداب هذا السلام عندما اكفر الجو السياسى في أوروبا وأخذت الأمور تتخرج في شبه جزيرة البلقان ، وصارت تركيا تهتم باستبقاء صلات المودة مع فرنسا وغيرها من الدول الغربية ، فتعذر على المجاهدين بسبب ذلك الحصول على الأسلحة والذخائر والمؤن اللازمة للضى في قتال الفرنسيين في هذه الأصقاع النائية . ومع أن هذه الخطة التى تمسكت بها تركيا كانت من أسباب ضعف مقاومة المجاهدين لحاجتهم الملحة

والمزيدة للأسلحة والذخائر خصوصا . فقد نشأ من عدم تحكّم العلاقات بين فرنسا وتركيا أو انقطاعها على الرغم من قيام الحرب بين السنوسيين ، وهم أهل « ولاية » من ولايات الدولة وبين الفرنسيين الذين اشتبكوا مع أقوامهم من « رعايا » السلطان ولا يزالون يعترفون بسيادته الشرعية عليهم ، وضع يبدو لأول وهلة غريبا ، ولكنه سرعان ما يظهر على حقيقته عند إمعان النظر ، وذلك إذا تذكرنا أن السنوسيين في معاقلمهم البعيدة سواء في الكفرة أو في قرو كانوا أصحاب السلطان المطلق ولا تستطيع الدولة العثمانية أن تحد شيئا من نشاطهم لورغبت في ذلك ، أو تستطيع فرنسا أو غيرها من الدول تنفيذ مآربها بالطرق الدبلوماسية عن طريق الباب العالي إذا حاولت هذا ، وقد تقدم كيف عجزت الدول الأوروبية عند محارلة التأثير على السيد المهدي عن طريق الضغط على السلطان العثماني . فلم يكن أمام فرنسا إذن سوى الاعتراف بالأمر الواقع ، ومعاملة السنوسية ليس كجمعية ، تشق عصا الطاعة على صاحب السيادة عليها وإنما كأمارة ، ذات كيان مستقل ولا مندوحة من الاعتراف بها والتسليم بوجودها في النهاية .

أضف إلى هذا أن الفرنسيين أنفسهم بعد أن تم لهم إخضاع واداي وبرقو وقرو ، اضطروا من جانبهم إلى الوقوف عند حدود برقة الجنوبية بسبب الارتباطات الدولية التي قيدت حركتهم في هذه الناحية ، وهذه كانت الاتفاق الانجليزي الفرنسي الذي أزم في باريس في ١٤ يونية ١٨٩٨ لبيان حدود ممتلكاتهما ومناطق نفوذهما على جانبي نهر النيجر ، ثم تصريح لندن في ٢١ مارس ١٨٩٩ لتوكيد الاتفاق السابق فيما يتصل بمناطق نفوذهما إجمالا في أفريقية الغربية والوسطى ثم تعيين الحدود بين الممتلكات الفرنسية وبين دارفور ، وأخيرا التوكيدات المتبادلة بين الفرنسيين والايطاليين في ديسمبر ١٩٠١ بشأن تعيين مناطق نفوذ كل من هاتين الدولتين في أفريقية الشمالية والغربية ، فاحتفظت إيطاليا لنفسها بمقتضى هذا الاتفاق بمنطقة برقة وطرابلس بينما تعهدت فرنسا من جانبها بالتزام ما جاء في ارتباطاتها السابقة مع إنجلترا في ٢١ مارس ١٨٩٩ على أن تتمتع إيطاليا في نظير ذلك عن التدخل في شئون مراكش وعرقلة نشاط فرنسا وسياستها في هذه السلطنة ، فلم يعد في إمكان فرنسا بسبب هذه الاتفاقات الاعتداء على حدود برقة الجنوبية .

وأما السنوسيون فقد أرغموا هم أيضا على ترك النضال ضد فرنسا في النهاية عندما فاجأ الايطاليون الدولة العثمانية بقطع علاقاتهم معها وإعلان الحرب عليها في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر عام ١٩١١ ، ثم أطلق أسطولهم قذائفه على موانئ طرابلس وبرقة ، ووقع على السنوسيين عبء الدفاع عن البلاد التي نشأت فيها دعوتهم ، وكانت مقر إمارتهم ، وهو الدفاع

الذي اتخذوا له عدتهم من مهلة طويلة ، منذ تنبأ بمجيء (النابيطان) مؤسس السنوسية نفسه في أواسط القرن الماضي ؛ فتقاطرت جموعهم واحتشدت في ميادين القتال الشمالية خصوصا في برقة ؛ وبدأ من ثم ذلك التضال الصارم الذي استمر من غير هوادة مدة الثلاثين عاما التالية وتحمل السنوسيون في أثنائه أعظم تضحية قدمتها أمة في العصور الحديثة من أجل المحافظة على بقائها . ويعرف التاريخ هذا الاعتداء الإيطالي باسم الحرب الطرابلسية (الليبية) الإيطالية . ومنذ مجيء الطليان إلى برقة وطرابلس حتى وقت خروجهم منها مهزومين مقهورين خط السنوسيون قصة كفاحهم بدمائهم وأقاموا الدليل بعد الآخر على أن الشعوب التي تعتز بعقائدها وتقاليدها وقوميتها لا يمكن فناؤها مهما تضافرت ضدها القوى المادية والتي تعتمد في فرض سيطرتها وسلطانها على السيف والمدفع ووسائل إزهاق الأرواح الأخرى التي حذق الغرب صنعها .

* * *

وعندما وقع الاعتداء الإيطالي على طرابلس وبرقة حار الناس في تعليل أسبابه وشغلوا أذهانهم في التنقيب عن الدوافع التي حدثت بالإيطاليين إلى امتشاق الحسام في وجه دولة - تركيا - لم يصدر منها ما يعكس علاقاتها بالمملكة الإيطالية . ومع أنه قد مضى الآن ما يزيد على ربع قرن من قيام الحرب الليبية الإيطالية ، ونكب العالم في أثناء هذه المدة مرتين بحرب ضروس مخزية فإن معرفة أسباب العدوان الإيطالي في عام ١٩١١ ، وتناول قصة هذا العدوان من جديد أمر في الحقيقة لا غنى عنه لأنه يفسر وجهها من وجوه السياسة الإيطالية في إفريقية الشمالية لم يتوره تبدل أو تغير حتى انتهى المطاف بالطليان إلى محاولة الاعتداء على القطر المصري في أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ فكان إندحارهم وطردهم من إفريقية الشمالية برمتها النتيجة التي انتهت إليها هذه السياسة ؛ وزيادة على ذلك فقد كان مدار سياسة الإيطاليين في ليبيا القضاء على السنوسية ؛ لأنهم أدركوا تماما تعذر استقرارهم في هذه الديار مادامت السنوسية تتمتع بنفوذها القديم . ولذلك كانت مكافحة السنوسية ومحاولة إخمادها بكل الطرق من أهم الأهداف المباشرة التي عمل الإيطاليون على تحقيقها ، وظلت تشكل سياستهم من وقت احتلالهم لبرقة وطرابلس إلى وقت خروجهم منها . وفي أثناء ذلك كله ظل السنوسيون عماد المقاومة الدامية في ليبيا ، كما بقيت برقة زمنا طويلا مسرحا لهذا الكفاح غير المتكافئ بين الفريقين في وقت أخذ فيه الإيطاليون كل مقاومة تقريبا في طرابلس ؛ ثم استطاع السنوسيون على الرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدوها أن يساهموا بكل ما بقي لديهم من قوة في فصول مأساة هذا الكفاح القاسي الأخيرة . حتى أسدل الستار نهائيا على أسطورة الامبراطورية الإيطالية في شمال أفريقية .

ويعتقد كثيرون أن إيطاليا منذ أتت وحدتها بزعامة بيت سافوي الملكي في السبعينات من القرن الماضي ، بدأت تصوب أنظارها نحو البلدان الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن هذه كانت قريبة من الدولة الموحدة الجديدة ، والميدان الذي لا مندوحة للملكة الإيطالية من أن تهدف إلى التوسع فيه إذا شئت الوصول إلى مرتبة الدول العظيمة ، فتجدد عهد سطوة الرومان بالاستيلاء على ممتلكاتهم القديمة في أفريقية . أضف إلى هذا أن رجال السياسة والاقتصاد في إيطاليا كانوا يخشون من ازدحام شبه الجزيرة الإيطالية بالسكان الذين يطردونهم ، وصاروا منذ أن استطاعت إيطاليا أن تنشئ في رومة الحكومة الموحدة والمركزية يتطلعون إلى أقطار جديدة ينزح إليها الإيطاليون المستعمرون ، فيخف ضغط هذا الازدحام في بلادهم من جهة ، ويتمكنون من استخدام أموالهم ونشاطهم في استثمار موارد البلدان التي ينزحون إليها من جهة أخرى . ووجد كثيرون ممن عاصروا العدوان الإيطالي على طرابلس وبرقة وشهدوا حوادثه ، في هذه المشكلة المزدوجة - معالجة ازدحام السكان واستثمار رؤوس الأموال الإيطالية - مسوغاً لاقدام إيطاليا على احتلال برقة - طرابلس .

ومع هذا فهناك حقائق ثابتة لا مندوحة من ذكرها لبيان أسباب هذا العدوان الصحيحة تلخص في أن الأقطار الأفريقية الشمالية ، بما في ذلك طرابلس وبرقة وتونس وغيرها كانت محط أنظار الإيطاليين منذ بدأ مساهمتهم ومفكرتهم في أوائل القرن الماضي بمجاهدون في سبيل تحرير بلادهم من نير الأجنبي - (النمسا) - وجمع كلمة الأمة المحررة في نظام يكفل لها الحياة في كنف زعامة مستنيرة ، أي قبل أن يتجمع قادتهم في إنشاء إيطاليا الموحدة بمدة طويلة . بل إن الإيطاليين في تلك الآونة كانوا يرجون أن تستطيع (مملكة نابولي) - النا بلطان كما سماهم السنوسيون الأوائل - الاضطلاع بمهمة هذا التوسع الخارجي . وزيادة على ذلك فإن الإيطاليين الذين كانوا ينشدون الوحدة السياسية لبلادهم في ذلك الحين إلى جانب هذا التوسع ، لم يكونوا يعدون القطر البرقاري الطرابلسي وحده فقط ذلك ، المجال الحيوي ، الذي تحدثوا عنه فيما بعد وصار لا مفر من امتلاكه . بل كان كل ما يعنيه مجرد التوسع لذاته بحسب سواء جرى هذا في القارة الأوروبية ذاتها أو في بعض جزر البحر الأبيض أو في قطر من أقطار أفريقية الشمالية . ولذلك فإن الظروف السياسية وحدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هي المسؤولة إلى حد كبير عن اتجاه إيطاليا نحو الأقطار الليبية نهائياً . وكان من طبيعة هذه الظروف ذاتها أن يشعر الإيطاليون الذين وجدوا فرصاً متنوعة تفلت من أيديهم بسبب عجزهم عن تحقيق شيء من هذا التوسع في وقت تسابقت فيه الدول الغربية العظيمة

إلى امتلاك المستعمرات في أنحاء المعمورة ، بأنهم لا يزالون في مصاف الدول الصغيرة . فكان لهذا الشعور نتائج خطيرة ، لأنه ما لبث أن صار يشكل أهداف إيطاليا طوال القرن التاسع عشر ، ويؤثر تأثيراً واضحاً على شئونها الخارجية والداخلية على السواء حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، أى بعد أن تمت وحدتها السياسية بسبعين عاماً ونيف . ولذلك كان تصميمها على أن تزج بنفسها في المغامرة الليبية يرتبط في الحقيقة بالظروف السياسية التي أوجدت لدى الطليان شعور النقص من مدة طويلة . ولما كان من المتعذر على الأمم دائماً أن تعزو فعال أبنائها إلى شعورهم بمركب النقص فقد عمد الإيطاليون ينقبون عن طاقة من « المسوغات » التي تفسر أمام العالم اعتداهم على ممتلكات دولة كانت قيل هذا الاعتداء بأيام قلائل فقط تعتبر دولة صديقة ولم يحدث ما يدل على أنه كان متوقفاً تغير هذه الحالة كما أصبح ضرورياً التدرع بثتى الوسائل لقصم العلاقات مع تركيا وإعلان الحرب عليها .

أما المسوغات ، التي تشبث بها إيطاليا لتفسير عدوانها ، فأهمها ضرورة الاستيلاء على ممتلكات جديدة يهاجر إليها الإيطاليون من مدنهم وقراهم ودساكرهم التي ادعوا أنها صارت مزدحمة بسكانها ، ثم يلي ذلك واجب استثمار برقة وطرابلس وهي بلاد خصبة وذات موارد طبيعية غنية حتى لا يحرم الإيطاليون من فرصة استخدام رؤوس أموالهم إلى جانب تدريب شبانهم وأكفاء رجالهم على الأعمال المنتجة . زد على ذلك أن الاستثمار ولاشك سوف يعود كما قالوا — بالمنفعة على الأقطار الليبية ذاتها إذ يكون من أهداف الطليان في مستعمراتهم الجديدة إصلاح مرافق البلاد وترقية شعوبها . وهذه بلاشك كانت إدعاءات واهية ، كما أن جميع الحجج التي قدمتها إيطاليا كي تسوغ بها عدوانها على برقة وطرابلس كانت مبنية على مجرد أوهام وأمانى خيالية .

إذ من المعروف مثلاً أن الجهاد في إيطاليا من أجل التحرير والخلص وتحقيق الوحدة السياسية قد تكلف نفقات طائلة وقع عبئها على كواهل أهل الجنوب خصوصاً ؛ حتى ذكر أحد ثقات الكتاب الطليان أنفسهم أن (مملكة الصقليتين) في أواخر القرن التاسع عشر وبعد عشرين عاماً من إتمام الوحدة وظهور المملكة الإيطالية كان لا يزال يدفع أهلها مليوناً ومائتي ألف من الجنيهاً سنوياً فوق ما ينبغي عليهم أن يدفعوه وفي مقدورهم ، الأمر الذي ترتب عليه إنخفاض مستوى المعيشة في الجنوب عموماً ؛ فقلت الأغذية الصالحة والصحية في نابولي ، وقمرت المزارع من أهلها وأهملت الأرض وعاش السكان في أكواخ حقيرة أو مساكن موبوءة وانتشرت الأمراض الخطيرة ؛ ونجم ذلك كله عن عجز الحكومة عن مقاومة فيضانات الأنهار أو صيانة الغابات أو إصلاح الطرق أو إنشاء الإدارة الصالحة التزيهة ؛ حتى

عمد الأهلون إلى الهجرة من هذه البلاد فرارا من البؤس والشقاء ، فبلغ عدد الذين غادروا هذا الجحيم حتى عام ١٩٠٦ الثمانية عشر ألفا من سكان يبلغ عددهم حوالى النصف مليون نسمة ، وقد فضل حوالى ٩٨ ٪ منهم الهجرة إلى أمريكا . وأما نسبة الأيمن بعد مرور قرن من الزمان على تعميم التعليم الاجبارى فقد بلغت فى الجنوب ٧٥,٤ ٪ فى عام ١٩٠١ بينما كانت النسبة فى الشمال فى بيدمنت ١٧,٧ ٪ مما لا يدع مجالاً للشك فى أن الحكومة الملكية الإيطالية كانت تواجه واجبا وطنيا خطيرا يقتضيها بذل الجهود العظيمة من أجل إصلاح أحوال الوطن أولا وقبل محاولة إصلاح أحوال الغير ونشر أروية الحضارة والعمران بين شعوب غريبة عنهم . وعلاوة على ذلك فقد أجمع المعاصرون على أن الطليان كانوا يعاملون أهل سردينيا وصقلية أسوأ معاملة ، فأهملت المواصلات بهاتين الجزيرتين ؛ وعند اشتداد المطر كانت المياه تحفر جهات برمتها فى أرض سردينيا ، وعاش فقراء الناس فى هاتين الجزيرتين فى شقاء وبؤس وهوان ومذلة ، ثم انتشرت بينهم الأمراض التى ذهب ضحيتها كل عام ألوف من هؤلاء التعساء . وكان لا يهتم الطليان السادة من أهل هذه البلاد سوى استغلالهم شر استغلال فكانوا يقرضون الأهلين فى سردينيا المبالغ الضئيلة - لمساعدتهم على تحسين أحوالهم كما يدعون بفوائد باهظة كثيراً ما بلغت ١٨ ٪ ، حتى إذا عجز المدين البائس عن تسديد دينه ، جرده دائنوه الطليان من كل ما يملك . ثم بلغت هذه الممارسة حداً من البلاء والسوء جعل الدائنين الطليان يطلبون دائماً حماية رجال الشرطة كلما ذهبوا لتحصيل فوائد ديونهم أو انتزاع أراضي وممتلكات الأهلين وهكذا . هذه كانت حكومة الطليان وإصلاحاتهم فى البلاد الخاضعة لهم . وما كان أحراهم أن يزيلوا هذه المساوىء فى سردينيا وصقلية وناپولى مثلا ، وأن يعملوا على استثمار موارد بلادهم قبل التفكير فى امتلاك بلدان أجنبية عنهم ، وفرض سلطاتهم على شعوب تختلف عنهم فى الثقافة والتقاليد والدين واللغة .

ومع هذا فهل كانت طرابلس - برقة غنية حقيقة بمواردها لدرجة أنه إذا أحسن الطليان أو غيرهم استثمار هذه الموارد جاءتهم بالخير العميم ؟ وهل تأكد الطليان قبل أن يقدموا على مغامرتهم من أن المعلومات التى لديهم عن غنى هذه الولاية العثمانية بثرواتها الطبيعية كانت صحيحة حقاً ؟ أم أن الجشع قد أعشى قلوبهم وطمس على بصائرهم فصاروا لا يميزون بين الوهم والحقيقة . يذكر المعاصرون المحايدون أن الصحف الإيطالية ظلت تغنى بثروة طرابلس برقة الزراعية والمعدنية ، جملة سنوات قبل عدوان الطليان لدرجة أن هؤلاء أصبحوا شديدي الاعتقاد بأن الأقطار الليبية سوف تدر عليهم ميلا من الخيرات لا يفتن . وظهرت عبقرية الطليان فى ابتكار الأغاني والأناشيد التى صاروا يترنمون بها عند وصف طرابلس

الجميلة ، ، وطاب للأهلين في اجتماعاتهم أن يقصوا الأفاصيص الحلابة عن ثروة طرابلس
وخصوبة أرضها ، ووفرة ثروتها المعدنية ؛ ولعبت الصحف الإيطالية دوراً كبيراً في تغذية
هذه الأوهام والأحلام ؛ ثم إنَّ ثقل المرض من أحزاب (اليمين) أى من أولئك الذين
يريدون إحياء الامبراطورية الرومانية القديمة بالاستيلاء على أرض يستطيعون استغلال مواردها
واستثمار رؤوس أموالهم في هذا الاستغلال ، لأنهم كانوا من (الممولين) ينشدون التوسع
الخارجي لخدمة مصالحهم المالية والاقتصادية ، إلى أحزاب (اليسار) من الاشتراكيين الذين
كانوا يريدون في الأصل تحرير بلادهم من سيطرة الرأسماليين ، فأصبح الجميع الآن يرددون
أقصوصة طرابلس الجميلة ، الغنية ، ويؤيدون كل سياسة ترمى إلى الاستحواذ على ليبيا .
وهكذا تم للطلبان ما ظلوا يمتنون به النفس دهرًا طويلًا ، وقامت الحرب ، وأحرز المعتدون
بعض الانتصارات ونزلوا إلى الشواطئ واحتلوا المرافئ ؛ ثم نشطت صحفهم من جديد
وأخذت تقيم الحججة بعد الحججة على أن البلدان التي دانت لسلاطنتهم غنية بثروتها المعدنية
وخصوبة أرضها ووفرة غلاتها . وفي هذه المرة أيضاً كان الاشتراكيون في مقدمة أولئك الذين
حاولوا إقناع أنفسهم وإقناع مواطنيهم بهذه الأوهام ، فطفق كبارهم يتحدثون في الصحف
عن أهمية الاحتلال الإيطالي لطرابلس من الناحية الاقتصادية ، ثم نشرت (جريدة صقلية)
في هذا المعنى مقالا في يناير ١٩١٢ دمج يراع النائب الاشتراكي (دى فيليس) . وساق فيه
البراهين والأدلة التي تثبت مقدار الثروة العظيمة الكامنة بأرض طرابلس الخصبة الغنية ؛ ثم
تحدث عن وقد ، كان قد تألف - من ثلاثة أعضاء من بينهم اشتراكيان - ليجمع الأدلة
القاطعة على أن احتلال طرابلس سوف يأتي بالخير الكثير على المستعمرين الطليان .

فقام هذا الوفد بزيارة تلك الشقة الضيقة التي فتحها ، الإيطاليون من ابتداء الحرب
حتى وقت الزيارة في يناير ١٩١٢ ، والتي ظل الجيش الفاتح في الحقيقة عاجزا حتى نهاية الحرب
عن مغادرة المراكز التي أنشأها في هذه المنطقة تحت حماية مدفعية أساطيله ، فزار الوفد
(سيدى المصرى) ، وأبدى الأعضاء شجاعة فائقة عند ما قرروا التقدم إلى مسافة قليلة من
الجنادق التي حفرها جنود الطليان للاحتباء بها ، فلاحظوا وسط كثبان الرمال البعيدة وخصرة
جميلة ، فقرروا الوقوف في المركبة أو العربة التي كانت تقلهم حتى يتبينوا أمر هذه الخضرة .
فشاهدوا ، كما رسم لهم الوهم ، سهولا ممتدة أمامهم . ويا للعجزة اغابات عظيمة من النبات
الأخضر العالى ، فكان هذا الاستكشاف كافيا لأن يجعل أعضاء الوفد يبحثون في التو
والساعة مسائل الري ووفرة المياه ، ثم أشركوا معهم دليلهم في هذا البحث ، فأكد لهم أن
المياه كثيرة جدا في واحة طرابلس ، وأن كل عربي يملك بئرا في منزله ، وفي الجهات الأخرى

التي يقل فيها المطر يستغنى عنه بالندى الذي يتساقط أثناء الليل . فأخذ أعضاء الوفد كلام الدليل قضية مسلبة ، وأن مهمتهم قد تم أمرها على أحسن ما يكون وخصوصا لدى معرفتهم بأن الأراضي الخصبة بمدينة طرابلس مركبة من طبقة نصف رملية ونصف كلسية ، وهذه الطبقة من شأنها حفظ كمية من الماء بين أجزائها .

ومع هذا فإن النبات الأخضر العالي الذي شاهدوه لم يكن سوى خشب برى ينمو في الصحراء ولا يزيد ارتفاعه عن الثمانية عشر بوصة ولا ينتفع به أحد حتى الجمال ، فاتها لن تأكل منه إلا إذا اشتد بها الجوع أو كاد يقتلها . وأقصوصة (الندى) العظيم ما كان يجدر بعامل أن يصدقها وعلاوة على ذلك فقد اطمأن السنيور دي فيليس إلى أنه مادامت الآبار الارتوازية في بلاد الجزائر الغربية يعطى كل (٦٨) بئرا منها مقدار (١٣٠٠٠) لتر من الماء في الدقيقة الواحدة ، فإن آبار طرابلس الكثيرة لا بد من أن تعطى قدرا من المياه أعظم من ذلك . متناسيا أن هذا الجزء من شمال أفريقية الذي يضم كلا من مراکش والجزائر وتونس يختلف جغرافيا عن الجزء الذي يضم طرابلس الغرب الواقعة على حافة الصحراء ، والتي لا يزيد فيها معدل المطر السنوي عن احدى عشر بوصة (في برقة وطرابلس) وهذا بينما يتراوح في مراکش والجزائر وتونس بين ٢٠ ، ٤٠ بوصة . وهكذا أبرق الوفد . ولقد زرنا الصحراء وكل الأراضي صالحة للزراعة بدرجة عظيمة ، فاذا قورن هذا الكلام بما أسفرت عنه بحوث لجنة كانت قد تشكلت قبل ذلك بأربعة أعوام (١٩٠٨) للبت فيما إذا كانت برقة تصلح موطننا لليهود ، لتبين لنا مقدار الخطأ الذي وقع فيه هذا الوفد الايطالى .

فقد كتب أحد أعضاء هذه اللجنة البارزين : « ولو أن برقة من غير شك أعظم مقاطعات طرابلس الغرب خصوبة ، ترى لزاما علينا أن نقرر مع الأسف أن هذه البلاد ، بسبب مساحتها الواسعة التي تتألف من أراض لا فائدة منها ، ولعدم كفاية مائها ، ولأن مورد هذه المياه لا يمكن الاعتماد عليه ، - غير صالحة بالمرّة لانشاء المستعمرات الزراعية المتسعة . حقيقة كانت السفن قديما تنقل القمح إلى رومه وبيزنطة من (شحات) ، وكانت الأقطار الليبية تذخر بالحياة والنشاط ، حتى إن (غات) التي تبعد في الداخل نحو السبائة ميل داخل مدينة طرابلس كانت في عهد الامبراطورية الرومانية مركزا تجاريا وعسكريا عظيما ، ولكن الذي نسيه الايطاليون الحديثون - أبناء الرومان القدماء - أن جدودهم نجحوا في إقامة نظام للرى في طرابلس وبرقة يعتمد على الدقة في جمع كل قطرة من قطرات المطر المتساقط ، ثم توزيع هذه المياه توزيعا منظما عليها ، فأكثرها من حفر الآبار وانشاء الصهاريج ، وبنوا الترع والقنوات التي تربط بين الواحات والمدن الساحلية . وقد برهنت الحوادث فيما بعد على أن

الايطاليين لم يحققوا أحلامهم في « طرابلس الجميلة ، إلا في تلك الأراضي الخصبة التي ظل العرب يزرعونها أجيالا عديدة ، والتي لجأ الطليان في آخر الأمر إلى انتزاعها من أيدي ملاكها ، وجلب (المعمرين) من بلادهم لاستغلالها بعد أن طردوا أصحابها الشرعيين منها .

يد أن سبب العدوان الايطالى على طرابلس الغرب كانت ترجع أصوله في الحقيقة إلى ذلك الشعور بالنقص الذى سبقت الإشارة إليه ، وهو شعور كان من سوء حظ إيطاليا الحديثة أنها لم تستطع التخلص منه ، خصوصا بعد أن نجحت في إنشاء وحدتها السياسية بزعامه بيت صافرى الملكى . و منذ أن ناضل أحرارها ، وزعمائها في سبيل التوضيح ببلادهم وتخليصها من شرور سيطرة النمسا الأجنبية ، اتجهت أنظار هؤلاء القادة إلى ضرورة التوسع الخارجى ، فذكر (مازيني) عند كلامه عن «بعث» الدولة الفتية الحديثة ، أن أفريقية الشمالية من أملاك إيطاليا ؛ وفي عام ١٨٤٢ كتب (سيزار بالبو) في مؤلفه المشهور «عن آمال إيطاليا ، وهو الكتاب الذى ظل يسترشد بأراء صاحبه جميع السياسيين الذين ساهموا بنصيب في بناء وحدة إيطاليا - أنه بمجرد أن تحصل إيطاليا على استقلالها يجب عليها أن تفكر في ضرورة التوسع صوب الشرق والجنوب ؛ وواجب نابولى - (أو النابيطان) - أن تقوم حينئذ بالشرط الأول من هذا التوسع المنتظر سواء كان ذلك في تونس أو في طرابلس أو في جزيرة من الجزر ، أو في جزء من أجزاء القارة الشرقية . ومن ذلك الحين ظل الايطاليون يعتبرون أفريقية الشمالية منطقة نفوذ إيطالية ، وقد عزز هذا الاعتبار أن نابليون الثالث في حديث له مع زوج ملكة الانجليز فيكتوريا في عام ١٨٦٥ في (اسبورن) اقترح «اعطاء طرابلس إلى إيطاليا ، وزيادة على ذلك فقد ذكر (البارون بلانك) وزير خارجية إيطاليا في خطاب ألقاه في مجلس النواب الايطالى في مايو ١٨٩٤ ، أن نابليون الثالث كان قد وافق رسميا على أن يحتل الايطاليون تونس ، وأنه حدث عند انعقاد مؤتمر برلين في عام ١٨٧٨ أن اقترحت كل من النمسا والروسيا على إيطاليا أن تبسط حمايتها على تونس ؛ ولكن إيطاليا امتنعت عن فعل ذلك رغبة منها وقتئذ في احترام شعور الفرنسيين ، ولذلك خرج الايطاليون صفر اليدين من هذا المؤتمر . وفي الواقع كانت هذه الرغبة ذاتها في عدم إيلاء الفرنسيين السبب الذى ضيع على الايطاليين فرصة مواتية قبل ذلك بسنوات قليلة للاستيلاء على تونس وذلك في يناير ١٨٨١ . عند ما تعكرت العلاقات بين الحكومة الايطالية في فلورنسة - العاصمة وقتئذ بعد تورين ، وقبل أن تصبح رومة أخيرا عاصمة المملكة - وبين باي تونس ، واستعد الأسطول الايطالى لمغادرة (سبيزيا) يحمل جنودا لإنزالهم في تونس ؛ فأصرع الوزير الفرنسى في فلورنسة يشرح للسلطات الايطالية تخرج مركز الفرنسيين في أفريقية الشمالية بسبب

الاضطرابات القائمة وقتذاك في بلاد الجزائر ، ولأن الثوار الهرب كانوا قد أرسلوا نداء باسم الشعب الجزائري ، إلى وليم الأول امبراطور ألمانيا ، وتخشي فرنسا إذا أصرت إيطاليا على إرسال حملتها إلى تونس أن يتسع عليها الخرق في الجزائر في وقت كانت لا تزال قواتها مشغولة بالدفاع الأهل في داخل فرنسا ذاتها ، فقرر الايطاليون الإقلاع عن هذا الغزو ؛ ولو أنه كان من أسباب هذا العدول أيضا خوف الايطاليين أنفسهم من الأسطول العثماني الذي هددت تركيا بأنه سوف يكون على قدم الاستعداد لمقابلة الايطاليين عند (لاجوليت) ولذلك كان شعور الايطاليين بالحيرة عظمى عند ما وجدوا الفرنسيين يرسلون جيوشهم إلى تونس ويحتلونها في عام ١٨٨١ من غير أن تحرك بريطانيا أو ألمانيا ساكننا ، وكانت دهشة الايطاليين كبيرة لأنهم ما كانوا يعرفون أن (تونس) كانت الثمن الذي نالته فرنسا في نظير موافقتها على استيلاء إنجلترا على (قبرص) . فعدت فرنسا مع باي تونس معاهدة (باردو) في ١٢ مايو ١٨٨١ ، واستطاعت أن تحتل البلاد من غير معارضة .

فاشتد حنق الطليان على فرنسا . واستقالت الوزارة الايطالية بعد يومين فقط (١٤ مايو) . ووقعت حوادث مؤسفة كثيرة . وفي يولية نصحت الصحف الايطالية البلاد بأن تجعل كل اعتمادها في المستقبل على دول الوسط الأوروبية — ألمانيا والنمسا — حتى تحصل على مؤازرة هاتين الدولتين في تأييد مصالحها فيما وراء البحار . ولما كُن من سياسة بسمارك اجتذاب إيطاليا إلى المحالفة التي عقدها مع النمسا (في ٧ أكتوبر ١٨٧٩) — وهي المحالفة التي ظلت كما يقول أحد المؤرخين ، محور العلاقات الدولية الأوروبية من ذلك الحين إلى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) — فقد مهد لاجتماع ناجح في فيينا في أكتوبر ١٨٨١ بين همبرت الأول ملك إيطاليا وفرنسوا جوزيف امبراطور النمسا .

وفي ٢٠ مايو من العام التالي عقدت الدول الثلاث إيطاليا والنمسا وألمانيا المحالفة الثلاثية المشهورة . فجاء انضمام إيطاليا إلى النمسا عدوتها القديمة التاريخية في محالفة مؤذنا ببداية سياسة المحالفات التي صارت إيطاليا تعتمد عليها في دبلوماسيتها . وبعد تجارب الحوادث السابقة كان انضمام إيطاليا إلى المحالفة الثلاثية بمثابة الاعتراف الصريح بأنها لا تستطيع مادامت منفردة تحقيق مآربها ، كما أن دخولها في المحالفة إلى جانب مجموعة من الدول لا تربط إيطاليا بها أو اصر صداقة قديمة ، ولا يزال بين إيطاليا وبين النمسا خصوصا من أسباب النزاع ما يجعل هذه المحالفة غير مستقرة ، كان يدل على أن إيطاليا إنما رضيت بذلك كله حتى تتمكن من استخدام هذه المحالفة في تعزيز سمعتها السياسية والضغط على فرنسا وهي الدولة التي كانت تقف حجر عثرة في طريق توسعها في أفريقيا الشمالية .

وليس هناك شك في أن المحالفة الثلاثة قد عززت مركز إيطاليا ، ولو أنها من جهة أخرى لم تساعد الإيطاليين على تحقيق شيء من آمهم في أفريقية . ولذلك اتجه الإيطاليون صوب إنجلترا . وفي عام ١٨٨٥ كانت العلاقات بين هاتين الدولتين قد تحسنت لدرجة مكنت إيطاليا من احتلال مصوع على شاطئ البحر الأحمر الأفريقي وفي الأعوام التالية شغلت إيطاليا بتأسيس امبراطوريتها في ارتريا (١٨٩٠) ، ثم طفق رئيس حكومتها (كريسي) يعمل من أجل الاستحواذ على الحبشة ، ولكن الأحباش استطاعوا في النهاية تبديد هذه الأحلام الجميلة عندما أنزلوا بالإيطاليين هزيمة قاصمة في موقعة (عدوة) المشهورة في أول مارس ١٨٩٦ ، فكان لهذه الهزيمة دوى عظيم سقطت على أثرها وزارة (كريسي) ، ثم التجأت قلوب الإيطاليين إلى (الارتريا) التي انكشبت مساحتها كثيراً في معاهدة سبتمبر ١٩٠٠ . وبعد خمس سنوات من هذه الحوادث كان كل ما حصلت عليه إيطاليا في هذه الأنحاء الاضطلاع بأعباء الإدارة في بلاد الصومال التي بسطت عليها حمايتها (١٩٠٥) .

وأمام هذا الفشل الذريع في الحبشة ، وبمجرد أن انهارت آمال الإيطاليين في انشاء امبراطورية أحلامهم في أفريقية الشرقية ، اتجهت أنظارهم من جديد إلى أفريقية الشمالية . ولما كانت فرنسا هي منافسة إيطاليا الكبيرة في هذه الأقطار ، فقد أدرك الطليان أنهم لا يستطيعون تحقيق آمهم إذا ظلوا في خلاف معها ، ولم تلبث أن تضافرت عوامل عدة لإحلال الوئام محل النزاع وللتقريب بين وجهتي النظر . فان الرأي العام في إيطاليا كان شديد الميل إلى التقرب والتفاهم مع الدولة الديمقراطية اللاتينية (فرنسا) ، ويفر من المحالفة مع ألمانيا والنمسا ، أضف إلى هذا أن المحالفة الثلاثة - وهي التي صار تجديدها لمدة عشر سنوات أخرى في ٢٠ فبراير ١٨٨٧ - كان لا يمكن أن تحقق مطالب الإيطاليين القومية . فان النمسا كانت لا تزال تحتل الأراضي غير المحررة ، في تريستا وترنتينو . ولم يقم دليل ما على الرغم من المحالفة - على أنها كانت تنوى وقتئذ اخلاصها . ولذلك كانت المحالفة الثلاثة من وجهة نظر الإيطاليين عديمة الفائدة من هذه الناحية . ولما كان هؤلاء قد أقادوا من الأثر الذي أحدثته انضمامهم إلى جانب الدول الأوروبية العظيمة واستخدموا مؤازرة ألمانيا الدبلوماسية خصوصاً في تعزيز علاقاتهم مع الدول الأخرى ومع فرنسا فقد استطاعوا تسوية خلافاتهم تدريجياً مع هذه الدولة الأخيرة ؛ ثم لم يكذب يمضى عامان على هزيمة (عدوة) حتى كانت إيطاليا قد أوقفت حربها الجريكية مع فرنسا (١٨٩٨) . واعترفت الجمهورية من ناحيتها بادعاءات إيطاليا على طرابلس الغرب فأصبح ظاهراً أن الدولتين اللاتينيتين تعيشان في وئام كامل .

وعلى ذلك عقد الفريقان في ديسمبر ١٩٠١ اتفاقاً تناول شئون البحر الأبيض المتوسط أصبحت بمقتضاه برقة وطرابلس منطقة نفوذ إيطالية ، وتعهدت فرنسا بالتزام خط الحدود الذي أوجده تصريح لندن في ٢١ مارس ١٨٩٩ فاصلاً بين منطقتي نفوذهما وممتلكاتهما في أفريقية الغربية على نحو ما سبق ذكره . وفي نظير ذلك وافقت إيطاليا على إطلاق يد فرنسا في مراکش ، وكانت إيطاليا في المدة الأخيرة تظهر شيئاً من النشاط المضرب بمصالح الفرنسيين في المغرب الأقصى . ثم لم يلبث هذا الاتفاق أن تعزز في بداية عام ١٩٠٢ عندما أعلن السفير الفرنسي في خطاب ألقاه في رومة : « إن قيام نضال بين الأمتين اللاتينيتين قد أصبح مستحيلاً » ، ثم توثقت أواصر الصداقة بين إيطاليا وفرنسا في الأعوام التالية ، واستطاعت إيطاليا في ذلك الحين أن توجه كل اهتمامها إلى الأقطار الليبية ، وعندما وقف السنيور (تيتوني) Tittoni في مجلس الشيوخ الإيطالي في عام ١٩٠٤ معلناً أن الدول قد اعترفت بالوضع الممتاز الذي تتمتع به إيطاليا في طرابلس ، لم تعترض على قوله دولة من الدول ، وأضاف (تيتوني) أن حكومة الملك فكتور عمانويل إنما تتمتع عن تنفيذ حقوقها باحتلال هذه البلاد عسكرياً رغبة منها فقط في أن يجيء الوقت الذي يجعل فيه الظروف هذا الاحتلال أمراً لا مفر منه في النهاية ، ذلك أن بسط حماية إيطاليا على طرابلس ضرورة لا غنى عنها من أجل المحافظة على التوازن في البحر الأبيض المتوسط . ولذلك فإنه كل ما يطلبه (تيتوني) من الباب العالي في هذه الآونة هو أن يمنح الإيطاليين تسهيلات تشجعهم على المضي في نشاطهم التجاري والاقتصادي في هذه الولاية العثمانية .

والواقع أن إيطاليا سرعان ما صارت تنظر إلى برقة وطرابلس كما لو كانت هذه البلاد مقاطعات غير عثمانية ، وتخضع لنفوذ الإيطاليين حقيقة ، وصار يسوءها أن تصح لدولة أخرى مصالح كبيرة في ليبيا . فشكت صحافتها مثلاً في عام ١٩٠٦ من سيطرة الفرنسيين تدريجياً على طرق المواصلات بين طرابلس ودواخل البلاد وهي - أي الطرق - التي يتوقف عليها رخاء هذه الأقطار في المستقبل ، فقالت (الجورنالي ديتاليا) في ٢٤ سبتمبر من العام نفسه أنه « سوف ينجم عن ذلك عندما ما يحين الوقت لتنفيذ العهود التي قطعها الفرنسيون على أنفسهم معنا في مسألة طرابلس ، ألا نحصل نحن على شيء سوى قطعة من العظم عارية من اللحم » . وكان سبب الشكوى احتلال الفرنسيين لواحة (بيلة) الواقعة على طريق القوافل بين مدينة طرابلس وبحيرة تشاد ، مع العلم بأن هذه الواحة كانت تقع في الحقيقة في دائرة النفوذ الفرنسي حسب اتفاق عام ١٨٩٩ .

وفي عام ١٩٠٨ أخذ الشك يساور إيطاليا من نوايا الألمان الذين قوى نفوذهم في

الآستانة عقب حوادث الانقلاب الدستوري المشهور في تركيا بسبب ما كان يظهره السفير الألماني في الآستانة من ضروب التشجيع لأعضاء (لجنة الاتحاد والترقي) الذين تم على أيديهم هذا الانقلاب ، لأن إيطاليا قبل قيام هذه الثورة كانت في نزاع مع حكومة السلطان العثماني بسبب الصعوبات التي ادعت أن رجال الدولة كانوا يلقونها في طريق زعابا إيطاليا لمنعهم من امتلاك العقارات الثابتة في أنحاء الدولة ، ثم لم تلبث الحكومة الإيطالية أن قامت بمظاهرة بحرية مكنتها من تسوية مشاكلها بطريقة تكفل لها مصالحها في النهاية ، ومن ذلك اعتراف تركيا (بمكتب البريد) الذي أنشأته إيطاليا في بنغازي تحت حماية أساطيلها .

وفي فبراير ١٩١٠ ظهر تمسك إيطاليا بنفوذها في طرابلس الغرب لدرجة أنها كانت تعتبر هذا القطر أرضاً إيطالية ، حقيقة ، عندما أثير في البرلمان الإيطالي موضوع «اعتداء» فرنسا على الحدود الطرابلسية . بل كان طريفاً حقاً أن يحتج الطليان فيما بعد على الحكومة العثمانية لإرسالها «نقالات عسكرية» إلى طرابلس عند تفاقم الحالة ، فأشار وزير الخارجية الإيطالية في إنذاره النهائي الذي تضمن إعلان الحرب على تركيا إلى «التأخر والخطار» التي تجت عن ذلك . وفي أثناء الحرب عندما جعلت الظروف احتلال إيطاليا لهذه البلاد عسكرياً أمراً لا مفر منه ، رفعت إيطاليا عقيرتها بالاحتجاج مرة أخرى ضد خداع ومراوغة فرنسا وإنجلترا ، وهما الدولتان اللتان وافقتا على ادعاءات إيطاليا في طرابلس الغرب ، لأن هاتين الدولتين أعلنتا حكومة رومة في ديسمبر ١٩١١ بأن الفرنسيين احتلوا واحة (جنات) بينما ضمت الحكومة المصرية خليج ومرقا السلم بموافقة السلطان العثماني ، فقد اعتبرت إيطاليا هذين العاملين اعتداء صريحاً على «أملاكها» ، وكتب أحد سياستهم المشهورين السفور (سيرماني) : «أن السلم جزء من برقة التي أعلنت إيطاليا وضعها تحت سيادتها الكاملة ، فكيف يتسنى لإنجلترا ومصر أن تقبل السلم هدية من السلطان العثماني ، وما معنى هذا التغيير المستمر الذي يحدث في الحدود المصرية ضد مصلحة برقة والحرب الإيطالية العثمانية لا تزال دائرة ؟» . وأما واحة (جنات) فقد أرسل الفرنسيون لاحتلالها بعض جنودهم في الجزائر فاستولوا عليها في ٢٧ نوفمبر ١٩١١ بدعوى أن إخلاء الجند العثمانيين لمراكزهم الجنوبية في غات وغدامس منذ نشوب الحرب الإيطالية الليبية للانضمام إلى القوات المحاربة في الشمال سبب اضطراب الأمن في هذه الجهة ، وتبعد (جنات) نحو المائة كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من غات .

والواقع أن إيطاليا منذ أن اطمأنت إلى إطلاق يدها في طرابلس الغرب «بموافقة» الدول العظيمة ، شرعت تعد العدة لتنفيذ مآربها الاستعمارية ، وكانت وسيطتها في ذلك العمل

من أجل نشر النفوذ الإيطالي وتعزيزه في برقة وطرابلس حتى إذا أتمت استعدادها وصلحت أحوالها الداخلية وقويت جاليتها في الأقطار الليبية وجاءت الظروف التي تجعل الاحتلال أمراً لا مفر منه ، أقدمت إيطاليا على إرسال جيوشها إلى هذه البلاد لاحتلالها .

وتنوعت أساليب الإيطاليين في نشر دعوتهم في برقة - طرابلس وتعددت ، فاستطاعوا تحت ستار الخدمة الإنسانية ونشر العلم أن ينشئوا في مدينة طرابلس وغيرها طائفة من المدارس التي علقت لغتهم ودينهم ونشرت ثقافتهم وعاداتهم ، ثم لم يقصروا التعليم بهذه المدارس على الذكور بل أشركوا فيه الإناث ، وجعلوا التعليم بالمجان حتى لا يتحمل أبناء العرب وبناتهم شيئاً من نفقات تعليمهم ؛ ثم سرعان ما صاوا ينشئون إلى جانب هذه المدارس المستشفيات والملاجيء الصحية للنرضى والعاجزين للقيام على راحتهم وعلاجهم من غير نفقة ثم اتخذوا من الاهتمام بالبحوث العلمية والجغرافية ستاراً لدراسة طبيعة الأقطار الليبية استعداداً للغزو ، فأرسلوا جملة بعثات لهذه الغاية ، كانت آخرها تلك التي ترأسها (الكونت سفورزا) للتنقيب عن معدن الفوسفات ، وانضم إليها ضباط من هيئة أركان الحرب الإيطالية ، فاستطاع أعضاؤها أن يضعوا المصورات والخرائط الحربية ، وأن يقوموا بدراسة حالة الأرض دراسة كاملة ، لأن هذه البعثة المشثومة على البلاد ظلت في الحقيقة تقوم بمهمتها المزعومة وتضرب في أنحاء البلاد إلى وقت إعلان الحرب ؛ ولكن أعضاها لم يتمكنوا من الاقلاط في النهاية فأنكشفت حقيقة أمرهم أمام الجميع .

وكذلك اتخذ الطليان من الرغبة في تعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية بين بلادهم وبين الأقطار الليبية ذريعة لإرسال العدد الكبير من أبنائهم ورجالهم للتجارة وإنشاء المصانع والمعامل التي كانت في الواقع أشبه بالحصون ومخازن الذخيرة منها بأي شيء آخر ، وعندما حصل الإيطاليون من الحكومة العثمانية في عام ١٩٠٥ على امتياز بإنشاء فرع لبنك دي روم في طرابلس وبرقة صارت مهمة هذا الفرع في الحقيقة نشر الدعاية الإيطالية والتجسس على أحوال البلاد والأهلين في ليبيا . ثم استفادت الحكومة الإيطالية من نظام الامتيازات المعمول به في أنحاء الامبراطورية العثمانية فأنشئوا في إيالة طرابلس الغرب (في بنغازي) مكتبا للبريد يرسلون بواسطته ما يريدون من رسائل وتقارير من غير رقابة ؛ وقد سبق أن ذكرنا كيف اضطرت الحكومة العثمانية إلى الاعتراف رسمياً بوجود هذا المكتب .

يبد أن الذي ساعد الإيطاليين على ذلك كله هو وجود الحالة السيئة التي سببت الفوضى والارتباك في شئون الدولة العثمانية قبل حدوث الانقلاب الدستوري (في عام ١٩٠٨) فلم تلق الولاية أي عناية أو اهتمام من جانب السلطات الحكومية في الأستانة ؛ وأساء المشولون

اختيار الحكام ورجال الادارة في طرابلس الغرب ، ومع أن السنوسيين كانوا هم الذين وقع على كواهلهم وخدمهم عبء الحكومة في داخل البلاد خصوصا ، فقد اشتطت السلطات العثمانية في السنوات الاخيرة في معاملتهم وضيقت عليهم ، وذلك لخوف الدولة من الاشتباك مع الفرنسيين في نضال من جهة ، ولأن السلطان عبد الحميد على الرغم من الخطة التي اتخذها مع السيد المهدي كان لا يزال يظن الشك في نيات السنوسية ويخشى من استفحال أمرها لدرجة قد تهدد (خلافته) ، وزادت هواجسه في أخريات أيامه خصوصا بعد وفاة السيد المهدي . ومع أنه كان من المنتظر أن يتبدل الأحوال بزوال حكومة عبد الحميد المستبدة ، فإنه سرعان ما خابت ظنون عبي الاصلاح وذوت آمال أولئك الذين توقعوا الخير من حدوث الانقلاب العثماني ، لأن الاتحاديين الذين قاموا بهذه الثورة سرعان ما أثاروا غضب العناصر التي كانت تتألف منها الامبراطورية عندما أرادوا « تريك » هذه العناصر ، ولأنهم ما لبثوا أن رجعوا إلى الأساليب الماضية — كالرشوة وما إليها — في حكومتهم حتى قامت في أنحاء الدولة جملة ثورات امتد لحيها من بلاد العرب إلى ألبانيا .

أضف إلى هذا أن جمعية الاتحاد والترقي التي استأثرت بالسلطة بعد فوز الثورة (في يولية ١٩٠٨) كانت تغفل عمداً شئون الولاية ؛ بل صرح زعماء الاتحاديين غير مرة « بأقوال تدل على أنهم لا يريدون دم عسكري واحد لصيانة ولاية طرابلس الغرب في إيطاليا أو فرنسا أو غيرها من الدول . وكانت هذه الجمعية قد عقدت اجتماعا في سالونيك بحث فيه مندوبوها مسألة طرابلس الغرب ، فقر رأيهم على عدم تحصين أساطرها أو اتخاذ التدابير التي تصون الولاية من أي عدوان مفاجئ . كما قرروا عدم إثارة هذه المسألة كلية في مجلس المبعوثان . ثم نشرت جريدة (طنين) لسان جماعتهم مقالا على أثر قرارهم هذا جاء فيه : « أن ولاية طرابلس الغرب هي من الولايات التي لا تقيد الدولة فائدة مالية يعتد بها فيجب على الحكومة العثمانية الاقتصاد في الإنفاق على هذه الولاية التي لم يندمج أهلها لليوم في سلك الجنسية ، ثم وصفت أهل الولاية بالجهل وحذرت منهم الحكومة كل تحذير . وعندما تسلمت أزمة الحكم بايتمبول وزارة ابراهيم حقي باشا الضعيفة — ويعتقد كثيرون أنه كان متواطئا مع أعداء الدولة وخصوصا الطليان الذين ربطتهم به روابط عديدة ، منها زواجه من إيطالية وشغفه بلعب الورق مع أصدقائه الايطاليين ، وخضوعه لسلطان الذهب ا — ضاع كل أمل في أن تنال ولاية طرابلس الغرب شيئا من عناية الدولة واهتمامها بها .

فع أن حكومة السلطان عبد الحميد كانت تدرك تماما خطورة المطامع الايطالية في طرابلس الغرب وعملت جادة من مدة على اتخاذ الالهبة لرد أي اعتداء على الولاية ، وأرسل

اليها السلطان قائدا من خيرة قواده ، هو المرحوم رجب باشا الذى ، أطلقت يده فى شئون الولاية الادارية والعسكرية . فمرن أهلها على الأصول الحربية وفرق على شبانها وشيوخها البنادق ومرنهم على استعمالها ، وملا المستودعات العسكرية بالذخائر ، حتى أصبح عدد الجيش المرابط فى طرابلس حوالى الخمسة عشر ألفا وهذا عدا الفرق غير النظامية (قول أوغلى) من الأهلين العرب ، وهؤلاء بلغوا الأربعين أو الخمسين ألفا ومهمتهم معاونة الجيش النظامى ، فقد أبطل الاتحاديون هذه الاستعدادات ، وشرعوا ينزعون البنادق من الأفراد بدعوى أن الأهلين المسلمين قد يقومون فى وجه الحكومة إذا طلب منهم تأدية الضرائب والتكاليف الأميرية . وانتهزت وزارة حقى باشا فرصة استفحال أمر الثورة فى اليمن فسحبت معظم جيشها النظامى من طرابلس الغرب لاستخدامه فى اخماد هذه الثورة ؛ على أنها لم تكثف بذلك ، بل أهملت كل الاهمال الفرق الأهلية ، فنقصت قوة الدفاع الطرابلسية إلى أقل من الخمسة آلاف مقاتل فقط . ومع أن الطرابلسيين — أهل طرابلس وبرقة — ظلوا يطلبون الانتظام فى سلك الجنديّة بعد إعلان الدستور العثمانى ، فقد أصم الاتحاديون آذانهم ولم يجيبوا الأهلين إلى ما طلبوه إلا قبيل وقوع الاعتداء الايطالى بفترة قصيرة ، ولم تبدأ الاجراءات اللازمة لتجنيدهم إلا بعد قيام الحرب ذاتها ، وزيادة على ذلك فقد نقلت الحكومة العثمانية حوالى الأربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى يستخدمها الأهلون عند الطوارئ ؛ ثم لم تفعل شيئا من أجل إصلاح الاستحكامات ومراكز الدفاع بالبلاد أو تمدها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها .

وظل الحال على ذلك حتى قبيل وصول الإنذار الايطالى بأيام قليلة فقط ، إذ أرسلت الدولة إحدى النقالات العسكرية — درنة — تحمل كمية من البنادق والخرطوش إلى ميناء طرابلس ، وهى النقالة التى احتج الايطاليون على إرسالها على نحو ما تقدم .

أضف إلى هذا أن الحكومة أهملت شئون البلاد الاقتصادية فتدهورت الحال من سيء إلى أسوأ حتى أمحلت الأقطار الليبية منذ أربعة أعوام تقريبا ، وارتفعت أثمان حاجيات المعيشة ارتفاعا فاحشا ، فبات الأهلون من جراء الغلاء والجذب فى ضنك وبلاء عظيمين ومع هذا لم تفعل الحكومة العثمانية شيئا لتخفيف حدة هذه الأزمة الخائفة التى تركت الأهلين يتضورون جوعا حتى اضطر كثيرون إلى الهجرة إلى تونس والبلاد الأخرى ، بينما ازدحمت عاصمة الولاية بالشيوخ والأطفال والنساء والمرضى يلحون فى طلب الخبز والقوت . ومات من الجوع عدد كبير منهم والحكومة لا تبدي حراكا لتخفيف ويلات القحط والمرض . ويحمل المعاصرون مسئولية ذلك وزارة حقى باشا بالإستانة ، فان هذه الوزارة لم تقنع

بارتكاب هذه فقط ، بل عمدت أيضا إلى تجريد البلاد من الموظفين الأكفاء الخبيرين بلغة
الاهلين وعاداتهم والملمين بجغرافية الأقطار اللبية وطبيعة أرضها ، كما أنها استدعت القواد
العثمانيين المحنكين الذين كانوا يشرفون على استحكومات الولاية ونظام الدفاع بها ، وحدث هذا
قبل بداية الاعتداء الإيطالي بفترة قصيرة ، وذلك على الرغم مما كان يحذرنا منه سفير تركيا
في إيطاليا حسين كاظم بك الذي أخطر هذه الوزارة منذ يناير ١٩١١ بنوايا الطليان الحقيقية
وتدابيرهم الخفية من أجل الإغارة على طرابلس الغرب ، فكانت وزارة الخارجية العثمانية
تضرب بهذه التحذيرات عرض الحائط وتهمل تقارير سفيرها ولا تفحصها ، بل إن حتى باشا
لم يلبث أن استقدم إلى الآستانة والى طرابلس وقتئذ إبراهيم باشا بدعوى أنه كان يقسو في
معاملة الإيطاليين حتى استحق سخطهم ثم أمعن حتى باشا في الاستهتار بمصالح الدولة ، فلم يعين
الباب العالي واليا غيره ، مع أن إبراهيم باشا هذا كان دائم النشاط ولا يدع فرصة تمر دون
أن يحذر دولته من نوايا إيطاليا ويبين حقيقة مطامعها في الأقطار اللبية ، وهكذا كانت البلاد
عند بداية العدوان الإيطالي من غير وال أو حاكم يسوس أمرها ويدبر شئونها ، ثم أفلحت
إيطاليا في تضليل رجال الوزارة العثمانية وعلى رأسهم الصدر الأعظم إبراهيم حتى باشا الذي
اتهم بالتواطؤ مع أعداء الدولة ، فكانوا جميعا لا يتوقعون أى سوء من جانب إيطاليا ،
بل وجدوا في تصريحات الحكومة الإيطالية في مناسبات عدة مسوغا لهذا الاطمئنان ،
خصوصا وأن وزير خارجيتها الماركيز دي سان جيليانو San Guiliano كان قد ردد في
مجلس النواب الإيطالي في ٩ يونية ١٩١١ قول أحد وزراء إيطاليا السابقين ، أن سياسة
إيطاليا الخارجية كانت تسترشد دائما بقاعدة لا تتغير ، ليس فقط فيما يتعلق بأوربا بل
وبأفريقية أيضا ، هذه القاعدة هي أن المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية أمر واجب
الاحترام ومقدس ، ثم أضاف ، ولم تتغير الأسباب التي دعت سلفي إلى إصدار هذه
التصريحات ، ، ولذلك كانت دهشتهم عظيمة حقا عندما فاجأتهم إيطاليا بإنذارها المشؤوم في
٢٦ سبتمبر ١٩١١ ، أى بعد أربعة أشهر فقط من تصريح وزير خارجيتها بالمحافظة على كيان
الامبراطورية العثمانية .

ومع أن هذه الخطوة الغادرة من جانب إيطاليا لا تخلى وزارة حتى باشا من مسؤولية
ضياح طرابلس الغرب ، لأن أطاع الإيطاليين في هذه البلاد كانت معروفة مشهورة ولم يقصر
سفراء الدولة ورجالها في تحذيرها من نياتهم ، فلا بد من التساؤل أيضا عن الأسباب المباشرة
التي جعلت إيطاليا تقدم على فعلتها في هذه الآونة . حقيقة اختار الطليان الطرف المناسب من
كل الوجوه لاعتدائهم في وقت كانت فيه تركيا قد سحبت معظم قواتها النظامية من الولاية

وأهملت وسائل الدفاع عنها ؛ وكان الصدر الأعظم على الأقل من أصدقائها ؛ ولكن الذى سبب مخاوف الإيطاليين ، وجعل إعلان الحرب فى نظرهم « أمرا لا مفر منه فى النهاية ، رواج الشائعات بأن « دولة ثالثة ، سوف تقيد من توسطها بين الأتراك والفرنسيين من أجل الوصول إلى تسوية مسألة الحدود بين تونس وطرابلس بالطرق السلمية . وتفصيل ذلك أن تركيا وافقت على تشكيل لجنة فرنسية تركية لبحث هذه المسألة نتيجة لتوسط الحكومة الألمانية التى طمعت فى أن تنال مكافأة على توسطها واستخدام نشاطها فى مصلحة العثمانيين (مرسى طبرق) أو أى مرفأ آخر فى طرابلس الغرب يصلح لأن يكون محطة لتزويد السفن الألمانية بالفحم والوقود فى البحر الأبيض المتوسط فلست إيطاليا فى ذلك خطرا يقضى على مصالحها وادعاءاتها فى طرابلس ، وقررت العمل فورا وقبل خروج هذه البلاد من دائرة نفوذها نهائيا ؛ وعندئذ أرسلت إيطاليا إنذارها إلى الباب العالى ، وحددت أربعاً وعشرين ساعة فقط لوصول جواب الباب العالى على هذا الإنذار ، عن يد السفير العثمانى فى رومية ،

وكان الإنذار الإيطالى كما هو منتظر شديد اللهجة ، اتهمت فيه إيطاليا الحكومة العثمانية بأنها « كانت حتى الآن تبنى عداء دائما نحو الحركة الإيطالية الشرعية فى طرابلس وبنغازى ، حتى أصبحت الحالة فى طرابلس الغرب « عظيمة الخطورة بسبب التحريض العام ضد الرعايا الطليان ، . لكل ذلك ، ولما باتت لا تجدى نفعا أية مفاوضات للوصول إلى تسوية ودية أو إعطاء إيطاليا أية إمتيازات من أجل إنهاء هذه الأزمات المختلفة ، « فقد رأت الحكومة الإيطالية نفسها — كما قالت — مرغمة على المحافظة على شرفها ومصالحها ولذلك قررت أن تحتل طرابلس وبنغازى احتلالا عسكريا ، وهى « تنتظر أن الحكومة السلطانية تصدر أوامرها حتى لا تصادف إيطاليا فى الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ، والأجد صعوبة فى إنفاذ ما تريد إنفاذه ، وبعد ذلك تنفق الحكومتان على تقرير الحالة اللازمة ، ولما كانت وزارة حتى باشا غير مستعدة للحرب ، ولا يزال يرجو أعضاءها الوصول إلى تسوية سلمية مع إيطاليا على أساس إعطاء هذه الدولة جميع ما تطلبه من امتيازات اقتصادية ولا يحد من مداها سوى ما يتطلبه شرف الإمبراطورية [العثمانية] ومصالحها العليا والمعاهدات السارية ، « فقد أرسل الباب العالى جوابه على هذا الإنذار فى ٢٩ سبتمبر ، وكان جوابا يحمل طابع الذل والمسكنة ، تنصت فيه الحكومة العثمانية من مسئولية أية أعمال « كانت نتيجة الحكم الماضى ، ونفت أنها تريد تعطيل المصالح الإيطالية ، وطلبت فتح باب المفاوضات لارضاء رغائبها . وغنى عن البيان أن هذا الجواب لم ينل موافقة إيطاليا ، فذهب ممثلها إلى الصدر الأعظم وسلمه فى مساء اليوم نفسه بلاغ إعلان الحرب ؛ وأصدرت الحكومة الإيطالية بلاغا آخر فى رومية فى الوقت نفسه يعلن قيام الحرب بينها وبين الدولة العثمانية وفى يوم ٣٠

سبتمبر ١٩١١ نشرت جريدة (التيمس) الانجليزية بيانا من مصدر إيطالي مسئول يسرد الأسباب والوقائع التي تذرعت بها إيطاليا لإعلان الحرب على تركيا ، ومنها إهانة الراية الإيطالية ، وتعطيل نشاط الإيطاليين التجاري والعلمي في ليبيا ، ومساوىء نظام الحكم العثماني نفسه في عهد الاتحاديين ؛ هذا عدا حوادث القتل والاعتداء التي ذهب ضحيتها كثيرون من الطليان وكذلك نشرت التيمس في اليوم نفسه بيانا من مصدر تركي مسئول عن أسباب هذه الأزمة ، وفي يوم ٣ أكتوبر ١٩١١ أطلق الأسطول الإيطالي قذائفه على ميناء طرابلس وبذلك بدأت الحرب الليبية - الإيطالية .

* * *

أحدث الاعتداء الإيطالي دويأ عظيما تردد صداه في أنحاء الإمبراطورية العثمانية والعالم الإسلامي ، وعند ما أعلن الطليان الحرب على تركيا اجتمع في أول أكتوبر عدد كبير من أعضاء مجلس المبعوثان العثماني ، وأنبأوا عنهم وقد أقبل السلطان ، فألقى فيهم خطابا استنكر فيه اعتداء إيطاليا الفظيع ، وذكر أنه « عند ما زار ادرنة وسالونيك بحثش على الاستحكامات بهما وأحب أن تكون جميع استحكامات السلطنة على شاكلتها من المنعة، ولكن أمر طرابلس من ذلك قد أهمل بإهمال وعدم يقظة وزارة حتى باشا، وكان السلطان محمد رشاد قد أراد أن يجمع مجلس المبعوثان فعارضته وزارة حتى باشا التي كانت مسيرة بإرادة جمعية الاتحاد والترقي . وعظم استياء السلطان من الوزارة وتآلب الرأي العالم التركي ضدها حتى اضطر حتى باشا إلى الاستقالة ، وتألقت وزارة جديدة كان أول ما عيّنت به إرسال الكتب إلى حكومات أوروبا تطلب توسطها لفض النزاع القائم وحقن دماء البشر ، كما أبرق السلطان في ٢ أكتوبر إلى ملك إنجلترا وإمبراطور ألمانيا يطلب إليهما التدخل ، كما بعث بذلك أيضا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية وبقية الملوك والقيصرة ولكن من غير جدوى ، إذ اعتذرت كل هذه الحكومات عن التدخل . وعندئذ أفادت الدولة العثمانية من غفوتها وظهر جليا أنه عليها وحدها فقط تقع مسؤولية رد اعتداء الطليان والدفاع عن أملاكها .

وفي هذه الأثناء كان هياج الخواطر في العالم الإسلامي قد بلغ ذروته . فأبرق إمام الين (جلالة الإمام يحيى حميد الدين) عن « استعدادة للقيام بمائة ألف جندي تحت قيادته بين محارب ومتطوع ، وأبرق أمير مقاطعة نجد (الأمير عبد العزيز بن سعود) يقول « إن مقاطعة نجد تفتخر اليوم من كل جوارحها بأنها مقاطعة عثمانية ... وأنه وجميع القبائل التي تحت أمره مستعدون للزحف في ظل الأعلام العثمانية إلى حيث تأمرهم الدولة العلية ، وجاء كثيرون من أبناء البلاد الإسلامية للتطوع في الجهاد في طرابلس الغرب ضد إيطاليا المعتدية . وزاد عدد هؤلاء المتطوعين تدريجيا حتى بلغوا في بداية العام التالي (١٩١٢) حوالي الستة عشر ألفا .

وتألفت لجان الإعانة لمساعدة المتكويين وأرسلت البعثات الطبية إلى ميادين القتال في طرابلس وبرقة . وكان المصريون من أسبق الشعوب التي بذلت المعونة للمجاهدين العرب في ليبيا ، فتشكلت اللجان لجمع التبرعات ، وكانت أهمها اللجنة العليا التي تأسست بعد وقوع الاعتداء الإيطالي بأيام قليلة (١٤ أكتوبر ١٩١١) برئاسة المغفور له الأمير عمر طوسن ، كما تألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة المرحوم الشيخ علي يوسف ، وقررت إنشاء عدة مستشفيات ميدان ، ثم سافرت البعثة الأولى في ٧ نوفمبر ، وتوالى إرسال البعثات الطبية بعد ذلك .

وكانت أهم الأسباب التي دعت آلاف المسلمين إلى التطوع في صفوف المجاهدين قوة الرابطة التي دفعت هذه الشعوب الإسلامية إلى التكاتف والتساند في وجه العدو المعتدى وعلى الخصوص عندما وقع هذا الاعتداء على قطر من أقطار دولة الخلافة الإسلامية وكان المسلمون متحفزين وقتند للانتصار دائما لدولة الخلافة ويقبلون على الجهاد من أجل المحافظة على كيانها لأنهم توقعوا من سقوطها وانحلالها ضياع الكلمة وضعف القوة ؛ ولم يكن العرب قد استعدوا بعد لإنشاء دولة عربية متينة الدعائم لتكون مركزا للإمامة العظمى ، كما كان يخيفهم ويزعجهم شبح الاستعمار الأجنبي ويشفقون على قطر عربي شقيق من الوقوع في براثنه . أضف إلى هذا أن الإيطاليين سرعان ما أظهروا في أثناء المعركة الأولى والثالية أنهم لا يتورعون عن ارتكاب أقصى أنواع الفظائع ضد الأهالي في أي مكان نزلوا به بغية الظفر بأعدائهم والتكيل بهم لإرغامهم على ترك المقاومة والرضا بالتسليم السريع .

والجرائم التي ارتكبتها الطليان في أثناء هذه الحملة كثيرة ، لعل أشهرها وأسوأها ذكرا بما فعله هؤلاء بأهل (المنشية) شرقي مدينة طرابلس في ٢٣ أكتوبر ١٩١١ فقد أعمل الإيطاليون في الأهالي السيف وأوقعوا بهم مجزرة كبيرة لم ينبج منها طفل أو شيخ أو امرأة . وأباح الجنرال (كانيفا) قائد الحملة البلدة ثلاثة أيام لجنوده حتى يبيدوا منها العرب وامتدت فظائع الطليان إلى غيرها ، وتعود الجنود إطلاق الرصاص عبثا وهوا على الأهالي أينما صادفهم لا ينجو من أيديهم عربي حتى ضجت الانسانية من أعمالهم ، وقابل العالم فظائعهم بالاستنكار والسخط ، واحتجت الحكومة العثمانية على ذلك كله بمذكرة أرسلتها إلى الدول العظمى في ٣ نوفمبر ١٩١١ ، واحتجت كذلك الجمعيات والهيئات ومنها الجمعية المصرية على لسان رئيسها الأمير عمر طوسن رحمه الله ، وكان بما زاد الطين بلة أن إيطاليا لم تلبث أن أعلنت في ٦ نوفمبر ١٩١١ ، أنها تضع طرابلس وبرقة تحت سيادة المملكة الإيطالية الكاملة والمطلقة ، ثم أبلغت ذلك رسميا إلى الدول لإقراره ، ولم يغن شيئا احتجاج تركيا أو استنكار العالم الإسلامي لهذا العدوان للصارخ .

وأما الأتراك ، فإنه بمجرد وقوع الحرب ، وتبينهم أنه لا مناص من القتال في النهاية من أجل الدفاع عن القطر الذي أهمله أولو الأمر منهم زمنا طويلا ، فقد شرعوا يرسلون إلى طرابلس الغرب نخبة من ضباطهم الترك والعرب لتنظيم الدفاع ؛ فكان من بين هؤلاء أنور بك الذي تولى القيادة العامة في برقة ، ومصطفى كمال بك (كمال أتاتورك) كما تطوع عدد من الضباط والشبان العرب الذين أنشئوا في الآستانة بعد إعلان الدستور العثماني الجمعيات والنوادي السياسية لإعلاء شأن الأمة العربية في نطاق الامبراطورية العثمانية .

وكان من بين هؤلاء المتطوعين ، تحسين العسكري الذي تخرج ضابطا برتبة ملازم ثان في مارس ١٩١٢ وعين في الفيلق الأول في الآستانة ؛ ويقول تحسين بك العسكري في مذكراته المنشورة عن هذه الحوادث ، ولما شاهدنا الاعتداءات المتوالية على البلدان العربية قائمة على قدم وساق في الداخل والخارج ، رأيت الشبيبة العربية وفي مقدمتها عزيز المصري أن الفرصة سانحة لها لإرسالها من يمكنه التطوع من الضباط إلى حرب طرابلس الغرب لمساعدة الشيخ أحمد (الشريف) السنوسي رئيس القبائل العربية الأفريقية بمنطقة طرابلس الغرب وحثه على تأسيس دولة عربية هناك تحت لواء سيادته وإعلان استقلالها لتكون أول دولة عربية مستقلة في إفريقية التي كانت ولا تزال تئن تحت نير المستعمرين ، فتطوع عزيز بك المصري وسافر متكررا إلى جهة طرابلس الغرب ، فعين قائدا لمنطقة بنغازي ، وحذا حذوه كثيرون من الضباط الطرابلسيين والسوريين والعراقيين من جمعية العهد ، وهم شهيد الحرية الملازم صبحي الطرابلسي ، والملازم محمود حلي الذي هو الآن في الجيش العراقي برتبة المقدم (١٩٤٤) والملازم السيد عيسى الوترى البغدادي رحمه الله والملازم إسماعيل الطرابلسي ، وتطوعت أنا وغيري من الضباط للاتحاق بقوة بنغازي ،

ومع هذا وقع عبء القتال ضد الطليان على كواهل المجاهدين الأوائل الذين ظلوا حتى نهاية الحرب الليبية يصمدون للطليان في كل ميدان ومعركة ، وهم السنوسيون الذين تدفقوا من داخل البلاد زرافات ووجدانا لموازرة الحاميات العثمانية الضعيفة في الشواطئ في برقة ثم في طرابلس أيضا ، فنجحوا في إحياء آمال القوات العثمانية النظامية وفي إمكان الدفاع عن البلاد بعد أن كاد التردد يفضي إلى هزيمتها ، فإنه بمجرد أن بلغ استانبول خبر الهجوم الإيطالي على طرابلس أصدرت الوزارة أوامرها إلى نشأت بك الذي كان نائبا عن الوالي في حكومة البلاد بعد أن سحبت وزارة حتى باشا والي طرابلس ، ونشبت الحرب قبل أن ترسل لها غيره بأن يخلى طرابلس ويقاوم فقط خارج المدينة ثم ينسحب جنوبا إلى سهول غريان . وعندما وصلت هذه التعليمات عقد نشأت بك مجلسا من الضباط الموجودين وثلاثة من زعماء العرب

فقرروا جميعا ، ماعدا الضابط التركي نظمي بك إخلاء المدينة فورا والانسحاب . فخرجت الحكومة من طرابلس ومعهما الجند بقيادة نشأت بك قاصدين بجهات غريان ، وكانوا ينتظرون الأوامر من الباب العالي بالتسليم ، وكانت إيطاليا تنتظر ذلك لعدم تصور العقل إمكان أدنى مقاومة . فلم يغير ذلك سوى قيام الزعماء الطرابلسيين ، يهددون العسكر المنسحب إلى خارج طرابلس بالقتال إن لم يصل الطليان الحرب ، ثم جعلوا يستنفرون الأهالي للجهاد فتدفق المجاهدون العرب من أقاصى الولاية والفران ، بل ومن الواحات الجنوبية في السودان الغربي حيث يعظم نفوذ السنوسية .

وقد حدث مثل هذا في برقة أيضا ، لأن الإيطاليين الذين أطلقوا قنابلهم على درنة وطبروق وبنغازي (إلى جانب طرابلس والخمس) استطاعوا أن يحتلوا هذه المراتب تحت حماية أساطيلهم . وأكروا الحاميات العثمانية الضعيفة على الانسحاب إلى الداخل . فكان تدفق المجاهدين السنوسيين على المعسكرات العثمانية سبيا في صمود هؤلاء في وجه المعتدين الطليان حتى حضر أنور بك ورفاقه ، وتولوا تنظيم الدفاع عن هذه البلاد بمؤازرة السنوسيين وتعظيمهم وتظهر هذه الحقائق واضحة جلية إذا ذكرنا طرفا من سير الحرب منذ نشوبها إلى وقت عقد الصلح بين تركيا وإيطاليا في أكتوبر من العام التالي (١٩١٢) .

فقد دارت رحى الحرب في ميدانين : أحدهما في طرابلس والآخر في برقة .

ففي طرابلس بدأت المقاومة ضد الطليان ، قبل اعتداءات هؤلاء على ميناء طرابلس بمدة طويلة . وكان مهد هذه الحركة في الخمس ، عندما أخذ متصرفها العثماني الدكتور رشيد ينيب الأذهان إلى حقيقة نوايا الطليان ، ويحذر الوطنيين من نشاط (بنك دي رومه) ورغبة هذا البنك في أن يوقع الأهالي في شرك الديون ، حتى يتخذ الطليان من ذلك ذريعة لادعاء المحافظة على مصالحهم المالية في البلاد . وكان أول من شعر بهذا الخطر المحدق بطرابلس أحد أبناء البلاد الغيورين ، بشير بك السعداوي ، وكان وقتئذ رئيسا لكتاب مجلس الإدارة في الخمس ؛ ولقى معاونة كبيرة من الشيخ عبد الرحمن الزقلمى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، وعمل الاثنان على تعطيل الجهود التي كان يبذلها بنك دي روما لشراء الأرض وإقراض الأهالي الأموال . وعندما حضرت بعثة (سفرزا) التي سبقت الإشارة إليها ، ووصلت في تفتيحها عن الفونسات ، ودراسة الآثار القديمة ، إلى مدينة الخمس ، اشتدت حركة المقاومة في الخمس ، فدعا متصرفها بشير بك السعداوي والشيخ عبد الرحمن الزقلمى واتفقوا جميعا على عقد مؤتمر يحضره مندوبون عن كل الأفضية ، في مصراته وسرت وزليت ومسلاته وغيرها للاحتجاج على نشاط الطليان عموما ، وعندما انعقد هذا المؤتمر في الخمس اتخذ الحاضرون عدة قرارات منها منع

كل معاملة مع بنك دي رومه وبيع الاراضى لهذا البنك أو اقراض الاموال منه . ولما كان لهذا البنك سفينة تحضر للعمل بالسواحل أكثر من مرة كل شهر فقد قرر المؤتمر مقاطعتها كما طلب الأعضاء أن يأتي بريد الاستانة على ظهر سفينة عثمانية بدلا من السفينة الايطالية التي كانت تحضره في العادة . ثم أبرق المجتمعون هذه القرارات إلى ابراهيم باشا وإلى طرابلس وإلى الصحف الأوروبية كالطان الفرنسية والتميز الإنجليزية . ثم طالب بشير بك و اخوانه بتجنيد الطرابلسيين بكل سرعة واستبقاء الأسلحة بأيدي الأهلين حتى يكون لدى البلاد قوة كافية تستطيع الدفاع عنها . وكانت وزارة حقي باشا على نحو ما تقدم قد سحبت معظم القوات العسكرية من طرابلس بسبب ثورة اليمن وشرعت في نزع الأسلحة من الأهالي . على أنه كان من أثر هذا النشاط الظاهر من جانب بشير و اخوانه الوطنيين في الخمس ، أن صارت ايطاليا تخشى ذبوع حركة المقاومة ضدها ، وبادرت بالاعتداء المسلح على طرابلس قبل أن تستكمل البلاد استعدادها فكان اطلاق القذائف من بوارجها على ميناء طرابلس وغيره في اكتوبر ١٩١١ دون أي انذار سابق .

وكان من أثر اعتداء الطليان على طرابلس . أن زاد زعماء المقاومة في الخمس ، اصرارا على الجهاد فقامت الاستعدادات في كل مكان ، واتخذ بشير السعداوى (ساحل آل حامد) مركزاً له يرسل منه الدعوة إلى القبائل ويحثهم على الجهاد ؛ وذهب نوري بك السعداوى شقيقه ومعه الشيخ عبدالرحمن الزقلى إلى مسلاته لإيصال الدعوة إلى داخل البلاد ؛ واحتشدت أعداد عظيمة عند الساحل ، وأنذر الطليان بشير بإطلاق القذائف على الخمس إذا امتعت حكومتها عن التسليم . وفي الموعد المضروب ، أطلقت مدافع الاسطول قنابلها على البلدة ، وحاول الطليان النزول إلى البر ، ولكنهم عادوا أدراجهم ، وظلت المقاومة مدة أربعة أيام كاملة ، ثم استطاع الطليان النزول إلى البر ، ومع ذلك فقد ثابروا المجاهدون على القتال مع ضالة عددهم ؛ وعندئذ كانت قد تألفت جبهة للقتال في سوانى بنيانوم برئاسة القائد العثماني نشأت بك ، الذي تولى القيادة في ميدان طرابلس .

وكان أول مافعله نشأت بك أن أخلى مدينة طرابلس ، فاحتلها الطليان في ٤ اكتوبر ١٩١١ ، ثم انسحب على نحو ما تقدم قاصدا غريان . وكان انسحاب الأتراك أولا إلى (قرقارش) ، لواقعة غربي مدينة طرابلس ؛ وفي اليوم التالي وصلوا إلى (عين زاره) في الجنوب . ولما كانت مدافعهم من النوع القديم والثقيل ويتعذر على الجنود أخذها معهم فقد تركوها وراءهم ، واستولى عليها الطليان الذين بادروا باتخاذ مرا كزهم في خط من الجنادق يمتد من القلعة السلطانية غربا إلى القلعة الجيدية شرقا في جبهة طولها عشرة أميال تقريبا .

وحدث أول اشتباك بين الايطاليين والأتراك أمام (بومليانغ) في اكتوبر ١٩١١ ، وكانت مناوشة صغيرة . وأما العثمانيون فقد واصلوا انيحلهم جنوبا إلى (العززية) . وعندئذ ظهر في ميدان الجهاد زعيان من كبار زعماء الطرابلسيين ، كان لما أبدياه من الهمة والنشاط في استنفار العرب للجهاد الفضل في وقف هذا الانسحاب نهائيا ، والتصميم على القتال . وهذان الزعيان كانا سليمان البارون وفرحات بك .

وكان فرحات بك من (الزاوية) ، تعلم في طرابلس وتونس ، ثم في باريس حيث قضى خمس سنوات يدرس القانون ، ثم تقلب بعد عودته في مختلف المناصب حتى صار قائمقاما في إحدى جهات الفزان (الشاطي) ، وبعد إعلان الدستور العثماني ، مثل مدينة طرابلس نائبا في مجلس المبعوثان ، وكان عند نشوب الحرب الايطالية الليبية يقضى إجازته في (الزاوية) ، فعرض خدماته على القائد التركي ، وطلب من المشايخ مساعدة العثمانيين ، وجمع عددا عظيما من المتطوعين من أهل الزاوية والعجيلات وزواره وذهب بهم إلى (العززية) فكان أول عربي جاء لتنجدة العثمانيين ، وشجع وصوله مع المتطوعين نشأت بك على الوقوف في العززية واتخاذها مركزا للدفاع ، بينما بقيت (غريان) قاعدة القيادة العامة .

على أن أهم الزعماء الذين ظهروا في هذه الآونة في طرابلس كان بلا مرء الشيخ سليمان الباروني ، من أهل (فصاطو) في منطقة الجبل . ولد في سنة ١٨٧٠ وتلقى علومه في تونس والجزائر ومصر . وبينما كان في مصر التحق بجمعية سرية ثورية تعمل ضد السلطان عبد الحميد فوقفت السلطات على حقيقة أمره ، وحكم عليه بالاشغال الشاقة مدى الحياة . وبعد قليل صدر العفو عنه ، ولكن الجواسيس ظلوا يراقبونه فقبض عليه ثانية وحكم عليه بالسجن عامين على أن يبقى بعد ذلك سنة أخرى تحت المراقبة في مدينة طرابلس . ولما كان الباروني قد اكتسب شهرة طيبة بين مواطنيه فقد تألف وفد من شيوخ الطرابلسيين ذهبوا إلى الاستانة خصيصا لرجاء السلطان العثماني أن يصفح عنه ، فأطلق سراح الباروني ، على أن البوليس ظل يراقب حركاته ، وعندئذ قرر الباروني الرحلة إلى مصر ، فأقام بها وأنشأ جريدة ثورية أطلق عليها اسم (الأسد) ، ولكنه لم يظهر من هذه الجريدة سوى ثلاثة أعداد فقط ، لأن السلطات أمرت بإيقافها (١٩٠٧) . ومع هذا فإن أيام الاستبداد الحميدي كانت معدودة ، لأنه لم يمض زمن طويل على ذلك حتى قامت الثورة وأعلن الدستور العثماني (في يولية ١٩٠٨) ، فعاد سليمان الباروني إلى وطنه وانتخب نائبا عن الجبل في مجلس المبعوثان العثماني . وعند ما وقع اعتداء الطليان على طرابلس كان الباروني يقضى عطلة بين أهله وعشيرته في (فصاطو) وهناك جاءته الأخبار بنزول الايطاليين في العاصمة واحتلالهم لها وانسحاب الحامية العثمانية

من مدينة طرابلس إلى قرقاش ومنها إلى (سينات بنى آدم) ثم إلى (العزيزية) — في طريقها إلى غريان . ومثلما فعل فرحات بك ، اتصل البارونى فى الحال بقائد الحامية نشأت بك ، ثم حضر بعد ذلك إلى العزيزية على رأس خمسين شيخا من شيوخ الجبل ، فبحث الموقف مع نشأت بك ، ثم وعد بإمداده بالتطوعين لمواصلة الحرب ، وعاد من فوره إلى الجبل لهذه الغاية ، وحث حوالى الألف على الخروج ، وذهب بهم إلى ميدان القتال فى الواحة حول مدينة طرابلس . فبلغ سينات بنى آدم ، ومنها إلى مقر القيادة التركية فى عين زاره ، ثم زحف مباشرة ومن غير توقف إلى قصر (الهانى) و (سيدى المصرى) ، وأغار برجله على هذين المركزين فى صباح يوم ٢٣ أكتوبر ١٩١١ . ومن ذلك الحين لم يترك البارونى أو أحد من رجاله الجيش العثمانى .

وتلخص أهم حوادث الحرب فى ميدان طرابلس فى أن الأسطول الايطالى ظهر أمام مدينة طرابلس فى ٣٠ سبتمبر ، وضرب حولها الحصار ، وأهل المدينة ثلاثة أيام للتسليم ثم أطلق قذائفه على قلعتى المدينة : الحديدية والسلطانية ، فلم تستطع الحامية الدفاع أكثر من ساعتين لأن مدافعها (كروب) القديمة كانت قصيرة المدى لا تصل قذائفها إلى الأسطول فاضطرت إلى الانسحاب ، وعندئذ أنزل الطليان جنودهم واحتلوا مدينة طرابلس . وهل الطليان وكبروا لهذا الانتصار السهل السريع ، وطفقوا يجمعون التبرعات لإقامة تمثال لوزيرهم القديم (كريسبي) صاحب (مشروع فتح طرابلس العظيم) . واستولى الايطاليون عند نزولهم إلى البر على قصر الهانى وقلعة سيدى المصرى (وهى غير ضريح سيدى المصرى) ، وسوق الجمعة ، وجامع قشلون . ومع هذا فإنه بمجرد أن أخذت جموع المتطوعين العرب تتدفق على المعسكر العثمانى استطاع المجاهدون أن يستردوا هذه المراكز ، فانكشفت منطقة احتلال الطليان حول مدينة طرابلس ، حتى إذا كان يوم ٢٣ أكتوبر نشبت معركة كبيرة فى بومليانة كان النصر فيها حليف الايطالين ، فنصبوا مدافعهم فى (بومليانة) وسيدى المصرى القريبة منها . وفى ٢٠ نوفمبر شرع الطليان يحفرون الخنادق حول مراكزهم الجديدة . وفى أثناء ذلك كانت النجديات تصل تباعا لتعزيز القوات الايطالية فى طرابلس ، فوصلتهم الامدادات من صقلية فى الاسبوع الاول من شهر نوفمبر ، ثم جاءتهم امدادات أخرى فى ٧ نوفمبر حتى بلغت قوات الجنرال (تروجونى) فى مدينة طرابلس حوالى الثلاثين ألفا على أقل تقدير .

وأما الأتراك فقد كانت مراكزهم الأساسية بعد انسحابهم من مدينة طرابلس فى (قصر العزيزية) — أو العزيزية — ثم فى قصر غريان جنوبها ، وهى التى قرروا اتخاذها قاعدة رئيسية لتنظيم المقاومة كما تقدم .

ثم امتدت مخافهم الأمامية إلى (عين زاره) حيث أنشئوا أيضا معسكرا للفرسان ، وعدا ذلك احتشد المتطوعون العرب على وجه الخصوص في (سنيات بنى آدم) ثم انشئت إلى الشمال منها مراكز للدفاع في (قلعة مجوسة) و (فندق التجار) ، بينما كان للجهاديين والعثمانيين مراكز في (وادي مجانين) في قلعة (بن قشير) ، و (فندق العون) . ولما كان معسكرهم في (عين زاره) أم المراكز الأمامية . فقد عولت القيادة الإيطالية على انتزاعها من أيديهم . وعلى ذلك فانه سرعان ما جاءت الأخبار من المراكز الأمامية في يوم ٢٥ نوفمبر بأن الطليان بدأوا يزحفون صوب عين زاره ، وفي اليوم التالي نشبت معركة كبيرة أسفرت عن ارتداد العدو على الرغم من قواته ومعداته العظيمة . وكان كل ما كسب الايطاليون بعض المواقع البسيطة ، ومن بينها قلعة سيدي المصري .

وفي الأيام التالية ظلت الطائرات الإيطالية تقوم بالاستطلاع فوق مراكز العثمانيين والعرب ، بينما اعتمد الايطاليون على مدافعهم في هجومهم ، ونشطت مدفيعتهم في (بومليانه) و (قلعة سيدي المصري) ، وضريح (سيدي المصري) كما أطلق أسطولهم قذائفه من الشاطئ . وشرع حوالي ٢٥ ألف مقاتل في الزحف على (عين زاره) . وعندئذ ، وأمام هذه القوة الجارفة ، ولعجزهم عن مقاومة نيران المدفعية الشديدة اضطر الأتراك إلى الانسحاب من عين زاره . وكانت قوتهم لا تزيد على سبعمائة جندي نظامي وألف وخمسمائة من المجاهدين العرب وسبعة مدافع قديمة ، فتقهقروا صوب العزيزية . وبدلا من مطاردة العثمانيين إلى مراكزهم الجديدة ، اكتفى الايطاليون باحتلال عين زاره ، وهكذا ضيعوا من أيديهم الفرصة لكسب الحرب وإنهائها ، لأنه لم يكن من المتوقع أن يتمكن العثمانيون من الصمود في هذه المراكز التي تقهقروا إليها أمام قوات العدو العظيمة .

وأما الأتراك فقد وصلوا إلى (بن قشير) ، وكانت أهم المراكز التي وقعت بعد ذلك معركة (بيرطراس) في ١٩ ديسمبر ١٩١١ ، حى فيها وطيس القتال ، وانهزم الطليان شر هزيمة على الرغم من كثرة عددهم . وارغموا بعدها على التزام مراكزهم في عين زاره . وكان بعد (بيرطراس) أن وصل المجاهدون في (نالوت) إلى (سنيات بنى آدم) التي اتخذوها مركزا لقواتهم . وكان بها وقت المعركة حوالي (١٢٠٠) من الجبل و (٦٠٠) من الزاوية وحضر مع مجاهدي (نالوت) سليمان الباروتى .

وفي الحقيقة سرعان ما صار يتدفق المجاهدون على المعسكر العثماني طوال شهر ديسمبر ، وفي شهر يناير ١٩١٢ والشهور التالية انضمت جماعات يتراوح عدد كل منها بين المائة والالف مقاتل من نالوت ، وفصاطو، ويفرن ، وغريان ، وسنوان ، هذا عدا أولاد سليمان

من صحراء سرت بقيادة زعيمهم سيف النصر ، وكان هؤلاء سنوسية ، ثم التوارق ، كما حضر (مجاهدو الفزان) بقيادة أحمد بن حسن ومهدى موسى . ومن المعروف أن السنوسية كانت ذات نفوذ عظيم لدى التوارق ، وفي جهات فزان حيث زاويتها الكبيرة في (مرزوق) . وكان السبب في تدفق جموع المتطوعين لقتال الطليان في ميدان طرابلس من هذه الجهات النائية - الفزان وبلاد التوارق خصوصا ، ثم من صحراء سرت ، ويقطن بها أولاد سليمان - تحريض السنوسيين ونداء زعيمهم السيد أحمد الشريف الذي استنفذ به العرب قاطبة إلى الجهاد في برقة وطرابلس . بيد أنه قبل الكلام عن الدور الذي لعبه السنوسيون بزعامة السيد أحمد الشريف في هذا الجهاد ، خصوصا في برقة ، يجدر معرفة الأثر الذي أحدثته تدفق المجاهدين على ميدان القتال في طرابلس نفسها في سير الحرب ضد الطليان حتى أواسط عام ١٩١٢ ، وقبل عقد صلح (أوشى - لوزان) .

فكان أول ما عنى به الايطاليون بعد سقوط عين زاره في أيديهم إنشاء التحصينات لحماية قواتهم بالمدينة ، وقد بلغ عدد هذه القوات اثني عشر ألف مقاتل . ثم لانهم لم يكتفوا بذلك بل هدتهم الحيلة إلى صنع دمي من الخشب على شكل محاربين وضعوها في الخنادق حول عين زاره لإدخال الرعب والهلح كما توهموا إلى قلوب المجاهدين ا وفي يومى ٦، ٥ يناير ١٩١٢ أسقطت الطائرات الايطالية منشورات باللغة العربية تحمل توقيع وكيل الوالى ، الجنرال (سلسازو) ، تطمئن الأهلى إلى أن ايطاليا إنما تريد باحتلال بلادهم وطرده الأتراك منها خدمة مصالحهم ، وتحذروهم من الاستماع إلى وشايات الخونة الغادرين وتنامى الطليان مذنبجة (المنشوية) المشثومة ا ثم استمرأ الطليان إسقاط المنشورات على العرب بدلا من الخروج من خنادقهم وتجربة الالتحام مع المجاهدين في معارك فاصلة ، فاسقطوا من الطائرات منشورات أخرى تتضمن أخبار نجاح عمليات أسطولهم في مياه طرابلس وفي البحر الأحمر . كما كان من بين هذه المنشورات « انذار » بتوقيع قائد الحملة الجنرال (كارلو كانيقا) في ١٥ يناير ١٩١٢ تحدث فيه القائد باللغة العربية فقال مخاطبا عرب طرابلس الغرب . « ماذا يصدكم عن القدوم إلينا . أماتهمم الصلوة في الجوامع والراحة أنتم وعائلاتكم في بيوتكم ، أما يهكم رعى مواشكم وتعاطى تجارتكم آمنين ؟ نحن أناس أصحاب دين ومن أهل الكتاب وأحرار . واعلموا أن دولة ايطاليا المعظمة قد أصبحت لكم بمقام الوالد بعد أن أخذت أمكم وهى طرابلس الغرب . فأقدموا إلينا بلا خوف ، وبكمال الإيمان ونحن تؤكد لكم أنه ليس من يؤذيك . وما من يسىء اليكم أو يضركم بأدنى شىء فإن الماضى لا يذكر . واعلموا أن كل من يأتى إلينا يبارودته مع المهمات نحسن إليه بعشرين فرنكا مع كيس قح أو شعير كيفما شاء . أمارؤساؤكم .

لدينيون والسياسيون فإن الحكومة الإيطالية تقبلهم وتؤيدهم بالإصفة التي كانوا عليها قبلا بل يعين لهم رواتب ومعاشات وناهيكم أن الكلام واحد والله سبحانه وتعالى كريم ، فاطلبوا له عز وجل أن يفتح عيون عقولكم لتعرفوا الحق وهو مخلصكم ،
وقبها عدا ذلك وقعت عدة مناوشات صغيرة في شهر يناير بالقرب من عين زاره واستطاع جماعة من (ترهونة) في إحدى هذه المناوشات أن يأمرؤا عددا من الطليان أحضروهم إلى العزيزية .

ولما كان الضباط الأتراك يعتقدون أن الاستطلاع الذي تقوم به طائرات العدو ليس لغرض منه سوى الاستعداد للقيام بحركة خطيرة سواء من عين زاره أو من بومليانة ، فقد عززوا مراكزهم في (بن قشير) ومعسكر المجاهدين في (سنيات بنى آدم) ، وأرسلوا قوة للاحظة الطريق من طرابلس إلى (زنزور) التي بقيت في أيدي العثمانيين فحدث في صباح ١٨ يناير ١٩١٢ أن شاهدت جماعة صغيرة من عرب العجيلات بالقرب من (قرقارش) قوة إيطالية فالتحم الفريقان ، وأرغم الإيطاليون على الارتداد إلى خنادقهم ، وفي المساء كانت المعركة قد انتهت ، وغنم العرب غنائم كثيرة . واشتركت في معركة قرقارش هذه امرأة عربية ظلت تحمت المجاهدين على القتال حتى أصيبت بجروح . ولكن انتصار العرب في هذه المعركة مثل انتصارهم في معركة (بيرطراس) قبلها لم يأت بنتيجة ، لأن المجاهدين لم يكونوا يعرفون في الحقيقة كثيراً عن خطط الحرب النظامية ، ولم يكن يقودهم في معركة قرقارش ضباط عثمانيون . وأما الطليان فقد استطاعوا بعد ذلك أن يحتلوا قرقارش ويحصنوها ، كما وضعوا قوات كبيرة في عين زاره وبومليانة وخصوصا بعد أن جاءتهم النجيدات من نابولي . وفي الأيام التالية — بقية يناير وطوال فبراير — كان كل ما حدث عبارة عن مناوشات صغيرة أمام عين زاره وبومليانة وفي وادي مجانين . وفي جميع هذه المناوشات كان المجاهدون هم البادئون بالهجوم دائما على أمل إخراج الإيطاليين من مواقعهم المحصنة ، بينما قبع الإيطاليون في خنادقهم وراء خطوط دفاعهم المحصنة ، تحميم نيران مدافعهم الشديدة . ثم تفتق ذهن قائد الحملة الجنرال (كانيقا) مرة أخرى عن إسقاط المنشورات على المجاهدين بواسطة الطائرات . وفي هذه المرة كان منشور كانيقا عبارة عن كراسة صغيرة ذات غلاف أخضر ، معنونة باسم الأهلين في طرابلس ودرنة وبنغازي وفزان والجبل وهكذا ، وفي هذا المنشور تحدث الجنرال عن الارشادات والحكم الثمينة التي ذكر بها كتاب الله العزيز الحكيم ، فقال إنه جاء في القرآن الكريم أن الجار خير من الغريب ، ولذلك فإنه لما كانت إيطاليا أقرب إلى طرابلس الغرب من تركيا فالواجب على العرب إذن أن يفضلوا حكم الإيطاليين على الأتراك . وزيادة على ذلك فقد طلب الكتاب العزيز من كل مؤمن صادق الخضوع للسلطات القائمة ، ولما كان

سبحانه وتعالى قد وضع طوابلس الغرب في قبضة الطليان فقد أصبح واجب كل مؤمن صادق الخضوع لسلطانهم . أضف إلى هذا أن ايطاليا لا تريد في الحقيقة سوى رخاء العرب وتأمينهم على أموالهم وأرواحهم لأن حكومة رومة بمثابة الأم الروم التي ترغب فقط في أن تعلم العرب كيف ينشئون أولادهم ويربونهم ، وكيف يصبحون أثرياء بفضل المخترعات الجديدة في الصناعة التي سوف يأتي الايطاليون بها إلى ليبيا ، إلى غير ذلك من الأقوال والوعود التي لم يحقق الطليان شيئاً منها بطبيعة الحال عندما خلاص لهم الأمر في ليبيا . ولم يكتف الطليان بالقاء المنشورات من الجو بل صاروا يرسلون خطابات سرية إلى الشيوخ والزعماء يتددون فيها بمساوىء الحكم العثماني ويصورون بخيال رائع ما ينتظر هؤلاء الشيوخ من الخير على أيدي الايطاليين إذا هم سلخوا لهم وخضعت قبايلهم وعشائرهم لسلطانهم .

يد أن هذه الوعود والأقوال ذهبت هباء . وكان جواب المجاهدين على هذه التداءات والمنشورات الاحتقار ، فقال فرحات بك مثلاً : « من العبث إضاعة الوقت في الرد على هؤلاء الطليان الذين يظنون من المهارة اقتباس أي الذكر الحكيم من أجل اقناعنا بترك قضيتنا إن هذه المحاولة من جانبهم تثير في نفوسنا الاحتقار لهم والازدراء بهم ، وأما سليمان الباروني فقد اتخذ رده على منشورات (كانيقا) ورسائل الطليان السرية إلى الزعماء والشيوخ شكلاً أوقع وأبلغ أثراً . ذلك أنه فاجأ مع المجاهدين مخافر الطليان في قرقارش ليلاً ونشر الهلع والرعب في قلوب حامياتهم . وفي ١٠ مارس ١٩١٢ هجم المجاهدون على (فندق غربي) و (فندق شرقي) ، وأرغموا الطليان على التقهقر والانسحاب إلى المراكز التي أنشئوها جنوب عين زاره ، ثم أحرق المجاهدون (فندق شرقي) . وقد أطلق العرب على هذه المعركة اسم (واقعة عين زاره) . وفي ٨ يونيو هاجم الجنرال (كاميرانا) (سيدى عبدالجليل) بينما كانت المدفعية في قرقارش وطرابلس ، وكذلك قنابل الأسطول تحمي هجومه فأغار المجاهدون العرب على قلعة قرقارش من قاعدتهم في سنيات بني آدم ، وأسرع الطليان بإرسال قوة من بومليانة منها جماعة من عسكر الارتريا الذين استقدموهم لتجديتهم ، فوجد المجاهدون أنفسهم بين نارين واضطروا إلى الانسحاب ، واحتل الطليان سيدى عبدالجليل ، وانطلقت جرائدهم تطنطن بهذا الانتصار الباهر في المعركة التي أطلقوا عليها اسم (واقعة زنزور) . ومع هذا فقد تعذر على الطليان في الشهور التالية مغادرة خطوط تحصيناتهم التي أنشئوها للدفاع ممتدة من (تاغورة) في الشرق إلى (عين زاره) في جنوبها ثم إلى بومليانه ، ومن هذه غرباً إلى قرقارش ، ثم سيدى عبدالجليل . وكانت أهم مراكزهم في داخل هذه المنطقة الضيقة في سيدى المصرى ، وقطر الهاني ، وسوق الجمعة (يونيو ١٩١٢) فكان كل ما استطاع

الطليان الاستيلاء عليه بعد ذلك (سيدى سعيد) و (سيدى على) على الشاطئ . بالقرب من حدود طرابلس الغربية ، الأول في ٢٨ يونية والثاني في ١٥ يولية ١٩١٢ وكانا عدي الأهمية .

ويعزى فشل الايطاليين في كسب هذه الحرب التي امتعدوا لها استعدادا عظيما وبدأوها في ظروف ملائمة لهم ، وجلبوا لها الامدادات والنجادات حتى بلغت قوتهم (١٢٠,٠٠٠) جندي نظامي بمعداتهم واسلحتهم الحديثة كاملة ، إلى جملة أسباب أهمها أن الطليان كانوا يفضلون دائما عدم الحركة والاحتياط في خنادقهم وخلف خطوطهم المحصنة وتأجيل الزحف خوفا من المجاهدين العرب خصوصا الذين بالغوا مبالغة عظيمة في تقدير أعدادهم على الرغم من الاستطلاع الكثير الذي كانت تقوم به طائراتهم فوق مراكز المجاهدين ؛ بل إن الخوف من هؤلاء المجاهدين البواسل كثيرا ما كان يجعل قوة بأسرها تولى الأدبار تاركة وراءها سلاحها ومؤناتها وذخائرها لاتلوى على شيء إذا صادفت في أثناء حركاتها الاستطلاعية كوكبة من العرب المجاهدين فأضاع الطليان بخوفهم هذا فرصا عديدة لو أنهم انتهزوها لاستطاعوا أن يسيطروا على طرابلس الغرب في مدة وجيزة — كما كان يرى ذلك فريق من المرسلين الأجانب الذين صحبوا القوات العثمانية في هذه الآونة . ويرى كاتب من هؤلاء أن (بنك دى رومه) كان قد قام قبل الغزو بدعاية واسعة ناجحة في طرابلس لدرجة أن بعض العرب في بداية القتال بادروا برفع الأعلام البيضاء على دورهم ومحالهم علامة على التسليم في مدينة طرابلس وفي غيرها من المدن ؛ ولكن الطليان ضيعوا الفرصة بسبب إبطائهم كما كان لجهود فرحات بك وسليمان الباروني الأثر الحاسم في جمع القلوب المترددة حول راية الجهاد في النهاية .

أضف إلى هذا أن الطليان الذين ظهر أنهم تركوا القتال جانبا وآثروا انتظار ما تحدته منشوراتهم ونداءاتهم من آثار قد تكسبهم الحرب من غير حاجة إلى الاشتباك في معارك قاصلة ، كان من سوء حظهم أنهم أكثروا من بذل الوعود السخية التي لم يكن في نيتهم المحافظة على شيء منها ؛ وقد سبق ذكر بعض هذه الوعود . ومع هذا فإنه يصعب على الانسان أن يفقل أمر ذلك المنشور (التاريخي) الذي شاء قائد الحملة (كارلو كانيغا) أن يحدو فيه حذو نابليون عند ما جاء بجيوشه يغزو مصر في آخر القرن الثامن عشر فقد أرسل (كانيغا) منشورا باللغة العربية إلى أهلها في طرابلس على أثر اختلال جيشه لمدينتهم ، بدأه « بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين » ، ثم قال ، بعد أن بين للأهلين مهمته كقائد ، للعساكر الايطاليين الموكل إليها نحو الحكومة التركية في

طرابلس والقيروان والمقاطعات التابعة لها ، ، إن العساكر الخاضعة لأمرى لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا (فكتور عمانويل الثالث) حماء الله لإضعاف واستعباد سكان طرابلس والقيروان والقران والبلاد الأخرى التابعة لها التي توجد الآن تحت سيادة الأتراك ، بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم سواء كان الأتراك أو أى شخص كان يريد استرقاقهم . وعليه فأنتم ياسكان طرابلس والقيروان (؟) والقران والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرافة عملا بقوله تعالى « وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل » وطقنق (كانيقا) بعد باحترام الشرائع الدينية والمدنية واحترام الأشخاص والأموال والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر ، كما ضمن لهم حرية العبادة وعدم إرغام أحد على الانخراط في سلك الجندية ، وتوعد بانزال العقوبة الصارمة بكل أمرى ، ولا يحترم الشرائع أو لا يعتبر الأشخاص ويمس النساء أو يخترق حرمة الملك أو يقاوم أو يثور على إرادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا الى هذه البلاد ، ثم اختتم المنشور بقوله : « قيا سكان طرابلس والقيروان والمقاطعات التابعة لها ، اذكروا أن الله قد قال في كتابه العزيز « لايتهاكم الله عن الذين لم يقا تلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين » ، وقد جاء أيضا « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، وجاء أيضا « لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، أى الذين يصلحون الأرض ويمنعون منها الفساد وينشرون فيه العدل والعمران ؛ وجاء أيضا ، « وإن تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ، أى لا تفسدوا فى الأرض إن توليتم أمور الناس ولا تقاتلوا بعضهم بعضا ، ان الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله وبصمهم ويعمى أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم . وجاء أيضا « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » ، وجاء أيضا « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . فإرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد لأنه لا يجرى فى ملكه إلا ما يريد فهو مالك الملك وهو على كل شىء قدير ، فمن أراد أن يظهر فى الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته فى ملكه الذى لا شريك له فيه فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين . وبناء عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الارادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية ، فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتیه من يشاء . فإيطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم اسلامية تحت حماية إيطاليا وملكها المعظم ويحقق فوقها العلم المثلث الألوان « أبيض . وأحمر . وأخضر » ، إشارة الى المحبة والایمان والعشقى وجه الله . .

وفي هذا المنشور كما هو ظاهر حاول كارلو كانيفا إقناع الليبين بأن الحملة الإيطالية على بلادهم كانت أمراً مقدراً من الأزل بإرادة المولى سبحانه وتعالى ومشيتته ، وأن مقاومة الحملة معناه مخالفة هذه الإرادة الإلهية . ثم حاول إلى جانب هذا إقناعهم بأن الحكم الإيطالي سوف يبسط الأمن والسلام ويحفظ الأرواح والأعراض والأموال ويحترم الدين والعقيدة ولذلك كان أقل ما يجب أن يفعله الغزاة بعد أن ربطوا أنفسهم بهذه المواقف أن يحققوا شيئاً من المبادئ . التي انطوت عليها ولكنهم بدلاً من ذلك أظهروا من ضروب الاستهتار بأرواح الأهلين وعقائدهم وشعائرهم وتقاليدهم ، ثم ارتكبوا من الفظائع التي تقشع من هولها الأبدان ما لطنخ بالعار اسم إيطاليا وشرفها وجعل العرب يخفون إلى ميدان القتال أفواجا من أقاصي البلاد بمجرد أن وصتهم أخبارها . وأما أقى هذه الجرائم وأفظعها فكانت تلك التي ارتكبها الإيطاليون في ناحية المنشية بعد أسبوع من نزولهم إلى مدينة طرابلس .

ويتلخص هذا الحادث المروع في أن الطليان عند ما نزلوا إلى البر بعد انسحاب القوة العثمانية عسكرت جنودهم في أطراف المدينة (في ٥ أكتوبر) بينما تركوا ناحية (المنشية) خلفهم قائمين المجاهدون هذه الفرصة وهاجموا (المنشية) بقيادة بعض الضباط العثمانيين في ليل ١٢ أكتوبر ١٩١١ ، فصمدت حامية الطليانية إلى الصباح ، وعندئذ انسحب المجاهدون ، ولما وصلت النجدات عثر الطليان على قتل في بساتين الناحية ، فصبوا غضبهم على الأهلين الأبرياء وألصقوا بهم تهمة اغتيال جنودهم من غير أن يكفوا أنفسهم مشقة تحقيق هذا الحادث . وبناء على ذلك استباح الجزال (كانيفا) ناحية المنشية لجنوده ثلاثة أيام قتلوا في أثناءها من الأهلين عدداً يتراوح بين الأربعة آلاف والسبعة آلاف نسمة ، وهتكوا أعراض النساء ، وألقوا في غياهب السجون وفي انشكنات العسكرية وفي (مدرسة الصنائع) مئات من الرجال والنساء ، ونفوا من العرب إلى جانب ذلك كله حوالى التسعمائة . وهكذا أغناف الطليان بفعلتهم الشنيعة هذه إلى جانب الدفاع عن أرض الوطن ضد العدو المعتدى سبياً آخر حرك العرب وأثار حميتهم ، هو الانتقام للضحايا الأبرياء وغسل الإهانات التي لحقت بشرفهم . ثم عظمت كراهية العرب للطليان لدرجة لم تعد تشير معها بعد ذلك في خلال السنوات الطويلة التالية أية محاولات لإزالة هذه الكراهية أو تخفيف حدتها .

وليت فظائع الطليان انتهت عند مذبح المنشية هذه ، ولكن هؤلاء الغزاة الذين أعلنوا وضع طرابلس وبرقة تحت السيادة الإيطالية التامة (٦ نوفمبر ١٩١١) سرعان ما صاروا يعتبرون المجاهدين لهذا السبب مجرد عصاة ، وثوراء ، خارجين على الحكومة الشرعية ، في مقاومتهم ، ويستحقون لذلك الإعدام شنقاً أو رمياً بالرصاص إذا ما وقفوا في أيديهم .

فطفقوا من ثم يشنقون الرجال زرافات ووحدا من غير تحقيق أو محاكمة في طرابلس ودرنة وغيرهما من المدن ، ويفتكون بكل عربي ، يبلغ عمره الرابعة عشر فما فوق ، بتهمة المحاربة في مؤخرة الطليان ، سواء اشترك في أعمال المقاومة أم لم يشترك . وكانت دعوى الطليان في ذلك استناداً إلى ما تقدم — أن مجرد استيلائهم على مدينة طرابلس والمدن الأخرى الساحلية من شأنه وحده فقط أن يجعل جميع العرب الموجودين في هذه الأماكن رعايا طليان ، ولذلك إذا حمل أحد هؤلاء العرب سلاحاً للدفاع عن نفسه أو وطنه ضد الغزاة المعتدين أصبح دثراً ، أو دعاصياً ، وحق عليه الإعدام عند القبض عليه من غير محاكمة .

وغنى عن البيان أن دعاوى الإيطاليين هذه كانت فاسدة ، لأن الاحتلال ليس معناه الامتلاك ، ولأنه لا يمكن لدولة أن تمتلك أرضاً من ممتلكات دولة أخرى إلا إذا أعطتها هذا الحق المماهدات المبرمة . وبغير ذلك يظل الأهليون خاضعين فقط للقوانين السارية في بلادهم قبل أن يحتلها العدو ، ولا يمكن اعتبارهم عصاة أو ثائرين . وقد ظهر هذا المبدأ واضحاً في مؤتمر بروكسل الذي عقدته الدول الأوزية في عام ١٨٧٤ لتنظيم قواعد الحرب العسكرية . ولما كانت الحرب بين الطليان وبين العثمانيين والعرب لا تزال دائرة ، ولم يسلم الأهليون للغزاة طوعاً أو كرها ، ولم يعقد الصلح بين الفريقين المتقاتلين ، ولم يبرم الطليان أية معاهدة تعطيتهم حق امتلاك طرابلس وبرقة ، ولم يحدث في أيام العمليات العسكرية الأولى أن أصبح احتلالهم للناطق التي نزلوا بها كاملاً وتاماً بدليل ذلك الهجوم نفسه الذي قام به المجاهدون في ليل ١٢ أكتوبر ، فلا يمكن لذلك كله أن يعتبر العرب عصاة أو ثائرين ، كما لا يقوم وجهه باعتبار هجوم ١٢ أكتوبر خرقاً لقواعد الحرب أو أنظمتها العسكرية ، زد على ذلك أنه إذا صح اعتبار هذا الهجوم مخالفاً لقوانين الحرب وتقاليدها فقد صرح الكونت (لنزا) مندوب إيطاليا في مؤتمر بروكسل (١٨٧٤) ، بأنه يجب الاعتراف رسمياً بأن (الغرامة) فقط هي العقوبة التي يجب أن توقع فقط على أولئك الذين ينتهكون حرمة قوانين الحرب وتقاليدها ، ثم قال « ولا يخفى إقدام أحد الطرفين على انتهاك هذه القوانين والتقاليد الطرف الآخر من واجب العمل بها واحترامها » .

أضف إلى هذا أن إعلان ٦ نوفمبر الذي ضم الطليان بمقتضاه برقة وطرابلس إلى أملاكهم كان لا يستند إلى أي أساس قانوني . فقد ضمنّت الدول ومن بينها إيطاليا (سردينيا) كيان الامبراطورية العثمانية في معاهدة باريس في ٣٠ مارس ١٨٥٦ ، ثم تكرر إعطاء هذا الضمان في معاهدة لندن التي أبرمتها الدول في ١٣ مارس ١٨٧١ لتنظيم الملاحة في البحر الأسود والمرور من المضائق ، ووقع الإيطاليون عليها أيضاً . فكان معنى هذا إذن أنه صار حتماً على

إيطاليا أن تحصل على موافقة بقية الدول الموقعة على هذه المعاهدات وموافقة الدولة العثمانية ذاتها قبل أن تقدم على إحداث أى تغيير ينتقص من قيمة هذا الضمان . ثم كان عمل الدول قانونياً ولا شك عند ما أبرمت في ١٣ يولية ١٨٧٨ معاهدة برلين المشهورة لتسوية المشاكل التي أثارها في البلقان الحرب الروسية التركية . فعدلت حدود الامبراطورية العثمانية بمقتضى معاهدة اشتركت في توقيعها الدول التي تعهدت بالمحافظة على كيان هذه الامبراطورية من أيام معاهدة باريس (١٨٥٦) ، كما حملت أيضاً توقيع الباب العالي نفسه .

ولذلك فانه لما كان اعلان ضم برقة وطرابلس الذي اذاعته إيطاليا في ٦ نوفمبر ١٩١١ من طرف واحد فقط وحدث في أثناء قيام الحرب وقبل انتهائها ، وكان من جانب إحدى الدول (إيطاليا) التي وقعت على معاهدة باريس (١٨٥٦) وعلى المعاهدات التالية التي ضمنت المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية ، وآخرها معاهدة برلين التي أكدت هذا الضمان مرة أخرى فيما يتصل بالملكات التي بقيت لتركيا بعد عقد الصلح ؛ كما أن إيطاليا أقدمت على هذا الاعلان، متفردة ومن غير اشتراك الدول الأخرى الموقعة على المعاهدات وبدون موافقة تركيا ، فقد بادر الباب العالي ، لكل ذلك ، بالاحتجاج على اعلان الضم بمجرد أن علم بصدوره وتبليغه إلى الدول ، وعد الأتراك هذا الإعلان الذي لم يبلغه الايطاليون اليهم — اعتداء على حرمة المعاهدات وخصوصا تلك التي أبرمت في باريس وبرلين واشتركت إيطاليا في توقيعها إلى جانب الدول الكبيرة لضمان المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية . وكان الأتراك محقين عند ما اعتبروا في احتجاجهم هذا الاعلان باطلا وملغيا من الوجهة القانونية ولا وجود له في الحقيقة .

والذي لا شك فيه أنه ما كان يكنى بتاتا أن يصدر قائد الحملة (كانيغا) منشوراته التي سبق ذكرها استنادا إلى اعلان الضم هذا حتى يصبح اللييون من رعايا إيطاليا ؛ كما أن تسليم بعض الأفراد القلائل في مدينة طرابلس الذين أثرت فيهم دعايات (بنك دي رومه) ثم استهوت افدتهم الليرا الطليانية ، لا يغير شيئا من حقيقة الموقف عندما كانت العمليات العسكرية لا تزال جارية ، ويشترك أهل البلاد مع العثمانيين في الدفاع عن أوطانهم ، ولا يمكن أن يجد الايطاليون في قوانين الحرب وتقاليدها ما يحيز لهم أن يعتبروا هؤلاء المجاهدين عصابة أو ثوارا أو خونة نصيبهم الشنق والإعدام بالرصاص وهتك أعراض نسائهم والفتك بأطفالهم وشيوخهم بدعوى أنهم يغدرون بمؤخرة جيش الغزاة الفاتحين .

ثم انه كان من أسباب زيادة كراهية العرب للبعدين الطليان أن هؤلاء الغزاة الفاتحين ، بمجرد أن تبين لهم اصرار الأهلين على المقاومة — وكان الهلع والجبن من أسباب انهزام

الطليان تقريبا في كل موقعة يشتبكون فيها وجها لوجه مع المجاهدين البواسل - سرعان ما صاروا يستقدمون النجيدات من (إرتريا) المستعمرة الايطالية في أفريقية الشرقية ، فاشترك (المساكر) الأحباش في مواقع (بير التركي) و (عين زاره) وغيرها ، ثم لم يكتف الطليان بذلك بل صاروا يستخدمون أيضا نوعا من الرصاص المتفجر الذي يحطم أجسام المصايين تحطيا لا ينفع فيه معالجة ولا يرجى منه شفاء ، متتهكين في فعالهم هذه حرمة قوانين الحرب وتقاليدها . كما وافق عليها مندوبو الدول المتدينة في مؤتمراتهم .

وهكذا لم يحقق الطليان شيئا من الوعود التي تضمنتها منشوراتهم المتعددة وبذلها بسخاء قائد حملتهم خصوصا في منشوره الذي أمن فيه العرب على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ووعدهم بقيام الحكومة العادلة الرشيدة بيثهم تعيدا الى بلادهم الرخاء والرفاهية . فقد أزهق الطليان أرواح الأبرياء وهتكوا أعراض النساء ثم سلبوا أموال الأهلين وكل ما وقعت عليه أيديهم ، ثم كان من السخرية حقا أن يعد الطليان بإعادة الرخاء والرفاهية الى البلاد وهم الذين أصدروا بمجرد نزولهم الى البر واحتلال مدينة طرابلس (ورق النقد) ، وصاروا يرغمون الأهلين على التعامل به بدلا من العملة البرنزية أو الفضية أو الذهبية التي لا يعرف هؤلاء سواها وسيلة لتعامل منذ أزمان بعيدة ؛ فتساءل الليبيون : « أهؤلاء حقاهم الذين جاءوا يجعلوننا أغنياء ؟ إنهم ولا يرب أشد فقرا من الأتراك ، لأنه اذا كان الأتراك يجلبون الى هذه البلاد مالا قليلا ؛ فإن هذا المال على قلته كان تقودا صحيحة من الفضة والذهب . أما الطليان فانهم يعطوننا بدلا من ذلك قصاصات من الورق القذر ! » .

ولعل أعظم أخطاء الايطاليين خطورة كان مسعاهم من أول الامر في أن يكسبوا هذه (الحملة) صبغة دينية عريضة . فقد بارك قساوستهم أساطيل الحملة عند خروجها ، ودقت النواقيس وأقيمت الصلوات ووزع رجال البكنيسة الصلبان المهداة من البابا إلى هؤلاء الصليبيين الجدد ، وأفرط الطليان عند كل مناسبة في الاحتفال بالنصر في كنائسهم مهما كانت هذه الانتصارات المزعومة قليلة القيمة ، ومهما كان مشكوكا في نتائج المعارك التي وجد الطليان شجاعة كافية لخوض غمارها ؛ ثم لم يقنع الطليان بالاحتفال بالنصر في بلادهم ، بل جعلهم سوء التدبير وعدم الفطنة يقيمون هذه الاحتفالات الدينية في مدينة طرابلس ذاتها ، يقدمون الشكر لله العزيز الذي مكنتهم من اقتزاع (الهلل) وإعلاء (الصليب) مكانه فأثارت هذه الحماقة نائرة المجاهدين وأشعلت في نفوسهم الكراهية للبعثدين الآثمين . وأدرك جماعة من الكتاب ومراسلي الصحف الأوربيين الذين شهدوا الحرب الايطالية - الليبية خطورة هذا الخطأ ، فقال أحدهم - ابوت - إن عمل الطليان هذا كان على وجه

التحقيق العامل الحاسم في إثارة شعور كل مسلم يحفظ شيئاً ولو قليلاً من الاحترام لنفسه حتى اشتدت مقاومة العرب ضد الطليان ، واستطاع الأتراك الذين ما كانت تربطهم بالأهلين - في نظر هذا الكاتب - سوى أواصر الاشتراك في الدين والعقيدة ، أن يؤلفوا جبهة قوية للمقاومة ويستنفروا العرب للجهاد ضد الغزاة المعتدين .

والحقيقة أن الأتراك لم يكونوا في حاجة لأن يتخذوا من حماقة الطليان هذه وسيلة لتحريك العرب وحثهم على المقاومة والدفاع عن أوطانهم . فقد تقدم كيف صارت جموع المجاهدين تندفق على المعسكر العثماني بمجرد أن ذاع في البلاد خبر اعتداء الطليان على طرابلس وبرقة ، ثم إن العرب لم يكونوا هم أيضاً في حاجة إلى هذه الأخطاء يرتكبها الطليان حتى يقوى تصميمهم على المقاومة ، وهم الذين استرشدوا دائماً بآراء زعمائهم ونصائحهم كما تدل استجابة جموع غفيرة منهم لنداء فرحات بك وسليمان الباروتى . ومع هذا فقد ظل العرب في هذه المرحلة الأولى ينتظرون بفروغ صبر وصول (أولاد سليمان) إلى المعسكر العثماني وإلى ميادين الجهاد ويتوقون إلى حضور (مجاهدى الفزان) وصناديد (التوارق) ، لما كانوا يتمتعون به من شهرة عظيمة بوصفهم محاربين بواسل وأبطالاً مغاوير . وقد حضر أولاد سليمان وحضر مجاهدو الفزان ، وحضر التوارق ، حتى زخرت بهم معسكرات المجاهدين وخصوصاً في (سنيات بنى آدم) . وقد جاء هؤلاء جميعاً من جهات انتشرت فيها السنوسية .

وكان مجيء هؤلاء المجاهدين من أتباع السنوسية وأنصارها مطمئناً لأهل طرابلس إلى درجة عظيمة ، لأن هؤلاء المجاهدين اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، وحذق التوارق ومجاهدو الفزان خصوصاً فنون الكر والفر واكتسبوا خبرة كبيرة من اشتباكهم الطويل في القتال ضد الفرنسيين في الصحراء واندسودان الغربي ، أضف إلى هذا أن مجيئهم لنجدة إخوانهم العرب في طرابلس كان يدل على أن السنوسيين بزعامة أميرهم السيد احمد الشريف ، قد اتحازوا بكامل قوتهم إلى جانب الأتراك والطرابلسيين في الدفاع عن طرابلس . وكان القلق ولاشك يساور بعض زعماء الطرابلسيين لأنهم كانوا يعرفون أن عبء القتال الأعظم ، كما سنرى ، كان وقتئذ يقع على كواهل السنوسيين في برقة ، ولأنهم كانوا يتوجسون خيفة من عدم صفاء العلاقات بين الاستانة والكفرة بعد الانقلاب الدستوري خصوصاً في تركيا . ولكن السيد احمد الشريف كان منذ ١٩١٠ قد استطاع الوصول إلى اتفاق مع الأتراك الذين أرسلوا بعض الجند النظاميين إلى برقة والتبستى وواحة (ون) ، وأسسوا قائمقامية في واحة الكفرة على نحو ما سبق ذكره . ومع هذا فقد ظل محتملاً وجود بعض الخلاف بين السيد احمد الشريف وبين العثمانيين الذين ساءم أن يروا نفوذهم وسلطانهم يضيع نهائياً في الأقاليم التي خضعت للسنوسية ، ثم عرصوا

على ما يبدو في أثناء هذه الحرب الليبية - الإيطالية على أن تظل قيادة الجهاد في برقة وبالاجرى في طرابلس في أيديهم . فاضطر السيد احمد الشريف لذلك إلى البقاء بالكفرة وبخاصة عندما كان لا يزال النضال دائرا في الجنوب بينه وبين الفرنسيين . ومع ذلك فإن اعتداء الطليان على طرابلس وبرقة سرعان ما أزال كل أثر للخلاف بين الكفرة والقسطنطينية ومن الكفرة خرج الدعوة إلى المجاهدين البواسل ليس فقط في برقة بل وفي صحراء طرابلس حتى يردوا كيد المعتدين على أوطانهم .

حقيقة نجف المجاهدون إلى ميادين القتال في برقة وطرابلس بمجرد وقوع العدوان الإيطالي ، ولكن صدور الدعوة إلى الجهات من زعيم السنوسية كان بمثابة الشرارة التي أوقدت النار في طول البلاد وعرضها ، نجف العرب من أقاصى طرابلس والفران ثم من السودان الغربي لموازرة اخواتهم المجاهدين في الجبل ، والغرب ، وهي الجهات التي ظل زعمائها حريصين على استقلالهم ولا يريدون منذ ظهور السنوسية الانضواء تحت لوائها ؛ وواضح أن موقف الزعماء الطرابلسيين هذا كان من الأسباب التي جعلتهم عندما جد الجد وغزا الغزاة بلادهم يتوقون لمعرفة القرار الذي ينبغي السنوسيون اتخاذه في هذه الظروف القاسية .

وكانت السنوسية عند حسن الظن بها ، فتدقق أتباعها وأنصارها كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس ؛ وفي منتصف يناير ١٩١٢ قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل طرابلس وجميع العرب ، فأصدر نداءه المشهور يحث فيه الطرابلسيين والبرقاويين ، أهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتدى ويعلن فيه نباً اعترامه النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة من المجاهدين كبيرة . وقد نقش « نداء » السيد السنوسي الكبير هذا على راية من الحرير حملها المجاهدون في طرابلس من مكان إلى آخر بين القبائل الضاربة في الجنوب خصوصا فكان من أثر هذا النداء ، أن تدفقت جموع المجاهدين والمتطوعين على المعسكرات العثمانية في العزيزية وغريان وعلى مراكز العرب في (سنيات بني آدم) ؛ فكان معسكر العرب في (السنيات) بعد ذلك يعج بجموع المجاهدين من الزاوية والعجيلات وزنזור ومصراته وسرمان وأولاد يوسف ، وأورقة وغريان والجبل والعزيزية وأولاد سليمان ثم مجاهدي الفران والتوارق . ثم لم يكتف السيد احمد الشريف بذلك بل أعد نجدة خاصة لتعزيز قوات العثمانيين والمجاهدين العرب في العزيزية . وفي ٢٥ مارس ١٩١٢ دخلت نجدة السيد احمد الشريف إلى العزيزية مسلحة بالبنادق والحرايب والسيوف . وتحمل معها نباً تحرك نجداب أخرى لاتزال تجمد السير في طريقها إلى المعسكر الثاني . وكان يوم وصول نجدة السيد هذه يوما مشهودا في تاريخ الجهاد في طرابلس .

وقد اعترف السلطان العثماني نفسه بهذه الجهود التي قام بها السيد أحمد الشريف من أجل تخليص الأقطار الليبية وتحريرها . فأهداه في هذا الشهر نفسه (مارس ١٩١٢) سيفا ونيشانا مرصعا بالجواهر مكافأة للسيد وتقديرا لجهوده .
يبد أن زعامة السيد أحمد الشريف وجهود السنوسيين كانت بلا مرأ أكثر وضوحا وأعرق أثرا في سير الجهاد ضد الايطاليين في برقة : ميدان القتال الآخر في هذه الحرب الليبية - الايطالية .

• • •

فقد ضرب الطليان بمدافعهم من البحر المواني البرقاوية في الوقت الذي اعتدوا فيه على ميناء طرابلس الغرب ، والخمس واستطاعوا في يوم ٢٤ أكتوبر ١٩١١ أن يحتلوا طبرق - أي قبل نزولهم في طرابلس بأسبوع تقريبا ؛ ثم نزلوا في درنة يوم ١٧ أكتوبر ؛ ونزلوا في بنغازي بعد ذلك بيومين . ومن أول الأمر قاومهم العرب مقاومة شديدة ، فالتحموا معهم في الليلة الثانية من نزولهم إلى بنغازي وهزموهم في محلة يقال لها الصابري ؛ وكان العثمانيون قد اشتبكوا مع الطليان يوم نزولهم نفسه في معركة حامية تعرف باسم (وقعة جوليانه) .
ولكن الجند العثمانيين لم يستطيعوا الصمود أمام الطليان الذين استمرت سفنهم الحربية تضرب بنغازي بمدافعها من البحر ، فانسحب قائدهم شاكر بك إلى (سيل الهواري) على مسافة أربعة كيلومترات من المدينة ؛ ثم انسحب مع جنده بعد ذلك إلى (الأييار) على مسافة ثلاثين كيلومترا . غير أن الموقف سرعان ما تبدل عندما انتشر في طول البلاد وعرضها خبر اعتداءات الطليان على برقة وطرابلس ، واستنفر الزعماء السنوسيون في بنغازي وغيرها شيوخ الزوايا للجهاد ، فكان السيد عمران السكوري شيخ زاوية المرج أول من خرج بجيش لنجدة الأتراك فاستنفر قبيلة العرقا - وكان شيخا على زاويتها - وقبائل أخرى ؛ فكان وصول هذه النجدة مثبتا لأقدام العثمانيين الذين استطاعوا مع السنوسيين مقابلة الطليان ثم إرغامهم على التقهقر إلى بنغازي . وفي بنغازي اطمأن الطليان إلى حماية أسطولهم ؛ وأما العثمانيون والعرب فقد اتخذوا (الرجمة) مقرا لهم . وكان كذلك في مقدمة الذين خفوا لنجدة العثمانيين والالتحلم مع العدو في برقة : السيد عمر المختار ؛ فقد كان رحمه الله يزور شيوخ السنوسية وزعيمهم السيد أحمد بالكفرة ، وفي أثناء رجوعه من هذه الزيارة إلى زاويته (القصور) بلغه نبأ نزول الطليان في بنغازي واحتلالهم لها ، وكان وقتئذ بواحة (جالو) ، فلم يلبث بمجرد وصوله إلى (القصور) أن أمر قبيلة العبيد المنتسبة لزاوية القصور بالاستعداد للحرب ، ثم تبع السيد عمر بقية شيوخ الزوايا ، واستمر السنوسيون بقيادته بعد ذلك يضيقون الخناق على

العدو وخصوصا عند (بنينة) حتى جاء أنور الى معسكر القيادة العامة في درنة وعزير بك المصرى الى بنغازى .

وقد اهتم أنور بك منذ وصوله الى برقة بالطواف بالقبائل وزيارة الزوايا السنوسية ودعوة الجميع للجهاد ، وذلك حتى يكتمل لديه جيش قوى يستطيع أن يدفع به غائلة الطليان ولما كان السيد أحمد الشريف يقيم وقتئذ بالكفرة فقد أرسل اليه القائد العثماني كتابا ونبه فيه بخيانة الطليان ويرجوه أن يرسل منشورا الى أتباعه ليحاربوا أعداء دينهم وبلادهم ، وفى ٢٨ نوفمبر ١٩١١ رجع أنور بك الى معسكر درنة بعد أن جمع فى طوافه حوالى الخمسة آلاف مقاتل من العرب مشاة وفرسانا . كما أحضر معه الجند العثمانيين الذين كانوا متفرقين بالصحراء للحفاظ على الأمن ، وعددهم (٦٠) جنديا .

وأما السيد أحمد الشريف فقد أعد منشورا كبيرا أرسله الى مشايخ الزوايا ورؤساء القبائل لى يحضروا العرب على الجهاد ، وقد طلب السيد أحمد من كل عربى يبلغ الرابعة عشرة من عمره الى الخامسة والستين الذهاب الى ميدان القتال مزودا بمثوته وسلاحه ، وأن يخضعوا جميعا لأوامر أنور بك ، بصفته نائب السلطان وقائدا عاما ، ثم بعث فى الوقت نفسه (١٧ ديسمبر ١٩١١) الى أنور بك رسالة خاصة جاء فيها ردا على خطابه : ، وقد كتبنا للإخوان وحرصناهم على المساعدة وعدم المخالفة فى إعلاء كلمة الله .

وكان منشور السيد أحمد الشريف أكبر حافز للعرب على المضي فى الجهاد ، كما كان لوجود كبار السادة السنوسية . السيد محمد إدريس ، والسيد محمد الرضا ، والسيد محمد عابد فى المعسكر العثماني فى هذه الآونة أكبر الأثر فى التفاف العرب المجاهدين حول القائد العثماني . وعلى ذلك فقد استطاع أنور مناوثة العدو بنجاح طول شهر ديسمبر ١٩١١ ، وفى أواخر هذا الشهر استقدم (مدفعين) من بنغازى ، وفى ٢٧ و ٣١ التحم المجاهدون مع الطليان فى معركة كبيرة اشتركت فيها قبائل (الحسا) و (الدرسة) وعائلة منصور وقبيلة النواعر الى جانب الجند النظامى واستولوا على غنائم كثيرة . وقتل من الأعداء ما يزيد على الألف بينهم كثيرون من الضباط .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : ، أما بعد وصول أنور فإن الطليان امتنعوا عن الخروج مدة واعتصموا باستحكاماتهم وأخيرا خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة الضبط) وألحوا على معسكر أنور ولكن العزب هزموهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بغلا موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب . ومجاهدا . وكانت هذه المعركة فى ٣١ ديسمبر ١٩١١ .

ومن تاريخ هذه المعركة في الحقيقة ازداد وفود العرب على معسكر درنة حتى قدرهم أحد المعاصرين الذين اشتركوا في هذه الوقائع بتسعة عشر ألف مقاتل هذا عدا الأتراك المشاة ورجال المدفعية وكانوا حوالي الخمسمائة فحضر إلى ساحة القتال بمعسكر درنة شيوخ زوايا السنوسية في درنة والبيضا وقفنطه وشحات وترت وبشارة والمرازيف ومارة ومرتوبة وأم أرزم وأم حضين والمخيل والعزبات وأم بركة والحامة والعجالي . ولما كان يتبع هذه الزوايا كثير من القبائل فقد وجدت بميدان القتال عدة قبائل من أشهرها . البراعصة وحساو والعواكله ومنصور وغيث والنواعر ودسه ومنافه .

وعندما تدفق السنوسيون على ميدان القتال اشتبك المجاهدون مع الطليان في مناوشات كثيرة ، ثم التحموا معهم في منطقة بنغازي في معركة عند (الكوفية) في ٢٨ نوفمبر ١٩١١ وهاجوا بنغازي وتحمل الطليان عناء كبيرا في الدفاع عنها (في ٢٥ ديسمبر ١٩١١) . وبعد حضور عزيز على بك المصري قائدا لمنطقة بنغازي جرت وقائع كثيرة ، فهجم العرب على استحكام (مشويليك) وقضوا على الحامية الطليانية به (١٥ يناير ١٩١٢) .

وفي اليوم التالي هاجموا استحكام (القويها) . وفي ١٨ يناير اشتبك المجاهدون مع العدو في واقعة (الزريعة) واشترك الاسطول الطلياني في المعركة .

وفي ٢٢ فبراير هجم العرب (السنوسيون دائما) على استحكام الطليان عند (الثامنة) . وعندما حاول الطليان بعد أربعة أيام احتلال (غريونس) على شاطئ البحر وزحفوا إليها من جهة استحكامهم في (شويليك) صدم العرب عنها وألحقوا بهم الهزيمة . وفي ١٢ مارس التحم الفريقان في معركة (سواني عبد الراني) المشهورة عند الطليان باسم معركة النخلتين .

ويقول الأمير شكيب أرسلان . . وفي ١٢ مارس جرت وقعة القويها الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربي دخلوا بين استحكامي القويها والبركة فثار في وجوه الطليان واشتد الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتي مجاهد من العرب . وقصد عزيز بك المصري ومن معه من العرب لإمداد هؤلاء العرب فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التي كانت تتساقط كالطر من البر والبحر فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين إلى الظلام وعند ذلك نجأهم ولحقوا بالمعسكر الثعربي بعد قتال استمر طول النهار ، ويقال إنه نجا ٨٠ رجلا من المائتين .

وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطا برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجئون عدة ضباط من هول تلك الوقعة ، وكانت هذه الوقعة قد شقت كثيرا على العرب وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون إمكان نجدتهم . وبينما العرب في مأثم على قتلاهم وردت برقية من أنور القائد العام في درنة

إلى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من الاستانة عن برقية من برلين عز برقية من رومة تفيد أن وقعة الفويحات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيه ألما وخسائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتل وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم .

وحدثت بعد ذلك جملة مناوشات ووقائع صغيرة بين الفريقين فى الفويحات أيضا (٤ ابريل) وعند استحكام السلاني ، وواقعة البركة ، وفى ١٩ يونية حدث اشتباك بين دورية العرب فى الكوفية (وكانت ٥٥ مجاهدا فقط) وبقى الطليان فى (سوانى عثمان) وكان هؤلاء مجهزين بالمدفعية الجبلية والصحراوية ، ومع ذلك فقد صد العرب أمامهم حتى وصلتهم النجدات وعندئذ انهزم الطليان وغنم العرب أسلأبا كثيرة .

وأما فى منطقة (درنة) فقد اشتبك الطليان مع العرب الخيم شرقى درنة فى معركة فى ١٧ يناير ١٩١٢ ؛ وفى ٣٠ يناير هجمت قبيلة البراعمة على استحكام سيدى عبد الله ليلاً ، وهم ملأن بالمدافع الهائلة الكبيرة . وكان هجوما بجزأة نادرة المثال فى تواريخ الحروب ، إلا أن البراعمة لم يقدرُوا على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً .

وفى ١١ و ١٢ فبراير شن المجاهدون بقيادة أنور بك غارات ليلية على استحكامى الطليان فى (لمبارديا) و (كلايريا) ، وفى ٣ مارس وقعت معركة أخرى هامة فى (سيدى عبد الله) ثم استمرت المناوشات والمعارك الصغيرة إلى نهاية مارس . وفى أثناء ذلك كله كان الأسطول الطليانى يشترك فى هذه المناوشات والمعارك فى البحر ، هذا إلى جانب ما كان يقوم به من أعمال أخرى ، أهمها إنزال القوات والنجدات الايطالية إلى البر من وقت إلى آخر ثم حراسة القوافل فى البحر .

ويصف توزيع القوات العثمانية والعربية المجاهدة فى ميادين القتال فى هذه الآونة السبب تحسين العسكرى بك وكان سيادته من أوائل العراقيين المتطوعين فى هذه الحرب فوصل عز طريق مصر ومريوط والسلوم وطبرق (بئر الغزالة) إلى معسكر المجاهدين بالقرب من درنة فى يونية ١٩١٢ ؛ فقال عن الوضع الحربى فى ٢٢ حزيران (يونية) سنة ١٩١٢ م - كانت جميعاً معسكرات الجيش العثمانى تبعد عن السواحل مسافات تتراوح من ١٥ كيلومترا إلى ٢٠ كيلومتر نحو الجنوب ، وذلك لتكون مصنونة من قبائل مدافع الصحراء الطويلة المدى ومدافع الأسطول الايطالى ، وأما الخطوط الامامية فلم تبعد عن معسكرات العدو أكثر من ٥ كيلومترا . وينقسم ميدان بنغازى إلى ثلاث مناطق وكان قائدها العام المقدم ضابط الركن أنور بك (الذى عز وكيل القائد العام فى سنة ١٩١٤ فى الحرب العظمى) ، وهى : - (المنطقة الأولى) بنغازى

بقيادة المقدم ضابط الركن عزيز على بك المصرى ، (المنطقة الثانية) درنة . بقيادة المقدم ضابط الركن مصطفى كمال بك (رئيس جمهورية تركيا الغازى مصطفى كمال باشا) ، (المنطقة الثالثة) طبرق . بقيادة الفقيه ناظم بك ضابط الركن ، وكان الرئيس الاول وسليمان عسكرى بك رئيسا لضباط الركن فى بنغازى ،

• • •

يبد أن الحرب الليية — الايطالية فى هذه الآونة كانت قد وصلت من الوجهة الرسمية ، إلى نهايتها بين تركيا وإيطاليا ، عندما قبل العثمانيون تحت ضغط الدول الأوربية ، وبسبب الهزائم التى أصابتهم فى ميادين أخرى ، الدخول فى مفاوضة من أجل عقد الصلح مع إيطاليا وبدأت هذه المفاوضات فعلا فى لوزان فى ١٢ يولية ١٩١٢ .

والواقع أنه منذ حشد السنوسيون جموعهم وصددوا للجيش الإيطالية بعد نزولها إلى الشواطىء ، ثم تقاطر المتطوعون على طرابلس وبرقة من كل حذب وصوب لشدة أزر المجاهدين ، وصممت الدولة العثمانية على المقاومة فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين أمثال أنور ومصطفى كمال ، وكابد الإيطاليون خسائر فادحة فى معارك شهر أكتوبر ١٩١١ . على وجه الخصوص ، وجدت إيطاليا لذلك كله أن خير وسيلة لإرغام الأتراك على قبول الصلح هى غزو السواحل العثمانية ومحاصرتها ، ولم يمنعها من ذلك سوى معارضة الدول الأوربية . ومع هذا فقد وافقت هذه الدول على أن تطلق يد إيطاليا فى مهاجمة ساحل البحر الأحمر العثمانى — بدلا من مهاجمة شواطىء الدولة فى أوربا ، فضرب الأسطول الإيطالى فى البحر الأحمر المراكز والموانئ العثمانية فى الصليف والقنفذة والشيخ سعيد والحديدة وغيرها . فى عمليات استمرت من يناير إلى يولية ١٩١٢ ، وعلاوة على ما تقدم فقد شجع الإيطاليون الثوار فى العسير على الدولة .

وفى هذه الظروف توسطت الدول منذ مارس ١٩١٢ (إنجلترا والروسيا والمانيا والنميا وفرنسا) من أجل عقد الصلح بين الفريقين المتحاربين ، تركيا وإيطاليا . ولكن هذا التوسط لم يثمر ثمرته المرجوة لأن إيطاليا أرادت أن تنتزع من تركيا الاعتراف بضم طرابلس الغرب إلى ممتلكاتها . بينما صعب على تركيا النزول عن هذه الولاية لجملة أسباب من أهمها ولاشك خوفها من ضغط الزاى العام فى داخل البلاد العثمانية وعدم إقراره لآى صلح يتعد على مثل هذه الشروط الظالمة ؛ هذا إلى ظهور حركة واسعة فى معسكرات المجاهدين أنفسهم فى برقة

وطرابلس على أساس المطالبة بجلاء ايطاليا وإخراجها كلية من البلاد ، بمجرد أن تراعى إليهم خبر مساعي الصلح ، وكان المتزعم لهذه المعارضة القوية ، كما هو منتظر ، بطل الجهاد الأول وزعيم المجاهدين السيد أحمد الشريف .

ويحفظ التاريخ للزعيم والمجاهد الكبير خطابا مشهورا بعث به إلى أنور بك في درنة يذكر فيه ما بلغه من أن الدولة تعزم بالاتفاق مع الدول إعطاء طرابلس إلى الايطاليين ، فيعارض في ذلك ، ويقول رحمه الله : « نحن والصلح على طرفي نقيض . ولا نقبل صلحا بوجه من الوجوه » ، إذا كان ثم هذا الصلح تسليم البلاد إلى العدو ، وزيادة على ذلك فقد حذر السيد بما سوف يحدثه ولاشك قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الاقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية . وحمل هذا الكتاب ، كما يقول أحد المؤرخين - أربعون شيخا من كبار السنوسية المجاهدين إلى القائد العثماني ، وتحدث الوفد في هذا المعنى أيضا مع أنور وأبلغوه رأي السيد ، فوعدهم أنور خيرا .

ولم يكن المجاهدون في برقة هم وحدهم الذين قرروا المضي في القتال ورفضوا الصلح مع ايطاليا على أساس غير الجلاء عن بلادهم . فقد صرح بمثل ذلك أيضا زملاؤهم في طرابلس الغرب ، فأرسل سليمان الباروني بريقة إلى مجلس النواب العثماني يعارض فيها باسمه وباسم إخوانه المجاهدين عقد أي صلح مع ايطاليا لا يكفل جلاءها عن البلاد التي أغارت عليها . ومع ذلك لم يكن مقدرا أن تلتقي هذه الرغبات جميعها ترحيبا من جانب الحكومة العثمانية لأن تركيا بانت تهم في هذه الآونة بإنهاء الحرب الطرابلسية قبل كل شيء . وذلك لأنها رأت الحرب تمتد إلى الشواطئ التركية وتمتلكات الدولة في البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تتوقع ادلاع نيران الحرب في شبه جزيرة البلقان عند أول بادرة ، وتريد أن تتفرغ لمواجهة الأخطار الجديدة .

وأما سبب هجوم الايطاليين على ممتلكات تركيا في البحر الأبيض فهو أن ايطاليا كانت قد اتفقت سرامع الدول العظمى على أن تطلق هذه يدها في مهاجمة السواحل العثمانية والإغارة على جزرها وممتلكاتها في البحر الأبيض إذا أخفقت وساطة الدول مع تركيا ، فلما تعذر على الباب العالي قبول التسوية التي عرضتها عليه الدول ، اعتدت الأساطيل الايطالية على السفن والمراكز العثمانية في البحر الأبيض ، وحاول الاسطول الايطالي في شهر ابريل ١٩١٢ أن يقتحم مضيق الدردنيل ولكن نيران العثمانيين لم تلبث أن ردت الطليان على أعقابهم ، وعندئذ انصرف هؤلاء إلى الهجوم على جزر (الدودكانيز) فاحتلوا رودس وبقية الجزر القريبة منها (في مايو) ، وسامت حال الدولة وزادها سوءا وجود الانقسامات الداخلية

والمنازعات بين الائتلافيين من خصوم الوزارة والاتحاديين أنصلوها ، وعندئذ رأى الأتراك من الخير أن يتكاتف كبار الساسة والزعماء لمعالجة هذه الصعوبات ، فتألفت (الوزارة الكبيرة) لأنها تضم كبار القوم في ٢٣ يولية ١٩١٢ ، وسقطت وزارة حقي باشا القديمة ؛ وحدث هذا في الوقت الذي كانت لاتزال فيه مفاوضات الصلح جارية بين تركيا وإيطاليا ، وهي المفاوضات التي بدأت - كما تقدم - في لوزان يوم ١٢ يولية ١٩١٢ .

وكان لسقوط وزارة حقي باشا ، التي بدأت في عهدها مفاوضات الصلح مع الطليان ، والتي ذاع اتهامها بالتواطؤ مع العدو ، بعض الأثر في تهديته خواطر المجاهدين نوعاً ما في برقة وطرابلس لأن أعظم ما كانوا يخشونه أن يقبل الأتراك الصلح مع إيطاليا وأن يتخلوا عن طرابلس وبرقة . ولكن سرعان ما تجددت مخاوف السنوسيين وإخوانهم المجاهدين العرب عندما وجدوا الوزارة الجديدة تتألف المفاوضات بشكل جدي . فقد أسرعت الحكومة العثمانية بمجرد تأليف هذه الوزارة في إرسال تعليماتها إلى مندوبيها في مؤتمر الصلح حتى يواصلوا مفاوضاتهم وأكثر السنوسيين من الاحتجاج على هذا العمل ، وكان في هذه الآونة أن رأى أحد المجاهدين العرب الذين وفدوا إلى برقة للاشتراك في النضال ضد العدو المعتدى ، أن خير خدمة يسديها لمصلحة الأقطار الليبية ، هي الذهاب بسرعة إلى الاسنة ولذا كره رجال الوزارة الجديدة . وهي وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلي باشا في أمر طرابلس وثني عزمهم عن التساهل مع الطليان ، كما كان شائعاً . وكان هذا المجاهد الكبير ، الأمير شكيب أرسلان ، من أشد خصوم إيطاليا وأعدائها في تلك الآونة (يولية - أغسطس ١٩١٢) .

يد أن رغبة المجاهدين في الأقطار الليبية ، كما صرح بها أميرهم وزعيمهم السيد أحمد الشريف ، لم تؤثر شيئاً في تعطيل أو وقف مفاوضات الصلح ، وعلى ذلك فقد ظل المندوبون العثمانيون يقبلون وجوه الرأي مع المندوبين الطليان طوال شهر أغسطس ، ثم في خلال الأسبوعين الأولين من شهر سبتمبر ، يرجون الظفر بصالح مشرف ، حتى إذا تلبد الأفق السياسي في بلاد البلقان وتخرجت الأمور في هذا الجانب من ممتلكات الدولة العثمانية ، ووجدت تركيا أن لا مناص لها من خوض غمار حرب جديدة في النهاية ، بادرت الوزارة بالتدابير أعضاءها للسفر إلى المؤتمر مزودا بسلطات واسعة ، فوقع الفريقان على معاهدة الصلح في أوشي (لوزان) في ١٨ أكتوبر ١٩١٢ . وبمقتضاها تعهدت الدولتان بإيقاف الحرب ، وتعهد العثمانيون باستقدام ضباطهم وجيوشهم وموظفيهم المدنيين في طرابلس .

ولمعاهدة أوشي ثلاثة ملاحق : أولها منشور من السلطان العثماني إلى سكان طرابلس

الغرب وبرقة يمنحهم فيه ، بما له من حقوق السيادة استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً ، ، ويعين مثلاً له في بلادهم بمنحه لقب (نائب السلطان) لحماية المصالح العثمانية ، ثم يحتفظ بحق تعيين البقاضي الذي يتولى تعيين نائبين عنه من العلماء وأبناء البلاد حتى يقضوا بين الأهلين طبقاً لأصول الشريعة الغراء . وأما الملحق الثاني فكان عبارة عن منشور صدر من جانب ملك إيطاليا إلى سكان طرابلس الغرب وبرقة جاء في مقدمته ، عملاً بالقانون رقم ٣٨ الصادر يوم ٢٥ فبراير ١٩١٢ والذي يجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعاً تاماً مطلقاً للسيادة المملوكية الإيطالية ، ورغبة في التعجيل بإعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين ، . أصدرت الحكومة الإيطالية مرسوماً أهم ما جاء فيه إلى جانب منح العفو العام للطرابلسيين والبرقاويين ، وعد إيطاليا بالمحافظة على الشعائر الدينية الإسلامية بما في ذلك ذكر اسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين في الصلوات العامة ، . وأما الملحق الثالث والأخير فكان يتصل بأمر العفو عن سكان جزر بحريجة الذين اشتركوا في الأعمال العدائية ضد العثمانيين في أثناء الحرب . وقعت الحكومة العثمانية على هذه المعاهدة من غير أن تستشير الزعماء العرب ، وأغفلت رغبات المجاهدين السنوسيين الذين قامت على أكتافهم هذه الحرب بقيادة السيد أحمد الشريف فلم يكن لهم رأي في هذه المقررات التي تناولت مصيرهم ، هذا على الرغم من أن هولاء مع بقية إخوانهم المجاهدين العرب ، كانوا يقومون بعبء الحرب الأكبر . وأرغموا إيطاليا ذات الجيوش المجهزة بالأسلحة الحديثة والعتاد ، والتي حوى أسطولها ظهور جندها في البحر — على البقاء بالسواحل ، وعدم الجرأة على التوغل في الداخل ، وكان كل اعتماد الدولة عليهم وبخاصة عند ما جاءت أوامر وزارة الحرب العثمانية إلى السلطات الحكومية المحلية بالانسحاب والتفكير إلى المراكز الداخلية ، ليس فقط في مناوشة العدو ، بل وفي حماية العدد القليل من الجند العثماني الذي سمحت وزارة حتى باشا ببقائه في طرابلس الغرب ، وطلبت الدولة إلى رجالها في برقة في ظروف الحرب في هذه الأيام العصيبة الأولى أن يشركوا معهم في الرأي زعماء وشيوخ السنوسية ، وأسرع هولاء لنجدة العثمانيين والنود عن وطنهم .

وتمع هذا وعلى الرغم من ذلك كله فإن الدولة لم تكن قانعة على ما يبدو بأنها سلمت بمقتضى (المعاهدة) الأقطار الليبية إلى العدو ، بل أرادت الإيعان في استئثار شعور العرب والمجاهدين ، عند ما أرسلت إلى طرابلس (نائباً للسلطان) في شخص (شمس الدين باشا) لم يلبث أن أظهر بمجرد وصوله ميلاً واضحاً نحو إيطاليا ، فصار يدعو العرب إلى وضع السلاح والتسليم والكف عن المقاومة . وفرح به الطليان وطربوا لقدمه ، وأخذوا يجمعون له الناس في طرابلس وبنغازي حتى يتلو على أسماعهم (الفرمان السلطاني) ، ثم لم يكتف

شمس الدين بذلك ، بل شرع يخطب الأهاليين ويحضهم على ترك السلاح ويطلب إليهم أن يقبلوا العيش تحت الحكم الإيطالي . وزيادة على ذلك فقد بادرت الحكومة العثمانية — عملاً بنصوص المعاهدة أيضاً — بإرسال التعليمات إلى قواد الجيش في برقة وطرابلس حتى يكفوا عن القتال ويعودوا إلى تركيا .

ومع هذا ، فقد كان موقف العثمانيين وقتئذ في غاية من الحرج . فهم من ناحية كانوا مضطرين إلى التفرع لمواجهة الحرب الجديدة في البلقان ، بينما كان تخليهم من ناحية أخرى عن طرابلس الغرب أمراً يسقط من هيبتهم في نظر شعوب العرب وبلدان الخلافة الإسلامية أضف إلى هذا أنه لم يكن من الهين على الحكومة العثمانية أن تقبل انسلاخ الأقطار الليبية عن جثمان الدولة ، بدليل أن المفاوضين العثمانيين امتنعوا عن الاعتراف صراحة في المعاهدة بانفصال هذه البلاد ودخولها ضمن الممتلكات الإيطالية ، فتمنحوا البلاد استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً ، واحتفظوا بنائب السلطان في ليبيا . ولذلك ظلت تركيا في الفترة القصيرة التالية من تاريخ توقيع معاهدة (أوشي) في أكتوبر ١٩١٢ إلى وقت قيام الحرب العالمية الأولى في أغسطس ١٩١٤ ، تردد بين أمرين : بذل المساعدة للسوسيين وحضهم على مواصلة الكفاح والقتال ضد إيطاليا ، أو العمل على احترام نصوص المعاهدة ومنع المساعدة عن السوسيين خوفاً من استثارة الطليان ضد تركيا في الحرب البلقانية . وقد استمرت تركيا مترددة بين هذين الأمرين حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ، قررت مؤازرة السوسيين وذلك بما جعل من الأقطار الليبية ميداناً للحرب تشنها على الدول المتحالفة الغربية وخصوصاً عند ما انضمت إيطاليا (في مايو ١٩١٥) إلى جانب هذه الدول المتحالفة . وفي ضوء هذه السياسة العثمانية يمكن تفسير ما وقع من حوادث بعد إبرام الصلح مع إيطاليا في عام ١٩١٢ .

فمع أن الدولة لم تلبث أن استهدعت قوادها وضباطها كما تقدم ، فقد قرر أنور عندما اعترزم مغادرة البلاد أن يسلم القيادة العامة إلى عزيز على المصري قائد منطقة بنغازي ، وأن يزور السيد أحمد الشريف الذي انتقل عندئذ من الكفرة إلى الجغبوب . فأما تسليمهم القيادة العامة لقائد آخر من الذين اشتركوا في النضال ، فكان معناه أن (مثل) الدولة في الأقطار الليبية ما كان يرى في عقد الصلح سبباً يدعو في الحقيقة إلى وقف القتال في ليبيا ؛ بل إن هناك من يقول إن أنور باشا عندما استقدم إليه عزيز بك المصري (وكان عزيز المصري وقت نشوب الحرب الليبية — الإيطالية في أرض اليمن) ، إنما كان يريد ، إذا اضطرت الحكومة العثمانية إلى قبول الصلح مع إيطاليا في آخر الأمر ، أن يبقى عزيز المصري في الميدان لإدارة الأعمال العسكرية ، ويدعو وجوده في الوقت نفسه ، وهو مصري الجنسية إلى إقبال مصر

على مساعدة العرب الذين يتولى قيادتهم . ومع أن مصر أقبلت بالفعل على مساعدة الطرابلسيين في جهادهم مدفوعة بمباطفة العروبة القوية ورغبة الانتصار للظالم على الظالم المعتدى ، فقد تبدل موقف حكومتها بعد عقد الصلح ، بينما ظل عزيز المصرى يدير دفة الحرب في منطقته ويشجع أهل طرابلس المجاهدين بزعامة سليمان البارونى على المقاومة حتى اضطر هو الآخر — أى عزيز المصرى — إلى الانسحاب من الأقطار الليبية في ظروف سوف يأتي ذكرها .

وعلى كل حال فإنه لما كانت رغبة الدولة واضحة عند عقد معاهدة (أوشى) في عدم التخلي عن ليبيا ، وكانت لا تزال مترددة في خطتها وتريد أن تستمر المقاومة ضد إيطاليا بزعامة السنوسية العتيدة فقد رأى أنور باشا من واجبه زيارة أمير السنوسية لتبليغه ما صحح عليه عزم الخليفة والسلطان العثماني . فقرر الذهاب إلى الجغبوب ، وعلى ذلك استقل أنور باشا سيارته في يوم ١٩ نوفمبر ١٩١٢ ، وكانت هذه أول سيارة دخلت الصحراء ، فبلغ الجغبوب في اليوم التالي وقوبل بحفاوة عظيمة وكان السيد أحمد الشريف مع الإخوان وأهل جغبوب ينتظرونه للترحيب به خارج الزاوية . وأقام أنور في ضيافة السيد ثلاثة أيام عاد بعدها إلى معسكر حدرنة ثم غادرها بسيارته إلى السلوم ومنها إلى الإسكندرية ؛ ثم إلى رومة متنكراً ومنها إلى الآستانة كي ينظم جيوش الدولة استعداداً للحرب البلقان . وفي أثناء إقامته بالجغبوب أبلغ أنور السيد أوامر الخليفة وأدلى إليه برغائبه ، فكانت هذه إسناد أمر الأمة الليبية إلى سيادته وإخباره بأن الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركاً لها الحق في أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها .

ولهذا التبليغ ولا شك أهمية عظيمة ، فهو إلى جانب أنه يفصح عن مقصد تركيا من منح البلاد استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً ، ويدل على أن تركيا ما كانت تريد في هذا الوقت أن تسلم الأقطار الليبية إلى إيطاليا على الرغم من توقيع المعاهدة ، فهو — أى التبليغ — قد دعم نهائياً أركان الإمارة السنوسية المستقلة . ومن هذا التاريخ يتغير حتماً موقف هذه الإمارة من دولة الخلافة تغيراً جوهرياً .

فإنه منذ اعترفت تركيا (بإمارة) السنوسيين في عهد المؤسس الكبير السيد محمد ابن علي السنوسى ؛ ثم أيدت هذا الاعتراف في ظروف شتى بعد ذلك في أيام السيد المهدي ، ظلت تركيا تبسط على البلاد سيادتها ، وظل السنوسيون منضوين تحت لوائها ولواء الخلافة يشدون أزر الدولة ويحفظون لها السيادة على الأقطار الليبية ؛ ثم لم يغير السيد أحمد الشريف شيئاً من هذا كله منذ تسلم زمام الأمور بعد وفاة عمه السيد المهدي . أما الآن

قد أعطى صاحب الحق الشرعي والقانوني وهو الخليفة الاستقلال إلى السادة السنوسية وأسند إليهم النظر في شئون الأمة الطرابلسية ، فأضحى من هذا التاريخ ، استقلال ، الإمارة السنوسية حقيقة كاملة لا من ناحية الأمر الواقع فحسب ، بل ومن الناحية الشرعية والقانونية كذلك ؛ ولم يكن في هذا الوضع الجديد وجود نائب السلطان أو ذكر الخليفة الإسلامي في الصلوات العامة إلا مظهراً من مظاهر التقاليد الإسلامية واحتراماً لرابطة الخلافة العظمى ؛ ثم بمثابة الضمان أو السياج الواقى من أطماع الإيطاليين الذين قرروا بسط « سيادتهم » على البلاد ، على الرغم من أن هذه « السيادة » بعد حروبهم العدوانية كانت لا تستند إلى أى أساس شرعى أو قانونى . وزيادة على ذلك فقد أصبح للسنوسيين بمقتضى « التبليغ » حق الحكم ، كما انتقلت إليهم أيضاً حقوق السيادة في طرابلس إلى جانب برقة . وقد عبر أحد الكتاب المؤرخين عن هذه الحقيقة بقوله : « إن السيد أحمد الشريف كان يعتبر نفسه مسئولاً أمام الله والناس عن القطر الليبي كله ، لأن أنور باشا أبلغه رسمياً بأن الخليفة الأعظم سلم لسيادته مقاليد الأمور للقطر الطرابلسى كله ، وفوض له الأمر حسب ما يرى ويريد . أما قبل ذلك فكان سيادته مساعداً للحكومة العثمانية بكل ما أوتى من نفوذ وجاه لأنها هى دولة الخلافة وصاحبة الشأن » .

أضف إلى هذا أنه لما كان السيد أحمد الشريف في هذه المقابلة مع أنور قد وافق على تسليم القيادة العامة في برقة إلى عزيز المصرى بك ، فقد ذهب القائد الجديد إلى الجغبوب حتى يشكر السيد على تعيينه ، وصحبه في هذه الرحلة السيد عمر المختار .

وعلى ذلك لم يتوقف الجهاد ضد الإيطاليين في ليبيا على الرغم من توقيع تركيا معاهدة (أوشى) بل ظل يشرف عليه السيد أحمد الشريف ، ويقود عملياته العسكرية عزيز المصرى . وعبثاً حاول الطليان أن يثنوا القائد العام الجديد عن مواصلة الكفاح عند ما أبلغوه نبأ عقد الصلح ودعوه إلى التسليم ؛ فقد أبى عزيز بك أن يسلم إليهم وقرر الجهاد إلى النهاية ؛ وأظهر في هذا الكفاح السيد عمر المختار بسالة نادرة ومقدرة كبيرة .

وكان القتال في هذه الآونة يدور في ميدانين : طرابلس الغرب وبرقة . أما في طرابلس فقد تطورت الحال بعد استسلام تركيا وقبولها الصلح في (أوشى) ؛ وكان هذا التطور لمصلحة استئناف الجهاد بكل همة عندما عقد زعماء المجاهدين والوطنيين جملة اجتماعات في لواء الجبل العربى ولواء فزان وورقلة ، وقرروا الاستقادة من منشور السلطان الملحق بالمعاهدة ، والذي يقرر فيه السلطان « بما له من حقوق السيادة على سكان طرابلس الغرب وبرقة » منحهم « استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً » . فاجتمعت كلتهم على قبول هذا فرمان

والرضاء به ، وكلفوا الشيخ سليمان الباروني ، بإعلان استقلالهم وتبليغه إلى من يلزم التبليغ إليه وتشكيل حكومة تقوم بما يلزم اتخاذها من حفظ الراحة وتعميم الأمن ومحافظة شرف الدين والوطن على قواعد الشرع الشريف والنظامات العمرانية مع القيام بكل ما يجب اتخاذها من وسائل المدافعة كالمال والرجال والسلاح ، وتولى سليمان الباروني رئاسة الحكومة الجديدة ، وقام بتبليغ ما حدث إلى الدول وإلى شمس الدين باشا نائب السلطان في طرابلس وأرسل وفد إلى أوروبا بمهمة السعي لدى الدول حتى ينال اعترافها بالحكومة الجديدة ، ثم تنظم الدعاية في الخارج لهذه الحكومة . وفي أواخر العام نفسه (١٩١٢) شرع الباروني ينظم الحكومة والإدارة في البلاد ، ولكن الحكومة الطرابلسية الجديدة لم تلبث أن صادفت جملة صعوبات : منها أن نائب السلطان كان قد انقلب كما تقدم داعية للطلبان يحض الناس على ترك السلاح وقبول العيش تحت حكومتهم ؛ فأرسل إلى الباروني رداً على « تبليغه » أشعره فيه بأنه لا يزال نائب السلطان في طرابلس وبنغازي ويردد ما ذكر عند ما خطب في أهل طرابلس وبنغازي من « آيات وجوامع كلم » كان شمس الدين باشا يظن كما قال « أن فيها صلاح من في هذه البلاد من المسلمين خاصة ، ومن سائر الأقطار منهم عامة » . وكانت رسالة شمس الدين باشا المثبطة هذه في ٢٧ ديسمبر ١٩١٢ ؛ وكذلك حاول الإيطاليون أن يقتنعوا المجاهدين في طرابلس الغرب حتى يلقوا السلاح ويكفوا عن القتال ؛ وبذلوا جهوداً كبيرة لإغراء الباروني على الاتفاق معهم والتسليم بالأمر الواقع . وكانوا قد بدءوا هذه المحاولة قبل توقيع صلح (أوشي — لوزان) بعدة طويلة ، منذ أرسل الجنرال (سالساتو مانرو) إلى الباروني في ١٦ يناير ١٩١٢ رسالة طويلة حتى يتقرب من الأتراك الذين قال الجنرال الإيطالي عنهم « إنهم أقروا بلاد (الباروني) وأوقعوها في البؤس والجهل ، وكفى يجب إليه مقاصد الطليان ، ويحمله في الوقت نفسه « أمام الباري عز وجل وأمام الناس ، هو ورؤساء وأعيان العرب الذين فضلوا تعضيد الأتراك » مسئولية إهراق الدماء السائلة كل يوم ، كما وعده إذا أقبل على مساعدة إيطاليا بأن « تنسى هذه ما أسلفه (الباروني) في حقها إلى هذا اليوم » وتمنحه تمام العفو ، وتكافئه على خدماته بصورة تفوق تصوره . ولكن هذه المساعي ذهبت سدى ، فقد أجاب الباروني على هذه الرسالة في ١٩ فبراير ١٩١٢ بكلمات قليلة ولكنها كانت كافية لإظهار عزمه على مواصلة الكفاح ضد إيطاليا .

وقد سبق وصف العمليات العسكرية في ميدان طرابلس إلى الوقت الذي احتل فيه الإيطاليون مراكز سيدي عبد الجليل وسيطروا على مدينة زنزور في يونيو ١٩١٢ ؛ فقد تجمع العرب والأتراك بعد ذلك لتخليص هذه المراكز والتحموا مع الطليان في معركة

(ذتور الثانية) في ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ ولكن النصر لم يكن حليفهم . ثم استطاع الطليان بعد معاهدة (أوشي - لوزان) وإعلان فرمان السلطان الذي يقرر الصلح مع إيطاليا أن يحتلوا منطقة الجفرة إلى الجبل ، بما في ذلك غريان ومسلاته ومصراته وبني الوليد في مدة ثلاثة شهور تقريباً ، ولم يحدث اصطدام كبير مع العرب إلا في (قصبات) في ١٤ ديسمبر ١٩١٢ وفي بني الوليد في ٦ فبراير من العام التالي ؛ كما اشتبكوا مع الحامية العثمانية في (سرت) في آخر ديسمبر ١٩١٢ .

يبدو أن الباروني كان لا يزال يجمع حوله جيشاً كبيراً من العرب في منطقة الجبل الغربية ، ولم يفت في عضده استيلاء الطليان على غريان ، فاضطر هؤلاء إلى سوق الجيوش ضده واشتبكوا مع قواته في معركة (أصابة) في ٢٣ مارس ١٩١٣ ، واحتلوا منطقة الجبل حتى (نالوت) والحدود التونسية ، ثم زحفوا بقواتهم على واحة (غدامس) فاحتلوها في إبريل وعلى (مزده) فاحتلوها في يولية . ثم جهز الطليان بعد ذلك حملة كبيرة لاحتلال (الفران) فقاد جيشهم (سرت) إلى (سوكنة) واحتلوها ، وهب أهل (فران) للدفاع عن بلادهم ، وخرجت منهم قوة كبيرة بقيادة (محمد بن عبد الله) لمقابلة الطليان فالتحموا معهم في ثلاث معارك شديدة في (سرير الشيب) ، (شيده) ، (محرقة) بين ١٠ و ١٤ ديسمبر ١٩١٣ وقتل القائد العربي في ساحة القتال .

وأمام هذه الصعوبات لم يلبث سليمان الباروني أن وجد مواصلة القتال تقتضي بذل جهود عظيمة وتتطلب موارد كثيرة ؛ هذا بينما كانت قوات العدو متفوقة في كل مكان تقريباً فرأى من الأفضل إذا استطاع أن تنال طرابلس استقلالاً إدارياً وداخلياً تحت سيادة إيطاليا ولكن الإيطاليين الذين ما كانوا يبنون سنوى إخضاع هذه البلاد تماماً لسيطرتهم أخذوا يسوفون ويماطلون ، بينما حشدوا قواتهم للقيام بالعمليات العسكرية التي أسفرت عن تراجع الباروني والمجاهدين معه إلى (يفرن) ونفاد المؤن التي معهم . ولما كان الطليان في أثناء ذلك قد قبلوا مبدئياً إرسال وفد إلى تونس للمفاوضة مع الباروني ، كما أخبروه بأنهم يقبلون الاعتراف باستقلال طرابلس الغرب داخلياً ، فقد وجد المجاهدون في قبول إيطاليا فرصة مواتية لإنهاء القتال والخلاص من العسر الذي هم فيه بسبب نضوب ذخائرهم وانقطاع ورود الأسلحة إليهم وعجزهم عن رد العدو ؛ ولذلك قرروا الدخول في المفاوضات والالتجاء إلى حدود تونس . وكان مما أحيى آمال الطرابلسيين أن الكونت سفرزا - وقد تقدم ذكره - لم يلبث أن أرسل الدعوة إلى الباروني وهو في طريقه إن الحدود حتى يقابله في تونس ذاتها للمفاوضة . بيد أن الأمل في الحصول على الاستقلال الداخلي لم يلبث أن ضاع عندما طلب الإيطاليون تغيير الأساس الذي وافقوا عليه في أول الأمر لعقد الصلح أي الاعتراف

باستقلال طرابلس الداخلى ؛ وذلك أن الانتصارات التي أحرزوها أخيراً من شأنها أن تغير ذلك . وعندئذ وافق الفريقان على قواعد جديدة تتضمن العفو عن المجاهدين ثم بعض المنافع الأخرى لهم . وأصدرت الحكومة الإيطالية هذا العفو . واضطر الباروني أمام الرغبة التي أبدتها السلطات الفرنسية بتونس إلى أن ينصح اللاجئين الطرابلسيين بالعودة إلى بلادهم ؛ فرضى فريق منهم بالعودة إلى أوطانهم . وفضل فريق آخر الارتحال بأسلحتهم إلى (فزان) و(غات) لمواصلة الجهاد ضد العدو . وأما الباروني فقد ارتحل إلى الأستانة عن طريق مرسيليا ، وكان ذلك في أواخر عام ١٩١٣ .

وفي برقة ميدان الجهاد الثاني استمر القتال من غير هوادة ، فامتدت الجبهة إلى آثار (قصر رأس اللين) ، وفي ١٤ سبتمبر ١٩١٢ اشتبك الفريقان في معركة سيدي عبد الله الثانية ؛ وبعد ذلك بأيام هاجم العرب - وهم السنوسيون دائماً في هذا الميدان خصوصاً - والاتراك بقيادة أنور بك مراكز الطليان الجديدة ، فصددهم الطليان في معركة (قصر رأس اللين) في ١٧ سبتمبر ؛ وانهمز أنور بك بعد ذلك في معركة سيدي عبد الله الثالثة في ٨ أكتوبر ثم في معركة (براق سادا) في ١٠ أكتوبر ١٩١٢ ؛ واستمرت المناوشات بعد ذلك في الجنوب الشرقي من بنغازي وبالقرب من طبرق . وعندما تم الصلح في أوشي - لوزان ، صرح أنور بجلاء - كما يقول مؤرخو الطليان - أنه لا يقبل الصلح ، ولذلك لم ينسحب بقواته من برقة ، بل حرص عندما اضطر إلى مغادرة البلاد على حسب أوامر الحكومة العثمانية ، استعداداً لخوض غمار الحرب البلقانية على أن يترك بالبلاد مقاومة منظمة ضد الإيطاليين . وآزره السنوسيون بطبيعة الحال مؤازرة عظيمة ؛ واشتدت العمليات العسكرية في ميدان برقة ، بفضل الانسجام الذي زادت أسبابه توطيناً بين الجند العثماني النظامي وبين المجاهدين العرب ، واستأنف عزيز المصري العمليات العسكرية بكل جد وهمة . وفي هذه الظروف قررت الحكومة الإيطالية احتلال الجبل الأخضر ، والتحم الطليان مع المجاهدين في معارك متعددة في المنطقة الغربية والوسطى ؛ فاحتل الطليان (طوليثة) في ١٢ أبريل ١٩١٣ ، ثم (بنينة) بعد معركة حامية في اليوم التالي ، ثم (المرج) في ١٩ أبريل ؛ ووقعت في ٢٢ أبريل معركة (الرحمة) ؛ واحتل العدو (بومريم) بعد ذلك بثلاثة أيام ، و (الأييار) في اليوم التالي ، ثم (توكره) في يوم ٢٩ أبريل - وفي ١٦ مايو حصلت في الجبل الأخضر (واقعة يوم الجمعة) المشهورة بالقرب من درنه ، وهي الواقعة التي اشترك فيها السيد أحمد الشريف مع قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة وساهم فيها الضباط العثمانيون ، وانهمز الطليان وارتدوا إلى درنه وكان من جراء هذا النصر أن أصبح للسيد أحمد الشريف شهرة واسعة واعتقد الليبيون أن قوة

إليه هي وحدها التي أعطت هذا النصر . وفي شهر مايو أيضا اشتبك الفريقان في معركة (القيقب) و (مرسى مسوسة أو أبولونيا) واحتل الطليان (القيقب) في ٢٦ مايو ، ثم (زاوية الفيديّة) بعد قتال شديد في ذيونية ، ثم (البويرات) في الشهر نفسه . ووقعت واقعة كبيرة في (صفصف) في أول يولية ، واحتل العدو (سلوق) و (قينس) في أغسطس ووقعت معارك في (تكنس) ، (تلجازه) في سبتمبر ؛ وفي ٣٧ سبتمبر احتل الطليان (الزاوية البيضاء) . وفي أكتوبر ١٩١٣ اشتبكوا مع المجاهدين في واقعة (عين بوشمال) . وفي المنطقة الشرقية لم يصب الطليان التوفيق في مبدأ الأمر عندما اشتبكوا مع المجاهدين في معركة (سيدى جرباعه) في ٢٦ مايو ، ولكنهم ما لبثوا أن احتلوا (التانجى) في يونية وخربوها ، ثم احتلوا (مرتوبة) في الشهر نفسه . وفي ١٨ يولية دارت معركة في (مدور) التي احتلها الطليان .

يد أن الصعوبات الشديدة سرعان ما أحاطت بالمجاهدين من كل جانب لانقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر ومؤن وغير ذلك ، ثم بسبب ما نجم عن الضغط الشديد الذي استخدمته إيطاليا مع الدولة العثمانية حتى تأمر هذه الأخيرة باستدعاء بقية القوات التي ظلت تحارب في برقة بالرغم من عقد الصلح وتكف عن مساعدة المجاهدين إطلاقا ، أضف إلى هذا ما فعلته إيطاليا حتى تصرف الحكومة المصرية عن إمداد المجاهدين في برقة بما يحتاجون إليه من أسلحة وذخيرة ومؤن .

وكان المصريون من أسبق الشعوب التي أقبلت على نجدة المجاهدين ومساعدتهم في طرابلس وبرقة فقد شكلت مصر اللجان لجمع التبرعات وخصوصا اللجنة العليا التي تأسست في ١٤ أكتوبر ١٩١١ برئاسة سمو الأمير عمر طوسن ، ثم جمعية الهلال الأحمر التي تشكلت برئاسة الشيخ علي يوسف وقررت إنشاء عدة مستشفيات ميدان ، فكان من أثر ذلك أن سافرت البعثة الأولى في ٧ نوفمبر في العام نفسه ؛ ثم توالت البعثات الطبية بعد ذلك . وفي يناير ١٩١٢ أقيمت سوق خيرية في حديقة الأزبكية لجمع التبرعات للهلال الأحمر — ومع ذلك فقد وقعت للحكومة المصرية ذاتها من أول الأمر موقف الحياض من النزاع القائم ، فبين الإنجليز بدلا من المأمورين المصريين في الحدود الغربية ومنع أهل برقة وطرابلس من دخول الأراضي المصرية ، وفرضت على الحدود مراقبة صارمة حتى تعطلت التجارة بين طرابلس ومصر ، وأرغمت على العودة كل قافلة جاءت بالمتاجر من هذه الأقطار الليبية ، ورفض (اللورد كيتشر) المعتمد البريطاني في مصر إرسال بعض أورط ، من الجيش المصري لمساعدة الأتراك ، كما رفض الموافقة على تطوع جماعة من الضباط المصريين في الجيش التركي ، وصرف بعض مشر . . . إن عن رغبتهم في الالتحاق بصنوف المجاهدين في ليبيا ، وذلك كله حتى يتخلص

اللورد من « مسئولية حياض مهتر » . فكان لهذه الإجراءات أثر ظاهر في إضعاف قوة المقاومة ضد الطليان في ليبيا .

أضف الى هذا أن سمو الخديو السابق (المنغور له عباس حلى الثاني) الذي سهل عليه في أول الأمر إرسال الإعانات والبعثات الى المجاهدين ، ومن هذه الأخيرة ما كان يحمل مدافع مفككة وسلاحاً وذخيرة ومؤونة بعد أن أرسل رشدي باشا (رئيس نظاره) إلى كتشنر للتفاهم معه قبل منح التسهيلات اللازمة بدون مسئولية عليه أو على حكومته ، لم يلبث أن غير موقفه . وحدث هذا التحول تقريباً في الوقت الذي ذاع فيه أن الدولة العثمانية تبغى التساهل في أمر طرابلس الغرب حتى تعقد الصلح مع إيطاليا . ويوضح الأمير شكيب أرسلان مدى ما طرأ على موقف الخديو من تغيير في رسالة بعث بها إلى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوي ، من جنيف في ١٨ سبتمبر ١٩١٦ ، يشرح فيها ما وقع له عند ما قابل سمو الخديو في أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر في طريقه إلى الآستانة للبحث — كما سبقت الإشارة إليه — في مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة ، فكتب الأمير : « وعند ما جئت من طرابلس إلى مصر في شهر أغسطس ١٩١٢ وذهبت من مصر إلى الآستانة مسرعاً . . . كان السبب في ذلك أني علمت بأن الدولة قررت الصلح مع إيطاليا فنخفت أن تهمل طرابلس تماماً فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفيفة عن يد الأمير عمر طوسن وغيره حتى يستمر الجهاد ولا تذهب طرابلس .

ولما وصلت إلى السلوم قال لي رجال الحكومة المصرية هناك إن سمو الخديوي أرسل يسأل عنى وأمر بأن الباخرة التي تأتي إلى مرسى السلوم تأخذني أنا وجماعتي إلى الإسكندرية . وانتظرتي الباخرة فتأخرت عن الورد فرجعت بدوتى . فبقيت سائراً حتى وصلت إلى المكان الذى ينتهى فيه سكة الحديد خاصة الخديوي وكان يقال له رأس التركيب . فقالوا لي هناك أيضاً إن الخديوي جاء بنفسه وسأل عنك وقد أمر أنك عند وصولك تعرض له . فقرحت أنا بهذه الأخبار ظاناً أن الخديوي متشوق إلى أخبار الجهاد يريد أن يعرفها منى فيلح في وصولي . فلما وصلت إلى الإسكندرية وجدت صديق أحمد بك العريس البيروتى أحد أعيوان الخديوي في انتظارى ، فقال لي : إن أفندينا أرسلنى لاستقبالك ولأذهب بك إلى سراي رأس التين لتنزل ضيفاً عنده . فذهبت ودخلت عليه وأنا بثياب السفر بحسب إرادته ؛ وكنت أظن أن أول سؤاله يكون عن المجاهدين وحالة الجهاد ، وكان مرادى أن أقول له إن كل شىء جيد لولا قلة علف البواريد لعله يساعد بطريقة فزيج هذه العلة . فما راعنى إلا كون الخديوي سأل عن كل شىء ما عدا الجهاد . فبرد وجهى وخرجت متقبض الصدر وكشفت أحمد العريس بما وجدته في نفسى ، فقال لي إذا سألك أفندينا عن الحرب فلا تقل له إنه يلزم

جبنخانة وأنها قليلة . قلت له لماذا . قال : يجوز إن أفندينا يقول ذلك لأحد بدون قصد فن
واحد إلى آخر يصل الخبر إلى الطليان . والحقيقة التي علمتها فيها بعد أن الخديوي كان اتفق
مع إيطالية على أن يبيعها سكة حديد مربوط بثمان عظيم وبمقابلة ذلك يساعدها على إخماد
الحرب . ولكن أحمد العريس لم يكن يقدر أن ييوح بالسر وهو مسلم مخلص فنهني حتى
لا أقول للخديوي إن المجاهدين في احتياج إلى الجبنخانة . ثم كنا على الإفطار لأن الوقت كان
رمضان ، وكان على المائة الخاصة بسمو الخديوي بجانبه حسين باشا رشدي ثم قاضي مصر
وكان تركيا ، وهذا العاجز والشيخ على يوسف . وكانت بقية الموائد مصفوفة وعليها مفطرون
كثيرون . وبدأنا بالحديث على الأكل ؛ فقال الشيخ على يوسف : إن الدول قررت عدم إقراض
مال تركيا إذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع إيطاليا . فقلت له : إن تركيا مضطرة أن
تتابع الحرب حفظاً لشرفها . فقال ومن أين تأتي بالمال ؟ فقلت له : كل ما تنفقه تركيا على
حرب طرابلس هو ٧٠ ألف جنيه كل شهر والحال أن إيطاليا تنفق في الشهر مليون جنيه .
فقال الشيخ على ، إلا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة إلى تركيا كالمليون جنيه بالنسبة إلى
إيطاليا فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب . فقلت له : إذا عجزت الدولة فالعالم الإسلامي
يقدر على مساعدة طرابلس . فقال : أما نحن أهالي مصر فلا نقدر إذا صالحت الدولة على
طرابلس أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين إذ يكونون حيثنذ رعية نائرة على إيطاليا .
هذا كله كان يقوله الشيخ على يوسف لا الخديوي . بل الخديوي كان ساكناً وقد علت
وجهه الحرة . وفيما بعد فهمت أن الشيخ على كان مقصده بهذا الكلام التزلف للخديوي لأنه
كان مطلماً على الدسياسة . فأنا لم أكن أعلم شيئاً من هذه الدسياسة . ولم أكن لأبالي بها على
فرض أنني علمت بها . فلما سمعت جدال الشيخ على هذا غضبت ، وقلت له بحدة : لاتساعدون
أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم . فانقطع الكلام على أثر هذه الحدة ووجم الخديوي وصار
قاضي مصر يتسم . وقمنا عن السفارة إلى الصلاة ، فأخذني الخديوي بيدي لأنه شعر بكوتني
تأثرت جداً ؛ وما زال حتى وصلنا إلى السجادة الخاصة به فتحنى قليلاً إلى اليمين حتى أن
السجادة تسعه وتسعني . وكل هذا يقصد به تلطيف خاطري ، وأنا لا أعي من التأثر ؟ فلما
بدأ الإمام بالصلاة ولم يكن الإمام حاضراً مجلسنا ولا سمع شيئاً مما دار بيني وبين الشيخ على
ألمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً)
ويذكر هذا الخطاب مسألة اتفاق سمو الخديو السابق مع إيطاليا على أن يبيعها سكة
حديد مربوط بثمان عظيم في نظير مساعدتها على إخماد الحرب ، وهي مسألة تحدث عنها
المرحوم الحاج أحمد شفيق باشا في الجزء الثاني من كتابه (مذكراتي في نصف قرن) ، فقد ذكر

أنه أشيخ بعد عقد الصلح بين الأتراك والطلليان بثلاثة شهور ، أى فى أوائل عام ١٩١٣ ، وفى أثناء استمرار القتال فى طرابلس والبلقان أن الخديو باع سكة حديد مريوط إلى بنك درسدن الألماني . ولكنه لم يلبث أن اتضح بعد ذلك أن عقد البيع قد أمضى فى الحقيقة مع بنك إيطالى . ورخص له الخديو بأن يمد هذا الخط إلى نهاية حدود طرابلس فى السلم . فأثار عقد هذه الصفقة اهتمام الانجليز ، وتدخل اللورد كاتشر فى الأمر ، وهدد (عباسا) وأخرج مركزه ، فاضطر الخديو إلى العدول عن بيعها لإيطاليا ، وألغى عقد البيع مع البنك الإيطالى وباع السكة إلى الحكومة المصرية .

وزيادة على ذلك فقد وسط الإيطاليون (الخديو) أيضاً حتى يقنع السنوسيين بضرورة الإخلاء إلى السكينة ويجزل لهم الوعود الطيبة إذا هم قبلوا الأمر الواقع وكفوا عن مواصلة الجهاد ، فقبل سموه الوساطة وأرسل إلى السنوسيين وزعيمهم السيد أحمد الشريف بالجبل الأخضر فى أواسط عام ١٩١٣ وفداً يتألف من السادة المأمون والسنوسى ومصطفى أنجال السيد عبد المتعال الإدريسي ومعهم عبد الحميد بك شديد من رجال المال فى مصر ، يحملون كتاباً خاصاً من الخديو إلى السيد أحمد الشريف . ولكن السيد رحمه الله كان مصراً على ضرورة جلاء إيطاليا عن البلاد كلية قبل التفاهم فى شيء ، فرجع الوفد إلى القاهرة وأخفقت هذه الوساطة : ويذكر الحاج أحمد شفيق باشا إلى جانب ما تقدم شيئاً عن مهمة عبد الحميد شديد بك للسيد إدريس السنوسى (وهو سمو الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسى ، معقد آمال الأمة الليبية فى وقتنا هذا) ليغريه بالاتفاق مع إيطاليا حسباً للحرب ، على أن يسمى الخديو فى الحصول له على امتياز من إيطاليا وتنصيبه رئيساً على السنوسيين بدلاً من عمه الشيخ أحمد السنوسى الكبير ، وفى نظير ذلك يتحصل سموه على وعد بمبيع سكة حديد مريوط لأحد بنوك إيطاليا بثمن يرضيه . ولكن المساعى التى كان عباس يبذل الجهد فيها للوصول إلى ذلك قد فشلت لأن كاتشر ضربها ضربة قاضية .

وغنى عن البيان أن أية محاولة من هذا القبيل كان لابد من إخفاقها فى النهاية . وجاء فى المذكرات نفسها ، ولما توالت انتصارات الإيطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الخديو ، عاد فطلب من كاتشر بواسطة حسين رشدي باشا وقف المساعدات ، فامتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعدما سمح بإرسالها أولاً . وانتهى الأمر بأن يقال إن البعوث الأخيرة ضلت الطريق . وقد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى ، إلى مصر .

يبد أن متاعب السنوسيين والمجاهدين فى أثناء هذا النضال الشاق لم يكن مقدراً لها أن

تنتهى عند ذلك ، فإنه سرعان ما تعكرت العلاقات في معسكر المجاهدين بين القائد العام (عزيز بك المصرى) وبين العرب ، ونجم عن ذلك حوادث يوسف لوقوعها . فقد صادف أن جاء وقت الحصاد فى عام ١٩١٣ فى أثناء اشتداد المقاومة ضد إيطاليا ، فاضطر أغلب المجاهدين العرب إلى ترك الجيش والذهاب للحصاد فلم الإيطاليون بذلك ، وانهزوا الفرصة للهجوم على الجيش على غرة ، ولم يكن وقتئذ (عزيز المصرى) موجودا ، فانسحب الجيش بمعداته الحربية إلى معسكر درنه ، واشتبك عزيز المصرى مع الإيطاليين فى معارك دامية وانتصر المجاهدون على العدو فى جملة وقائع ، وألحقوا به خسائر فادحة خصوصا عند قدوم السيد أحمد الشريف من الجغبوب ، وأخذ المجاهدون أسرى كثيرين بعثوا بهم إلى (زاوية العزيات) لبعدها عن ميدان القتال . وأراد عزيز المصرى أن يطلق سراح بعض هؤلاء الأسرى فعارض السنوسيون وكان هذا مبدءا سوء التفاهم بينهم وبين عزيز بك المصرى ، وازداد سوء التفاهم هذا عندما وصلت إلى عزيز المصرى بعد ذلك برقية من الحكومة العثمانية تأمره بالانسحاب بمن معه من الضباط والجنود من برقة إلى السلوم . حيث يجدون فى انتظارهم باخرة عثمانية لنقلهم إلى تركيا . فشرع عزيز المصرى يتجهز للانسحاب بما كان لديه من قوة وسلاح وذخيرة ، نحو الحدود المصرية . وكان غرضه من الانسحاب بجنده النظامى وأسلحته أن يكون مستعدا لمقاولة الطوارىء فى أثناء انسحابه إلى السلوم .

ولكن هذا التصرف من جانب القائد العام لم ينل رضا المجاهدين الذين عولوا على مواصلة القتال ضد جند إيطاليا ، فسأهم أن يخرج عزيز المصرى بجنده النظامى ، وأن يحرم المجاهدون الأسلحة والذخائر التى كانوا بحاجة شديدة إليها بسبب انقطاع الموارد عنهم . فطلبوا إلى القائد المنسحب أن يسلمهم الأسلحة والذخيرة ولكنه رفض لأسباب منها - كما قيل - أن تسليم الأسلحة التى مع عسكره إلى العرب لا يتفق مع الأصول الحربية التى تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وإيطاليا بالإسليم العسكر العثمانى أسلحته لأعداء إيطاليا ، زد على ذلك أنه كان فيما يفعل يدعى للأوامر التى وصلته من حكومة الأستانة . بيد أن ذلك كله لم يكن ليقتنع المجاهدين الذين عندما يثسوا من تعلم الأسلحة سلبا أرسل السيد أحمد الشريف لأخذها عنوة السيد عمر المختار . ولكن قبل وصول السيد عمر كان المجاهدون من قبله قد أطلقوا الرصاص على الجند المنسحبين ، وكان هؤلاء قد خيموا فى (دقنة) غربى السلوم فصمدوا لهم ومن ثم نشبت معركة حامية فسقط من العرب أكثر من الستين قتيلًا ، وتقاطرت جموعهم من كل جهة بغية الانتقام من (عزيز المصرى) وعسكره فى (دقنة) و (البطنان) وكاد يحدث التحام كبير ، لولا أن (عزيز المصرى) استطاع

الوصول إلى السلوم . وفي ١٦ يولية ١٩١٣ بلغ الإسكندرية ومنها ذهب إلى الأستانة .
وهكذا أحاطت الصعوبات بالمجاهدين في طرابلس وبرقة من كل جانب . فإنه إلى جانب
قطع الموارد عنهم من جهة تونس ومصر ، فقد انسحبت القوة التركية العاملة في برقة والجبل
الأخضر بكامل معداتها ؛ وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة لهجوم العدو . وفي
هذه الظروف الشديدة صمد السنوسيون في وجه الطليان ، ثم أسندت قيادة المجاهدين إلى السيد
عمر المختار ولم يتردد هذا المغوار في قبولها فشكل جيشا وطنيا جعل من خطته التزام الدفاع
والتربص بالعدو حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم
شر مقتلة وغنموا منهم أسلحة كثيرة أمدتهم في الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب
النقل مما كانوا في حاجة ملحة إليه جميعه . وظل الحال على هذا المنوال حتى نشبت الحرب
(العظمى) العالمية الأولى في أغسطس ١٩١٤ .

الفصل السابع

السنوية والحرب العالمية الأولى

بعد معركة (مدور) في يوليو ١٩١٣ عاد معظم العثمانيين إلى وطنهم ، ولذلك بقي السنوسيون وحدهم يديرون دفة الحرب في الشهور التالية . فوزعوا جنودهم النظاميين على مراكز متعددة في المناطق المختلفة حتى يجمعوا حولهم القبائل العربية في جهود متصلة ضد الإيطاليين الذين كانوا قد فصلوا برقة عن طرابلس وأنشؤا لكل من الأقليمين حكومة منفصلة منذ سبتمبر ١٩١٣ . وعينوا لبرقة الجنرال (بريكولا) ، أول ولايتها . ثم في ١٦ أكتوبر ١٩١٣ الجنرال جيوفاني أميليو) ، الذي أشرف على العمليات العسكرية في برقة من ذلك الحين حتى بداية الحرب العالمية الأولى ، ولما كان السنوسيون قد اتخذوا خطة مفاجأة المعسكرات الإيطالية وإشعال الثورة في الجهات التي يمثلها الطليان ، فقد اضطر الجنرال (أميليو) إلى تقسيم قواته إلى جماعات على استعداد لمقاومة هجوم المجاهدين والإغارة على مراكز العرب في الجهات التي دخلت في حوزة الطليان . وعلى ذلك اشتبك الإيطاليون مع المجاهدين في جملة معارك بدأت من فبراير ١٩١٤ باختلال زاوية (العرقوب) و (سلطنة) واستمرت خلال الشهور التالية ، ف وقعت في شهر فبراير نفسه معارك (سيدى ميسوس) و (زاوية أم سخب) و (شليظيمة) ، وفي شهر مارس ضرب الطليان زاوية مسوس ، والتحموا مع المجاهدين في معركة الزويتية الليلية في ١١ - ١٢ مارس سنة ١٩١٤ ، ثم في (بوجسال) وضربوا أجدابية ، كما احتلوا (مراده) بعد التحام مع المجاهدين وفي هذا الوقت أيضا احتلوا (الحزوب) واشتبكوا مع العرب في معركة (بوجسال) الثانية . وفي شهر إبريل حدثت معارك (بوجسال) الثالثة و (قصر قصيس) و زاوية تايان (التي خربوها) وأم الجواني أو لصقه . وفي مايو وقعت معارك (بير الجلتة) ومناوشات عند (الكويسيه) ، وفي يونيو التحم الفريقان في (الرحيبات) وقصر حليجيمة ، وقصور المجاهير ، وبيضا ، والأنجال . وفي يولية وقعت معارك زاوية القطوفية وسادنو وسيدى داود ولصقه ، ثم خولان في آخر يولية ١٩١٤ ، وكان ذلك قبل بدء الحرب العالمية الأولى بأيام قليلة .

وقد استطاع الطليان في إثناء هذه الشهور الثلاثين تقريبا ، منذ بداية عدوانهم على الأقطار الليبية في عام ١٩١١ ، احتلال جملة مراكز في كل من برقة وطرابلس فاضطر السنوسيون إلى الانسحاب في الجهات الشمالية الغربية من الشاطئ والتوغل في الصحراء . وكان الهدف الذي يرمى إليه السنوسيون في الفترة التالية مباشرة هو إخراج العدو من الفزان والاحتفاظ بها للمجاهدين وتوطيد أقدامهم بها .

وعلى ذلك فإنه لما بدأت الحرب الكونية الأولى ، كان النزاع بين الطليان والسنوسيين يدور في الحقيقة حول (الفزان) فقد أدرك السيد أحمد الشريف أهمية بقائها في أيدي المجاهدين حتى يطمئن إخوانهم في الجهات الأمامية والساحلية ويواصلوا الاشتباك مع العدو في كل فرصة وكل وقت ، لأنهم أصبحوا في مأمن من العدوان على عكس ما يحدث ، لو أن الفزان خرجت من أيدي المجاهدين كلية فيتعرض هؤلاء في منطقة سرت ، والجبلة (القبلة) والجيل لهجوم العدو عليهم من الخلف . ولذلك فإن معنى ضياع الفزان في هذه الظروف العسيرة إنما هو ضياع ليبيا كلها في الحقيقة . ومن ثم فقد عمل السيد أحمد الشريف على تنظيم المقاومة في الفزان ضد الإيطاليين فأرسل أحد السادة السنوسية ، السيد محمد علي الأشهب إلى (مرزوق) لذلك الغرض وكان هؤلاء الإيطاليون منذ انتصارهم على جيوش (محمد بن عبدالله) في سرير الشيب والثيدة ومحروقة بين ١٠ ، ١٤ ديسمبر ١٩١٣ قد قضوا على مقاومة المجاهدين ، فأصبح احتلال الفزان بأجمعها ، بما في ذلك واحة غات يتطلب استعدادات سياسية وعسكرية كبيرة من جانب الطليان ، وتجهيز حامياتهم بالمؤن والمهمات .

ولما كان السنوسيون قد حملوا القبائل المقاتلة في منطقة (الجبلة) على الانتقال إلى منطقة (سرت) الوسطى ، وهددوا بذلك خطوط مواصلات الطليان بين (سرت) والفزان ، فقد اضطر الطليان إلى الالتحام مع المجاهدين في معركة شديدة استطاعوا بعدها احتلال (النوفيلية) في ٢٣ مارس سنة ١٩١٤ . ومع ذلك فقد هاجم المجاهدون (مرسى العويجه) وهي ميناء النوفيلية في ٢٤ إبريل ، ثم أوقعوا هزيمة منكرة بقوة إيطالية عند (السلطان) وأرغموها على الإرتداد ، وكبدوها خسائر فادحة (٧ يولية سنة ١٩١٤) . وكان قائد العمليات الإيطالية في هذه المنطقة (الكولونيل ميانى) وعندما أرسل السيد أحمد الشريف السيد محمد علي الأشهب إلى (مرزوق) قام الأهليون بالثورة على الطليان ، وهاجم المجاهدون قوات (ميانى) وطوقوها من كل جانب فحشى (ميانى) أخطار العزلة ، وانسحب إلى الساحل . وقد بدأ المجاهدون أعمالهم بالاستيلاء على قافلة تموين إيطالية بالقرب من (بير قية) في ٢٦ أغسطس ١٩١٤ ثم كرروا هجومهم على القوافل والتجذات الإيطالية الواقعة على طول طريق (سرت) .

سوكنة - سبته) . وفي أواخر نوفمبر زادت صعوبات الإيطاليين عندما اشتد نشاط المجاهدين في منطقة (الشاطي) . هذا وقد حضر لقيادة المجاهدين في الفزان مهدي السني الذي اشتهر بتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين في (برقو) في عامي ١٩١١ و ١٩١٣ واستطاع أن يتزعم الحركة في (فرده) ويقضي على حامية من الجند الطليان في (أدري) الواقعة بين منطقتي الشاطي وسبته .

وأما السيد محمد علي الأشهب فقد جمع عدداً عظيماً من المجاهدين في (واو) كما استطاع السيد محمد عابد (أخو السيد أحمد الشريف) أن ينشئ معسكراً للمجاهدين في (زله) وبذلك فقد تمكن المجاهدون من الإحاطة بمركز الطليان في (سبته) وقضوا على حاميتهم في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٤ ، ونجم عن ذلك أن فقد الطليان مركزهم الآخر في (أوباري) وأرغم الباقون منهم في واحدة غات على الانسحاب إلى المنطقة الفرنسية ، والانصال بالساحل عن طريق تونس . وفي ١٠ ديسمبر ١٩١٤ اضطرت بقية القوات الإيطالية في الفزان بقيادة (مياتي) إلى التقهقر من (براك) والانسحاب صوب (سوكنه) . وبعد أسبوعين التحم المجاهدون بالطليان في معركة دامية عند (بونجيم) انهزمت فيها الحامية الطليانية وأرغمت على الانسحاب إلى (مصراته) فوصلت إليها في ٢٥ ديسمبر ، كما وصل الكولونيل مياتي نفسه إلى مصراته في ١١ فبراير سنة ١٩١٥ بعد أن صمد فترة في سوكنه ، ثم غادر مصراته بعد ذلك إلى إيطاليا وكان كل ما أدركه الإيطاليون من نجاح إنما هو انتصار فضيلة صغيرة من قواتهم غادرت سرت واشتبكت مع المجاهدين في يوم ١١ فبراير نفسه في (قصر بوهادي) وكان يقاتل في صفوف السنوسيين في هذه المعركة رمضان شتوي أو السويحلي الذي وثق به الطليان من قبل . ولم تلبث أن ظهرت آثار انسحاب الطليان من (الفزان) في منطقة (القبلة) - الجبل والجيل ثم في (الجفرة) فاستمر تقهقرهم وانسحبوا بعد ذلك من (جريات) إلى (مزده) وفي (غدامس) و (سنوان) إلى (فالوت) فأعلنوا حالة الطوارئ في طرابلس كلها .

بيد أن حكومة الطليان المركزية في طرابلس لم تلبث أن أمرت بإعادة احتلال (غدامس) فنشبت معركة حامية في (مرزم) في أواخر يناير سنة ١٩١٥ ، واحتل الطليان غدامس مرة أخرى في منتصف فبراير . ولكن سرعان ما هاجم العرب مراكز الطليان في (ودان) و (بير قطوفية) في منطقة الجفرة ، فاضطر هؤلاء إلى الانسحاب إلى (سوكنه) ثم انسحبوا بعد ذلك بأمر الحكومة من المنطقة بأجمعها في ٢٧ يناير ١٩١٥ إلى (بني وليد) وقد هاجم المجاهدون (بونجيم) ، في أوائل فبراير فحسروا كل قوافلهم ، وأخيراً بلغوا (ورفله) في منتصف الشهر نفسه . وفي هذه الآونة قوى نشاط المجاهدين كذلك في منطقة مصراته ،

وكانوا قد شنوا هجوما عنيفاً على (تاورغة) في ٢٥ يناير . وإزاء هذه الانتصارات المتتابعة من جانب المجاهدين أعدت حكومة الطليان حملتين عسكريتين في طرابلس إحداهما للعمل في منطقة (القبلة) والأخرى في منطقة (سرت) .

أما الحملة الأولى فقد غادرت (مزده) ، واشتبكت مع المجاهدين في معركة (حرمت الخدامية) في ٦ أبريل سنة ١٩١٥ ، وفي الليلة التالية فاجأ العرب الإيطاليين في وادي مرسيت وأرغموا الحملة على التقهقر بدون انتظام في (مزده) بعد أربعة أيام فقط من خروجها . وكان ميانى في هذه الأثناء قد رجع من إيطاليا وأخذ في القيام بحملته « التأديبية » ضد السنوسيين وبقية المجاهدين في منطقة سرت ، وهي الحملة الثانية . وكان من رأيه أيضاً أن يتسلم قيادة الحملة (رمضان شتيوى) فنصحته كثيرون بالعدول عن رأيه ولكن بدون جدوى فخرجت الحملة من مصراته في يوم ١٥ إبريل ١٩١٥ وكان عدد الطليان أربعة آلاف يتقدمهم ويسير على جانبي قوتهم رجال رمضان السويحلى وعددهم ثلاثة آلاف وخمسمائة وفي ٢٨ إبريل هاجمت الحملة (دور) أو معسكر المجاهدين في (قصر بوهادى) ، ولكن بمجرد أن بدأ القتال انقلب رمضان شتيوى ورجاله ضد الطليان ، وأطلقوا عليهم النيران ، فانهزمت الحملة ولم تستطع فلولها النجاة إلا بشق الأنفس ، وكان (ميانى) من بين الناجين ، وهكذا نجحت خطط السنوسيين في طرابلس بفنتل هذه الكارثة التي حلت بالإيطاليين في (قصر بوهادى) . فقد خسرت الحملة كل سلاحها وذخيرتها ومدافعها ، وقافلة التموين بأجمعها (ثم خزينة) القيادة .

وكان من أثر انتصار السنوسيين في (قصر بوهادى) أن بدأت تشق عصا الطاعة وتشور ضد الإيطاليين تلك القبائل التي كانت قد اضطرت إلى التزام الهدوء والسكينة في طرابلس ، وكان من أهمها قبائل (القبلة) ، كما بدأت روح التذمر تسرى بين البربر في الجبل وعندئذ لم تجد حكومة الطليان في طرابلس مناصاً من أن تصدر أوامرها بالانسحاب من غدامس ونالوت إلى الساحل ، وهكذا لم يبق لدى الطليان في طرابلس الغربية سوى (زواره) و (زوزور) ، أما في طرابلس الوسطى فقد انسحب الطليان من (مزده) (وغريان) ، وفي طرابلس الشرقية صارت الكلمة للمجاهدين في المنطقة كلها بعد كارثة (قصر بوهادى) وكافا السنوسيون رمضان شتيوى على حسن بلائه فسلوه القيادة العليا في هذه الناحية . وأما الأسلحة والذخيرة والعتاد التي غنمها المجاهدون في قصر بوهادى فقد استخدمت كلها في إعداد الجيوش الجديدة لمناوأة الإيطاليين ، وبسبب حال الإيطاليين في طرابلس لدرجة أن الأهليين في الأراضى المحتلة سرعان ما أخذوا يثورون ضدهم إما لأنهم - كما يقول مؤرخو الطليان

لم يكونوا أصدقاء مخلصين (لهم) بالمرّة ، وإما لأنهم كانوا يستأثرون من اعوجاج سياسة (الظليان) المحلية وعدم استقرارها ، إما لأنهم كانوا يخشون من الأخطار التي يتعرضون لها بسبب زحف (المجاهدين) والسنوسيين المنتصرين ، وكان رمضان شتوي يقود معظم قوات المجاهدين التي اتجهت صوب مصراته .

وهكذا نجحت خطط السنوسيين في هذه الآونة في الفزان وفي طرابلس ولو أن النصر لم يكن حليفهم في برقة ذاتها وذلك لانسحاب الأتراك من ميدان القتال وإغلاق الطرق التي كانت تأتي منها كل المؤن والذخائر والأسلحة إلى المجاهدين في برقة من جهتي الشرق والغرب : أي من جهتي مصر وتونس .

بيد أن اشتعال الحرب الكونية الأولى لم يلبث أن أدخل تغييراً كبيراً على الموقف في برقة وأحيى آمال السنوسيين في القدرة على مواصلة الكفاح بنجاح ضد إيطاليا . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الأتراك الذين وجدوا من قبل أن من مصلحتهم الانسحاب من ميادين برقة وطرابلس ثم التمسك بموقف الحياد والامتناع عن مساعدة المجاهدين بعد أن كان من سياستهم في مبدأ الأمر إتاحة الفرصة للسنوسيين حتى يستمروا في القتال ضد إيطاليا ، لم يلبثوا أن أقبلوا مرة ثانية على استئناف جهودهم بعد نشوب الحرب العالمية في أغسطس ١٩١٤ في الميادين الطرابلسية البرقاوية ضد الدول المتحالفة الغربية .

وبما لا شك فيه أن تركيا أسرعت بالدخول إلى جانب ألمانيا لأنها كانت عظمة الثقة في انتصار الألمان على الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا) ، هذا بينما انحازت إيطاليا إلى جانب هذه الدول المتحالفة في مارس ١٩١٥ لتحقيق مطامعها في البحر الأبيض المتوسط وفي أفريقية الشمالية . وهكذا وجد الأتراك أنفسهم في نزاع جديد مع إيطاليا ، وعندئذ قرروا استئناف النضال في الأقطار الليبية .

ولم يدفع الأتراك إلى مؤازرة السنوسيين في هذه المرة سوى رغبتهم في اتخاذ برقة ميداناً يرسلون منه جيشاً كانوا اعتزموا إعداده لغزو الأراضي المصرية وتحديد حدودها الغربية . لأن الألمان قرروا بالاشتراك مع العثمانيين إرسال حملة من الشام للإغارة على قناة السويس وغزو مصر من الجهة الشرقية ، ورأوا لضمان نجاحها أنه لا بد أن يشغل الإنجليز في الوقت نفسه بأمر الدفاع عن مصر من جهة حدودها الغربية حتى تتوزع قواتهم ويسهل على الألمان والعمانيين تنفيذ مآربهم وجاء في رواية بشير بك سعداوي أنه غادر طرابلس إلى استانبول في آخر عام ١٩١٣ وكان لا يزال مقبلاً عليها عندما أخذت تركيا تتهيأ لخوض غمار الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا . فحدث أن ألفت الأتراك لجنة سموها لجنة التشكيلات المخصصة

وضعوها تحت رئاسة سليمان عسكري بك . وكانت تتألف من محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني المصري والشيخ صالح التونسي والشيخ عبدالعزيز جاويش وعلي باشي حامبا (من تونس) وكثير غيرهم وعندما دخلت تركيا الحرب أراد العثمانيون إرسال نوري أخى أنور باشا إلى طرابلس واختاروا بشير بك سعداوى لمرافقته وكان بشير يعتقد أن مهمة نوري ومهمته هي الحرب ضد إيطاليا . غير أنه حدث في أحد الاجتماعات التي عقدت بمنزل أنور باشا بحضور طلعت باشا و خليل باشا عم أنور أن سلم أنور بشيرا كتابا معنونا باسم السيد أحمد الشريف كان قد فرغ من إعداده ، ومضمونه أن دول الحلفاء الثلاث فرنسا وانجلترا وروسيا قد أعلنتوا الحرب على تركيا ولذلك قررت تركيا الحرب ضد هذه الدول في كل مكان ويطلب من السيد أحمد الشريف أن يعلن الحرب على الانجليز ويحذف على مصر وأخبر أنور السيد أحمد الشريف في كتابه هذا أن يوفد إليه شقيقه نوري مزودا بالمال ويعد السيد أحمد في الوقت نفسه بإرسال السلاح إليه . وعندما قرأ بشير بك هذا الخطاب تملكته الدهشة اذ كيف يستطيع السيد أحمد محاربة الانجليز بدون أسلحة . صحيح أن إرسال المال أمر سهل هين يمكن تدييره ولكن كيف السبيل إلى إرسال الأسلحة ، وعلى ذلك فقد ذكر بشير لأنور أن من المتعذر على الليبيين أن يقاتلوا الطليان والانجليز في آن واحد ، وسأله عن الطريقة التي يمكن بها إرسال السلاح إلى السيد . ويقول بشير بك السعداوى أنه لما تبين له أن غرض الأتراك لم يكن سوى إثارة القلاقل والاضطرابات على الحدود والدخول في مناوشات مع الانجليز الغرض منها شغلهم فحسب لتخليص البلاد من قبضة الطليان وأن الذهاب مع نوري إلى طرابلس قد يترتب عليه «توريطة» السيد أحمد الشريف في غير ما يحقق مصلحة الوطن امتنع عن موافقة نوري فوقع الاختيار على جعفر العسكري للذهاب مع نوري إلى طرابلس .

وعلى ذلك ذهب نوري يحمل كتاب أخيه أنور إلى السيد الشريف وخرج معه جعفر العسكري وهو أحد الضباط العرب العراقيين الذين كانوا في خدمة الجيش العثماني ، وكان جعفر يحمل كذلك كتبا أخرى من أنور باشا إلى عدد من كبار المصريين الذين عرفهم أنور في أثناء إقامته بركة يدعوهم جميعاً للقتال ، ويثقل إلى أصدقائه ومعارفه من المصريين خبر إعداد الحملتين المزمع إرسالهما إلى حدود مصر الشرقية والغربية معاً . فحضر جعفر العسكري إلى مصر في طريقه إلى بركة واستطاع أن يتجول في القطر المصري متخفياً وأبلغ رسالته ثم غادر مصر إلى بركة خفية وعند وصوله إلى السلوم استقبله نوري بك الذي أرسله شقيقه أنور باشا ليتولى القيادة العامة .

وقد قامت غواصة ألمانية بنقل نوري بك وصحبه من ميناء (بولا) عند خليج (كوارنيرو)

Quarner في طرف بحر الأدرياتيك الشمالي وكانت (بولا) هي القاعدة التي اتخذها الألمان في فواصاتهم في بحر الأدرياتيك والبحر الأبيض فأنزلت نوري وجماعته في الطرف الغربي من خليج السلوم عند ميناء (بردى سليمان) في قسم الخليج التابع للحكومة برقة ، لأن خليج سلوم كانت تمتلكه مناصفة فيما بينهما كل من الحكومة المصرية ، ولها الطرف الشرقي ، ثم حكومة برقة ولها الطرف الغربي . وأحضر نوري معه قدرا من الأسلحة والمذخيرة وجانب من المال وعددا من الضباط العثمانيين ثم صحبه أحد دهاة الألمان وضباطهم المملين بأحوال بلاد المغرب وهو الكونت (مانسمان) ليثمل القيادة العليا الألمانية في إفريقية الشمالية إلى جانب اشتراكه في العمل مع القائد العثماني . وكانت مهمة نوري عند نزوله في (بردى سليمان) الاجتماع بالسيد أحمد الشريف على الفور .

وأما السيد أحمد فقد اهتم من جانبه بمقابلة القائد العثماني ، وتمت المقابلة في مكان بالقرب من السلوم يسمى (المسيعيد) وسلبه نوري رسالة شقيقه أنور باشا وكانت تحمل أنباء إعلان الجهاد وتعيين السلطان محمود رشاد لسيادته نائبا عنه (عن الخليفة) ، وفي إفريقية الشمالية ، والإنعام عليه برتبة الوزارة الأولى ، وهي رتبة رفيعة الشأن ، ومنحه حق إعطاء الرتب والنياشين . وبالفعل أحضر (نوري) معه قدرا من النياشين والأوسمة لتوزيعها على الرؤساء وكبار القوم والسادة السنوسية . فأكد هذا التعيين ذلك المركز الممتاز الذي كانت تشغله الإمارة السنوسية منذ نوفمبر ١٩١٢ ولا تربطها بدولة الخلافة الإسلامية غير التقاليد التي أبقى عليها ذكر اسم السلطان في الخطبة - وهو خليفة المسلمين - ووجود نائب له في الأقطار الليبية . ومن ذلك الحين عندما احتدم الكفاح طيلة السنوات التالية ، صارت أوامر السيد ومحركاته فيما يتعلق بشمال إفريقية تصدر إلى جميع النظارات بدار الخلافة مرعية معتبرة في جميع الأوامر الملكية والعسكرية وأرسلت إليه الإرادة السلطانية ليمليها حسبما يظهر له . فتأيد بذلك مركز الإمارة غير أنه كان من الواضح منذ مقابلة السيد للقائد العثماني وصاحبه الكونت مانسمان الألماني وجعفر بك العسكري ، أن الأتراك (والألمان) إنما يريدون أمرا واحدا فقط هو أن يشترك السيد معهم في الهجوم على حدود مصر الغربية وتجهيز حملة كبيرة لهذه الغاية ، فقد بذل (نوري) و (مانسمان) جهودا عظيمة حتى أقنعا السيد بوجاهة هذا العمل وضرورته ولما كان جعفر العسكري عراقيا ومقربا من السيد أحمد حتى أنه كان عظيم الثقة به لصبغته العربية فقد أتاحت الفرصة لجعفر كي يساهم بقسط كبير في هذا الغرض ولكن دون جدوى وبما كان له كبير الأثر في إحجام السيد أن القائد العثماني أراد منه أن يهادن السنوسيون الطليان في هذه الآونة حتى يستطيعوا التفرغ لتدبير أمر هذه الحملة الجديدة . ولما كان من المزمع

إرسال هذه الحملة ضد الحدود المصرية فقد وجد السنوسيون أنهم سوف يشتبكون في حرب ضد الإنجليز ، ولم يكن من رأى السيد أحمد ولا من رأى كبار السادة السنوسية ولا من رأى بقية المجاهدين مهادنة إيطاليا ذلك العدو القديم ومنازلة دولة هي إنجلترا لم تقم بينها وبين السنوسيين حتى هذا الوقت سوى أحسن العلاقات وأصفاها . وكان السيد محمد إدريس المهدي ، ابن عم السيد أحمد من أشد المعارضين لمشروع الحملة ضد الحدود المصرية .

وحقا لم يكن ذلك بالأمر الهين على نفوس السنوسيين كما أنه لم يكن يتفق ومصالحهم في هذه الظروف الدقيقة قيام الإنجليز ضد المجاهدين في الأقطار الليبية . ومع أن الإنجليز في أثناء الحرب الليبية - الإيطالية تمسكوا بموقف الحياد بين العرب وأعدائهم الإيطاليين فإنهم من الوجهة العملية قد تركوا العرب يبيعون الأسلاب التي غنموها من الطليان المنهزمين في ميناء السلوم وهم إلى جانب ذلك قد حرصوا على أن تظل العلاقات بينهم وبين السيد محمد الشريف مشوبة بروح الود والصدقة ، كما حرص السيد أحمد من جانبه على استيفاء صلوات المودة بينه وبينهم فكان السير جون ما كسويل القائد العام للجيش البريطانية بمصر ، يصانع السيد كثيرا ويراسله دائما ويتحفه ببعض الكتب ويتزلف إليه بكل الوسائل اتقاء غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ما كسويل ويؤمنه من جهة السنوسية ويستخدمه في قضاء أغراضه ، وكان يستصنع في مصر البنت لتواير الجيش السنوسي ، وكان رجال الحماية المصرية بالطرف الشرقى من خليج السلوم - ولا يزيدون عن الخمسين جنديا إلى جانب عدد من رجال السواحل - يقيمون في (المقر) وعلى شواطئ البحر تحت قيادة الكولونيل (مسئول سنو) بك الإنجليزي الذي كان محافظ الصحراء الغربية ، وضابط الخبايا الإنجليزية . وتدعمت الصلات الودية بينه وبين السنوسيين وحرص السيد أحمد على هذه المكانة الطيبة . وعلاوة على ذلك فقد كان السيد وزعماء السنوسيين يخشون لو هاجموا الحدود المصرية أن يقع الفشل في صفوف المجاهدين وأن يغلبوا على أمرهم بسبب ما كانوا يعلمونه من استعدادات الإنجليز العظيمة ولذلك كان من رأى السيد أحمد الشريف مهادنة الإنجليز ومطاردة الطليان على عكس ما كان يشير به نوري ورفاقه .

أضف إلى هذا أن الإنجليز لم يغفلوا في هذه الآونة عن السعي جديا لحل السيد أحمد الشريف على التزام موقف الحياد والامتناع عن تأييد التداير العثمانية الألمانية . فإن السير هنرى ماكهون عند وصوله إلى مصر نائبا عن بريطانيا العظمى وإمبراطور الهند بعد إعلان الحماية الإنجليزية على مصر ، بادر بالكتابة من القاهرة في ١٥ يناير ١٩١٥ إلى « قطب دائرة أهل الفضل والسكال وخلاصة أرباب الحجى والجلال ، أمام المصلحين وقادة المرشدين الأستاذ الأعظم والملاذ الأثم السيد أحمد الشريف السنوسي أعزه الله ، ، ولما كانت علاقة هذا

القطر (مصر) على الدوام ودية مع سيادتكم ، رأيت أن أبلغكم وصولي ، وأؤكد لكم أن العلاقات الودية التي كانت لكم ولأسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر في هذا العهد الجديد ، كما كانت عليه من قبل من الود والسلام .

وزيادة على ذلك فقد وسطه الانجليز سلطان مصر الأول المغفور له السلطان حسين كامل من أجل إقناع السيد أحمد بتجنب القتال والاشتباك معهم ، فأرسل السلطان وفداً مؤلفاً من السيد محمد الشريف الإدريسي ونجله الأكبر السيد محمد مرغني لمقابلة السيد أحمد الشريف في (المسيحيد) وغادر الوفد القاهرة في سبتمبر ١٩١٥ ، يحمل معه ثلاثة كتب : أحدها من السلطان والثاني من السير هنري ما كهاون نائب ملك الانجليز ، والثالث من السير جون ما كسويل القائد العام . ووعده الانجليز السيد أنه إذا احتفظ بالحياد ولم يشترك في الحرب القائمة ، ساعدوه على استقلال بلاده واجتهدوا حتى يوفقوا بينه وبين الحكومة الإيطالية . فبلغ الوفد هذه الرسالة ، واستطاع السيد محمد مرغني الاجتماع بالقائد العثماني نوري ، وفي أثناء الحديث معه وقف منه على حقيقة نوايا العثمانيين الذين ما يبغون من تدبير الهجوم على مصر سوى إرغام الانجليز على حشد أكبر قوة لديهم وتعطيلها من الاشتراك في الميادين الهامة الأخرى ولو أدى هذا العمل إلى إلحاق الأذى والضرر بمصلحة المجاهدين أنفسهم في برقة ، وعندئذ لم يتوان السيد محمد مرغني في تبليغ ما وقف عليه إلى السيد أحمد الشريف ، فكان كل هذا مما جعل السيد متردداً لا يرغب في الهجوم على الحدود المصرية .

وقد كان لهذا الوفد مقابلات أخرى مع زعماء المجاهدين وعلى الخصوص مع السيد محمد إدريس الذي لم يكن من رأيه قطعاً جلب عداة الإنجليز ضد العرب وتكدير صفو العلاقات معهم وامتنع عن الموافقة بتاتا على تدبير الهجوم على الحدود المصرية غير أن الوفد في أثناء إقامته بين المجاهدين لم يلبث أن شهد الأمور تخرج من يد السيد أحمد الشريف عندما نجح العثمانيون في تدبير الاعتداء على السلوم بصورة أرغمت سيسل سنو على الانسحاب منها إلى مرسى مطروح وكان هذا الحادث آخر حلقة من حلقات سلسلة تلك المحاولات التي ظل العثمانيون يقومون بها منذ قدوم نوري وجعفر العسكري من أجل تعكير صفو العلاقات بين السيد أحمد الشريف وبين الانجليز ، وإرغام السيد على قطع صلته مع الانجليز والاشتباك في الحرب معهم . وقد حدث قبل واقعة السلوم هذه أن أرسل هؤلاء الضابط وصني وكان من الضباط العرب لاحتلال حطية قرية التي تبعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً غربى واحة سيوة وتدخل ضمن الحدود المصرية ، وكان القومندان المصري في ذلك الوقت لمنطقة مرسى مطروح وسيوة البيوزباشي محمد صالح حرب . فأبرق إليه سنو بك حتى يذهب إلى سيوة لمقابلة هذه القوة

والمفاوضة معها باسم الحكومة المصرية حتى تنسحب من الحدود المصرية ، فاستقل اليوزباشي المصري أول سيارة استخدمت في الصحراء بين مرسى مطروح وسيوة وحاول محمد صالح حرب إقناع الضابط وصفي بالانسحاب من الأراضي المصرية ولكن هذا كان مصعماً على عدم الانسحاب إلا إذا أتمه أو امر قاطعة بذلك من السيد أحمد الشريف ومن نوري ، وأظهر استعداداً للمقاومة وقال إنه إنما حضر إلى قرية لتحصيل المكوس والعوائد من القوافل بين قرية والجغبوب ومراقبتها . وعندما بعث محمد صالح حرب يستفسر من سنو بك عما يجب فعله ويطلب إليه أن يتصل بالسيد أحمد الشريف لإصدار الأوامر اللازمة إلى الضابط العربي حتى ينسحب بسلام ، أبرق إليه سنو بك بالعودة سريعاً إلى مرسى مطروح لفض مشكل آخر من تدابير الأتراك كذلك .

فقد حدث في أثناء ذهاب الضابط وصفي إلى قرية أن أغرى العثمانيون نوري وجعفر العسكري والسيد محمد هلال السنوسي بالنزول في زاوية سيدي براني لتحريض السنوسيين على الثورة ضد الانجليز دون علم السيد أحمد الشريف وجاء السيد هلال فعلاً إلى سيدي براني فطلب سيسل ستو والجنرال مكسويل من قومندان مرسى مطروح أن يبذل قصارى جهده لإقناع السيد هلال بالانسحاب من سيدي براني وكان الانجليز قد حاولوا ذلك قبلاً مع السيد هلال ولكنهم أخفقوا ، فكتبوا الآن إلى صالح حرب يرجونه « بما هو معروف عنه من صدق وإسلام وتقدير مسؤوليات واجباته وما يتحلى به من صفات الحزم والكياسة معاً ، أن يتوسط لدى السيد هلال حتى لا يأتي عملاً مناقضاً لسياسة أخيه الأكبر ، فباستطاعة الانجليز أن يقفوا إزاءه مكتوفي الأيدي ، بل قد يجدون أنفسهم منساقين إلى القيام بعمل مقابل يورث السيد هلال الندم طول حياته ، فذهب صالح حرب إلى سيدي براني في ١٩١٥ وقابل مأمورها ، وأبلغه المأمور المصري أن السيد هلال وجماعته قد ظلوا ثلاث ليال متواصلة يهاجمون القسم ويطلقون النار على الضباط المصريين والعساكر السودانيين الذين به فذهب صالح حرب بمفرده لمقابلة السيد هلال ودخل عليه في « حجرة مضيئة الزاوية ، فوجده جالساً ومن حوله بعض مشايخ السنوسية في العتبة وعمد ومشايخ آخرون كانوا في خدمة الحكومة المصرية ثم استغثت هذه عن خدماتهم لسوء إدارتهم ولأسباب أخرى ، وكان السيد هلال يحرض هؤلاء جميعاً على « إعلان الجهاد ، ضد الانجليز فانتظر صالح حرب حتى انفرط عقد المجلس ثم تكلم كلاماً طويلاً مع السيد هلال الذي كان يعتقد على ما يبدو أن نوري وجعفر العسكري إنما يريدان من وراء هذه الحركة إخراج الانجليز من مصر فأظهر له صالح حرب خطأ اعتقاده وأنه إذا كان ذلك صحيحاً فلا جدوى من عمل مثل هذا دون إشراك

السيد أحمد الشريف وموافقته على هذه الحركة ، وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء العربان الملتفين حوله لا يمكن الاعتماد عليهم في شيء ، وأقام صالح حرب البرهان على صدق ما يقول عند ما طلب حضور المشايخ والعمد مرة ثانية وأمرهم بالعودة من حيث أتوا والانقضاء وإلا أوقع بهم أشد العقوبات الصارمة ، فامتطوا جميعا صهوات خيولهم وذهبوا وبقى السيد هلال وحده دون أي نصير ، وعندئذ وافق السيد هلال على الذهاب مع صالح حرب إلى قسم سيدي براني ومنه إلى السلوم حيث كان ينتظرهما سنو بك وأرسل السيد هلال إلى أخيه السيد أحمد الشريف في مساعد (المسيعيد) ، وانتهى تدبير العثمانيين بالفشل .

غير أنه حدث عقب هذه الواقعة أن طلب محمد صالح حرب من سيدي سنو أن يأذن له بمقابلة السيد أحمد الشريف في مساعد ففعل واستطاع محمد صالح حرب مقابلة السيد أحمد الشريف وكان لهذه المقابلة آثار هامة لعدة أسباب . فإن معركة ما دار من أحداث في أثناءها بين الضابط المصري والسيد أحمد الشريف يساعد على معرفة موقف السيد أحمد من مسألة الحرب ضد الانجليز في وقت كانت تنقص قواته وقوات العثمانيين عموما المؤن والذخائر والأسلحة ، ولا يجد السيد أحمد بسبب ذلك أن من الحكمة وأصالة الرأي معاداة الانجليز والاشتباك معهم في حرب لا جدوى منها وخسارتها محققة ، فقد أراد السيد أحمد الشريف أن يعرف حقيقة موقف الانجليز في مصر وسياستهم ونواياهم نحوه وتحدث في هذا الشأن مع محمد صالح حرب بصراحة تامة نظراً للمساعدات التي كان يبذلها لهم محمد صالح حرب وهو نائب لقومندان مرسى مطروح الانجليزي رويال بك والإغضاء عن تهريب المؤن والأسلحة إلى المجاهدين في أثناء الحرب الإيطالية الطرابلسية ، أو قل إذا شئت مساعدة المهربين في عامي ١٩١١ ، ١٩١٢ وعلى ذلك فإنه عند ما استفسر منه محمد صالح حرب عن حقيقة موقفه ، هو ، قال السيد أحمد الشريف : إن الأتراك إنما يريدون أن يورطوه في حرب مع الانجليز قبل أن يستعد لها الاستعداد الكافي ، وأنه لا يمالي الانجليز بحجة فهم أو تقربا منهم ، ولكن مصر هي الباب الوحيد المفتوح الذي تأتيه منه الأرزاق والأقوات التي يستطيع بفضلها متابعة القتال ضد الطليان فإذا قفل هذا الباب تخرج موقفه ، وأنه لم يستدع الأتراك إلى ليبيا إلا ليجلبوا معهم الإمدادات الكافية والتي يكون فيها الغناء عن ذلك الباب المفتوح . ولكن هؤلاء حضروا وليس معهم أية إمدادات أو أرزاق أو مال ومع ذلك فهم يطلبون منه كل يوم القيام بحركة ويلحون في هذا الطلب . مع العلم أن بدء الحركة قبل أن يمين الوقت الملائم لذلك يعود بالشر والوبال على الجميع ، ثم اختتم السيد حديثه بقوله : « وإني أصرح لك بأنه لا سلاح ولا ذخيرة ولا مال ولا أرزاق كافية لدينا أنا ليس في نيتي أن أحارب الانجليز ،

وبعد انتهاء هذه المقابلة طلب نوري باشا مقابلة محمد صالح حرب في «صينوانه» وشكا نوري لصالح حرب تردد السيد أحمد الشريف وامتناعه عن محاربة الانجليز ، مع أن الاتراك - نوري وجعفر العسكري وصحبهما - عند ما حضروا من استانبول بناء على دعوة السيد أحمد الشريف كانت الفكرة على حد قول نوري «أن يقوم السيد أحمد بحركة ضد الانجليز تجذب شطراً من قواتهم إلى الغرب بحيث يسهل على جمال باشا القائد العثماني المرابط في الشام أن يقتحم بجيوشه قناة السويس ويخلص مصر من الانجليز . ولكن السيد أحمد بدلا من ذلك يكتب بيذل الوعود ولا يريد أن يحرك ساكنا» واعترف نوري باشا بأنه صار مرغما بسبب سكون السيد أحمد على تدبير الخطط لفصم العلاقات القائمة بين السيد أحمد الشريف وبين الانجليز . على أنه مما يجدر ذكره أنه كان في أثناء هذه المقابلة مع القائد العثماني أن تبين للضابط المصري عجز القيادة عن إعداد الخطط العسكرية اللازمة لضمان نجاح أية حركات قد يقوم بها العثمانيون والسنوسيون ضد الحدود المصرية فلا القائد العثماني يعرف إذا كان في استطاعته الاعتماد على تموين قواته من جهات العقبة وهي المنطقة المعتدة من السلم إلى ما قبل نخطة فوكة بينما أهل هذه الجهات وهم عربان أولاد على يعتمدون في تموينهم على المؤن التي تأتيهم من داخل القطر المصري ، ولا هو يعرف كذلك إذا كان لدى أولاد على أسلحة كافية وذخائر ويصح الاعتماد على مؤازرتهم للجيش الزاحفة على القطر من جهتهم مع العلم بأنهم ممنوعون قانونا من حمل الأسلحة وليس لديهم سلاح ولا ذخائر .

ومع أنه كان من الواضح أن لا أمل قط في نجاح أية عمليات عسكرية من جانب الاتراك على الحدود المصرية فقد ظل هؤلاء يضغطون على السيد أحمد الشريف لإنهاء علاقاته مع الانجليز ويحكون خيوط المؤامرات لإيقاع النفور والشقاق بين السيد وبين هؤلاء ويضعون السيد أمام الأمر الواقع ، إذا نجحت تدابيرهم ومؤامراتهم على إعلان النضال ضد الانجليز وكان من تدابير نوري وجعفر العسكري بعد فشل حادثة السيد هلال ، ذلك الحادث الذي انتهى بإنسحاب (سيسل سنو) من السلم . أما تفاصيل هذا الحادث فهي كما يؤخذ من روايتي محمد صالح حرب (باشا) والشيخ عبد الرحمن الزقلمى الذي كان بمعسكر السيد أحمد الشريف وقتئذ أن نوري حضر لزيارة السيد أحمد الشريف ذات ليلة وقال له «إن الضابط الانجليزى رويال بك مساعد مفتش الحدود الغربية يأتي ليلا متزيا بزى ، الإخوان ، السنوسيين ويجوس خلال المعسكرات في السلم يجمع أخبارها ، ولذلك يجب على المجاهدين أن يقضوا عليه حتى يقيموا الحججة على الانجليز ويثبتوا عدم إخلاصهم للسيد فوافق السيد أحمد الشريف واختار نوري ضابطين هما أحمد الفلالي وبلقاسم الزتاني للقيام بحراسة المعسكر ليلا والقبض

على الإنجليزى رويال وطلب نورى من السيد أمرا بذلك .

فأمر السيد أحمد كاتبه عبد اللطيف أن يكتب لهم ما يريدون ، فأملى نورى على الكاتب العبارة الآتية على لسان السيد أحمد بعد الديباجة ، هناك خدمة وطنية يملها عليكم نورى باشا فنفذوا ما يأمركم به ، فأخذ نورى صورتين من هذا الخطاب عليهما ختم السيد أحمد الشريف . واستغل ما جاء بهذه الكتب وأصدر أمرا إلى الفلالي بالهجوم على السلوم وأمر آخر إلى بلقاسم الزنتانى بالهجوم على البنية . ويحث نورى وصحبه فى الوقت نفسه عن بعض الجواسيس الذين ينقلون أخبار المعسكر السنوسى إلى الإنجليز حتى عثروا على اثنين منهم رشوهما بمبلغ من الجنهات التركية الذهب نظير أن يبلغا سنو بك أن السيد أحمد الشريف قد اتفق نهائيا مع الأتراك على مهاجمة الإنجليز بعد يومين وأنهم قد استقدموا إلى مساعد الكتاب الموجودة فى بير واعر . وعندما تم إحكام المؤامرة على هذا النحو هاجم نورى وجعفر والضابطان العريان نقطة السلوم المصرية فى أثناء الليل وكان بها الملازم أول محمود لبيب وقوة من الهجانة لمحلوم جميعا إلى المعسكر السنوسى فى مساعد . وعلاوة على ذلك أمر نورى وجعفر المدفعية التركية بأن تقوم بمناورات حول ثكنة العساكر المصريين فوق السلوم على هيئة جيش يقصد الهجوم . فأيقن سنو بك أن الأخبار التى بلغته صحيحة . ولما كان الوفد الإدريسى ما يزال حتى هذا الوقت مقبلا فى مساعد للخبرة والمفاوضة مع السيد أحمد الشريف فقد زال كل شك لدى الإنجليز وأيقنوا تماما أن السيد أحمد الشريف يبنى الغدر بهم فأمر سيسل سنو القوة الموجودة بالسلوم بالانسحاب فورا لمحلمتهم جميعا الطوافة عبد المنعم من السلوم إلى مرسى مطروح وكان معهم سيسل والضابط رويال بك . واستقبلهم محمد صالح حرب وأكد له سنو أنهم لو تأخروا قليلا فى السلوم لاغتالهم الأتراك والسنوسيون جميعا . أما السيد أحمد الشريف فإنه لم يعلم شيئا مما جرى حتى صباح يوم الحادث فاضطرب رحمه الله اضطرابا شديدا وصار يردد : أنا مخالف لنورى ، وبعث برسله على الفور إلى السلوم وعلى رأسهم السيد محمد الشريف الإدريسى وأعضاء الوفد الآخرين لمقابلة سيسل سنو وإبلاغه الحقيقة . غير أن هؤلاء وصلوا بعد خروج الطوافة من الميناء وعبثا صاروا يلوحون لها ويصرخون كى تعود إلى مرسأنا . فتألم السيد أحمد الشريف من تصرف الأتراك ومحاولاتهم المتكررة لقطع العلاقات بينه وبين الإنجليز فى وقت لم يكن يراه السيد أحمد مناسبا لقطعها ، وعندما اشتد الحرج حمد إلى استشارة جماعة من الإخوان السنوسيين فيما يجب عليه صنعه . ولما كان هؤلاء ضالعين مع الأتراك فقد أشاروا عليه بالانضمام إلى العثمانيين فى هذه الحركة لئلا يذاع عن السيد أنه على وفاق مع الإنجليز وأن هؤلاء قد أعطوه مالا ، فاضطر السيد أحمد الشريف إلى العمل بنصيحتهم ، منعا

لهذه الشبهة . وعلاوة على ذلك فقد كان الجيش منحازا إلى جانب نوري . وقر الرأي عندئذ
على السير إلى مرسى مطروح .

ومع ذلك فقد كان يبدو أن انحياز السيد أحمد الشريف إلى جانب الأتراك ومحاربه الإنجليز
أمر لا مفر منه في النهاية ، ولا سيما بعد أن وصل إلى علم السيد بعد انسحاب (سيسل ستو)
أن الإنجليز يمشدون قوة عسكرية كبيرة في مرسى مطروح لقتال السنوسيين وصددهم فسرعان
ما أرسل السيد جعفر العسكري إلى المراكز الأمامية لتهدئة الحالة . غير أن جعفر بك انتهى
هذه الفرصة لكي يتحرش بالقوة الموجودة في (المرسى) . زد على ذلك أن نوري وجماعته
كانوا من ناحية أخرى يطلقون النار على السفن التجارية التي أنت عملة بالمون والسلع إلى
السلام ، هذا بينما كانت جماعات من المحافظة المسلحين تجيء إلى الأراضي المصرية على الدوام -
كما قال الجنرال ما كسويل في إحدى رسائله إلى السيد أحمد ، إما بعلم من السيد أو بغير علم
منه ، فقتلوا معاملة العرب الذين كانوا تحت إدارة محافظ الصحراء الغربية وتأخذ منهم
الضرائب عنوة . وفضلا عن ذلك فإنه بينما كان المجاهدون بقيادة جعفر العسكري ونوري
(باشا) يرحبون بالغواصات الألمانية التي كانت تنزل الأسلحة والجنود بالقرب من بردي
سليمان ، كانوا يطلقون النار على الغواصات الإنجليزية ، بغير سبب ، ثم حدث عندما أغرقت
غواصة ألمانية باحرتين إنجليزيتين قرب السلام ، أن قبض المجاهدون على بعض بحارة الباخرتين
الذين تمكنوا من بلوغ الساحل وأرسلوهم إلى الاعتقال في (زاوية الغريات) البعيدة ،
وكذلك مما أثار شكوك السيد في نوايا الإنجليز أن بعض رجاله ادعوا العثور بين أوراق
(سنوبك) عقب انسحابه من السلام على نص معاهدة كانت مبرمة بين الطليان والإنجليز ،
مع أن الجنرال ما كسويل لم يلبث أن نفي في إحدى رسائله إلى السيد أمر هذه المعاهدة كلية
لسببين : الأول لأنه لم يعمل معاهدة مثل هذه قط ، والثاني لأن سنوبك لم يكن عنده السلطة
لأن يعقد معاهدة كهذه .

غير أن السيد على الرغم من هذا كله كان لا يزال يريد المحافظة على العلاقات الودية مع
الإنجليز ، متمسكا بموقف المساعدة معهم ، وذلك بتبادل المسكيات مع الجنرال ما كسويل
لإظهار صداقته له وإزالة أي أسباب قد تدعو إلى الشك وإثارة سوء التفاهم بينهما ، كما حدث
في مسألة المعاهدة المزعومة مثلا . وكذلك كان الإنجليز من جانبهم يبذلون - كما تقدم - جهداً
جباراً من أجل إرضاء السيد ومنعه من الاندفاع في التعاون مع جعفر ونوري في الإغارة
على الحدود المصرية ، وعرضوا عليه وعوداً سخية إذا هو تمسك بخطة المسالمة . ولكن
حبطت هذه المساعي جميعها من الجانبين معا لأن الإنجليز كانوا يريدون من السيد أن يقيم

البرهان الساطع على ما يمكنه لهم من ود وصداقة ورغبة في المسالمة وذلك كما جاء في كتاب السير جون ما كسويل إلى السيد في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥، بأن يرسل السيد أحمد ، حالا إلى مرسى مطروح الرجال الانجليز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا . وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا وتخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان أى نوري بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاء عظيما ، . إلا أنه لم يكن في استطاعة السيد أن يجيب رغبة الانجليز في إخراج نوري ومانسمان ورجالهما ، وطردهم من برقة ، ، وبخاصة بعد أن تحرش أتباعه ورجاله بالانجليز مرارا - سواء أحدث هذا التحرش على غير علم من السيد أو بعلمه . وقد هدد الجنرال ما كسويل في كتابه هذا أنه إذا أصر السيد على اتخاذ خطة عدائية ، فإنه عندئذ لا يجلب عليه إيطاليا فقط بل وفرنسا وإنجلترا ومصر ويتحمل مسئولية جميع النفوس التي تضيع في هذا السيل ويعرض بلاده للجوع ، إذ تسد عليهم طرق الزاد والمثونة برأ وبحر أو تحصر الشطوط البحرية ، ولكن هذه التهديدات أو النصائح كما شاء السير جون ما كسويل أن يسميها ، بقيت من غير أثر ولم يطرد السيد من البرقة نوري ومانسمان . وأما السبب الثاني في إخفاق مساعي المسالمة من الجانبين فهو أن نوري كان يكثر من الضغط على السيد لإرغامه على الاشتراك في الهجوم على مصر .

ولم تكن العلاقات بين السيد أحمد الشريف ونوري بك على درجة كبيرة من الصفاء في أثناء وجودهما بالسلام ، بل كثر الخلاف بينهما لأن نوري كان يعنى في التحرش بالانجليز ويطلق رجاله النيران على السفن الآتية إلى السلم ، وهي سفن محملة بالأرزاق والمتاجر التي يحتاج إليها السنوسيون حاجة شديدة مما أغضب السيد . زد على ذلك أن نوري أخذ يجفو في معاملته مع السيد لأنه كان لا يرضى عن موقف المسالمة الذي أراد السيد أن يقفه من النزاع على الحدود الغربية بين الأتراك والانجليز ، فأرسل نوري الكتب إلى أخيه (أنور باشا) ، يقول إن السيد لا يريد معاداة الانجليز بل إنه ممالء لهم سرا ، وغير ذلك من الأقاويل ، حتى صار رجال وزارة الحرب العثمانية ، يلزون السيد ويعزون إليه أمورا ، كانت ولاشك غير صحيحة ، مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة ، إلى غير ذلك . ثم جاءت الكتب الكثيرة من أنور باشا إلى السيد تحضه على إجابة رغبات نوري ، وتطلب منه عدم التباطؤ في الهجوم على مصر ، ثم أرسل نوري إلى جانب هذا سعاة إلى مصر يذيعون عن السيد أنه لا يريد الهجوم على هذه البلاد حرصا منه على مودة الانجليز وصداقتهم مع أن العثمانيين - كما قال - كانوا يسعون جهدهم لطرد الانجليز من مصر وأوقفوا نوري لتدبير الحملة على الحدود الغربية لهذه الغاية .

ثم زادت متاعب السيد عندما صارت تأتي إياه الرسل من مصر ذاتها تعاتبه على موقفه هذا، وتبين له ما يحتاج المصريين نحوهم من الظنون بسبب تخلفه عن الزحف ، . وعندئذ قرر السيد أحمد الشريف بسبب ما تقدم جميعه وبعد حادث السلوم خصوصا أن يشترك مع العثمانيين و (الألمان) في الزحف على حدود مصر الغربية . وعندما وصل السيد إلى هذا القرار استدعى نوري بك وخاطبه قائلا ، هو ذا أنا حاضر للسير فلا تقدر أن تقول إن العائق كان مني ، وإنما إذا فشلت هذه الحملة فلا أكون أنا المسئول . ،

وعندئذ أرسل السيد قوة لاحتلال سيوة بقيادة اللواء وصفي باشا الحازمي الطرابلسي فتم له ذلك . وأما السيد نفسه فقد سار بالجيش - وعده أربعة آلاف مقاتل - ومعه نوري قائدا أول وجعفر العسكري قائدا ثانيا ، وغرضهم الهجوم على السلوم ، فأخلى الإنجليز منطقة السلوم ثم (بقى) وتقهقروا داخل الحدود ، وأنذروا في الوقت نفسه القائد العثماني (نوري) بأنه إذا تجاوز بجيشه نقطة سيدي براني إلى الشرق صمدوا له وقامت الحرب .

ولكن نوري لم يأبه بهذا الإنذار بل ظل في تقدمه حتى تجاوز العرب سيدي براني ، وبلغوا في زحفهم زاوية أم الوخم غرب مرسى مطروح ، وعندئذ جهز الإنجليز لقتالهم جيشا بلغ الثلاثين ألفا من مشاة وفرسان إلى جانب عدد كبير من المدافع فقامت بين الفريقين معارك ساهم فيها محمد صالح حرب قومندان مرسى مطروح بنصيب وافر .

ويقول محمد صالح حرب باشا إنه حدث عقب وصول سبيل سنورويال مع القوة المنسحبة من السلوم إلى مرسى مطروح أن منوبك مال بك حتى حضر لمقابلته بالمكتب وأعطاه ساطات الحاكم العسكري في المرسى وطلب إليه إخلاء العزبة من جميع الغرباء والقاطنين بها كالطليان واليونانيين ومن إليهم ثم الاستيلاء على المتاجر الموجودة بها لحساب الجيش بعد تقدير أثمانها وذلك كله تمهيدا لاتخاذ مرسى مطروح مركزا للعمليات العسكرية المنتظرة .

وفي اليوم التالي بدأت تصل النقلات إلى المرسى تحمل الجنود الهنود والسيارات المدرعة وكان في وسط هذه الظروف أن شرع صالح حرب يفكر جديا في الانضمام إلى الجهادين العرب يدفعه إلى ذلك شعوره العميق بالعزة القومية والكرامة الوطنية في وقت كان الإنجليز قد أعلنوا فيه الحماية على مصر منذ بدء الحرب العالمية (الأولى) ، ويدفعه الواجب الوطني إلى إعلان الجهاد ضدهم وبالرغم من أنه كان يتنازع القومندان المصري عامل اليأس في نجاح حركات العثمانيين والسنوسيين لما شهده من تفرق كلمتهم عند زيارة معسكرهم في مساعد وعدم وجود أية مؤن أو ذخائر أو أسلحة لديهم ، إلا أن دافع العاطفة الوطنية كان أشد وأقوى وفضلا عن ذلك فقد اعتمد صالح حرب على تحريك عربان أولاد علي المنتشرين على الحدود

غريبة الشمايلة واستمالتهم إلى الثورة ضد الانجليز أضف إلى هذا أن سنوبك لم يظهر أي
هتاف بمصير القوة المصرية السودانية في سيدي براني وفي بقيق بعد الانسحاب من السلوم
تقد أرسل سنو إلى سيدي براني سيارات مدرعة بقيادة تويدي أحد الضباط الانجليز قبل
الانسحاب ثم علم منه صالح حرب أنه سوف يعود بهذه السيارات إلى مرسى مطروح تاركا
المصريين والسودانيين الموجودين في سيدي براني وشأنهم بدعوى «أن هؤلاء الجند مسلمين
والأتراك والعرب مسلمين في وسعهم جميعا أن يفعلوا ما يشاءون ضد بعضهم بعضا ، هذا مع
العلم بأن العثمانيين كانوا يطلقون النار على هذه القوة المرابطة في سيدي براني على نحو ما تقدم
ذكره وعندما أصر صالح حرب على ضرورة انتظار تويدي في سيدي براني حتى يتم انسحاب
جميع المصريين وينجوا من هجوم العدو عليهم وقتلهم اكتب سنوبك بأن يعد بإرسال تويدي
مرة أخرى إلى سيدي براني بعد عودته بالسيارات المدرعة منها وكان من الواضح أن يتعذر
تحقيق هذا الوعد بعد الانسحاب من السلوم إلى مرسى مطروح فكان من أثر هذه العوامل جميعا
أن قرر صالح حرب في ليلة ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ١٩١٥ الانضمام إلى المجاهدين وإعلان الثورة
ضد الانجليز .

وكانت القوات المصرية الخاضعة للقومندان المصري في ذلك الوقت موزعة بين مرسى
مطروح والسلوم وسيدي براني وقربة (عند واحة سيوة) وكانت قوته في المرسى تتراوح
بين خمس وأربعين وخمسين جنديا عدا أربعة من الضباط و (باشكاتب القسم) تخرج بهم جميعا
وسط السيارات المدرعة وكانوا جميعا ماعدا أحد الضباط فقط يحملون نواياهم ، ولم يشك
الانجليز في أنه كان يعتزم القيام بعملية كشف (أو دورية) بوصفه قومندان المرسى فأفسحوا
له الطريق واتجه صوب السلوم ثم أخذ يمر في طريقه بعمد ومشايخ مرسى مطروح وبعضهم
إليه وعند الفجر وصل الجميع إلى دوار (أو دور) عائلة العاصي من قبيلة (القنيشات) وهناك
جمع صالح حرب الرؤساء والضباط والمشايخ والعمد وخطبهم قائلا : نقف الآن بين معسكرين
أحدهما معسكر الانجليز أعداء الله والوطن الذين رفعوا علينا الحماية والآخر معسكر العرب
والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليناخسوننا ، وقد أقتنى ضميري وواجبي الديني بعدم البقاء
مع الانجليز وقد خرجت في سبيل الجهاد ضدكم فمن كان منكم يحرص على حياته أو نلومه أية
مسئوليات عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح فإني لا أحول بينه وبين العوده إنما على شريطة
أن يترك ما معه من سلاح ومؤونة ، فلم يرغب أحد منهم في العوده بل أبدوا جميعهم تصميمهم
على البقاء إلى جانب رئيسهم « يعيشون معا ويموتون معا » وعاهدوا الرئيس على الجهاد ومن
ذلك بدأت الثورة بصورة علنية واستجاب له عربان قبائل أولاد علي وأمر صالح حرب

يُنشأ أول دور للجهاديين في وادي ماجد على مسافة عشرة كيلو مترات إلى الجنوب الغربي من مرسى مطروح ، وانتشرت الثورة في أنحاء العقبة والعقبة — ويطلق اسم العقبة على المنطقة الممتدة من الحجاج غربى محطة فوكا إلى مريوط ، وكان انتشار الثورة في هذه الجهات مفاجأة للإنجليز لأنه ما كان يخطر ببالهم أن يثور أولاد علي والضباط المصريون عليهم . ثم استأنف محمد صالح حرب سيره صوب الغرب حتى إذا اقترب من سيدى برانى صادف جماعات من المحافظة وهم جنود السنوسيين النظاميون فأطلق هؤلاء النار على صالح حرب والقوة التي معه ظنا منهم أنهم أعداء يقصدون قتلهم ، وقد استطاع المجاهد المصري بعد التفاهم معهم أن يصرف ما وقع من حوادث بعد انسحاب سيسل سنو من السلوم .

فقد خرجت بعض الكتيبات السنوسية من السلوم بقيادة الضباط الأتراك وتحت رئاسة (جعفر) باشا العسكري وزحفت هذه القوات على سيدى برانى واحتلوها ولكن جعفر العسكري ما كان يدري ما يجب عليه أن يفعله بعد الوصول إلى سيدى برانى بينما كانت الفوضى تمد رواقها على معسكره ولا أثر للنظام بين جنوده . وفضلا عن ذلك فإن السيد أحمد الشريف لم يوافق على هذه الحركة ولم يباركها . وعند ما وصلت القوات المصرية إلى سيدى برانى قابلها جعفر العسكري بترحاب عظيم ورجا صالح حرب أن يذهب إلى السلوم عشاء ينجح في التوفيق بين معسكر السنوسيين (السيد أحمد الشريف) ومعسكر الأتراك (نوري باشا) . فقد ظل الخصام قائماً بين المعسكرين وبذا استحال على جعفر العسكري كما قال — أن يتقدم إلى الأمام خطوة واحدة .

وعلى ذلك فقد خرج صالح حرب قاصداً السلوم فزل أولاً في بقبق ووجد بها (طابورين) أو كتيبتين نموذجية ، بقيادة أمين بك وغالب بك من الضباط الأتراك ، وليس معهما د قوت يوم ، ثم تابع صالح حرب سفره إلى السلوم فقبول بحماس عظيم واحتفل المعسكران السنوسى والعثمانى باستقباله احتفالاً كبيراً ووجد المجاهد المصرى فى السلوم الوفد الإدريسى السيد محمد الشريف بن عبد المتعال الإدريسى وأعضاء أسرته فى ضيق وخرج شديدين وأخبره السيد أحمد الشريف بتفاصيل خدعة الأتراك التى أفضت إلى انسحاب سيسل سنو من السلوم . ووجد صالح حرب أن اليأس قد بلغ من العثمانيين حداً بسبب موقف السيد أحمد الشريف منهم جعلهم يحتفظون بقنابل يدوية صغيرة فى جيوبهم استعداداً لنسف المعسكر إذا انقلب السيد عليهم وباءت مشروعاتهم بالفشل . فبذل صالح حرب قصارى جهده لإقناع السيد أحمد بالعدول عن موقفه على أساس أن السيد إذا ظل مصراً على خطته السلبية حبال تلك الحركات

التي يراد بها خلاص مصر من قبضة الانجليز ومساعدة دولة الخلافة في حربها ضد العدو ، فان هذا الموقف السلبي لن يفسر لصالحه إطلاقاً بل سوف يتخذه أعداؤه وسيلة لإلحاق الأذى بسببته في العالم الإسلامي قاطبة ويظهرونه بمظهر الضالع مع الانجليز والطلليان والمالي لهم ضد بلاده . وعلاوة على ذلك فقد أفلت زمام الأمور من يده وصار واجبه الآن يقتضيه إما التقدم وإما الانسحاب إلى الأدوار الخلفية وترك الميدان حراً للعثمانيين يعملون ما بدا لهم على شريطة أن يكون ذلك بمحض إرادته . واستطاع صالح حرب كذلك أن يقنع نوري باشا وصحبه بضرورة الاعتذار للسيد عن حادث السلوم واسترضائه فطيب نوري خاطر السيد وانتهى الخلاف الظاهر بينهما . ولما علم صالح حرب باشا أن العثمانيين يبيتون النية على الفتك بأعضاء الوفد الإدريسي عند انسحابهم من السلوم إلى مصر بعد إخفاق المفاوضات بدعوى أن هؤلاء خونة وتقع عليهم مسئولية تأخير الحركات العسكرية استطاع أن يقنع نوري باشا باستدعاء الكمين الذي كان يترقبهم في طريق عودتهم من السلوم ، وغادر الوفد السلوم بأمان . ثم تركت قوات المجاهدين السلوم قاصدة العقبة ومنها إلى سيدي براني ومن ثم بدأت العمليات العسكرية

وكان أول المعارك الجديدة التي حدثت في وادي ماجد بين المعسكر الذي أقامه صالح حرب في تلك الجهة وبين الانجليز هذه المعركة الشديدة التي فشل في أثنائها سيسل سنو ثم تلا ذلك معركة أخرى في أم الرخم بين طلائع الأتراك والسنوسيين الزاحفة بين الانجليز . وعند اكتمال حشد هذه القوات وقعت معركة وادي ماجد الثانية في ديسمبر ١٩١٥ وقد اشترك في هذه الموقعة والمواقع التالية إلى جانب صالح حرب (باشا) جماعة من الضباط المصريين نذكر منهم اليوزباشي سيد أحمد أفندي أبو شادي والملازم الأول عبد الحميد حمدي والملازم الأول أمين ذهني والملازم الأول محمود لبيب والملازم الأول أحمد سالم والملازم الثاني ابراهيم عوض والملازم الثاني محمود عبد الواحد عدا صولين وضابط بحري هو الملازم الأول أبو زيد مقلد وباشكاتب القسم عثمان أفندي الدرعي . وبعد معركة وادي ماجد الثانية تقدم صالح حرب مع الهجانة والمجاهدين السنوسيين إلى جهة الزرقاء إلى الجنوب الشرقي من مرسى مطروح بينما انسحب جعفر العسكري بالجيش من وادي ماجد ثم طلب إلى صالح حرب أن ينسحب هو الآخر من الزرقاء إلى الشرق وأن يجتمع ببقية القوات في بئر الصريحات . ولما لم يجد الجيش ماء بهذا المكان الأخير انسحبت القوة إلى بئر تونس على أمل العثور بها على ماء ، ولما لم يجدوا بها ماء كذلك ، أشار السيد أحمد الشريف باستسقاء الماء ففتحت أبواب السماء وانهمر المطر مندرازا حتى رويت القوة بأجمعها . وكان لانهمار المطر في ذلك الوقت فائدة أخرى هامة وهي

أن الانجليز الذين كانوا قد صبح عزمهم على مفاجأة المجاهدين بعد انسحابهم من وادي ماجد وجمعوا لهذه لغاية حوالي ثلاثة عشر ألف مقاتل حبط مسعاهم لأسر القوة المحتشدة في بئر تونس بسبب تعذر السير بسياراتهم المدرعة . وعلى ذلك فما كاد الجو يصفو من المطر الذي ظل يتهمر مدة يومين حتى شاهد المجاهدون سيارات الانجليز ومعسكرهم على بعد يسير منهم . وسرعان ما نشبت معركة بئر تونس وكانت حامية الوطيس غير أن المجاهدين كانت تنقصهم المؤن والذخائر فاضطروا إلى التقهقر ، وعندئذ عقد السيد أحمد الشريف مجلسا حريا دعى إليه الضباط الأتراك وعلى رأسهم نوري باشا وجعفر العسكري ، وحضره صالح حرب نائبا عن الضباط المصريين ، وثلاثة من كبار مشايخ السنوسية برئاسة السيد أحمد نفسه لبحث الموقف ، وكان السيد أحمد في غضب ظاهر وأنجى باللائمة على الأتراك الذين تسرعوا في بدء هذه العمليات العسكرية على الرغم من عدم استكمال الاستعدادات اللازمة لها ، الأمر الذي سبب تردد السيد أحمد واعتراضه السابق عليها . وقد اختتم السيد أحمد حديثه بعد أن شرح الحالة وما حدث من تقهقر إلى الورا . بدلا من التقدم إلى الامام والزحف صوب مصر بقوله مخاطبا نوري وجعفر العسكري وزملاءهما ، فما رأيكم وقد أوصلتمونا إلى هذا الحال وظهر أني كنت على هدى وكنتم على ضلال ؟ ، فاقترح نوري وجعفر العسكري اللجوء إلى فكرة حرب العصابات وطلب السيد أحمد إلى صالح حرب أن يدلي برأيه فعارض المجاهد المصري هذه الفكرة معارضة شديدة كما نقد الخطة الاستراتيجية التي سار عليها الأتراك حتى ذلك الوقت نقداً مرأ على أساس أن التقدم من ساحل البحر في أرض مكشوفة يسهل على الانجليز معرفة مواقع قوات المجاهدين وتسيط النار عليها من مدافع سفنهم ، فضلا عن ذلك فإن الأرض صلبة متماسكة تصلح لسير السيارات المدرعة عليها واستخدام قوات الفرسان الكبيرة كما تصلح لنقل المشاة على العربات من مكان آخر ، هذا علاوة على أن القرب من الساحل يمكن الانجليز من إنزال أية نجدات أو إمدادات يشاءونها من سفنهم إلى البر بسهولة بصورة يستطيعون معها أن يقطعوا خط الرجعة على المجاهدين . وذلك كله في وقت لم يكن فيه لدى المجاهدين من وسائل النقل سوى جمل واحد لكل ثمانية أنفار وتنقصهم الأرزاق والمؤن ولا سبيل لحمايتهم مواصلاتهم . وعلاوة على ما تقدم فإن الإقدام على حرب العصابات في منطقة العقبة والعقبة كما يريد نوري وجعفر العسكري خرق في الرأي ما في ذلك شك إذ البلاد في هذه الجهات منبسطة كالصف لا يوجد بها غابات ولا جبال ولا قرى تستطيع العصابات أن تلجأ إليها وتعتم بها ، ومن الهين على الانجليز أن يكشفوا مواقعها . وكان من رأى صالح حرب للخلاص من هذا المأزق أن ينتقل المجاهدون إلى الجنوب ويحتلوا الواحات وهي المكان الذي يصلح لتنظيم حرب العصابات ولكن نوري وجعفر أصرا على عدم الابتعاد عن الإسكندرية

والبحيرة ، والمضى في خطتها القديمة . وعند ذلك رأى السيد أحمد الشريف إرضاء للأتراك من ناحية ولأنه تبين الصواب فيما ذكره صالح حرب من ناحية أخرى أن تنقسم القوة فريقين فريق يذهب إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات وكان يتألف من حوالي خمسمائة وثلاثة آلاف جندي والفريق الآخر وعدده ستة آلاف جندي تقريباً يبقى في الشمال وعهد بقيادة الجناح الجنوبي إلى محمد صالح حرب بينما تولى جعفر العسكري قيادة الجناح الشمالي ، وبقي نوري باشا قائداً عاماً على الجناحين على أن يظل مع جعفر باشا العسكري في الشمال وينتقل السيد أحمد الشريف إلى الجنوب فلم يسع نوري وجعفر سوى الإذعان . ثم منح السيد أحمد بماله من الحق كقائد الخليفة الأعظم رتبة اللواء الفخرية لصالح حرب باشا . ثم انسحبت قوة نوري وجعفر من بئر تونس قاصدة بئر الكلاب بينما تحركت قوة صالح حرب والسيد أحمد الشريف قاصدة سيوة .

وحدث عند بئر الكلاب أن فاجأ الإنجليز قوات نوري وجعفر العسكري ودارت بين الفريقين معركة شديدة عرفت باسم معركة العقاقير شرق سيدي براني في فبراير سنة ١٩١٦ ، وكان الإنجليز بعد أن تقهقر المجاهدون من بئر تونس قد صح عزمهم على الاشتباك معهم في معركة فاصلة فكان لهم ما أرادوا وجرح جعفر العسكري في هذه المعركة وأفلت نوري من أيديهم بأعجوبة بعد أن أبلى هو وضباطه والجيش بلاء حسناً . وقد حضر هذه الواقعة مجاهد مصري شاب هو الأستاذ عبد الرحمن عزام وكان قد وصل بعد اجتيازه الحدود المصرية إلى معسكر المجاهدين عقب واقعة بئر تونس وبقي مع فريق نوري وجعفر العسكري لحضر معركة العقاقير . وكان من أثر هذه المعركة الفاصلة أن تشتت شمل القوات الشمالية تماماً واستطاع الإنجليز مطاردة فلول الجيش . وتعقبتهم السيارات المدرعة متوغلة في برقة إلى ما وراء بئر واعر واضطرت بقايا قوات نوري باشا إلى الالتجاء أخيراً إلى العقيلة فعسكروا بها أما الإنجليز فدخلوا السلوم في ٢٤ مارس ١٩١٦ واستولوا على معسكر السنوسيين والمجاهدين بها .

غير أن الإنجليز على الرغم من انتصاراتهم ظلوا يعللون النفس بإمكان الوصول إلى تسوية سلمية مع السيد أحمد الشريف رغبة منهم في تضيق دائرة الحرب وتوفير الجهود حتى يتسنى لهم مقابلة أعدائهم في ميادين أخرى كانت أشد خطراً وأعظم أهمية . وعلى ذلك فقد استمرت المكاتبات بينهم وبين السيد أحمد الشريف بقدر ما سمحت الظروف وقتئذ فأعاد السير جون ماكسويل قائد الجيش البريطاني العام في هذه الجهة القول على السيد أحمد في ٨ مارس ١٩١٦ أي بعد معركة العقاقير بأيام قليلة يعرض عليه الشروط التي رأى أنها يمكنه البدء بالمفاوضة على أساسها من أجل إنهاء الحرب وعقد الصلح معه ، وكان السير جون

ما كسويل قد أبلغ السيد أحمد الشريف هذه الشروط ذاتها منذ يناير ١٩١٦ ، وأما هذه الشروط فكانت تنحصر في أن يسلم المجاهدون جميع الأسرى من البريطانيين أو الهنود أو الأوربيين الذين وقعوا في قبضتهم ثم إبعاد جميع الأتراك والألمان الذين كانوا في معسكر السيد أحمد الشريف أو تسليمهم إلى الانجليز كأسرى حرب إذا تعذر على السيد أحمد إبعادهم كما كان على السيد أحمد أن يخرج رجاله المسلحين من الأراضى المصرية وأن يتعهد في الوقت نفسه بمنع دخول هؤلاء إليها وإلا عوملوا معاملة الأعداء ، حيثما وجدوا ، وأخيرا طلب من السيد أحمد وأعوانه أن يجلوأ جلاء تاما عن سيوة والسلوم والجهات الواقعة إلى الشرق منها وأن يقيموا السلام في جنجوب . ولكن هذه العروض لم تلق اهتماما من السيد أحمد .

ذلك بأن السيد بعد موقعة بئر تونس كان في طريقه إلى سيوة لمواصلة النضال في الجنوب . وعلاوة على ذلك فقد كان رحمه الله يعقد آمالا عظيمة على نجاح حركة على دينار وثورة دارفور ، وكان على دينار قد شق عصا الطاعة على حكومة السودان في ذلك الوقت واشتبك مع قوات الحكومة في مناوشات ومعارك عدة . أضف إلى هذا أن السيد كان يؤمل خيرا من قيام العمليات العسكرية على الحدود المصرية في الصعيد بيد أن ثورة على دينار سرعان ما قضى عليها في مايو ١٩١٦ . ثم لقي على دينار نفسه حتفه في نوفمبر من تلك السنة وذلك في أثناء العمليات العسكرية التي استمرت على الحدود الغربية طيلة عام ١٩١٦ وأوائل العام التالي أيضا .

وقد استطاعت قوة محمد صالح حرب الوصول بسلام إلى سيوه وكانت تتألف من حوالي خمسمائة وثلاثة آلاف جندي كما تقدم ذكره وبعض الضباط الأتراك وهم نديم وعبد القادر من المشاة وفوزى مع مدافع الماكينة وضياء مع الطوبجية ثم الضباط المصريون ابراهيم عوض ومحمود عبد الواحد ومحمود لبيب وأمين ذهني والصول عبد الله والباشكاتب عثمان الدرعي والدكتور السيد دسوقي . ثم نزلت القوة من سيوه إلى الواحات البحرية والفرافرة والداخلة وانضم إليها جميع من كانوا بهذه الواحات من الموظفين المصريين ومن بين هؤلاء الدكتور محمد عبد الله ومن ضباط البوليس عبد القادر طراف من البحرية ثم مأمور هذه الواحة ومأمور الداخلة . واستمرت حرب العصابات ضد الانجليز طول عام ١٩١٦ وأوائل العام التالي . وأنشأ الانجليز في الواحات الخارجة معسكرا يرسلون منه الطائرات على العصابات بينما ظلت هذه العصابات تشن الغارة عليهم في الواحات الخارجة من حين لآخر . وترك صالح حرب قوة قليلة في واحة سيوه لملاحظة الأمن والسهر على حماية هذه الواحة كما ترك قوة أخرى لهذا الغرض في كل من واحة البحرية والفرافرة ، وأنشأ معسكرا في قرية فنيذة من قرى الواحات الداخلة وأقامت القوة الرئيسية في الداخلة ثم بدأ صالح حرب مفاوضات مع

مشايخ العرب من الصعيد في المنيا وأسيوط والفيوم . ولكن لم تلبث أن جاءت ردودهم غير مشجعة على إرسال العصابات إلى بلدان الصعيد وكان أمث ما يخشاه رئيس هذه القوات (صالح حرب) أن تترك العصابات في الصعيد على غير رغبة هؤلاء المشايخ فلا تجد المأوى والأرزاق وتضطر إلى النهب والسلب ويقع الاصطدام بينها وبين الأهالي . ولكنه استطاع أن يمنع نزولها على الرغم مما كان يقاسيه أفرادها من شظف العيش حتى أنهم باتوا لا يجدون ما يرتدون أو ينتعلون . وصاروا يعيشون على التمر وحده عدة شهور واستمرت أعمال العصابات مقصورة على مهاجمة معسكر الانجليز في الخارجة والاشتيك مع دورياتهم بينما ظل هؤلاء يلقون قنابلهم من الطائرات على العصابات ومراكز المجاهدين . وأفلح صالح حرب في الغرض الذي سعى إليه من هذه الحركة وهي احتجاز قوات انجليزية كبيرة على الحدود الغربية وفي القطر المصري كان الانجليز في أشد الحاجة إلى استخدامها في حملة الدردنيل المشهورة .

واضطر الانجليز آخر الأمر إلى وضع خطة عسكرية كبيرة الغرض منها القضاء على حرب العصابات قضاء مبرما ، وقوام هذه الخطة أن يجتمع حشد كبير من الانجليز في الواحات الخارجة ، يشن هجوما عنيفا على المجاهدين في الواحات الداخلة . بينما تجتمع قوات انجليزية أخرى عند عزو الرماك الواقعة إلى الغرب من الفيوم مهمتها الهجوم على الواحات البحرية ثم تجتمع قوة ثالثة من السيارات المدرعة في الحفرة قرب منخفض القطارة حتى تقطع خط الرجعة على المجاهدين . ولما كان معنى ذلك إذا نجحت خطط الانجليز الإحاطة التامة بعصابات المجاهدين ومركزهم العام في الواحات الداخلة ، فقد بات من الضروري الانسحاب من الداخلة إلى الغرب جنوب سيوة والجغبوب . ولا سيما قد وصلت الأخبار إلى الداخلة منبئة بفشل حركات الشرق وإخفاق جيش جمال باشا في اقتحام قنال السويس ، هذا فضلا عن أن الانجليز استطاعوا أن يكشفوا مركز المجاهدين بواسطة طائراتهم وجلبوا الإمدادات العظيمة للإحاطة بقوتهم وتحطيمها ، ولذا فلم يعد من الحكمة بقاء العصابات في الداخلة فاستقر الرأي على الانسحاب بعد أن شغلوا الانجليز مدة طويلة . وفي هذه الأثناء وصل السيد احمد الشريف من الجغبوب وسيوه في أواخر ١٩١٦ فقامت الاستعدادات على قدم وساق لإتمام الانسحاب من الداخلة بكل سرعة . وكان الانسحاب مهمة عسيرة شاقة لأنه كان من الضروري قبل كل شيء أن يتم الانسحاب دون علم العدو حتى لا يقوم بهجوم على الجيش المنسحب ، ثم كانت هناك مشكلة النقل العويصة ذلك أنه لم يبق لدى جيش صالح حرب سوى عشرين ومائة جمل فقط من حوالى الثمانمائة جمل عنده حوّلهم إلى الواحات . هذا فضلا عن أن ثمانين في المائة من الجنود كانوا مرضى بحمى الملاريا وكان أيضا ينقص الجيش الأوعية اللازمة لنقل الماء . ولكن سرعان ما تغلب قائد الجيش على هذه الصعوبات جميعا فتحركت الحملة بسلام من

الواحات الداخلة إلى الواحات البحرية بعد أن أدخل المجاهدون في روع الإنجليز أنهم يريدون تركيز قواتهم في الواحات البحرية لمهاجمتهم في الفيوم (عزو الرماك) من هذه الواحات وجيز صالح حرب مفرزة صغيرة بعث بها لتقوم بحركة (كشف تعرضية) شرقي عزو الرماك حتى يتوهم الإنجليز أنها مقدمة لهجوم عام على مرا كزهم . فاحتلت المفرزة عزو الرماك وأطلقت النيران على القوات الإنجليزية واعتقد الإنجليز أن المجاهدين على وشك القيام بهجوم عام ضدهم فأخذوا يجمعون قواتهم وانهز صالح حرب هذه الفرصة فأمر بانسحاب الحملة من الواحات البحرية ثم انسحبت المفرزة من عزو الرماك وتابع الجميع سيرهم صوب الغرب . ولما تبين للإنجليز أمر هذه الخدعة جاءت سياراتهم المدرعة تتمقب جيش الحملة ولكن المجاهدين كانوا قد استطاعوا الاعتصام بالفرد (وهي الجبال الرملية) فتعذر على السيارات أن تسير في أثرهم ووصلت الحملة في أمان إلى سيوه . وكان أول ما عني به رئيس الحملة عند وصوله إلى سيوه إرسال التمر إلى الجغبوب لتكوين الجيش عند وصوله إليها . ولما لم يكن لدى الحملة عدد كاف من الجمال لنقل التمر إلى الجغبوب فقد اضطر الجيش إلى الانتظار في سيوه مدة شهر تقريبا . ومع ذلك فقد استطاع صالح حرب أن يرسل أكثر المجاهدين إلى جغبوب حتى أنه لم يبق لديه سوى كتيبة (الحافظية) وهم حملة القرآن الكريم وحرس السيد أحمد الشريف الخاص وكتيبة أخرى من الحاسة وثالثة من العبيدات ومدفعين من طراز (مانتل) القديم ومدفعي ماكينة بقيادة الضابط فوزي وطوبجية مدفعين بقيادة ضياء وبلوك واحد من الزنوج السنوسيين واستقرت هذه القوة الصغيرة في قرية وكانت تتألف من حوالي المائتين أو الثلاثمائة مقاتل .

وكان في أثناء اهتمام المجاهدين بإرسال التمر وقواتهم المحاربة إلى جغبوب أن استطاع الإنجليز من ناحيتهم إتمام استعداداتهم العسكرية في مرسي مطروح ، فقاموا بهجوم مفاجيء على مراكز المجاهدين في قرية ونشبت معركة حامية بين الفريقين وكان صالح حرب يتولى قيادة المجاهدين وقد أبدى مهارة فائقة في تعطيل حركات العدو ومناوراته العسكرية ، ولما كان مع الإنجليز ثلاثمائة سيارة منها ست وعشرون سيارة مدرعة فقد رأى قائد المجاهدين أن من الحكمة أن ينسحب أمام تفوق الإنجليز في الرجال والأسلحة وأشار على السيد أحمد الشريف بالانسحاب من حطية أم عشا ، ثم تمكن صالح من الانسحاب هو الآخر بمدافعه وذخيرته وقوته بإسلام إلى أم عشا ثم تابع الجميع سيرهم حتى وصلوا إلى (المناصب) حيث وجدوا العدو الذي أخذ يتعقبهم يسد عليهم الطريق بسياراته في السهل . غير أن عجز السيارات عن الصعود على الفرد وهي التلال الرملية المنحدرة حتى اتخذ المجاهدون أما كنهم ما لبث أن فوت على العدو غايته ، ووصل المجاهدون إلى قرية (حطية) الشهباء ومنها إلى الجغبوب فدخلوها بإسلام في أوائل عام ١٩١٧ .

ويقول محمد صالح حرب (باشا) : وقد أقمنا في الجغبوب أسبوعا واحدا ثم جاءنا
طلب من السيد محمد إدريس السنوسي وهو بمكرمة مضمونة ، أنه جاءه إنذار من الانجليز
ولون فيه إنه إذا لم يبرح السيد أحمد الشريف ومحمد صالح حرب جغبوب في خلال أيام
لودة فإنهم سيضطرون إلى تدمير جغبوب وتحطيم مقام السيد محمد بن علي السنوسي المشيد
، وأنهم - أي الانجليز - احتراماً منهم لقداسة هذه البقعة رأوا أن يوسطوا السيد محمد
ريس حتى يمنع هذه الكارثة الخطيرة التي سترتب على وجود السيد أحمد الشريف ومحمد
صالح حرب بالجغبوب وذلك بأن يعمل على ترحيل قوات المجاهدين منها ، وأحدثت هذه
رسالة في نفس السيد أحمد الشريف قلقاً شديداً لأنه خشى أن يتفد الانجليز عزمهم فيدمرون
مقبة ، وعلاوة على ذلك فإن السيد أحمد لم يشأ أن يعطل بوجوده في الجغبوب اتفاقات
اصلح بين السيد محمد إدريس وبين الانجليز والطلبان فقرر مغادرة الجغبوب إلى واحات جالو
أوجله على الرغم من طول المسافة ومشقات السير وانعدام وسائل النقل الكافية لحمل
لمجاهدين ويبلغون حوالي الأربعة آلاف وحمل الماء اللازم لسقايتهم في أثناء هذه الرحلة
المرهقة . ولم يشأ السيد أحمد أن يسمع لرأي صالح حرب وكان قد غدا (فريقاً) وقائداً عاما
لجيشه بعد معارك سيوه ، وفضل الانسحاب من جغبوب وعدم تعريض مقام جده لخطر
التدمير على الاشتباك مع الانجليز في معركة أخيرة فاصلة . وعند وصول المجاهدين إلى
حطية الفريدغه جاءتهم رسالة أخرى من السيد محمد إدريس يختم فيها على ضرورة الإسراع
بالانسحاب فرجع كثيرون من المجاهدين إلى مظاعنهم في دقنه والجبل الأخضر واستأنف
الباقون السير حتى وصلوا إلى (الخط) ثم إلى واحه أوجله ثم إلى زلة فسكثوا بزلة مدة شهر
تقريباً كانوا في أثناءها موضع عناية أهلها الذين أكرموا المجاهدين اكراما كبيرا ثم ارتحلوا
منها إلى واحه مراده ثم إلى الجفرة فقابلهم الشيخ سيف النصر من أولاد (أبو سيف) حاكم
هذه المنطقة . وكان أولاد أبي سيف هؤلاء من العرب الشجعان حاربت قبائلهم الطليحان
ودفعتهم عن هذه البلاد وكان من الواضح أنه لم يكن هناك أي انسجام بينهم وبين الأتراك
فضلا عما كان بينهم وبين رمضان السويحلي صاحب مصراته من عداة مستحكم بسبب حادث
السيد صني الدين خاصة ، وعلى ذلك فإن وجود المجاهدين مع السيد أحمد الشريف ومحمد
صالح حرب في هذه المنطقة ما لبث أن ألقى السويحلي وانتقلت عدوى هذا اللق إلى نوري
باشا الذي بعث من مصراته يطلب إلى صالح حرب أن يبدل ما وسعه من جهد وحيلة لإقناع
السيد أحمد الشريف بأن ينزل بقوته إلى ساحل البحر في جهة نرت أو سلطان لمحاربة الطليحان
لإزالة ما يسببه وجوده في جنوب الوادي من قلق عظيم لدى أهل مصراته . ولما كان السيد

أحمد الشريف قد عقد النية على التوجه الى الفزان ثم إلى السودان الغربي إذا لزم الحال فقد لقي صالح حرب صعوبات عدة في إقناع السيد أحمد ولكن تغلب عليها ، فنزل الجميع إلى الشمال ووصلوا إلى سلطان وعسكروا في جهة العقيلة وعمد صالح حرب قبل القيام من الجفرة إلى إرسال كتاب مع الطيب المصري سيد دسوقي إلى نوري باشا أوضح له فيه عزمهم على النزول إلى الشمال وشرح له سوء حال المجاهدين وحاجتهم الملحة إلى السلاح والذخيرة والملابس والمال حتى يتمكنوا من قتال الطليان ، أما المجاهدون فقد عسكروا في العقيلة حتى بدأوا ينظمون سراياهم لمناوشة الطليان ، ثم أرسل صالح حرب أحد الضباط المصريين وهو عبد القادر طراف ومعه جماعة قليلة من الضباط العرب حتى يأتوا بالقافلة التي أزمع نوري باشا إرسالها من مصراته محملة بالموث والأسلحة لتجدة المجاهدين إثر وصول الدكتور سيد دسوقي برسالة صالح حرب إليه . فعلا قامت القافلة المرتقبة وكان على رأسها سيد دسوقي وعبد القادر طراف مع بعض الجند المهجانة المصريين والمجاهدين العرب ولكن لم تكد هذه القافلة تتعد عن مصراته بمرحلة واحدة فقط حتى فاجأهم كمين أعده رمضان شتيوى فأوقعوا بهم مقتلة عظيمة غدرا وخيانة وهم رقود فاغتالوهم عن آخرهم . ويقول صالح حرب باشا : وهنا كاد يفلت من يدي زمام القوات الموجودة معي لأن المجاهدين أصروا على مهاجمة مصراته اقتصاصا من هؤلاء على فعلتهم الشنيعة ولو أدى هذا العمل إلى هلاك المجاهدين جميعا . وقد استطاع السيد أحمد الشريف بفضل ما كان يتمتع به دائما من نفوذ عظيم على المجاهدين ويعاونه صالح حرب بعد جهود شاقة مضية أن يصل إلى تهدئة النفوس الثائرة ، ولو أن هذا لم يحل دون تسلل بعض المجاهدين في صورة عصابات مسلحة للانتقام من مصراته ، وقامى المجاهدون في سلطان والعقيلة عنتا وإرهاقا عظيمين بسبب عدم وصول القافلة ففضوا حوالى سبعة عشر يوما يقتاتون بالعشب فحسب حتى انكشفت هذه الغمة أخيرا عندما أرسل السيد محمد إدريس وبعض الرؤساء المخلصين في بني غازى الأرزاق والأقوات إليهم . وذهب صالح حرب من العقيلة إلى مصراته للوصول إلى رأى في مسألة إمداد معسكرات المجاهدين بالموث والأسلحة اللازمة فقابل هناك الأمير عثمان فؤاد وعبد الرحمن عزام ورمضان شتيوى ثم عماد أدرجه إلى العقيلة . وبقى السيد أحمد الشريف في العقيلة حتى أغسطس ١٩١٨ ، وعندئذ وصلت السيد أحمد دعوة من استانبول لحضور حفلة تتويج السلطان الجديد محمد وحيد الدين (السادس) وتقليده السيف . فعاد السيد أحمد الشريف ومعه محمد صالح حرب طرابلس على نفس الفواصة الألمانية التي أحضرت هذه الدعوة . غير أنه قبل مغادرة السيد أحمد الشريف الأقطار الليبية بمدة طويلة كانت زعامة المجاهدين في ليبيا قد انتقلت إلى السيد إدريس السنوسى .

الفضل الثامن

الزعامة الجديدة

السيد محمد إدريس المهدي السنوسي

السيد محمد إدريس المهدي هو ابن خليفة السنوسيين الأول السيد المهدي وحفيد مؤسس السنوسية السيد محمد بن علي السنوسي الكبير ولد أعزه الله بزاوية الجغبوب في العشرين من شهر رجب في عام ١٣٠٧ (الموافق ١٢ مارس ١٨٩٠) ، نشأ في رعاية أبويه حتى إذا توفيت والدته الكريمة والسيد ما يزال في دور الطفولة احتضنته جدته لوالدته وعنى والده بتنشئته تنشئة صالحة طيبة فبدأ يحفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة على والده السيد محمد المهدي وكان هذا في الكفرة لأن السيد محمد المهدي كان قد نقل مكان إقامته في الجغبوب إلى هذه الواحة البعيدة بعد مولد ابنه بأربع سنوات تقريبا (١٨٩٤) .

وظل السيد محمد إدريس يحفظ على أبيه أي الذكر الحكيم مدة أوفده والده بعدها لتلقى العلم على أيدي شيخ عرف بالصلاح والتقوى مع أخيه السيد محمد الرضا وابناء عمه أبناء السيد محمد الشريف ثم حدث أن توفي السيد محمد المهدي (في أول يونية ١٩٠٢) فكفله ابن عمه السيد أحمد الشريف ولما كان السيد أحمد الشريف كبير الأسرة في ذلك الحين بعد وفاة عمه فقد تولى زعامة السنوسيين وصيا على السيد محمد إدريس أكبر أبناء السيد محمد المهدي وخليفته الشرعي وابتطاع السيد إدريس التفرغ لطلب العلم فحضر على عدد من أفاضل العلماء اشتهر من بينهم السيد العربي الفاسي والسيد أحمد أبي سيف والسيد العربي الفهاري والسيد حسين السنوسي (وكان شيخا لزاوية الجغبوب في المدة الأخيرة) ولما كان السيد أحمد الشريف ابن عم السيد إدريس عالما جليلا فقد حضر السيد إدريس عليه دروسا متنوعة كما حضر على السيد أحمد الريفي أستاذ ومرشد السيد أحمد الشريف نفسه فحصل السيد إدريس بفضل ذلك كله شيئا كثيرا وأتقن القراءات وعلوم الحديث كما أتقن البخاري ومسلم ومسند أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أبي حنيفة والإمام أحمد وكتاب الأم للشافعي وغير ذلك من كتب الفقه والحديث والتفسير واللغة ، فضلا عن ذلك فقد درس السيد علوم التاريخ وتقويم البلدان ووفق أعزه الله في دراسته لحصل على إجازات عدة

وانتهى دور التحصيل والسيد يبلغ العشرين ربيعا تقريبا ، وكان ذلك في عام ١٣٢٧ هجرية (١٩٠٩ ميلادية) .

ولما كان السيد أحمد الشريف لا يزال يتولى زعامة السنوسية ويقود الجهاد في السودان الغربي ضد الفرنسيين لم يشأ السيد إدريس أن يطلب إلى ابن عمه أن يتخلى عن الزعامة لصالحها الشرعي وفاء منه للسيد أحمد الشريف الذي كفله بعد وفاة أبيه والذي كان يحمل في نفسه إجلالا وتعظيما لعمه السيد المهدي والد السيد إدريس ويتخذة قدوة صالحة يقتدى بها كما أن السيد إدريس من جانبه كان يكن له الحب والاحترام ويبجله لكبر سنه ويحرص على شعوره حرصا جميلا ، فرضى لذلك كله بأن يظل السيد أحمد الشريف في زعامته . وتجلى حرص السيد إدريس على جمع كلبة المسلمين ولم الشمل وعدم التفرقة عند ما تأزمت الأمور وقت أن بدأ الطليان اعتداءهم الممقوت على القطر الليبي ورأى فريق كثير من الإخوان - وهم الأعضاء العاملون في الطائفة - أن ينحوا السيد أحمد الشريف عن الزعامة وعرضوا على السيد محمد إدريس أن يتولى منصب الزعامة حقا موروثا (١٩١١) ، فقد رفض السيد إدريس عروضهم وجمع بذلك كلبة المجاهدين . وأبلى المجاهدون في الحرب بلاء عظيمًا على الرغم من أن الطليان - كما سبق ذكر ذلك - استطاعوا احتلال المدن الساحلية ، حتى إذا سقطت بنغازي في أيديهم في أكتوبر ١٩١١ استقر رأى الإخوان السنوسيين بعد التشاور فيما ينبغي اتخاذه من إجراءات تكفل تنظيم المقاومة الجدية في داخل البلاد على أن يذهب السيد أحمد الشريف إلى الجغبوب بينما يبقى السيد محمد إدريس بواحة الكفرة يقوم على تصريف شئونها العامة مكان ابن عمه السيد أحمد الشريف . وكان السيد أحمد لا يزال بالجغبوب عند ما قبل العثمانيون صلح أوشى مع الطليان وتقرر عقب ذلك استئناف الجهاد ضد الإيطاليين ، وعندئذ طلب السيد أحمد إلى ابن عمه السيد إدريس الحضور إلى الجغبوب على أن يستخلف في الكفرة بدلا منه السيد محمد عابد من إخوة السيد أحمد ، فكان ذلك .

وفي أوائل عام ١٣٣٢ هجرية (وأواخر ١٩١٣ ميلادية) رغب السيد إدريس في أداء فريضة الحج ، واعتزم السفر عن طريق مصر ، فقبول في كل مكان حل به بترحاب عظيم ، وكرمه الحكومة الحديوية المصرية تكريما بالغا ، فأرسل المرحوم عباس باشا حلي الثاني (آخر الحديويين) قطارا خاصا ينقل السيد من الضبعة إلى سراي رأس التين . ونزل السيد في ضيافة الحكومة المصرية بسراي رأس التين تسعة أيام استأنف بعدها السفر إلى بور سعيد في ١٤ يونية ١٩١٤ في قطار خاص ثم استقل باخرة إلى حيفا ، وكان انتقال السيد إلى حيفا في هذه الباخرة على نفقة الحكومة المصرية مبالغة في إعزازه وتكريمه ،

وخصص لنقل السيد إلى الحجاز بأمر أنور باشا الصالون الخاص الذي استخدم في نقل الخديو السابق في حجه ، وبمجرد أن وصل إلى المدينة المنورة أقيم لاستقباله حفل رسمي ثم تابع السيد سفره إلى مكة المكرمة وقوبل خارجها بالمكان الذي به مقام عبد الله بن عمر رضى الله عنهما بكل إعزاز وتبجيل ، ثم تكررت مظاهر الحفاوة عند وصول السيد إلى الطائف . وقد أقام السيد بالطائف مدة شهر رمضان ثم أدى فريضة الحج ورجع بعد ذلك إلى المدينة المنورة فأدى الزيارة ومكث بها مدة شهرين . ولما كانت نار الحرب العالمية الأولى قد اندلعت ههنا والسيد ما يزال بالطائف (شهر أغسطس ١٩١٤) . فقد قرر السيد العودة إلى أرض الوطن ، فغادر الحجاز إلى فلسطين على أمل أن يتمكن من العودة إلى بلاده بطريق البحر ماراً بالديار المصرية ، فوجد سفينة من سفن الشركة الإيطالية على أهبة السفر إلى بورسعيد فتزى السيد بزى حاج مغربي واستقل هذه السفينة مع جماعة كبيرة من صحبه إلى بورسعيد . وعند وصوله إلى بورسعيد وجد الخديو قد أقصى عن العرش وأعلنت مصر سلطنة يتبوأ عرشها المغفور له السلطان حسين كامل تحت الحماية الإنجليزية ، وينوب عن ملك الانجليز في مصر السير هنرى مكاهون ويتولى منصب القائد العالم السير جون ما كسويل . فاستأذن السيد الحكومة المصرية في النزول ونقله قطار خاص إلى القاهرة حيث جرى استقباله بها رسمياً ومكث في ضيافة السلطان حسين كامل بضعة أيام غادر بعدها القاهرة ، ثم ركب البحر إلى بلاده فبلغ السلوم في وقت كان فيه السيد أحمد الشريف قد انتقل إلى هذه الجهات بجيشه فنزل السيد عنده ومكث معه حوالي تسعة شهور يشهد عن كسب مجريات الأمور (فبراير - نوفمبر ١٩١٥) .

وكان في أثناء وجود السيد بالسلوم أن حضر (نوري) و (مانسان) إلى بردى سليمان . وتمت مقابلاتهما الأولى مع السيد أحمد الشريف في المسيعيد (أو مساعد) وذلك لتدبير أمر الهجوم على مصر في ظروف سبق بيانها ، كما حدث في هذه الآونة كذلك أن حضر السيد محمد الشريف الإدريسي ونجله الأكبر السيد محمد مرغني إلى المسيعيد لمقابلة السيد أحمد الشريف والتوسط في إقناعه بتجنب مقاتلة الانجليز . وقد سبقت الإشارة إلى آراء السيد محمد إدريس القاطعة في عدم استعداد الانجليز ضد السنوسيين وهم في جهادهم المرير مع الطليان وتجنب الهجوم على مصر حتى لا تقفل الطرق التي تأتي منها المؤن والمساعدات إلى المجاهدين . ومن الثابت أن السيد محمد إدريس كان لا ينفك يكرر النصيح للسيد أحمد حتى لا ينساق في أعمال عدائية مع الأتراك ضد الانجليز لما يسيبه ذلك من أضرار جسيمة تلحق بالأقطار اللبية لا محالة ، كما أن السيد لم يكتف عن الوفد الإدريسي رأيه وكان رأياً معروفاً مشهوراً .

ولكن السيد أحمد الشريف لم يأخذ بنصيحة ابن عمه بل قرر في الظروف التي تقدم بيانها الزحف على حدود مصر الغربية ، فكانت تلك الوقائع التي أفضت في النهاية إلى انسحاب السيد أحمد الشريف إلى واحة الجغبوب والتحصن بها .

وأمام انسياق السيد أحمد الشريف إلى التورط في الحرب مع نوري ومانسان وأعوانهما ضد الانجليز وإغفال نصيحة ابن عمه السيد إدريس لم يعد هناك مسوغ لبقاء السيد بالمسيعيد فانتقل إلى الجبل الأخضر . ومن رأى بعض الكتاب أن انتقال السيد إدريس من المسيعيد كان يحمل معنى الاحتجاج على إشراك المجاهدين في النضال الجديد وإغفال نصيحته . بيد أن السبب الأهم لانتقال السيد وقتذاك أن السيد أحمد الشريف عند ما قرر الاشتراك مع نوري ومانسان في الهجوم على الحدود المصرية الغربية رأى أن يرتب شئون الإدارة في برقة حتى يتفرغ هو للجهاد فقسم رحمه الله القطر البرقاوى الى مناطق ، وجعل السيد إدريس على منطقة برقة ومركزه في اجداية على أن يكون تحت إشرافه في دفن السيد محمد هلال وهو من إخوة السيد أحمد ، بينما تسلم السيد محمد الرضا أخو السيد محمد إدريس الإدارة في الجبل الأخضر . وأرسل السيد أحمد لتزعم الثورة في طرابلس السيد محمد صفي الدين من إخوة السيد أحمد الشريف ، كما أرسل السيد محمد عابد من إخوته كذلك إلى الفزان والقبلة (الجبل) في طرابلس أيضا ، ثم انتقل السيد أحمد الشريف نفسه بعد ذلك الى الجغبوب ومنها إلى الواحات البحرية والفرافرة والداخلة لتنفيذ خطة الهجوم على الحدود المصرية على نحو ما سبق تفصيله . وعلى ذلك انتقل السيد محمد إدريس إلى برقة — وهي من أهم المناطق — للقيام بأعباء الحكومة بها في هذه الظروف العصيبة دون مراعاة أى اعتبار آخر . وفي الوقت الذي كان فيه السيد أحمد الشريف يشن الغارة على الحدود المصرية كان السيد إدريس يدير دفة الحكم في برقة بكل حزم ومهارة فأظهر مواهبه كرجل الإدارة المحنك والحاكم الحازم وكانت برقة تشكو في هذه الفترة المضطربة اختلال الأمن وتعرض الأهالي لشور المفسدين فضرب السيد إدريس على أيدي هؤلاء المفسدين واستصدر من علماء البلاد « فتوى » لإعدام بعض السودانين الذين وجدهم يعيشون في الأرض فساداً يتهبون الأموال ويفتكون بالآرواح بغيا وعدوانا ، فكانت هذه المسألة ضربة لازب قضت على كل من تحدته نفسه بالعيب بالأمن والنظام من المفسدين والأشرار الآثمين .

وعند ما انهزم السيد أحمد الشريف على أيدي الانجليز عند الحدود المصرية رأى السيد أحمد أن يكتفى بالزعامة الدينية ونزل عن كل سلطاته الإدارية والعسكرية ، فأصبح السيد إدريس يمارس هذه السلطات كاملة في دفن وبرقة وسرت الشرقية يساعده كل من السيد

محمد هلال والسيد محمد الرضا بينما صارت للسيد محمد صني الدين هذه الاختصاصات في منطقة شرت الغربية وطرابلس وصار للسيد محمد عابد مثلها في الفزان والجبلية ، وأعطى مثلها كذلك على الخطائي في واحات الوسطة (أوجله وجالو وكفرة) .

وكانت مهمة السيد محمد إدريس في برقة مهمة شاقة عسيرة ، وبخاصة بعد ذلك الفشل الذي أصاب المجاهدين تحت زعامة السيد أحمد الشريف علي أیدی الإنجليز . فإن برقة كانت تعاني الأمرين في الحقيقة من جراء انتشار المجاعة بها وقتذاك (١٩١٥) بسبب احتباس الأمطار وفضلا عن ذلك فإن أرجال الجراد ما لبثت أن غزت البلاد في العام التالي فأتت على الزرع وانتشر وباء الطاعون (خصوصا في عام ١٩١٧) ، وظل المطر محتبسا طوال هذه المدة تقريبا فكان أعظم بلاء شهدته برقة في تلك الآونة هو بلاء المجاعة التي تسلسل شبحها الخيف يهدد البلاد بالفناء العاجل عندما صار يموت الألوف من الأهلين جوعا ، قامتلات شوارع اجداية بأشلاء الموتى واضطر الأحياء إلى أكل لحوم هؤلاء الموتى . بل ذهب الجوع بعقل امرأة فأكلت لحم ابنة لها ، وطلب الأحياء الهزالي ما يسدون به الرمق من أي سيل ، واضطر كثيرون منهم إلى تسليم مامعهم من أسلحة إلى الأعداء الطليان لقاء حفنة من الأرز يتبلغون بها . وكان من آثار الحملة التي قادها السيد أحمد الشريف على الحدود المصرية أن أغلقت السوق المصرية في وجه المجاهدين وأهل البلاد عموما وهي السوق التي كانت تأتيهم منها الأرزاق ، ويبيع العرب فيها ما كان لديهم من سلع ومتاجر يستبدلون بها ما يحتاجونه من أقوات وذخيرة ، فأغلقت الآن من دونهم كما سدت السلوم في وجوههم وساءت أحوالهم من جراء ذلك كثيرا . وأمام هذا الخطر المائل والفناء العاجل الذي نجم بدرجة كبيرة عن تلك الحرب التي أثارها الأتراك مع الإنجليز واشترك فيها السيد أحمد الشريف ، لم يجد السيد محمد إدريس مناصا من أن يوضح وجوه المسألة للسيد أحمد الشريف ويحذره عواقب التمادي في هذه الخطة التي وضعت أهل البلاد أمام أمرين لا ثالث لهما : إما الجذب والقحط وإحاطة العدو بالمجاهدين شرقا (الإنجليز) وغربا (الطليان) وإما عقد السلام ولو بصفة مؤقتة بين المجاهدين وبين أعدائهم الإنجليز والطليان ، لفتح السكة ، وكان لا مفر من هذا الأمر الأخير كعلاج سريع حاسم .

والواقع أن السيد إدريس منذ أن تسلم مهام الأمور في برقة واستقامت له أحوالها وشهد هذه الأخطار المجتمعة تهدد كيان البلاد ذاته كان يتدبر الموقف ويقلب وجوه الرأي فيما يجب اتخاذه من وسائل لدفع هذه الغمة ، ووجد أن الوقت قد أزف لبروزه إلى الميدان سيدا شرعيا للسوسية من الناحيتين السياسية والدينية على السواء يؤيده في ذلك الإخوان

أعضاء الطريقة السنوسية العاملين . وكان من رأيه أن سياسة التفاهم مع العدو والوصول على الأقل إلى اتفاق مؤقت كحل وسط يقرب بقدر الإمكان بين وجهات النظر هو أسلم الحلول في هذه الظروف القاسية لفتح الطرق والأسواق المصرية خصوصا حتى يمكن القضاء على المجاعة .

ومع هذا فقد كانت هناك عدة عوامل جعلت من الحكمة ومن أصالة الرأي السياسي الوصول إلى هذا (الحل الوسط والمؤقت) مع الأعداء ، وأهم هذه العوامل بعد حفظ كيان البلاد من غائلة المجاعة ما كان يعرفه السيد إدريس عن رغبات الأهلين الحقيقية ، لأن رجال القبائل الذين سلخوا أسلحتهم إلى الطليان في نظير الحصول على ما يقتاتون به كانوا يريدون ضرورة إنهاء القتال مع الانجليز حتى يتم فتح الطرق إلى الأسواق المصرية خصوصا فيتمكنا بفضل ذلك من الصمود في النضال مع الطليان . فقد عقد وجوه وأعيان وشيوخ البلاد في برقة والجبل الأخضر وكذلك رؤساء المجاهدين والقوات المسلحة اجتماعات عدة في طول البلاد وعرضها وأعدوا مضابط ، كثيرة يبسطون فيها شكواهم من الحالة السيئة والخطيرة التي وصلوا إليها بسبب المجاعة والحرب ويطلبون إلى السيد أن يتدبر الأمر بحكمته حتى يمد لهم والبلاد مخرجا من هذه الأزمات السياسية والاقتصادية التي استحكمت حلقاتها وهددتهم بالفناء العاجل . على أن أهم ما كان يسترعى النظر في هذه المضابط ، أن أصحابها ألحوا على السيد في ضرورة عقد الصلح مع الانجليز حتى يتمكنوا من التفرغ لمنازلة الايطاليين أعدائهم ، كما طلبوا إلى السيد ، أن يوقف نوري باشا عن حركته المضرة بالبلاد وأهلها ، وأخيرا فوضوا للسيد نفسه الرأي فيما يجب اتخاذه من إجراءات تكفل تحقيق المصلحة العامة .

ولاجدال في أن موقف العثمانيين أنفسهم منذ أن قرروا استئناف القتال في القطر الليبي عند نشوب الحرب العالمية الأولى كان لا يدعو إلى الارتياح والاطمئنان إلى أغراضهم ، بل يضعف الثقة في نواياهم . ذلك أن العثمانيين الذين دبروا ذلك الهجوم الفاشل الذي أشركوا فيه السيد أحمد الشريف على الحدود المصرية وكاتوا من عوامل اشتداد بلاء المجاعة في البلاد ساءهم أن يروا السيد محمد إدريس يدير شؤون برقة والجبل الأخضر بنجاح فرفضوا بادئ ذي بدء الاعتراف بزعامته الدينية على السنوسية — وهي حقه الشرعي — وكانت لهم من هذا المرقف غايات ، ثم سعوا الآن يبدرون بذور الشقاق والتفرقة بين المجاهدين ويناثون الزعامة السنوسية ذاتها بدرجة أثارت تدمر وشكوى السيد أحمد الشريف

نفسه ، وصاروا يعملون لانتزاع الفزان من قبضة السنوسيين ، وكان معنى ضياع الفزان ضياع ليبيا بأجمعها .

فقد كان من أثر إلحاح نوري على السيد أحمد الشريف في الظروف التي سبق بيانها بصدد الهجوم على الحدود المصرية ثم إخفاق هذا الهجوم أن فقد نوري باشا عطف السنوسية وكان من أسباب نفور السنوسيين منه أنه أكثر من بذل الوعود السخية عن جلب الإمدادات والنجادات الكثيرة وعلى جناح السرعة . ومع ذلك فإن شيئاً من هذه الوعود لم يتحقق ولم يتلق السيد أحمد الشريف في آخر مراحل نضاله مع الإنجليز في الواحات وسيوة معونة أو نجادات ما من العثمانيين حتى أنه اضطر إلى الانسحاب إلى جنزوب في بداية عام ١٩١٧ وشعر نوري باشا بحرج موقفه ونفور جمهرة السنوسيين منه ، فطلق الآن يدبر الخطط للتيل من السنوسية ذاتها وإضعافها بتصويب ضربة قاتلة إلى أهم مراكز قوتهم الباقية بتحريك الثورة ضد السنوسية في الفزان ؛ وكان يقوم على شئون الفزان أخو السيد أحمد الشريف ، السيد محمد عابد . فاختار نوري لهذه المهمة ثلاثة من رجاله هم إحسان ثاقب بك وأصله من طرابلس والملازم أول سنوسي شوكت وهو برقاوى الأصل والملازم ثان محمد الأرناؤوطى من المغامرين الأذكياء فقام ثلاثتهم من إجداية ، المكان الذى استقر به نوري عقب انسحابه من منطقة الحدود المصرية عن طريق مراوة وزله ؛ واتجه الملازمان صوب (واو) مكان السيد محمد عابد ومعهما هدايا له ورسالة بتوقيع فريق ، من كبار رجال السلطان العثماني محمد رشاد وكان الغرض من زيارتهما للسيد محمد عابد وتقديم احترامهما له إخفاء أمر المغامرة التي كان يقوم بها وقتذاك إحسان ثاقب بك .

فقد توجه إحسان ثاقب إلى مرزوق واستولى عليها باسم تركيا في أثناء ذهاب الملازمين إلى الفزان ومقابلتهما للسيد عابد وعندئذ انكشف أمر هذا التدبير وفضن السيد محمد عابد إلى غرض العثمانيين فسير ضد مرزوق حملتين كان نصيب الأولى منهما الوقوع في الأسر بينما هزم العثمانيون الحملة الثانية في العدم واستتب الأمر في مرزوق لثاقب بك فشرع يؤلف قوة كبيرة من ألف وخمسمائة مقاتل مواصلة النزاع ضد السيد محمد عابد الذى جمع من حانبه جيشاً كبيراً مجهزة بثلاثة مدافع ووضعه تحت قيادة محمد علي الأشهب .

وفي النضال التالى استطاع السنوسيون أن يرغموا الأتراك على الانسحاب من زويلة إلى (تراجن) . ومع أن الأتراك استولوا في هذه الأثناء على قافلة كبيرة آتية من جهة (الإير) محملة بالفتائم وتقصد السيد محمد عابد ، ومكنهم هذا العمل من مقاومة الأشهب مدة فأنه سرعان ما اشتد الضغط عليهم ونفذت لديهم الذخيرة ، وأرغموا في النهاية على الانسحاب

إلى مرزوق ثم إلى إخلاء مرزوق ذاتها في ١٠ يولية ١٩١٧ والذهاب إلى (سبهه) . وفي (سبهه) وصلت الأتراك إمدادهم كثيرة من جهة مصراتة أي من المكان الذي اتخذته نوري باشا مقر له بعد انسحابه من إجدابية في ظروف سوف يأتي ذكرها . وعلى ذلك فقد استطاع الأتراك أن يصدوا هجوما قام به من (الأبيض) السيد محمد علي الأشهب في ٢٠ أغسطس ١٩١٧ . ودار قتال عنيف بين الفريقين في هذه المعركة وانتهز الأتراك فرصة توقف السنوسيين عن القتال وانقضوا عليهم فجأة في جنح الظلام وقضوا على أكثر قوتهم وطاردوا الأشهب حتى أوقعوه في الأسر ثم قتلوه بعد أن عذبوه تعذيبا قاسيا في مرزوق وعندئذ اضطر السيد محمد عابد إلى إخلاء الفزان والتقهقر إلى واحة الكفرة يتحصن بها في سبتمبر ١٩١٧ .

كشفت هذه الحوادث الدامية عن نيات الأتراك الصحيحة وأزالت البقية الباقية من كل ثقة كان لا يزال يضعها فيهم السيد أحمد الشريف وأولئك السنوسيون الذين ما كانوا يتوقعون قط أن يغدر بهم العثمانيون على هذه الصورة ؛ فضلا عن ذلك فقد زادت هذه الحوادث السيد إدريس عزيمة على ضرورة المفاوضة مع الإنجليز من غير أي إهمال لا ليضع حدا للجماعة المهلكة فحسب وإنما لتدارك الموقف في الفزان كذلك .

غير أن هذه لم تكن كل الصعوبات التي صادفها السنوسيون وقتذاك بسبب تدابير نوري باشا والعمانيين في برقة (على الحدود المصرية) - وفي الفزان - (على النحو الذي تقدم وصفه) . ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه العثمانيون يرسلون للسيد أحمد الشريف كتب السلطان وأنور باشا ثم فرمان تعيينه نائبا عن السلطان في جميع القطر الليبي بما في ذلك طرابلس ، ومثلا له في إفريقية ، وهذا فضلا عن فرمان آخر بتوليته منصب الوزارة ، ثم هدايا السلطان مثل كسوة التشریف وخاتم من الماس ولبيرات عثمانية من الذهب إلى غير ذلك ؛ وفي الوقت الذي كان فيه نوري باشا يكرر وعوده للسيد أحمد بتأييد تعيين السيد نائبا عن السلطان في القطر الليبي وإرسال النجدات والإمدادات خصوصا في الفترة التي سبقت سقوط السلوم في أيدي الإنجليز (مارس ١٩١٦) ، نقول إنه في أثناء ذلك كله كان نوري باشا يجفو في معاملة السيد أحمد ويسعى لحرمانه من السلطة عمليا ، ثم لا يكفني بتدبير المؤامرة لانتزاع الفزان من أيدي السنوسيين ، بل يعمل لتأييد سليمان الباروني في طرابلس وإقصاء نفوذ السنوسية من هذا القطر إقصاء تاما حتى أن السيد محمد إدريس نفسه لم يجد بدا من تذكير ابن عمه بهذه الأمور التي أفقدته وأفقدت السنوسيين عموما الثقة في وعود الأتراك أو الاطمئنان إلى أغراضهم في رسالة أثبت ترجمتها المؤرخ الإيطالي (سيرا) وكان قد بعث بها السيد

إدريس إلى ابن عمه في ٢٦ ربيع أول ١٣٣٥ (٢ يناير ١٩١٧) وتساءل فيها السيد إدريس عن ثمرة وعود الأتراك المتكررة عندما أرسل هؤلاء البارونى ممثلاً لجلالة السلطان في طرابلس وأعطوه أسلحة وذخيرة وزودوه بمشورات كثيرة بمقدار ما يملا الدنيا منها ، بينما أتم - مخاطباً السيد أحمد الشريف - تجاهدون من أجلهم ، وهم لا يكتفون بعدم الاهتمام بكم بل يقدرونكم بإرسال خائن إلى بلادكم ويبدلون له كل مساعدة في الوقت الذي يتحدث فيه فقط وقبل كل شيء عن طرابلس ولا يذكر السنوسية بكلمة واحدة ، فضلاً عن ذلك فإن السيد أحمد - على حد ما جاء في هذه الرسالة - كان يقول دائماً ، إن أنور (أخيره) بأن السلطان أصدر فرماناً بتعيينه نائباً عن الخليفة في إفريقية . ولكن ما قيمة هذا الكلام إذا كانت الأقوال تختلف عن الأفعال ؟ فإلى متى يجب علينا نحن وأتباعنا أن نقف مكتوفى الأيدي أمام هذه الوعود الباطلة الكثيرة التي سوف تنتهى من غير شك بنتيجة واحدة هي القضاء علينا وعلى أوطاننا . ويا لها من كوارث عظيمة تلك التي نزلت بأهل هذا الوطن ، لقد أكثر الأتراك من الوعد بإرسال النجدة لإبان حملة الحدود المصرية ، من الوقت الذي سبق مسألة السلوم وسقوطها إلى أيامنا هذه ، ويكفى ما سببه ضياع السلوم من آثار سيئة في نفوس المجاهدين والمسلمين قاطبة ؛ ويكفى ما سببه هذه الحملة الفاشلة من بلاء نزل بالوطن وأهله ،

والواقع أن هذه الرسالة التاريخية - وكانت رداً على كتاب من السيد أحمد الشريف إلى السيد إدريس في ٢٥ صفر ١٣٣٥ (٢١ ديسمبر ١٩١٦) بعد فشل حملته وانسحابه إلى سيوه - تظهر بجلاء مقدار الاختلاف الواقع بين الرعيين المجاهدين في تقدير الأمور من وجهة نظر السياسة وتدبر عواقب الأمور ، ومقدار ما بلغه السيد محمد إدريس نفسه من مكانة رفيعة كزعيم للمجاهدين ورئيس ديني يحتل مركزه الشرعى ثم يفرض احترام شخصه وآرائه فرضاً على السيد أحمد الشريف وعلى بقية المجاهدين بفضل ما أثبت من حنكة ودراية وهو يسوس شئون الحكم في البداية ، ثم ما أظهر من بعد نظر سياسى وهو يلقى هذه التوجيهات على ابن عمه ويسوق أمامه الموعدة بعد الموعدة .

قال أعزه الله مخاطباً السيد أحمد في هذه الرسالة نفسها - هل لا تنظر إلى ما حدث للشريف حسين أمير مكة الذى عينه الأتراك ثم وجد تحقيقاً لمصلحة بلاده أن ينقلب عليهم ثم أرغم على الوقوف خصماً لهم فأعلن استقلال البلاد ووافقت الدول المتحالفة على ذلك ونودى به ملكاً على العرب ، وهو الآن يبذل قصارى جهده في إدارة شئون بلاده فيؤسس المجالس وينشئ الإدارات والمصالح ، ولو أنه قبل أن يدخل الجرب إلى جانب الأتراك

لكان الحلفاء الآن يحتلون مملكتك كما احتلوا البصرة (العراق) ومناطق أخرى . فالملك حسين كون جيشا كبيرا الآن ويريد احتلال الشام وأرسل إليه الضباط وجاءت المدفعية من مصر ووصله كل ما يحتاج إليه للقيام بحركة واسعة وأذاع في العالم الإسلامي أنه لا يريد بالإسلام شرأ وإنما يعمل فقط ضد جماعة الاتحاد والترقي ، ويذكر في خطبه اسم الخليفة العثماني وهو الخليفة المقيد والذي فقد كل سلطة بفضل القيود التي فرضها عليه أولئك الذين أحاطوا به من كل جانب من هؤلاء الاتحاديين، وقرر العرب المحافظة على شرفهم والذود عنه ضد هؤلاء الجماعة أيضا فأقاموه ملكا عليهم . ثم حدثني بالله ياسيدي كيف يستطيع الأتراك غزو مصر ودخولها وهم الذين أخفقوا في محاولة استرجاع الحجاز ، وهل لا تنظر يا سيدي إلى السيد إدريس في بلاد اليمن ؟ فهو يحتفظ دائما باستقلاله ويتمسك بحياده وهذا على الرغم مما يفعله الانجليز الذين يحاولون إقناعه بمحاربة الأتراك ، ومما يفعله الأتراك الذين يريدونه أن يحارب الانجليز ولكن لا يريد أن يورط نفسه في شيء من هذا كله . وكان في إمكانكم أن تفعلوا مثل هذا قبل حادث السلوم ، وكان في أيديكم الانجليز والترك معا ولكن ما فائدة الحصرة على الماضي والندم على ما فات . إن الذي أريد أن أسترعى نظركم إليه هو العالم الإسلامي ، لأن الإسلام يريد ياسيدي أن يعرف ومن حقه ان يدرك ويفهم فهما صحيحا ما تفعلون وما تريدون ويجب علينا قبل كل شيء الانتباه إلى ما فيه فائدتنا وما يحقق مصلحة بلادنا حتى لا تذهب ضحية لغيرنا .

وقد تبودلت هذه الرسائل بين السيدين في وقت كان فيه السيد محمد قد بدأ مفاوضات لكل هذه الأسباب التي ذكرت مع الإنجليز ثم مع الطالبان على أمل الوصول إلى ذلك الاتفاق المؤقت والحل الوسط الذي يكفل فتح الطريق مع مصر وإزالة شبح الجماعة من البلاد وجمع كلمة القبائل والمجاهدين خصوصا في بلاد بركة . ثم يتمكن الزعماء الستوسيون بفضلهم من تصفية الموقف في الفزان ثم في طرابلس . على أنه بما مجرد ذكره كذلك أن السيد محمد إدريس بعد أن أجمع وجوه البلاد وأعيانها وشيوخها على الرأي الذي أثبتوه في المضابط ، الكثيرة التي قدموها السيد لم يشأ الدخول في المفاوضات مع الإنجليز قبل أن يوضح الحالة على حقيقتها للسيد أحمد الشريف الذي بعث بدوره وكان وقتئذ في الواحات الداخلة يقول من فوره مخاطبا السيد إدريس : أنقذ البلاد بما وقعت فيه ويرى الحاضر ما لا يرى العائب ، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن حيث أن لهم حقا في ذلك .

قرر إذن السيد محمد إدريس المفاوضات مع الإنجليز ؛ وكان مما يسر على السيد مهمته أن الوفد الذي حضر إلى المسيعيد من السيد محمد الشريف الإدريسي والسيد محمد مرغني للمفاوضة

مع السيد أحمد الشريف ثم رجع إلى مصر بعد انسحاب (سويسل سنو) من السلوم إلى مرسى مطروح كان قد اقترح على ولاية الأمور في مصر أن يتصلوا بالسيد محمد إدريس لما شهده في السيد من صفات الحزم وأصالة الرأي وعرفه عن معارضته الأعمال العسكرية التي يديرها نوري وجعفر العسكري . فأذن هؤلاء للوفد بأن يكتب إلى السيد إدريس بغية الوصول إلى اتفاق معه ، وشرع الانجليز من ذلك الحين يخاطبون السيد في الصلح على أساس إخراج نوري باشا وصحبه من الأتراك من برقة ثم إسداء النصح لابن عمه السيد أحمد الشريف حتى يخرج من الجغبوب التي تحصن بها بعد انسحابه من سيوه . وقد هدد الانجليز على نحو ما تقدم بالهجوم على الجغبوب ذاتها - وبها ضريح السيد محمد بن علي السنوسي الكبير - والاستيلاء عليها عنوة إذا أصر السيد أحمد الشريف على البقاء بها (مارس - إبريل ١٩١٦) وهذه شروط كان من الميسور المناقشة في سبيل الاتفاق على أساسها ، ولذلك أبلغ السيد إدريس القنصل الانجليزي في بنغازي رغبته في أن يحضر السيد محمد الشريف الإدريسي حتى يكون وسيطا في المفاوضات كما أرسل في الوقت ذاته وقدأ مؤلفا من السيد عمر المختار والسادة إبراهيم المصراقي وخالد الحموي ومرضى الغرياني لمقابلة نوري باشا في معسكره . وكان نوري لا يزال في هذه الآونة مقبلا بالبطنان على مقربة من خليج بنه في مكان يسمى العقيلة الشرقية ، وذلك حتى يطلبوا إليه صراحة القدوم إلى إجداية مقر السيد إدريس والابتعاد عن الحدود المصرية . ولما كان نوري باشا لا يزال يرجو التأثير في العرب والمجاهدين في عهد الزعامة الجديدة حتى يستقيمهم إلى جانبه في النضال ضد الانجليز ، ولما كان قد انعدم في الواقع أمام انتصارات الانجليز المتتابعة في هذه الجهة أي أمل في إمكان استئناف الهجوم على الحدود المصرية ، وفشلت كذلك حملة الأتراك الموجهة ضد حدود مصر الشرقية فقد وجد نوري من حسن السياسة أن يجيب هذه الرغبة . وعلاوة على ذلك فقد وجد نوري في ذهابه إلى السيد فرصة مواتية تمكنه من التحدث إليه وإقناعه بضرورة مواصلة القتال من جهة وتمهد له السبيل كي يعمل على إبطال مساعي الصلح من جهة أخرى ، وحتى يكون أكثر اتصالا بداخل البلاد من جهة ثالثة فيستطيع العمل على هدم سلطان السنوسية في الفزان مركز قوتهم على نحو ما حاول فعلا كما رأينا . أضف إلى ذلك أن وجوده بإجداية يجعله قريبا من ميدان الجهاد الآخر بطرابلس موثله الأخير قبل أن يغادر نهائياً القطر الليبي بأجمعه على نحو ما سيأتي ذكره .

وعلى ذلك فقد لبى نوري دعوة السيد محمد إدريس وغادر البطنان إلى إجداية واصطحب

مع محمد أبو جبريل، ثم المجاهد المصري الشاب عبد الرحمن عزام أو العزام كما صار يعرف في هذه الأقطار بعد قليل عند ما طبعته شهرته الآفاق. ومن ذلك الحين أصبحت إجدائية مركز نشاط عظيم لا بوصفها مقر حكومة السيد إدريس منذ انتقل إليها من السلوم من أواخر العام السابق (١٩١٠) فحسب بل وباعتبارها المكان الذي أقام به زعماء العثمانيين يبذلون قصارى جهدهم حتى يفتنوا السيد إدريس عن عزمه ولكن من غير نتيجة. وفي إجدائية جرى الاتفاق على بدء المفاوضات التمهيدية.

فقد أبلغ الإنجليز السيد محمد إدريس أنهم لا يدخلون في مفاوضات بشأن الصلح مع المجاهدين العرب ما دام العرب يرفضون المفاوضات مع إيطاليا لعقد السلام معها، فكان أول ما فعله السيد أنه أخذ يطلب رأى وجوه البلاد وأعيانها وشيوخها في هذا الموقف الجديد، ولكن هؤلاء جميعا وافقوا على المفاوضة مع الطليان ورضوا بها خوفا من زيادة استحكام الضائقة الاقتصادية التي اشتدت وطأتها بسبب إغلاق الطرق بين الجبل الأخضر ومصر وهي الضائقة التي سبق بيان طرف من أهوالها. وعند ما أخبر السيد أحمد الشريف بالأمر وافق رحمه الله على المفاوضة مع إيطاليا إلى جانب إنجلترا نزولا على رغبة الأهلين، ولو أنه اشترط في الوقت نفسه أن يظل بعيداً عن الصلح فلا يشمله، ذلك أنه فضل الانتقال إلى مكان آخر على الصلح مع الطليان لأنه على ما يبدو كان لا يزال يثق بوعود العثمانيين الزائفة، الأمر الذي انتهى بخروج سيادته من النظر الليبي كنه في ظروف سوف يأتي ذكرها. وأما نوري فقد ظل منذ مجيئه إلى إجدائية يلح على السيد إدريس في ضرورة مواصلة القتال ضد الإنجليز وكان نوري الذي عرف قليلا من العربية البسيطة يبذل منفرداً هذا الجهد في إقناع السيد ولكن السيد إدريس رفض الاستماع إليه وتمسك بضرورة إجابة رغبات أهل البلاد وزعمائهم وهذه كانت رغبات صريحة لا تحتمل شكاً أو تأويلاً، وفضلاً عن ذلك فإن المبادرة بيده المفاوضات كان كذلك ضرورة لا تحتمل هي الأخرى تسويقاً أو تأجيلاً.

وعلى ذلك فقد استعد السيد لمقابلة معتمد إنجليزي للمفاوضة وطلب من وكيل الوالي الإيطالي في بنغازي أن يرسل إليه معتمداً إيطالياً من قبله لهذه الغاية، فاختارت الحكومة الإنجليزية وفداً للمفاوضة مؤلفاً من الكولونيل (تالبوت) والضابط (هسلم) ثم أحمد بك حسنين لمعارنة تالبوت، وكان حسنين بك (رفعة المرحوم أحمد حسنين باشا فيما بعد) يعمل في هذه الآونة سكرتيراً عربياً للجنرال ماكسويل ثم خلفاء ماكسويل في القيادة. وكذلك حضر مع الوفد الإنجليزي كل من السيد محمد الشريف الإدريسي والسيد محمد مرغني وغادر الوفد الإنجليزي القاهرة وسافر بجراً إلى بنغازي للاجتماع بوفد المفاوضة الإيطالي.

أما الوفد الإيطالي فكان يتألف من الكولونيل (فيلا) والسنيور (بياشتيني) . وفي شهرى مايو ويونيه ١٩١٦ بدأت المفاوضات مع السيد محمد إدريس في (الزويتينة) على شاطئ خليج سرت ولا يفصلها عن اجداية غير مسافة قصيرة . وبدأت المفاوضات أولاً في موضوع تبادل الطليان الذين أسره المجاهدون في أثناء الحرب مع بعض الأهليين الذين أودعهم السلطات الإيطالية السجون لأسباب سياسية . ثم قدم الطليان بعد ذلك شروطهم التي ارتأوا أنها ضرورية لإمكان الاتفاق مع السنوسية ، وهذه كانت شروطاً كثيرة فحواها أن يعترف السيد إدريس بالسيادة الإيطالية على كل برقة من منطقة بنغازي إلى منطقة الكفرة وأن يسلم العرب والمجاهدون أسلحتهم فلا يبقى لديهم سوى ما يكفي للحفاظة على أنفسهم ؛ ثم إنهاء حالة الحرب القائمة وحل جميع أدوار (أي جيوش ومعسكرات) المجاهدين . وفي نظير ذلك ترضى إيطاليا برجوع مشايخ الزوايا إلى مراكزهم وتعترف بالطريقة السنوسية ، وتعطى الكفرة استقلالاً إدارياً وتعنى الأسرة السنوسية من كل الرسوم الجمركية ، كما أنها تعهد بإعطاء ضمانات تكفل قيام المحاكم الشرعية الإسلامية بأعمالها ومباشرة وظائفها ؛ هذا إلى جانب ما تبذله من مساعدات لتحسين الأحوال الصحية في البلاد وإنشاء المدارس وما إلى ذلك .

وكانت هذه الشروط شروطاً قاسية ، وظهر أنه لا مناص من انقضاء وقت غير قصير قبل الوصول إلى تسوية عادلة . وكانت مسألة الاعتراف بالسيادة الإيطالية على برقة من أخطر المسائل التي تقدم الطليان بها ولا يمكن البت فيها بسهولة ؛ ولذلك فقد تأجل بحثها حتى إذا ما فرغ المتفاوضون من فحص المسائل الأخرى بصورة قد تقرب بين وجهتي نظر الفريقين . أمكن عندئذ بحث مسألة السيادة الشائكة ؛ ولكن الطليان سرعان ما أظهروا تصلباً لا مسوغ له عند النظر في بقية المسائل حتى انتهى الأمر بأن يصدر والى برقة وقتذاك الجنرال جيوفاني أميليو - وكان يشغل هذا المنصب منذ أكتوبر ١٩١٣ - أمراً بقطع المفاوضات ثم له ما أراد وأخفقت مفاوضات الزويتينة . وأما الوفد الانجليزي فإن مهمته في أثناء ههنا المفاوضات كانت تخرج عن مجرد بذل الجهود من أجل التوفيق بين وجهات النظر على اعتبار أنه لم يكن هناك أى خلاف في الحقيقة بين مصر والانجليز من جانب وبين السنوسيين من جانب آخر . وعلى ذلك كان كل ما يدور البحث فيه مع الانجليز بصفة مبدئية هو ما يجب اتخاذه من وسائل تكفل تأمين سلامة الحدود بين مصر وبرقة ، ومنع حدوث أى احتكاك في المستقبل بين البلدين في منطقة الحدود . وكان ظاهراً من أول وهلة أن الاتفاق على هذه المسائل بين السنوسيين والانجليز سهل ميسور . ولكن رئيس الوفد الانجليزي (تالبوت)

كان متمسكا بعدم التوقيع على أى اتفاق مع السنوسيين قبل أن يتهمى السيد إدريس من الاتفاق مع الطليان ويتم التوقيع من الطرفين على هذا الاتفاق نهائياً .

وكان يقابل المشروع الإيطالى مشروع آخر تقدم به السيد ويقوم على ضرورة اعتراف الطليان باستقلال السنوسيين والاعتراف بالسيد إدريس أميراً على برقة وتخطيط الحدود بين الأراضى التى ظلت فى حوزة السنوسيين وبين تلك التى أصر الطليان على التمسك بها واحتلالها خصوصاً فى الساحل ، وهى الأراضى التى استولى عليها الطليان عنوة فى بداية الحرب وكانوا يحتلوننا فعلاً . وفضلاً عن ذلك فقد كان من أهم ما تمسك به السنوسيون أن تفتح الطرق وتعود البلاد إلى حالة السلام السابقة ؛ وكان فتح الطريق ضرورياً حتى تأتى الأرزاق والأقوات إلى برقة ويذول بفضل ذلك خطر المجاعة . وأسفرت مفاوضات الزويتينة عن تخطيط الحدود بين أراضى الفريقين واحتفظ كل فريق بخريطة للرجوع إليها عند الحاجة وعلى ذلك فإنه لما كان متعذراً إبرام أى اتفاق فى الزويتينة فقد غادر الوفد الإيطالى البلاد إلى رومه حتى يعرض على الحكومة الإيطالية نتيجة ما وصل إليه مع السنوسيين ، ثم أرجئت المفاوضات إلى مكان ووقت آخرين . وحدث فى هذه الآونة أن الدول الثلاث المتحالفة إيطاليا وإنجلترا وفرنسا ما لبثت حتى اتفقت فيما بينها فى آخر بولية ١٩١٦ على أن تسلك جميعها طريقاً واحداً مع السنوسية فلا يختلفون فى خططهم معها ؛ وفى آخر هذا العام وأوائل العام التالى جاءت الأخبار من رومة بأن الحكومة الإيطالية ترغب حقيقة فى الاتفاق على أساس أكثر تساهلاً من السابق ويكفل إجابة مطالب السنوسيين لدرجة كبيرة . وعلى ذلك فإنه سرعان ما تألف وفد إيطالى جديد لهذه الغاية كان أعضاء الكولونيل دى فيتا والقومندانورى لويجى بنتور وحضر المفاوضات الجديدة كذلك السيد محمد الشريف الإدريسي وولده السيد محمد مرغنى . وفى هذه المرة أوفد الانجليز وفد من الكولونيل (تالبوت) الذى ظل لعدم معرفته اللغة الإيطالية يعتمد على أحمد حسنين بك كل الاعتماد ، ثم حضر معه الملازم (رود) ابن السفير الانجلىزى وقتذاك فى رومه وكان هو الآخر لا يعرف العربية . واختار السيد محمد إدريس مكاناً للمفاوضة (عكرمة) بجهة طررق ، وانتقل إليها وحضر الوفدان الانجلىزى والإيطالى إلى طررق . وفى شهر يناير ١٩١٧ بدأت المفاوضات الجديدة فى (عكرمة) .

واعترضت المفاوضات عقبات جمة كان سببها أن المفاوضات الطليان لم يكونوا مزودين بتفويض كامل لإبرام الاتفاق فاضطروا دائماً إلى مراجعة السلطات العليا فى كل المسائل البسيطة والنقط التفصيلية ؛ كما أن غرض السيد إدريس الأول كان الاتفاق قبل كل شئ على

دل الأسرى وفتح الطرق حتى يمكن الحصول على الأرزاق والإقوات الضرورية لتخليص
لادم من شرور المجاعة ؛ وعلاوة على ذلك فإن المفاوضات الطليان كانوا يريدون الحصول
إلى ضمانات واقية في كل ما يتعلق بمصالح السنوسية الأدبية والسياسية بالنسبة للسيادة الإيطالية
نطقة والشاملة في كل منطقة برقة ؛ وعلى ذلك فإن كل ما أمكن الاتفاق عليه حتى شهر مارس
١٩١١ كان في مسألة تبادل الأسرى وفتح الطرق على نحو ما أراد السيد إدريس نفسه . وكان
لك إلى حد بعيد نتيجة للبهارة التي أظهرها السيد في أثناء هذه المفاوضات . على أن المفاوضات
تلبث أن سارت بعد ذلك سيراً حثيثاً بسبب حرص السيد على تعطيل تدبيرات العثمانيين في
لقران وغيرها ، ثم بسبب ما ظهر له من رغبة الأتراك في بذور بذور التفرقة بينه وبين السيد
أحمد الشريف ، ولرغبته في المحافظة على توحيد الكلمة ؛ فضلاً عن أنه أراد أن يكسب بإبرام
الاتفاق مع الطليان إزالة ذلك الحصار الحثيث الذي ضربه الانجليز على البلاد من جهة الشرق
والطليان على حدودها الشمالية والغربية .

وعلى ذلك فقد وصل الفريقان إلى اتفاق عكرمة أو طبرق - ذلك الحل المؤقت الذي
كان أول اتفاق من نوعه عقده السنوسيون والمجاهدين العرب مع الطليان في ١٦ أبريل
١٩١٧ تحت عنوان « شروط تمهيدية تهدئة خواطر أهل البلاد » ؛ وكان إبرام هذا الاتفاق
التمهيدى أو المؤقت في عكرمة أي في مقر السيد إدريس نفسه ؛ وكان يتألف من ثلاث عشرة
مادة تضمنت إعلان رغبة الفريقين في إنهاء القتال والكف عن المحاربة في قطر برقة وفتح
الطرق بين الساحل وداخل البلاد للتجارة بكل حرية ، في بنغازي ودرنه وطبرق فقط وموقتا
، نظراً لوجود الفتن ، في بقية البلاد حتى إذا انطفت هذه الفتن « تطلق التجارة في جميع النقاط »
ثم التزم الإيطاليون بأن يقفوا عند « نقطهم » التي كانوا يحتلونها وقت إبرام الاتفاق فعلاً ،
فلا يجنون نقطا عسكرية زيادة على ما هو كائن ، ؛ وعلى أن يفعل السنوسيون مثل ذلك من
جانبهم أيضاً . فضلاً عن ذلك فقد تعهدت إيطاليا « بإبقاء المحاكم الشرعية في الأماكن التي
يقتضى وجودها بها ، وبأن يقضى بها قضاة علماء موثوقاً بهم ولهم صلاحية في الدعاوى المتعلقة
بالنكاح والطلاق والفرائض وكل الأحكام الدينية الإسلامية » ؛ وكذلك تعهدت إيطاليا بأن
توجد في برقة مدارس للعلوم والصناعات « ويكون فيها تعليم القرآن وبها علماء دينيون حتى
يتم إرسال أبناء العرب الممكن إرسالهم للتعليم في داخلية البلاد إلى هذه المدارس » . وما
هو جدير بالذكر أن إيطاليا أعلنت في هذه المعاهدة أنها « تحب الدين الإسلامي وتحترمه
وتسعى في نشره وتعليمه » ؛ وكذلك نصت المعاهدة على إعادة الزوايا وأراضي الأملوك
والمملوكة لها ، وكانت لا تزال وقت الاتفاق بأيدي الإيطاليين أو يحتلها جنودهم ، ثم نظمت

تصوص الاتفاق الطريقة التي يجب أن تجرى بها العلاقات بين السلطات الإيطالية والسيد إدريس وأما جميع المسائل الخاصة بواجبات الكفرة فقد أخرجت من الاتفاق وتأجلت إلى أجل غير مسمى ، وصار الاكتفاء بذكر هذه الفقرة ، ومتى لزم (السنوسيين) إصلاح يأخذونه من الحكومة الإيطالية ،

وظاهر من نصوص اتفاق عكرمة أن السيد محمد إدريس كان يقصد من عقده مع الإيطاليين تحقيق أهداف معينة أولها إنهاء حالة الحرب التي أضرت بالبلاد وأهلها . ثم فتح الطرق للتجارة بين داخل البلاد وثورها التي كانت بأيدي الإيطاليين من وقت ابتداء الحرب ، الأمر الذي مكن إيطاليا من محاصرة الشواطئ الشمالية ومنع الأرزاق عن العرب ، ثم احترام الشعائر الإسلامية والمحافظة على الدين الإسلامي وأنظمة الشرع الحنيف والثقافة العربية ،

وأخيرا رفع الأضرار التي لحقت بالجماعة السنوسية بأجمعها وتخليص زوايا السنوسيين والأراضي والأملاك التي ينفق ربيعها على هذه الزوايا وطلاب العلم والقائمين بالشعائر والعبادة والعمل بهذه الزوايا من أيدي الإيطاليين ثم إبعاد هؤلاء قبل كل شيء عن الكفرة مقر السنوسية العتيد بعد واحة الجغبوب . ولا شك في أن السيد قد حقق مصالح المجاهدين العرب إلى أقصى غاية . فقد أزال هذا الاتفاق كابوسا جثم على صدور الأهالي في برقة ودحا من الزمن وفتح أمامهم آفاقا جديدة من الأمل ؛ ومن الثابت أن السيد سواء أكان يريد الصلح نهائيا مع الطليان حقيقة أم يريد كسب الوقت لاستئناف الجهاد ضد العدو ، فإنه كان ينبغي قبل كل شيء أن يبسط لواء الأمن والسلام في برقة حتى تهدأ الأحوال في هذا القطر أولا ويتنفس الأهليون الصعداء عند زوال الكرب الذي نزل بهم بسبب امتناع الأقوات والأرزاق عنهم ؛ وفضلا عن ذلك فإن السيد كان يطلب الوقت دائما حتى يتفرغ لمواجهة ما كان يريد أعداء السنوسية في طرابلس والفران ، أضف إلى هذا أن السيد في هذا كله إنما كان يحقق رغبات الأهالي التي أعلنوا عنها في تلك المضابط ، التي سبق ذكرها . زد على ذلك أن إبرام هذا الاتفاق مع الطليان كان كسبا سياسيا عظيما وانتصارا دبلوماسيا كبيرا فإن الطليان الذين أعلنوا منذ ٦ نوفمبر ١٩١١ - وكان إعلانا باطلا ولا ريب - أنهم يضعون طرابلس وبرقة تحت سيادة المملكة الإيطالية الكاملة والمطلقة ، ثم أبلغوا هذا الإعلان رسميا إلى الدول لإقراره ، ثم فصلوا بين حكومتى برقة وطرابلس بمرسوم ملكي في ٩ سبتمبر ١٩١٢ وظلوا طوال المدة التالية في حروب مستمرة مع السنوسيين في برقة ، سرعان ما وجدوا ابتداء من عام ١٩١٥ أنه قد بات واجبا عليهم في الحقيقة أن يسعروا من أجل الاتفاق مع السنوسيين ولو أدى هذا الاتفاق إلى الاعتراف عمليا وضميا من جانبهم بما كان يتمتع به السنوسية من

سلطان واسع في البلاد . والواقع أنه مع عدم احتمال اتفاق عكرمة على نصوص صريحة تعترف بهذا السلطان فقد كان مجرد دخول الإيطاليين في مفاوضة مع السنوسيين اعترافاً من جانبهم ولا شك بسلطة السنوسية وبأن الزعامة التي جمعت كلمة العرب في برقة هي زعامة شرعية . وهذا ما حرص السيد إدريس ولا ريب على تحقيقه ، وهذا ما أدركه أهل البلاد — باعتراف الطليان أنفسهم — عند ما وجدوا الطليان المتخطفين يدخلون في مفاوضات سياسية ويعقدون هذا الاتفاق في وقت كانت لا تصل إلى أيدي المجاهدين أسلحة أو ذخائر وفي وقت احتبست الأرزاق والأقوات عنهم وكان لا مندوحة عن انضمامهم في النهاية بسبب انتشار المجاعة والطاعون إذا استمروا في جهادهم العنيف ضد إيطاليا . فكان من آثار هذا الاتفاق في عكرمة أن تأيد مركز السنوسية رسمياً في زعامة هذه البلاد السياسية لخير العرب والمجاهدين كأداة أو منظمة حكومية تحفظ الوطن القومي وتجمع المجاهدين العرب في صعيد واحد وتحت لواء إسلامي واحد واستطاع السيد إدريس عندما عقد اتفاق عكرمة التمهيدى ثم ما تبعه من اتفاقات أخرى كذلك — استطاع أن يكفل السلام في برقة في وقت كان العالم لا يزال يكتوى بنار الحرب العالمية الأولى . ولا جدال في أنه كان لا يمكن تحقيق هذه الغايات جميعها من غير الوصول إلى اتفاق ، مع الطليان كان من نتائجه المباشرة كذلك إبرام اتفاق آخر مع الإنجليز لفتح طريق السلوم الموصلة إلى الأسواق المصرية ، هدف زعماء وشيوخ البلاد الأول كما سبق بيانه .

فقد أمضى في عكرمة الكولونيل تالبوت عن الإنجليز اتفاقاً كان يحوى تلك النصوص التي سبق التفاهم عليها في الحقيقة في مفاوضات الزويتينة بين السيد إدريس وبينهم . وكان الغرض من هذا الاتفاق المحافظة على علاقات المودة والصفاء بين الإنجليز والسنوسيين في زمن الحرب العالمية (الأولى) على أساس فتح الطرق بين مصر وبرقة واتخاذ السلوم مركزاً للتبادل التجاري بين الفريقين وهذا من جانب السنوسيين ، ثم على أساس أن يتمتع السنوسيون من إنشاء زوايا لهم في الأراضي المصرية والاكتفاء بأن يكون للطريقة السنوسية ، الحق في قبول التبرعات بشروط معينة ، وأخيراً على أساس الاعتراف بوحدة جغوب أرضاً مصرية مع بقاء الإدارة المحلية في أيدي السيد محمد إدريس بطريق الوكالة . وكل هذا من جانب الإنجليز وعلى ذلك فقد نص الاتفاق الأخير (أولاً) على تسليم جميع الأفراد الذين يصلون إلى جهات لا يحتلها الطليان في برقة وسرت سواء أكان وصولهم بسبب غرق سفنهم أو لأي سبب آخر متى كان هؤلاء تابعين لبريطانيا أو لدولة من حلفائها أو كانوا من أية جنسية أخرى ، (ثانياً) تسليم جميع المضبوطات الترك والآخريين ، المنسوبين لدولة معادية ، إلى البريطانيين كأسرى حرب ،

وكذلك الأشخاص ، الذين ينسبون لدولة معادية لبريطانيا ويكونون تابعين لتلك الدولة إذا وقع هؤلاء الأشخاص في قبضة (السيد إدريس) ولسيادته الخيار إذا شاء في أن يبعدهم عن قارة إفريقيا . على أنه مما يجب ذكره أن السيد لم يسلم أحدا من هذا الطراز كأمرى حرب لدولة بريطانيا ، (ثالثا) إبعاد المفسدين والعاشين بالأمن ومحدثي القلاقل بين السنوسيين والحكومة البريطانية في الجغبوب وبرقة وعدم السماح لأحد من السنوسيين المسلحين بالإقامة في سيوه أو الجغبوب أو الدخول في جهة أخرى في الأراضي المصرية محافظة على الأمن والنظام في الحدود ، (رابعا) فتح طريق التجارة بين مصر وبرقة على أن تكون السلوم سوق هذه التجارة بشروط كان الغرض منها في الحقيقة مراقبة عدم تسرب شيء من هذه التجارة إلى أعداء بريطانيا وحلفائها . ولما كان السيد لا يريد أن يغفل أمر أعوان السيد أحمد الشريف فقد نص الاتفاق على أن الأشخاص المعتقلين في مصر والمشتبه فيهم بانحيازهم ومساعدتهم للسيد أحمد يطلق سراهم حتى يتبين للحكومة أن إطلاق سراهم لا يعود بالضرر عليهم ولا على الحكومة ، وأخيرا عهد في هذا الاتفاق إلى السيد محمد إدريس بإدارة شئون الجغبوب الداخلية ، ولو أن الجغبوب ستبقى كما كانت داخلة في الحدود المصرية .

وظاهر من نصوص هذا الاتفاق أن غاية الطرفين المتعاقدين كانت تجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى العلاقات القائمة بينهما ثم العمل على تأمين الحدود بين مصر وبرقة على قواعد تنفق مع القوانين وأصول المعاملات الدولية ، فضلا عن ذلك فإن السيد كان يفتي قبل كل شيء بفتح ثغر السلوم وهو طريق التجارة والأرزاق الآتية من جهة مصر خصوصا إلى برقة . وهكذا يكون السيد بفضل هذين الاتفاقيين مع الطليان والانجليز في عكرمة قد نجح في فتح ثغور الشاطئ ، ودرنه وطبرق وبنغازي ثم السلوم ومهد بذلك لزوال المجاعة التي هددت بقاء شطر عظيم من الأهلين في برقة والجبل الأخضر . وقد كان من أثر تدخله المباشر في مسألة المعتقلين بمصر أن أخذت السلطات الحكومية بالقاهرة تفك اعتقال هؤلاء رويداً رويداً .

وكان من أهم الدوافع التي حملت السيد إدريس على قبول الاتفاق مع الإيطاليين تخرج الأمور بالفيزان على نحو ما سبقت الإشارة إليه ، ثم تخرج الأمور في طرابلس على نحو ما سيأتي بيانه في الفصل التالي . وكان منشأ الصعوبات التي صادفها السنوسيون في كلا الجهتين ولا شك تدابير الأتراك الذين ساء لهم أن يروا السيد عاقداً العزم على الصلح مع العدو إنقاذاً للبلاد من ويلات المجاعة والطاعون وإعطاء الأهلين فسحة من الوقت للاستجمام بعد تعب الجهاد المتصل منذ عام ١٩١١ . أما فيما يتعلق بالفزان فقد انتهت الحال فيه إلى اضطرار السيد محمد عابد إلى مغادرة وار والنجاة بنفسه إلى الكفرة في سبتمبر ١٩١٧ ووقوع الفزان في قبضة الأتراك مما صار

يدعو الى اتخاذ إجراءات حاسمة سريعة من جانب السيد إدريس والسيد أحمد الشريف نفسه لتدارك الموقف في هذا الإقليم الذي هو دعامة السنوسيين في الجنوب . وسوف نرى في الفصل التالي كذلك كيف عالج السيدان الموقف في هذه الجهات . وأما فيما يتعلق بتدابير الأتراك والمؤيدين لهم فإن هؤلاء إلى جانب التأثير في السيد أحمد الشريف حتى يشترك معهم في الهجوم على الحدود المصرية كانوا من جهة أخرى يريدون أن يشتبك المجاهدون (والسنوسيون) في قتال مع الفرنسيين على حدود البلاد الغربية من أواخر عام ١٩١٥ . فقد حضر إلى مصراته في ١٢ أغسطس من هذا العام - أي في الوقت الذي كان قد بدأ يظهر سافرا تردد أحد زعماء الطرابلسيين من أهل مصراته وهو رمضان السويحلي أو الشتيوي وانقلابه على السنوسيين - حضر حسن الشريف أحد الضباط الطرابلسيين الذين تلقوا علومهم في تركيا وكانوا في الجيش العثماني ، لمقابلة السيد صني الدين وطلب إليه باسم نوري باشا أن يقوم مشتركا مع السويحلي بالهجوم على الحدود الفرنسية (بين طرابلس الغرب وتونس) بدلا من مهاجمة الطليان الخمس وفي مدينة طرابلس على حسب الخطة الموضوعية ، فرفض السيد صني الدين أن ينساق إلى حرب مع دولة ثالثة هي فرنسا إلى جانب إنجلترا وإيطاليا ، وعندئذ دب الخلاف بين السيد صني الدين وبين السويحلي الذي أيد رغبات العثمانيين ، فغادر السيد صني الدين مصراته إلى ورفلة ثم إلى البويرات - مركز ترهونة - وهناك اجتمع زعماء البلاد وشيوخها فأطلعهم السيد صني الدين على أسباب الخلاف بينه وبين رمضان السويحلي والأسباب التي جعلته يرفض الهجوم على الحدود الفرنسية التونسية نزولا على رغبة العثمانيين لأن المجاهدين - على حد قول السيد صني الدين - ما كانوا يستطيعون في الحقيقة الصمود أمام قوات ثلاث في وقت واحد ، بل إن من واجهم أن يفرغوا قبل كل شيء لمنازلة إيطاليا ، وقد أقر المجتمعون السيد صني الدين على رأيه ومع ذلك فقد حدث أن قام أحد الضباط العثمانيين بالهجوم على الحدود الطرابلسية التونسية في (ابن قردان) في سبتمبر ١٩١٥ وأرسلت الحكومة الفرنسية مندوبا إلى صني الدين يستفسر عما إذا كان الهجوم قد وقع بناء على إذن من السيد صني الدين نفسه ، فبادر السيد بإرسال كتاب إلى الضابط العثماني يأمره بالكف عن القتال وينذره باستخدام القوة ضده واسترجاعه عنوة إذا هو أصر على المضي في هجومه ، فاضطر الضابط العثماني حينئذ إلى التقهقر والعودة بعد أن أخذ أربعين أسيرا من الفرنسيين بعث بهم إلى واحة الكفرة عن طريق الفزان . وقد أطلق سمو السيد إدريس سراح هؤلاء الأسرى بعد ذلك وأرجعهم إلى بلادهم في عام ١٩١٩ .

وهكذا فشل تدبير العثمانيين وكانما عز عليهم أن يلحق بهم الفشل فكشفوا القناع

عن نياتهم وانهز كل من حسين الشريف وضابط عثمانى آخر يدعى سليمان ذهبى فرصة قيام السيد صفي الدين من ترهونة إلى ورفلة في طريقه إلى السلوم حتى يلحق بالسيد أحمد الشريف فاعترضه الضابطان بقوة في الطريق بين ترهونة وورفلة ودار القتال مع السيد صفي الدين ، ولكن السيد تغلب على قوتها واستطاع الدخول إلى قصر ورفلة ؛ ثم حضر رمضان السويحلي برجاله إلى خارج القصر واشترك مع العثمانيين في تضيق الحصار على السيد صفي الدين مدة أربعين يوما . ولما تمكن السيد صفي الدين من تحطيم هذا الحصار والخروج من ورفلة تعقبه المتحالفون الثلاثة واشتبكوا معه في معارك في وادي دينا وقرارة القطف ، ولم يخلص السيد صفي الدين من هذا المأزق سوى وصول النجدة إليه من عمر بك سيف النصر بقوات من قبائل العمامرة وأولاد سليمان ، وعندئذ اضطر السويحلي وصحبه إلى التوقف ، ونزل السيد صفي الدين في معطن الوشكة - بين سرت ومصراته - وانضمت إليه جماعة كبيرة من الزعماء والأعيان في مصراته وزليطن من عائلات عبد الملك ولاغا والمهرك وعمر شقلوف وعبد الله بك بتقداره ، ثم توجه الجميع إلى سرت ، ومنع السيد صفي الدين المجاهدين من الارتداد لاقتفاء أثر الضباط العثمانيين ورمضان السويحلي حقنا للدماء . (فبراير ١٩١٦) . فإذا تذكرنا أن هذه الحوادث جميعها وقعت في الوقت الذي كان يقوم فيه السيد أحمد الشريف - بتأثير من الأتراك قبل أي أمر آخر - بالهجوم على الحدود المصرية اتضح لنا مقدار الأخطار الجسيمة التي كان الزعماء السنوسيون قادة البلاد وأصحاب الإمارة فيها من أيام السيد محمد المهدي قطعا ودون حاجة إلى برهان ، يستهدفون لها في طرابلس وفي الجهات الأخرى خصوصا في الفزان التي كان للعثمانيين ضلع كبير في تحريك المقاومة في أنحاءها ضد السنوسية .

وقد حدث في أثناء إقامة السيد صفي الدين في سرت أن حضر في أوائل مارس ١٩١٦ الضابط الألماني مانسمان يطلب منه تصريحاً حتى يلتحق بالضباط العثمانيين الذين كانوا يريدون شن الغارة على الحدود الفرنسية في تونس ، ولكن السيد صفي الدين ما لبث حتى احتجزه عنده عند ما تبين أن مانسمان لم يكن يحمل أمراً بذلك من السيد محمد إدريس أو السيد أحمد الشريف ، ثم أرجعه تحت حراسة السنوسيين إلى إجدابية مقر السيد إدريس ، ولما كان السيد إدريس قد طلب إلى السيد صفي الدين الحضور إلى إجدابية فقد ارتحل السيد صفي الدين في أثر مانسمان إليها في الشهر نفسه ، وهناك وجد السيد صفي الدين السيد محمد إدريس ونورى باشا والمجاهد المصرى الشاب عبد الرحمن عزام . على أن السيد صفي الدين ما لبث حتى استأذن في السفر إلى الكفرة ، ف قضى بها بضعة شهور ولم يعد منها إلا في شهر فبراير ١٩١٧ ، ووجد عند عودته السيد محمد إدريس مشغولا بالمفاوضة مع الانجليز والطلبان

في عكرمة وبعيداً عن اجداية التي اتخذ منها العثمانيون في هذه الفترة العنصرية من تاريخ البلاد مركزاً ينشرون منه دعايتهم ضد الصلح والاتفاق ويدبرون منه المكائد ضد السنوسية .
فقد سبقت الإشارة إلى أن نوري باشا لم يكن راضياً عن دخول السيد إدريس في أية مفاوضات مع الانجليز والطلبان وحاول مراراً وهو بأجداية أن يقنع السيد بوجهة نظره ، ولكن كل هذه المحاولات لم تفد شيئاً في صرف السيد عن عزمه ، وظل نوري يتدبر الأمر فانتهاز فرصة خروج السيد صني الدين من اجداية إلى الكفرة وبعث إليه بكتاب والسيد ما يزال في (جالو) في طريقه إلى الكفرة يطلب إليه العودة إلى العقيلة حتى يشترك مع العثمانيين في القيام بهجوم على الانجليز في هذه المنطقة ، وأظهر له نوري باشا في كتابه استعداد الحكومة العثمانية لأن ترسل إليه غواصات تحمل المؤن والذخائر والمسال اللازم لتدبير هذا الهجوم . ولكن السيد صني الدين رفض هذه العروض التي وجد في قبولها ضرراً يلحق بالبلاد واستأنف السير إلى الكفرة .

وبما يجدر ذكره أن كتاب نوري باشا وصل إلى السيد صني الدين في شهر يولية ١٩١٦ أي في الوقت الذي كانت ما تزال تجري فيه المفاوضات في الزويتينة بين السيد إدريس وبين الانجليز والطلبان . وكان المقصود من القيام بهذا الهجوم المفاجيء ضد الانجليز في العقيلة تعطيل هذه المفاوضات وإخفاقها ، ومع ذلك وعلى الرغم من كل هذه المحاولات فقد ظل السيد إدريس متمسكاً بموقفه واستمرت المفاوضات سائرة في طريقها ، الأمر الذي سبب الحيرة للقائد العثماني نوري وجعله - إلى جانب مشروع الاستيلاء على واحة الفزان - يفكر في تهيج الخواطر ضد السنوسية وإثارة القلاقل بين العرب والمجاهدين السنوسيين أنفسهم . وعلى ذلك فإن السيد صني الدين عقب عودته من الكفرة في فبراير ١٩١٧ - أي بعد شهر من بدء مفاوضات عكرمة - سرعان ما أدرك حقيقة هذه الحركة الخفية ووجد أن الأتراك استطاعوا فعلاً أن يستميلوا إليهم دعاة في الأدوار أو المعسكرات السنوسية لتأليب المجاهدين على السيد إدريس نفسه ، فعلموا ذلك في دور حجرة مركز قبائل العواقر وفي تاكنس مركز العرقة والعبيد وفي مراده مركز البراعة والحاسة ، وكان في هذه الأثناء أن انتقل من اجداية إلى مصراته كل من نوري باشا وعبد الرحمن عزام بك ، وكان (العزام) من أقرب المقربين إلى نوري وموضع ثقته ويرى في هذا الحين عن إيمان وعقيدة ثابتة أنه من الخير أن يستمر الجهاد ضد الانجليز والطلبان وأن الجهاد وحده هو السبيل المثمر المؤدى إلى خلاص البلاد وتحريرها .

وأما السيد صني الدين فإنه بمجرد أن وقف على حقيقة الحال في اجداية ، بادر مسرعاً

بالذهاب إلى مكان مفاوضة السيد إدريس في عكرمة أي عند الطرف الآخر من برقة وعلى مسافة شاسعة من مقر حكومته ؛ وكان غرض السيد صني الدين من الذهاب إلى عكرمة أن يوضح للسيد إدريس حقيقة الأمور فوجد السيد إدريس نازلاً عند بين الأشراف بالقرب من الخيلي . وكان بما جعل السيد إدريس بعيداً عن الأخبار وهو بمكان المفاوضة أن (كردونا صحياً) كان قد أنشئ في تلك الآونة لمكافحة وباء الطاعون المنتشر في البلاد وقتذاك ، وعلى ذلك فإنه بمجرد أن وقف على حقيقة الحال من السيد صني الدين قرر الذهاب بنفسه إلى اجداية لتدارك الموقف قبل أن يستفحل الشر ، فعاد ير الأشراف إلى تاكنس حيث كان السيد عمر المختار يقيم مع قوة من المجاهدين ، فسار المختار مع السيد إدريس إلى المكان الذي كان معسكراً به قائد السنوسيين الآخر قجة عبد الله السوداني فأخذه السيد بجيشه وسار الجميع قاصدين اجداية ، واخترقوا النطاق الصحي ثم عسكروا خارج المدينة وضربوا حول معسكر الأتراك بالمدينة نطاق الحصار ثم خير السيد إدريس المحاصرين بين أمرين : إما التسليم وإما الذهاب واللحاق بنوري باشا في مصراته واعتقل السيد جماعة من العثمانيين وأنصارهم فأرسل فريقاً منهم إلى الجغبوب وفريقاً آخر إلى الكفرة ، وهكذا استطاع أن يحمي حركة كانت لحسن الحظ لا تزال في مهدها ، وبمجرد أن تم له ذلك عاد السيد إدريس إلى عكرمة لإنجاز الاتفاق مع الانجليز وحلفائهم الطليان .

ولا جدال في أن مصلحة البلاد في هذه الظروف الدقيقة كانت تقتضي إنشاء الحكومة الوطنية المنظمة يمين على شئونها السيد إدريس الذي استطاع بفضل حكمته وبعد نظره أن يقر السلام في القطر البرقاوي ، وكان إبرام اتفاق عكرمة (أو طبرق) خير وسيلة كما أثبتت الحوادث بعد ذلك لتحقيق السلم وصور مصالح العرب المجاهدين في هذا القطر وإتاحة الفرصة لتنظيم القبائل تنظيمياً من شأنه أن يجمع الكلمة ويقضي على بذور الفتنة والاضطراب وكان الوصول إلى هذا الاتفاق مع الطليان بإعتراف الإيطاليين أنفسهم من أكبر العوامل التي ساعدت على استقرار الأمور في برقة ، وساعدت كذلك على تأييد نفوذ السيد محمد إدريس حتى بدأ الأهلون من ذلك الحين يلقبون السيد بالمنتقد ، . فضلاً عن ذلك كان تأييد نفوذ السيد من غير شك في مصلحة هذه البلاد لعدة أسباب لا تلبث أن تتضح إذا عرفنا أن غاية الطليان أنفسهم من إبرام اتفاق عكرمة كانت تمكينهم من أن يتصلوا مباشرة بالأهلين وأن يمدوا نفوذهم في داخل البلاد عن طريق هذا الاتصال المباشر ؛ وهذا ما كان السيد إدريس يدركه حق الإدراك ويعمل من جانبه على تعطيله ومقاومته ، ثم تكلمت مساعيه بالنجاح فاستطاع أن يضعف نفوذ الإيطاليين ويقضي عليه إلى درجة بعيدة .

ذلك أن جهود السيد ما لبثت حتى تركزت في الفترة التالية في أمرين هامين : أولاً إقامة الحكومة الوطنية الرشيدة التي تحفظ صواحل البلاد وتولي زعامة العرب وتتخذ موقف الدفاع عن مصالحهم دائماً والمطالبة بكامل حقوقهم ، وثانياً مقاومة نفوذ الطليان ومنع اتصالهم بالعرب بكل الوسائل في داخل البلاد . أما فيما يتعلق بالأمر الأول فقد كان للسيد مواقف معروفة عند حدوث أى اختلاف بين العرب الخاضعين لسلطانه وبين إخوانهم الذين ظلوا مقيمين في منطقة النفوذ الإيطالي فقد تحدت منطقة نفوذ السيد ومنطقة نفوذ الطليان على السواء في اتفاق عكرمة بالصورة التي سبق ذكرها . فكان يفصل بين المنطقتين خط سماه العرب (خط النار) بسبب ما كان يقع حول هذا الخط من مناوشات منشؤها التنازع بين العرب في المنطقتين على الجهات الداخلة في حدود السيد والخارجة عن هذه الحدود عندما شرع العساكر السنوسية يجمعون (العشر) وأموال الزكاة من القبائل . وكان الطليان يشجعون هذه المناوشات من جانبهم واستعداد القبائل الخاضعة لسلطانهم ضد السيد لأن سياسة الطليان في تلك الآونة كانت تدور حول الحد من نفوذ السيد وإضعاف سيطرته . ولا جدال في أن الطليان عندما عقدوا اتفاق عكرمة لم يكونوا خالصي النية أو يريدون حقيقة إنشاء حكومة وطنية ؛ بل إنهم كانوا يبغون باعتراف كتابهم أنفسهم أن يتخذوا من عقد هذا الاتفاق الموقت وسيلة تمكنهم من الاتصال المباشر بالأهلين بعد أن تزول أسباب النزاع الظاهرة بينهم وبين السنوسية في برقة وذلك في وقت كان من دأب زعماء العرب والمجاهدين أن يمنعوا هذا الاتصال بكل الطرق . وكان كل أمل الطليان بعد انتهاء الحرب العالمية (الأولى) وبعد أن يكونوا قد مهدوا بفضل هذا الاتصال المباشر بالقبائل السيل لاستمالة العرب إليهم أن يستطيعوا عقد اتفاق آخر يكون أكثر ملاءمة لمصالحهم ويكفل لهم الاحتفاظ بنفوذهم في البلاد . وأدرك السيد لإدريس غايات الطليان وأغراضهم واعتمد على مهارته السياسية وحنكته في تعطيل هذه الأغراض والعمل جدياً من أجل إنشاء الحكومة الوطنية الموطدة تلك الحكومة التي سوف يصبح في استطاعتها عندما تضع الحرب العالمية أوزارها أن تجابه الطليان بالأمر الواقع وترغمهم على الاعتراف بحكومة العرب الإسلامية الوطنية في برقة .

ولم يستطع الطليان أن يحققوا أغراضهم في هذه الآونة لعدة أسباب من أهمها فيما يتصل بالقطر البرقاوي ذاته بقظة السيد والتفاف العرب حوله ثم تدهور الحالة السياسية في إيطاليا بعد انتهاء الحرب العالمية (الأولى) . ذلك أن إيطاليا خرجت من تلك الحرب منهوكة القوى ولا يحسر أحد من رجال حكومتها على إرسال إمدادات عسكرية إلى ليبيا للقيام بعمليات حزبية جديدة ، أضف إلى هذا أنه سرعان ما ظهرت بايطاليا الأحزاب السياسية الكثيرة التي

ما فتت تنادى بالمبادئ الحرة منذ ظهورها وتبني دعايتها على ضرورة استمتاع الشعوب قاطبة بالحرية ، فكان من المنتظر في هذه الظروف أن يعمد الطليان إلى التفاهم مع المجاهدين في برقة والعمل بالطرق الدبلوماسية من أجل استبدال اتفاق عكرمة المؤقت باتفاق آخر قد يتوصلون بفضلهم إلى تنفيذ مآربهم وفضلا عن ذلك فإن الطليان كانوا يلاقون في القطر المجاور طرابلس متاعب كثيرة على نحو ما سيأتي ذكره بسبب استمرار مقاومة المجاهدين وإنشاء الجمهورية الطرابلسية (في نوفمبر ١٩١٨) ووجدت إيطاليا عندما عجزت عن إرسال الإمدادات إلى طرابلس أن تسلك طرقا أخرى لدعم سلطانها فكان من أثر ذلك إبرام اتفاق سواني بن بادم مع حكومة الجمهورية الطرابلسية في ٢١ أبريل ١٩١٩ ، وهو الاتفاق الذي قبلت بمقتضاه الجمهورية (القانون الأساسي) للقطر الطرابلسي . وقد صدر هذا القانون فعلا ونشر رسميا في أول يونيو من العام نفسه ، وكان الغرض من هذا القانون على نحو ما سيأتي بيانه إنهاء حالة النزاع القائمة في طرابلس بين العرب والطليان على قاعدة الاعتراف بسيادة ملك إيطاليا فكتور عمانويل الثالث على طرابلس مع إنشاء مجلس نواب محلي ومجلس حكومي يشترك فيه وطنيون .

وعلى ذلك فقد اتجهت نوايا الطليان في برقة إلى تسوية علاقتهم مع حكومة السيد الوطنية على أسس النظام الذي وضعوه للقطر الطرابلسي وكان أهم ما يعنيه من ذلك إدخال القانون الأساسي إلى القطر البرقاوي لسببين أولهما تقرير السيادة الإيطالية بمقتضى اتفاق دائم بدلا من اتفاق عكرمة المؤقت على القطر البرقاوي ثم استخدام المزايا التي يتضمنها القانون الأساسي في كل ما كان متصلا بحقوق الوطنيين وواجباتهم — وهي حقوق وواجبات نص عليها القانون الأساسي في الفصل الخامس منه وكلها تكفل الحرية الشخصية والدين والعادات والملكية وما إلى ذلك — نقول استخدام هذه المزايا لتأييد غريزة الحياة الاستقلالية لدى القبائل العربية ثم العمل على تعزيز هذه الحياة الاستقلالية ونموها بصورة تمكن الطليان في النهاية من انتزاع هذه القبائل للعربية من أحضان السنوسية معتمدين في بلوغ هذه الغاية على ذلك البرلمان أو المجلس النيابي المحلي الذي نص على إنشائه القانون الأساسي إذ أنهم كانوا يتوقعون أن يصبح هذا البرلمان وسيلة مؤاتية لتدبير ظهور مقاومة جديدة ضد نفوذ السلطات الوطنية الحاكمة في برقة . وعلى ذلك فقد اهتم الطليان بأن ينالوا من السيد اعترافا بهذا القانون الأساسي وشرعوا في مفاوضاته من أجل عقد اتفاق آخر بدلا من اتفاق عكرمة المؤقت .

وكان السيد ولا شك واقفاً على حقيقة نوايا الإيطاليين ويدرك تماماً خطورة الأمر الذي يضمرونه ؛ ومع ذلك فقد كان السيد من ناحيته ظاهر الرغبة كذلك في أن يستبدل

باتفاق عكرمة المؤقت اتفاقاً آخر يحمل صيغة الاستقرار والإستدامة من جهة ، كما انه لم ينفذ من إدخال القانون الاساسى إلى القطر البرقاوى أو كمن يخشى عواقبه من جهة أخرى . والسبب فى ذلك أنه كان من مصلحة تلك الحكومة الوطنية الناشئة التى أوجدها السيد فى برقة أن تستقر الأمور فى نصابها نهائياً حتى يستطيع أن يستكمل للبلاد تلك المنافع التى أمكن سيادته أن ينتزعها من الاتفاق السابق . فضلاً عن ذلك فقد دلت التجربة الماضية على أن تسوية الموقف مع الطليان خطوة ممهدة فى الواقع للاعتراف بحق المجاهدين العرب فى إنشاء الحكومة الوطنية برئاسة زعمائهم ، أضف إلى هذا أن هذه التسوية ساعدت - على غير ما كان يظن - الطليان - على تعزيز الزعامة العربية الوطنية فى شخص السيد والتفاف قلوب العرب حوله حتى سموه « المنقذ » كما ذكرنا ووجدوا فى الصوت الذى رفعه السيد دائماً من أجل الدفاع عن حقوقهم صدى مدوياً وترديداً لما كان يحول بخواطرم ويدور على ألسنتهم ، وعلاوة على ذلك فإن القانون الاساسى كان إلى جانب الحقوق التى سبقت الإشارة إليها يكفل للعرب إنشاء المدارس ومعاهد التعليم واحترام لغتهم وشعائرهم ، ولذلك بات منتظراً إذا أدمجت هذه الحقوق التى ذكرها القانون الاساسى المعطى لطرابلس فى اتفاق دائم بين الطليان والسيد أن يتمكن السيد من المضى فى خطته بصورة تضمن تحقيق أغراضه لمصلحة البلاد التى يهيم على شئونها وكان السيد من غير شك يعتمد على نفس المهارة التى مكنته من الاستفادة من اتفاق عكرمة فى إمكان الاستفادة كذلك من أى اتفاق جديد قد يكون من أهم مزاياه إضفاء صفة الاستقرار والدوام على « الوضع » الذى تمتعت به برقة ، ولعل قيام الحكومة الوطنية « الفعلية » فى برقة منذ عام ١٩١٧ كان أكبر ضمان لاستطاعة البرقاويين أن يفيدوا من أى اتفاقات جديدة تشتمل على الأقل على مبدأ الحكومة الذاتية .

وعلى ذلك تلاقى رغبات الطليان من جانب ورغبات السيد من جانب آخر وإن كانت أغراض كل فريق تختلف فى جوهرها عن أغراض الفريق الآخر ، بدأت المفاوضات وتولى الوساطة فى هذه المفاوضات أحد رجالات العرب المحنكين عمر باشا منصور الكنجيا . وكان عمر منصور الكنجيا نائباً فى مجلس المبعوثان العثماني ، منحه السلطان عبد الحميد رتبة « الباشوية » وعين قائمقاماً فى جالوثم استمر مبعوثاً فى الأستانة بعد الاحتلال الإيطالى وجاء إلى مصر عقب إعلان الحرب الطرابلسية حتى يطلب من الانجليز التدخل فى مسألة احتلال الإيطاليين القطر الليبي ، فأرسل اللورد كيتشنر وقتذاك إلى السيد أحمد الشريف يخبره بمساعي منصور باشا الكنجيا ويترك له الخيار فى الموافقة على تدخل الانجليز إذا أراد الصلح أو إبطل هذا المسعى إذا كان لا يزال مصرًا على القتال . ولما كان السيد أحمد الشريف مصمماً

على الاستمرار في القتال ضد الطليان إلى النهاية فقد أخفقت مساعي عمر باشا وعند ما أعلنت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) فضل عمر باشا البقاء في القطر المصري حتى إذا انساق السيد أحمد الشريف إلى المهجوم على الحدود المصرية خير الانجليز عمر باشا بين الذهاب إلى وطنه أو إلى أي بلد آخر فاختر الذهاب إلى رومة ثم بقي فيها إلى وقت بدء المفاوضات بين السيد محمد إدريس وبين الطليان فعاد إلى برقة وتولى الوساطة بين الفريقين . وأما هذه المفاوضات فقد أسفرت عن عقد اتفاق الرجعة في ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ ووقع هذا الاتفاق عن الحكومة الإيطالية الوالي ديمارتينو . وكان اتفاق الرجعة يتألف من مقدمة وعشرين مادة إلى جانب ملحقين .

ويقوم اتفاق الرجعة على مبادئ واضحة معينة: أولها الاعتراف بإمارة السيد محمد إدريس مع تقسيم القطر البرقاوي إلى قسمين ظاهرين ، قسم السواحل والأماكن الواقعة على الحدود وهذه ظلت الراية الإيطالية تحقق عليها ، وقسم داخل البلاد بأكملها بما في ذلك واحات أوجله وجالو والكفرة والجغبوب المستقلة داخليا ، وهذه - على نحو ما ذكرته مقدمة الاتفاق - فوضت الحكومة الإيطالية إدارتها إلى الأمير وصار يرفرف عليها علم السنوسية . ولكنه بما يجدر ذكره أن « إمارة » السيد إدريس - ومركزها اجداية - كانت تمتد فعلا إلى السواحل وأماكن الحدود لأن اتفاق الرجعة نص في مادته الثانية على أن « للأمير الحق في الإقامة والتجوال في جميع أنحاء القطر البرقاوي بالاتفاق مع الحكومة وتكون الحكومة (الإيطالية) مسرورة كلما قدم لها ملاحظات على جريان الأمور لأجل مصلحة البلاد وسعادة أهلها » ، أي أن هذه المادة أعطت الأمير الحق في الإقامة والتطواف في المناطق الخاضعة لإدارة الطليان ، كما أنها أعطت « حق التدخل » في شئون هذه الإدارة تدخلا فعليا كلما بدا له ذلك في كل أمر يتعلق بمصالح العرب ، وفضلا عن ذلك فإن اتفاق الرجعة في مادته الثالثة التي استبقت السواحل وأماكن الحدود في قبضة الإدارة الإيطالية نص على أن الغرض من استبقائها إنما كان « حفظا لسلامة أراضيها إزاء الدول » .

ومعنى هذا أن إخراج هذه المناطق من دائرة نفوذ الأمير المباشرة لم يكن إلا لأغراض دفاعية أو عسكرية وحسب ، وكان هذا بمثابة المسوغ الذي ارتأته الحكومة الإيطالية لبقاء هذه المناطق منفصلة عن إدارة الأمير مباشرة ، وفضلا عن ذلك فإن هذا المسوغ كان يحمل في طياته معنى الاعتراف بحقوق الإمارة حتى على هذه الجهات التي أخرجت من نفوذها المباشر . وقد ترتب على الاعتراف بمبدأ (الإمارة) أن بات ضروريا تعيين شكل الحكومة الوطنية الجديدة من جهة ثم تعيين تلك الحقوق التي كان يقتضى أن يستمتع بها الأمير في هذا الوضع الجديد . وعلى ذلك فقد نصت المادة الأولى على أن الإمارة وراثية في « أولاد الأمير

وأفضاله الأكبر فالأكبر وفي الوقت الحاضر ينتخب الأمير بمعرفة أحد أفراد عائلته خلفاً له في رتبته وما يتعلق به ، ثم كفلت مقدمة الاتفاق حقوق هذه الإمارة فجاء في الفقرة (ح) أنه يجب على الحكومة (الإيطالية) أن تستمع إلى رأى الأمير وذلك في أوامرها إذا أصدرت أوامر تتعلق بالوائح أيضاً كالأنظمة القانونية مثلاً ، كما جاء في الفقرة (د) أن ويكون للأمير السنوسى الحق في التشريعات والأشعة والنوع ، التي فصلت على حدة في ملحق حرف (ا) من الاتفاق ، وتعهدت الحكومة بمقتضى المادة الخامسة أن تضع تحت تصرف الأمير « باخرة لاثقة بمقامه ، ، وفضلاً عن ذلك فقد بات من حق الأمير بمقتضى المادة العاشرة « إذا اقتضت الحالة أو المصلحة العامة أن يشير على الحكومة بتخفيف جزاء أحد المحكومين أو يسعى في استحصال العفو له بالطرق القانونية ، ، كما تعهدت الحكومة (في المادة السابعة عشرة) بأن تعين « فيلقاً مخصوصاً للأمير - حتى يسهروا على حراسة سموه - ويقوموا بالخدمات الشريفة وبالمحافظة على الأمن في الواحات والجهات التي تفوض الحكومة إلى الأمير حفظ راحتها وأمنها وذلك بشرط ألا يكون - هذا الفيلق - دون الألف ويسوغ زيادة عددهم باتفاق مع الحكومة ، وفي ملحق الاتفاق الثانى (حرف ب) تحددت مخصصات الأمير وأعضاء الأسرة السنوسية .

وأما المبدأ الثانى الذى قام عليه اتفاق الرجعة فهو أن تقرر أمهات القواعد التي تضمنها القانون الأساسى الصادر للقطر الطرابلسى في صلب الاتفاق مع السيد أولاً فيما يتعلق بشكل الحكم الداخلى وثانياً في جميع ما يكفل الضمانات الجهورية لإمكان إنشاء حكومة وطنية مستقرة يصبح في استطاعتها أن تعمل على إسعاد أهل البلاد والسير بهم في طريق الإصلاح والتقدم . وعلى ذلك فقد وضعت الحكومة الإيطالية (قانوناً أساسياً) بمرقة صدر في أول مايو ١٩١٩ ويختلف في نصوصه عن القانون الأساسى المعطى لطرابلس اللهم إلا بالاستعاضة عن كلمة طرابلس بكلمة برقة عند كل مناسبة . وبمقتضى هذا القانون الأساسى صارت حكومة برقة تتألف « أولاً - من وال يقبمه (ملك إيطاليا ويجمع بين كل من الولاية المدنية والعسكرية على نحو ما حددته الأحكام الخاصة بذلك . ثانياً - من مجلس نواب محلى يتألف من نواب قبائل القطر وحضره ، يلحق بهم عدد معلوم من أعضاء يستحقون الجلوس فيه بمقتضى وظائفهم ومنهم من يعينهم الوالى وثالثاً - من دوائر رئاسية (مصالح) مدنية وعسكرية ينصب رؤساؤها بأمر ملوكى ، وهذا الترتيب على حسب ما جاء في الفصل الثالث عشر حددته الأحكام الخاصة بذلك ، ثانياً - من مجلس نواب محلى يتألف من نواب قبائل القطر وحضره . يلحق بهم عدد معلوم من أعضاء يستحقون الجلوس فيه بمقتضى وظائفهم

ومهم من يعينهم الوالى ، وثالثاً - من دوائر رئاسية (مصالح) مدنية وعسكرية ينصب رؤساؤها بأمر ملوكى ، وهذا الترتيب على حسب ما جاء فى الفصل الثالث عشر من القانونين الأساسيين لبرقة وطرابلس . وقد فصلت المواد - أو الفصول - التالية (١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩) ويقابل هذه نفس المواد من القانون الأساسى لطرابلس) شروط الانتخاب للمجلس النيابى وعدد أعضائه ومدته ؛ وهذه كانت أربع سنوات . وأما فيما يتعلق باختصاصات المجلس النيابى إلى جانب الموافقة على الترتيبات اللازمة لإجراء الأصول المندرجة ، فى القانون الأساسى نفسه ، فقد نص الفصل العشرون من القانونين على أن للمجلس أيضاً ، القرار : (ا) فى جعل الضرائب الحكومية الموضوعه مباشرة مع ما يخصها من كيفية التنفيذ والتوزيع على من جعلت عليه تلك الضرائب ؛ (ب) فى القواعد المرشدة للخدمات المدنية العامة الجارية بالمبالغ المخصصة لها فى القسم الاعتيادى لميزانية قطر برقة بشرط ألا تزيد المبالغ المطلوبة على القدر المعين فى الميزانية ، وقد التزم الطليان مرة أخرى فى المادة أو الفصل التاسع من القانونين الأساسيين بأن لا تجعل فى قطر برقة ضرائب حكومية مضروبة مباشرة إلا إذا عمت جميع سكانه أو كل من له مصالح فيه ووافق عليها مجلس النواب المحلى ، وللجلس أن يقرر كيفية تنفيذها وتوزيعها على من جعلت عليه تلك الضرائب ولا تصرف الواردات الناشئة بما ذكر إلا فى مصالح برقة لا غير .

وفضلاً عن ذلك تضمن القانونان الأساسيان (لبرقة وطرابلس) جميع المبادئ التى تكفل حرية العبادة والدين والملكية الشخصية وحرية الطبع والاجتماع فى حدود القانون وحق التعلم وتأسيس المدارس واحترام لغة البلاد ، وحق مباشرة الحرف العالية فى إيطاليا بشرط حصول (البرقاويين) على الشهادات اللازمة ، ثم أعنى الوطنيون من الخدمة العسكرية الإلجبارية ، وإنما يجوز تشكيل قوة عسكرية محلية بتجنيد اختيارى (يجرى تنظيمه) بمقتضى تنظيمات خصوصية ، وقد تضمنت ذلك كل المواد أو الفصول : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ويقابلها نفس المواد فى القانون الأساسى الصادر لطرابلس ؛ وعلاوة على ذلك فقد نص الفصل الحادى والثلاثون - ويقابله الفصل الثلاثون فى القانون الصادر لطرابلس - على أن ، الأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية وحقوق العائلة والموارث والمناسك الدينية ترفع إلى المحاكم الشرعية فيما يخص الوطنيين المسلمين ، وإلى محاكم الإلجبار فيما يخص الوطنيين الإسرائيليين ، وكذلك تضمن القانون الأساسى لبرقة بضعة فصول متعلقة بتنظيم الحكومة المحلية من حيث تقسيم سكان برقة ، باعتبار تركيبهم منذ القديم إلى قبائل وبطون وهى العائلات وأقسام لكل بطن أى عائلة شيخ ، كما أن لكل قبيلة شيخها هو شيخ المشايخ ، على أن يكون

رخصة امتياز لأجل إجراء أعمال إصلاحية أو تجارية في قطر بنغازى كله ، ولكي تبين للناس
أجمعين أن الحكومة لا تريد إيحاء مصالح لأحد خلافاً لأبناء البلاد من الآن فصاعداً على
أرباب كل مشروع كبير يزيد رأس ماله عن ٥٠٠ ألف فرنك أن يقيموا اكتباباً عاملاً لا يقل
عن ربع رأس المال يكون مخصصاً لأبناء الوطن ومن جملتهم العائلة السنوسية الكريمة دون
غيرهم ويتركوه مفتوحاً لمدة ستة أشهر كاملة ليشاركوا معهم في المشروع ، وفي المادة التاسعة
التزم الطالبان بعدم فرض أية ضرائب من غير أن يكون المجلس المحلي قد بحث في ذلك وقرر
إمكانه أو عدمه ، فإذا حدثت أحوال ترمى فيها من المصلحة استشارة بعض ذوي المكانة
غير الحائزين لصفة النيابة فيمكن الحكومة أن تستقدمهم وتستشيرهم في ذلك الموضوع ،
كما أعني « العرب » من أهالي قطر برقة كافة من الخدمة العسكرية لإلزام تطوع بحريته ورضاء
نفسه كما ورد في القانون الأساسى ، (المادة ١٢) ، ونصت المادة ١٣ على أن « تؤسس بكل
سرعة ممكنة مدارس ابتدائية وإعدادية حسب ما يقتضيه الموقع تدرس فيها جميع الفنون
الدينية والعصرية ، فتدرس بها المبادئ الدينية واللغة والعلوم الإسلامية والآداب العربية
وتاريخ العرب للمسلمين في جميع صفوف المدارس الابتدائية والوسطى باللغة العربية .
وأما سائر العلوم فتدرس باللغة الإيطالية (حسب المادة ١١ من القانون الأساسى) .
« وهكذا يعترف الطرفان - تكلمة المادة ١٣ من اتفاق الرجمة - بلزوم تأسيس
مدرستين إعدادية وعالية في بنغازى وإعدادية في درنة وواحدة رشدية في كل من طبرق
وانجدانية والمرج وعند اللزوم واحدة رشدية في كل من مراوة والزاوية البيضاء ،
وأما المكاتب الابتدائية فتؤسس جميعها في المراكز الداخلية والشواطىء ويكون جلب
الأولاد لها تكليفاً إجبارياً على الأهالى المسلمين . وأما ما يختص بالنظام المدرسى فسيقرره
مجلس النواب والمعارف الخصوصية التي يمكن أن تشكل لهذا الغرض ، واعترفت المادة
الرابعة عشرة باللغة العربية لغة رسمية إلى جانب الإيطالية في برقة ، وفقاً للقانون الأساسى ،
وأيضاً في المحاكم تكون المرافعات بالإيطالية والعربية إذا أمكن .

وأما فيما يتصل باختصاصات مشايخ القبائل ومجالس الشيوخ التي نص عليها القانون
الأساسى لبرقة فقد نصت المادة السادسة من اتفاق الرجمة عند الكلام عن نزع الأسلحة
وفض الأدوار أو المعسكرات على أن يكون مجلس الشيوخ ملزماً بما فرض عليه في المادة
التاسعة من القانون الأساسى وأن « يكون رؤساء القبائل ومشايخ المشايخ هم الذين يديرون
شئون قبائلهم على حسب نص القانون الأساسى ، ووفقاً لهذا القانون يكونون هم المسؤولين إزاء
الحكومة عن حفظ النظام والأمن في الأراضى القاطنة فيها قبائلهم والتي هي بمنزلتها ، ثم

نصت المادة الثامنة على أن ترتب الحكومة لمشايخ قبائل الواحات ومشايخ القبائل الأخرى معاشات دائمة ، باعتبار دفاتر الأسماء التي يقدمها الأمير للحكومة .

ولما كان إطلاق التجارة ضروريا حتى تأتي المتاجر والأرزاق إلى برقة والجبل الأخضر فلا يعرض القطر البرقاي لأخطار المجاعة على نحو ما حدث سابقا ، وكانت البلاد لاتزال تعاني من آثاره ، فقد نصت الفقرة الثانية من المادة التاسعة عشرة على أنه ، تطبيقا للبادي الحرة ، تكون التجارة حرة في كل البلاد حتى إلى أقصى الداخلية والعكس بالعكس ، وتعهدت الحكومة الإيطالية بمساعدة المبادلات التجارية بأحسن وجه حتى بإجراء ما يستفيد منه تجار القوافل من الأعمال النافعة والإنشاءات الصالحة ، أما الأمير فهو من جهة يتعهد باستعمال نفوذه العظيم في الإرشاد والإقناع كي لا يحول أحد بأي وجه كان دون مد الطريق والسكك الحديدية وخطوط البريد والأوتومبيلات والسيارات والتلفونات والتليفونات . ودون الأشغال اللازمة كرمس الأراضي ومساحتها ، ودون العمليات التي تقتضيها القوانين العقارية فإن مثل هذه الأشغال كلها لا بد منها لتعمير البلاد وترقيتها وترويج تجارتها .

وكان اتفاق الرجعة لا يخلو من أمور التزم بها الأمير ، من ذلك ما جاء في الفقرة الأولى من المادة التاسعة عشرة نفسها حيث تعهد سموه بأن يبذل قصارى جهده في معاونة الحكومة لأجل حسن تطبيق القانون الأساسي (وذلك بأن) يسهل لدى الأهالي تنفيذ هذا القانون وفروعه المشروط عرضها على مجلس النواب المحلي لكي يصادق عليها ، فيتمكن أبناء البلاد من تدبير شئون أنفسهم بما يستحقون من الأعمال الحرة .

وقد تقدم كيف أن الأمير كان لا يقل رغبة عن الإيطاليين في تطبيق هذا القانون الأساسي في البلاد للأسباب التي ذكرت ، ومن أهمها تقرير (الوضع) الذي نالته برقة على قاعدة إنشاء الحكومة الذاتية في ظل الإمارة السنوسية . وكذلك نصت المادة الثامنة عشرة على أن يمنع الأمير بصورة قطعية عن تحصيل ما يقال له الجرك وعن جباية الويركو والأعشار وغير ذلك ولا تعارض الحكومة في قبوله لشخصه أو لإرواياه الزكاة الدينية المقدمة له طوعا وبدون إكراه حسبما يعطيه الشرع الشريف .

ولعل أخطر الالتزامات وأكثرها صعوبة كانت تلك التي نصت عليها المادة السادسة الخاصة باختصاصات رؤساء القبائل ومشايخ المشايخ ، والتزامات مجلس الشيوخ القبلي فقد جاء في هذه المادة أنه ، سترك لأهالي القطر البنغازي من الأهالي الحاضر والبادية ما عندهم الآن من السلاح ليحافظوا على الأمن ويدافعوا عن أنفسهم مع بقاء مجلس الشيوخ

ملزماً بما فرض عليه (بمقتضى مواد القانون الأساسى لقطر بنغازى) وهكذا يكون رؤساء القبائل ومشايخ المشايخ هم الذين يدبرون شئون قبائلهم حسب نص القانون الأساسى ووفقاً لهذا القانون يكونون هم المستوain إزاء الحكومة عن حفظ النظام والأمن فى الأراضى القاطنة فيها قبائلهم والتي هى بمنزلتها ، ولذلك — وهنا الغرض الهام من هذه المادة — سيلقى الأمير بصورة دائمة الأدوار وقرقولاته وكل التشكيلات السياسية والإدارية والعسكرية أياً كانت من الجهات التى تعهد إدارتها إليه ويكون إجراء ما ذكر فى الفقرة السابقة فى مدة لا تزيد عن ثمانية أشهر من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق .

هذه كانت مواد اتفاق الرجعة ، وفى المادة الأخيرة وهى (المادة العشرون) من هذا الاتفاق جاء النص على « أن المتعاقدين يتعهدان بأن يعيدا النظر على ما لم ينص عليه فى هذا من المسائل الواردة فى التسوية السابقة التى قبلها السيد إدريس مبدئياً وعلى كل مسألة تنشأ بعد هذا الاتفاق ، فتحل المسائل المذكورة بصفة ودادية وموافقة للبادئ المقررة هنا ، مثلاً كبنيات تحصيل رسوم الجمر وغيرها المفوضة لإرادتها المختارة إلى الأمير .

وبمقتضى إصدار القانون الأساسى لقطر برقة (أول مايو ١٩١٩) وإبرام اتفاق الرجعة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ وضعت إذن الأساس التى قام عليها نظام الحكومة الوطنية فى ظل الإمارة السنوسية فى شطر كبير من القطر البرقاوى وإن كانت الإمارة الوطنية الجديدة على نحو ما سبق توضيحه — قد امتد ظلها حتى شمل بطريق غير مباشر تلك الأصقاع التى ظلت فى حوزة الطليان وتحت إدارتهم فى السواحل وكان مقر الإمارة السنوسية فى اجداية . وأما الخط الفاصل بين هذه الحكومة السنوسية وبين المناطق التى ظلت تحت إدارة الطليان مباشرة بعد اتفاق الرجعة ، فكان يمتد من جنوبى (خميس) وسلوك والرجعة إلى شمالى دور الأبيار — الذى يدخل ضمن المنطقة السنوسية — ثم يجرى فى إقليم الجبل الأخضر شمالى سيدى ميسوس وسيدى جبريل ، فىمى بغوط ساس ويمتد إلى شمالى القصور ثم ينحرف إلى جهة مراوة فيمر إلى شمالها وجنوبى سيدى رافع ، ثم ينحرف صوب الصنصاف ويمر شمالى بشارة ثم يجرى بين خولان والقبه وينحرف صوب الشمال إلى مرتوبة ومنها إلى التيمى ويمر بين الغزالة وشمالى زاوية المرصص إلى طبرق . وهكذا يدخل فى حدود المنطقة السنوسية مرادة والجعيوب والكفرة واجداية (العاصمة) وبرقة البيضاء وبرقة الحمراء .

وقد أخذ السيد إدريس ينظم حكومته الوطنية . وفى الواقع كان اهتمام الأمير بتشكيل هذه الحكومة العربية الوطنية ظاهراً من أيام مفاوضاته الأولى فى عكرمة ، كما ذكرنا سابقاً

وكانت أولى الخطوات التي اتخذت في هذا السبيل القضاء على مكابد الأتراك وتطهيره ،
اجداية من العناصر التي كان يعتمد عليها هؤلاء في تعطيل جهود السيد . وقد كلف السيد عند
رجوعه من اجداية حتى يستأنف المفاوضات في عكرمة ، السيد صفي الدين بأن يتوجه إلى دور
(أو معسكر) الأييار مركز العواقير الجديد بعد أن تحول مركزهم من وادي حجرة ، وذلك
حتى يتسلم من الطليان العتاد والأسلحة والذخائر اللازمة لاتخاذ الحيلة ضد مغامرات رمضان
شديوي (سويحلي) الذي كان يريد في هذه الآونة (سبتمبر وأكتوبر ١٩١٧) الإغارة على
برقة وغزوها . وكان السيد قد طلب هذه الأسلحة والذخائر من الطليان استعداداً للدفاع عن
حدود البلاد . فوصل السيد صفي الدين إلى الحزوية بين تاكنس والأييار وهناك وجد نتيجة
لمكابد الأتراك السابقة ضد السيد إدريس أن الحرب كانت قائمة فعلا بين قبائل عرفة والعييد
وبين المدرسة والعييد وعرفة ، يغير الجميع على بعضهم بعضا بغية النهب والسلب ، كما وجد
عصابة من قطاع الطريق بين دور الأييار وبين تاكنس أقامت حكومة أسمتها (حكومة الصلب)
فأشار السيد صفي الدين على السيد إدريس بضرورة تسوية الدور بين المدرسة والعييد وعقد
السلام بين القبيلتين ، كما أشار بضرورة القضاء على (حكومة الصلب) . فقرر السيد إدريس
أن ينيب (المرحوم) الشارف الغرياني عن السيد صفي الدين في تسلم الأسلحة والذخائر من
الطليان لإنشاء المراكز في الحدود وتأمين هذه الحدود بينما يتفرغ السيد صفي الدين لفض
النزاع المستحکم بين القبائل المختلفة ، وبالفعل صدع صفي الدين بأمر السيد إدريس وكان
موقفا في مسعاه فاستطاع أن يصل إلى اتفاق مع (حكومة الصلب) على أساس أن يسلم أفراد
هذه العصابة أنفسهم في نظير الصفح عن أعمالهم السالفة ، فلم يعض أفرادها أنفسهم للحكومة
الإيطالية وسلم آخرون للسيد إدريس وانتهى أمرهم (في يناير ١٩١٨) .

وفي إبريل كان قد تكلم بالنجاح مسمى السيد صفي الدين في التوفيق بين القبائل المتخاصمة
ثم ذهب بالقوة أو الجيش الذي كان يصحبه من الجبل الأخضر إلى اجداية في إبريل ١٩١٨
لتسليم هذه القوة إلى وكيل السيد إدريس بالحدود الشارف الغرياني . وكان وجود هذه القوة
ضروريا لأن رمضان السويحلي كان في هذه الأثناء وقبل تنظيم الحدود الغربية وتأمينها قد
أغار على برقة البيضاء والتحم مع السنوسيين في معركة دامية كان ممن استشهدوا فيها أحد المجاهدين
البارزين من قبيلة المغاربة (الشريف الحزبة) . وفي أكتوبر ١٩١٨ عين السيد محمد إدريس
السيد صفي الدين نائبا عن المنطقة الشرقية من الجبل الأخضر في دور عكرمة وخولان ومراره
وهي منطقة قبائل البراعة والحاسة والعييدات . وبمجرد أن تم اتفاق الرجة بين السيد
إدريس والطليان في أكتوبر ١٩٢٠ قسم السيد منطقة الجبل ثلاث نيابات وعين السيد صفي

الدين نائبا عنه في منطقتي مراوه وخولان وكانت المهمة التالية التي عهد بها إلى صفي الدين هي الإشراف على إجراء الانتخابات اللازمة لمجلس النواب المحلي بين أدوار العرب داخل وخارج الحد الفاصل . ولما كان (للإدارة المختارة) وهي حكومة السيد بمقتضى اتفاق الرجعة ومركزها اجداية نائب واحد في البرلمان ، فقد تعين السيد صفي الدين نائبا عن هذه الإدارة المختارة وعند الانتهاء من إجراءات الانتخابات ، بدأت الدورة البرلمانية الأولى وحضر حفلة الافتتاح يمثل ملك إيطاليا الدوق أوديني وتولى الرئاسة أكبر النواب سنا (المرحوم) السيد عثمان بك العنزي ، ثم انتخب السيد صفي الدين بالإجماع بعد ذلك رئيسا للمجلس . وهكذا بدأت الحكومة الوطنية حياتها في برقة .

يسد أنه كان أمام هذه الحكومة صعوبات عدة منشؤها ما نص عليه اتفاق الرجعة (المادة السادسة) من ضرورة إلغاء الأدوار بصورة دائمة وجميع القرقولات وكل التشكيلات السياسية والإدارية والعسكرية أية كانت من الجهات التي تعهد إدارتها ، إلى سمو الأمير . فقد تعذر إقناع الأهلين بتسليم الأسلحة وحل الأدوار وهم الذين كانوا على الرغم من إنشاء الحكومة الوطنية لا يزالون يشكون في نوايا الحكومة الإيطالية ولا يطمئنون إلى تسليم أسلحتهم أو مصكراتهم وكان السبب في هذه الشكوك ما درج عليه الطليان أنفسهم الذين اعتقدوا في قرارة نفوسهم أن اتفاق الرجعة وماسبقه من اتفاقات لم يكن ذلك جميعه إلا ذريعة تمكنهم من الاتصال برجال القبائل العرب ورؤسائهم ومشايخهم فيتخذون من هذا الاتصال المباشر وسيلة لتحطيم نفوذ السنوسية وتقويض دعائم الإمارة التي أرغموا على الاعتراف بها في الظروف التي مر ذكرها . فقد عمد الطليان إلى اتباع طريق المخادعة مع السيد إدريس يظهرون له الاحترام والتبجيل في كل مناسبة وغرضهم من ذلك أولا أن يلقوا في روع الأهلين أن الأمير منضم إليهم انضماما كليا ، ويتعاون معهم في تنفيذ مآربهم ، وثانيا أن يزيدوا في إحراج السيد إدريس فلا يجد من السهل على نفسه مراجعتهم في أمر من الأمور التي تتنافى مع مصلحة أهل البلاد والوطن ، بينما كان الطليان ، باعتراف كتابهم ومؤرخيهم ، يتخذون من هذا التبجيل المنكومي الظاهر أداة لتنفيذ العرب والقبائل من الأمير ولتحطيم سلطان السيد ونفوذ السنوسيين عموما في البلاد . ويظهر ذلك من التبجيل الذي أحاطوا به السيد عندما اعترفت تأدية فريضة الحج في عام ١٩١٩ ، فقد سافر السيد وقتذاك من الزويتينة إلى السلوم يريد الذهاب إلى الحجاز بطريق مصر ، فانهز الطليان تعذر سفر السيد بطريق القطر المصري بسبب ما فعله الانجليز الذين رفضوا عبور السيد الحدود ، وأحضروا له البارجة الحربية (طبرق) ، فأقلته إلى الإسكندرية ، ومن هناك استأنف السيد سفره إلى الحجاز . وكذلك أظهر الطليان لسمو

الأمير ضروبا من التبريل والتكريم منوعة عقب اتفاق الرجعة في عام ١٩٢٠ ، فقد سافر الأمير في نوفمبر من هذا العام إلى رومة واستقبلته الحكومة الإيطالية استقبالا رسميا ، واحتفى به ملك إيطاليا فكتور عمانويل الثالث حفاوة بالغة — وكرمه الحكومة الإيطالية تكريما عظيما مدة إقامته بإيطاليا ، وقد بلغت أربعين يوماً زار في أثناءها معظم المدن الإيطالية ثم عاد إلى بنغازي في يناير من العام التالي .

ومع ذلك فإن مساعي الطليان مع رؤساء القبائل والمشايخ لم تثمر ثمرتها المرجوة ، وأدرك المجاهدون العرب ، كما أدرك الأمير نفسه حقيقة ما يضره الطليان للقطر البرقاوي وأسفرت تدابير هؤلاء الملتوية عن ضياع ثقة العرب بهم في آخر الأمر حتى أصبح متعذرا إقناعهم بتسليم الأسلحة أو إلغاء الأدوار على نحو ما تقدم . ومن الغريب أن الطليان الذين شهدوا نتيجة سياستهم الفاشلة — وهي نتيجة كانت متوقعة ولا مفر من الوصول إليها — سرعان ما صاروا يعززون إلى السيد وإلى بترده، امتناع العرب عن تسليم الأسلحة وفض الأدوار ؛ ولم يزد هم هذا الاعتقاد الفاسد إلا إلحاحا على الأمير وإلحاقا في المطالبة بتنفيذ شروط اتفاق الرجعة (المادة السادسة منه) ؛ وقد وجد الأمير أن من حسن السياسة أمام هذه الدوافع المتباينة أن يوقف الحكومة الإيطالية ذاتها على حقيقة الرأي في البلاد وبين المجاهدين العرب ورؤساء القبائل ومشائخهم ، وهم الذين كانت تريد الحكومة الإيطالية الاعتماد عليهم في تقويض نفوذ الإمارة ، فعقد اجتماعا عاما من كل هؤلاء في الأيبار في محرم الحرام عام ١٣٤٠ هجرية (سبتمبر ١٩٢١) . وأوفد إلى الاجتماع ابن عمه محمد صني الدين . وفي اجتماع الأيبار ظهر جليا أن الرؤساء والمشايخ لا يؤمنون إلا ببداً واحد هو ضرورة الدفاع عن مصالح البلاد وتأييد السنوسية والعمل بكل الطرق للحد من نفوذ الطليان وإبطال مساعيهم ، كما كانوا في أشد الاستياء من استمرار تدخل الطليان المتواصل ، ويرون في إصرارهم على هذا التدخل مضية لحقوق الوطن . وقد ظهرت عدم ثقة المجتمعين بالحكومة الإيطالية وبوعودها في القرارات التي اتخذوها بصدد نزع السلاح وفض الأدوار ، وحضر الأمير نفسه الاجتماع عند المناقشة في خير الطرق التي تكفل سلامة الوطن وأهله . فكان من رأى المجتمعين عدم حل الأدوار لأنهم لا يأمنون على حياتهم من إيطاليا إذا تشتت المراكز وتفرقت الجموع المتشددة في الأدوار وسلم المجاهدون سلاحهم ثم اقترحوا على السيد حلا وسطا هو أن يعرض سموه على الحكومة الإيطالية إنشاء معسكر إيطالي إلى جانب معسكر سنوسي في المراكز المختلفة على أن ينفق الطليان على الأدوار مدة خمس سنوات — وكان ذلك من الوسائل التي لجأت إليها لاستمالة الأهالي والرؤساء في داخل البلاد — فقد طلب المجتمعون أن يستمر بقاء الأدوار

المختلطة طوال هذه المدة حتى إذا تبين بعد انتهائها أن إيطاليا قد أوفت بكل عهودها والتزاماتها ونفذت القانون الأساسي المعطي لبرقة تنفيذا كاملا ، لا يجد العرب ما يمنع من انسحاب المراكز الإيطالية من جهة وتسريح الأدوار السنوسية رويدا رويدا من جهة أخرى . وكان عمر باشا منصور الكنخيا يقوم بالوساطة بين الأمير والوالي الإيطالي ديمارتينو ، بينما كان يقوم السيد محمد صني الدين بهذا الدور بين الأمير والأهلين المجتمعين في الأييار . وأما هذه المفاوضات فقد أسفرت عن عقد اتفاق جديد بين السيد محمد إدريس وبين الطليان (الوالي ديمارتينو) في بومريم في ٣٠ سبتمبر ١٩٢١

ويظهر فحوى اتفاق بومريم من المكاتبات المتبادلة بين سمو الأمير السيد إدريس وبين الوالي ديمارتينو . فقد أخبر الأمير حكومة الوالي بأنه كان مصمما على حل الأدوار في الجبل الأخضر ولكنه اضطر إلى إرجاء حل هذه الأدوار خوفا من حدوث رد فعل بين القبائل وخوفا من أن يستأنف البدو القتال بين بعضهم بعضا ، وأنه من الخير نظراً للظروف السياسية القائمة أن يصل الجميع إلى حل وسط . فأجاب الوالي في ١٨ أكتوبر ١٩٢١ بأنه قد أخذ علما باعتراف السيد بأنه يتعذر عليه حل الأدوار ، كما أخذ علما بوعده السيد أنه يريد تنفيذ الاتفاق الأول (الرجمة) بعد فترة تمهيدية ، وبأن الأمر الذي يجب تنفيذه الآن هو أن يجرى تأسيس أدوار مشتركة بدلا من لأدوار السنوسية البخته ، وأن تكون نسبة الجند المشتركين في هذه الأدوار من قبل الحكومة الإيطالية ومن قبل الأمير عشرة إلى ثمانية . فرد السيد محمد إدريس على رسالة الوالي ديمارتينو في ٢٨ أكتوبر قائلا : إن هذه هي المرة الأولى التي تتخذ فيها الحكومة (الإيطالية) قرارا عادلا مبنيًا على الاعتراف بحقيقة الأمور ، ثم طلب السيد في هذه الرسالة أن يبلغه الطليان أسماء المديرين والضباط والموظفين الذين يقع الاختيار عليهم وذلك قبل تعيينهم ، كما طلب من الحكومة الإيطالية كلما أرادت القيام بأية أعمال لتنظيم القبائل أن تبلغه ما اعترفت فعله ، حتى يتمكن من مساعدتها عند الحاجة ، وحتى يمنع وقوع أي حادث لا قدر الله . ثم اختتم الأمير رسالته هذه بقوله إنه يقبل رد الحكومة بخصوص إعداد العسكر الحكوميين والسنوسيين بنسبة عشرة من الأولين إلى ثمانية من الآخرين ، كما أنه يوافق على تأسيس أدوار مؤقتة لحفظ الأمن واستقرار الهدوء والسكينة ، وهي أدوار يجب تأسيسها عند حل الأدوار الأولى ، وتبقى قائمة إلى أن يتم تنظيم القبائل وفق المبادئ التي أتى بها القانون الأساسي لقطر برقة (في أول مايو ١٩١٩) . وبناء على ذلك وافق مجلس الوزراء الإيطالي في ١٥ أكتوبر ١٩٢١ على اتفاق بومريم ، واعتمد تأسيس الأدوار المختلطة أو المشتركة في كل من الأييار وتاكنس وسلطنة وعكرمة ، ثم أضيف إلى هذه بعد ذلك دور

في الخيلة . وكان في كل دور من هذه الأدوار ناظر سنوسي من قبل السيد إدريس ومفتش أو ناظر إيطالي ، ثم تعين الحكومة الإيطالية مديرا بينا يعين السيد إدريس مستشارا سنوسيا . ويأخذ الجنود السنوسيون في الأدوار مرتباتهم من الحكومة الإيطالية ويقوم الطليان بتدريبهم ؛ وعين السيد إدريس أخاه السيد محمد الرضا ناظرا سنوسيا بينا عهد بمنصب المستشار إلى الشيخ صالح العوامي شيخ زاوية بنغازي ، وكان الناظر الإيطالي الجنرال دي فيتا .

وهكذا أجابت الحكومة الإيطالية مطالب أهل البلاد ، كما بينا رؤسائهم ومشائخهم في اجتماع الأيبار ، واعتبر اتفاق بومريم في الحقيقة نصرا لسياسة السيد محمد إدريس الذي استطاع بصورة عملية أن يثقل نشاط الطليان في علاقاتهم مع القبائل في داخل البلاد . وفضلا عن ذلك فقد حصل السيد بموجب اتفاق بومريم نفسه على الحق القانوني في تقييد تدخل الحكومة الإيطالية في شئون القبائل العربية بدعوى العمل على تنظيمها . وبذلك تكون قد نجحت أغراض الأمير المتحدة مع أغراض الأهلين ورؤساء ومشائخ القبائل .

بيد أن هذا النجاح الظاهري الذي أحرزته الإمارة الجديدة كان لا يرضى الطليان بحال من الأحوال ، بل يسبب لهم إساءة شديدة . فقد اعتبر هؤلاء أن السنوسية بفضل اتفاق بومريم قد وطدت زعامتها في توجيه المطالبة بحقوق أهل البلاد والدفاع عن مصالح القبائل وحرية الأهلين ، وذلك خلاف ما كان يريد الطليان الذين هدفوا عند عقد اتفاق الرجعة - أي منذ أكتوبر ١٩٢٠ - إلى سريان القانون الأساسي بمحذا فيه ، وكان من أهم أغراض هذا القانون كما وصفه الطليان أنفسهم وفهموه أن يتمكنوا في نظير إقامة الحكومة الوطنية الذاتية من انتزاع أسلحة الأهلين وحل الأدوار المختلفة ، إلى جانب التدخل في شئون القبائل بدعوى تنظيمها بغية الحد من نفوذ الأمير وتقويض سلطة السنوسية . ولكن الطليان وجدوا بدلا من ذلك أن الأمير صار يقف بفضل اتفاق بومريم موقف المدافع عن حقوق البلاد ، ويسعى لإقامة البرهان على أن الحكومة الإيطالية هي التي لم تنفذ الوعود التي قطعها على نفسها بخصوص إنشاء الحكم أو الاستقلال الذاتي ، وأنه - أي الأمير - قد وجد نفسه مضطرا بسبب ذلك إلى إبقاء بعض الأدوار ضمانا لاغنى عنه لتنفيذ تعهدات الحكومة الإيطالية والتزاماتها تنفيذاً كاملاً طبقاً لما جاء في وثيقتي القانون الأساسي واتفاق الرجعة . وفي الواقع لم يعتبر الطليان الأمير خالص النية تماما في اتفاق بومريم لهذه الأسباب كلها ، وكانوا يفضلون كما يذكر مؤرخوهم قطع علاقاتهم معه والدخول في حرب سافرة ضده ، ولكن سوء الحالة في إيطاليا وعدم استعداد الطليان العسكري كان له القول الفصل في إرغامهم

على قبول اتفاق بومريم . وكان من الواضح أن العلاقات بين الأمير والحكومة الإيطالية بعد هذا الاتفاق لا تقوم على أساس ثابت ، بل كانت عرضة للانقسام في أى وقت وعند سنوح أول بادرة . وكان للتطور الذى حدث في القطر المجاور الشقيق (طرابلس) — وهو التطور الذى أسفر عن تقديم يعة الطرابلسيين العامة للسيد محمد إدريس — أكبر الأثر في هذه العلاقات الإيطالية — السنوسية ، وجعل الطالبان ينكثون عهودهم ويعملون على تقويض دعائم الحكومة الوطنية التي استطاع السيد بفضل حنكته ومهارته السياسية أن ينتزع الاعتراف بها انتزاعاً من بين أيديهم بعد جهاد شاق مرير استمر بعد عودته من الأقطار الحجازية إلى السلوم في غضون عام ١٩١٥ إلى وقت الاتفاق في بومريم في آخر سبتمبر ١٩٢١ :

الفصل السابع

بيعة الإمارة

استطاعت السنوسية بفضل ما كان لها من تقاليد راسخة في الحكم أن تشيد أركان الحكومة للموطدة المستقرة في القطر البرقاوي ؛ وكان من الميسور على أميرها الكبير السيد محمد إدريس السنوسي أن يجمع كلمة العرب والمجاهدين تحت لواء زعامة واحدة ، وأدرك الطليان من أول الأمر أنهم أمام قوة منظمة وزعامة سياسية ودينية كبيرة لا مناص من الاعتراف بحقوقها إذا هم شاءوا ضمان الهدوء في برقة في وقت ما كانوا يستطيعون فيه المضي في نضال لا يعرفون عواقبه ، وبخاصة عند ما كانت الحرب الأوربية ما يزال يستعر أوارها وبلقي الطليان منها أهوا لا شديدة . فكان أن استطاع المجاهدون في برقة بفضل زعامتهم الرشيدة أن يحصلوا في الاتفاقات والمعاهدات التي أبرمت بين أميرهم السيد إدريس وبين خصومهم على اعتراف صريح بالإمارة السنوسية ، وكاد يعظم الأمل في أن عهداً من الهدوء والسكينة قد بدأ يسود البلاد ويمهد لحدوث نهضة ثقافية واجتماعية كبيرة فضلاً عن إنعاش حالة البلاد الاقتصادية وما يجلبه هذا الانتعاش من رخاء ظاهر . وضربت برقة مثلاً حياً لما يمكن أن يبلغه قطر يستمتع بوجود زعامة حازمة لها من سداد الرأي وبعد النظر ما يكفل تحقيق الأهداف الوطنية . وكان أشد الناس حاجة إلى للوعظة الحسنة أهل القطر الشقيق طرابلس .

واختلفت الأحوال في طرابلس عنها في برقة اختلافاً كبيراً ، فبينما وجد البرقاويون زعامة رشيدة أخذت على عاتقها من زمن بعيد إصلاح شؤونهم الدينية والدينية وإقامة الحكومة الموطدة وبخاصة في داخل البلاد تنشر الأمن وتؤمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم كان الطرابلسيون منقسمين شيعاً وأحزاباً لا تجمعهم رابطة ولا يعترفون بزعامة موحدة مسؤولة تجمع شتاتهم في صعيد واحد وتؤلف بين غاياتهم في هدف واحد مشترك لتحقيق مصلحة قومية أو وطنية عامة . حقيقة استأثرت أسرة القره مانلي بالحكم في طرابلس مدة قرن من الزمان تقريباً (١١٢٣ - ١٢٥٢ ، ١٧١١ ، ١٨٣٦ م) ؛ ولكن عهد هذه الأسرة كان قد انقضى من سنوات طويلة ، ولم يقلح الولاة العثمانيون في إنهاء الاضطرابات الداخلية . وكان منشأ هذه الاضطرابات أن عدة أمراء طرابلسية طفقت تستبد بالحكم في

داخل البلاد، حتى أن طرابلس صارت تشبه أوربا شها كبيراً في زمن الإقطاع المشهور . ذلك أن زعيم كل جهة من الجهات صار يهيمن على شئون إقليمه ، فيحصل الأموال والعشور ويفصل في المنازعات ويمجد الأهلين لخوض غمار الحروب التي صار يشنها من وقت لآخر على جيرانه طمعا في الأسلاب والغنائم أو سعيًا وراء امتلاك أرض جديدة وإقصاء خصومه أو منافسيه من الحكم في « الدويلات ، المجاورة ، حتى عمت الفوضى ولم تجد سلطة الوالي العثماني نفعا في إزالة أسباب العداة بين هؤلاء الزعماء أو نشر أوية السلام والطمأنينة في طرابلس . وعند ما تعرض كيان البلاد للخطر عند نزول القوات الإيطالية في طرابلس الغرب نجح العثمانيون في جمع الكلمة ولم الشمل لدفع هذا الخطر المفاجيء . وأبدى الطرابلسيون من ضروب الشجاعة والبسالة في الذود عن أوطانهم ماسبق بيانه عند الكلام عن الغزو الإيطالي في عام ١٩١١ . ولكنه بمجرد أن وضعت الحرب الإيطالية الليبية أوزارها وانسحب الطليان عقب معاهدة أوشي استأنف الزعماء المحليون منازعاتهم الشخصية واضطر سليمان الباروني إلى مغادرة البلاد (١٩١٣) ؛ فأحرز الطليان عدة انتصارات ثبتت أقدامهم بالمدن الساحلية وحول مدينة طرابلس ذاتها . وكان من أشهر الزعماء المحليين الذين استأثروا بالسطوة والسلطان في داخل طرابلس رمضان سويجلي أو شتيوي في مصراته ، وأحمد المريض في ترهونة ، وعبد النبي بلخير في أورقله ، وعلى بن تنتوش في العزيزية والحاج محمد الفقيهي في فصاطو ، وعائلة كعبار في غريان ، وخليفة بن عسكر في القسم الغربي من الجبل وجزء من الساحل ، والمهدي السني الزناتي ومشايخ أولاد يوسف في الجهة الشرقية من الجبل مع شطر من الساحل ، ويمتد نفوذهم إلى الفزان كذلك .

وحاولت السنوسية من أيام نشأتها الأولى أن تنشر التعاليم الدينية الصحيحة وتبذر بذور الإصلاح الاجتماعي في القطر الطرابلسي ، علما تتمكن من نشر أوية السلام في طرابلس . وتقضى على الفوضى المستبعدة بها ، ولكن خوف الزعماء المحليين كثيراً ما كان يقف حجر عثرة في سبيل تحقيق غاياتها . ومع ذلك فقد وجدت السنوسية أتباعاً كثيرين لها من بين الطرابلسيين ، ثم قوى نفوذها في منطقة سرت وأنشأت زاوية هامة في النوفيلية ؛ ثم مالبت نفوذها حتى امتد إلى الفزان . وكان الخوف على ساطنهم من زيادة نفوذ السنوسية في هذه البقاع سبباً في إثارة عداة الزعماء الإقطاعيين بطرابلس ضدها وبخاصة في مصراته . ذلك أن زعيم مصراته رمضان السويجلي كان صاحب أطماع واسعة ويريد أن يبسط نفوذه على سائر الزعماء الطرابلسيين حتى ينشئ لنفسه ملكاً عضوداً ، ولذلك فقد ساءه أن يرى السنوسية توطد أركانها في منطقة سرت بنوع خاص لقرب هذه من مقر سلطانه . غير أن السويجلي

كان حذرا متيقظاً ، فلم يشأ أن يجاهر بعدائه السنوسية في أول الأمر ، بل قبل التعاون معهم ضد الطليان . وكان الذي دفع رمضان السويحلي إلى التكاتف مع السنوسيين في ذلك الوقت أن الطليان عند ما دانت لحكمهم السواحل أسسوا مركزاً مسلحاً بزواوية المحجوب بالجهة الغربية من مصراته ، وكان يصعب على السويحلي إخراجهم منها أو التحرر من سلطانهم في مصراته ذاتها ، بل إنه ما لبث حتى قبل أن ينوب عن الطليان في إدارة المحجوب ، وعلى ذلك فقد وجد من الخير له أن ينحاز إلى جانب السنوسيين في المعارك التي سبق ذكرها . غير أن السويحلي سرعان ما وقع تحت نفوذ العثمانيين الذين أرادوا أن يستمر القتال ضد إيطاليا في برقة بعد أن قرر السيد إدريس الدخول في تلك المفاوضات التي أسفرت عن عقد اتفاق عكرمة المؤقت ، فألح رمضان على السيد صفي الدين في ضرورة إرسال حملة على الحدود التونسية ورفض السيد صفي الدين أن يستعدي دولة ثالثة (فرنسا) ضد المجاهدين ، فاتخذ السويحلي من هذا الرفض ذريعة لإظهار عدائه السافر ضد السنوسية . وشغل رمضان والعثمانيون في طرابلس في الشهور التالية بمقاومة السنوسيين بدلا من تركيز جهودهم في النضال ضد إيطاليا . ومن أواسط عام ١٩١٧ لم يكن لدى السنوسية وأميرها أي أمل في إمكان الحصول على مساعدات من الطرابلسيين والعمانيين بطرابلس بل إنه كان هناك من الأسباب ما جعل السيد إدريس والسيد أحمد الشريف يتبعان خطة مدارها الحيلة والحذر في علاقاتهم مع أعوان السويحلي وأنصار العثمانيين بالقطر الشقيق ، وكان من أهم هذه الأسباب تلك الحوادث التي وقعت في الفزان والتي ذهب ضحيتها محمد علي الأشهب في سبتمبر ١٩١٧ .

وفضلا عن ذلك فقد عمد الزعماء الطرابلسيون والعمانيون حتى يؤمنوا المواصلات بين الفزان ومراكزهم الشمالية إلى تأليف جيش من أهل ورفلة فاحتلوا في واحات الجفرة جنوبي التوفيلية وسرت كلا من سوكنه وودان بعد أن أخرجوا منها أولاد سيف النصر أكبر مؤيدي السنوسية في هذه الجهات . وقد انسحب أولاد سيف النصر إلى زلة ، ثم لم يقتصر الأمر على ذلك بل إن المنقوش قائمقام سرت ، وكان من أهل مصراته ، صار يكثر من الإغارة على قبيلة المغاربة القاطنة في منطقة سرت ، فعظم العداء بين أهل هذه الجهات وأهل مصراته والعمانيين واستطاعت السنوسية أن تجمع في التوفيلية قوة كبيرة في منتصف نوفمبر ١٩١٧ ، وانضم إليهم أولاد سليمان سيف النصر في زلة وانقض الجميع على سوكنه فجأة فاحتلوها وطردها منها قوات ورفلة بعد أن كبدها خسائر فادحة وأسروا القائمقام التركي وشنقوه وبسطوا نفوذهم على الجفرة ولما كان نوري الذي حرك حوادث الفزان ثم حوادث الجفرة يخشى ضياع البقية الباقية من النفوذ العثماني في طرابلس نتيجة لاتصاف السنوسيين في الجفرة

وتهديد الفزان ، ويخشى عيلاوة على ذلك تحول الجهاد ضد إيطاليا إلى مجرد مناوشات محلية تثيرها أطباع الزعماء المحليين أمثال عبدالنبي بلخير (ورقلة) ورمضان السويحلي (مصراثة) ضد السنوسية ، فقد قرر الآن أن يسعى لمصالحة السيد أحمد الشريف ؛ غير أن مساعيه سرعان ما أخفقت بسبب موقف العداء الذي أصر رمضان شتيوي على أن يقفه دائما من السنوسية حتى أن نوري باشا نفسه لم يلبث أن اضطر إلى مغادرة طرابلس والعودة إلى تركيا في آخر الأمر .

وتفصيل ذلك أن نوري عند ما قرر مصالحة السيد أحمد الشريف أرسل إليه كهدية له وللجاهدين قافلة محملة بالأرزاق وبينما كانت القافلة في طريقها إلى منطقة سرت هاجمها رمضان شتيوي برجاله بالقرب من تاورغ ، وقتل رجال القافلة ثم حملت الأرزاق المنهوبة إلى منزل رمضان بزواية الحجون في مصراثة . وقد تقدم ذكر هذه الوقائع عند الكلام عن الحوادث التي سبقت خروج السيد أحمد الشريف من العقيلة إلى تركيا . وعند ما بلغ نوري ما حدث غضب غضبا شديدا ؛ ولكن رمضانا أنكر فعلته وتظاهر بالغضب لآتهامه بهذه التهمة . وعلى ذلك أرسل نوري قافلة ثانية ، ولكن قامت سرت المصراثة (المنقوش) ما لبث هو الآخر حتى استولى على الكثير مما كانت تحمله من أرزاق ، فلم يجد السيد أحمد الشريف مناصا من أن يكتب إلى نوري يخبره بما حدث ، ثم يقول له إنه إذا كان الغرض من انتقاله - أي انتقال السيد أحمد الشريف - إلى طرابلس بعد فشل الهجوم على الحدود المصرية أن يقود النضال ضد الطليان ويفض المشكلات الداخلية بوصفه نائبا عن السلطان ، فإن ذلك قد أصبح الآن متعذرا لأن نوري فضل أن يستمر على علاقات المودة والصفاء مع رمضان السويحلي ، وهو رجل أقل ما يقال فيه إنه مستبد وقاطع طريق .

وعلى ذلك فإن السيد أحمد يرى - على حد قوله - أن من الأفضل أن يترك طرابلس وشأنها فينسحب إلى واحة الكفرة ويترك في يد ابن عمه السيد إدريس كل السلطة . فكان من أثر هذا التهديد بالانسحاب من البلدان أن بادر نوري بمجرد وصول كتاب السيد أحمد إليه بعقد اجتماع في مصراثة حضره رمضان شتيوي ، وكان غرض نوري من هذا أن يحمل رمضان شتيوي على الاعتراف بمركز السيد أحمد الشريف بوصفه نائبا عن السلطان العثماني في القطر الطرابلسي . ولكن رمضان أصر على عدم الاعتراف بشخص ينتمي إلى السنوسية مندوبا للسلطان ، وفضلا عن ذلك فإن السيد أحمد الشريف كان على حد قول السويحلي غريبا عن طرابلس ولا يمت لها بصلة . فأثار هذا الجواب غضب نوري الذي ما لبث حتى هدد بمغادرة البلاد تاركا وقوع مسئولية كل ما يحدث بعد ذلك على عاتق رمضان وحده نتيجة لعدم امتثاله الأوامر . ولما كان رمضان يخشى أن ينفذ نوري وعبيده ويترك البلاد في ذلك

الوقت العصيب فينقطع بذهاب نوري مجيء المؤن والأسلحة والذخائر والمال من الآستانة وتضعف روح أهل البلاد المعنوية ، بل وربما حدثت هزلاء أنفسهم بالانفضاض من حول زعيمهم ، فقد أحكم الرقابة على نوري بعد ذلك حتى يمنع من السفر .

ولكن نوري سرعان ما وجد وسيلة مكنته من الإفلات من هذه الرقابة ، فعادر البلاد في أوائل يناير ١٩١٨ وحملته غواصة ألمانية أولاً إلى السلطان على أمل مقابلة السيد أحمد الشريف بها ، ولكنه لم يجده بل وجد صالح الأطيوشي (باشا) شيخ المغاربة الرعيصات فأخبره الأطيوشي بأن السيد أحمد الشريف قد ذهب إلى الكفرة ، فاستأنف نوري السفر إلى بولا ومنها إلى استامبول . وعندما كشف السويحلي إفلات نوري أسقط في يده ، ثم بادر بالعمل على تهدئة النفوس فأذاع أن نوري إنما ذهب للآستانة حتى ينظم مجيء الغواصات إلى طرابلس ، وأنه سوف يعود قريباً محملاً بالأسلحة والذخائر والمهمات المختلفة .

وساءت الأحوال بعد خروج نوري من طرابلس ، إذ انتهى بذهابه كل أمل في إمكان إقناع السويحلي وطغمته أو غيره من الزعماء المحليين أمثال عبد النبي بلخير صاحب ورفله بضرورة إزالة أسباب العداء بينهم وبين السنوسية حتى يستطيعوا جميعاً القضاء على الخطر الطلياني . بل إن السويحلي وعبد النبي بلخير ما لبثا أن استأنفا النضال ضد السنوسية ، وعلاوة على ذلك فقد زادت الأمور تعقيداً عندما اشتد النزاع الداخلي بين مصراته وترهونة خصوصاً . فقد جمع السويحلي وعبد النبي بلخير جموعهما وبدأت المناوشات بين مصراته وورفلة من جانب وبين السنوسيين من جانب آخر ، فانتصر السنوسيون عليهم (في ٩ يناير ١٩١٨) بالقرب من سواني وشه واستولى أنصار السنوسيين على مواشي ورفله قريباً من وادي صفجين ، ثم اتهمت جيوش ورفلة كذلك يوم ٢٤ يناير على يد سيف النصر صاحب السيطرة والسلطان في واحات الجفرة ، والتزم عبد النبي بلخير من ذلك الحين خطة الدفاع عن ورفلة ذاتها ، ووجد رمضان شتيوى أنه بات من المتعذر الاعتماد على ورفلة في حركته العدوانية ضد السنوسية فعول على الاستقلال بالعمل . وفي أوائل مارس خرج المنقوش قائماً سرت إلى وادي أجر فدفع أمامه المغاربة وكاد يتم له النصر لولا أن هزلاء برعان ما جاءتهم النجدات من مركز السنوسية العتيد في النوفيلية ، فأوقعوا بقوات مصراته هزيمة ساحقة ، وأمام هذه الهزيمة لم يجد رمضان السويحلي بدا من أن يسعى لمصالحة السيد أحمد الشريف حتى يزيل بعض آثارها .

وكان السيد أحمد الشريف يقيم وقتذاك بمرمى جوديه ، ولكن فرصة الصلح كانت قد خانت في الحقيقة ، ذلك أن قوات مصراته ما لبثت حتى اضطرت إلى التقهقر ، وضرب

الستومسيون عليها نطاق الحصار في مرت ، فانزل المنقوش وقويت شوكة الستومية وقوى سلطان سيف النصر حول مرت ، وترتب على هذا الانتصار ظهور مشا كل جديدة سرعان ما جذبت، إليها نشاط السويحلي واستخرقت كل جهوده ، ولم تكن هذه المشا كل الجديدة إلا جزءاً من تلك المنازعات التي كثيراً ما كانت تنشأ بين الزعماء الإقطاعيين في طرابلس حول امتلاك الأراضى وتوسيع دائرة نفوذهم . وبيان ذلك أنه على الرغم من اتحاد كلمة هؤلاء الزعماء في نضالهم ضد الستومية خوفاً على امتيازاتهم المحلية من الضياع ، فإن العداء كان مستحكماً بينهم وخصوصاً بين رمضان السويحلي صاحب مصراته وأحمد المريض صاحب ترهونة .

وكان سبب النزاع بين مصراته وترهونة أن كلا منهما أرادت الاستيلاء على مسلاته ، وكانت هذه تقع في منتصف المسافة تقريباً بين مصراته وترهونة ويسيطر عليها في هذه الآونة رمضان سويحلي . وكان لصاحب ترهونة أحمد المريض أطماع لا تقل في غلوها عن أطماع السويحلي نفسه ، فهو يريد أن يدعم سلطانه في ترهونة ذاتها فيصبح أقوى زعمائها إطلاقاً ، ويدعى إلى جانب ذلك حقوقاً على مسلاته . وفضن العثمانيون إلى أنه باستطاعتهم أن يستميلوا المريض إلى مواصلة النضال ضد الطليان إذا هم ساعدوه على تأييد سلطانه على نحو ما كانوا يفعلون مع السويحلي نفسه ، فعينوه متصرفاً في منطقته بدلاً من الحاكم التركي ، فأضحى لذلك أعظم الزعماء خطراً في ترهونة . وعلاوة على ذلك فقد أدرك الطليان من جانبهم أنهم إذا استطاعوا استمالة المريض إليهم ، دفعوا عن مراكزهم الساحلية في الخمس وغيرها أخطاراً كبيرة ، فلم يتوانوا هم الآخرون في جذبهم إليهم ، على نحو ما فعلوا كذلك مع السويحلي .

وهناك ما يثبت أن المكتب السياسى العسكرى الإيطالى بطرابلس كان يمد المريض بالمال بدعوى الاستمرار في صرف ما كان يتقاضاه من مرتبات قديمة من أيام انتهاء الحرب الليبية الإيطالية ، واعتقد الطليان أن أحمد المريض كان في الباطن من مؤيديهم ، وأنه لم يلجأ إلى مصانعة الأتراك إلا على سبيل الحيلة والحذر منهم ، وبخاصة عندما كان هؤلاء منذ نزول نوري بمصراته يقبلون على تأييد السويحلي . وكان السويحلي عندما تبين له عجز ورفله عن مساعدته بعد الهزائم التي أنزلها به الستومسيون وأنصارهم في سوانى وشه ووادى صنفجين قد عمد إلى تجنيد العرب من أهالى مصراته ومسلاته وأمعن في جمع العشور والأموال منهم لتأليف جيش كبير يستطيع الصمود في وجه الستومية ، لحرك السويحلي بعمله هذا أحقاد أحمد المريض . فانهز هذا فرصة انهزام أهل مصراته في وادى أجر وما دخل على صفوفهم

من ارتباك بسبب هذه الهزيمة وأعلن أن له حقوقا على مسلاته ومنع التجنيد وقبض العشور وتخرجت الأمور بين ترهونة ومصراته . فضلا عن ذلك فإن ترهونة ما كانت تعترف البتة بسيطرة السويحلي وما كانت تحتل هذه السيطرة . بل إن المريض كان يرى من سوء الرأي والتدبير أن يتفق مع السويحلي على شيء ، لأن من شأن هذا الاتفاق أن يستعدى عليه السنوسية ، وكان للسنوسية أنصار عديدين في ترهونة . ولم يمنع من وقوع الصدام غير وصول الأمير عثمان فؤاد إلى طرابلس في شهر مايو ١٩١٨ . إذ أن مجيء الأمير ما لبث أن أحدث تغييرا كبيرا في الموقف . فقد بدأت الحوادث تسير حينئذ من ذلك الوقت نحو غاية مزدوجة هي أولا إنشاء حكومة موطدة الدعائم تستطيع مواصلة النضال بنجاح ضد إيطاليا حتى تنزع منها نوعا من الحكم الذاتي للبلاد يستمتع الطرابلسيون في ظله بالأمن على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ويسرون بفضلهم قداما في طريق الإصلاح الاجتماعي والاعتاش الاقتصادي ، ثم تسوية العلاقات بين الطرابلسيين والبرقاويين على أساس من الود والصداقة كما توحد الجهود في النضال من أجل إنقاذ حريات الوطن وحقوق الطرابلسيين والبرقاويين من يرائن المستعمر الإيطالي . وكان المسئول الأول عن رسم خطوط هذا البرنامج المزدوج المجاهد المصري عبد الرحمن عزام (باشا) . غير أنه لإدراك حقيقة هذه التطورات الهامة الأخيرة ، لا مندوحة عن ذكر طرف من التدابير التي اتخذها العثمانيون من أجل إنشاء نوع من الحكم في طرابلس يكفل استئناف الجهاد عند ما قرروا مواصلة الكفاح ضد الطليان في طرابلس وقت اشتعال الحرب العالمية الأولى .

فقد سبق ذكر الظروف التي غادر فيها سليمان الباروني طرابلس في أواخر عام ١٩١٣ . ولكنه بمجرد أن قرر العثمانيون القتال ضد الانجليز في برقة وضد الطليان في طرابلس ، أرسل أنور باشا الشيخ سليمان الباروني لاستئناف الجهاد في طرابلس الغرب ، فوصل الباروني إلى السلم في غضون عام ١٩١٥ ، وحضر تلك الاجتماعات التي عقدها نوري أخو أنور وجعفر العسكري مع السيد أحمد الشريف ، وانتهز الباروني فرصة وجوده بالسلم فأخذ يدرس الموقف عن كثب ، وعمل على إنشاء الصلات الوثيقة مع الزعماء والمجاهدين في طرابلس مرة أخرى ، ثم عاد إلى الآستانة وأوفد أخاه إلى طرابلس حتى يستوثق من رغبة الطرابلسيين في متابعة النضال ضد إيطاليا . لحضر الشيخ يحيى إلى طرابلس ، وعندما اتضح له أن الزعماء ما زالوا مصممين على القتال بعث الشيخ إلى أخيه لجاء سليمان الباروني ونزل في مصراته . وكان الباروني يحمل من السلطان فرمانا بتعيينه واليا على طرابلس وقائدا عاما لقواتها المجاهدة ، وبدأ يعمل منذ قدومه لإنشاء حكومة عربية منضوية تحت لواء

الآستانة ، وتدين لدولة الخلافة بالتبعية ، ثم ما كاد يستقر به المقام بالبلاد حتى أصدر منشورا في ١٧ أكتوبر ١٩١٦ أعلن فيه « إلحاق طرابلس الغرب بالولايات العثمانية » ، فضلا عن ذلك فقد أنبا الباروني أهل البلاد في هذا المنشور بأنه سوف يتبادل الرأي مع « البطل النور رمضان بك (السويحلي) ومن معه من الأبطال عن المكان واليوم الذي يصير فيه الاجتماع العمومي » تمهيدا لاتخاذ ما يلزم من إجراءات وترتيبات مدنية وعسكرية من أجل إنشاء حكومة منظمة تستطيع الاضطلاع بععب مواصلة الكفاح ضد إيطاليا . ولما كان ضروريا إزالة أسباب الخلاف بين رمضان السويحلي وأتباعه من جانب وبين السنوسيين وأحلافهم من جانب آخر حتى تستطيع تلك الحكومة التي يعتزم إنشائها أن تؤلف بين قلوب المجاهدين وتضمن تعاونهم في النضال ضد إيطاليا ، فقد أرسل الباروني إلى سمو السيد محمد إدريس كتابا في ٢٥ أكتوبر ١٩١٦ يرجوه فيه أن يكف السنوسيون عن القتال ، ويذكر أنه علم لدى وصوله إلى مصراته « أن قوة قدمت من جهة برقة تحت قيادة القائم مقام موسى بك واحتلت قصر سرت بعد أن بارحتها قوة الزاندرمة (الدرك) التي هنالك من طرف رمضان بك السويحلي باسم الدور العثمانية » ثم اختتم كتابه هذا برجاء السيد إدريس أن يعمل « لتسوية هذه المسألة » وكان السيد إدريس صادق الرغبة في إنهاء هذه الخلافات حقنا لدماء المسلمين فبادر سيادته بالكتابة إلى الباروني في « نوفمبر يذكر أن السبب الذي دعاه إلى اختلال قصر سرت هو ما حدث قبيل مجيء الباروني من اشتعال الفتن بين السويحلي وأهل ترهونة » فأجبرنا الحال أن نطقها بأى سبب كان كما قال الله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل) - ثم قال السيد في كتابه « نحن لا غرض لنا إلا الاتحاد الإسلامي وتخليص رقاب المسلمين فقط » ، وأصدر الأوامر إلى جنده بالوقوف بالقصر ، وطلب إلى الباروني أن يعاونه في إخماد الفتن والقتال . وكان من أثر رغبة السيد في جمع الكلمة وتوحيد الصفوف أن انتشر السلام على الحدود البرقاوية الطرابلسية فترة من الزمن كانت كافية لأن يتمكن الباروني في أثنائها من التوسط في الصلح بين السويحلي والمريض ، ثم استئناف الجهاد ضد إيطاليا . ودارت بينه وبين الطليان معارك حامية وقعت أكثرها حول مدينة طرابلس ، وذنوزور ، وزوارة والعجيلات .

غير أن السويحلي ما لبث أن عاد إلى سابق عهده ، فأظهر العداء للسنوسيين ، وشجعه على ذلك نزول نوري بمصراته بعد انسحابه من برقة ، فالتحم السويحلي مع السنوسيين وأنصارهم في نفس المعارك التي سبق ذكرها ، واضطر نوري إلى مغادرة طرابلس ، وظهرت الحاجة

الشديدة إلى إنشاء حكومة موطدة جديدة في طرابلس . وكان في هذه الظروف أن حضر الأمير عثمان فؤاد من الآستانة .

وكان الأمير عثمان فؤاد من أقرباء السلطان مراد الخامس الذي تولى العرش في عام ١٨٧٦ لمدة ثلاثة شهور فقط ، وأبوه صلاح الدين أعظم أعضاء البيت المالك شهرة وبلى ولي العهد مباشرة في وراثته العرش ، وكانت هذه الصلة القريبة هي سبب وقوع اختيار أنور باشا وجماعته على الأمير عثمان فؤاد وهو ما يزال في ذلك الوقت شابا لا يزيد عمره على ثلاثة وعشرين عاما . وتضاربت الأقوال في بيان الطريقة التي تم بها اختيار الأمير العثماني ، فذكر كثيرون أن ألمانيا هي التي أرادت إرساله حتى يشعل جذوة الحرب من جديد في ليبيا وكانت تريد أن يرافقه أمير وقائد المانبان ، ولكن أنور باشا عارض في ذلك معارضة شديدة، ومع ذلك فقد اتفقت أقوال الثقات على أن الغرض من إرساله كان بلاجدال تنظيم جهود الطرابلسيين في النضال ضد إيطاليا وإزالة الخلافات القائمة في صفوف المجاهدين ، فأشيع وقتذاك أن أوامر معينة قد سبقت قدوم الأمير العثماني بعث بها الباب العالي إلى رمضان شتيوي صاحب مصراته تحضه على وجوب الاتفاق مع السيد أحمد الشريف والامثال لكل ما يصدره الأمير عثمان فؤاد من أوامر ، وإنذاره بقطع الإمدادات عنه إذا هو خالف الأمير العثماني . ووصل الأمير في إحدى الغواصات وجاء معه عدد من الضباط الأتراك كان من بينهم إسحاق باشا . هذا فضلا عن بعض الخبراء الألمان الذين أنشؤا بمجرد وصولهم إلى مصراته محطة للاسلكي يتلقون عن طريقها الأنباء عن تطور القتال في ميادين الحرب المختلفة بأوربا .

وعندما وصل الأمير عثمان فؤاد أخذ ينفذ برنامجا واسعا دلت الحوادث على أنه كان في جوهره وتفصيله من ثمار تفكير رجل آخر عرسته التجارب ورسخ إيمانه في القدرة على تحقيق أهداف البلاد الوطنية . ذلك أن الأمير عثمان فؤاد علاوة على صغر سنه كان لا يعيش في حياته الخاصة عيش العرب المجاهدين ولم يستمتع بشهرة عظيمة . فكان الأهلون بسبب قلة خبرته بتصريف الشؤون وعدم حنكته لا يطمثون إليه ولا يركنون إلى تدبيراته . ولكن على الرغم من ذلك كانت الفترة القصيرة التي تسلم فيها الأمير عثمان فؤاد زمام الأمور من مايو إلى نوفمبر ١٩١٨ فترة نشاط عظيم ، بذرت في أثنائها تلك البذور التي مهدت لظهور أول حكومة منظمة في القطر الطرابلسي منذ أن بدأ النضال ضد إيطاليا ، وأعنى بذلك حكومة الجمهورية الطرابلسية . وأما كيف تسنى حدوث ذلك كله ، فالأمر بسيط حين إذا تذكرنا أنه حضر من تركيا مع الأمير عثمان ، عبد الرحمن عزام .

وقد سبقت الإشارة في الفصول الماضية إلى جهود (العزام) - وهو الاسم الذي عرفه

به وقتذاك معاصروه العرب - ولكن وصف الظروف التي أتت بالعزام إلى برقة وطرابلس ضروري لإدراك حقيقة الجهود التي بذلها هذا المجاهد الشاب وسط خضم من الحوادث بصورة سرعان ما أثارت الإعجاب بنشاطه وصدق إيمانه من كل جانب ، فوثق به زعماء طرابلس وثوقهم بأنفسهم واثمنه المجاهدون الطرابلسيون على مصالحهم الوطنية ، واستمعوا لنصحه وإرشاده . وساروا في كل طريق كان يرى من مصلحة الوطن العليا أن يوجههم إلى سلوكه ، بل إن وثوق المجاهدين به واستماعهم لنصحه وإرشاده بلغ درجة من الخطورة انتزعت من الطليان انتزاعا الاعتراف الصريح بأن المجاهدين ما كانوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من إنشاء الحكومة المنظمة ورفع أعلام الجمهورية والمطالبة بالحريات الشخصية والقانونية ، ثم إرغام إيطاليا في آخر الأمر على إصدار القانون الأساسي لو أن العزام لم يكن العقل المدبر واليد المحركة في ذلك كله .

وكان العزام من الطلبة المصريين الذين عقدوا العزم على مكافحة الاستعمار والمستعمرين من اللحظة الأولى ، قصد إنجلترا لإتمام دراسته ، ولكنه حدث أن انعقد مؤتمر وطني في جنيف بسويسرة في يونية ١٩١٤ فحضر عبد الرحمن عزام هذا المؤتمر مندوبا عن الطلبة في لندن . وعند ما بدأت الحرب العالمية الأولى في أغسطس من العام نفسه ، أوفده المؤتمر إلى مصر ليجمع المال اللازم لمعاونة المؤتمر على العمل في سبيل استقلال مصر ، وجاء عبد الرحمن عزام إلى مصر ولكنه لم يستطع الخروج منها ، وأنذره الإنجليز بعدم مغادرة البلاد ووضعوه تحت مراقبة صارمة ، فالتحق بالقصر العيني يعمل في مستشفى ، ثم حدث هجوم الأتراك المتربق على قناة السويس ، فأرسل الإنجليز الأتراك من الميدان إلى مستشفى القصر العيني وكان عزام ممن سهروا على تمريضهم فاستطاع أن يقف من هؤلاء الجرحى على آخر الأبناء العسكرية وصار يتحين الفرص للإفلات من رقابة الإنجليز ، حتى إذا أتى شهر ديسمبر من عام ١٩١٥ اختفى العزام فجأة من القاهرة ، وذهب إلى الإسكندرية ثم ساعده اثنان من العرب على اجتياز الحدود الغربية إلى برقة فوصل إلى معسكر نوري باشا بعد معركة بئر تونس وأحضر معه إلى نوري رسائل من الضباط الأتراك وعدداً من المقصات لقطع الأسلاك الشائكة ورحب به القائد العثماني وأكرم وفادته ثم بدأ العزام يتدرب على فنون الحرب والقتال وفي فبراير ١٩١٦ حضر معركة العقاقير مع نوري وجعفر العسكري ، وهي المعركة التي أسر فيها الإنجليز جعفر العسكري وكاد يقع نوري والعزام في أسرهم . وعند ما أخفقت حملات السيد أحمد الشريف ونوري باشا على الحدود الغربية ، وتأزمت الأمور في برقة بسبب انتشار المجاعة والطاعون وألح أهل البلاد في ضرورة إنهاء التضال على نحو ما سبق

تفصيله ، ذهب نوري باشا ومعه عبد الرحمن عزام إلى طرابلس في أواخر عام ١٩١٦ لمواصلة الجهاد في انقصر الشقيق باسم الحكومة العثمانية ، ونزل نوري وعبد الرحمن عزام بمصراته ، وكان رئيس حكومتها رمضان السويحلي فأكرم وفادة العزام ، وتفتحت أمام العزام آفاق واسعة ، وسيطرت روحه على نشاط المجاهدين ، فكان نوري باشا لا يبرم أمراً دون استشارته والرجوع إلى رأيه ، والتف حول العزام المجاهدون العرب ، ووثق به رمضان السويحلي ، ولم يكن هذا المغامر يثق بأحد إلا في النادر القليل . ولا جدال في أن توطد العلاقات بين العزام والسويحلي في ذلك الوقت كان لخير القضية الليبية . ذلك بأن العزام استطاع أن يكبح كثيراً من جموح السويحلي ويحد من غلوائه ويرغمه على أن يخفف شيئاً من حدة عدائه للسوسية ويقنعه بضرورة إزالة أسباب الخلاف المستحکم بينه وبين سائر الزعماء الطرابلسيين أضف إلى ذلك ، أن رمضان السويحلي كان يبدو وقتذاك رجلاً قوى الشكيمة يمكن الاعتماد عليه في قيادة الجهاد في طرابلس ضد الأعداء الطليان . بيد أن العزام لم يطل به المقام حينذاك بطرابلس لأنه ما لبث حتى غادرها مع نوري باشا في غواصة ألمانية نقلتهما إلى يولا ، فذهب العزام مع نوري إلى الآستانة في أغسطس ١٩٢٧ ، ثم أوفدته الحكومة العثمانية إلى برلين وقتنا لعمل الترتيبات اللازمة لإرسال عماد الحرب إلى طرابلس . ووقع اختيار الحكومة عليه بعد ذلك حتى يرافق الأمير عثمان فؤاد عند مجيء الأمير إلى طرابلس في مارس من العام التالي ، وذلك بوصفه مستشاراً للقيادة العامة في إفريقية الشمالية . وكما كسب العزام من قبل ثقة نوري باشا فإن الأمير العثماني سرعان ما وضع فيه كل ثقته ، ثم انضم الضابط التركي عبد الرحمن نافذ بك إلى العزام وعثمان فؤاد وكان نافذ قد حضر مع الأمير رئيساً لأركان حربه ، فصار ثلاثتهم يهيمنون على شئون الجهاد في العهد الجديد ، وفي هذه الحكومة الثلاثية كان العزام عقلها المدير وصاحب الرأي المسموع في مداولاتها . وظهر أثر توجيهات العزام في كل ما وقع من حوادث منذ مجيء عثمان فؤاد إلى طرابلس حتى وقت أن غادرها .

وكان وصول عثمان فؤاد إلى طرابلس (في مايو ١٩١٨) في وقت استحکم فيه الخلاف بين السويحلي والسيد أحمد الشريف من جهة وبين السويحلي وأحمد بك المريض من جهة أخرى وعلى ذلك فقد قابل الأمير عثمان فؤاد السيد أحمد الشريف في مرسى العقيلة ، ثم دعا الزعماء لمقابلته بمجرد نزوله في مصراته ، فحضر سليمان الباروني وغيره من الزعماء ، ولكن المريض امتنع عن المجيء إلى مصراته كما أن أحداً من زعماء ترهونة لم يحضر هذا الاجتماع ، فتحدث عثمان فؤاد إلى الحاضرين في ضرورة الوثوق بتركيا وهي الدولة التي عقدت العزم على حد

قوله ، على تحرير القطر الطرابلسي من نير الطليان ثم أخذ يجهم على الاتحاد . وكان واضحاً من مبدأ الأمر أنه لا مناص من العمل لتوحيد الجهود وجمع الكلمة وإزالة أسباب الخلاف بين الزعماء إذا أراد المجاهدون أن يصلوا بالجهاد إلى غايته ، فالتحصرت من ذلك الحين جهود عثمان فؤاد وعبد الرحمن عزام مستشار القيادة العامة في حمل الزعماء على تناسي خلافاتهم وبذل المهمة في النضال ضد الطليان المستعمرين ، وأخذ عثمان فؤاد يبذل قصارى جهده حتى يجمع بين السيد أحمد الشريف ورمضان السويحلي ، ولكنه لقي في مسعاه معارضة شديدة من جانب السويحلي الذي أصر دائماً لحكمة قد لا يعرفها سواه على أن يحضر السيد أحمد الشريف بنفسه إلى مصراته ، معقل السويحلي المنيع ، ولا يصحبه عند حضوره إلا نفر قليل لحراسته . ومع ذلك فقد حرص عثمان فؤاد دائماً على استمالة السيد أحمد الشريف وأكثر من إرسال الهدايا إليه وحاول في الوقت نفسه أن يستميل المجاهدين السنوسيين فأكد لهم أنه لن يتوانى في العمل مع السيد أحمد الشريف لطرد الأجانب جميعاً من إفريقية الشمالية . ولكن هذه الجهود لم تثمر ثمرتها المطلوبة بسبب عداوة رمضان شتيوى الظاهر السنوسية وفضلاً عن ذلك فإن الأمير عثمان فؤاد لم يكن موقفاً في جهوده التي بذلها من جانب آخر لإنهاء الخلاف القائم في المنطقة الغربية ثم لاستمالة سليمان الباروني وأهل ترهونة إلى تأييد أهدافه . وسبب ذلك أن الباروني وأهل ترهونة كانوا جميعاً يرضجون بالشكوى من الحاكم العثماني إسحاق باشا الذي جاء مع عثمان فؤاد إلى طرابلس . وكان الطرابلسيون يعرفون (إسحاق بك) أيام الحرب الليبية الإيطالية ضابطاً شجاعاً صاحب سمعة طيبة ، ولكن إسحاق بك ظل يجمل اللغة العربية . وعلاوة على ذلك فقد جاء في هذه المرة مصعباً على الاستئثار بكل سلطة مدنية وعسكرية في المنطقة الغربية ، وتطاولت الإشاعات بأنه كان يحمل أوامر سرية تنص على أن يتصب أمير من البيت العثماني على طرابلس يعطى كل السلطات المدنية والعسكرية لرجل يدعى يوسف بك .

وقد استبد إسحاق باشا بالحكم حتى أن عدد الذين شتمهم من الأهالي في مدة لا تزيد على بضعة أسابيع بلغ أربعين ؛ وكان مما جعل العرب ينفرون منه زيادة على ما تقدم أنه اصطنع العنطة في معاملته الأهالي ، وأظهر غطرسة وكبرياء ؛ فكان من أثر ذلك كله أن اتهم سليمان الباروني هذه الفرصة وأخذ يعمل لاسترجاع السلطة التي سلبها منه إسحاق باشا فأكثر من الإقامة بالعزيزة بدلاً من الانزواء بالزاوية ، وأنشأ الصلات الوثيقة مع الزعماء في ترهونة وغيرها وعند ما طلب إليه الأمير عثمان فؤاد أن ينشر الدعوة لتأييد العثمانيين ويجمع كلمة المجاهدين في النضال ضد إيطاليا قابل الباروني في الزاوية أحمد المبيض وكثيرين من زعماء ترهونة وغيرهم من زعماء المنطقة الغربية وأكد لهم أن النصر حليف الدول الوسطى ، وأنه لن

تتقضى ثلاثة شهور حتى يكون المنتصرون قد احتلوا طرابلس وفواره . غير أن خطة الباروني هذه لم تأت بنتيجة لأن الباروني نفسه وأرثك الزعماء الذين استمعوا إليه في ترهونة وغيرها كانوا جميعاً في شدة التذمر من السلطة العثمانية التي يمثلها إسحاق باشا . وإلى جانب هذا الفشل لم يكن الأمير عثمان فؤاد موفقاً كذلك في تسوية العلاقات بين أحمد المريض ورمضان السويحلي .

ومع ذلك فإن عثمان فؤاد ، والأحرى أن نقول عبد الرحمن عزام ، ما كان ليرضى بنتيجة هذه المساعي المبذولة ، فعقد الأمير في آخر يولية ١٩١٨ اجتماعاً في بويرات الحسون حضره زعماء ترهونة وسليمان الباروني وإسحاق باشا والشيخ محمد سوف وزعماء آخرون من المنطقة الغربية . وفي هذا الاجتماع طفق عثمان فؤاد يبين للمجتمعين مزايا توحيد الجهود حتى تنمو قوة المجاهدين الحربية ، وصار يحثهم على الإخلاص للحكومة العثمانية واحتمال التضحية بصبر لا يتفد ، ثم أظهر لهم استياءه من أن بعض الأهلين وزعمائهم مازال بينهم وبين الطليان علاقات تجارية ، وواعد بوصول الإمدادات قريباً إلى طرابلس تحملها الغواصات من تركيا وأخذ المجتمعون بعد ذلك يدرسون مع الأمير العثماني الطرق التي تكفل زيادة عدد الجنود اللازمين لتقوية الجيش في الساحل الغربي ، وقبل المريض أن تتولى ترهونة بجيوشها مهمة الدفاع عن هذا الجزء . ولما كان الأمير يريد إزالة أسباب الخلاف بين ترهونة ومصراته فقد اهتم بتعيين المناطق التي تستأثر كل منهما بالنفوذ المطلق بها ، فقرر أن يكون لمصراته القسم الشرقي من الحفارة وترهونة القسم الغربي من وادي ترجت ، فيقيم مدير المنطقة الغربية في قصر خيار بينما يقيم مدير المنطقة الشرقية في قصر قربولي . ولكن هذه المساعي لم تسفر كذلك عن نتيجة حاسمة ، لأن ورفلة كانت غير راضية عن تجنيد أبنائها . وفضلاً عن ذلك فقد تطايرت الإشاعات بأن السويحلي لا يزال مصراً على الخلاص من غريمه القديم أحمد المريض وبتهمه بأنه كان على صلة بالطليان . وعلى ذلك فقد اضطر عثمان فؤاد إلى عقد اجتماع آخر في غريان في أغسطس ١٩١٨ واستأنف المجتمعون البحث في وسائل إزالة الخلافات القائمة ، وواعد عثمان فؤاد بإبعاد إسحاق باشا وعزله ، وكان غرض الأمير أن ينشئ جيشاً نظامياً جديداً يحل محل قوات المجاهدين غير النظامية ، وأن يؤسس مركزاً كبيراً لتموين هذا الجيش الجديد . وعنى المجتمعون بمسألة الضرائب وطرق توزيعها وجبايتها ، ثم نظروا في أمر الاتفاق مع خليفة بن عسكر من زعماء القسم الغربي من الجبل حتى يزحف على ذهبيات أو يستولى على محصولات الأهالي الخاضعين للطليان في هذه المنطقة . وكذلك اتخذ المجتمعون قرارات من أجل تجنيد الصالحين للخدمة العسكرية في جميع المناطق والمضى في الدفاع من

واحاحات الساحل الغربى ثم تأسيس جيوش جديدة نظامية . وفى سبتمبر ١٩١٨ حدث اجتماع ثالث فى زنزور لتبادل الرأى بين الزعماء والأمير العثمانى ، ثم تكرر عقد الاجتماعات التى عودت الزعماء أن يحضروا جميعا فى صعيد واحد يقبلون وجوه الرأى فيما يعرض لهم من أمور ويتخذون قرارات مشتركة ، وتغلبت عليهم العناية بتقديم مصلحة البلاد على مصالحهم الخاصة رويداً رويداً . فكانت هذه الاجتماعات التى أدار دفتها عبد الرحمن عزام بمهارة فائقة الأصل الذى تفرغ عنه نظام الجمهورية أو اتحاد الحرية .

ويتفق ظهور فكرة الجمهورية مع وصول ضابط تركى جديد أصله من بنغازى لتسلم القيادة العليا فى إفريقية الشمالية من الأمير عثمان فؤاد هو عبد القادر باشا الغناى . وكان للسياسة التى عولت إيطاليا على اتباعها فى طرابلس فى هذه الظروف أكبر الأثر فى تمكين أصحاب فكرة الجمهورية من إنشائها من جهة ، ثم فى نجاح مساعى هؤلاء من جهة أخرى فى الحصول على (القانون الأساسى) من إيطاليا . فإنه لم يكده ينتهى اجتماع الزعماء الأخير حتى جاءت الأمير عثمان فؤاد الأخبار من تركيا بأن الحلفاء المنتصرين فى الحرب العامة قد ضيقوا الخناق على تركيا وأن سقوط الآستانة ذاتها بات متوقفاً بين وقت وآخر ومن المتوقع لذلك استسلام الدولة العثمانية فى القريب العاجل . وعلى ذلك فقد أخذ عثمان فؤاد يتربأ لمغادرة البلاد ثم طلب إليه أن يعود إلى الآستانة بكل سرعة . وكان من المنتظر فى هذه الظروف إذا أن يدور البحث فى مصراته مقر الأمير ، فى مصير الجهاد بعد عودته ونوع الحكومة التى يجب إنشاؤها ، واستطاع عبد الرحمن عزام — وكان العزام صاحب الرأى دائماً كلما ادلهمت الأمور — أن يدعو لإنشاء جمهورية فى طرابلس تأخذ على عاتقها توحيد الصفوف ومواصلة الجهاد ، وقبل عثمان فؤاد ورمضان السويحلى إنشاء الجمهورية ، واستدعى الأمير الشيخ سليمان البارونى إلى مصراته ، وكان البارونى وقتذاك فى غريان فجاءه مصراً وتحدث إليه الأمير فى ضرورة عودته إلى تركيا وفى نظام الحكومة المستقبلية ؛ ثم باذر البارونى بالاتصال برمضان السويحلى . وكان فى أثناء هذه المداولات أن قر الرأى نهائياً على تأسيس الجمهورية . ومع أن الأمير كان قد قرر السفر فوراً إلى تركيا فإنه لم يستطع مغادرة البلاد خوفاً من وقوع الغواصة الألمانية المعدة لنقله فى أيدي أساطيل الحلفاء فى البحر الأبيض ، فمكث الأمير فى مصراته . وفى يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨ وصل عبد القادر باشا الغناى حتى يتسلم منه القيادة العامة ، فاستؤنفت المشاورات بكل همة .

على أنه مما يجدر ذكره أن آراء الزعماء كانت مختلفة بصدد اختيار نوع الحكم النهائى فى طرابلس . وكان فى أثناء تشاورهم أن اتجه فريق منهم إلى تأييد الزعامة السنوسية . ويبدو أن

هؤلاء كتبوا فعلا في ذلك الحين إلى السيد محمد إدريس زعيم السنوسية وأمير برقة يعرضون عليه الحكم في كل ليبيا . وكان مما عزز موقف هذا الفريق أن الغنای رفض قبول فكرة الجمهورية لاعتقاده بأن هذا النوع من الحكم متعذر في بلد لم يبلغ أهله من التقدم درجة يستطيعون عندها أن يفهموا ما كانت تطوى عليه الجمهورية من معان دقيقة . وعلاوة على ذلك فقد وجد من بين الزعماء فريق آخر أراد الاتفاق مع إيطاليا على أساس إجابة رغائب البلاد الوطنية . وكان من رأى الغنای أن إيطاليا لن تقبل الجمهورية وأن إنشاءها سوف يقف حجر عثرة في سبيل التفاهم مع الطليان . وقد عاضد الغنای في آرائه هذه كثيرون منهم أحمد المریض وغيره من زعماء ترهونة فضلا عن الشيخ محمد سوف ، وابن تنوش وعدد كبير من الضباط العرب المجاهدين . غير أن كفة أنصار الجمهورية كانت الراجحة في النهاية عند ما أصر رمضان شتيوى وعبد النبي بلخير وسليمان الباروني ومختار كعبار وغير هؤلاء على عدم الاتفاق مع إيطاليا إذا عارضت إنشاء الجمهورية ، وفضلوا متابعة النضال حتى إذا قدر لهم أن يغلبوا على أمرهم هاجروا إلى تركيا أو إلى أي بلد آخر . وكان رمضان السويحلي يميل كذلك إلى الاستعانة بالإنجليزية . ولما كان أكثر الزعماء لا يزالون على خلافهم القديم مع السنوسية فقد ظفرت فكرة الجمهورية بتأييد الأكتريية في آخر الأمر . ولا جدال في أن الجمهورية في الظروف العصيبة التي كانت تمر بها البلاد وقتذاك كانت أفضل الحلول العملية ما دام متعذرا جمع كلمة القطر الليبي كله تحت زعامة السنوسية الموحدة ، ذلك بأن نظام الجمهورية الذي ابتكره عبد الرحمن عزام كان يكفل لكل زعيم من كبار الزعماء الطرابلسيين مكانا بارزا في شئون الحكم وعلى قدم المساواة مع سائر إخوانه أعضاء هذه الجمهورية . وكان العزام يرجو من هذا النظام أن تمتحن الخلافات الشخصية التي فرقت بين الزعماء مدة طويلة بين طياته ، فيستطيع الطرابلسيون أن يؤولفوا جهة متحدة تستمتع بمكانة كبيرة في البلاد وتتمكن من المفاوضة مع الطليان أو مواصلة النضال من أجل استنقاذ حقوق البلاد من أيدي المستعمرین . وكان مما اهتم به الزعماء عند البحث في تشكيل الجمهورية معرفة موقف الطليان من أهدافهم الوطنية وإدراك حقيقة نواياهم .

وبالفعل قدم في يوم ١٤ نوفمبر ١٩١٨ إلى القيادة العسكرية الإيطالية بالخنس وفد من الضباط العثمانيين تألف من غالب افندى الضابط التركي ، وإبراهيم بن عباد مدير شجران والحاج أحمد القاضي وبعض مشايخ آخرين . وقال الضابط العثماني إنه موفد من قبل عبد القادر باشا الغنای الذي انتخبه زعماء وأعيان طرابلس لمباشرة المفاوضات مع إيطاليا ، وأعلن غالب افندى أن الأهليين يرغبون في أن يظل بأيديهم فقط تقرير مصيرهم عملا بالمبادئ التي أذاعها

ودرو ويلسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم طلب وقف القتال في الحال . فأجاب القائد الإيطالي بالحس هذا الطلب الأخير فوراً ودون انتظار أوامر حكومته حتى تجرى المفاوضات بسهولة ، واستوفت المفاوضات في اليوم التالي ، فحضر غالب افندي وضياء بك وهو ضابط تركي آخر ورمضان السويحلي وإبراهيم بن عباد ومختار كعبار وزعماء آخرون من ترهونة وبنى وايد وزليطن ، ورفض الزعماء الدخول في خطوط مرا كز الطليان ، فقابلهم هؤلاء خارجها ، وقدم مختار كعبار كتاباً إلى القائد الإيطالي جاء فيه إن الطرابلسيين يخبرون الحكومة الإيطالية بلغة قاطعة أنهم قرروا إعلان الاستقلال وإنشاء الجمهورية وقرروا إجراء الانتخابات لاختيار نواب عن جميع المناطق يتألف منهم مجلس شورى الحكومة ومجلس جمهوريتها ، ويطلبون من إيطاليا أن تعترف بالحكومة الجمهورية ويهددون باستمرار القتال إذا رفضت الاعتراف بها ثم يعلنونها في الوقت نفسه بأن الجمهورية على استعداد للدخول في مفاوضات مع إيطاليا في نظير أن تقبل الحكومة الإيطالية شروطاً معينة فصلوها في كتابهم ، وتعمل على تنفيذها . وقد حملت هذه الوثيقة إمضاءات رمضان شتيوى وسليمان الباروني وعبد النبي بلخير وأحمد المريض بوصفهم أعضاء الحكومة الجمهورية . ولما كانت الإجابة على هذا الكتاب تقتضى صدور تعليمات واضحة من حكومة رومة فقد اكتفى القائد الإيطالي بإيراد نص الهدنة التي قبلتها تركيا ، ثم انتهى الأمر بتحديد موعد لمقابلة أخرى في يوم ٢١ نوفمبر . وصرح الوالى الإيطالى (غاريوني) Garioni في الوقت نفسه بتبادل المتاجر بين الطليان والطرابلسيين المجاهدين .

ومع أنه لم يدر في هذا الاجتماع حديث ما عن مبادئ ويلسن وتقرير المصير فقد استطاع الزعماء أن يدركوا أن إيطاليا ما كانت تريد أن تبذل مجهوداً حربياً كبيراً في طرابلس وبات مما يهملها الآن أن تتفق مع المجاهدين كي تسوى مشكلاتها معهم سلبياً ، وقد شجع إدراك هذه الحقيقة الزعماء على المضي في إنشاء الحكومة الجمهورية . فانعقد في البويرات في يوم ١٥ نوفمبر اجتماع كبير حضره رمضان السويحلي وعبد النبي بلخير وأحمد المريض - وجاء مع المريض أربعة آخرون من زعماء ترهونة - ثم الشيخ محمد سوف وسليمان الباروني وإسحاق باشا وعبد القادر باشا الغنای . وفي اليوم التالي استأنف هؤلاء بحوثهم في اجتماع آخر عقده في القصبات ؛ وأعلنت في ذلك اليوم (١٦ نوفمبر) نتيجة انتخابات مجلس شورى الحكومة ومجلس جمهوريتها ، وأسفرت اجتماعات الزعماء في مسلانة عن إنشاء الجمهورية بصورتها النهائية واختيار سليمان الباروني وأحمد المريض ورمضان السويحلي وعبد النبي بلخير أعضاء لمجلس الجمهورية ثم اختيار أعضاء مجلس شورى الجمهورية من الشيخ سوف بك رئيساً أول

والشيخ يحيى بك الباروني (شقيق سليمان الباروني) رئيساً ثانياً ، ومن اثنين وعشرين عضواً آخرين يمثلون الجبل و ترهونة والجفارة ومسلاتة والساحل وزليطن ومصراته وسرت وورفلة وفزان - مرزوق - والشاطي وجبل غدامس وعمران والعزبية والزاوية ونواحي أربعة وحرمان وعجيلات ، ثم اختير مختار كعبار رئيساً لمالية الجمهورية . وفي يوم ١٨ نوفمبر ١٩٤٨ أصدر مجلس الجمهورية بلاغاً أذاعه في أنحاء البلاد يعلن تأسيس الجمهورية ، جاء فيه مانصه : . قررت الأمة الطرابلسية تنويج استقلالها بإعلان حكومتها الجمهورية باتفاق آراء علمائها الأجلاء وأشرفها وأعيانها ورؤساء المجاهدين المحترمين الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد ، ؛ ثم قرر المجلس إرسال بلاغ في اليوم نفسه إلى الحكومات الإيطالية والإنجليزية والفرنسية وإلى الرئيس ويلسن .

وكان مستشار الجمهورية الطرابلسية عبدالرحمن عزام . ولليرة الأولى بدأ الطليان يدركون أهمية الجهود التي كان يبذلها العزام من أجل تأسيس حكومة موطدة في طرابلس تستطيع مواصلة الجهاد واستخلاص حقوق الوطنيين . وكان الطليان قبل ذلك يعززون كل حركة يقوم بها المجاهدون إلى تدير الضباط العثمانيين في معسكرهم . والواقع أن عبدالرحمن عزام ظل على عهده يوجه خطوات الحكومة الجديدة ويتنكر من أساليب المناورة السياسية ما حمل الإيطاليين على الاعتراف بحقوق الوطنيين في النهاية ، فقد توالى اجتماعات الحكومة الرباعية والجمهورية ، - ديسمبر ١٩١٨ - في العزبية والقصبة للبحث فيما ينبغي اتخاذه من تدابير سياسية وإدارية ، وطرق توزيع المال الذي خلفه العثمانيون في مصراته وكذلك الأسلحة التركية . وكانت مهمة العزام الرئيسية في هذه الاجتماعات الوصول إلى تسوية عادلة بصدد هذه الأمور جميعها ثم حض الرعما على الاتحاد أمام الطليان حتى لا تذهب ريحهم . وكان من أثر الخطة الحكيمة التي أشار العزام باتباعها أن قبل رمضان السويحلي نسيان الماضي وكان اقتناع السويحلي : وهو رجل عنيد ، بتبذ الخلافات والأحقاد الشخصية نصراً عظيماً لسياسة العزام الجديدة . فبعث السويحلي هدية كبيرة من الذخائر إلى أحمد المريض صاحب ترهونة ، وفضلاً عن ذلك فقد أرسل رسولا إلى أمير السنوسية السيد محمد إدريس يخرض عليه نبذ المنازعات السابقة والصفح عن الماضي ؛ وقد عزا السويحلي هذه المنازعات إلى تدابير الأتراك ومكائدهم ، وصار يرجو من عبد الجليل سيف النصر أن يكون وسيط الصلح بينه وبين السيد محمد إدريس . وحار الطليان في تفسير أسباب هذا النشاط الجديد ، فقال قائل منهم إن السويحلي كان يرجو تسوية مشكلة الفزان مع السنوسية بعد أن خرج الأتراك من الميدان ، وصار من المتعذر عليه الاعتماد على مساعدتهم له ؛ ومن قائل إن السويحلي كان يعمل

لتجنب الاصطدام مع السنوسيين وحلفائهم إلى مؤازرته فيكسب بذلك سمعة طيبة عند مواطنيه ويتبل هؤلآء على معاودة حكومته لأن السنوسية على الرغم من تلك الحواجز التي أقامها الزعماء الطرابلسيون حتى يحولوا دون انتشار نفوذها السياسي في بلادهم كان لها أتباع كثيرون في أكثر نواحي طرابلس والقران ، وكان أميرها السيد محمد إدريس قد أصاب نجاحا ملحوظا بفضل ما أظهره من حكمة سياسية في تسوية علاقاته مع إيطاليا بالطرق السلمية وبدأ يدعم أركان إمارته في إجداية .

ومهما يكن من حقيقة الدوافع التي أملت على السويجلي هذه الخطوة ، فكلمها كانت في غاياتها القريبة والبعيدة دوافع طيبة دلت على سداد الرأي بدرجة جعلت الطليان يشعرون أن العزام وحده هو المسئول عن هذه السياسة الجديدة . ثم تجددت مخاوفهم من أن يكون الغرض من نسيان المنازعات القديمة واتتلاف القلوب إنما هو إنشاء دولة كبيرة في إفريقية الشمالية كانوا يرجحون أن يتعدلوا زعامتها للسنوسية وأميرها السيد محمد إدريس ، وأن المساعي التي يبذلها العزام لتكوين جهة متحدة بزعامه السويجلي في طرابلس ما هي إلا خطوة تمهد لإنشاء هذه الدولة الإفريقية . وكان عازاد من قلق الطليان بطرابلس — أو المستعمرة على حد قولهم — أن بدأت الحكومة الجمهورية أعمالها بمناورة سياسية بارعة أدار العزام دقتها بمهارة عظيمة من أجل إجبار إيطاليا على الاعتراف بحقوق العرب كاملة . ويمكن إدراك مبلغ ما وصلت إليه أساليب هذه المناورة السياسية من تدبير محكم ، إذا شئنا أن نتبع تلك الخطوات التي سبقت إصدار القانون الأساسي بطرابلس ، وهو القانون الذي وضع أسس نظام الحكم الذاتي الجديد وكفل للعرب كموطنين ، لبقية رعايا إيطاليا وعلى قدم المساواة معهم كافة ما كان يتمتع به الطليان أنفسهم من حقوق قانونية في المملكة الإيطالية ، وذلك بعد جهاد لم يزد على ثمانية أعوام فقط .

ققد بدأ زعماء الجمهورية هذه المناورة السياسية بأن أخذوا يعلنون استعدادهم لمفاوضة الحكومة الإيطالية على شريطة أن تعترف هذه الحكومة بخطأ أعمالها السابقة وأنها أسامت التصرف مع أهل البلاد وعملت على استعبادهم . ولما كانت إيطاليا في ذلك الحين — وكما سيأتي بيانه — ترغب في الوصول إلى اتفاق سلمي مع الطرابلسيين فقد رحبت الحكومة المحلية بعروض المفاوضة التي أسمتها واتجاهها جديداً ، وكان أكثر المرشحين لهذا الاتجاه الجديد أعضاء المكتب السياسي الإيطالي في طرابلس ، فلما ثبت لدى الجمهورية استعداد الحكومة المحلية للمفاوضة تقدم الزعماء في مؤتمر عقده في العزيزية بطلب جديد لم يكن يتوقعه الطليان البتة هو أن ينال الطرابلسيون (الجنسية الإيطالية) وأن يستمتعوا بكل

ما تعطيه هذه الجنسية من حقوق ، وكان هذا المطلب في نظر الحكومة الإيطالية مطلباً خطيراً قال وزير مستعمراتها وقتذاك (كولوزيمو) . إن الغرض من التقدم به لم يكن سوى كسب الوقت وذلك حتى يتم المجاهدون استعدادهم لاستئناف النضال ضد إيطاليا ، فانقطعت المفاوضات قرة من الزمن ؛ وعمد الطليان إلى استخدام القوة وكان من رأى الوالى الإيطالى فى طرابلس (غاريونى) فى أوائل فبراير ١٩١٩ أنه إذا قررت إيطاليا اللجوء إلى العمليات العسكرية فإنه لضمان نجاح هذه العمليات يجب أن يكون هدفها احتلال العزيزية ووضع تنظيم سياسى وعسكرى وثيق لمنطقة الجفرة الغربية واحتلال سرت ثم مصراته كذلك حتى يتسنى للحكومة المحلية تهدئة طرابلس الشرقية . وعلاوة على ذلك فإنه من الواجب على الحكومة المحلية أن تنشئ علاقات وثيقة مع عبد الجليل سيف النصر من أجل تنظيم واحات الجفرة والفران . غير أن هذا البرنامج السياسى والعسكرى كان برنامجاً واسعاً لم تستطع الحكومة المركزية فى روية إرسال القوات والنجادات اللازمة لتنفيذه فاقصرت أعمال الحكومة المحلية على بعض مشاورات قليلة الشأن كانت سبباً فى إثارة حملة عنيفة ضد الحكومة من جانب الصحافة الاشتراكية فى إيطاليا . واضطرت الحكومة المحلية إلى بذل جهود أشد وأقوى ، ومع ذلك فإن كل ما أسفرت عنه هذه الجهود كان اشتبهاً كما مع المجاهدين فى معركة غير حاسمة فى ٨ فبراير ١٩١٨ ثم وقعت العمليات العسكرية بعد ذلك ، ولم يجد غاريونى الوالى الإيطالى مناصاً من استئناف المفاوضات مع زعماء الجمهورية .

وكانت المطالب التى تقدم بها غاريونى إلى حكومة رومة على اعتبار أنها أقل ما كان يقبله الوطنيون أساساً للاتفاق مع الحكومة ، تلخص فى الأمور الآتية : (أولاً) المساواة التامة أمام القانون بين العرب والطلليان فى طرابلس ، على أن يحتفظ العرب فى كل ما يتصل بأحوالهم الشخصية وقواعد الإرث بما تكفله لهم الشريعة الإسلامية من حقوق ، (ثانياً) . احترام الحرية الشخصية فى حدود القانون ، (ثالثاً) احترام حقوق الملكية والإقامة فى حدود القانون كذلك ، (رابعاً) تمتع العرب بحق الدخول فى كل ما يعقد من مسابقات لأجل الانخراط فى سلك الوظائف المدنية والعسكرية فى البلاد على قدم المساواة مع الطليان فضلاً عن استمتاعهم بحق ممارسة الأعمال الحرة ، (خامساً) حصول مجلس الحكومة المركزى والمجالس المحلية للمصدر هذه المجالس من قرارات نالت أكثرية أصوات أعضائها ، (سادساً) سريان قرارات المجالس البلدية مادامت هذه نالت أكثرية أصوات الأعضاء الذين يؤلفون المجالس البلدية (سابعاً) تمتع الأفراد الذين تتوفر فيهم شروط الانتخاب بممارسة حقوق الانتخاب . (ثامناً) التوسع فى اشتراك الوطنيين فى إدارة شئون القضاء على أن يكون اشتراكهم فعلياً فى هذه الإدارة .

وذكر غاريوني أن هذه المطالب كانت في الواقع مطالب معتدلة وأن الليبيين كانوا في العهد العثماني يستمتعون بحقوق أوفى من هذه ، وفضلا عن ذلك فإن ما يقترحه (غاريوني) الآن على حكومة رومة كان - على حد قوله - أقل بكثير مما وعد به الطليان أهل البلاد عند احتلالهم طرابلس في عام ١٩١١ ؛ فهناك ذلك المنشور الذي أذاعه وقتذاك الأميرال (بوريا ريشي) Borea Ricci في ١١ أكتوبر ١٩١١ ووعد فيه الطرابلسيين بأنهم سوف يتمتعون بكل الحقوق التي يتمتع بها الطليان أنفسهم ، وقال إنه ما كان يجوز البتة أن تفكر حكومته في إمكان معاملة الطرابلسيين بما تعامل به أهل بلادها ، وهناك كذلك منشور الجنرال كانيقا قائد الحملة ، وهو المنشور الذي أصدره هذا القائد في ١٣ أكتوبر من العام نفسه ووعد فيه الطرابلسيين بأن زعماءهم فقط هم الذين سوف يحكمونهم تحت رعاية دولة إيطاليا ، فتضمن هذا المنشور وعداً صريحاً بإنشاء الحكومة الذاتية . وعلى هذا الأساس الجديد إذن استؤنفت المباحثات مع الحكومة الجمهورية . وكان معنى قبول المفاوضات مع الجمهورية الطرابلسية أن إيطاليا صارت تعترف بهذه الحكومة الوطنية .

وفي مارس ١٩١٩ حدث أول اجتماع لبدء المفاوضات في مكان يقع إلى الجنوب من زنزور ، فحضر الجنرال تارديتي رئيس المكتب السياسي لحكومة طرابلس ، ولكن كبار الزعماء ما لبثوا حتى تخلفوا عن الحضور ، واضطر تارديتي إلى تأجيل الاجتماع ، وبدأت من ثم مناورة سياسية من جانب الزعماء الوطنيين ومستشارهم العزام الكبير الذي كان ملماً بالإمام كله بمحروجة مركز المفاوضات الإيطالي واضطراره إلى المفاوضات مع الجمهورية لأسباب سوف يأتي ذكرها . وكان غرض العزام إضعاف روح الطليان المعنوية وشن حرب أعصاب خفية قد تيسر على المفاوضين العرب انتزاع ما يريدونه من حقوق في مقدمتها الجنسية الإيطالية وإنشاء الحكم الذاتي في طرابلس . وعلى ذلك فقد تكررت الاجتماعات بعد ذلك وحضرها تارديتي وغيره من كبار الطليان وتخلف دائماً عن حضورها كبار الزعماء الطرابلسيين ؛ واستبد القلق بالطليان حتى أنهم صاروا يخشون من أن يكون غرض الجمهورية كسب الوقت فحسب إلى أن يتم استعدادهم فيستأنفون القتال المرير ضد المستعمرين الطليان في بلادهم . وعلى ذلك فقد وجدت الحكومة المحلية في آخر الأمر أنه لا مناص من أن ترسل إنذاراً إلى الهادي كعبار تهدد بزحف قواتها على الجمهورية إذا عجز الزعماء عن الوصول إلى نتيجة حاسمة حتى آخر شهر مارس . غير أن هذا الإنذار لم يفت في عهد المجاهدين ، فانقضى يوم ٣١ مارس دون أن يصل هؤلاء إلى النتيجة الحاسمة المنشودة ، ولم تستطع الحكومة المحلية أن تحرك ساكناً بل إنه عند ما استؤنفت الاجتماع في يوم ٣ أبريل لم يحضر سوى الهادي كعبار وعلي بن تنتوش

وسويح الشتيوي ومحمد القاضي ، واضطر المفاوض الإيطالي إلى قبول اعتذار الهادي كعبار الذي أبدى أسفه لعدم استطاعة كبار الزعماء الحضور .

وعند ما طلب الطليان من الحاضرين بياناً عن مطالبهم الأخيرة اكتفى الهادي كعبار بأن أحاطهم إلى المذكرة التي قدمها المجاهدون قبل ذلك في اجتماع الخمس في ١٥ نوفمبر من العام السابق ، وهذه لم تكن تتضمن سوى تهديد المجاهدين باستئناف النضال ضد إيطاليا إذا هي رفضت الاعتراف بالجمهورية الطرابلسية ، ورفضت التعهد بتنفيذ بضعة شروط أخرى متعلقة بإعلان الهدنة وتنظيم المعاملات بين الجمهورية والحكومة المحلية وعدم تسليم الأسرى من العثمانيين والألمان والنساويين الذين اعتبرتهم الجمهورية ضيوفاً عليها إلا إذا ارتأت هي ذلك .

ووجه الأهمية في إثارة موضوع تلك المذكرة في هذا الاجتماع أن الحكومة الإيطالية ظلت ممتنعة عن الرد عليها من وقت تقديمها ، وما كان الوطنيون في حاجة ماسة إلى رد الحكومة الإيطالية على مذكرتهم القديمة لأن قبول الطليان الدخول في مفاوضات مع أعضاء حكومة الجمهورية كان اعترافاً صريحاً من جانبهم بوجود هذه الجمهورية وما كانت تباشره هذه الجمهورية من سلطات وتمتع به من اختصاصات أوسعها وأهمها ولاشك المفاوضات باسم البلاد مع العدو لتقرير مصير القطر الطرابلسي بأجمعه . وعلى ذلك فقد كان الغرض من هذه المناورة أن يستدرج الطليان إلى قبول مبدأ الحكم الذاتي رسمياً كأساس للمفاوضات التالية المثمرة ؛ وأدرك المفاوضون العرب ما يريدون عندما ألح المفاوض الإيطالي على الهادي كعبار أن يوضح رأيه الشخصي حتى يتسنى للحكومة الإيطالية أن تعرف ما إذا كان يمكن الاستمرار في المفاوضات أو أنه من الخير إنهاء المفاوضات وقطعها . وعندئذ ذكر الهادي كعبار أن الأهلين إنما يريدون العيش في ظل الجمهورية المستقلة ؛ وأما إذا تعذر ذلك فمن المحتمل أنهم يرضون بالحكم الذاتي في إطار قانوني يحفظ حقوقهم القومية ؛ وإذا كان الغرض تهديته البلاد فقد يتسنى اتخاذ منح الجنسية (الإيطالية) للطرابلسيين أساساً للمفاوضة على شريطة أن يتبع منح الجنسية كل ما يترتب على ذلك قانوناً ، فتصبح طرابلس ولاية كسائر ولايات المملكة الإيطالية لها ما لهذه الولايات من حقوق وعليها ما عليها من التزامات وواجبات من غير تفرقة في المعاملة وعلى قدم المساواة المطلقة مع الولايات الإيطالية . على أن الهادي كعبار وقد عاد الآن مرة أخرى يعالج نفس الموضوع الذي سبب قطع المفاوضات السابقة ، ظل يرى مع ذلك كله أن تقرير الحكم الذاتي لطرابلس إنما هو أمر أكثر اتفاقاً مما عداه من أمور وتلك المبادئ السامية التي أذاعها قادة الأمم المنتصرة على العالم قاطبة . وفضلاً عن ذلك فإن تقرير الحكم الذاتي

يتفق ونصوص وروح معاهدة أوشي (لوزان) السابقة .

تلك كانت المناورة السياسية البارعة التي أدار العزام دقتها ، ولم تكن تلك اللغة التي صاغ بها الهادي كعبار وزملاؤه وزعماء الجمهورية الطرابلسية مطالبهم إلا من صنعه ، ولما لم يجد الطليان مناصا من قبول المفاوضة على أساس هذه القواعد الجديدة ، وبدأ البحث الجدي بين الفريقين لوضع صيغ الاتفاق النهائي ، وجد العزام أن الوقت قد حان حتى يحضر بنفسه اجتماعات المفاوضة . وعلى ذلك فإنه بمجرد أن بدأت مباحثات (شلية الزيتوني) في ٨ أبريل ١٩١٩ كان العزام الروح المسيطرة على المفاوضات برمتها وبذل جهوداً جبارة حتى يصل بالمفاوضات إلى بر السلامة .

وقدم الزعماء الطرابلسيون مطالبهم بعنوان (مواد دستورية يعرضها مجلس الجمهورية الطرابلسية لتأسيس إمارة حرة بطرابلس الغرب تحت إشراف الحكومة الإيطالية على أن تكون الشريعة الغراء قانونها الأساسي) ، وكان عدد المواد المقدمة ستة تنص على ضرورة أن ينصب أمير مسلم على الإمارة المزمعة ينتخب لمدة ثلاثة أعوام ، وأن يؤسس برلمان ثلاثة أرباع أعضائه من المسلمين والربع الباقي من الطليان والإسرائيليين ، وأن تجمل الخدمة العسكرية إجبارية ويؤلف جيش وطني من خمسة آلاف جندي ، وأن تسك عملة عربية ، ويصنع علم وطني للإمارة ، هذا إلى جانب جعل التعليم الابتدائي إجباريا وتأسيس محاكم مختلطة مهمتها أن تفصل فيما يحدث من قضايا بين العرب والطليان . وفي نص لاحق جاء مامعناه أن إمارة طرابلس تعترف للحكومة الإيطالية بأنها تحت إشرافها وتقبل أن يشرف على سياستها وشئون الحكم بها ممثل من قبل الحكومة الإيطالية .

وفضلا عن ذلك فإنها تقبل أن ينشئ الطليان مراكز عسكرية في البلاد ويقوم رجال السلك الدبلوماسي الإيطالي بتمثيل المصالح الطرابلسية في الخارج ، ولأمانع من أن تسك الحكومة عملة إيطالية على شريطة ألا تحمل رسم الصليب ، ثم رضيت بأن يرأس إيطاليون مجلس الخارجية وأن يعين إيطاليون كذلك للإشراف على إدارات المالية والجمارك والمعارف والعمل ، ووعدت بالمحافظة على مصالح الطليان الاقتصادية . وعلاوة على ذلك تمسك الطرابلسيون بأن يلتقي مواطنوهم نفس ما يلقاه المواطنون الطليان أنفسهم من معاملة في أنحاء المملكة الإيطالية على قدم المساواة ومن غير تفرقة ، ثم اختتم هذا النص اللاحق بشرط احتياطي فحواه أن الحكومة أو إمارة طرابلس الحق في أن تأخذ بكل ما يصدره مؤتمر الصلح العام من قرارات قد لا تتضمنها نصوص هذه المواد الأصلية واللاحقة مادامت تجدد في التمشك بهذه القرارات فائدة تعود عليها .

ودارت مناقشات كثيرة بين الفريقين المتفاوضين ، ورفض المندوبون الطليان مبدأى الاستقلال والحكم الذاتى ثم هددوا بقطع المفاوضات عندما أخذ الزعماء الطرابلسيون يتحدثون عن تلك المبادئ التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية الكبرى لتقرير حقوق الإنسان وإطلاق الحرية للشعوب حتى تعيش محررة من كل قيد فيختار الإنسان نوع الحكم الذى يحقق مصلحته ويلائمه . وعندئذ طلب الزعماء تأجيل الاجتماع ، وظهر أثر العزم بعد ذلك عند ما شرع الزعماء الطرابلسيون بوضوح مطالبهم ويقدمون للمفاوض الإيطالى المذكرات التى تشرح وجهة نظرهم ؛ فقد حدث عند استئناف المفاوضات فى يوم ١٠ إبريل أن تمسك الزعماء بتنصيب أمير مسلم يجمع فى شخصه مظاهر السلطة الدينية فى الإمارة المزمعة . ولكن الطليان أصروا على رفضهم وطلب الزعماء أن يرجع المفاوض الإيطالى إلى الحكومة المركزية فى رومة نظرا لخطورة هذه المسألة . ثم انبرى الهادى كعبار بعد المذكرات التى تعرض حجج المفاوضين العرب ، وقدم مذكرة تحت عنوان (مذكرة الحكومة الطرابلسية لبيان الأسس الضرورية التى يجب أن يقوم عليها الاتفاق لتجنب الحرب والوصول إلى حل جميع الصعوبات وذلك حتى يبدأ عهد من السلام والصدقة مع الحكومة الإيطالية) وقد تضمنت هذه المذكرة مطالبة الأمة الطرابلسية بالحكم الذاتى كحق من حقوقها الطبيعية ، ثم استغداد حكومة الجمهورية لأن تقبل صلحا يحفظ لدولة إيطاليا شرفها بين الدول ولكن على شريطة ألا يكون فى هذا الصلح أى مساس باستقلال طرابلس . وأما إذا كانت إيطاليا ما تزال منساقة إلى استعمار طرابلس بسبب ما تراه من احتلال الانجليز للقطر المصرى ، فواجب إيطاليا أن تذكر أن زمان الاستعمار قد ولى وانقضى وأن ما كان يحدث فى السنوات الماضية أصبح حدوثه مستحيلا فى هذه السنوات العشرين من القرن الحالى ولا يمكن بحال أن تسود فى هذا العصر تلك المبادئ القديمة التى تأثر بها رجال السياسة فى القرن التاسع عشر ناهيك بما يحدث فى العالم أجمع من تطور ظاهر نحو المبادئ الحرة والمثل العليا الديمقراطية .

وقد دهشت الحكومة الإيطالية عندما أبلغت هذه المذكرة وعدت عن حق هذه الأقوال واتجاهات جديدة ، ثم عزت هذا التوجيه الجديد إلى العزم وحده ؛ وكان فى نيتها أن ترسل إلى الزعماء العرب إنذارا يحمل اعتراضها على تعيين أمير أو إنشاء إمارة ، وتهدد فيه الزعماء بالحرب إذا تعذر عليهم الوصول إلى اتفاق نهائى معها فى مدة وجيزة . غير أن الحكومة الإيطالية كانت ما تزال مشغولة وقتذاك بمفاوضات الصلح العام فى أوروبا وكان رئيس وزارتها فى باريس ، ولا قبل لها بامتشاق الحسام من جديد ضد المجاهدين العرب فى وقت كانت فيه قواتها فى ليبيا قليلة ، فضلا عن أنها كانت تطمع وقتذاك فى الحصول من

الدول على حق الانتداب على بلاد الأناضول في آسيا الصغرى . وعلى ذلك فقد أرسلت تعليماتها إلى الوالي (غاريوني) بأبها تقبل فكرة منح الجنسية الإيطالية التي وافق عليها غاريوني نفسه وإنما على شريطة أن يستقر السلام ويستتب الهدوء في البلاد وتسودها السكينة في نظير ذلك . وبمجرد أن وافقت رومة على منح الجنسية الإيطالية للطرابلسيين وجه غاريوني الدعوة إلى أعيان طرابلس والواحات الخاضعة للطلبان حتى يحضروا جميعا إلى قصر الحكومة بمدينة طرابلس في يوم ١٤ أبريل . وعند ما اكتمل عقدهم أنبأهم غاريوني بأن حكومته قد منحت الجنسية الإيطالية للطرابلسيين وأقرت مبدأ المساواة التامة المطلقة أمام القانون بين الطرابلسيين والطلبان . ثم أبلغ غاريوني قرار الحكومة بصورة أدق إلى زعماء الطرابلسيين وأعيانهم وكان (بلاغ) الحكومة يحمل تاريخ ٤ مارس ١٩١٩ ويشتمل على أحد عشر مبدأ . (أولا) اعتراف الحكومة الإيطالية بالجنسية الإيطالية للعرب في طرابلس ولكل من ولدوا بها ، كما أن في استطاعة هؤلاء أن يحصلوا على الجنسية في إيطاليا ذاتها بشروط وفق إجراءات رسمية معينة . (ثانيا) تقرير مبدأ المساواة المطلقة أمام القانون بين الطلبان والطرابلسيين على أن يترك للطرابلسيين قوانينهم الخاصة بالأحوال الشخصية ونظام الإرث (ثالثا) ضمان الحرية الشخصية وعدم الاعتداء على المساكن واحترام حقوق الملكية وتقرير حرية التعليم والاجتماع والصحافة والانتقال والإقامة وتقديم العرائض للبرلمان ، الوطني ، وكل ذلك في حدود القانون العام ؛ (رابعا) احترام الشعائر الدينية والتقاليد والعادات (خامسا) الاعتراف بحق المواطنين ، الجدد من عرب وإسرائيليين في أن يتقدموا إلى المسابقات التي تعقدتها الحكومة لملء الوظائف المدنية والعسكرية المحلية على شرط أن يكون لديهم المؤهلات والشهادات اللازمة .

وفضلا عن ذلك اعترفت إيطاليا بحق هؤلاء المواطنين ، الجدد في مزاوله المهنة الحرة كالأطباء والهندسة والمحاماة وما إلى ذلك في إيطاليا ذاتها ماداموا حاصلين على الشهادات والإجازات اللازمة (سادسا) جعل الخدمة العسكرية اختيارية (سابعا) تعميم الضرائب بحيث يدفعها جميع الأشخاص المقيمين بالقطر الطرابلسي ، على أن تخصص حصيلة هذه الضرائب للإنفاق على مرافق البلاد ذاتها وإدارة شئونها ، وعلاوة على ذلك فإن موافقة المؤسسات (أو المجالس) الوطنية المنتخبة ضرورية قبل البت في نوع الضريبة التي يراد جبايتها وفي طرق توزيعها (ثامنا) اشتراك جميع المواطنين في أعمال الإدارة العامة عن طريق مجالس البلديات وبفضل تقرير حق الانتخاب وفق شروط سوف يعلن عنها ، (تاسعا) إصلاح إدارة القضاء طبقا للعادات المحلية السائدة وقواعد الشريعة القراء ، وعلى

أن يشترك في هذه الإدارة العرب والطلّيان على السواء فيشغل الفريقان وظائف قضائية هامة (عاشرا) قيام الحكومة بأعباء التعليم المدني وفتح أبواب هذا النوع من التعليم لجميع الوطنيين ، وإصلاح معاهد العلم الموجودة فعلا حتى يتمكن أهل البلاد من ارتياد المدارس الثانوية وكذلك المدارس العالية عند إنشائها ثم جعل التعليم الابتدائي إجباريا (أحد عشر) تعيين لجنة مؤلفة من أعضاء نصفهم عرب والنصف الآخر من الطّليان والإسرائيليين مهمتها وضع الأنظمة اللازمة لتنفيذ هذه الشؤون طبقا للمبادئ الأساسية المذكورة في هذه البنود ولهذا اللجنة كذلك أن تقترح تغيير القوانين المعمول بها ، وقد تعهدت الحكومة بتشكيل هذه اللجنة فوراً .

وهكذا تكون الحكومة الإيطالية قد قبلت مطالب الزعماء العرب الأساسية ، وتكون قد تكلمت ، مناورة ، العزم السياسية بنجاح . وعند اجتماع الزعماء في فندق بن غشير في ١٢ إبريل ١٩١٩ قبل هؤلا مبدئيا مقترحات الحكومة وأخذوا يناقشون تفصيلات الحكم والإدارة كتعيين المتصرفين والقائمقامين . وكان من رأيهم أن يعهد بأمر تعيين هؤلا الإداريين إلى لجنة مؤلفة من ثمانية من العرب يعينهم (المجلس العام) برئاسة الوالي ؛ وكان أكثر الزعماء ظهوراً في هذه المرحلة الأخيرة من مراحل المفاوضات خصوصاً رمضان السويحلي ، وقد استطاع رمضان أن ينال احترام الطّليان الذين سرعان ما تناسوا خديعته لهم في معركة قصر بوهادى القديمة ، وحدث ذلك كله بفضل مؤازرة العزم ونصحه له ثم إرشاده إلى الطريق الذي كان من واجبه أن يسلكه . وفي صبيحة يوم ٢١ إبريل ١٩١٩ انعقد آخر اجتماع للمفاوضين العرب والطلّيان في شلية الزيتوني ، لحضر جميع الزعماء عدا عبد النبي بلخير الذي اعتذر لمرضه ولو أنه أرسل موافقته مقدما على كل ما يقرره زملاؤه . وفي هذا الاجتماع أبدى سليمان الباروني سروره من نتيجة المفاوضات ولكنه طالب في الوقت نفسه بإيضاحات معينة لاغنى عنها لإقناع أهل الجبلية بمزايا هذا الصلح ، وألح بقية الزعماء في ضرورة الاطلاع على القانون الأساسي مترجما إلى العربية ، وفضلاً عن ذلك فإن العرب ما لبثوا حتى قدموا مطالب أخرى بينما رفضوا المناقشة في المطالب التي قدمها الطّليان كاحتلال المناطق وإطلاق سراح الأسرى قبل أن يصدق الملك على القانون الأساسي . وفيما عدا ذلك وافق العرب على قواعد الصلح الذي صار يعرف من ذلك الحين باسم صلح بنيادم . وفي اليوم التالي جاء وفد منهم كان من أعضائه خليفة بن عسكر إلى مدينة طرابلس إظهاراً لرضاء الزعماء عن هذا الصلح وقبولهم له ، وبعد أربعة أيام سلم العرب بعض الأسرى إظهاراً لثقتهم في الحكومة المحلية ، ثم طلبوا تعويض العرب عن الخسائر التي تكبدوها أيام

القتال ، وجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية إلى جانب اللغة الإيطالية وسحب العملة التركية ومنعها من التداول وإرجاع المهاجرين الذين لجئوا إلى تونس وبعض مطالب أخرى . فدارت مفاوضات جديدة حول هذه المطالب وأبدى العزام مرة أخرى مهارة عظيمة في أثنائها فاستطاع العرب أن يفوزوا بأكثر مطالبهم ، وحصر العزام جهوده الآن في كسب ثقة الطليان من ناحية العرب واطمئنانهم إلى أن هؤلاء سوف يبادرون بتنفيذ جميع وعودهم من اللحظة التي يصدر فيها القانون الأساسي . وكان غرض العزام أن يعجل الطليان بإصدار هذا القانون حتى يطمئن العرب إلى نتيجة جهودهم ، وطفق العزام يؤكد أن الطرابلسيين باتوا الآن ضد الثورة — لأن الثورة — على حد قوله — إذا حدثت في هذه الظروف فإنها تكون بمثابة الثورة ضد الحرية بل وضد أنفسنا . وفي يوم ٣٠ مايو ١٩١٩ دخل الزعماء المجاهدون مدينة طرابلس وسط مظاهر الفرح والابتهاج ، وكان في طليعتهم العزام إلى جانب سائر كبار الزعماء كأحمد المريض وسليمان الباروني وعلى الشنطة وغيرهم . وفي آخر مايو صدق الملك فكتور عثمانويل الثالث على القانون الأساسي وأذيع النبا في منشور صدر في أول يونية ، وخطب الوالي غاريوني في اليوم نفسه فقال إن هذا اليوم المجيد (أول يونية) الذي أعلن فيه القانون الأساسي في طرابلس هو ذاته يوم الاحتفال بيده حركة (الإحياء والبعث) الوطنية وعيد الدستور في إيطاليا .

ولاجدال في أن غاريوني كان خالص النية فيما قاله ويعتزم المضي في تنفيذ القانون الأساسي بكل أمانة ، وكان لا يقل عنه في ذلك الجنرال تارديتي المفاوض الإيطالي الآخر ورئيس المكتب السياسي لحكومة طرابلس . واستمتع الرجلان ، غاريوني وتارديتي ، بسمعة طيبة عند العرب ، وأبدى هؤلاء من جانبهم كل استعداد للتعاون مع الحكومة المحلية ما دامت معترمة بتنفيذ القانون الأساسي ولا تتلصق في اتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك . وعلى ذلك فإن نجاح نوع الحكم الجديد كان يتوقف في واقع الأمر على مدى إخلاص الحكومة المركزية في رومة ذاتها ورغبتها في منح الطرابلسيين تلك الحقوق وإعطائهم الضمانات التي نص عليها القانون الأساسي ، ولكن موقف الحكومة الإيطالية المركزية في رومة سرعان ما أصبح الصخرة التي تحطم عليها كل أمل في استمرار الهدوء والسلام في طرابلس . وكان لذلك عدة أسباب ترتد في أصولها إلى ذلك السبيل الذي أرغمت الحكومة الإيطالية إرغاما على أن تسلكه في القطر الليبي بأجمعه من وقت ابتداء الحرب العالمية الأولى إلى نهايتها . فقد غلت مشغولية الحرب الأوربية يد إيطاليا واضطرتها في برقة إلى الدخول في مفاوضات الزويتينة وعقد اتفاق عكرمة المؤقت ، وقد تقدم في الفصل السابق كيف أن الطليان كانوا

يظنون غير ما يظهرون عندما أبرموا اتفاق عكرمة ثم معاهدة الرجة بعد ذلك ، وكيف أن زعامة السيد إدريس وقيادة السنوسية العتيدة كانت في ذلك القطر الشقيق خير أداة لمناوأة أهداف الطليان وهدم آمالهم ؛ وكان كل ما جناه الطليان من اتفاقاتهم مع السنوسية أن حصلوا على تلك الفسحة من الوقت التي كانت السنوسية بحاجة ملحة إليها كذلك للأسباب التي سبق ذكرها في موضعها والتي مكنت الطليان من أن يوجهوا كل عنايتهم إلى طرابلس . يد أن الطليان لم يستطيعوا مع ذلك كله أن يغيروا من الأوضاع القائمة في طرابلس شيئاً لصالحهم بسبب ما أنشأه المجاهدون العرب من منظمات ومؤسسات وطنية . وكان من الواضح أن الطليان لن يستطيعوا بسط سلطانهم على طرابلس إلا إذا جلبوا الإمدادات العسكرية العظيمة من إيطاليا ، ولم يكن جلب هذه التجهيزات أمراً هيناً ميسوراً بسبب حاجة إيطاليا إلى الجنود والعتاد والمال للذود عن حياضها في أوروبا .

وعلى ذلك فقد التزم الوالي الإيطالي أميليو خطة عدم التوسع في احتلال مناطق جديدة في طرابلس وقصر جهوده على اتخاذ تدابير دفاعية لحسب لرد هجوم المجاهدين العرب عن المراكز الإيطالية وعقد آمالا كباراً على إمكان التغلب على مقاومة الطرابلسيين إذا هم تفرقوا شيئا وأحزاباً وضعفت كلمتهم . وفضلاً عن ذلك فإنه كان يعلل النفس بإمكان الاستفادة من ازدياد نفوذ السنوسية في منطقة سرت والجفرة والفران في وقف نفوذ العثمانيين وأنصارهم في طرابلس . ولكنه سرعان ما اتضح له خطر الاعتماد على السنوسية في ذلك عند ما ذهب بنفسه إلى بنغازي في إبريل ١٩١٨ حتى يقف هناك على حقيقة أهداف السنوسيين ومبلغ قوتهم . ذلك بأن السنوسية بزعمارة أميرها لم تكن لترضى البتة بأن تصبح مخلب القط الذي ينتزع الكستناء هدية سهلة للطليان المستعمرين ، وهي تلك الإمارة الإسلامية التي كانت تهدف إلى إنشاء دولة موطنية الدعائم في القطر الليبي تجمع كافة المسلمين وترد عنهم غائلة الاستعمار الأجنبي ؛ فتبين لأميليو مدى ما هنالك من خطر محقق إذا هو أقدم على فتح الحدود الطرابلسية أمام قوات السنوسية وأنصارها ففضل الالتجاء إلى وسيلة أخرى قد تكفل تأييد نفوذ السنوسية في المناطق التي كانت تخضع فعلاً لنفوذها في سرت والجفرة والفران دون إتاحة الفرصة لحدوث أي توسع جديد في المناطق الطرابلسية لحسابها . وعلى ذلك فقد عول أميليو على إمداد عبد الجليل سيف النصر بالأسلحة والذخائر حتى يقوى على الصمود أمام العثمانيين وأحلافهم . وكان سيف النصر قد اضطر لقله ما لديه من أسلحة وعتاد إلى الانسحاب إلى هون في الفران مع ثلاثمائة وخمسين جندياً سنوسياً (في أغسطس ١٩١٨) . وحدث في هذه الأثناء أن استدعى أميليو من طرابلس ثقله الجنرال غاربوني . ورأى

الوالي الجديد أن يستمر على سياسة سلفه فأمد سيف النصر بالأسلحة ، ولكنه ما لبث حتى كف عن إمداده بالعتاد عندما إتضح له أن عبدالجليل كان سنوسيا لحماً ودماً وأنه ما قبل هذه الإمدادات إلا لغرض الاستعداد لمناجزة مصراته والعثمانيين أعداء السنوسية بمجرد أن يأمره السيد محمد إدريس بذلك فجاء في كتابه إلى السلطات الإيطالية قوله المشهور : إننا اليوم بفضل الله متحدون تحت لواء السنوسية وسوف نعمل كل ما يأمرنا به السيد إدريس لأن عدوه عدونا وصديقه صديقنا ، فوجد غاريوني من الحكمة وصواب الرأي - على زعمه - أن يترك خطة الاعتماد على قوة السنوسية كعامل لاغنى عنه في معالجة ما يحدث من مشاكل مستعصية في طرابلس .

وزاد من حرج موقف الطليان في طرابلس ذلك النشاط الذي أبداه الأمير عثمان فواد ومستشار القيادة العامة عبدالرحمن عزام ، واتخذ الباب العالي من هذا النشاط ذريعة لدعم حقوقه في السيادة على القطر الطرابلسي تمهيداً لعرض المسألة برمتها على مؤتمر الصلح عند انتهاء الحرب الأوربية . ثم عظمت متاعب الطليان السياسية عندما أحرز المجاهدون العرب انتصاراً باهراً على الطليان في إبريل ١٩١٨ وحوصر الطليان في مراكزهم على الساحل . وأثارت أنباء انتصارات العرب اهتمام الدول وخشى وزير المستعمرات مارتيني ثم كولوزيمو من بعده أن تتخذ المسألة الطرابلسية وجهاً دولياً خطيراً مادام الطليان عاجزين عن احتلال داخل البلاد وبخاصة عندما كان أمل الطليان ضعيفاً في اجتياز الحرب الأوربية ذاتها بسلام في ذلك الحين (مايو ١٩١٨) . ومع ذلك فإن الوالي أميليو ما كان يستطيع فعل شيء في الحقيقة لحاجته الشديدة للجند والمعدات والأسلحة . وعندما أصر أميليو على عدم القيام بعمليات عسكرية واسعة قبل أن تصله هذه الإمدادات استدعاه وزير المستعمرات إلى إيطاليا فغادر البلاد في ٩ أغسطس ١٩١٨ وخلفه غاريوني .

وبدأ غاريوني أعماله بأن أصدر منشوراً إلى أهل برقة وطرابلس يدعوهم فيه إلى الوثوق بنيات الحكومة وامتنال أوامرهما . غير أنه سرعان ما صار ينقم على الأمير عثمان فواد بنشاطه فضربت الطائرات من الجو الزعماء المجتمعين في زنزور في شهر سبتمبر ، ثم حدث في الشهر التالي أن طلبت تركيا الهدنة فأوقف القتال بينها وبين الحلفاء ظهر يوم ٣١ أكتوبر واضطر غاريوني إلى بحث الموقف من جديد في برقة وطرابلس على السواء ، فكان من أثر السياسة التي رسم خطوطها في برقة بدء المفاوضات التي انتهت بعد عامين وبعد ذهاب غاريوني نفسه بعقد اتفاق الرجمة . وأما في طرابلس فقد كان من رأي غاريوني أن المساعي السياسية وحدها لا تكفي ، وأنه لا مندوحة عن تعزيزها بعمليات عسكرية ناجحة . ولكن الحكومة

المركزية في رومة اعتقدت وقتذاك أن هزيمة دول الوسط في الحزب الأوربية العامة لابد أن يكون لها وقع سيء في نفوس المجاهدين العرب وتحد من نشاطهم ، ثم عقدت آمالا عظيمة على مهارة الجنرال تارديتي الذي أرسلته حديثا رئيسا لمكتبها السياسي بطرابلس في إمكان استمالة المجاهدين العرب إلى إنهاء خلافاتهم مع إيطاليا ، واتفقت كلية الرجلين غاريوني وتارديتي على أنه من الخير لإيطاليا أن تجيب مطالب الزعماء والقادة في كل من برقة وطرابلس بصورة لا تلحق الأذى بتلك السيادة التي تمسكت بها إيطاليا على القطر الليبي بأجمعه .

وكان غاريوني يفضل إدماج برقة وطرابلس التي كانت لا تزال بأيدي العرب وعلى الخصوص مصراتة وبوشيفه ثم احتلال سرت كذلك . غير أنه كان من المتعذر تحقيق هذا البرنامج دون أن يكون لديه قوات كافية . أضف إلى ذلك أن نشاط المجاهدين عقب وصول عبد القادر الغنای مباشرة وتسليط نيران مدافعهم على قلعة سيدي بلال في طرابلس سرعان ما أضعف غاريوني بضرورة السعي من أجل الاتفاق مع العرب . وأيد رئيس المكتب السياسي - الجنرال تارديتي - الوالي غاريوني في هذا المسعى فبدأت من ثم تلك المفاوضات التي انتهت بصلح شلية الزيتوني أو سواني بنيادم في إبريل ١٩١٩ وإصدار القانون الأساسي رسميا في أول يونية من العام نفسه . وكانت حجة غاريوني وتارديتي في إنجاز الاتفاق مع المجاهدين العرب في طرابلس أن حكومة رومة رفضت أن تستمع لما أبداه غاريوني سابقا من آراء كانت ترمى إلى إنشاء دولة سنوسية تضم القطرين معا برقة وطرابلس تحت إشراف إيطاليا ، لأن المسألة الطرابلسية على حد قوله إنما هي في أكثر تفاصيلها مسألة سنوسية ولا يمكن البت في شأنها من غير الاتفاق مبدئيا مع السنوسية ذات النفوذ القوي في مناطق سرت والجفرة والقران والقبلة ثم في قلوب أهل طرابلس كذلك .

غير أن صلح بنيادم لم يلق ما كان يستحقه من رعاية تامة وتأيد كامل من جانب إيطاليا ؛ فقد رحب الطليان المحليون في مبدأ الأمر بالمفاوضات التي كان هذا الصلح أحد ثمارها ، ووجدت الحكومة المحلية في صلح بنيادم وسيلة تساعد على استقرار الهدوء فيما كانوا يسمونه دائما « المستعمرة » . واعتببت رومة لأول وهلة بهذه النتيجة لأنه أصبح في ثمرتها أن تسرح جيوشها وأن توفر تلك الأموال الطائلة التي كانت تنفقها عليها . فضلا عن ذلك فإن حسم الخلاف في طرابلس بالطرق السلمية من شأنه إرضاء العناصر الديمقراطية المتطرفة التي كانت تسيطر وقتذاك على الحكومة في رومة . ولكن سرعان ما بدأ يتغير الرأي العام الإيطالي في طرابلس وفي إيطاليا لأسباب عدة منها أن الطليان كما شاهدنا لم يقبلوا الدخول في تلك المفاوضات التي أنت هذا الصلح إلا مرغمين وكان يسوءهم أن « يتظاهر » العرب - على

حد قولهم - في داخل البلاد بأنهم استطاعوا إرغام الحكومة الإيطالية على التسليم السياسي وعلاوة على ذلك فإن هذا الصلح قد ترك للعرب سلاحهم ، واعترف بسلطان الزعماء الذين ظلوا نائرين على حكومة المستعمرة ردحا طويلا من الزمن ولم يقبلوا صلح بنيادم إلا لسبب واحد هو أنهم استطاعوا الاحتفاظ بأسلحتهم ومراكزهم وظلوا مستمتعين بجميع سلطاتهم السابقة ، بل وأصبحت تتألف منهم أكثرية مجلس الحكومة . أضف إلى هذا كله أن تلك المساعي التي كان يبذلها رمضان شتيوى زعيم مصراته القوي حتى يستأثر بالزعامة العامة المطلقة على سائر الزعماء الطرابلسيين كادت الآن أن تتحقق بفضل أساليب العزيم السياسية ودهائه حتى أن خطر السويحلي ما لبث حتى ظهر واضحا عندما أخذ الزعماء العرب يتشاورون في اجتماع عقده بترهونة في أمر اختيار أولئك الأعضاء الثمانية الذين كان يجب أن يتألف منهم مجلس الحكومة إلى جانب العضوين الإيطاليين عملا بنص المادة (أو الفصل) الثالثة والعشرين من القانون الأساسي ، فقد أصر السويحلي على أن يعين اثنان في هذا المجلس عن مصراته وحدها ، كما أصر على عدم تعيين أحد عن الخمس وزليطن ومسلاطة وورفلة ، لأنه اعتبرها جميعا مناطق تابعة له . وعلى ذلك فقد بدأت زومة تشمل من عقد هذا الصلح ولما يحف مداده بعد .

ومع ذلك فقد ظل غاريوني وتارديتي يتمسكان بضرورة التفاهم مع العرب بل إن غاريوني ما كان يخشى شيئا من ازدياد سطوة السويحلي ، فقد اعتبر نمو قوته من مصلحة الطليان إذ يستطيع هؤلاء بفضلها أن يضعفوا سلطان السنوسية في طرابلس ، كما أنه حتى رغبة منه في إضعاف نفوذ السنوسية سرعان ما أرسل حملة احتلت سرت في أواخر شهر يونية ١٩١٩ ولم يحفل بما أحدثه ذلك من وقع سيء في نفوس السنوسيين في إجداية والتوفيلية . ولكن هذا النشاط « العسكري » الأخير سرعان ما أثار نائرة الرأي العام في إيطاليا ، فأخذت صحفها تطلب « تغيير الحكومة العسكرية » في طرابلس ، وانتهى الأمر باستدعاء غاريوني إلى رومة فغادر البلاد في أغسطس ، وفي آخر هبته بر نقل تارديتي كذلك من طرابلس . فاستاء العرب من نقلهما وضعفت ثقتهم في نيات الحكومة ، ثم كان من أهم أسباب ضياع هذه الثقة في النهاية أن الطليان لم ينفذوا شيئا من الوعود التي تضمنها القانون الأساسي ولم يفعلوا شيئا لإجراء الانتخابات النيابية أو إنشاء الحكومة التي تم الاتفاق على تأسيسها ، وكان من المنتظر لهذه الأسباب أن يجدد العرب « حملتهم » السياسية .

وكان العرب قد بدأوا يستأنفون نشاطهم السياسي رويدا رويدا منذ أن غادر غاريوني البلاد وجاء الوالي الجديد (منتزيجر) فأكثر أعضاء (مجلس الحكومة) العرب الثمانية من

الاجتماع ببعضهم بعضا . وكان هؤلاء قد نص القانون الاساسى على أن يقوم (مجلس النواب المحلى) بانتخابهم عند اجتماعه بعد إجراء الانتخابات ، ثم لم تحدث الانتخابات ولم يعقد المجلس فشكل الزعماء الطرابلسيون (مجلس الحكومة) وأظهروا في مبدأ الأمر استعدادهم للتعاون مع الحكومة المحلية . وكان العزم كما عهدناه دائما الروح المسيطرة على مداورات هؤلاء الزعماء الثمانية ، وأنشأ الزعماء المؤيدون لسيطرة رمضان السويحلى وسياسة العزم منظمة جديدة سموها (حزب الإصلاح الوطنى) فكان من أعضاء هذا الحزب كل من عبد الرحمن عزام وخالد بك القرقي وعثمان الغريانى مدير جريدة (اللواء الطرابلسى) وكان هؤلاء الثلاثة هم قادة الفكر بينما أضحى رمضان شتيوى (أو السويحلى) - وكان من أعضاء الحزب أيضاً - الأداة المنفذة أو اليد العاملة ، وأعطيت الرئاسة لصاحب ترهونة أحمد المريض بك . وفى ٣٠ سبتمبر ١٩١٩ نشر حزب الإصلاح الوطنى برنامجه ، فذكر الحزب أن كلا من رمضان السويحلى (رئيس شرف) وأحمد المريض (رئيس عامل) قد كلنا العزم أن يطلب إلى أبناء الوطن أن يتقدموا بكل ما لديهم من نصيح وإرشاد وضروب النقد المختلفة إذا شاءوا حتى يتضافروا مع مواطنيهم أعضاء الحزب على العمل من أجل إسعاد الوطن ورفقه ونشر أسباب الرخاء فى ربوعه ، ثم تضمن (منشور) الحزب بعد هذه المقدمة المبادئ التى تعاهد أعضاؤه على تأييدها ، وأولها المحافظة التامة على حقوق العرب كاملة غير منقصة وكما نص عليها القانون الاساسى ؛ وثانيا تقديم كل مساعدة ممكنة حتى يتيسر تنفيذ هذا القانون بكل سرعة وذلك حتى يؤتى القانون ثمرته المنشودة فى أقرب مدة فتتاح الفرصة للطرابلسيين حتى يتدربوا على الاضطلاع بأعباء الحكومة الذاتية فيحكمون أنفسهم بأنفسهم مستمتعين بأعظم قسط من الحرية ؛ وثالثا متابعة السعى الجدى من أجل التفاهم المتج بين العرب والطلبان على أساس المساواة التامة بين الفريقين من جهة وتضامن المصالح من جهة أخرى ثم نبذ كل أسباب النفور والخلاف بين الطليان والعرب وبنز بنزور المودة والإخلاص بينهم ؛ ورابعا العمل على نشر التعليم بكل وسيلة حتى تستمتع البلاد بثمار الثقافة والمدنية الغربية مع المحافظة على التقاليد الإسلامية ؛ وخامسا إنعاش الحياة الاقتصادية ومحو أسباب الفقر ومساعدة المعوزين وتوفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب على أساس توزيع الثروة توزيعا عادلا بين أفرادها والمحافظة على حقوق الضعفاء فى ظل أخوة شاملة .

ولقى هذا البرنامج الوطنى والاشتراكى كل تأييد من جانب العرب ، ورحب به كذلك الطليان المحليون واعتقدوا أن تنفيذ الإصلاحات الداخلية الواسعة التى تضمنها هذا البرنامج سوف يصرف العرب ولو قليلا عن متابعة نشاطهم السياسى . ولكن تقاؤل الطليان كان

لا مسوغ له ، إذ ظهرت جريدة اللواء الطرابلسي ذات يوم وبها مقال ينمى فيه صاحبه على الإيطاليين أنهم لا يقدرّون على التخلص من تلك الأوهام الراسخة في أذهانهم والتي تجعلهم لا يعتقدون بوجود مساواة ما بين العرب والطلّيان ، وهي أوهام من شأنها أن تزيد الطرابلسيين تمسكا بمطالبهم المشروعة وتزيد من قوة المعارضة لكل ما كانوا يعتبرونه اغتصابا وسلبا من جانب إيطاليا ، ثم تساءلت الجريدة إلى متى لا تسعى الإدارة المحلية في إصلاح شئونها وفقا للبادئ التي قررها القانون الأساسي . فأثار مقال الجريدة مناقشة حادة بين حزب الإصلاح وبين الحكومة المحلية والطلّيان عموما بطرابلس ، ووصف الطّليان المحليون إدارة منتزحجر بالضعف والتردد ؛ ثم عادت الجريدة فكررت تحذيرها للسلطات الحكومية من مغبة تأجيل تنفيذ القانون الأساسي وعدم إنهاء الإدارة العسكرية وإنشاء الحكومة الوطنية التي ينتظرها الشعب بفارغ الصبر وإجراء الانتخابات حتى يجتمع البرلمان الذي يضم ممثلي الشعب بكل سرعة .

ولكنه بدلا من أن تجيب الحكومة المحلية هذه المطالب وتعمل على تهدئة البلاد شرع الوالي وأعوانه بيدرون بدور الشقاق بين الزعماء ويدبرون حملة عدائية ضد رمضان السويحلي ويحركون كوامن الحقد ضده في ترهونة وورفلة ؛ وبذل العزم جهودا صادقة حتى يتدارك الموقف وانحاز إلى تأييده خالد القرقي واستطاع المناوئون للسويحلي بتحريض الطّليان أن يؤلفوا جبهة اتحدت كلمتها على مقاومة السويحلي والقضاء على نفوذه كان من أعضائها أحمد المريض وكعبار والحاج محمد الفكني وعبد النبي بلخير وسويح شتيوي وغيرهم ، وقصد العزم والقرقي إلى ترهونة لإقناع المريض بنبد الخلاف وإجابة دعوة كان رمضان قد وجهها للزعماء حتى يجتمعوا في مؤتمر لتدارك الموقف . ولكن المريض أصر على عدائه واضطر رمضان إلى مغادرة زنزور إلى مصراته إمعانا في الحيلة والحذر وحتى يراقب عمال الحكومة المحلية الذين كانوا يكيدون له ويحرضون أنصارهم على القبض عليه وتسليم جميع الأسلحة والمهمات الحربية التي كانت بغريان إلى السلطات المحلية . وكان في وسط هذه المصاعب الكثيرة أن اتجه تفكير زعماء حزب الإصلاح الوطني الذين ظلوا على ولائهم للقضية الطرابلسية نحو غاية عليا معينة هي وضع القطر الليبي بأجمعه (برقة وطرابلس) تحت إمارة السيد محمد إدريس السنوسي فقام السويحلي بمحاولات عدة من أجل الاتفاق مع السنوسية ؛ ثم دعا زعماء حزب الإصلاح - العزم والقرقي على وجه الخصوص - إلى عقد مؤتمر بسيدى معمور في منطقة ترهونة للعمل على تهدئة الوطن . ولما كان الطّليان يخشون أن أقل ما يؤدي إليه هذا الاجتماع سوف يكون إحياء الجمهورية الطرابلسية السابقة ، فقد بذل منتزحجر كل جهوده حتى يعطل انعقاد المؤتمر

ونجحت دسائسه . غير أن الزعماء الذين وجدوا الطليان - على حد قول بشير السعداوى -
« يثون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائفة
من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لإيقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن
وبنيه والأخ وأخيه وكادوا يصلون إلى رغائبهم ويوقعون البعض في تلك الحبال التي نسجتها
أيديهم لولا أن عقلاء البلاد أدركوا الدسائس ، ما لبثوا حتى قرروا عقد مؤتمر كبير يبحث
في أجدى الوسائل لجمع الكلمة ووضع حد لمراوغات الطليان وإنشاء الحكومة الوطنية
واختار الزعماء قصر غريان مكانا لاجتماعهم ، وأرسلوا الدعوة إلى سائر الرؤساء والشيوخ
لحضور المؤتمر .

وحدثت صعوبات كادت تؤخر انعقاد المؤتمر بسبب ما وقع من خلاف جديد بين مصراته
وترهونة على امتلاك مسلاته ؛ وكان الذى دعا إلى تجديد النزاع أن رمضان السويحلى كان قد
اشتبك في معركة دامية مع عبد النبي بلخير صاحب ورفلة ذهب رمضان ضحيتها في شهر
ذى الحجة من عام ١٢٣٨ (سبتمبر ١٩٢٠) ، فانتز أحمد المريض فرصة وفاة السويحلى
وأخذ يرسل بعض الرؤساء التابعين لمصراته في مسلاته الساحل وجفارة . وحدث في هذه
الأيام أن عاد من الشام إلى طرابلس المجاهد القديم بشير سعداوى مع أخيه نوري وسأه
أن يعود الزعماء إلى خلافتهم السابقة وأن ينصرفوا إلى التنازع بينهم على امتلاك الأراضي
وتحديد مناطق النفوذ بدلا من جمع الكلمة وتأليف القلوب لصون مصالح الوطن . وطلب
أهل مصراته - وكان أحمد السويحلى أخو رمضان السويحلى قد تولى الزعامة بها بدلا من أخيه
إلى بشير سعداوى الوساطة في إنهاء الخلاف القائم ، فتحدث بشير سعداوى في هذا الشأن
مع أهل مسلاته ثم قابل أحمد السويحلى وغيره من رجال مصراته في زليطن ، ثم قصد مصراته
فأقام بها فترة من الزمن يبذل الجهود لإنهاء الخلافات . ولكنه سرعان ما حدثت مشكلة جديدة
عندما بدأ عبد الجليل سيف النصر يشن الهجوم على سرت ويعد جيوشه لمهاجمة القصر ، وكان
سبب هذا الهجوم أن على المنقوش قائمقام سرت كان قد عمد إلى جمع الضرائب وأموال الزكاة
من أهل سرت ، وعارض عبد الجليل سيف النصر في ذلك بدعوى أن هذه الجهات إنما هي
ملك لأجداده من قديم الزمن ويجد لذلك غضاضة كبيرة في دفع العشور والضرائب كأي
فرد عادى إلى على المنقوش . وبعد جهود عظيمة استطاع السعداوى تسوية هذه المسألة
وإرضاء سيف النصر ، وامتنع بفضل جهوده الموفقة اشتباك الزعماء في عراقك ما كان يعلم غير
المولى عز وجل نتائجه . ثم نهى السعداوى للذهاب إلى العزيزية وهي المكان الذى اختاره
الزعماء لعقد اجتماعهم حتى يختاروا هيئة منهم تسعى في سبيل التمهيد لانعقاد المؤتمر المنتظر

في غريان ، ولكنه ما كاد يصل إلى الساحل حتى علم بمحدث منازعات جديدة بين عبد القادر بليتصر ومدير شجران إبراهيم بن عباد ثم بين مصراته من جانب ومسلاته وترهونه من جانب آخر وقضى وقتاً طويلاً يبذل قصارى جهده لمنع إراقة الدماء ، وفي هذه الأثناء انعقد مؤتمر غريان .

وانعقد المؤتمر في شهر ربيع الأول ١٣٤٠ (نوفمبر سنة ١٩٢١) في قصر غريان وحضره الزعماء . ومع أن وفداً كان قد قام خصيصاً إلى مقر سليمان الباروني يدعو إلى الاشتراك في هذا المؤتمر لتبادل الرأي ، فيما يتخذ البلاد من الفن والفوضى ، فقد امتنع الباروني عن تلبية الدعوة محتجاً بأنه بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ العثماني لا يمكنه حضور المؤتمر ، وكان الباروني في الواقع يفضل الاحتفاظ بتفوزه ، الإقطاعي ، في منطقتة في الجبل وكسكة مستنداً إلى تأييد قبيلته الأصابعة وهم من الأباضية وتأييد خليفة بن عسكر في القسم الغربي من الجبل ، وهو أباضي كذلك . وكان لموقف العداء الذي وقفه الباروني من الزعماء المجتمعين في غريان ومعارضته لقرارات المؤتمر أثر كبير في إضعاف المجاهدين العرب وإراقة دماء الوطنيين مدة بعد ذلك . أما المجتمعون في غريان ، وكان العزم كالعهد به دائماً الروح المسيطرة على أعمال المؤتمر فقد وصلوا إلى قرارات كانت الأساس الذي انبنى عليه في آخر الأمر التجاء الطرابلسيين إلى الزعامة السنوسية بغية توحيد الصفوف في الجهاد ضد الطليان والمحافظة على مصالح الوطن الليبي بأجمعه . فقد اتخذ المؤتمر قراراً بالعودة إلى خطة الجهاد حتى يعوضوا ما فات من أغراض لم يستطيعوا تحقيقها بالطرق الدبلوماسية التي لم تفلح البتة في إقناع الحكومة الإيطالية بضرورة تنفيذ الوعود التي قطعها على نفسها منذ إصدار القانون الأساسي لقطر طرابلس . وكان من رأى الزعماء المجتمعين في غريان أن يبذلوا جهداً أخيراً لحل الطليان على احترام وعودهم والإقلاع عن سياسة التحرش بالوطنيين وإثارة الخلافات والقتال الداخلي . وفضلاً عن ذلك فقد قرروا إنشاء حكومة وطنية تسكفل بتنظيم الجهاد وتضطلع بمهمة تنفيذ قرارات المؤتمر ، فشكّلوا وفداً للسفر إلى رومة حتى يتفاوض مع الحكومة الإيطالية بشأن القرارات التي وصل إليها المؤتمر . وكان أهم هذه القرارات على نحو ما كتبه الزعماء المجتمعون ، أن الحالة التي آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامي من الأصول بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل حكمه جميع البلاد بمحدودها المعروفة . . وكان من الواضح أن الزعماء في مؤتمر غريان ما كانوا يقصدون بهذا القرار غير التمهيد لاختيار السيد محمد إدريس

السنوسى الامير الذى أثبتت الحوادث أنه وحده ذلك ، الرجل المسلم المنتخب ، الذى يمكنه إنقاذ القطر الطرابلسى من الفوضى المنتشرة به وتوحيد كلمة المجاهدين العرب فى النضال ضد إيطاليا إذا عجزت الطرق الدبلوماسية عن حسم كل خلاف مع هذه الدولة بصورة ترضى مصالح الوطن . وعلى ذلك فقد كانت خطوة المؤتمر التالية أن يشكل وفدان أحدهما يذهب إلى رومة والآخر يعهد إليه بالمفاوضة مع السنوسية . ثم شرعوا بإنشئون حكومة وطنية لإدارة شئون البلاد الداخلية . وقد تم تأسيس هذه الحكومة باسم (هيئة الإصلاح المركزية) وتولى رئاستها أحمد بك المريض ، وكان أعضاؤها بشير سعداوى ومحمد بن عمر وحسين بن جابر ومحمد فرحات وعبدالرحمن صادق بن الحاج ومحمد مختار كعبار ومحمد فكيني والصويعى الخيتونى ، وكان مستشار هذه الحكومة ، نفس مستشار الجمهورية القديم ومستشار الطرابلسيين الدائم عبد الرحمن عزام . وأما الوفد الذى ذهب إلى رومة فكان يتألف من خالد بك القرقي وعبد السلام بك البوصيرى ومحمد فرجات (الزاوى) وصادق بن الحاج . وقد طالب هذا الوفد الطليان بتنفيذ القاتون الأساسى ، وتحدث فى مسألة انتخاب الامير المسلم ، ولكن الحكومة الإيطالية رفضت إجابة أى شىء من مطالب الطرابلسيين وأصررت على ضرورة إطلاق سراح بقية الأسرى قبل أن تبدأ أية مفاوضات معهم ، وغادر الوفد رومة . وكان فى أثناء وجود هذا الوفد برومة أن حضر السيد إدريس نفسه لزيارة العاصمة الإيطالية فى نوفمبر ١٩٢٠ عقب اتفاق الرجحة مباشرة واستقبلته الحكومة استقبالا رسميا ، واستمرت الزيارة أربعين يوما بتامها لقي السيد فى أثناءها كل حفاوة وتكريم من ملك إيطاليا ومن الحكومة الإيطالية وزار المدن الهامة ، وكانت عودته إلى بنغازى فى أول فبراير ١٩٢١ . وأما الوفد الطرابلسى فإنه بمجرد عودته إلى بلاده بادر بإطلاع الزعماء الطرابلسيين على نتيجة مسعاه فى العاصمة الإيطالية . فكان هذا الفشل من أهم الأسباب التى زادت فى إحكام تلك الروابط الجديدة التى كان الزعماء يحدون لإنشائها مع السنوسية .

وكان الوفد الذى اتدبته هيئة الإصلاح المركزية للمفاوضة مع السنوسية يتألف من عبد الرحمن عزام وأحمد السويحلى وعمر بودبوس ونورى السعداوى والشتيوى بن سالم والصويعى الخيتونى والحاج صالح بن سلطان . وقد مهد لإرسال هذا الوفد أن أمير السنوسية نفسه كانت تحركه من مدة بعيدة الرغبة الصادقة فى جمع كلمة الليبيين وتأليف النفوس النافرة حتى يصبح فى مقدور البلاد مواجهة العدو فى جبهة متحدة يمتد نفوذها من حدود برقة الشرقية إلى حدود طرابلس الغربية ؛ فانهز السيد إدريس فرصة ورود كتاب إليه من أحمد المريض ملىء بعبارات المجاملة السامية ؛ وبادر بإرسال الرد على هذه الرسالة ، وحمل إبراهيم الفيل

ورد الأمير إلى أحمد المريض ، ثم حضر إلى مصراته من قبل الأمير يدعو إلى الاتفاق ويرحب به الشيخ محمد بن حسن بن عبد الملك وهو مصري ، فكان لهذه الخطوات المباركة التي خطاها الأمير أعظم الأثر في تقوية إيمان زعماء هيئة الإصلاح المركزية في إمكان الاتفاق ، وتألف الوفد وسافر إلى سرت للاجتماع بالمفاوضين السنوسيين ، وكان هؤلاء صالح الأطيوش وخالد القبيصة والشيخ نصر الأعمى والشيخ صالح السنوسي بن عبد الهادي البراتي .

وفي شهرى ديسمبر من عام ١٩٢١ ويناير من العام التالي بدأت مفاوضات سرت بين مندوبي هيئة الإصلاح الطرابلسية وبين مندوبي السنوسية . وكان الأمير يرغب رغبة ظاهرة في الاتفاق ويسعى العزم من جانبه حتى تسكل هذه المفاوضات بالنجاح ، وقلقت الحكومة المحلية الإيطالية من نشاط زعماء السنوسيين والطرابلسيين ، ومع أنه كان قد أشيع وقتذاك أن الغرض المباشر (والظاهر) من هذا الاجتماع في سرت تسوية الخلافات القائمة بين قبيلة المغاربة ورئيسها صالح الأطيوش وبين بعض القبائل الأخرى من العرب ، فإن الطليان كانوا يرون - على حد قول مؤرخهم - أن الغرض الحقيقي من اجتماع سرت إنما كان تقوية روح العداء المنتشرة ضد إيطاليا في برقة وطرابلس معا ، وتمهيد الطريق لإعطاء السنوسية وأميرها الزعامة على الأقطار الليبية بأجمعها ، وأزعج الطليان ذلك النشاط الكبير الذي أبداه كل من صالح الأطيوش (عن السنوسية) وعبد الرحمن عزام (عن الطرابلسيين) من أجل الوصول إلى الاتفاق وتوحيد جهود القطرين برقة وطرابلس في النضال ضد إيطاليا .

والواقع أن المتفاوضين في قصر سرت ما لبثوا حتى وصلوا إلى قرارات على جانب عظيم من الخطورة تعتبر بحق الأشناس الذي قام عليه عقد البيعة للسيد محمد إدريس لتولى الإمارة على القطر الليبي بأجمعه . وكان للعزام أثر بالغ في تهيئة الأسباب التي أفضت إلى مبايعة السيد بالإمارة عندما وقف خطيبا في الوفود المجتمعة بقصر سرت وقال : على عاتق وأمام الله أن هذا (أى عقد البيعة للسيد) في مصلحة أهل طرابلس ومصلحة الجهاد ، وقد حمل الزعماء عبد الرحمن عزام هذه المسؤولية ، أمام الله ، وشرعوا يعدون ميثاق سرت ، المعروف .

وأثبت صاحب (تاريخ اليقظة القومية عند العرب) نص هذا الميثاق الذي وقعه الجانبان في اليوم الثاني والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام ١٣٤٠ (٢٢ يناير ١٩٢٢) . وأهم ما يلاحظ في هذا الميثاق أن المفاوضين الطرابلسيين أبدوا القرار الذي اتخذوه من قبل في مؤتمر غريان والذي جاء فيه أن مصلحة الوطن تقتضى إنشاء حكومة قادرة ، بزعامه رجل مسلم منتخب من الأمة ، في استطاعته أن ينقذ البلاد من الحالة التي آلت إليها ويعمل على

تحقيق أهدافها الوطنية . فنص اتفاق سرت في المادة الخامسة على أن الطرفين يريان ، ان مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقتضى بتوحيد الزعامة في البلاد ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة . . ودل هذا القرار على أصالة رأى وحكمة بعيدة لأن الأمير الذى ما كانت برقة ترضى بغيره بديلاً ويتمتع بنفوذ ملحوظ في طرابلس ذاتها وظل نفوذه يقوى ويبدأ ويبدأ ولكن بصورة ثابتة موطدة كان وحده معقد آمال الزعماء الليبيين في هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد ، وفضلاً عن ذلك فقد كفل قرار سرت إنشاء إمارة دستورية وتحقيق تلك المبادئ الديمقراطية التي تمسك بها الزعماء المجاهدون - والعزام في طبيعتهم - من أيام الجمهورية . ثم تعهد الفريقان المتفاوضان في المادة السادسة بأن يتخذا الوسائل اللازمة (لإنشاء الإمارة الليبية) واتفقا على نحو ما جاء في المادة السابعة على أنه بمجرد الفراغ من انتخاب الأمير وتوليته بإرادة الأمة ، على انتخاب مجلس تأسيسى من الفريقين لوضع القانون الأساسى والنظم اللازمة لإدارة البلاد ، وقبل ذلك وتمهيدا لهذه الأعمال يجب على الفريقين أن يرسل كل منهما مندوباً للبلدين لأجل أن يشتركا في سياسة البلاد والتدابير المقتضية للدفاع عن الوطن .

وتنفيداً لهذه القرارات إذن ، ذهب بشير سعداوى لتمثيل طرابلس لدى حكومة برقة ، وأوفد الأمير السيد إدريس مندوباً يمثل سموه لدى الطرابلسيين في شخص السيد عبد العزيز العيساوى في منطقة مصراته . وجمع الأمير في اجداية في شهر رمضان ١٣٤٠ (إبريل ١٩٢٢) مشايخ وزعماء ورؤساء قبائل المغاربة والعواقر وقبائل الجبل للداولة فيما يجب اتخاذه من وسائل للدفاع عن مصالح البلاد ، واجتمع هؤلاء بالمندوب الطرابلسى بشير سعداوى ودارت بحوث طويلة في طريقة الوصول إلى تنفيذ اتفاق سرت ، وكان مما اهتم به الطرابلسيون استشارة السيد إدريس وحمله على التدخل مع إيطاليا لحسم الخلاف القائم بينها وبين الطرابلسيين وخشى الطليان - وكثيراً ما كان يأخذهم الخوف كل مأخذ في المدة الأخيرة - أن تسفر هذه المباحثات عن إنشاء تلك الإمارة الليبية التي كانوا يبذلون قصارى جهدهم لمنع تأسيسها . وكان في أثناء هذه المباحثات أن قر رأى الزعماء البرقاريين على أن يبايع الزعماء الطرابلسيون الأمير من غير إهمال . ولما كان الطرابلسيون يتنون هذه المبايعه من مدة سابقة فقد وافق بشير سعداوى على ذلك ولكنه اشترط مقابلة الأمير قبل البت في هذا الموضوع نهائياً ، وفي أثناء المقابلة أكد بشير للأمير أن (البيعة) هدف الطرابلسيين وطلب من الأمير أن يسمح له بالعودة إلى القطر الطرابلسى حتى يمهّد لهذه البيعة ويأتى بها بنفسه أو يأذن له بالكتابة في هذا الشأن إلى اخوانه .

وحدثت والمفاوضات ما تزال دائرة أن حضر أمندولا وزير المستعمرات الإيطالية إلى برقة ، فأناوب الأمير السيد صفي الدين في مقابلته بينغازي ، وطلب أمندولا مقابلة الأمير ، ووافق السيد إدريس على الاجتماع به حتى يستطيع أن يتحدث إليه بصددا القتال الدائر وقتذاك بين الطليان وأهل مصراته . وكان الطليان قد انتهزوا فرصة اجتماع أهل مصراته مع أعيان برقة البيضاء من المغاربة لتسوية خلافاتهم فأنزلوا قواتهم في قصر حمد واضطر المغاربة للعودة إلى برقة البيضاء ورجع المصراطيون إلى مصراته ، ولكن الفريقين قبل انفضاض الاجتماع كانا قد نجحا في إزالة أسباب سوء التفاهم بينهما وتعاهدوا على نسيان الماضي ، ووسطت مصراته سمو الأمير حتى يمنع اعتداءات الطليان عليهم . وعلى ذلك فقد رحب السيد إدريس بهذه الفرصة المواتية لمقابلة أمندولا وتم الاتفاق على أن يكون الاجتماع بغوط الساس . ولكن أمندولا مال بك حتى اشترط قبل الدخول في مباحثات مع الأمير أن يغادر بشير سعداوى اجداية ، ولما كان الأمير يعقد آمالا كبيرة على إمكان التوسط لدى الحكومة الإيطالية في مصلحة مصراته فقد أوفد السيد صفي الدين إلى الوفد الطرابلسي يخبره بما قر عليه الرأي ، وخرج بشير سعداوى وزملاؤه إلى الطيبيل ، وعندئذ حضر أمندولا إلى غوط الساس بالقرب من المرج وكان يرافقه السيد صفي الدين . وفي ٢٢ يونية ١٩٢٢ اجتمع به الأمير وحضر هذا الاجتماع كذلك السيد صفي الدين ، وطلب الأمير حسم الخلاف ووقف القتال بين الطليان ومصراته ، واستطاع أن يقنع أمندولا بضرورة تهدئة الأحوال في طرابلس وأوفد إلى الطيبيل لمقابلة الطرابلسيين كلا من صالح الأطيوش والفضيل المشهش وأحد أبناء الكزة وسلم هؤلاء إلى بشير سعداوى كتابا من السيد إدريس أخبره فيه بمقابلته مع وزير المستعمرات في غوط الساس ومحت القضية الطرابلسية معه ، وبأن المباحثات قد أسفرت عن إظهار إيطاليا استعدادها للصلح معها . وفضلا عن ذلك فقد جاء الجماعة بكتاب آخر من الأمير موجهة إلى رئيس هيئة الإصلاح المركزية بهذا المعنى . غير أن الأطيوش وزملاءه مالبتوا أن أمروا إلى الطرابلسيين مشافهة أنهم (أي الطرابلسيين) إذا رغبوا في النجاح والعمل المثمر على أساس اتحاد البلاد فإن السبيل إلى ذلك هو المبايعة بالإمارة للسيد حتى تفقد كفة الليبيين قاطبة في النضال ضد إيطاليا والوصول بذلك إلى تحقيق الأهداف الوطنية . فبادر بشير سعداوى بالكتابة إلى سمو الأمير أنه يعزم العودة فوراً إلى طرابلس لإتمام البيعة ووعده بالعودة سريعا إلى اجداية بحمل البيعة معه .

وبالفعل غادر بشير سعداوى برقة إلى طرابلس ، وبمجرد وصوله إلى مصراته اجتمع بالزعما الطرابلسيين ونادى بالبيعة لسمو الأمير السيد إدريس مستندا في ذلك إلى أنه لا سبيل

إلى الخلاص البتة إلا بالاتفاق والتعاون مع برقة وانحياز برقة إلى جانب طرابلس في القتال ضد العدو الإيطالي . وكتب بشير سعداوى نص البيعة بنفسه ثم ذهب بها من مصراته إلى مسلانة ثم إلى غريان ، وهناك كانت هيئة الإصلاح المركزية مجتمعة برئاسة أحمد المريض فقرأ عليهم البيعة ووافق هؤلاء عليها بالإجماع ودون مناقشة . ولم يكن في قبول الزعماء الطرابلسيين لبيعة السيد إدريس ما يدعو إلى العجب ، فقد مهد هؤلاء الزعماء أنفسهم لاتحاد القطر الليبي تحت لواء زعامة واحدة منذ أن بدأوا اجتماعاتهم في غريان ثم انعقد العزم على قبول إمارة السيد إدريس في اجتماع سرت ، وفضلا عن ذلك فقد دلت الحوادث الأخيرة منذ نزول الطليان في قصر حمد على أن الاتحاد مع القطر البرقاوى هو الوسيلة الوحيدة لتخليص الوطن من شرور المستعمرين . وكان من أثر وساطة السيد إدريس في إنهاء الخلاف ووقف القتال بين الطليان والطرابلسيين خصوصا في منطقة مصراته أن بدأت المفاوضات بين الحكومة الإيطالية المحلية وبين هيئة الإصلاح المركزية برئاسة المريض في بر عبازة ، ووجد الطرابلسيون أن المناداة بالبيعة للسيد الأمير ووضع تلك القرارات التي اتخذوها من أيام مؤتمر غريان موضع التنفيذ أجدى الطرق وأقواها لمجابهة الطليان بالأمر الواقع .

وعلى ذلك فقد أوفدت هيئة الإصلاح المركزية الشيخ محمد بن حسن والشيخ محمود المسلاتي والشيخ الطاهر الزاوى إلى اجداية يرجون من الأمير السيد إدريس القدوم إلى مصراته لمبايعته بالإمارة ، ولما كان الأمير يشكو المرض وعدم القدرة على السفر فقد اعتذر عن الذهاب إلى مصراته ووعد بالزيارة عند حلول الخريف ، وانتقل السيد إدريس إلى جردس العيد بينما ظل الوفد الطرابلسي في اجداية . وما إن علم الطليان بمجيء الطرابلسيين إلى اجداية حتى ثارت ثائرتهم ، فاستدعى نائب الوالى لويجي بينتور السيد صني الدين ومنصور الكنخيا لمقابلته ، وأنذرهما أنه إذا لم يغادر الوفد اجداية فوراً فإن الحكومة لن تتوانى عن مهاجمة اجداية ذاتها في التو والساعة . وحاول السيد صني الدين وعمر منصور الكنخيا إقناع الحكومة المحلية بالعدول عن عزمها ولكن دون جدوى ، وعلى ذلك فقد قصد السيد صني الدين إلى اجداية للتفاهم مع السيد محمد الرضا أخى الأمير ونائبه يا اجداية بينما توجه عمر منصور الكنخيا إلى جردس العيد ليعرض الأمر على السيد إدريس ويبلغه إنذار الحكومة الإيطالية . ولما أدرك الأمير خطورة الموقف بدأ يبذل قصارى جهده لإقناع الحكومة الإيطالية بأن الطرابلسيين ما قصدوا بما فعلوه سوى حقن الدماء وفض خلائقهم مع إخوانهم أهل برقة ، وأن واجب الحكومة الإيطالية يحتم عليها أن توقف اعتداءاتها على الطرابلسيين فضلا عن أنه كان للأمير على حسب اتفاق الرجحة الحق في أن يعرض ما يراه في مصلحة البلاد على الحكومة

الإيطالية ، كما أن معاهدة الزجة قد ألزمت الطليان كذلك بأن يضعوا موضع الاعتبار كل ما يديه الأمير من آراء في ذلك .

وعند عودة الوفد الطرابلسي إلى مصر أته في أواخر شهر ذي القعدة من عام ١٣٤٠ (بولية ١٩٢٢) اتفقت كلية الزعماء الطرابلسيين على إرسال كتاب البيعة إلى الأمير ، وتقرر أن يذهب بهذه البيعة السيد بشير سعداوى بوصفه مندوبا من هيئة الإصلاح المركزية ، وعبد الرحمن عزام بوصفه مستشارا لهيئة الإصلاح ، ثم محمد الصادق بك بلحاج (ابن الحاج) ونورى السعداوى والشيخ محمد عبد الملك . ووقع على كتاب البيعة أحمد المريض رئيس هيئة الإصلاح المركزية وعبد الرحمن عزام مستشارها ، ثم أعضاء الهيئة محمد بن عمر وبشير السعداوى وحسين بن جابر ومحمد فرحات وعبد الرحمن زبيدة ومحمد النايب وسالم البجراح وعثمان القيزاني وعمر بودبوس ومحمد صادق بن الحاج ومحمد مختار كمار ومحمد فكيني والصويبي الخيتوني ، كما وقع على البيعة من الأعيان محمد الديب ومحمد سوف وعمر ضياء ، وعلى أبو جليل وأحمد الشيبوي ومحمد سعدون قائد الجيش الوطنى وفرحات القاضي ومحمد القرقي وأحمد السني والبغدادى بن معيوف ومحمد الصغير المريض . وذكر الطرابلسيون في كتاب البيعة المرسل إلى سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد إدريس حفظه الله ورعاه ، أنه لا ينبغي على سموه أن الخلاف ما يزال قائما بينهم وبين الحكومة الإيطالية وذلك لأن الحكومة الإيطالية وجهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا شرعية وسياسية وإدارية ، وجعلت من قوتها متبررا للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية . ونحن خير أمة أخرجت للناس لا تتحمل ضيما ولا ترضى أن تضمحل شريعتنا ولا أن تطرق الخلل إلى ديننا القويم كائنا ما كان ، الأمر الذى حملنا على تركيبة الأخطار وأقبح الحروب المتوالية ، معتمدين على قوة الحق إلى أن نظفر بتحقيق أمنيتنا القومية الأوهى تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية ، مع مجلس نيابي تنتخب الأمة أعضائه ، وبهذا يسلم وطننا ويقيم أمر ديننا وتصلح أحكام قضائنا ونحفظ شرعنا وعننة تاريخنا الباهر ، وهذا لا يتافى بحماة تدعيه إيطاليا وماذا أتت عليه في خطب زجالها من أنها لم تحتل ديارنا بنية الاستعمار ، وإنما ساقها ذواهي السياسة الدولية في البحر المتوسط . ولو كانت صادقة في دعواها هذه لما عرضت بلادنا للحرب أبشرا إلى المهالك واشتعال دهاها وقدرتها للتفريق والفوضى . وقد جارت فضل الأمانة بقطتها على بعض بطرق مختلفة وأبى الله إلا أن يجمع كلمة القطرين الشقيقين بأن يلتفنا حول أميرنا وأخذنا رضايته لا ونحن كان سموكم من أشرف عائلة وأكرم بيت مع ما تجمع في ذواتكم الشريفة من المزايا العالية والأوصاف الجليلة فإن (هيئة الإصلاح المركزية) الحائزة

لوكالة المطلقة من (مؤتمر غريان) الذي يمثل الأمة الطرابلسية بانتخاب واقع منها قد وجدت في سموكم أميراً حازماً قادراً على جمع الأمة حائزاً للثقة العامة محبوباً . فهي لذلك تباع بسموكم أميراً للقطرين طرابلس وبرقة على أن تقودهما إلى ما يحقق أمانيهما الشريفة الإسلامية المنزه عنها . على أن مبايعتكم كانت مضررة في كل نفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبين القطرين في (سرت) وكان السبب في تأخير تحقيقها طوارىء الحرب التي طوحت بكل واحد من أعضاء الهيئة ورجال القطر في منطقة شاسعة من المناطق الحربية . وبهذه المبايعة إن شاء الله أصبح سموكم الأمير المحبوب للقطرين المباركين . وهي سنحت الفرصة عند تشریفكم إيانا حسب رغبة الأمة تقام لكم مظاهر هذه البيعة في موكب لائق بسموكم . والله سبحانه وتعالى بمدكم روح من عنده ويجعل البركة في البيت السنوسي المؤسس على التقوى والصلاح .

ووصل إلى اجداية الوفد الذي حمل كتاب البيعة لسمو الأمير في ربيع الأول ١٣٤١ (أكتوبر ١٩٢٢) ، وكان الطرابلسيون يعرفون من غير شك أن مجيء الوفد إلى اجداية يحمل كتاب البيعة إلى سمو الأمير من شأنه إثارة غضب إيطاليا تلك الدولة التي ما فتئت تلح على السيد إدريس منذ مجيء الوفد السابق إلى برقة حتى تصرفه عن قبول الدعوة إلى الاتحاد والتعاون مع الطرابلسيين ، وكان من المتوقع أن يأخذ الغضب من الحكومة الإيطالية كل ما أخذ إذا قيل السيد إدريس بيعة الإمارة من أبناء القطر الشقيق طرابلس ، وأنها لا بد مقدمة ساعتئذ على إشهار الحرب ضد السيد بكل الطرق . ولا جدال في أن السيد إدريس كذلك كان يعلم تمام العلم أن قبول البيعة سوف يترتب عليه نتائج خطيرة ، ولكنه كما قال الطلياني أنفسهم ما كان يستطيع أن يرفض تلك اليد التي مدت لمصاحته .

وعلى ذلك فقد بادر الأمير بمصاحته تلك اليد الممدودة إليه وقبل البيعة دون تردد وأجاب على كتاب البيعة في ٢٢ ربيع أول ١٣٤١ (٢٢ نوفمبر ١٩٢٢) فقال أعزه الله : « وبعد فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التي أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة في تحقيق غايتكم التي أجمعتم عليها في مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهادا صادقا بالأنفس والثمرات في شخصي فأخذتها داعيا الله أن يحقق آمال هذه الأمة ويكمل مساعيها كلها بالنجاح . ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التي ظلمنا سعيت إليها وجدت من واجبي أن أتلقى طلبكم بالقبول وأن أتحمل المسؤولية العظمى التي رأت الأمة تكليفي بها ، فعلى إذن أن أعمل بجد معكم . ولكن لا تنسوا أنني بغير إقدامكم وجدكم لا قدرة لي على شيء . إنني أعلم أن الحياة الخالدة هي للأمم لا للأفراد ، وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هي التي تتصرف إلى صالح الجميع ، فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة . إذ من حق كل شعب أن يسيطر على شئونه .

والناس منذ نشئوا احرار . وقد أظهر شعبنا في كل أدواره مقدار محبته للحرية فدفع مهوراً غالية ، فلا يصح لأحد أن يطمع في استعباده والاستبداد بشئونه . لقد اشترطتم على الشورى وهي أساس ديننا وسأعمل على قاعدتها . هذا وقد رأيت أن أقر الأمور على ما هي عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد ، فذلك أكل إلى الهيئة المركزية لما أبدت من الحمية والعدل والبراية أن تستمر على إدارة شئون القطر الطرابلسي ، ولى الثقة العظيمة في حكمة رئيسها البطل الحازم أحمد بك المريض ورفقائه والرؤساء الكرام الذين أيدوا مساعي الهيئة المالية أن يتحملوا مشاق المسؤولية بصبر لتثبيت دعائم البناء الوطنى الذى شيده وأسأله تعالى أن يمد الجميع بعنايته ويثبت الأقدام ويقهر الأعداء ويمن بالنصر الموعود ، انه على ما يشاء قدير .

كان قبول البيعة في نوفمبر ١٩٢٢ ، وكان من المتوقع أن تزداد العلاقات توتراً بسبب هذا القبول بين الأمير والطلبان ، وبدأ هؤلاء بالفعل يظهرون عداؤهم للسوسية وأميرها منذ أن شعروا بأن الأمير لن يتردد بحال عن توحيد كلمة القطرين الشقيقين ؛ وكان الطليان يتوجسون خيفة من إنشاء إمارة ليبة كبيرة من أيام اجتماع سرت ثم تحققت مخاوفهم الآن عند قبول البيعة . فإذا تذكرنا أن الحكومة الإيطالية لم تقدم على إبرام معاهدة الرجعة إلا مرغمة على ذلك إرغاماً بحكم الظروف السياسية في داخل بلادها وفي برقة ذاتها على نحو ما سبق بيانه ، اتضح لنا مقدار ذلك الحقد القديم الذى أثار كوامنه الآن انعقاد لواء الإمارة على القطر الليبي بأجمعه للسيد محمد إدريس السنوسى . وكان العملاء الطليان منذ عام ١٩٢٠ وعلى الرغم من قبول دولتهم الاتفاق مع السيد إدريس ، قد حاولوا التخلص من الأمير بشئى الطرق ، ثم لم يجمعوا عن سلوك أشد هذه الطرق نذالة وجبناً عند ما استطاع ركلاؤهم أن يندسوا السم للسيد . فقد مرض السيد في عام ١٩٢٠ ومع أنه طلب المعالجة في القطر المصرى واستأذن الحكومة فى الدخول إلى مصر بقصد مداواة ورحبت الحكومة المصرية بمجيء سموة فقد حال الطليان دون سفره ثم أصروا على أن يعالجوه هم بأنفسهم ؛ ولكنهم بدلاً من أن يعالجوا سموه بما كان يشكو منه اقتصر عمل أطباهم على وصف بغض العقاقير المقوية ؛ وبلغ عبد الرحمن عزام وهو ما يزال وقتذاك بمصراته من أحد ضباط الطليان الذين اعتنقوا المذهب الاشتراكى أن الحكومة الإيطالية تشوى الخلاص من الأمير بدس السم له فيما يتناوله من عقاقير وأدوية على أيديهم ؛ فبادر العزام حرصاً منه على حياة الأمير بإرسال أحد المجاهدين من الضباط ويدعى عبد المولى الحامى حتى يبلغ السيد إدريس ، أن الجماعة قد قرروا أن يسفوه الدم ، غير أن الرسول عند ما جاء يبلغ رسالته وجد السيد يعانى الام المرض المبرحة

علم يشأ أن يزيد من إزعاج السيد بتبليغه هذه الرسالة.. وعلى هذه الصورة الوضيعة نفذ الطليان مكيدتهم ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يحرم الأمة الليبية العربية المجاهدة زعامة السنوسية ، فلم الأمير ولكنه ظل من ذلك الحين يشكو المرض. وعند ما جاءت الوفود من طرابلس تعرض على سموه بيعة الإمارة كانت العلة قد اشتدت بالسيد حتى اقتضاه الأمر أن يلزم فراشه وصار لا يعيد عن السفر إلى مصر حتى يبل من مرضه . وكان مما زاد الموقف خطورة على خطورته حتى بات يخشى على حياة الأمير أن العلاقات كانت قد تخرجت بينه وبين الحكومة الإيطالية منذ حدوث الانقلاب الفاشيستي المعروف بإيطاليا في أكتوبر ١٩٢٢ ، وتكرر وقوع المصادمات بين الطليان وبين الوطنيين في برقة ، فطلب الأمير ثانية أن يخرج إلى القطر المصري للمداواة وأصر الطليان بدورهم على رفضهم ؛ وعند ما اشتدت وطأة المرض على الأمير لم يلبث الطليان أن عرضوا على سموه إحضار بارجة تنقله إلى إيطاليا للمداواة ، بها ؛ ولم يغيب عن الأمير غرض الطليان الحقيقي من هذه الأريحية ، المريية وبخاصة عند ما أخذ هؤلاء يبذلون ما في وسعهم من جهد وحيلة لدى الحكومتين الانجليزية والمصرية حتى لا تأذنا لسموه بالدخول إلى مصر . ثم أقاموا قوة للرقابة الدقيقة على طول الساحل لمنع سموه من مغادرة برقة . وكان في هذه الظروف أن بلغ الأمير أن السيد مرعني الإدريسي قد وصل إلى السلوم في انتظار سموه لاستقباله ومرافقته إلى القاهرة ، فصح عزم الأمير على مغادرة برقة . وفي ٢١ ديسمبر ١٩٢٢ خرج السيد محمد إدريس من إجداية ، وخرج معه عبد الرحمن عزام ونوري السعداوي ومحمد الصادق بلحاج في طريقهم إلى مصر ، وأشاع كبار السنوسية أن السيد إنما يبغي الذهاب إلى الكفرة وذلك حتى لا يمنعه الطليان وصحبه من مغادرة إجداية واجتياز الحدود إلى مصر ، فوصل سموه مع من رافقوه إلى جالو في أول يناير ١٩٢٣ ثم بلغ الجغبوب بعد اثني عشر يوماً . وفي ١٨ يناير وصل إلى سيوه ومنها قصد مع صحبه إلى مرسى مطروح ثم إلى مريوط فبلغها في ٢٩ يناير . وهناك وجد قطاراً أعدته الحكومة المصرية لنقل سموه فبلغ القاهرة في ٢٧ يناير ١٩٢٣ ، واستقبل استقبالاً فخماً رائعاً ، فأرسل المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول مندوباً خاصاً لاستقباله ، كما تحف لاستقبال الأمير والترحيب بمقدمه أعضاء القوم وأهل الفضل من المصريين ورؤساء العرب ووجهائهم وكبار أدباء الأقطار الشقيقة ، الشام وفلسطين والعراق ، ونزل الأمير بالقاهرة . وكان مجيء السيد إدريس إلى مصر منذراً ببداية الكفاح المرير في برقة ، ذلك بأن الأمير على الرغم من مرضه الشديد كان قد اتخذ من الاجراءات ما يكفل استئناف جهاد العرب ضد حكومة الطليان الفاشية .

الفصل العاشر

كفاح العرب في برقة وطرابلس

دلت محاولة الطليان أن يتخلصوا من السيد إدريس في الوقت الذي كان يتفاوض فيه والى برقة ديمارتينو لعقد اتفاق الرجة على أنهم كانوا غير مخلصين في نواياهم وأنهم ما قبلوا إنشاء الإمارة والاعتراف بالسيد إدريس أميراً على برقة إلا مرغمين بسبب ارتباك الحالة السياسية بداخل إيطاليا ذاتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى ولعجزهم عن إرسال أية إمدادات كبيرة إلى ليبيا للقيام بعمليات عسكرية واسعة ، وفضلا عن ذلك فإن كل ما كان يريد الطليان من عقد اتفاق الرجة - كما ذكرنا في الفصل السابق - هو أن يستطيعوا الاتصال بالقبائل الضاربة في داخل البلاد وإنشاء صلات وثيقة معها تمكثهم من إضعاف شوكة السنوسية ونفوذها. واهتم الطليان اهتماما عظيما بمسألة نزع الأسلحة من العرب وكان إصرارهم على نزع الأسلحة من أقوى الأسباب التي أدت إلى استحكام الخلف بينهم وبين الأمير ، ذلك بأن العرب ما كانوا يقبلون البتة أن يسلبوا أسلحتهم طوعا ، بل لابد من إرغامهم على ذلك إرغاماً. وبذل السيد إدريس قصارى جهده حتى يبين للطليان أنه من المتعذر إقناع العرب بتسليم سلاحهم ، وأنه من الأفضل والأجدي أن يقلع الطليان عن هذه الرغبة. ولكن هؤلاء بدلا من أن يسمعوا لتصحح الأمير صاروا ينتهزون فرصة حضور العرب إلى المدن ويعمدون إلى نزع سلاحهم عنوة واقتدارا ، وقابل العرب هذا العمل بضروب متنوعة من الانتقام لأنفسهم فوق الاصطدام بين الفريقين وصار العرب يطلقون النار على سيارات الطليان ودورياتهم ، وعظمت شكايات الطليان مما سموه واعتداءات العرب عليهم وكرروا الشكرى للأمير ، وجبنا نحاول السيد إدريس أن يقنع الطليان بأنهم وحدهم أصحاب المسؤولية عن وقوع هذه الحوادث وإثارة الفتن والقتال والهياج بين العرب بسبب إصرارهم على جمع الأسلحة منهم عنوة وبذ نصيحة السيد ، وتحدث الطليان من ذلك الوقت المبكر عن نقض العرب اتفاق الرجة ثم أخذوا يظهرون نواياهم الحقيقية عندما جاءت الوفود من طرابلس تحمل بعة الإمارة للسيد إدريس على نحو ما سبق بيانه ، فأوقفوا تنفيذ اتفاقاتهم وعملوا على تعطيل القانون الأساسي بصورة أقنعت العرب والمجاهدين بأن الطليان لم يكونوا جادين عند ما قطعوا على

أنفسهم الموائيق والعهود بإنشاء الحكومة الوطنية التي تكفل للإلاد الهدوء والسكينة . ومن أواسط عام ١٩٢٢ وقبل أن يضطر الأمير إلى مغادرة البلاد بدأت تتأزم الأمور بين الطليان والعرب في برقة ، وكان مما أنذر بيده هذا التحرج في العلاقات قتل أحد المزارعين الطليان في القويحات ويدعى رونوني ، إذ اتهم الطليان مستشار النظارة في الأديوار الشيخ صالح العوامي شيخ زاوية بنغازي بأنه كان اليد المحركة في هذه الحوادث ، وفي واقعة قتل رونوني ، وطلب المتصرف الإيطالي روليني من السيد صني الدين في الأييار أن يبعد الشيخ صالح العوامي إلى إجداية أو جالو لأن الحكومة - على حد قوله - لديها ما يؤكد اشتراك الشيخ صالح في المشاغبات ، وتعرف أن الثوار، بزورون الشيخ لبل ، وأن لديه في محل إقامته بعض الأشياء التي أخذها العرب من الطليان في أثناء مصادماتهم معهم . وكان هذا ولا شك اتهاماً خطيراً . فطلب السيد صني الدين أن يعرض الأمر على سمو السيد إدريس وذهب لمقابلته ومعه الشيخ صالح العوامي ، ووجد الأمير في زاوية القطرانية ، ورفض السيد إدريس تنفيذ مطالب الطليان دون أن يسبق ذلك تحقيق فيما نسب إلى الشيخ صالح وثبوت التهمة عليه وإدانتة ، فعاد السيد صني الدين إلى الأييار ومعه الشيخ صالح (٨ صفر ١٣٤١ ، ٣٠ سبتمبر ١٩٢٢) ، وما إن وصل صني الدين إلى الأييار حتى علم بوقوع حادث كان في نظر الطليان أعظم خطورة من حادث العوامي ويعرف في تاريخ الجهاد في برقة باسم واقعة البيضاء .

فقد حدث في يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٩٢٢ أن التقى بعض العرب عند البيضاء بين المرج وشحات بسيارة بريد للطليان ، فوقع الاصطدام بين العرب والطليان إذ أطلق الحرس الإيطالي النار على العرب ، فمطل هؤلاء عجلات السيارة وأوقعوا بالحرس ، وثارت نائرة الطليان وعدوا الشيخ صالح العوامي مسئولاً عن وقوع هذا الحادث كذلك . ولما عجزوا عن القبض على المعتدين ، ذهبوا إلى الأييار واقتحموا منزل السيد صني الدين وطلبوا القبض على الشيخ صالح وأصروا على القبض عليه عنوة ولكن صني الدين امتنع عن تسليمه لهم ووجد أنه قد يكون من الخير إذا شاء المحافظة على حياة الشيخ صالح وهو رجل مسن ، أن يقال من الطليان تعهداً بعدم إلحاق الأذى به وعدم المساس بكرامته أو إهانتة . وتعهد روليني المتصرف الإيطالي بذلك ، ثم وعد باستئناف المذاكرة في مسألة الشيخ صالح في اليوم التالي ، وخرج الشيخ مع المتصرف وأوفد السيد صني الدين مندوبين من قبيلة الشيخ موسى البرعصي ثم الشارف الغرياني للمحافظة على الشيخ وكادت تنتهي هذه الواقعة بسلام لولا أنه حدث في مساء اليوم الذي تم فيه إلقاء القبض على العوامي أن حضر إلى الأييار رسول إلى السيد صني الدين من قبل الشيخ عثمان العنزي ينذر السيد بأن الطليان يضررون خلاف

ما يظهرون وأنهم سوف يحضرون في الغد لإلقاء القبض على السيد صفي الدين نفسه بدلا من المذاكرة، المزعومة وأن من واجب السيد صفي الدين أن يغادر الأييار بكل سرعة .

وكان الشيخ عثمان العنزي رجلا وقورا صقلته التجارب وقع عليه الاختيار عند افتتاح البرلمان ليتولى الرئاسة بوصفه أكبر الأعضاء سناً ، ثم حضر جميع الدورات البرلمانية بعد ذلك ، ويقول السيد صفي الدين بعد أن أطنب في صفات الشيخ عثمان العنزي ، وكان من الشائع أنه كانت هناك صلوات بين الشيخ عثمان وبين الطليان ، ولكنه من الثابت قطعا أن الشيخ عثمان العنزي كان عظيم الولاء للسوسية ، بل إنه على العكس مما أذيع عنه وقتذاك ، كان على اتصال مستمر مع زعمائها خصوصا في معسكر المجاهدين في جنجرة بالبرقة الحمراء مع الشيخ صالح العوامي ، ثم (مع السيد صفي الدين نفسه) من وقت اشتداد النضال مع الطليان منذ عام ١٩١٤ . . . والواقع أن الشيخ عثمان العنزي كان من أكبر مؤيدي سياحة السيد إدريس ، وجاء الآن تحذيره للسيد صفي الدين في الوقت المناسب من غدر الطليان برهانا بباطحا على صدق ولاته . وكانت وفاة الشيخ عثمان العنزي رحمه الله في ٤ أغسطس ١٩٢٢ . وبمجرد أن وصلت رسالة السيد صفي الدين خرج السيد من الإييار متخذاً من ظلام الليل ستارا يخفي حركاته وتوجه إلى جردس العبيد ، ثم قدم استقالته من رئاسة البرلمان احتجاجا على سلوك المتصرف الإيطالي . وعند ما علم الطليان باستقالته جاؤوا أن يوسطوا الأمير حتى يقنع السيد صفي الدين باستردادها ، ولكن دون جدوى . وتخرج صفي الدين من الجردس إلى إجداية فوصلها في ٢٢ أكتوبر ١٩٢٢ .

وكان حادث العوامي وماترتب عليه من استقالة السيد صفي الدين من رئاسة البرلمان مؤذنا ببداية نضال العرب بصورة جدية ضد الطليان ، فأحرق المجاهدون مكنتات البشة الإيطالية . وهي بعثة اتصال لدى الأمير - في الزويتينة في ليل ١٤ - ١٥ أكتوبر ١٩٢٢ واضطرت البعثة إلى الهرب على ظهر إحدى السفن من الزويتينة . وكان في أثناء هذه الحوادث أن قبل السيد إدريس الاجتماع بالوفود الطرابلسية التي جاءت تعرض على سموه ببيعة الإمارة على الرغم من تحذيرات ، الطليان وتهديداتهم . وأدرك هؤلاء أن السوسية قد صممت على إظهار العداء لهم بصورة سافرة طالبا أنهم لا يوفون بعهودهم . ولكن الطليان لم يكن في وسعهم في هذه الأونة أن يظهروا عداؤهم للسوسية وتمسكت الحكومة المركزية في رومة بعدم قطع العلاقات بينها وبين الأمير ، بل إن الوالي الجديد بكاري أخذ يبذل قصارى جهده عند وصوله إلى بتغازي حتى يعمل على إزالة أسباب الخلاف بين الطليان والسوسية .

وكان يقوم بعمل الوالي منذ وفاة ديمارتنو وكيله (لويجي بنتور) ، حضر الآن بكاري

الذي وصل إلى بنغازي في أكتوبر ١٩٢٢ وشرع يتخذ بعض ما اشتملت عليه معاهدة الرجة من مواد ، غير أن هذه المساعي المبدئية سرعان ما توقفت عند ما تولى الفاشيست وعلى رأسهم السنيور موسوايني رئاسة الحكومة في رومة . فقد بادر هؤلاء بمزل بكارى ذلك بأنهم اعتبروا ما فعله في منبيل استهالة السنوسية وحسم كل خلاف معها — على حد قول كتابهم — إهانة بالغة تلحق الأذى بسمعة إيطاليا وشرقها ، فأوقفوا بدلا منه الوالى بونجيروثانى لتنفيذ سياسة الشدة والصرامة الجديدة . وكشف بونجيروثانى عن حقيقة نوايا الحكومة الإيطالية تجر السنوسيين وإصرارها على مقاومة السيد إدريس ومحاربه في اجداية والجرس والجبل ، وعدم التقيد بالتزامات معاهدة الرجة والإصرار على نزع الأسلحة من العرب حتى إذا تم للطلبان ما أرادوا بسطرا بسلطانهم على القطر البرقاوى بأجمعه . وكان في هذه الظروف ، أن اضطر السيد إدريس إلى مغادرة برقة الى مصر في يناير ١٩٢٣ على نحو ما تقدم ذكره في الفصل السابق .

غير أن السيد إدريس أمام هذا التغيير الظاهر في سياسة الطليان وخطتهم ما لبث أن عمد إلى تنظيم المقاومة ضد الاحتلال الإيطالى فى القطر الليبى قبل مغادرته البلاد ، فبحث هذا الأمر مع الزعماء والرؤساء البرقاويين من جانب ، ومع بشير سعداوى والوفود الطرابلسية من جانب آخر . وقر رأى الأمير على أن يعهد بالأعمال السياسية والعسكرية فى برقة الى السيد عمر المختار نائبا عن سموه فى تنظيم الأدوار (أى معسكر المجاهدين) ، وأن يعهد بالمسائل الدينية وما يتعلق بالسنوسية وشئون الأسرة الكريمة إلى أخيه السيد محمد الرضا ، وكان السيد رضا فى جالو نائبا عن سموه فى إدارة شئونها . وزود الأمير رجائه بالتعليمات اللازمة وأوصاهم باتخاذ الحيطة دائما من غدر الطليان الذين كان غرضهم فى اللحظة الأخيرة . وقبيل مغادرة الأمير للبلاد القبض على رؤساء السنوسية العساملين : السيد إدريس نفسة والسيد الرضا والسيد صفى الدين . وفضلا عن ذلك فقد اتفق السيد إدريس قبل سفره مع السيد عمر المختار — بصدد بعض زعماء المجاهدين الذين توهم فيهم الأمير المقدره والكفاءة حتى يكونوا رؤساء على أدوار المجاهدين فى برقة ، وترك التعليمات المفصلة لتشكيل الجيوش بقيادة الرؤساء السنوسيين السيد محمد الصديق بن السيد محمد رضا وأخيه الحسن بن الرضا وقجة بن عبد الله السودانى والفضيل بو عمر والسيد يوسف بو رحيب والسيد حسين الجوينى والسيد عبد الله بو سلوم على أن يتولى قيادة هذه الجيوش جميعا السيد عمر المختار .

وكان الأمير عقب قبوله بيعة الإمارة التى جاء بها الطرابلسيون إلى اجداية قد وافق على رأى تقدم به بشير سعداوى وقتذاك بصدد إنشاء هيئة مركزية فى برقة من رؤساء القبائل

تضطلع بأعباء الإدارة ، واختار الأمير لرئاستها الشيخ مختار الغدامسى وهو من القضاة الشرعيين ومن أكبر علماء البلاد ، وغلاوة على ذلك فقد بحث الأمير مع بشير سعداوى مسألة استمرار المقاومة في القطر الطرابلسى ضد الطليان ، ووافق على ذهاب السيد صفي الدين مع بشير سعداوى والوفد الطرابلسى إلى مصراته لمواصلة الجهاد في طرابلس . وما إن غادر الأمير إجداية حتى عقدت الهيئة المركزية البرقاوية جلسات عدة للبحث في شئون البلاد وتهيئة وسائل الكفاح ضد العدو وحضر بشير سعداوى جلسات الهيئة ، وكان غرض بشير أن تتألف جهة متحدة من برقة وطرابلس لمتابعة الجهاد ضد إيطاليا دون أى إبطاء . وبعد تبادل الراى ظفر السعداوى بموافقة تامة على رأيه ، ووقع الحاضرون بحلى قرار بإثارة الحرب ضد إيطاليا ، ووافق السيد محمد رضا على ذلك نزولا على رأى الجماعة ونأهب السعداوى لمغادرة برقة إلى طرابلس ، وخرج معه السيد صفي الدين في ٢١ رجب ١٣٤١ (٩ مارس ١٩٢٣) . ومع أن الطليان قد اتصروا على المجاهدين في طرابلس فإن الاعتقاد كان لا يزال قائما على أن مصراته و ترهونة تتزعمان الجهاد وتمضيان فيه بنجاح ، ولم يعرف البرقاويون الذاهيون مع بشير سعداوى إلى طرابلس شيئا عن حقيقة الموقف في القطر الشقيق حتى إذا وصلوا في طريقهم إلى مصراته إلى محل يسمى منقار النسر صادفوا من آخرهم هزيمة المجاهدين في طرابلس . وكان من بين أعضاء الوفد السنوسى الذاهب مع بشير أحمد (باشا) سيف النصر وأخوه عمر سيف النصر إلى جانب السيد صفي الدين ، ويقول السيد صفي الدين : وعند وصولنا إلى النوفلية وجدنا بها خالد بك القرقتى وعثمان بك الجزائرى فارتحلنا جميعا إلى سرت .

وفي أثناء الطريق وصلنا خبر مشوم مؤداه أن محمد سعدون السويحلى أواخر رمضان السويحلى قد استشهد في القتال ، وكان محمد سعدون من خير القواد الذين تولوا قيادة العمليات العسكرية في الحركة الأخيرة . على أننا تابعنا السير بعد ذلك حتى بلغنا سرت ، وهناك قابلنا أحمد بك المريض ، ثم ذهبنا إلى وادى كنفد بين مصراته وورقلة ، وفي ورقلة وجدنا أحمد شتيوى وهو من إخمرة رمضان السويحلى وكان أحمد شتيوى متصرفا على مصراته . ثم وجدنا معسكر المجاهدين العام ، وقد بذل بشير سعداوى جهودا صادقة حتى يحشد جموع المجاهدين حول السيد صفي الدين وتحت لواء الزعامة السنوسية . وكان قائد معسكر المجاهدين الطرابلسيين في وادى كنفد حوالى ثمانية شهور من شعبان ١٣٤١ إلى شهر جمادى الأولى من عام ١٣٤٢ (أبريل — ديسمبر ١٩٢٣) .

وسعى للسيد صفي الدين من أجل التوفيق بين القبائل وتوحيد كلمة المجاهدين وكان يحول

دون جمع الكلمة عدم اطمئنان عبد النبي بلخير زعيم ورقلة وخوفه من أن تعمل أسرة السويحلي للانتقام منه لقتله رمضان شتيوي زعيمها ، ؛ أضيف إلى هذا أن عبد الجليل سيف النصر كان لا يزال يحقد على مصراته ويعقد علاوة على ذلك آمالاً عظيمة على أن تبديهيته الإصلاح المركزية يد المعونة إليه فتعطي قوة يتمكن بفضلها من الهجوم على فزان وانتزاعه من قبضة خليفة الزاوية ، ولما كان هذا الأخير على اتصال بهيئة الإصلاح المركزية فإن هذه الهيئة بطبيعة الحال لم تجب عبد الجليل سيف النصر إلى طلبه ، فانسحب عبد الجليل من معسكر وادي نقد وكان لانسحابه أثر بالغ في إضعاف روح المجاهدين المعنوية ، ثم تبعه أحمد المريض زعيم ترهونة فانسحب هو الآخر من وادي نقد وذهب إلى سرت ، وخرج من سرت بأسرته إلى جالو ، وهكذا وجد السيد صفي الدين بعد فترة من الزمن أنه لم يبق بدور المجاهدين في وادي نقد سوى أحمد السويحلي إلى جانبه . وكان ، إزاد الطين بلة أن فاجأ إبراهيم السويحلي الدور لمجرد النهب ولم يستطع السيد صفي الدين أو أحمد السويحلي (عم إبراهيم) فعل شيء لمنعه لأن إبراهيم يوصفه قائداً على قوات المجاهدين كان صاحب الكلمة المسووعة في الجيش وقائده الأعلى . فاضطر السيد صفي الدين وقد شاهد انحلال المقاومة ضد الطليان واستمرار هؤلاء في احتلال البلاد إلى الذهاب إلى جالو وبعث إلى السيد إدريس بالقطر المصري ينثب بكل ما وقع فأجابه السيد إدريس بأن له أن يختار إما البقاء في جالو وإما الذهاب إلى جغبوب ، وارتحل صفي الدين إلى الجغبوب في صفر ١٢٤٣ (سبتمبر ١٩٢٣) .

وكان بشير سعداوي طول هذه المدة يسمى من جانبه لجمع كلمة المجاهدين الطرابلسيين . فمقد عدة اجتماعات لتحقيق هذه الغاية في قرضائية ثم في قصر بوهادي واستطاع أن يؤسس مركزاً للجهاد في المكان الأخير ، وتسلم الحكم في سرت وجمع شتات المنزمن اللاجئيين إلى سرت وكانوا حوالي خمسين أو ستين ألفاً ، وثبت المجاهدون في مصراته وترهونة أقدامهم نتيجة لهذا العمل ولكن الطليان بقواتهم الجارية وطائراتهم استطاعوا القضاء على المقاومة رويداً رويداً ، ثم هاجموا في آخر الأمر ورقلة وعندئذ انحلت المقاومة تماماً واضطر بشير سعداوي إلى مغادرة سرت في عام ١٩٢٤ بعد أن مكث بها ستة تقريباً . وكان خروج السعداوي من البلاد ، وهو أشد المجاهدين الطرابلسيين تحمساً في هذه الآونة العصيبة ومن أعظمهم مثابرة على الجهاد ويتحلى برجاحة العقل والرزانة والهدوء ويتصف بالقدرة على النظر البعيد وتقليب وجوه الرأي في عواقب الأمور - تقول إن خروجه كان مؤذناً بأن الثورة ، قد انتهت فعلاً وأن الأمر قد استتب للطليان في طرابلس أخيراً وأن برقة وحدها هي التي أصبحت تحمل على عاتقها عبء الجهاد منفردة ضد العدو . وكان والي برقة الجديد بونجيوقاني قد بدأ يحل الأدوار

المختلفة في برقة عنوة واقتداراً وتم له ما أراد في الأسبوع الأول من شهر مارس ١٩٢٣ ،
فلت الحكومة في ٦ مارس أدوار الأييار وتكنس وسلطنة والنخيلي وعكرمة ، واتهم
بونجيواني فرصة افتتاح الدورة البرلمانية في اليوم نفسه فخطب خطبة طويلة ذكر فيها أن
السوسيين كانوا غير مخلصين للحكومة الإيطالية ثم أبلغ سامعيه فخرى التدابير التي وجد من
الضروري اتخاذها في سبيل المحافظة على احترام القوانين واستتباب النظام على حد قوله .
وكانت أولى هذه المظاهرات احتلال إجدائية ذاتها في ٢١ أبريل ١٩٢٣ وهي مقر الإمارة السنوسية ،
وفي يوم ٢٤ أبريل أعلن الوالي ، أن كل الاتفاقات التي أبرمتها إيطاليا مع السنوسية قد
أصبحت لاغية ولا أثر لها . وفي أول مايو من السنة نفسها عاد بونجيواني فأكد إلغاء
هذه الاتفاقات في منشور أعلن فيه ، أن السنوسية قد أصبحت مجرد طريقة تشبه غيرها من
الطرق الإسلامية وأن نشاطها يجب أن يظل نشاطاً دينياً محدوداً لحسب ، وفي يوم ٣ مايو
ذهب الدروقندي الوزير الإيطالي في مصر لمقابلة الأمير السيد إدريس وأبلغه أن الاتفاقات
التي عقدها إيطاليا مع سموه قد أصبحت لاغية ولا وجود لها ، ومن ذلك الحين بدأ النضال
من غير هوادة أولين بين المجاهدين والطلبان في برقة .

وكان المجاهدون منذ احتلال إجدائية قد انسحبوا إلى الجنوب ثم رابطوا في زاوية
القطوقية وجعلوا منها قاعدة لمناوشة الطليان في إجدائية وشرعوا يوسعون دائرة عملياتهم
حتى تشمل منطقة الجبل الأخضر بأكملها بقيادة السيد عمر المختار . ووجد المختار وقد
استؤنف الجهاد على نطاق واسع أن من واجبه الاتصال بالأمير السيد إدريس فوراً حتى
يطلع على ما وقع من حوادث وحتى يتلقى من سموه التعليمات المفصلة بصدد الجهاد ضد العدو ،
وعلى ذلك فقد قرر السيد عمر المختار الذهاب إلى مصر واستطاع اجتياز الحدود في منتصف
عام ١٩٢٣ ، ثم تمكن من مقابلة السيد إدريس (بمصر الجديدة) ولقى كل إعزاز وتكريم
فزار أهل البيت النبوي الكريم في القاهرة واستضافه صديقه القديم عبد الرحمن عزام ، فأقام
المختار في ضيافة العزام بحلوان مدة . وكان المختار عظيم الولاء للسنوسية وزعمائها وشيوخها .
وقد أظهر مبلغ ولائه العظيم لها في أثناء إقامته بمصر عندما حاول جماعة من قبيلة المنفة وهي
من قبيلة السيد عمر المختار ، وكانوا قد أقاموا بمصر ، أن يقابلوا السيد عمر للترحيب به .
فاستفسر المختار قبل أن يأذن لهم بذلك عما إذا كانوا قد سعوا لمقابلة الأمير عند حضوره
إلى مصر فلما أنجاب هؤلاء بالنفي معتذرين بأن أسباباً عائلية قهرية منعتهم من تأدية هذا
الواجب رفض المختار مقابلتهم قائلاً : وكيف تظهرون لي العناية وتحضرون لمقابلتي وأنتم
الذين تركتم شيخى الذى هو ولى نعمتى وسبب بخيرى . أما وقد فعلتم ذلك فإني لا أسمع .

لكم بمقابلتي ولا علاقة من الآن بيني وبينكم ، فما إن بلغ السيد إدريس ما فعله المختار مع الجماعة حتى أصدر إليه أمره بمقابلتهم فامثل المختار لأمره . وحدث عند خروج السيد عمر من القاهرة في طريقه إلى برقة لمواصلة الجهاد أن اجتمع به مشايخ قبيلته الموجودون بمصر من المتقدمين في السن وحاولوا أن يثنوه عن عزمه بدعوى أنه قد بلغ من الكبر عتياً وأن الراحة والهدوء ألزم له من أى شىء آخر وأن باستطاعة السنوسية أن تجد قائداً غيره لتزعم الثورة والجهاد في برقة ، فغضب المختار غضباً شديداً وكان جوابه قاطعاً فاصلاً فقال لمحدثيه : إن كل من يقول لى هذا الكلام لا يريد خيراً لى لأن ما أسير فيه إنما هو طريق خير ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عن سلوكها ، وكل من يحاول ذلك فهو عدولى ، وقد ظل المختار طوال سنوات الكفاح المريرة التالية ، على عهد وبتمسكا بولائه للسنوسية ويعمل لما فيه الخير لمصلحة الجهاد والمجاهدين في برقة ، وكان المختار يمتد اعتقاداً راسخاً أن هذا العمل إنما هو فرض يؤديه وواجب دى لا مناص منه ولا عجد عنه وكان لنشأة المختار في أحضان السنوسية وتحت رعايتها أعظم الأثر في ذلك .

فقد ولد السيد عمر من أبوين صالحين بالبطنان في دفنا حوالى عام ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢ ميلادية) ووالده السيد مختار بن عمر من قبيلة المنفة وينتسب إلى قبيلة بريدان المنفة من أسرة فرحات . وقد توفى الوالد في أثناء سيره إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وبصحبه زوجته الحاجة عائشة والدة المختار ، كما كان معه في هذا الحج الغريانى الشمسى والد الشارف الغريانى ، فأوصى الوالد رفيقه الغريانى الشمسى بولديه عمر ومحمد خيراً ، وكان ولداه يقمان وقتذاك بزور بدران بزوايتها ، ثم ما لبث عمر المختار أن ذهب إلى زاوية الجغبوب لإتمام دراسته فكث بها ثمانية أعوام ، وأظهر المختار من الصفات الخلقية السامية ما حجب فيه شيوخ السنوسية وزعماءها فتمتع بعطفهم ونال ثقتهم حتى أن السيد محمد المهدي السنوسى عند انتقاله من جغبوب إلى الكفرة (١٣١٢ هـ ، ١٨٩٥ م) اصطحب المختار معه . وفي عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧) عينه السيد المهدي شيخاً لزاوية القصور بالجبل الأخضر قريبا من المرج ، وكان يقطن هذه الزاوية وحولها قبيلة العبيد وهم أناس عرفوا بشدة المراس وقوة الشكيمة ، وقد اختاره السيد المهدي لهذه الزاوية حتى يسوس شئونهم باللين تارة وبالمنف تارة أخرى ، وبحق المختار ما عقده السيد المهدي على إدارته الحازمة من آمال . وعلى ذلك فإنه عند ما قرر السيد المهدي الانتقال إلى السودان الغربي في الظروف التي سبق ذكرها كان المختار في طليعة من ذهبوا إلى قرو وذلك حتى يسهم بنصيب وافز في النضال الذي نشب وقتذاك بين السنوسية والفرنسيين في المناطق الجنوبية وحول وادى .

وأقام المختار في قرو مدة من الزمن ، ثم عينه السيد المهدي شيخا لزاوية عين كلك فاستأجر المختار بالسودان الغربي وقتا طويلا نائبا عن السيد المهدي ويقوم بتعليم أبناء المسلمين ويديه بالإسلام في هذه الأصقاع النائية . وبعد وفاة السيد المهدي (١٣٢٠ هـ ، ١٩٠٢ م) استدعى المختار إلى برقة ثم عين في العام التالي شيخا لزاوية القصور مرة أخرى فبذل الهمة في خدمة قبيلة العبيد وسياسة شؤونها حتى سلس له قيادها ، وشكرت له الحكومة العثمانية هذا النجاح واستتاب الأمور في القصور لأن العبيد كانوا من أكبر القبائل عنادا ويعجز العثمانيون عن إخضاعهم لسطانهم ، فظل الحكام العثمانيون في برقة يلجئون إلى المختار حتى يساعدهم في جمع أموال العشور والضرائب ، وبقى المختار في زاوية القصور إلى أن نشبت الحرب الليبية الإيطالية فكان السيد عمر من أوائل أوائل الذين لبوا نداء الجهاد وحملوا لواءه .

وكان المختار وقت نزول الطليان في بنغازي بواحة جالو يقف إلى القصور مسرعا وخرجه بنجدة عظيمة من العبيد إلى مقر الجيش العثماني في الرجمة وكان معه الشيخ أحمد العيساوي شيخ زاوية بنغازي والشيخ محمد الأخضر العيساوي - من علماء برقة بالأزهر الشريف الأزهر وأحد أفاضل الكتاب الذين أرخوا للتوسمية - واتخذ المختار مقامه في دور بيته ، ثم اشتبك مع الطليان في معارك عدة فهاجمهم في بنغازي . ودأب على التنقل بين القصور وتكنس حتى احتل الطليان هذه الأماكن في سبتمبر ١٩١٣ . فقاد المختار المجاهدين في أدوار جبل العبيد وعمد إليه السيد إدريس بمهمات عدة ، واتخذ من منطقة دفنا مجالا لنشاطه الواسع بين قبائل منفه ومرم وشوار وحبون . وعندما اشترك السيد أحمد الشريف في غزو الحدود المصرية الغربية ووقعت المصادمات بين العرب والانجليز ، أسهم المختار في هذه العمليات العسكرية ، وبعد معارك بيروار وبوتونس لازم المختار السيد إدريس لتلقي أوامره ، وساء المختار أن يشكك الطليان عهدهم وينقضوا اتفاق الرجمة . وفي يونية ١٩٢٢ كان من أكبر الساعين في تأليف جبهة متحدة تضم البرقاويين والطرابلسيين من أجل النضال ضد إيطاليا ، ونظراً لمكانة السيد عمر المختار عند الأمير لم يسع الطليان على الرغم من نشاطه الملحوظ إلا أن يصدروا مرسوماً بتعيينه شيخاً على زاوية القصور في أغسطس من العام نفسه بناء على طلب الأمير ، وذلك تنفيذاً لما وصلوا إليه من اتفاقات مع السيد إدريس بصدد الزوايا السنوسية (منذ ١٦ أغسطس ١٩٢١) . وعند ما قرر السيد إدريس مبارحة برقة عهد بقيادة المجاهدين العليا إلى السيد عمر المختار ، فجعل المختار مقره في الجبل الأخضر من ذلك الحين إلى وقت وقوعه في قبضة الطليان بعد عشرة أعوام تقريبا وفي غضون عام ١٩٢٣ قصد المختار إلى مصر لمقابلة الأمير وتلقي أوامره .

وكان في أثناء هذه المقابلة أن تم الاتفاق بين الأمير والسيد عمر المختار على تفاصيل الخطة التي يجب أن يتبعها المجاهدون في نضالهم ضد الطليان على أساس إنشاء الأدوار واختيار الرؤساء الصالحين لقيادة المجاهدين في كل دور من هذه الأدوار في الجبل الأخضر، وأن تظل القيادة العليا من نصيب المختار نفسه وزوده الأمير بكتاب في هذا المعنى إلى السيد محمد الرضا. وعلاوة على ذلك فقد تم الاتفاق بين الأمير والمختار على أن يبقى السيد إدريس بالقطر المصري حيث يبذل قصارى جهده مع السلطات المحلية لتعطيل مساعي الطليان الذين أرادوا أن يحمّلوا الحكومتين المصرية والانجليزية على منع المجاهدين من الالتجاء إلى مصر ومنع الإمدادات والمساعدات عن العرب في برقة.

وكانت مهمة السيد إدريس إلى جانب إمداد المجاهدين بكل المساعدات الممكنة في مصر أن يرسل تباعا الإرشادات والتعليمات اللازمة إلى المختار في الجبل الأخضر، ثم اتفق الأمير مع المختار على أن ينقل الحاج التواتي البرعصي تعليمات الأمير إلى السيد عمر. وما إن تزود المختار بهذه التعليمات حتى غادر القاهرة؛ وعند وصوله إلى السلموم وجد بعض الرفاق في انتظاره فأخذ الجميع حاجتهم من المؤن الكافية لرحلتهم المزمعة إلى الجبل الأخضر وغادروا السلموم إلى برقة.

وقد حدث في أثناء وجود المختار في مصر أن اشتبك الطليان في معركتين كبيرتين مع المجاهدين في بير بلال والبريقة في ذي القعدة ١٣٤١ (يولية ١٩٢٣). وتفصيل ذلك أن الطليان الذين ضجروا من مناورات المجاهدين لهم عولوا على الانتقام من السنوسية ومن العرب فجهزوا حملة عسكرية من خمسة آلاف مقاتل زودهم بمختلف أدوات الحرب الحديثة ويشد أزهم حوالي مائة من السيارات المصفحة وغيرها، وانطلق الطليان يطلبون منازل المجاهدين فالتقى الفريقان عند بير بلال ووقعت بين الفريقين معركة شديدة تمكن المجاهدون في أثناءها بقيادة قجة عبد الله السوداني من أن يحطموا القوة الإيطالية ولو أنهم تكبدوا خسارة فادحة عندما استشهد في هذه الموقعة بعض رجالهم المرزوقين كالمهدي الحرثة والشيخ نصر الأعمى؛ وقد حضر هذه المعركة كذلك صالح الإطيوش والفضيل المشهش وتحمل الفضيل نفقات المجاهدين في هذه المعركة وفي المعركة التالية التي وقعت بعد الأولى بأربعة أيام فقط. وكان سبب الالتحام في المعركة الثانية أنه بلغ المجاهدين أن قوة إيطالية أخرى كانت ما تزال في طريق الساحل فحتم المجاهدون سراعا لمقابلتها واشتبكوا معها في قتال عنيف عند مرمى البريقة، ودارت رحى الحرب واستطاع العرب أن يوقعوا بالطليان مقتلة

عظيمة لأنه كان من المتعذر على السيارات الحركة السريعة بسبب طبيعة الأرض ، فعمل المجاهدون عجلات السيارات وظلوا يذقون بالطليان المنهزمين إلى الماء وراءهم فيسقط من نجا من هؤلاء في البحر وتبتلعه أمواجه حتى جامت إحدى السفن الإيطالية وأنقذت البقية الباقية منهم . واستشهد من العرب في هذه المعركة إبراهيم الفيل أحد أبطالهم ورجع المجاهدون بغنائمهم إلى معسكرهم حول زاوية القطوفية ، وكان بعد هذه المعارك أن وصل السيد عمر المختار إلى القطوفية .

ولم تكن رحلة المختار من السلوم إلى برقة خالية من كل حادث ، ذلك بأن جواسيس الطليان مرعان ما طيروا الخبر إلى رؤسائهم أن المختار قد اجتاز الحدود الشرقية فأعد الطليان ثلاث سيارات مصفحة كمنت للسيد عمر وصحبه في جهة بير الغبي ، وكان غرضهم القبض على المختار وأسرهم ، فما إن ظهر المختار ورفاقه حتى أمطروهم العدو وابلا من رصاص مدافعهم الرشاشة ، ولكن المختار صمد لهم ، واهتم المجاهدون بإصابة عجلات السيارات فكان لهم ما أرادوا وعندئذ انقضوا على القوة الإيطالية بهذه السيارات فأبادوا أفرادها عن آخرهم ، وكانت هذه الهزيمة الساحقة كافية لأن تلتقي الرعب في قلوب الطليان فاستطاع السيد عمر وصحبه أن يتابعوا سيرهم بعد ذلك ، على مرأى ومسمع من الإيطاليين الذين لم يجرؤوا على تعقبهم مرة أخرى حتى بلغوا الجبل الأخضر ، وقابلهم عند وصولهم إلى زاوية القطوفية - مكان دور المغاربة - صالح الأطيوش والعضيل المشهش ، ووقف المختار على تفاصيل واقعة البريقة وحال المجاهدين في الدور ثم غادر المكان إلى جالو مقر السيد محمد الرضا ليبلغه التعليمات التي تلقاها في القاهرة من السيد إدريس .

وأبلغ المختار السيد الرضا تعليمات الأمير واتفق الاثنان بناء على ما جاء في هذه التعليمات على تنظيم الجهاد وإنشاء الأدوار في الجبل الأخضر . وكانت المقاومة حتى ذلك الوقت لا تتعدى البرقتين : برقة الحمراء وبرقة البيضاء ابتداء من إقليم بنغازي في الشمال إلى حدود سرت في الجنوب . فقرر الرأي على أن يعود المختار إلى أدوار برقة فيأخذ منها مفرزة كي يبعث بها إلى الجبل الأخضر نواة للمقاومة في هذه الجهات ، وعلاوة على ذلك فقد أعطاه السيد الرضا بوصفه نائبا عن السيد إدريس الأوامر اللازمة لأدوار المغاربة في برقة وللمجاهدين في الجبل تطلب منهم الانضمام إلى الجيش المزمع إنشاؤه في الجبل الأخضر وتشكيل الأدوار المختلفة وتعيين رؤساء هذه الأدوار والانضواء تحت لواء المختار نفسه ، ثم إمداد السيد عمر بالمؤن والعتاد لمواصلة الجهاد في الجبل . واقترح المختار على السيد الرضا أن يرسل ابنه السيد الصديق إلى دور المغاربة عند صالح الأطيوش ودور العواقير بقيادة قجة - وهي أدوار

قرية من بعضها بعضا ، ثم غادر السيد عمر جالو إلى برقة وأعد المفرزة المرسله إلى الجبل الأخضر وعين قائدا عليها مختار محمد ابن أخيه . وعند وصول المفرزة إلى الجبل الأخضر اتصل مختار محمد بالعرب في جهة الجبل فانضم المجاهدون إلى المفرزة وأمدوا الأهلون بالمؤن ثم تشكلت الأديوار وكانت ثلاثة : أديوار البراعة والعييد والحاسة . وعين السيد عمر بناء على تعليمات السيد إدريس ثم تفويض السيد الرضا رؤساء هذه الأديوار ، فاختار السيد حسين الجويني لدور البراعة والسيد يوسف بورجيل المصمري لدور العييد والسيد الفضيل بو عمر لدور الحاسة . وأما القائد الأعلى لهذه الأديوار جميعا فكان السيد عمر المختار نفسه . وبدأ من ثم ذلك الجهاد الطويل الذي استمر متصلا ومن غير هوادة حوالي ثمانية أعوام .

وبدأ النضال في عامي ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ بوقوع معارك ومناوشات عدة ، ووسع المجاهدون دائرة نشاطهم العسكري في الجبل الأخضر حتى خف ضغط الطليان على إخوانهم في أديوار البرقين ولمع اسم السيد عمر وسطع نجمه كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر ويستمتع بثقوة عظيم وأخذ العرب من أهل القبائل القاطنة في الجبل ينضمون إلى صفوف المحاربين ، وفضلا عن ذلك فقد بادر الأهلون من غير المحاربين بإمداد إخوانهم بما يحتاجونه من مؤن وعتاد وأسلحة ، وكان لقبائل العييد والبراعة والحاسة والدرسة والعواقير أكبر نصيب في هذه العمليات العسكرية ، ولم يكن في استطاعة الطليان في هذه المرحلة من الجهاد أن يقوموا بنشاط حربي ملحوظ في منطقة الجبل الأخضر فقصروا جهودهم على تدبير احتلال ذلك المركز السنوسي العتيدي في الجنوب والذي ظل طوال الأعوام الماضية بيد المجاهدين بالمؤن والذخائر ونعني به واحة الجغبوب .

فقد أدرك الطليان أهمية هذه الواحة من زمن طويل لأنها كانت أحد مراكز السنوسية الكبيرة التي بدأ منها انتشار السنوسية في برقة والأقطار المجاورة ، وبها ضريح السيد محمد ابن علي السنوسي الكبير مؤسس السنوسية . أضف إلى هذا أنه كان للجغبوب قيمة اقتصادية عظيمة ، إذ احتلت الواحة مركزاً وسطاً بين مصر وبرقة ثم بين السودان والصحراء الوسطى فكانت تأتيا القوافل من كل جانب ، وعلاوة على ذلك فإن الجغبوب من الناحية (الاستراتيجية) تعد مدخلا هاما من مداخل برقة ويستطيع السنوسيون أن يشرفوا منها على أعمال الجهاد وأن يتدوا قوات المجاهدين بما يحتاجونه من تجهيزات ومؤن ، ولذلك قرر الطليان الاستيلاء عليها . ولكنه لما كانت الجغبوب من الأراضي المصرية فقد بات يعتبر القيام بأية عمليات عسكرية ضدها اعتداء صريحا على حكومة مصر وهي دولة صديقة فعمد الطليان إلى تذليل هذه العقبة وأخذوا يبذلون نشاطا كبيرا سوف يأتي ذكره في حينه ، في

لندن والقاهرة معاً لعرض مسألة الحدود المصرية البرقاوية على بساط البحث ، وأسفرت مساعيهم في هذا السبيل عن إبرام (اتفاق الجغبوب) بين إيطاليا ومصر بالقاهرة في ٦ ديسمبر ١٩٢٥ ، وبفضل هذا الاتفاق أدخلت الجغبوب ضمن الحدود البرقاوية وبدأ الطليان بعد ذلك مباشرة يتخذون العدة لاحتلال هذه الواحة .

وكان يقيم بالجغبوب وقتذاك جماعة كبيرة من السنوسيين على رأسهم السيد صني الدين الذي ارتحل إليها من جالو في صفر ١٣٤٣ (سبتمبر ١٩٢٤) في الظروف التي سبق ذكرها وكانت الحكومة المصرية قد أجازت للسيد صني الدين أن يقيم بهذه الواحة فبعث إليه على عبد الوهاب بك مأمور سيوه بخطاب وافق فيه على بقاءه بالجغبوب ما دام لا توجد معه قوة حربية ، فأقام السيد صني الدين بالواحة حتى شهر رمضان من عام ١٣٤٣ (إبريل ١٩٢٥) وعندما بدأت المفاوضات من أجل تسوية مسألة الحدود حذر الإخوان السنوسيون في سيوه السيد صني الدين من أن تسليم الجغبوب للطليان بات قريباً وأن من الخير له أن يرتحل عنها فبارح صني الدين الجغبوب وقصد إلى سيوه ولكنه ما لبث أن قابل عند حطية قرية قوة من المهجاة السودانية المصرية منعت من دخول سيوه ، وأذنت الحكومة المصرية بدخول النساء والأطفال فحسب ، فاضطر السيد صني الدين ومن معه من أعضاء البيت السنوسي ، السادة إبراهيم السنوسي ومحيي الدين ومحمد الصديق وحسن الرضا إلى العودة إلى الجغبوب فأقاموا جميعاً بها إلى وقت إبرام الاتفاق النهائي بين مصر وإيطاليا . وعندئذ بلغ السيد صني الدين ما يفيد أن الجغبوب قد سلت فعلاً إلى إيطاليا ، ثم أشير عليه بأن يجتاز الحدود المصرية ، فارتحل إلى سيوه . وأما السيد الصديق والسيد الحسن ولدا السيد الرضا فقد عادا إلى جالو ثم ذهب الصديق إلى أدوار المغاربة في برقة تنفيذاً لاتفاق السيد عمر المختار مع السيد محمد الرضا ، فزل الصديق مع صالح الأطيوش وعبد الحميد العبار وقبة عبد الله السوداني ومحمد يوهدهمه والفضيل المشمش . وأما السيد حسن الرضا فقد اصططحبه معه السيد عمر المختار عند وصوله من جالو إلى دور المغاربة .

أما الطليان فقد أعدوا حملة عسكرية كبيرة تتألف من ألفين من الجنود وفصائل من السيارات المسلحة بمدافع الرشاشة بلغ عددها ثمانية ، وهذا عدا ست سيارات مضفحة وثلاثمائة وخمسين سيارة أخرى لنقل المؤن والمهمات وانطلقت اثنتا عشر طائرة لمعاونة الحملة التي تسلم قيادتها العامة الكولونيل رونشي . وكانت هذه ولاشك تجهيزات عظيمة ، غير أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك كله لأن الشيخ حسين المراكشي شيخ زاوية الجغبوب لم يلبث أن تركها قاصداً إلى سيوه بمجرد أن علم بزحف الطليان على الواحة ، إذ لم يكن لديه

قوات ما لمقاومتهم . وعلى ذلك دخل اطييان الجغبوب دون مقاومة فاحتلوها في ٨ فبراير ١٩٢٦ وعينوا الشارف الغرياني حارسا على زاويتها ، ثم عول الطييان على منع الشيخ حسين المراكشي من الوصول إلى سيوة ، فاستطاعت طائراتهم أن ترشد عن المكان الذي بلغه الشيخ في طريقه إلى سيوة وتعقبته قوة من الهجاة تمكنت من إرجاعه إلى جغبوب ، ولم ينقذ الشيخ حسين من تشكيل الطييان به سوى توسط الشارف الغرياني ، وفي مارس من العام نفسه زار الوالي الجديد أرنتو موبيلي واحة الجغبوب .

ولا جدال في أن سقوط الجغبوب في أيدي الطييان قد أضعف السنوسيين عموما ، ولو أنه مما يجدر ذكره أن هذه الواحة كمرکز لإرسال الإمدادات منه إلى المجاهدين والإشراف على العمليات العسكرية كانت قد بدأت تفقد كثيرا من أهميتها السابقة من أواخر العام الماضي (١٩٢٥) فلم يتأثر بضياعها موقف المجاهدين في الجبل الأخضر وفي البرقين بدرجة ملحوظة بل إن الطييان على الرغم من الجهود التي بذلوها لم يستطيعوا خلال العمليات التالية سوى احتلال جردس جراري وخولان . ومنع المجاهدون كل اتصال بين المستعمرتين برقة وطرابلس وبات ضروريا أن تعمل الحكومة لإعادة هذا الاتصال بينهما وذلك باحتلال منطقة سرت . واضطرت وزارة المستعمرات في رومة إلى التفكير جديا في بدء العمليات العسكرية في هذه المنطقة من أواخر العام السابق . وفي أكتوبر ١٩٢٦ أصدرت أوامرها باتخاذ التدابير اللازمة لبدء العمليات العسكرية من أجل احتلال منطقة سرت بأكملها من الساحل شمالا إلى واحات سوكنه وزله ومرادة وأرجله وجالو جنوبا ، ثم حارل الطييان في الوقت نفسه أن يذروا بذور الشقاق بين المجاهدين حتى يضعفوا من قوتهم على أمل أن تنحل الأدوار . لأنهم كانوا يتوقعون تعذر إعادة تشكيل هذه الأدوار إذا ذهب المجاهدون إلى نواجعهم ، وخيل لهم للطييان أن باستطاعتهم أن يستميلوا إليهم السيد عمر المختار نفسه إذا هم عرضوا عليه عرضاً سخية وحارلوا أن يكافئوه بمبالغ من المال طائلة أو أن يمنوه بالجاه العريض في ظل حياة رغدة ناعمة .

وعندما تبين لهم أن لا جدوى من هذه المحاولات ولا ثمرة لها ، شرعوا يبدلون الوعود لقياتل الحاسة والعييدات والدرسة والعييد والعرفة والبراعة ، ولكنهم أخفقوا في ذلك أيضاً ، فعمدوا إلى أساليب أخرى ملؤها الوعيد والتهديد وأسقطت طائراتهم البلاغات المتعددة على أدوار المجاهدين تحمل في طياتها التهديد بإنزال العقوبة الصارمة بالمحاربين والانتقام منهم ، ثم صاروا يرسلون الرسل إلى الأدوار مزودين بهذه البلاغات والإنذارات ، وكان من هؤلاء الرسل عبد النبي القبائلي الذي أوفده الطييان في أكتوبر ١٩٢٦ إلى قبيلة العييدات

بكتاب ينذر بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا ظل العبيدات لا يثقون بوعود الإيطاليين ويستمعون إلى كلام السيد عمر المختار ، وأهل الطليان العبيدات سبعة أيام بتامها حتى يتدبروا الأمر ويصلوا إلى رأى قاطع بشأن التسليم إلى الحكومة ، ثم وعد الطليان بالامتناع عن مهاجمة العبيدات في أثناء هذه المدة . ولكن العبيدات مثلهم في ذلك مثل سائر قبائل المجاهدين لم يأبوا بهذه التهديدات ، بل إنهم ذكروا في جوابهم للطليان أنهم على استعداد دائماً لمقاومة العدو إذا أصر الطليان على اغتصاب حقوقهم وأنهم لا يقبلون السلم إلا إذا أظهر هؤلاء رغبة صادقة في أن يبسط السلام رواقه على ربوع الجبل وبرقة . وعندما ثبت لدى الطليان أنه لا أمل هناك في استمالة العبيدات إليهم ، هاجمهم على حين غرة قبل انقضاء المهلة التي أخذوا على أنفسهم العهد باحترامها . فقابلهم العبيدات بجهنم ثابت ، ثم ما لبثت أن دارت الدائرة على الغادرين فارتد الطليان على أعقابهم بعد أن أصيبوا بخسارة فادحة .

وعندما عين أتيلوتيروتزى والياً على برقة خلفاً لارنستو مونيللى في ديسمبر ١٩٢٦ تجددت تعليمات وزارة المستعمرات الإيطالية بشأن إخضاع المغاربة واحتلال سرت ثم الواحات الداخية التي سبق ذكرها : سوكنه وزله ومراده وأوجله وجالو فكان من رأى والى برقة الجديد أن إخضاع المغاربة واحتلال هذه الواحات أمران منفصلان ، وأنه لا بد من الوصول إلى حل مشكلة إخضاع المغاربة أولاً حتى يتيسر حل المشكلة الثانية ، أى احتلال الواحات الداخية . وكان تيروتزى منذ وصوله إلى بنغازى (٢ ديسمبر) قد بدأ يدرس الموقف في برقة بعناية كاملة . ولم يكن تيروتزى جديداً على هذه البلاد فقد سبق أن خدم بها عندما كان أحد ضباط الاحتلال الإيطالى في درنة حتى عام ١٩٢٠ ، ووصل تيروتزى من دراسة الموقف إلى آراء معينة بشأن الحطة التي يجب عليه اتباعها ، وأهمها أن الاحتلال الإيطالى لم يكن موطداً في البلاد وعلى وجه الخصوص في منطقة الجبل الأخضر ، وأنه من العبث الاعتماد على معاونة الأهلى للسلطات المحلية ، ولو أنه من مصلحة هذه السلطات أن تتغاضى عما يفعله أولئك الذين كانوا يظهرون لها الولاء والإخلاص من أهل البلاد ثم يبذلون كل ما وسعهم من جهد وحيوة في الوقت نفسه لمساعدة مواطنيهم الذين يقومون بأعباء الجهاد ضد إيطاليا . وفضلاً عن ذلك فقد رأى من الضرورى أن يتم تعزيز اجداية ذاتها باستلال المراكز الواقعة حولها قبل بدء العمليات العسكرية الكبيرة .

واهتم تيروتزى بالخدم من نشاط المجاهدين بكل سرعة فأصدر أوامره إلى قائد الجند (شبي) باتخاذ الاستعدادات اللازمة للاشتباك مع العرب في الجبل في أقرب وقت ثم احتلال المراكز الصغيرة حول اجداية ، فأسفر نشاط الطليان عن احتلال مسوس في ١٦ مارس ١٩٢٧

ثم سوانو بعد يومين وأخيراً جوف المطر في يوم ٢٧ مارس، وكان لاحتلال سوانو وجوف المطر وقع سيء في نفوس المجاهدين لوجود المياه الكثيرة بهما . وعلاوة على ذلك فقد توقع المجاهدون أن يعتمد الطليان بعد ذلك الى احتلال واحات جالو وأوجله واعتقدوا أن هذا النشاط الجديد لم يكن سوى مقدمة لعمليات أخرى واسعة الغرض منها احتلال البلاد بأكملها رويداً رويداً . وعلى ذلك قرأى المجاهدين على أن يقابلوا هذا النشاط الإيطالي بمثله واستطاعوا أن يوقعوا بالطليان هزيمة بالغة في معركة الرجبية المشهورة وتكبد الطليان الذين اشتركوا في هذه المعركة بأعداد عظيمة خسائر فادحة ، فكان من أثر ذلك أن أوقفت العمليات العسكرية في الجبل الأخضر مدة شهر تقريباً ، ثم عزل (شي) من القيادة وتولاها الجنرال متزى ، وعول الطليان على الانتقام لهذه الهزيمة التي لحقت بهم فقدر لهم الفوز على المجاهدين في معركة قبر الظاهر في يومى ٢٧ ، ٢٨ إبريل ١٩٢٧ . وكان السبب في هذا الفوز اشتراك عدد كبير من الطائرات الإيطالية في المعركة . ومع ذلك فقد استمرت المعارك بين الفريقين في الجبل الأخضر في منطقة وادى الكرف بين يومى ٢ ، ١١ مايو . ثم قرر نشاط الطليان بعد ذلك استعداداً لبدء العمليات العسكرية الواسعة بعد إنجاز التدابير اللازمة .

ولم تقنع حكومة رومة بهذه الانتصارات، الأولى فاقترحت على تيروتزى مرة أخرى أن يبدأ العمليات العسكرية ضد المغاربة فوراً ولاحتلال الواحات ، ولكن تيروتزى سرعان ما وجد أنه من المتعذر عليه أن يبدأ أية عمليات عسكرية واسعة النطاق ضد المغاربة وضد الواحات في وقت واحد ، ولذلك قرأه على محاولة استمالة المغاربة بالتسليم بالطرق الدبلوماسية بدلاً من إرسال الحملات ضدهم وأن يقصر نشاطه العسكرى ضد المجاهدين على الاشتباك مع السيد عمر المختار في الجبل الأخضر حتى إذا تمكن من إضعاف مقاومة المغاربة في منطقة سرت واحتل مراكز المجاهدين في القطوفية وغيرها وكان الطليان في الوقت نفسه قد كسروا من حدة المقاومة في الجبل الأخضر ، تهيأت بفضل ذلك الأسباب التي تمكن تيروتزى من إرسال الحملات العسكرية الكبيرة لاحتلال الواحات الجنوبية في جالو وأوجله وجنزة ومرادة وغيرها . وعلى ذلك بدأت محاولتان منفصلتان من أواسط شهر مايو تقريباً إحداهما كانت محاولة سياسية الغرض منها إقناع المغاربة بالاستسلام للحكومة طوعاً ، والأخرى محاولة عسكرية الغرض منها إخماد المقاومة في الجبل الأخضر ، وسارت هاتان المحاولتان جنباً إلى جنب وفي وقت واحد .

وكان تيروتزى قد مهد للحملة السياسية ضد المغاربة بافتتاح سوق بإجدابية لإنشاء العلاقات التجارية مع المغاربة . وفي فبراير ١٩٢٧ فوض تيروتزى الشارف الغرياني أن يتصل

بعض رؤساء المغاربة الشماخ والعواقير بصفته الشخصية حتى ينصحهم بترك الحرب والتسليم إلى الحكومة بدعوى أن الوالي الجديد رجل ذو ميل واضح للصلح ويقبل تسليمهم إذا تبين له صدقهم وإخلاصهم ولو أنه لا ينجح في الوقت نفسه عن استخدام كل ماله من قوة وبأس إذا دعت الحال لذلك . ثم أرسل تيروتزي مع الوفد الذي أرسله لمقابلة المغاربة والعواقير ابنة الشيخ عبدالسلام الكزة ، وهو من كبار مشايخ العواقير ، وكانت ابنته قد وقعت في أسر الطليان في إحدى الممراك السابقة . غير أن تيروتزي لم يكن موفقا في اتخاذ هذه الخطوة لأن مجيء ابنة الشيخ عبدالسلام الكزة مع الوفد أثارت شكوك الأتوار (المعسكرات) من ناحية الكزة واعتقد رجالها أن الكزة على صلة بالوالي والقائد الإيطاليين ، وأسرع فجة عبدالله السوداني فسجن أحد أفراد عائلة الكزة ولم يطلق سراحه إلا بعد توسط الشيخ عبدالسلام وشيوخ آخرون . وفي الحديث الذي دار بين الشارف الغرياني وعبدالسلام الكزة وقد فوضه المجاهدون في الحديث بلسانهم — أظهر الشيخ عبدالسلام استعداد المغاربة وسائر القبائل للصلح مع إيطاليا وإنما على شريطة أن تبدأ إيطاليا المفاوضات أولا مع رؤساء السنوسية وزعمائها لأن جميع القبائل تربطها بالسنوسية شعور الولاء الصادق العميق .

وعندما أطلع الغرياني السلطات المحلية على نتيجة المفاوضات كلفه تيروتزي أن يبدأ محاولاته التالية بإنشاء صلات تجارية مع المغاربة . وكان تيروتزي يرجو أن تهد هذه الصلات لاستمالة المغاربة أو على الأقل استمالة فريق منهم إلى قبول التسليم لإيطاليا والانفصال عن سائر المجاهدين وعلى ذلك غادر الغرياني بنغازي إلى اجداية في يوم ١٢ مايو ، وصحبه في هذه المرة القومندان أولمي مكانا الإشراف على جهود الغرياني من قبل الحكومة وحتى يكون حلقة الاتصال بين الرؤساء العرب والسلطات الحكومية الرسمية . وأعد الغرياني رسالة إلى المغاربة يحضهم فيها على التسليم وإنهاء خلافاتهم مع الحكومة منعا لما قد يصيب الوطن من أضرار لا يجده الغرياني مقرا من وقوعها لأنه كان يعلم علم اليقين — على حد قوله — أن الحكومة مازالت جادة في استعداداتها الكبيرة لإنحاد المقاومة . وابتكر الغرياني وسيلة لإيصال رسالته إلى دور المجاهدين ، وبعد مشقة تمكن رسله من إيصال هذه الرسالة إلى الشيخ عبدالسلام الكزة فبحث زعماء المجاهدين محتوياتها ثم بعثوا إلى الشارف بخطاب ينبشونه فيه موافقتهم على الاجتماع به . ويقول تيروتزي إنه عندما كلف الشارف الغرياني مقابلة المجاهدين أمره بأن يوضح لهم ضرورة الابتعاد عن السنوسية لأن تدخل السنوسية لن يؤثر شيئا في خطة الحكومة نحو أهل البلاد ومشايخها ، بل على العكس من ذلك فإنه يحتمل كثيرا أن يؤدي هذا التدخل إلى عرقلة ما يبذل من جهود في سبيل إعادة السلام والهدوء إلى برقة .

وانتقل الشارف للاجتماع بالمجاهدين إلى بير جديد في ٨ يونية ١٩٢٧ ، - ويعد بير جديد حوالي عشرة كيلومترات إلى الجنوب من اجدايه ، وحضر كثيرون من مشايخ المغاربة وفي مقدمتهم الشيخ محمد الحرنة ومشايخ العواقر ومنهم عبدالسلام الكزة ، ومن البراعصة ومنهم بوشديق بومازق ؛ ولم يحضر هذا الاجتماع الزعماء السنوسيون في أدوار المغاربة وخصوصا السيد الصديق . وكان غرض هؤلاء الرؤساء أن يستطيعوا إقناع الحكومة بأن تمكنهم من استخدام آبار سارنو وجوف المطر التي احتلها الطليان ، فأظهروا رغبتهم في السلام واستعدادهم لعدم الإتيان بشيء من شأنه أن يكدر خواطر الحكومة ، وأظهروا علاوة على ذلك تقديرهم لعمل الحكومة التي أذنت بافتتاح مسوق إجداية . وأكد لهم الشارف الغرياني حسن نوايا الحكومة ، ولكنه ذكر لهم في الوقت نفسه أن تسليمهم لها يجب أن يكون تسليما مطلقا دون قيد أو شرط وعلى أساس تسليم أسلحتهم للسلطات المحمية كذلك .

وعندئذ انبرى الشيخ بوشديق بومازق بعد أن سلم الشارف رسالة من السيد الصديق ، يتكلم عن رغبة الأهالي جميعا في أن تبادر الحكومة بالاعتراف بالسنوسية في شخص نائبها في الأدوار السيد محمد الصديق ولما كان هذا يتعارض مع التعليمات التي أعطاها تيروتزي . الشارف فقد اعتذر الشارف عن تقديم هذا الطلب الأخير إلى الوالي لأن عدم تدخل السنوسية في المفاوضات كان على حد قوله أمرا مفروغا منه . فأعد الرؤساء مضبطة ، ضمنوها مطالبهم وأمانتهم وقوضوا عبد السلام الكزة والشيخ جلقاف أبو شلبي في الحديث مع الحكومة وطلبوا الاجتماع بمندوبها أولى في بير جديد ، وأصر الكزة على عدم الدخول في أية مفاوضة مع الطليان إلا إذا أوقف هؤلاء نشاطهم العسكري في الجبل الأخضر ؛ ثم أيد البراعصة الشيخ عبدالسلام في موقفه ، وحاول صالح الأطيوش أن يتصل بالجنرال مترقي لإقناع الحكومة بضرورة إجابة مطالب المجاهدين . ولكن تيروتزي أصر على أن يحضر الشارف الغرياني وحده الاجتماع التالي (في ١١ يولية) في بير جديد .

وأثار عدم حضور أولى مندوب الحكومة هذا الاجتماع الجديد غضب المغاربة ، فأعد هؤلاء مضبطة ، بمطالبهم جاء فيها ، في هذا اليوم - ١٢ محرم ١٣٤٦ (١١ يولية ١٩٢٧) - قدم الشارف الغرياني إلى بير جديد واجتمع بالمندوبين المرسلين من برقة البيضاء وبرقة الجراء من أجل المفاوضة في المسائل المؤدية إلى تحسين العلاقات مع الحكومة ؛ وقد قرأ رأى المندوبين بعد مباحثات طويلة على تقديم عدة طلبات ، أهمها وقف القتال في برقة وفي الجبل الأخضر والزام الحكومة باتباع خطة واحدة ، فلا تبقى الحرب دائرة في الجبل بينما تبذل

المساعي في منطقة سرت لاستمالة المجاهدين إلى التسليم ، ثم تمتع جميع الأفراد الذين لا يحملون « ترخيصا » من الشيخ المكلف بإعطاء هذه « الترخيصات » من دخول سوق إجدابية ؛ وعلاوة على ذلك فإن من واجب الحكومة أن تسعى لجلب المناجر الكثيرة إلى سوق إجدابية وأن تعنى من يريدون التجارة في هذه السوق من الضريبة . وطلب الموقعون على « المضبطة » أن يستمر العمل بهذه الشروط مدة ثلاثة شهور يتم في أثناءها إبرام الصلح بين الفريقين . ووقع على « المضبطة » ستة من مشايخ المغاربة الشماخ كما وقع عليها الشيخ عبدالسلام الكزة وبوشديق بومازق .

ولما كان أولى قد أبلغ خبر هذه « المضبطة » وقت إعدادها ، فإنه سرعان ما بادر بإرسال رده عليها قبل أن تصله ، وفي هذا الرد أغفل أولى الإشارة إلى عبد السلام الكزة وبوشديق بومازق لأنه اعتبرهما « أجنبيا » عن هذه المنطقة . وكان رد أولى يحمل رفضا باتا لمطالب المغاربة الشماخ . وجاء هذا الرد إلى بيرجديد بعد سفر الشارف بالمضبطة بساعات قليلة فقط ، فكان له أسوأ الأثر في نفوس العرب ؛ وانفرد المغاربة الشماخ وخدمهم في إظهار رغبتهم على الرغم مما حدث من عدم قطع علاقاتهم مع الحكومة (٢٠ يولية) . غير أن موقف المغاربة الشماخ هذا كان كافيا لأن يقنع تيروتزي بأن يبدأ فوراً تنفيذ خطوته التالية ، فأمر بإرسال قوة بسيطة نزلت في الزويتينة وتطارت الشامتات بأن قوات أخرى عظيمة سوف تأتي في أعقابها ، وأن الطليان يعتمون القيام من غير إهمال بعمليات عسكرية لا تقل في خطورتها عن عملياتهم في الجبل الأخضر . وحدث على أثر ذلك مباشرة أن سلم بعض الأهالي من المغاربة أنفسهم مع أسلحتهم للسلطات الإيطالية في قينس وسلوق ، وفي آخر أغسطس ١٩٢٧ حضر إلى إجدابية ثلاثة عشر شيخا من المغاربة الشماخ وعلى رأسهم الشيخ محمد الحرنة ؛ وقدمهم الشارف الغرياني وأولى إلى قائد المنطقة الإيطالي . وبتسليم المغاربة الشماخ يكون الشارف وأولى قد نجحا في مهمتهما .

وقد تبع تسليم المغاربة الشماخ أن جماعة العواقر الذين ظلوا حتى هذا الوقت خارجين عن نفوذ الحكومة ما لبثوا أن قدموا خضوعهم في اليوم نفسه . وكان من بينهم محمد بن إبراهيم المصراقي ، وفي أول سبتمبر أكد المغاربة الشماخ استسلامهم عندما عقد اجتماع في إجدابية حضره حوالي ثلاثين شيخا منهم كان من بينهم محمد الحرنة وسعيد بن يونس الشلي . وسالم بوباسل ومنصور نشأت وزروق بن الخطاب وفرج الهقش بوبكوشيه وعبد السلام رجعه وموسى رجي . ومع ذلك فقد ظهر من أحاديثهم أنهم مازالوا على الرغم من تسليمهم يعترفون بما كان للسنوسية عليهم من نفوذ وروحى عظيم وحاولوا إقناع المندوبين الطليان

بضرورة استمالة السيد الصديق . وفي ٨ سبتمبر حضر أكثر مشايخ المغاربة الشماخ إلى بنغازي لمقابلة الوالي ، واشترط تيروتزي قبل مقابلتهم أن يسدوا أسلحتهم محافظة على استقرار الأمن بالبلاد وأن يعودوا مباشرة إلى قبائلهم لتطمين هذه القبائل من ناحية عمليات الحكومة العسكرية على أن يبقى بعض المشايخ في إجداية كمشائرين للحكومة من واجبه أن يرافقوا مثلها في غدوم ورواحهم بين مختلف القبائل . وزيادة على ذلك فقد اشترط عليهم الوالي أن يبقوا مواشيهم في المراعي الكائنة في شمال إجداية . وأما مشايخ العواقر فقد قبلوا شروطا أقصى من هذه .

وقد مهد تسليم المغاربة الشماخ للطليان أن يحتل هؤلاء المراكز التي ظلت خارجة عن سلطان الحكومة في منطقتهم فاحتلت القوات الإيطالية القطرانية دون مقاومة في ٢٤ سبتمبر واستطاعت المرور بسلام في أرض المغاربة حتى وصلت إلى العقية ، فاحتلتها كذلك في ٢٩ سبتمبر ، واضطر السيد الصديق إلى محاولة تأسيس دور جديد جنوب وادي الفارغ . وكان يبدو أن محاولة الصديق هذه محاولة شاقة عسيرة ، حتى أن أولي بعد عودته مع الشارف ألفرياني من إجداية إلى بنغازي في ١٢ أكتوبر عقب انتهاء مهمتهما لم يلبث أن أكد للوالي أن السيد الصديق سوف يجد نفسه مرغما على التسليم قريبا . وقد حدث بعد وصول أولي بأيام معدودات أن حضر إلى بنغازي يوم ٢٧ أكتوبر السيد عبد العزيز العيساوي يحمل خطابا من السيد محمد الرضا السنوسي في جاو إلى السلطات الإيطالية مظهرا استعداده للبحث مع الحكومة في شروط عقد السلام بينها وبين السنوسية على ما أبدته الحكومة من رغبة أكيدة في الوصول إلى اتفاق حاسم مع السنوسية . فاعتبر تيروتزي بحج العيساوي يحمل خطاب السيد الرضا إحدى ثمرات ذلك الشرط الآخر من سياسته المزدوجة التي كان يقتضى تنفيذها على نحو ما سبق ذكره محاولة استمالة المغاربة بالطرق الدبلوماسية والمضى في العمليات العسكرية الكبيرة في الجبل الأخضر وضد مراكز السنوسية في الواحات الداخلية في وقت واحد .

ذلك أنه بعد معارك الجبل في وادي الكوف في شهر مايو ١٩٢٧ شرع الطليان يستعدون لاستئناف عملياتهم العسكرية المقبلة ، فأعد الجنرال متزقي في أول يولية تقريرا رفعه إلى الوالي تيروتزي عرض فيه الطريقة التي وزع بها المجاهدون قواتهم في الجبل الأخضر بزعامة السيد عمر المختار ، فقال إن المختار كان يتخذ مقر قيادته في منطقة شحات ، بينما تتجمع معظم قوات المجاهدين ، وهي أدوار البراعة والعييد والحاسة والعييدات وسط جبل البراعة هذا إلى جانب وجود فروع أخرى من هذه الأدوار من قبيلة الدرسة مستقرة في وادي الكوف بين

سيدى عبد الله وقصر چينى ، ويبلغ عدد المجاهدين حوالى خمسمائة وألف منهم أربعمائة فارس تقريباً . وعلاوة على ذلك فقد إتخذ المختار التدابير التى تمنع عرقلة حركات المجاهدين . فأبعد الأسرى بمواشيها من منطقة القتال وزود جنده بعدد عظيم من (القرب) المعدة لإمداد المجاهدين بالماء ، وأخذ هؤلاء يتأهبون للالتحام مع الطليان فى معارك فاصلة . ولم يكن متزقياً مخططاً فيما توقعه . ذلك بأن المجاهدين سرعان ما اشتبكوا مع الطليان فى معارك دامية فى أيام ١٣ ، ١٩ ، ٢٦ يولية ١٩٢٧ ثم استمرت مناوشاتهم للعدو حتى بداية الشهر التالى ، وأصيب الطليان بخسارة فادحة . فوجد متزقياً أنه لا مناص من تولى قيادة الجيوش الايطالية بنفسه ، وقاد هجوماً عنيفاً على دور العبيد واشتركت السيارات المصفحة فى المعركة التى استمرت مدة يومين (١٠ ، ١١ أغسطس) ، ثم استؤنف القتال فى يوم ١٣ أغسطس عند ايار الزوزات وكان قتالاً حامياً استشهد فى أثناءه الشيخ حسين الجوينى رئيس دور البراعة ، وكان صاحب مكانة عظيمة عند المختار الذى ما لبث أن جدد مناوشة العدو فى ٢٧ أغسطس . بيد أن الطليان بما كان لهم من قوات كبيرة تشد أزرها الطائرات والسيارات المصفحة استطاعوا فى آخر الأمر أن يضيقوا نطاق الحصار على المجاهدين فى منطقة الجثة فى أوائل سبتمبر . وقد تقدم كيف أن الطليان بعد تسليم المغاربة احتلوا القطوفية ثم العقيلة فى ٢٤ ، ٢٩ سبتمبر ١٩٢٧ .

وأثار تسليم المغاربة واحتلال القطوفية (أو القاطفية) والعقيلة دهشة المجاهدين فى الجبل الأخضر وفى الواحات الداخلية وعلى وجه الخصوص جالو مقر السيد الرضا . وكانت جالو لتوغلها فى الصحراء ذات موارد قليلة وامتنعت عنها الإمدادات من جهة الشرق منذ أن احتل الطليان واحة الجغبوب فصار كل اعتمادها بعد ذلك على ما صار يرسله إليها السيد الصديق من المؤن وهو فى أدوار المغاربة . غير أنه بعد تسليم المغاربة واحتلال القطوفية والعقيلة إلى جانب ساونو وجوف المطر ، بات من المتعذر على السيد الصديق إرسال الإمدادات الكافية إلى جالو . فضلاً عن ذلك فإنه كان لا يقيم مع السيد الرضا بهذه الواحة غير نفر قليل من المجاهدين للحراسة فحسب لحاجة السيد عمر المختار لكل قادر على حمل السلاح فى الجبل الأخضر . وأدرك الطليان مقدار الصعوبات التى كانت تحيط بالسيد الرضا فى جالو ، فأخذوا يرسمون خطوط تلك (المؤامرة) التى انتهت باغتيال السيد الرضا غدراً وخيانة ثم إبعاده عن البلاد منفياً إلى جزيرة صقلية .

فقد حضر إلى جالو الشيخ عرفه المجيرى يحمل كتاباً من الشارف الغربانى إلى السيد الرضا يخبره فيه بأن الطليان يعزمون احتلال جالو قريباً بعد أن دان لهم المغاربة ، ثم يخبره بين أمور ثلاثة : إما الاستعداد بكل قواته لمناجزة الطليان إذا كان السيد يرغب فى القتال

ولديه القدرة على خوض المِبارك - وكان الشارف الغرياني يعلم أن الواحة خالية تماما من المجاهدين - وإما الرحيل من جالو فوراً إلى أي مكان آخر ، وإما المباحثة مع الحكومة بالطرق الودية إذا أراد الوصول إلى تفاهم معها ، وزاد الشارف الغرياني على ذلك أنه ينتظر جواباً سريعاً شافياً من السيد بصدد ذلك كله . ولما كان السيد الرضا يثق بالشيخ عبد العزيز العيساري ثقة كاملة ويركز إلى مشورته ، فقد تم الاتفاق بين السيد والشيخ على قبول المقارضة مع الحكومة على أساس إبقاء الزوايا واحترام الإخوان السنوسيين والاعتراف بحق السيد الرضا في تعيين مشايخ الزوايا ثم بقاء السيد في بنغازي . وعلى ذلك فقد خرج الشيخ عبد العزيز العيساري من جالو يحمل خطاب السيد الرضا إلى بنغازي . وعند مرور الشيخ عبد العزيز بدور المجاهدين في بالطفل سلمه السيد الصديق خطابين أحدهما إلى الوالي والآخر إلى الشيخ الغرياني يؤيد الرغبة في التفاهم مع السلطات الحكومية على الأساس الذي وضعه السيد في تعاليمه للشيخ ، ووصل الشيخ عبد العزيز إلى بنغازي في يوم ٢٧ أكتوبر . واستقبل الوالي تيروتزي الشيخ عبد العزيز في بنغازي ، وراعه ما كان يبدو على الشيخ الوقور من مظاهر الهدوء والسكينة وحسن الطوية . وكان الشيخ عبد العزيز من الإخوان السنوسيين الذين نبه ذكرهم بفضل ما كسبه من خبرة وحكمة عظيمة من أيام السيد محمد المهدي السنوسي ، وكان الشيخ كبير السن حكماً في حديثه ، اعتقد فيه الوالي حسن النية ، فأقبل على المباحثة معه فافتتح على ما يبدو بما كان يؤكد الشيخ من رغبة صادقة في السلام . وأخبر الشيخ عبد العزيز الوالي الإيطالي أن السيد الرضا لا يقل عنه رغبة في أن تستعيد البلاد هدوءها وسكينتها مادام الطليان يعدون بتنفيذ الشروط التي عرضها السيد الرضا من أجل حسم النزاع مع إيطاليا . وفضلاً عن ذلك فقد أكد الشيخ عبد العزيز للوالي أن الاعتراف بالسنوسية والصلح معها عن طريق الصلح مع السيد الرضا نائب السيد إدريس في برقة من شأنه أن يهد لإقرار السلام وقبول المجاهدين وعلى رأسهم السيد عمر المختار نفسه في القطر البرقاوي . بأجمعه إنهاء القتال مع إيطاليا ، ثم نصح الشيخ بأن تتعهد الحكومة في ردها على خطاب السيد الرضا باحترام الزوايا السنوسية والإخوان السنوسيين والاعتراف بزعامة السنوسية الدينية لقاء أن يكف السنوسيون عن كل نشاط سياسي يحمل في طياته أي عداً لإيطاليا .

وأما تيروتزي فقد ظل يماطل في إجابة الشيخ عبد العزيز إلى شيء مما كان يطلبه ، ومع ذلك فقد اضطر أخيراً نزولاً على رغبة وزارة المستعمرات في دومة إلى قبول ما أتى به الشيخ من عروض ، فسلمه خطاباً إلى السيد الرضا جاء فيه أن بإمكان الوالي أن يؤكد للسيد الرضا

مقدار « سعادة » الحكومة إنما أتيج لها أن تستقبله بما يليق بمقامه من حفاوة بالغة ، وأن الحكومة لن تدخر وسعا في معاملة السيد وأبنائه بالاحترام اللائق ، وتتعهد بضمان سلامته. وتؤكد للسيد الصديق نواياها الطيبة نحوه . وفي ١٦ نوفمبر ١٩٢٧ غادر الشيخ عبد العزيز بنغازي إلى اجداية ، وفي ٢٧ نوفمبر غادر اجداية إلى بالظفل حيث قابل السيد الصديق ابن السيد الرضا وأنهى إليه نتيجة ما بلغه في أحاديثه مع تيروتزي ثم قصد إلى جالو .

على أن تيروتزي كان يعتقد على الرغم من هذه (المباحثات) الدائرة من أجل الوصول إلى الصلح بالطرق الدبلوماسية أن استئناف العمليات العسكرية في برقة وطرابلس في هذه الآونة من شأنه أن يقنع السيد الرضا بضرورة التسليم من غير إبطاء ويقضى على كل أمل لديه في إمكان الانسحاب من جالو والاتجاه إلى مصر أو إلى أية جهة أخرى . وعلى ذلك فقد حدد لبدء هذه العمليات يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٢٧ في برقة ويوم ٨ يناير ١٩٢٨ في طرابلس وكان غرض تيروتزي من بدء النشاط العسكري في طرابلس علاوة على ما تقدم أن يمنع صالح الأطيوش وقبائل الرعيصات وأولاد سايمان وبعض القبائل الأخرى في منطقة سرت من مناوشة المغاربة الشياخ الذين عدم المجاهدون من الخونة الآمين بسبب تسليمهم للطلليان وعلى ذلك فقد قامت فرقة من قوات الحكومة على الهجن من واحة جنجوب في ١٥ ديسمبر ١٩٢٧ ، وفاجأت الحامية الموجودة بمركز جخرة شمال جالو بمسافة قصيرة وأسرت أربعة من رجالها عادت بهم إلى الجنجوب . وعندما حضر الشيخ عبد العزيز العيساوي إلى اجداية بجواب السيد الرضا من جالو في ٢٢ ديسمبر اعتقد تيروتزي أن الفضل في عودة الشيخ عبد العزيز إنما مرده إلى هجوم الطليان على جخرة وشعور السيد الرضا بأن الطريق إلى مصر قد أوصد نهائيا وأن مركزه في جالو تحدى به المخاطر من كل جانب .

غير أن تيروتزي كان مخطئا ولا شك في هذا الاعتقاد لسببين : أولهما أن قبول السيد الرضا أن يدخل في مفاوضات من أجل عقد الصلح على أساس الشروط التي قبلتها الحكومة في مصلحة المجاهدين في برقة ، كان قد تقرر من وقت ذهاب الشيخ عبد العزيز إلى بنغازي في المرة الأولى ولم يكن من المنتظر أن يعدل السيد الرضا عن أمر يرى فيه تحقيق مصلحة البلاد وثانيهما أن الشيخ عبد العزيز غادر جالو في يوم ١٥ ديسمبر أي بعد قيام القوة الإيطالية من جنجوب بيوم واحد فقط وقبل هجومها المفاجيء على جخرة . وعلاوة على ذلك فقد ذكر الشيخ عبد العزيز عند وصوله إلى اجداية أن السيد الرضا كان يتخذ الأبهة لمغادرة جالو إلى بالظفل بعد سفر الشيخ عبد العزيز بيومين فقط . أضف إلى هذا أن خطاب السيد الرضا إلى تيروتزي - وهو الخطاب الذي حمله الشيخ عبد العزيز معه إلى اجداية كان مؤرخا في ١٤

ديسمبر أى فى اليوم نفسه الذى غادرت فىه قوة الطليان واحتمه الجنبوب .
وأما الشيخ عبد العزيز العيساوى فقد وصل إلى بنغازى فى يوم ٢٥ ديسمبر وسلم رسالة السيد الرضا إلى الوالى . وذكر السيد الرضا فى رسالته ، أنه يطمئن كل الاطمئنان إلى وعود (تيروتزى) ويثق ثقة كاملة بتأكيداته أن الحكومة سوف تكون شريفة فى معاملته ، وغادر السيد الرضا جالو إلى بالظفل . وما إن علم تيروتزى بوصول السيد إلى بالظفل حتى أبقى إلى رومة يخظر وزير المستعمرات بحضور السيد الرضا إلى بالظفل فى طريقه إلى إجداية ويعلق أهمية عظيمة على تسليم السيد ويطلب تأجيل العمليات العسكرية فى منطقة إجداية حتى لا يعدل السيد عن المجي . إلى إجداية أو إلى القطوفية فتضيع الفرصة .
وكان تيروتزى يتوقع وصول السيد الرضا إلى أحد هذين المكانين فى اليوم الثانى أو الثالث من شهر يناير عام ١٩٢٨ ، ولذلك طلب تأجيل العمليات العسكرية حتى يوم ٤ يناير . ومع أن اقتراح تيروتزى وقف النشاط العسكرى مؤقتا كان يدل على الحيلة والحذر من جانبه حتى لا تنكشف نيات الطليان الغادرة ، فقد أبى قدرزوى وزير المستعمرات إلا أن تبدأ العمليات العسكرية فى الوقت الذى حدد للبدء فيها سابقا فى برقة ، أى يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٢٧ لأن الحكومة الإيطالية - على حد قول الوزير - لا تعترف البتة بأن لتسليم السيد الرضا أية أهمية سياسية إذ ينبغى اعتبار السيد « رئيسا للثورة » ، فحسب ، وهذا فضلا عما يسببه وقف العمليات العسكرية من أضرار تلحق بسمعة المملكة الإيطالية . وهكذا كان الطليان فى الوقت الذى قطعوا فيه على أنفسهم العهود والمواثيق « باحترام » السيد الرضا ، يضمرون القدر به والكيد له ، ويبيتون النية على معانفته بوصفه « رئيسا للثورة » ، وخارجا على سلطان الحكومة ومن حق الحكومة أن تقبض عليه عند سنوح الفرصة . وقد بلغ من إحكام الطليان تدبيرهم وأمرتهم أنهم أخذوا يسقطون من طائراتهم المنشورات والرسائل الكثيرة على مقر السيد الرضا فى جالو قبل أن يغادر الواحة ، تحمل وعود الحكومة المتكررة بانتظار قدومه إلى إجداية وبنغازى للترحيب به . وكان من بين ما ألقته الطائرات على جالو رسائل عدة من أعيان بنغازى باسم الشارف الغريانى وحسين البيكرى وآخرين يؤكد فيها أنها بما للسيد الرضا رغبة الطليان الصادقة فى الصلح ومحضونه على المجي إلى بنغازى دون إهمال . وانتقل السيد الرضا إلى دور السيد الصديق عند دين الناقة ، ذلك بأنه كان من رأيه قبل مفاوضة الطليان والذهاب إلى إجداية أن يستشير للمرة الأخيرة رؤساء المجاهدين ، فكلف السيد الصديق ببحث الموقف معهم ، وبعد أن قلب هؤلاء وجوه الرأى أيد أكثرهم ضرورة بدء المفاوضات مع الحكومة نظرا لسوء الحالة الاقتصادية فى برقة بسبب قلة الأمطار من

جهة وإقبال الحدود المصرية من جهة أخرى وتعطيل التجارة . وتوقع المجاهدون إذا نجحت مفارقات السيد الرضا مع الطليان وتقرر على الأقل عقد الهدنة فترة محدودة من الزمن أن تتحسن الأحوال الاقتصادية بالبلاد شيئاً فشيئاً . وعلى ذلك فقد حضر السيد الصديق في مساء ٣٠ ديسمبر إلى بير الشلبي شمال آبار بالطفل بمسافة قصيرة عند تجمّع الشيخ سعد بو قدومه يعلن قرب حضور والده السيد الرضا في طريقه إلى اجداية . وفي مساء اليوم التالي حضر الشيخ عبد العزيز العيساوي بنبي الضابط أولمى بأن السيد الرضا قد قرر الذهاب إلى اجداية . وفي صباح أول يناير ١٩٢٨ وصل السيد الرضا إلى تجمّع الشيخ سعد بو قدومه في حراسة السيد الصديق . ثم قابل أولمى وأعلن التسليم للحكومة الإيطالية . وقد حضر هذا الاجتماع كل من حسين البسيكري وعبد العزيز العيساوي وسعد بو قدومه ، ثم رجع السيد الرضا إلى بالطفل . وفي اليوم الثالث من شهر يناير قابل السيد الرضا ومعه الشيخ عبد العزيز العيساوي الضابط أولمى (متصرف اجداية) وارتحل ثلاثتهم إلى القطوفية . وظهر اطمئنان السيد الرضا لعودة الطليان عندما اعترض سيلهم جماعة من المجاهدين . ما لبثوا حتى ارتدوا على أعقابهم عندما شاهدوا السيد الرضا الذي أمرهم بالانسحاب والعودة إلى قبائلهم محافظة على الهدوء والنسكينة . وبلغ السيد وصحبه اجداية بعد ظهر اليوم نفسه ثم قابل قائد المنطقة ويمثل الحكومة الكولونيل ريجيري . وكان في أثناء خروج السيد الرضا من القطوفية في طريقه إلى اجداية أن قابله القوة الإيطالية التي أرسلها الوالي تيروتزي بقيادة الجنرال متزقي لبدء العمليات العسكرية ، وهي العمليات التي أصر فيدرزوني وزير المستعمرات على عدم تعطيلها . وكانت هذه القوة ذاهبة إلى العقيلة ، فما لبثت أن أحاطت بالسيد الرضا ورافقه حتى وصل إلى اجداية .

وفي يوم ٣ يناير قررت وزارة المستعمرات إرسال السيد الرضا إلى المنفى ، وحددت لانتقاله من اجداية إلى بنغازي يوم ٧ يناير . ولكن السيد الرضا ما لبث حتى مرض عند وصوله إلى اجداية فتأجل السفر ، ثم غادر السيد الرضا اجداية إلى بنغازي ، وفي يوم ١٤ يناير تنقّى السيد الرضا مع مستشاره ، الأمين الشيخ عبد العزيز العيساوي إلى بلدة (بيازا أمرينا) بجزيرة صقلية ، ثم أصدرت الحكومة بلاغا رسميا عن هذا الحادث قالت فيه أن السيد الرضا قد سلّم لإيطاليا دون قيد أو شرط وأن الحكومة قررت اعتقاله وإبعاده إلى صقلية .

ولا جدال في أن هذا العمل من جانب الطليان كان خيانة بالغة ، وكان من نتيجته القضاء على كل أمل في إمكان الوصول إلى تسوية سلمية بين المجاهدين وإيطاليا . فقد نقل السيد الصديق بعد ذلك مباشرة دور المجاهدين من عين الثقة إلى أماكن أخرى أكثر تحصينا ،

واشتد تدمير الأهلين في منطقة العقيلة عندما بلغهم اعتقال السيد الرضا وغدر الطليان به ،
ومع أن هؤلاء الأخيرين استطاعوا أن يبعثوا بقواتهم إلى العقيلة في ١٨ يناير وبدأوا ينزعون
أسلحة المغاربة الشماخ دون مقاومة (في ٢٥ يناير) فقد اضطر تيروتزي إلى الذهاب بطريق الجو
إلى العقيلة حتى يقف بنفسه على مدى تدمير الأهلين ويتخذ التدابير اللازمة لمواجهة ما قد
يحدث من مقاومة نتيجة لهذا التدمير . ثم أمر تيروتزي الجنرال متزي أن يبدأ زحفه على
أدوار المجاهدين في معادن غيزل ، وأعد الطليان خطتهم للاستيلاء على الفزان واحتلال
مرزق عاصمتها فخرجت في أواخر يناير ١٩٢٨ قوتان إحداها من غدامس والأخرى من
الجبل الأخضر ، وكان الجيش بقيادة رودلف غريزاني ومعه يوسف خريشة ووجهة الجميع
نهر الشاطيء ، فوصل الجيش إلى جبل يعرف باسم القنينة ، وهناك التحم مع المجاهدين في
معركة دامية استمرت خمسة أيام بنهاية انهزم فيها الطليان شر هزيمة فتقهقروا تاركين ما لديهم
من مؤن وذخائر . ثم ما لبثت أن خرجت قوة أخرى من مصراتة وترهونة وورقلة تقصد
الفزان مباشرة ؛ فعلم المجاهدون بأمرها بعد خروجها بثلاثة أيام وانسحبوا إلى الداخل
حتى إذا وصل هذا الجيش الجديد إلى مكان يقع بين جبلين يعرفان بالجبال السود ، انقض
المجاهدون على الطليان وأرغموهم على التقهقر ، فعمد قواد الحملة إلى الفرار بسياراتهم تاركين
وراءهم الجيش الذي وقع أكثره في قبضة المجاهدين فاستأصلوهم عن آخرهم ؛ وعندئذ لم يجد
الطليان مناصا من أن يحددوا محاولاتهم فخرجت في هذه المرة قوات عظيمة من جهات متعددة ،
من سرت واجداية غرضها الاستيلاء على زله ، فاشتركوا في معارك حامية مع قبائل المغاربة
وأولاد سليمان وزويه بقيادة صالح الأطيوش وأحمد سيف النصر وعمر الحليق ؛ غير أن
الطليان ما لبثوا أن انهزموا في هذه المعارك وتركوا وراءهم غنائم وأسلحة كثيرة . وجدد
الطليان المسعى فخرجوا في هذه المرة من الجفرة في ٣٠ فبراير ١٩٢٨ بجيش كبير وزحفوا
على زله ولم يستطع عبد الجليل سيف النصر ودهم فاضطر إلى الانسحاب منها واحتلها الطليان
في ٢٢ فبراير ، ثم تقدموا إلى آبار تفرقت . وفي معركة شديدة اشترك فيها عمر ومحمد ابنا
سيف النصر انهزم الطليان في بادئ الأمر ولكن المجاهدين اضطروا إلى التقهقر بعد ذلك
لنفاذ الذخيرة منهم فاحتل الطليان آبار تفرقت في ٢٥ فبراير ، وخرجت من الحسيات في
يوم ١٨ فبراير قوة أخرى بقيادة الجنرال متزي غرضها احتلال واحات جالو وأوجله فوصلت
إلى معطن السبيل قريبا من أوجله في ٢٣ فبراير ، وفي اليوم التالي احتل الطليان أوجله وحضر
الوالي تيروتزي احتلال هذه الواحة ثم سحب القوة التي ذهبت إلى جالو فحضر احتلال هذه
الواحة كذلك في يوم ٢٥ فبراير . فضلا عن أنه حضر احتلال جخرة في اليوم التالي ثم عاد

في يوم ٢٧ فبراير بطريق الجو إلى اجداية . وبين يومى ١٠ ، ١٨ مارس بدأت العمليات التي انتهت باحتلال مرادة . وهكذا استطاع الطليان بفضل احتلال الجنبوب (منذ أوائل ١٩٢٧) وزله وجالو وأرجله ومراده أن يقطعوا كل السبل بين المجاهدين في الجبل الأخضر وبرقة وبين مصر من الناحية الشرقية وبين مصر ومراكز السنوسية الباقية في الجنوب في فزان والكفرة ووضعوا السيد عمر المختار والمجاهدين في عزله تامة في الشمال .

غير أن هذه الانتصارات لم تنل شيئاً من عزيمة المختار الذي ظل يشن الغارة بعد الغارة على درنة وما حوّلها ، حتى أرغم الطليان على الخروج بجيوشهم في ٢٢ إبريل من درنة وشحات والمرج وبنغازى وسرت ومرارة لمقابلته ، فاشتبك معهم في معركة شديدة استمرت يومين كان النصر فيها حليفه فقر الطليان تاركين عدداً من السيارات والمدافع الجبابية وصناديق الذخيرة عدا الجمال ودواب النقل . وفي يونيو استطاعت قافلة من البراعة أن تخرج من السلم بحملة بمختلف العتاد والمؤن قاصدة إلى الجبل الأخضر لإمداد السيد عمر فلم الطليان بخروجها وأرسلوا سياراتهم المسلحة لتعقبها ؛ ولكن المجاهدين صدوا لهم وأطلقوا رصاص بنادقهم على العجلات فتعطلت السيارات وعندئذ انقض العرب على القوة الإيطالية فأبادوها عن آخرها وأحرقوا السيارات . وفي سبتمبر من العام نفسه غزت جموع الزوية الجخرة ومرسى بريقة وجالو وأرجلة ، وأنزلوا بالطليان خسائر جسيمة ، فدلّت هذه الأعمال على أن الثورة ، ما زالت مستعرة الأوار في الجهة الغربية من سرت شمالاً إلى الفزان جنوباً وإلى جالو شرقاً فضلاً عن اشتداد مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر ؛ وذلك كله على الرغم من احتلال الطليان للواحات ومراكز السنوسية الهامة . فلم يعد هناك مناص من أن يعيد الطليان النظر في خططهم ، مما أدى إلى وقوع أزمة كبيرة في رومة ، ذلك بأن الحكومة الإيطالية بدأت تبحث بصورة جدية وسائل إخماد المقاومة وترسم خطوط السياسة الجديدة التي يجب اتباعها في كل من برقة وطرابلس . فقد أسفرت هذه البحوث عن استقالة فيدرزوني وزير المستعمرات في رومة وديونو والى طرابلس وتيروتزى والى برقة في ديسمبر ١٩٢٨ . فعين ديونو وزيراً للمستعمرات وأعلن موسوليني توحيد الإدارة في القطرين اللبيين ، وعين المارشال بادوليو حاكماً على طرابلس وبرقة . ويحدد مجيء بادوليو إلى ليبيا بداية مرحلة النضال الحاسمة بين الطليان والمجاهدين في برقة والجبل الأخضر .

وكان تعيين بادوليو حاكماً على طرابلس وبرقة في شهر يناير من عام ١٩٢٩ . وأعد بادوليو لحكومته في ليبيا برنامجاً شاملاً مداره الاقتصار على المناوشات والعمليات العسكرية البسيطة

وتخفيض الجيش إلى القدر الذي يكفي القيام (بحرب العصابات) لحسب ، واستبدال العمل على دعم المراكز التي احتلها الطليان بالتوسع في الفتوح الجديدة وذلك حتى تتوفر تلك الأموال التي كان يتطلبها الاحتفاظ بجيش كبير في ليبيا ، فيتمكن بادوليو من إنفاق هذه الأموال على إنشاء الطرق في الجبل الأخضر خصوصا . والسبب في ذلك أن بادوليو كان يعرف حق المعرفة أنه من العبث أن تصر الحكومة على مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر والواحات طالما بقيت قواعد الطليان غير موطدة في هذه الجهات ويستطيع المجاهدون تحطيم القوات التي تخرج من هذه القواعد الضعيفة لمناجرتهم على نحو ما شاهدنا ، ولم يفد الطليان شيئا في وقف نشاط المجاهدين احتلالهم مراكز العرب في غضون العمليات العسكرية الكبيرة؛ فضلا عن ذلك فإنه على الرغم من تضيق الحصار على السيد عمر المختار في الجبل نتيجة لاختلال الواحات الجنوبية والشرقية وإعادة الاتصال بين برقة وطرابلس عبر منطقة سرت ، فقد ظل المجاهدون تحت قيادة المختار يخرجون لمناوشة الطليان وإنزال الحسارات الفادحة بقواتهم ؛ فكان إنشاء الطرق المعبدة من الجبل الأخضر ضروريا لتسهيل حركة الجيوش وتنفيذ الخطط الاستراتيجية وإقامة نظام في الحراسة المجدية تمكن (الدوريات) والقوات الإيطالية في تتبع المجاهدين وملاحقة أدوارهم من مكان إلى آخر بكل سرعة ؛ ولا سبيل للانفاق على إنشاء هذه الطرق . إلا إذا خفضت الحكومة قوة جيشها النظامي وأنفقت ما يتوافر لديها من مال على إنشاء هذه الطرق . وقد اقتضى الاقتصار على المناوشات البسيطة أو ما يشبه حرب العصابات أن يوقف بادوليو أعماله الأرض للمستعمرين أو المعمرين من الطليان حتى يخف عبء الحكومة في واجب المحافظة عليهم . وزيادة على ذلك فقد كان من رأى بادوليو عدم التوسع في احتلال مراكز جديدة .

يبد أن هذا البرنامج كان لا يمكن تنفيذه إذا ظل بادوليو يسير على سياسة والى برقة السابق نيروتزي وقوامها الاشتباك مع المجاهدين في الجبل الأخضر والإيقاع بقيادة السنوسية وزعمائها في الواحات الداخلية واحتلال المراكز المنتشرة في الجنوب من الجغبوب إلى جالو وأوجله وزله وسوكنه ومراده دون القدرة على دعم هذه المراكز بإرسال الحاميات الكبيرة إليها ؛ وعلى ذلك فقد نبى بادوليو تنفيذ برنامجه الواسع على ضرورة كسب الوقت أولا ثم العمل رويدا رويدا من أجل تقوية المراكز المحتلة ، ثم الزحف البطيء والالتحام مع جانب من المجاهدين في مناوشات صغيرة الغرض منها المحافظة على هيبة الحكومة قبل أي اعتبار آخر ، حتى إذا نجح في توطيد قواعد الاحتلال الإيطالي واستطاع أن يجلب الإمدادات الكثيرة بدأ على الفور ، يعد الجيوش العظيمة للاشتباك مع العرب في معارك حاسمة . وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعها يستطيع المرء أن يدرك حقيقة تلك الأساليب السياسية والخطط العسكرية

التي ميزت نشاط الحاكم الجديد طوال عام ١٩٢٩ في كل من برقة وطرابلس .

فإنه ما إن وصل بادوليو إلى طرابلس حتى أصدر منشورا إلى أهالي طرابلس وبرقة في ١٥ فبراير ١٩٢٩ يعلن فيه المفوض عن الأفراد الذين يسلمون أنفسهم وسلاحهم مختارين للحكومة ، ويتوعد في الوقت نفسه كل معاند بالمعقوبة الصارمة ، وقد أسقطت الطائرات هذا المنشور من الجو على البلدان والقرى والنواجع في أنحاء القطر الليبي بأجمعه . وكان لهذا المنشور آثار مباشرة في كل من برقة وطرابلس أهمها أن بعض أعيان الطرابلسيين في مدينة طرابلس ظنوا في الحكومة الضعف ووهن العزيمة ، واعتقد المجاهدون في الجبل الأخضر أن الحكومة صارت ترغب ورغبة صادقة في بدء المفاوضات من أجل الوصول إلى تسوية النزاع القائم بالطرق السلمية ، وزحف أحمد سيف النصر ومحمد بن الحاج حسن (من قيادة المشاشة) على القبلة (أو الجبلية) لجمع البدو المحاربين وإرسالهم إلى الجبل الأخضر حتى يهزوا قوات المجاهدين في الجبل ويرغموا الحكومة بذلك على اتخاذ لهجة متواضعة ، عتد بدء المفاوضات مع السيد عمر المختار وصحبه . وعلاوة على ذلك شرع صالح الأطيوش ينظم في جبل الهروج جماعات من المحاربين للاشتباك مع الطليان في برقة أو في طرابلس . وفي منتصف فبراير ١٩١٩ نزلت قوات المجاهدين من الهروج الأسود للانقضاض على النوفيلية من جانب وعلى إجداية من جانب آخر ، فاجتمعت في الجيفة ثم انقسمت ثلاث فرق التحمت إحداها مع الطليان في معركة عند قارة سويد في ٥ مارس ، واشتبكت الثانية معهم في معركة كبيرة عند النوفيلية في ١٤ مارس واتجهت الثالثة بقيادة عبد القادر الأطيوش من الجيفة صوب منطقة العقيلة فأغار المجاهدون بالقرب من قويرة الشيخ على قافلة كانت في طريقها من مراده إلى العقيلة في ٢٣ مارس ؛ ثم استقر المجاهدون في جبل سلطان . وبعد عناء شديد استطاعت الطائرات الإيطالية أن تكشف عن مقرهم فالتحم جيش من الطليان مع الجزء الأكبر من قوات المجاهدين جنوب بير بالريش بالقرب من بير جداريه في يوم ٦ أبريل واضطر المجاهدون أمام قوات العدو العظيمة إلى التقهقر صوب وادي الفارغ .

وكان لهذه الالتحامات أكبر الأثر في إقناع بادوليو بضرورة العمل فورا من أجل استمالة المجاهدين إلى المفاوضات إذا أراد أن يضع برنامجا واسع موضع التنفيذ فبدأ من ثم متصرف المرج الكولونيل باريلا من أوائل مارس ١٩٢٩ يطلب الاجتماع بالسيد عمر المختار للمفاوضة في شروط الصلح ؛ وحدد باريلا موعداً للاجتماع يوم ١٢ مارس . غير أن باريلا لم ينتظر جواب المختار وأراد أن يتهز فرصة اطمئنان المجاهدين لقرب بداية المفاوضات وانشغالهم بعيد الفطر المبارك ؛ فانقض الطليان عليهم فجأة وهم يقومون بصلاة العيد (١٣٤٧ هـ) ،

ورددهم المجاهدون على أعقابهم . ولكن زحف الأطيوش وجماعته ثم نشوب تلك المعارك التي سبق ذكرها في النوفيلية وغيرها لم يلبث أن اضطر بادوليو إلى تجديد المسعى .

وفي هذه المرة كلف بادوليو متصرف درنة دودياشي وكان معتدلاً ظاهر الميل إلى التفاهم مع العرب - أن يمد للمفاوضة مع السيد عمر المختار وعجبه فأتصل دودياشي بالمجاهدين واقترح على السيد عمر أن يكون الاجتماع يوم ٢٠ مارس في منزل علي باشا العبيدي للبحث في موضوع الصلح . ولكن المختار أصر قبل بدء المفاوضات على أن تعتمد الحكومة إلى إقامة الدليل الظاهر على حسن نواياها بإطلاق سراح السيد محمد الرضا وإعادةه إلى برقة وبعث السيد محمد حسن الرضا السنوسي ابن السيد الرضا ونائبه في أدوار المجاهدين برسالة إلى حاكم طرابلس في ٩ شوال ١٣٤٧ (١٥ مارس ١٩٢٩) ذكر فيها أن عمال الحكومة قد دأبوا أخيراً على تأكيد القول بأن الحكومة إنما تبغي تهدئة البلاد ونشر ألوية السلام في ربوعها ، غير أنه يعلم يقيناً أن الوصول إلى هذه التهدئة متعذر تماماً ما دام السيد محمد الرضا مبعداً عن البلاد ، وأنه لاسيلاً إلى تقرير الهدوء والسلام إلا بعودة الرضا . وقد حملت هذه الرسالة إلى جانب اسم حسن الرضا ختم المختار بوصفه الوكيل العام في برقة . فكان من أثر هذه الرسالة أن صار بادوليو يطلب من وزارة المستعمرات في رومة أن تفك عقاب السيد الرضا وتأذن بعودته إلى بنغازي ، وأصر بادوليو على إجابة هذا الطلب كخطوة لامندوحة عن اتخاذها إذا شامت الحكومة أن تقدم للعرب برهانا ساطعاً على صدق نواياها ، وأمام هذا الإلحاح من جانب بادوليو لم تجد حكومة رومة مناصاً من إطلاق سراح السيد الرضا وإرجاعه إلى بنغازي . وكان السيد الرضا يقيم وقتذاك منفياً في أوستيكا وهي جزيرة صغيرة بالقرب من صقلية . أما السيد فقد وصل إلى بنغازي في يوم ٢١ مارس . وعندما استطاع عمال الحكومة أن يؤكدوا للمجاهدين مغادرة السيد الرضا منقاه وأنه في طريقه فعلاً إلى برقة ، وافق السيد عمر المختار على الاجتماع بمندوب الحكومة دودياشي في منزل علي العبيدي في ٢٠ مارس ، وحضر هذا الاجتماع عدد كبير من مشايخ البلاد وأعيانها . غير أن هذه المباحثات لم تسفر عن شيء فتأجلت المفاوضات إلى موعد آخر . وبعد أسبوع واحد انعقد اجتماع آخر في سانية القيقب . ولم يستطع المتفاوضون الوصول إلى نتيجة مجدية في هذا الاجتماع كذلك . وأما السيد الرضا فقد بذل جهداً صادقاً لتهيئة الجو الصالح للمفاوضة المثمرة وأعد ابنه السيد حسن الرضا منشوراً طلب فيه إلى قبائل الحاسة والعييدات الامتناع عن أية أعمال عدائية غير أن هذه الجهود ما كانت تقابل بالرضا من جانب الحكومة ، ذلك بأن سيشلياني نائب الوالي في برقة كان يخشى أن

تمكن السنوسية من دعم نفوذها على أثر عودة السيد الرضا إلى برقة إذا استمر زعماء السنوسية على نشاطهم ولو كان هذا النشاط سلبيا يهدف إلى تقرير الهدوء والسكينة .

وكان في هذه الأثناء أن جاء على باشا العبيدي يحمل إلى دودي باشي نائب الوالي ومتصرف درنة مطالب رؤساء المجاهدين ؛ وكانت تلخص في ضرورة اعتراف الحكومة بزعامة السنوسية الدينية في البلاد وبرئاسة السيد محمد إدريس والسيد أحمد الشريف ، وبأن للسنوسيين حق ملكية الأرض حول جنجوب والكفرة ، وأن تحترم زوايا السنوسية وأوقاف هذه الزوايا وتدفع الرواتب لمقدمي الزوايا ومشايخ القبائل ، على أن يقبل المجاهدون في نظير ذلك تسليم نصف ما لديهم من أسلحة بالثمن الذي يحددونه لها وهو ألف ليرة إيطالية للبنديفة الواحدة ، وإقامة أعضاء الأسرة السنوسية الكريمة في المدن بعبيدين عن الأدوار وفضلا عن ذلك فقد طالب المجاهدون بإعادة المهاجرين من برقة إلى أوطانهم . وواضح أن الغرض من هذه المطالب إنما كان التمهيد من أجل تنظيم شئون البلاد على أساس تلك الاتفاقات التي أبرمها الطليان مع السيد إدريس في عكرمة والرجمة ، وإعادة العمل بذلك القانون الأساسي الذي ألغاه الطليان عندما نقضوا عهودهم ومواثيقهم مع السنوسية في بداية الانقلاب الفاشستي . وكان من رأى سيشلياني عندما أبلغ هذه العروض إلى حكومته أنها لم تكن مطالب المجاهدين النهائية .

ومع أنه كان واضحا أن الحكومة الإيطالية في هذا العهد الفاشستي ما كانت ترضى قط عن عودة الزعامة السنوسية ، وهو المطلب الأساسي في كل ما تقدم به المجاهدون من مطالب في هذه المرحلة وفي مراحل المفاوضات التالية ، فقد طلب باربيل الاجتماع بالسيد عمر المختار في الشليوني بالجبل الأخضر في يوم ٦ إبريل . لحضر المختار ولكنه طلب أن يحضر السيد الرضا هذه المفاوضات كذلك فأنجل الاجتماع إلى موعد آخر . وفي ٢٠ إبريل دارت المناقشات في بئر المغارة (في وادي القصور) ؛ وقد حضر هذا الاجتماع السيد محمد الرضا بعد أن تعهد الشارف النرياني بإرجاع السيد إلى بنغازي ، وخرج مع السيد الرضا إلى جانب الشارف كل من خالد الحمري وعبد الله فرকাশ ورويفع فرকাশ وعلي باشا العبيدي وعبد الله بلعرون مدير المرج وحضر كل هؤلاء اجتماع المختار بالسيد الرضا . ثم خير مندوبو الحكومة السيد عمر بين أمور ثلاثة : الذهاب إلى الحجاز ، أو إلى مصر ، أو البقاء في برقة ، فإذا رضى بالبقاء في برقة أجرت عليه الحكومة مرتبا ضخما وعاملته بكل احترام . ولكن المختار رفض هذه العروض .

وكان من الواضح في أثناء الاجتماع أن السيد الرضا يخضع لرقابة صارمة تقيد حريته

ولا تدع له فرصة ما لتبادل الرأي مع السيد عمر ؛ وعلى ذلك أصر المختار على ضرورة اتصال السيد الرضا بأمير البلاد السيد إدريس في القطر المصري ، وأكد لمدوني الحكومة استعداداه التام لتنفيذ كل ما يأمر به السيد إدريس نفسه . فانقض الاجتماع دون الوصول إلى نتيجة . وكان غرض المختار على ما يبدو من طلب حضور السيد الرضا إلى وادي القصور أن يستطيع إنقاذه من قبضة الطليان ، ولكنه سرعان ما عدل عن تنفيذ عزمه لأسباب عدة منها أنه لم يتمكن من الحديث منفرداً مع السيد الرضا حتى يستطيع رأيه في ذلك بسبب وجود الشارف الغرياني وصحبه يحيطون بالسيد الرضا من كل جانب وكان هؤلاء من أعوان الحكومة ؛ وفضلاً عن ذلك فإن المختار لم يجد أية فائدة عملية من اتخاذ هذه الخطوة . أما المفاوضات فقد تعطلت مدة بعد ذلك حتى طلب سيشلياني استئنافها في ١٨ مايو .

واستؤنفت المفاوضات في هذه المرة في مكان يسمى قندوله بالقرب من سيدي رويغ . وحضر اجتماع قندوله باريلا وكپاني وعدد من الضباط والأعيان ، وكان سيشلياني قد بيت الثبة على الإيقاع بالمختار وأسرته ، ولكن السيد عمر احتاط للأمر ولم يسفر هذا الاجتماع عن شيء . وفي ٢٦ مايو بدأت المفاوضات من جديد ، لحضر المختار إلى مكان بالقرب من القيقب . وفي هذا الاجتماع دارت المباحثات على أساس ما جاء في منشور بادوليو فعرض دودياشي شروط الحكومة ، وهي (أولاً) عودة السيد إدريس والسيد أحمد الشريف والسيد صبي الدين وسائر أعضاء الأسرة السنوسية إلى البلاد على أن يكونوا تحت إشراف الحكومة وأن يتم رجوعهم بترخيص من الحكومة بوصفهم مهاجرين ، يبقون العودة إلى أوطانهم ، وتعهدت الحكومة بمعاملتهم المعاملة اللائقة بمراكرم على عرار ما فعله مع السيد الرضا . (ثانياً) احترام الزوايا وأوقافها ودفع المرتبات لشيوخها . (ثالثاً) إرجاع أملاك الأسرة السنوسية . (رابعاً) إعفاء الزوايا وأملاك السنوسيين من الضرائب . (خامساً) تسليم المجاهدين نصف ما معهم من أسلحة لقاء ألف ليرة إيطالية تدفع ثمنها لكل بندقية يسلمونها ، وعلى أن ينضم بقية المجاهدين المسلحين إلى المنظمات التي تنشأها الحكومة تحت إشرافها وإدارتها وذلك لمدة معينة تحددها الحكومة فيما بعد في نظير أن تعد أماكن لإقامتهم يسهل على الحكومة إمدادهم فيها بالمؤن فضلاً عن إحكام الرقابة عليهم . (سادساً) إبعاد كل الإخوان السنوسيين من الأدوار وتعهدت الحكومة بإعطائهم المرتبات التي تناسب مراكرم . فاعترض المختار على تسليم الأسلحة وحل الأدوار ، وأصر على بقاء الأدوار تحت قيادة السيد حسن الرضا على أن يكون للحكومة نوع من الإشراف العام فحسب . واستند المختار في ذلك إلى أن بقاء الأدوار بقيادة الحسن من شأنه أن يوفر على الحكومة مبالغ طائلة لأن

الحسن في وسعه أن يتفق على هدم المعسكرات من أموال العشر التي يجمعها على حسب القواعد الدينية . وقد أيد المختار في ذلك عبد الحميد العبار . ولكنه لما كان بقاء الأدوار تحت قيادة السيد حسن الرضا السنوسي ثم تحصيل العشور وأموال الزكاة ينطوي على بقاء الزعامة السنوسية ذاتها تمارس سلطاتها الدينية والسياسية ، بل ودعم أركان هذه الزعامة التي ما قىء الطليان يحاربونها منذ قدومهم إلى ليبيا فقد رفض دودياشي عرض المختار وانفض الاجتماع على أن يعرض دودياشي هذا الحل - كما طلب المختار - على نائب الوالي في برقة حتى يفصل فيه سيثلياني بنفسه .

وبعد أربعة أيام فقط طلب دودياشي مقابلة المختار في قندوله (٣٠ مايو) فجاء المختار إلى نجع على العيديدى شيخ العيديدات بالقرب من القصب ، وحضر معه السيد حسن الرضا والفضيل بو عمر وعبد الحميد العبار وحامد القاصى وآخرون ومعهم حرس يتألف من مائة وخمسين فارسا . وجاء من طرف الحكومة دودياشى وباريلا كما حضر هذا الاجتماع على العيديدى وخالد الحمري ورويفع فركاش . وكانت جلسة هامة ، أظهر فيها المختار استعدادة للنظام طالما أنه يؤدي إلى المحافظة على كرامة السنوسية . فضلا عن ذلك فقد أصر المختار على عدم حدوث أى اتفاق بينه وبين الحكومة الإيطالية إلا إذا حضر مندوب عن الحكومة المصرية وآخر عن الحكومة التونسية كدليل على رغبة الطرفين الصادقة في الاتفاق بصورة قاطعة . ولكن دودياشى اعترض على هذا الطلب ، وكان من سوء حظه أنه استند في اعتراضه هذا إلى أقوال هيجت السيد عمر وأخفقت بسببها مفاوضات قندوله ، ذلك بأن دودياشى حاول أن ينسوخ رفض حضور المندوبين المصرى والتونسي بدعوى أن الطليان استمروا على صلة مباشرة بالبرقاويين من سنوات عدة ، ولم تصدر منهم إطلاقا خلال هذه السنوات الطويلة أعمال تدل على الحياة والقدرة فضلا عن أنهم لم يسلكوا في علاقاتهم مع العرب مسلكا يدل على عدم المروءة ، فكان هذا القول ادعاء جريئا كفى صدوره من المفاوضات الإيطالية لاستثارة المختار الذي سرعان ما استبد به الغضب ، فاندفع يندد بأفعال الطليان ويكشف عن سوء نواياهم وخبيث ضمائرهم ، ويسرد على الحاضرين في حدة بالغة أمثلة كثيرة من أعمال القسوة والقدرة التي ارتكبتها الطليان الآثمون على أيدي قوادهم وعمالهم ، فذكر ما فعله الجنرال متزني بقبيلة العيديدات ، وهي من القبائل التي سالت الطليان ، عندما اغتصب هؤلاء كل ما كانت تمتلكه هذه القبيلة حتى أنهم نزعوا حلى النساء من آذانهن ، وذكر ما فعله لوبللو مع أسرة إبراهيم من قبيلة العواقير ، وقد سالم هؤلاء الطليان كذلك . فأخذ لوبللو منهم أربعين رجلا قتلهم رميا بالرصاص ثم جعل السيارات تمر على جثثهم ، فما زالت السيارات تدهسهم ذهابا

بابا حتى اخلطوا بالتراب . ثم حمل المختار الطليان مسئولية نقض اتفاقاتهم مع العرب
نصوصا اتفاق الرجمة . والواقع أن ثورة المختار كانت شديدة ، ولكن بعضا من الحاضرين
نروا بالتدخل حسبا للأمور ؛ واستطاع المتفاوضون أن ينتقلوا بعد ذلك إلى بحث شروط
ملح . وتمسك المختار بحقوق السنوسية وزعامتها وأصر على أن يكون للقطر البرقاري
لمرابلسي نفس الامتيازات التي تتمتع بها جاراته مصر وتونس . وكان المختار وحده هو
نرى يتكلم ، وأما سائر المجاهدين فقد صمتوا . وفعل ذلك أيضا السيد حسن الرضا . بيد أن
بعض أعوان الحكومة أمثال علي العبيدي وعبد القادر بوبريدان والسيقات بوقرته (من
براعصة) حاولوا التوسط لإقناع المختار بأن يترك جانبا مسألة الحقوق والزعامة السنوسية ،
ثارت فائرة المختار من جديد وانسحب من الجلسة قائلا إنه يريد الذهاب إلى معسكره لأن
ذلك اليوم كان أول أيام العيد ، وأما إذا أراد المتصرف دودياشي الحديث فإن موعد
ذلك جلسة أخرى .

وفي الأيام القليلة التالية اتصل علي العبيدي بالسيد عمر المختار ، ولما كان المجاهدون
لا يزال يحدوهم الأمل في إمكان الوصول إلى حل سلمي مع الطليان فقد قبل المختار استئناف
المفاوضة ، وكان من رأى السيد الرضا أنه ما دام هناك شيء من الأمل في إمكان تحقيق مصلحة
الوطن فإن الواجب يقتضى المختار عدم تفويت الفرصة . فعقد اجتماع آخر في يوم ٧ يونية
حضره دودياشي وباريلاشم سيشلياني الذي قال إنه جاء الاجتماع موفداً من قبل المارشال
بادوليو بغية الوصول إلى اتفاق حاسم مع العرب . وجدد الطليان عروضهم القديمة ، وتمسك
المختار بمطالبه ، وأصر على حضور مندوبين من قبل الحكومتين المصرية والتونسية ،
ووعده سيشلياني بأن يحمل مطالب المختار إلى بادوليو . وفي ١٣ يونية اجتمع نائب الوالى
سيشلياني بالسيد عمر في قلعة شليوني ، وأظهر المختار رغبته الصادقة في الاتفاق إذا
أقرت الحكومة الإيطالية مطالبه ، وهي نفس المطالب السابقة وعلى أساس أن يكون
للمختار مطلق الحرية في الذهاب إلى أى مكان يريد ، ولو أن الحكومة كانت تفضل بقاءه
في برقة مشمولاً - على حد قولها - بجميع مظاهر الرعاية والتقدير والاحترام الكامل ،
وأن يقيم السيد حسن الرضا مع والده الرضا في بنغازي ، وأن يجمع المجاهدون في جثوني
تكنس حتى يكس تسريحهم شيئاً فشيئاً ووعدت الحكومة بإلحاق فريق منهم ضمن قواتها
النظامية واستخدام من يشاء منهم في إنشاء الطرق وإتطاء مكافأة سخية لكل فرد يسلم ما معه
من أسلحة إلى الحكومة . ولما كان سيشلياني قد وعد بأجابة مطالب المختار جميعها ، فقد
تأجل الاجتماع إلى يوم آخر حتى يتم الاتفاق النهائي بحضور والي طرابلس وبرقة نفسه .
وفي يوم ١٩ يونية حصل اجتماع سيدى رحومة المشهور بحضور بادوليو وسيشلياني وعدد

من الطليان والأعيان الضالعين معهم كالشارف الغرياني وعلي باشا العبيدي .
ومع أن المختار ظل متمسكا بضرورة حضور مندوبين عن الحكومتين المصرية والتونسية
« إذا كان الطليان يريدون حقا راحة البلاد ويعملون من أجل تهدئتها ، ، فقد قبل أن يعرض
شروطه النهائية رسمياً بحضور والي ليبيا ، فقرأ الفضيل بو عمر هذه الشروط . ووافق الطليان
عليها ، ثم تسلمها بادوليو ووعد بأن يعمل على حضور مندوبين الحكومتين المصرية والتونسية
في اجتماع يحدد فيما بعد قريباً . واتفق الفريقان على عقد هدنة لمدة شهرين حتى يتسنى لكل
منهما « مخاربة مرجعه » ، وقال بادوليو إنه على استعداد تام لقبول عودة أمير البلاد السيد
محمد إدريس إلى برقة مادام المختار والمجاهدون يصرون على ذلك .

وكانت الشروط التي عرضها المختار أساساً للاتفاق النهائي مع الطليان متفقة في جوهرها
مع ما كان الطليان قد أخذوا على أنفسهم العهود والمواثيق بتنفيذه عند ما أصدروا القانون
الأساسي لقطر برقة في عام ١٩١٩ وأبرموا معاهدة الرجعة مع السيد إدريس ؛ وهي شروط
تكفل المحافظة على كيان العرب واحترام عقائدهم الدينية ولعتمهم العربية وتصون أوقاف
الزوايا وتحويل المختار الحق في أخذ الزكاة الشرعية من العرب القاطنين حول النقط الإيطالية
بالسواحل ، وتنص على وجوب تعليم أبناء البلاد وفتح باب التوظيف في دوائر الحكومة
وممارسة الأعمال الحرة على قدم المساواة مع الطليان وإرجاع جميع الممتلكات التي اغتصبها
الحكومة من الأهالي وإعطائهم مطلق الحرية في حمل السلاح وجلبه من الخارج إذا امتنعت
الحكومة عن بيع السلاح لهم . وفضلاً عن ذلك فقد نصت هذه الشروط ، على أن يكون للأمة
رئيس منها تختاره بنفسها ويكون لهذا الرئيس مجلس من كبار الأمة له حق الإشراف على
مصالحها ، كما يكون للقاضي (الإسلامي) وحده القول الفصل بين الوطنيين ، ؛ وكان هذا
الشرط على وجه الخصوص أهم الشروط التي قدمت للطليان في نظر المختار وسائر المجاهدين .
وعلاوة على ذلك فقد طلب المختار إعلان العفو الشامل عن جميع من عدتهم إيطالياً ومجرمين
سياسيين ، سواء أكان هؤلاء في داخل القطر أم كانوا خارجه ، وإطلاق سراح المسجونين
وسحب كل المراكز التي استحدثها الطليان في أثناء الحرب بما في ذلك مراكزهم في
الجنوب وجالو .

وكان معنى إجابة هذه المطالب إنشاء تلك الإمارة السنوسية التي استطاع السيد إدريس
تأسيسها في برقة ثم عمل الطليان على تحطيمها منذ اللحظة الأولى التي ارتبطوا بها في مواثيق
القانون الأساسي وانفاق عكرمة والرجعة ، وعلى الرغم من هذه المواثيق والاتفاقات . وفضلاً
عن ذلك فقد كان معنى إجابة هذه المطالب أيضاً أن الطليان قد اعترفوا بالهزيمة السياسية

أفروها وأن تلك الجهود العسكرية التي بذلوها مدة ستة أعوام تقريبا قد ذهبت جميعا هباء
ثورا ، وما كان الطليان ليرضوا بذلك . وما كانت الحكومة الفاشيستيّة - وهي التي
حول رئيسها موسوليني الماريشال بادوليو عند مجيئه إلى الأقطار الليبية سلطات واسعة لإخماد
الثورة ، بكل الوسائل الممكنة ودعم أركان الاحتلال الإيطالي في البلاد - تقول إن هذ
الحكومة ما كانت لترضى قط عن إعادة ذلك البيان الذي عقدت العزم على تقويض صرحه
طوال السنوات الماضية . ولذلك فإنه مما يدعو إلى العجب والدهشة حقيقة أن بادوليو قبل
دون تردد في اجتماع سيدي رحومه هذه الشروط التي قدمها المختار أساسا للصلح مع إيطاليا .
بيد أن هذا العجب وهذه الدهشة سرعان ما يزولان كي تحمل محلها الريبة الشديدة في نوايا
الطليان إذا عرفنا أن بادوليو عند عودته إلى بنغازي من سيدي رحومة أخذ يتسكّم هذ
الشروط التي تم عليها الاتفاق مع السيد عمر ، وبدلا من المبادرة بتنفيذ شيء منها صار يتخذ
هو وعماله خطة المراوغة ويعمد إلى كسب الوقت على أمل أن يستطيع في أثناء ذلك إنجاز
استعداداته والتهيؤ لبدء العمليات العسكرية الواسعة ضد المختار نفسه ثم احتلال ما بقي من
مراكز السنوسيين في الفزان والكفرة وغيرها . واعتقد الطليان أن الشروط التي تقدم بها
السيد عمر المختار بصورة قاطعة في سيدي رحومة لم تكن من عمله بل إنها كانت من عمل
السيد إدريس في القاهرة . ثم تأكدت هذه والشكوك لدى بادوليو وسيشلياني وأضراهما
عند ما اجتمع سيشلياني بالسيد عمر بعد ذلك في بير قندولة في ٢٨ يونية ، ثم في سيدي رويغ
في ٢٠ يولية ، وشرع الطليان وعمالهم يبذرون بذور الشقاق في صفوف المجاهدين في هذه المرحلة
الحاسمة من تاريخ البلاد على أمل أن يضعفوا من قوتهم . وفي اجتماع سيدي رويغ ادعى
سيشلياني أنه لا يمكن إبرام الاتفاق النهائي إلا في عاصمة الولاية . ولما كان سيشلياني قد أكد
رغبة حكومته الصادقة في إبرام هذا الاتفاق عند اجتماعه بالسيد عمر في بير قندولة (٢٨ يونية)
فقد اعتقد المختار أن الطليان صادقوا النية حقيقة في هذه المرة ووافق على أن يذهب السيد
حسن الرضا مع سيشلياني إلى بنغازي حتى يوقع على الصلح نيابة عنه على أساس الشروط التي
قبلها الطرفان في سيدي رحومة .

على أنه ما إن وصل السيد حسن إلى بنغازي حتى عمد الطليان إلى تنفيذ مؤامرتهم ،
فاستطاع أعيان البرقاريين الضالعين معهم أن يؤثروا في السيد حسن وأن يقنعوه بأهمية
الاتفاق السريع مع الحكومة الإيطالية كخطوة لا مناص من اتخاذها لانقاذ الوطن وإعادة
الهدوء والسكينة إلى برقة . ولما كان الحسن شابا حديث السن لا يزيد عمره على السابعة عشرة
فقد أعار أقوالهم أذانا صاغية وقبل أن يوقع على شروط الصلح كانت تختلف عن تلك التي

اشترطها المختار في سيدى رحومة وقبلها بادوليو . وعندئذ لم يجد السيد عمر مناصا من رفض هذه الوثيقة وأبى الموافقة على الشروط الجديدة التي وقعها الحسن ، فعز على الحسن أن يتقضى المختار مكتبته وانفصل بجماعته من الوراثة والدرسة — وكانوا يبلغون حوالى الثلاثمائة — واتخذ مقامه في غوط الجبل وهو مكان قريب من مراكز الطليان في مراوة .

وأدرك المختار حقيقة نوايا الطليان ونوايا أعوانهم ؛ ولكنه فضل التريث فبعث في يوم ١٥ ربيع الأول من عام ١٣٤٨ (٢١ أغسطس ١٩٢٩) برسالة إلى مندوب الطليان في دور الحسن يطلب فيها استئناف المفاوضات من أجل إبرام الاتفاق الصحيح الذى قبله الطليان في سيدى رحومة . ثم احتاط السيد عمر للامر فطلب أن تجرى المفاوضات بين نائب الوالى أو وكيله وبين (السيد عمر المختار) رأسا دون وساطة أحد وخصوصا وساطة الشارف الغريانى لان وساطة هذا الأخير على حد قول المختار ، لا تأتى بخير ، . وزيادة على ذلك فقد طلب المختار أن يوفد مندوبان أحدهما عن دور المجاهدين والآخر عن الحكومة الإيطالية إلى القاهرة لمقابلة السيد إدريس والاستماع الى مقترحاته وأخذ ما يبغيان من عهود ومواثيق مترتبة على هذه المقترحات وقبولها من جانب الأمير ؛ وكان آخر ما طلبه السيد عمر أن يتفق الطرفان على هدنة مؤقتة تستمر إلى وقت الاجتماع التالى على أن يلزم كل فريق مواقفه التى يحتلها فعلا مادامت هذه الهدنة قائمة .

غير أن الطليان استطاعوا تنفيذ مآربهم فكسبوا الوقت اللازم لإنجاز استعداداتهم العسكرية واستألوا السيد حسن الرضا إلى قبول الاتفاق معهم وصاروا لا يأبهون الآن بالإجابة على رسالة السيد عمر . وكان نجاح عملياتهم العسكرية في طرابلس ومنطقة سرت من الأسباب التى جعلت الطليان يمشون فى خططهم ويكشفون القناع عن نواياهم الحقيقية رويداً رويداً . فقد تقدم كيف أن المجاهدين بقيادة عبد القادر الأطيوش قد اضطروا إلى الانسحاب صوب وادى الفارغ بعد اشتباكهم مع الطليان بالقرب من بير جداريه فى ٦ إبريل ١٩٢٩ . وقد شجع هذا الارتداد الطليان فشدوا جيشين كبيرين فى الشهر التالى خرج أحدهما بقيادة عارف أمسيك الغريانى من ناحية سرت بينما تولى خليفة الزاوى قيادة الجيش الآخر وخرج به من ناحية الغريان وكان غرض الجيشين الاشتباك مع المجاهدين فى مناوشات تمهد لاحتلال فزان فى النهاية . فدارت معارك عدة فى المنطقة الصحراوية الممتدة من ورقلة الى الفزان ومن سرت إلى غدامس ؛ وأبلى أحمد سيف النصر بلاء حسنا فى هذه المعارك ؛ ولكن الطليان استطاعوا فى الوقت نفسه أن يحتلوا مراكز المجاهدين فى القبة والحراء (شورف) ، واحتلب جنودهم هذه المناطق . وفى ربيع عام ١٩٢٩ كانوا قد أتموا نزع السلاح من أهلها

وسلمت قبيلة الزتان وظل أحمد سيف النصر يناوش الطليان في قتال كان من الواضح أن المجاهدين لن يتألوا منه مآربا بسبب نقص الذخائر وضعف أسلحتهم بالقياس إلى ذخائر العدو العظمى. وأسلحته الحديثة الفتاكة ؛ فلم يكن من المتوقع إذن والظروف كلها في مصلحة الطليان أن يقبل الوالي بادوليو الارتباط ، بكلمته ، . وعلى ذلك فقد ظل بادوليو لا يجيب على رسائل المختار الذي أخذ يذكر الطليان بعمودهم ، بل إن هؤلاء انتهزوا فرصة وقف المفاوضات فانكبوا يبدلون ما وسعهم من جهد وحيلة حتى يغروا نفرا من المجاهدين بالتسليم للحكومة . ويتضح ذلك كله من مراجعة تلك الرسائل التي صار يتبادلها السيد عمر المختار مع سيشلياني نائب الوالي طوال شهري سبتمبر و اكتوبر من عام ١٩٢٩ .

فقد كتب المختار إلى سيشلياني في ٣٠ ربيع الثاني ١٣٤٨ (٢٥ سبتمبر ١٩٢٩) يذكره بما سبق أن أبداه هذا الأخير من رغبة صادقة في الاتفاق منذ أن بدأت المفاوضات بصورة جدية في اجتماع بيرقندولة في ٢٨ يونية ، فقال المختار الآن مخاطبا سيشلياني : « لقد ذكرتم في أثناء هذه المباحثات أن غرضكم الوحيد منها لم يكن سوى العمل على تهدئة الوطن ثم وعدمتم بوقف الأعمال العدائية ؛ وقد صدقنا نحن ذلك ، ولكنه سرعان ما تبين أن عمال الحكومة ورؤساء المفاوضات - وكان المختار يقصد الشارف الغرياني وزملاءه الضالعين مع إيطاليا - يريدون الآن أن يوجدوا سوء التفاهم بيننا وبين السيد الحسن بمعاونة أحد مستشاريكم الذي يقوم بتوزيع الاغذية والاموال بين المجاهدين ، وتساءل المختار إذا كان هذا العمل بناء على أمر أصدره سيشلياني ويعلم به نائب الوالي ، ويحمل الحكومة مسؤولية ما قد يطرأ من تغيير على العلاقات القائمة بين المختار والحكومة بسبب هذه الأعمال ، ثم يطلب من سيشلياني الاجتماع به لاستئناف المباحثات فأجابه سيشلياني بقوله « إن علي (السيد عمر) إذا أراد الاجتماع به أن يتوقع شيئا آخر غير ماجرى الحديث بشأنه في يوم ١٣ يونية » .

ومع أنه كان واضحا من جواب نائب الوالي أن الحكومة تعتزم نقض ماتعهدت بقبوله سابقا ، فقد بعث المختار في ٥ جمادى الأولى ١٣٤٨ (٩ اكتوبر ١٩٢٩) برسالتين إحداهما إلى سيشلياني والأخرى إلى الوالي بادوليو ، يكرر الشكوى من المساعي التي يبذلها عمال الحكومة وأعوانها من أجل « تفكيك » الأدوار ويذكر أنه إذا كان الطليان يبغون تهدئة البلاد حقيقة فإن الواجب يقتضيه أن يعقدوا الاتفاقات اللازمة لبلوغ هذه الغاية مع السيد محمد إدريس زعيم السنوسية الأوحده والذي بيده مطلق التصرف فيما ينبغي عقده من اتفاقات في صالح الوطن ، وختم المختار رسالته بإنذار الوالي أنه إذا لم يقلع موظفو الحكومة عن بذور الشقاق والتفرقة في الأدوار فإنه لا يكون مسئولاً عما يحدث بعد ذلك نتيجة لهذا العمل ، وأمهل المختار الوالي برقة وطرأ بلس حتى يوم ٢٤ اكتوبر ١٩٢٩ كي يتدبر الأمر بحكمته . ومع أن هذا

الخطاب كان يقتضى ردا حاسما ولا شك من جانب بادوليو ، فقد ارتأى الماريشال بدلا من ذلك أن يبعث إلى المختار بأحد كتب المختار السابقة التي طلب فيها السيد عمر إرجاع السيد محمد الرضا إلى برقة كخطوة لا غنى عنها تهدئة الوطن . وكان عدم إجابة بادوليو على رسالة المختار منذرا بقطع العلاقات واستئناف الجهاد في الجبل الأخضر .

فقد انتظر المختار دون جدوى أن يأتيه رد من الحكومة في الأيام التالية ، فجاءته بدلا من ذلك رسالة الشارف الغرياني ينبئه فيها صاحبها ، مهدداً ، بأن الحكومة على تمام الاستعداد لمقابلة الحوادث في كل وقت ، ، وعندئذ تأكد لدى المختار أن الطليان مصممون على القتال وبادر بإصدار ندائه المشهور ، إلى أبناء وطنه وسكان برقة وطرابلس ، في ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٨ (٢٠ أكتوبر ١٩٢٩) وفي هذا النداء أخذ المختار يسرد قصة المفاوضات الصحيحة من جهة ، ثم يبين للجاهدين مقدار تمسك الطليان بعودهم وكيف أنهم نقضوا الهدنة التي طلبوها بأنفسهم فصاروا يتحملون وحدهم هذا العمل مسئولية استئناف الحرب في ليبيا وقد أراد المختار من نشر هذا النداء أن يصحح من جهة أخرى تلك الوقائع التي صار يذيعها الطليان على غير حقيقتها مسوخة مشوهة عن المفاوضات والهدنة ، وأن يطلب إلى أبناء الوطن أن يعضوا في الكفاح عن كيانهم ، باذلين دماءهم الزكية فداء الوطن وفي سبيل الوصول إلى غايتهم المنشودة .

وقد تضمن هذا النداء تلك الشروط التي قدمها السيد عمر إلى الماريشال بادوليو في اجتماع سيدى رحومه ، كما تضمن شيئا من الحوادث التي وقعت في أثناء الهدنة — ومدتها شهران وقابلة للتجديد ، — وكان أهم ما حدث قبل انتهاء هذين الشهرين أن السيد عمر أخبر وسعادة الوالى بواسطة وكيله الكولونيل نيشلياني أن كل الزعماء الوطنيين اتفقوا على انتخاب الأمير السيد محمد إدريس السنوسى ، وهو ينتخب معه الرجال الأكفاء من أبناء برقة وطرابلس لتولى المفاوضات مع الحكومة الإيطالية على مطالب برقة وطرابلس . ثم طلب السيد عمر من الحكومة أن تخار سيادة الأمير السيد محمد إدريس السنوسى حالا لاتخاذ الطرق المؤدية لإنهاء الحالة الجائرة بأحسن منها ، فوعد سعادتة (السيد عمر) خيرا . ولكن الطليان لم يفعلوا شيئا لتنفيذ وعودهم . بل كان كل غرضهم كسب الوقت فقط ، فطلبوا امتداد الهدنة مرة بعد أخرى حتى اضطر السيد عمر إلى إبلاغ الحكومة بواسطة وكيل الوالى أن الهدنة آخرها يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٤٨ (٢٤ أكتوبر ١٩٢٩) وأنها غير قابلة للتجديد ولما كانت هذه الهدنة على وشك الانتهاء ، ولم يتلق (السيد عمر) ردا من الحكومة الإيطالية عن عزمها بمخاطبة أميرنا السيد محمد إدريس السنوسى ، رأى (المختار) أن يخوض

غبار الحرب ، وأن لا يركن إلى أى محادثة أو واسطة ولو من العائلة السنوسية إلا من اتفقت عليه الأمة وأودعته ثقتها . . . أى سمو الأمير السيد محمد إدريس نفسه . وفي الواقع كان مما أكد لدى السيد عمر سوء نوايا الطليان أنهم - كما قال في ندائه - تجنبوا مخابرة الزعيم (سمو الأمير) مع عليها تماما بأن الحل والعقد بيده فلو كانت (حكومتهم) حقيقة تركز إلى الصلح لما ترددت لحظة واحدة في مخابرتة . . .

ولذلك خاطب السيد عمر المجاهدين وأبناء الوطن قائلا : « فليعلم إذاً كل مجاهد أن غرض الحكومة الإيطالية إنما يكسب الفتن والفسائس بيننا لتزيق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا ليتم لهم الغلبة علينا واغتصاب كل حق مشروع لنا كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة ؛ ولكن محمد الله لم توفق إلى شيء من ذلك . وليشهد العالم أجمع أن نوايانا نحو الحكومة الإيطالية شريفة ، وما مقاصدنا إلا المطالبة بالحرية . وإن مقاصد إيطاليا وأغراضها ترمى إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى نهوض الشعب الطرابلسي وتقدمه . . . فوهات أن يصل الطليان إلى غرضهم ، مادامت لنا قلوب تعرف أن في سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال ، ثم ختم المختار هذا النداء بقوله : « لهذا نحن غير مستولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هي عليه حتى يثوب أولئك الأفراد النزاعون إلى القضاء علينا إلى رشدهم ويسلكوا السبيل القويم ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع . وقد نشرت بعض الصحف المصرية هذا النداء في ٢ يناير ١٩٣٩ .

وكان المختار محقا في توقعه الغدر من جانب الطليان لأن هؤلاء ما لبثوا حتى كشفوا القناع عن نياتهم عندما تبين لهم إخفاق تلك المفاوضات التي كان يحدوهم على السير فيها الأمل في أول الأمر في إمكان الوصول إلى تسوية سلمية قد تحقق ما ربه ثم صاروا يصطنعون المفاوضات بعد ذلك لكسب الوقت لحسب حتى تم استعداداتهم العسكرية . وكان السيد حسن الرضأول من ذاق مرارة غدرهم ، فقد غادر الدور في غوط الجبل جماعة من عائلة عريف وانتهز الطليان هذه الفرصة فطلبوا من الحسن أن يتقدم بالدور إلى ناحية مراوة وأجلب الحسن رغبتهم وعندئذ سيرت الحكومة قوة كبيرة على الدور لجمع الأسلحة من أتباعه بدعوى أن رجاله قد غزوا ، بعض الأهليين في مراوة . وأبدى الحسن ورجاله معارضة شديدة ، ولكن معارضتهم هذه سرعان ما أكدت للطليان - على حد قول هؤلاء - أن الدور كان مركزاً للدعاية السنوسية خطيرة ، وأن حل هذا الدور قد بات لذلك أمرا لا مئاض منه ولا يحيد عنه ، وكان مما جعل الطليان ينقلبون على الحسن أن امتنع في المدة الأخيرة عن إجابة رغبتهم عندما طلبوا منه الانتقال إلى بنغازي ، وعلى ذلك فقد استبكت القوات الإيطالية مع الدور

في نضال غنيف ذهب ضحيته كثير من المجاهدين ووقع الباقون في أسر هذه القوات .
وفي ١٠ يناير ١٩٣٠ قبض الطليان على الحسن نفسه وساقوه أسيراً إلى بنغازي ثم مالبويا
حتى نفوه إلى جزيرة أوستيكا ثم إلى فلورنسة بعد ذلك . وقد بقي الحسن منفياً بهذه المدينة
الآخيرة حتى وفاته في عام ١٩٣٦ ، وبعد حادث الحسن بأسبوع واحد أُلقت الطائرات
الإيطالية قذاتها في يوم ١٦ يناير على المجاهدين والسيد عمر ، وعلى هذا النحو بدأ
النضال من جديد بين المجاهدين وبين الحكومة الإيطالية .

وكان المجاهدون قبل ذلك قد اشتبكوا خلال شهر نوفمبر ١٩٢٩ مع الطليان في مناوشات
قليلة حدث في يوم ٨ نوفمبر أن هاجمت جماعة قليلة منهم قصر بتقدم وقبضوا على « الدرك » ،
الإيطالي ، وقابل الطليان هذا الهجوم بمثلته فاشتبكوا مع المجاهدين في معركة بالقرب من قصر
مرق في يوم ١٦ نوفمبر، وفي ٢٠ ديسمبر هاجمت أورتان من عساكر أريتريا دور المجاهدين
بالقرب من جردس الجراري ، ثم نشطت عمليات الطليان العسكرية بعد أن غدر هؤلاء
بالحسن فهاجموا دور المجاهدين في وادي مهجة (في ٢٨ يناير ١٩٣٠) وأُلقت الطائرات
قذاتها على العرب . وفي خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٣٠ اشتبك المجاهدون مع الطليان
في معارك عدة في منطقة الجبل الأخضر حتى أفلت جميع الطرق . فبلغ عدد مناوشات
المجاهدين مع الطليان وهجومهم عليهم في المدة بين ١٧ ، ٣١ مارس ثمان عشرة . غير أن
الطليان في أثناء هذه العمليات الدائرة في الجبل كانوا قد أصابوا نجاحاً ملحوظاً في ميدان
القتال الآخر في طرابلس ونعى به منطقة الفزان الشاسعة . فقد استطاع الطليان بقيادة ردولف
غرزياني ، بعد عدة معارك في هذه المنطقة استمرت حوالي ثمانية شهور ، أن يتغلبوا على
قوات أحمد سيف النصر على نحو ما ذكرنا سابقاً ، وأن يزحفوا بنجاح صوب مرزق عاصمة
فزان ؛ وفي العمليات التالية من نوفمبر ١٩٢٩ إلى فبراير ١٩٣٠ أحرز غرزياني عدة
انتصارات مكنته من احتلال واد الكبير أو واد الشعوف في ١٣ يناير ، وكان عيد الجليل
سيف النصر قد نقل إليها والدته وابن عمه (السنوسي) فقتل الطليان ابن عمه وأسروا والدته .
وفي يوم ٢٤ يناير ١٩٣٠ احتل غرزياني مرزق ورفع العلم الإيطالي عليها . وكان ذلك بحضور
المارشال بادوليو الذي وصل إلى مرزق بالطائرة في اليوم نفسه . وفي ٢٥ فبراير احتل
غرزياني غات ثم ارتحل من الفزان إلى طرابلس فبلغها في يوم ٢٦ فبراير . وعلى هذا النحو
انتهت بسقوط مرزق وغات مقاومة المجاهدين في الفزان واستطاع الطليان أن يتفرغوا
لإخضاع مراكز المجاهدين الباقية في الكفرة وغيرها والتضييق على السيد عمر المختار في
الجبل الأخضر .

وحدث في أثناء وجود غرزباني في أم الأرانب في الفزان، أن وصله في يوم ١١ يناير ١٩٣٠ الأمر بتعيينه نائبا للوالي في برقة . ولكنه فضل أن يتم عملياته العسكرية في الفزان قبل أن يتقلد مهام منصبه الجديد . وعلى ذلك فإنه لم يبارح الفزان كما شاهدنا إلا بعد أن احتل غات في ٢٥ فبراير وشهد المجاهدين ينسحبون إلى جهات الكفرة وصوب حدود بلاد الجزائر غربا ، ومكث غرزباني في طرابلس أياما قليلة ثم غادرها إلى رومة في ٨ مارس ، وعاد منها إلى برقة في أواخر الشهر نفسه ، فوصل بنغازي في يوم ٢٧ مارس . وبدأ من غوره . ينفذ التعليمات التي تلقاها من رومة ، وكان قد وافق عليها كل من موسوليني رئيس الحكومة وديونو وزير المستعمرات وبادوليو حاكم ليبيا العام . وعلى ضوء هذه التعليمات يمكن تفسير تلك الخطة التي سار عليها غرزباني في إخضاع البلاد وإخماد المقاومة بالقسوة والوحشية التي أضفت عليه عن جدارة واستحقاق لقب « جزار ليبيا » .

فقد نصت التعليمات التي جاء بها غرزباني على ضرورة الفصل بين جميع الأهالي الذين خضعوا للحكومة وأظهروا ولاءهم لها عن « الثوار » والمجاهدين العرب ، واتخاذ كل الوسائل التي تضمن عدم تسرب نفوذ السنوسية بين الأهالي الموالين للطلبان، وذلك على وجه الخصوص بمنع مندوبي السنوسية وعماها من أخذ العشور وجمع أموال الزكاة من الأهالي ، وقيام الحكومة بعملية « تطهير » واسعة بين الوطنيين والطلبان المقيمين في المدن . وخصوصا في بنغازي . فضلا عن ذلك فقد نصت التعليمات على ضرورة وضع الأسواق التي يؤمها العرب تحت إشراف الحكومة ورقابتها الشديدة ثم العمل على قفل الحدود المصرية البرقاوية قفلا تاما وذلك لمنع تموين المجاهدين بالمؤن والأسلحة والذخائر في منطقة الجبل الأخضر على التخصيص وفي الواحات التي بقيت في حوزتهم . وإلى جانب ذلك كله نصت التعليمات على ضرورة القيام بعمل حاسم ضد المجاهدين في طرابلس وبرقة على أن يعهد بالنشاط السياسي ، في طرابلس إلى عناصر من الطرابلسيين الموالين للحكومة مهمتهم السعي من أجل بذور بذور الشقاق بين المجاهدين والقضاء على أية أعمال عدائية قد يقومون بها . ولم تكن الحكومة تتوقع أية مقاومة جديدة في هذه الناحية بعد تلك العمليات العسكرية التي انتهت بإخضاع الفزان خصوصا . وأما في برقة فقد كلفت الحكومة نائب الوالي الجديد - غرزباني - بأن يعد أعظم قوات في استطاعته استخدامها بصورة سريعة وصارمة في القضاء على الأدوار واستئثار المجاهدين إلى الاشتباك مع الطليان في معارك فاصلة ، وأخيرا احتلال الكفرة .

وبمقتضى عودة غرزباني إلى بنغازي بدأ نائب الوالي الجديد يضع هذا البرنامج موضع التنفيذ من غير إبطاء ، معلنا أنه سوف يتبع بكل إخلاص تعاليم الدولة الفاشيستي ويسير

على مبادئها لأنه وإن كان قائدا من قواد الجيش وأحد الرجال العسكريين ، فإنه يدين بمبادئ فاشيستية محضة ويعلم هذه الحقيقة بكل وضوح وصراحة كاملة . . وكان إغلاق الحدود المصرية ومنع الإمدادات عن المجاهدين والعمل على حل أدوارهم أول ما عني به . ذلك بأن المساعدات الأدبية والمادية ظلت تأتي عبر الحدود المصرية إلى المجاهدين في الجبل الأخضر بفضل تلك الجهود الشاقة التي كان يبذلها الأمير السيد إدريس في مصر ؛ وأمكن أن تصل هذه المساعدات والإمدادات إلى السيد عمر المختار وصحبه لأن عددا كبيرا من أهل البلاد من طرابلس ومصرارة وورقلة والفزان ومن قبائل المجابرة والعواقير والبراعصة والبيدات وغيرهم كانوا قد اتخذوا إقامتهم في مصر من مدة سابقة في الفيوم والإسكندرية والقاهرة خصوصا ؛ وعاون السيد صني الدين في وصول الإمدادات إلى المجاهدين ؛ وشاهد عيون الطليان في السلمو في عامي ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ومن هؤلاء جاسوسهم سلفيو سكوسياماري ، المؤن كالارز والشاي والسكر والدقيق تعبر الحدود في طريقها إلى المجاهدين في الجبل ؛ فضلا عن ذلك فقد شاهد هؤلاء الجواسيس مواسي الأهلين الخاضعين للحكومة الإيطالية تأتي إلى الأسواق المصرية عند الحدود .

وكان المجاهدون لحاجتهم إلى المال الذي يشترون به الأسلحة والذخائر يحصلون «ضرائب» على هذه السلع والمتاجر «المهربة» ؛ ثم ظل الأهليون الموالون للحكومة يدفعون هذه الضرائب عن طيبة خاطر . أضف إلى هذا أن الفرق أو القوات المحلية التي ألقتها الحكومة من بين الأهلين الخاضعين لها كان أفرادها يتحينون الفرص دائما «للتبرع» بقسم من مرتباتهم التي يأخذونها من الحكومة إلى المجاهدين ، بل ويعطونهم قدرا من الذخائر والأسلحة .

وعلى ذلك فقد بادر غرزياتي باتخاذ عدة تدابير سريعة من شأنها مكافحة نفوذ السنوسية ومنع كل اتصال بين السنوسيين وأنصارهم وبين الأهالي الخاضعين للحكومة ، ونزع الأسلحة من الأهالي وتشديد الرقابة على الحدود لمنع «التهرب» ، ثم تخفيض القوات المحلية شيئا فشيئا تمهيدا لإلقاء هذه القوات كلية في النهاية وذلك لمنع تسرب المال والذخيرة والسلاح إلى المجاهدين ثم تجهيز الحملات للقضاء على الأدوار واحتلال الأراضي التي ما زالت حتى ذلك الوقت في أيديهم ؛ وأخيرا اتخاذ الإجراءات القضائية التي تخول السلطات المحلية إصدار أحكام الإعدام على كل من ثبتت عليه تهمة الاتصال بالمجاهدين والالتحياز إلى جانبهم وتنفيذ هذه الأحكام فوراً وبخاصة على أولئك الجند الوطنيين الذين يغادرون الجيش الحكومي للانضمام إلى المجاهدين وبما يجدر ذكره أن أحكام الإعدام على أولئك (الفارين) من الجيش كان لا يمكن تنفيذها قبل ذلك بفضل صدور مرسوم ملكي منذ ٢٧ يونيو ١٩٢٩ يعطى الوالي الحق في وقف القضايا

الجنائية ووقف تنفيذ الأحكام التي تصدر ضد ليبيين ثبتت إدابتهم في أمور متعلقة بمساعدة الثوار ، أو بسبب الانخراط في صفوفهم .

وهكذا لم يمض على وصول غرزباني إلى بنغازي سوى أيام قلائل حتى كان نائب الوالي الجديد في برقة قد أنشأ ما صار يعرف في تاريخ الاستعمار الإيطالي الأسود باسم المحكمة الطائفة (في إبريل ١٩٣٠) ، وذلك بسبب انتقال هذه المحكمة على متن الطائرات من مكان إلى آخر لإصدار الأحكام السريعة ثم تنفيذ هذه الأحكام على أيدي السلطات المحلية في التو والساعة ، حتى يشعر الأهليون - على حد قول غرزباني - بأن العدالة تأخذ مجراها بكل سرعة . وسوف يأتي الكلام عن أعمال هذه المحكمة الطائفة وما ارتكبه من ضروب البطش والقسوة عند بسط فظائع الاستعمار الإيطالي في الفصل التالي .

وفي نفس الوقت بدأ غرزباني ينفذ سياسة عزل الأهالي الخاضعين للحكومة عن المجاهدين فخدم في تلك (المعتقلات) التي امتدت من العقيلة وسلوق إلى السلوم ، ثم أخذ يعمل على حل زوايا السنوسيين ومصادرة أملاك الزوايا وأوقافها ، إلى غير ذلك من ضروب النشاط ، الذي قام به (جزار ليبيا) تنفيذاً للشطر الأول من التعليمات المعطاة له حتى يضيق الحصار على المجاهدين في الجبل الأخضر والمناطق الأخرى .

وقد استعد غرزباني كذلك لتنفيذ الشطر الثاني من تعليماته الخاص « بتهديم ليبيا ، فاشتبك مع المجاهدين في معارك كثيرة ، وكان النصر حليفه في النهاية لنفاد المؤن والذخائر لدى هؤلاء وبسبب اضطرارهم في آخر الأمر إلى قصر عملياتهم على منطقة الجبل الأخضر .

وكانت أدوار المجاهدين عند حضور غرزباني حاكما على برقة موزعة في أمكنة قريبة من نواجع الأهالي حتى يسهل على المختار وصحبه أخذ العشور والحصول على الذخائر والأسلحة والمؤن . وفي ١١ إبريل ١٩٣٠ بدأ المجاهدون هجومهم الجديد بالانقضاض على قوة إيطالية بين بالقس والفايدية ، ولكن مجيء النجيدات السريعة للطلبان واضطرار المجاهدين إلى الانسحاب مالبث أن جعل المختار يغير شيئا من أساليبه ويركن إلى مفاجأة القوات التي كان يرسلها الطليان للكشف والاستطلاع في أماكن متفرقة ، أو تلك التي كانت تقوم بحراسة أعمال المكلفين إنشاء الطرق تمهيدا لقيام الطليان بالعمليات العسكرية الكبيرة في الجبل . وأبلى المجاهدون في المناوشات التالية بلاء حسنا وأشاعوا تهكما بالطلبان وزرابة بهم تارة أن المختار قد أصيب بجروح في مناوشة من هذه المناوشات ، وتارة أخرى أنه أصيب بمرض طارىء أفضى إلى استشهاده ، وذلك كله لإقامة البرهان على أن المقاومة ما زالت سائرة في طريقها الجدي على الرغم من عدم إشراف قائد المجاهدين الأعلى على عمليات الجهاد بنفسه .

وأحدثت هذه الإشاعات أثرها المطلوب بين الطليان وشعر هؤلاء بالإهانة البالغة ، ولكن غرزياني ما لبث أن عزز قواته المقاتلة ثم أحكم تدايره العسكرية في منطقة الفايدية ، فلم يأت يوم ١٤ يونية حتى كان الطليان قد استولوا على المنطقة بأجمعها واحتلوا جردس مراج وبالقس ونزعوا من الأهالي الخاضعين لهم ٣١٧٥ بندقية و ٦٠,٠٠٠ خرطوشة . واضطر المختار نتيجة لذلك إلى نقل دائرة عملياته إلى الناحية الشرقية (في الدفنا) نظرا لقربها من الحدود المصرية وذلك حتى يتمكن من إرسال المواشى التي يأتيه بها الأهالي إلى الأسواق المصرية في نظير أخذ حاجته من هذه الأسواق ، وأحكم المجاهدون صلاتهم التجارية على طول الحدود ابتداء من البردية إلى المسييط (مساعد) ومن هذه إلى الجنبوب أى في مسافة يبلغ طولها حوالي خمسين ومائة كيلو متر . مما جعل غرزياني يقرر إقامة الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشرقية . وهاجم المجاهدون مراكز الطليان في منطقة عين الغزالة واستولوا على عدد عظيم من الجمال . ثم انضم إليهم كثيرون من الفواخر فاضطر غرزياني إلى جمع النواجع المنتشرة في هذه المنطقة في أماكن أحاطها بالأسلاك الشائكة ؛ ثم جلب من طرابلس شراذم غير نظامية بقيادة عارف أمسيك الغرياني سرعان ما اشتبكت مع المجاهدين في بوكريمة في ٨ يولية في معارك لم تكن قاصلة . وفي شهر أغسطس التحم الطليان مع المجاهدين في مناوشات عدة ؛ وفي ١٩ سبتمبر نقل غرزياني بالسيارات قوات أخرى غير نظامية من قبيلة الحاسة (من شحات) إلى ناحية القبة ، ولكن دون الوصول إلى نتيجة ، فأعاد العدو الكرة على الدور وحاصر المجاهدين في وادي سافيه واشتبك معهم في معركة كرسه المشهورة في يوم ٢٦ ربيع الآخر ١٣٤٩ (٢٠ سبتمبر ١٩٣٠) وهي المعركة التي استشهد فيها خير قواد المختار السيد الفضيل بو عمر ، وكان الفضيل مجاهدا قديما اشترك في الحرب الليبية الإيطالية (١٩١١) وعرف بالشجاعة والإخلاص .

وقد ذكر المختار تفاصيل هذه المعركة في كتاب له جاء فيه أن العدو هاجم دور العبيدات والحاسة عند نقطة القبنة ، وكان رئيسه السيد الفضيل بو عمر ، ؛ وقد استشهد في هذه المعركة إلى جانب الفضيل أربعون شهيدا ، منهم السيد أحمد الغماري والسيد محمد الصادق الغزالي والشريف القاسم وأخوه ... (ويقول المختار) وقد وجدنا في ميدان القتال ما ينيف عن ٥٠٠ قتيل من العدو بينهم ماجور وثلاثة ضباط ، ؛ على أن الطليان لم يلبثوا أن شددوا عملياتهم العسكرية في منطقة الجبل بعد هذه الواقعة ، فاستمرت جموعهم بقيادة الكولونيل ياتى وماروني ودوليه تقوم بمناوشة المجاهدين مدة أسبوعين ، ولكن دون الوصول إلى نتيجة .

وفي أكتوبر ١٩٣٠ تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة في وادي

السانية ، وكان في هذه المعركة أن عثر الطليان عقب انتهائها على (نظارات) السيد عمر المختار ، كما عثروا على جواده المعروف بمجنديلا في ميدان المعركة فثبت لديهم أن المختار ما زال على قيد الحياة وبإدارة غرزيباني بإصدار منشور ضمنه هذا الحادث وحاول فيه أن يقضي على أسطورة المختار الذي لا يقهر أبداً ، . وقال غرزيباني في هذا المنشور متوعداً ، لقد أخذنا اليوم (نظارات) المختار وغدا نأتي برأسه ، . وأما العمليات العسكرية فقد استمرت لغاية آخر شهر ديسمبر ١٩٣٠ .

ومع أن الطليان لم يصلوا في عام ١٩٣٠ إلى نتائج حاسمة في الجبل فإنهم من جانب آخر كانوا قد تمكنوا من أواسط العام نفسه أن يهدوا لاحتلال الكفرة . وكانت الأحوال في الكفرة قد بلغت حداً من السوء جعل من المتوقع سقوط هذه الواحة في أيدي الطليان دون مشقة كبيرة . وكان يقيم بالكفرة ويدير شؤنها السيد محمد العابد ، وكان قد استطاع الوالي السابق تيروتزي أن ينشئ معه صلات ودية منذ عام ١٩٢٨ كوسيلة من وسائل تهدئة البلاد وكشط من تلك السياسة ، السليمة ، التي حاول تيروتزي اتباعها في برقة ولم تسفر عن نتيجة على نحو ما سبق ذكره ، فقد انتهز تيروتزي مرض السيد العابد وأوفد إلى الكفرة بعثة طبية ، برئاسة الكابتن برتزي غادرت بنغازي في ٢٣ سبتمبر ١٩٢٨ ، ولكنه سرعان ما قبض على هذه البعثة في تازربو على أيدي قبيلة الزوية ، وأخذ الزوية يغيرون على الواحات التي يحتلها الطليان في جخرة ومرسى البريقة وجالو وأوجله وعلى الأهالي الخاضعين والموالين للطليان كالمغاربة الشماخ وغيرهم . وفي منتصف ديسمبر ١٩٢٨ غادر السيد محمد العابد زاوية الشماخ مهاجراً إلى برقو في الجنوب ومعه أسرته الكبيرة والشيخ عمر بنو حليقة ، واستأنف الزوية هجومهم بعد ذلك على مراكز الطليان فأغاروا على جخرة ولكن الطليان ما لبثوا أن أوقعوا بهم الهزيمة في واقعة أبواطله وتقهقرت فلول الزوية إلى الكفرة . وكان من أثر ذلك وضياح كل أمر مكان المقاومة ضد الطليان أن قرر السيد محمد الصديق وعبد السلام الكزة مغادرة الكفرة والهجرة إلى القطر المصري . وبعد رحيل السيد الصديق سلم الزوية السلطة للشيخ شمس الدين ابن علي الخطابي ، ورأى شمس الدين أن يستل سخيمة الطليان بإطلاق سراح البعثة الطبية . وكان غرض الزوية استئناف التجارة بين جالو ومنطقة سرت حتى يستطيعوا تموين الكفرة ، تلك الواحة التي ساءت أحوالها كثيراً في العام التالي (١٩٢٩) ، على وجه الخصوص بسبب المصادمات التي وقعت بين صالح الأطيوش والطليان بين فبراير وإبريل ١٩٢٩ . وقد تخرجت الأمور في الكفرة لدرجة أن اضطر مشايخ الزوية حوالى منتصف إبريل إلى الذهاب إلى جالو يعرضون الانسحاب من الكفرة والإقامة في المنطقة الواقعة بين

الزويتينة واجداية وجخرة ، وهي مكان إقامتهم في العهد العثماني ، واشترط الطليان في نظير الموافقة على ذلك أن يسلم الزوية أسلحتهم في جالو . وفي أواخر العام نفسه وأوائل عام ١٩٣٠ بلغ عدد من انتقل من جبال هاروجي من الكفرة إلى هذه المنطقة حوالي ١٢٨٠ نسمة أحضروا معهم ٥٤٠٠٠ جملاً تقريباً كما سلخوا ٢٥٨ بندقية . ولكن الموقف ما لبث أن تغير بعد ذلك في الكفرة .

ذلك بأن المجاهدين ومشائخهم في فزان اضطروا بعد سقوط ولو الكبير في يد الطليان في ١٣ يناير ١٩٣٠ أن ينسحبوا إلى تازربو شمال الكفرة ، وكانوا بزعامة عبد الجليل سيف النصر وأخيه أحمد سيف النصر وصالح الأطيوش ، فأسسوا دوراً جديداً في تازربو واتخذوا من هذه الواحة قاعدة لأعمالهم وبدأوا يناوشون الطليان بدرجة مزعجة من أواسط يونية تقريباً ، حتى اضطروا هؤلاء إلى ضرب تازربو بقنابلهم من الجو في آخر يولية ، فكان من أثر ذلك أن انتقل صالح الأطيوش وعبد الجليل سيف النصر إلى الكفرة ، فارتحل صالح الأطيوش من تازربو إلى بوزيمة ثم إلى زيبانه وقصد أخيراً إلى الهواري شمال الجوف ؛ وأما عبد الجليل سيف النصر فقد استقر به المقام في التاج وشرع ينظم قوات المجاهدين تحت قيادته :

ولما كانت عمليات الطليان في الفزان قد انتهت منذ أن احتل غرزياني مرزق وغات في شهري يناير وفبراير ١٩٣٠ ، فقد أخذ الماريشال بادوليو يعد العدة للاشتباك مع المجاهدين في معركة فاصلة وقرر احتلال الكفرة ، وفي شهر أغسطس قامت (الدوريات) الإيطالية بحركة استطلاع كبيرة لفحص آبار المياه ورسم طريق الحملة المزمعة ، وفي ٢٦ أغسطس ألقت الطائرات حوالي نصف طن من القنابل على الجوف والتاج . بيد أن ضرب الجوف والتاج بالقنابل لم يفت في عضد المجاهدين ، وقسم هؤلاء قواتهم قسمين ذهب أحدهما وكان يتألف من المغاربة وأولاد سليمان بقيادة صالح الأطيوش إلى جهة الغرب قاصداً طرابلس للعمل في منطقة سرت فالتحم مع العدو في معارك أسرى في أثناها ابن صالح الأطيوش نفسه فأعدمه الطليان في سرت ، وأما القسم الآخر من المجاهدين فقد بقي لمناجزة العدو في الكفرة ، وأخذ الطليان يستعدون لتسيير حملتهم الكبيرة على آخر معاقل المجاهدين في الجنوب .

وبحث بادوليو وغرزياني مشروع هذه الحملة في نوفمبر ١٩٣٠ للاتفاق على خط سيرها من اجداية إلى جالو مسافة ٢٤٠ كيلومتراً ، ومن جالو إلى بئر زيفن مسافة ٤٠٠ كيلومتر ، ومن بئر زيفن إلى الجوف مسافة ١٨٠ كيلومتراً . وتقرر اتخاذ جالو قاعدة للعمليات العسكرية واستخدام الجبال في الطرق التي لا تصلح لسير السيارات عليها لنقل قوات الحملة ، ثم قر الرأي على أن تسيير قوة الحملة الرئيسية من اجداية إلى جالو ثم إلى بئر زيفن وأخيراً إلى

الكفرة ، بينما تزحف قوتها الثانوية - وكان بادليو قد جلبها من طرابلس خصيصا لهذه الغاية - من واو الككير إلى تازربو ، ومنها إلى الكفرة . وعهد بادوليو بقيادة الحملة إلى الجنرال ريكاردو رونشي ويليه في القيادة الدوق لوبوليه (وهو دوق داوستا نائب الملك في الحبشة عند فتحها) ثم تقرر أن يزحف قسم من السيارات المصفحة من زله عن طريق تيمت بوحشيشه إلى تازربو وتتخذ قوة من سلاح الجو مركزها في تيمت بوحشيشه . وأرسل الطليان بطريق الجوارف الغرياني إلى مراده وعهدوا إليه بإرسال العيون إلى تازربو للكشف والاستطلاع في تازربو قبل بدء الهجوم . ووصل إلى علم الطليان أن قوات المجاهدين كانت لا تزيد على ستمائة مسلح موزعين على فصائل عدة ، وأن أكبر مجموعاتهم كانت تتألف من الزوية والمغاربة بقيادة عبد الحميد بومطاري . وأخبر الجواسيس أن تازربو كانت خالية من أهلها .

وعلى ذلك وبعد هذه الاستعدادات العظيمة بدأ زحف الطليان من جالو إلى بيرزيغن في آخر ديسمبر ١٩٣٠ . وفي بيرزيغن علموا أن شمس الدين بن علي الخطابي قد انتقل بأسرته إلى مرسى مطروح في طريقه إلى القطر المصري وترك في الكفرة الحسن أخاه الأصغر . ثم زحف الطليان على واحة تازربو فاحتلوها في ١١ يناير ١٩٣١ ، وفي اليوم التاسع عشر من الشهر نفسه قامت طائراتهم بقيادة الدوق دالي بوليه بحركة استطلاع من الزيفن لكشف مراكز المجاهدين دون نتيجة ؛ ولكن الطليان ما لبثوا حتى عرفوا بتجمع قوات المجاهدين في واحة الهواري ، فبادروا بالاشتباك معهم في معركة دامت ثلاث ساعات فقط في يوم ١٩ يناير نفسه ، استخدمت فيها الطائرات .

وكان المجاهدون بقيادة عبد الجليل سيف النصر وحامد بن شغيلة وحيد بن الشريف بوعبد الحميد بومطاري وقد قاتلوا جميعا بشهادة غرزياني نفسه ببسالة نادرة ؛ فلم يكفوا عن القتال إلا عند شعورهم بأنهم سوف يفنون عن آخرهم ، فبلغ من استشهاد من المجاهدين في واقعة الهواري حوالي المائة ووقع في أسر الطليان ثلاثة عشر فقط ، وغنم الطليان مائة بندقية وبعض الذخائر واحتلوا الكفرة .

وفي يوم ٢٤ يناير ١٩٣١ وصل إلى الكفرة بطريق الجو المارشال بادوليو ؛ وبحضور الأمير لوبوليه رفع الطليان عليهم على زاوية التاج ؛ ثم طفقت قواتهم تطارد فلول المجاهدين وفي ٢٨ يناير رجع الطليان من هذه المطاردة بخمسين أسيرا قتلوا منهم حالا اثني عشر رجلا كان من بينهم أحد الإخوان السنوسيين الشيخ محمد بن عمر الفضيل وكاتبه تميذا بن علي الفضيل ، وقد أعد مهنا الطليان في الجوف . وكانت مغنم الطليان كثيرة .

وبسقوط الكفرة اتمت في الحقيقة كل مقاومة جديّة للجهاديين ضدّ الطليان في برقة ولما كان سقوط الفزان في العام السابق قد قضى على المقاومة في طرابلس فقد استطاع لسونه وكيل وزارة المستعمرات أن يتجول في أنحاء البلاد في شهر يونية ١٩٣١ ومعه عدد كبير من مراسلي الصحف الطليان وغيرهم ، فاجتازوا بالسيارات منطقة سرت بأمان من بنغازي إلى طرابلس ، وهي المنطقة التي ظلت مغلقة بسبب نشاط الجهاديين زمنا طويلا ، وفي شهر يولية ١٩٣١ زار ديونو وزير المستعمرات واحة الكفرة .

وكذلك كان لسقوط الكفرة أعظم الأثر في موقف السيد عمر المختار في الجبل الأخضر ذلك بأنه كان من نتائج ضياع هذا المعقل الأخير أن استطاع غرزيباني إغلاق الحدود المصرية إغلاقا تاما بمد الأسلاك الشائكة على طول هذه الحدود من (المساعد) إلى الجغبوب . فقد أخذ الطليان منذ شهر فبراير ١٩٣١ بمدون هذه الأسلاك ابتداء من بردى سليمان خلف بير الرملة إلى المسيعيد (مساعد) ثم أكملوها في الشهور التالية من المسيعيد إلى الجغبوب بين شهرى إبريل وسبتمبر من عام ١٩٣١ ، ثم مدت هذه الأسلاك إلى ما بعد الجغبوب بمسافة قصيرة وقد بلغ طولها جميعا ثلاثمائة كيلومتر . وأنشأ غرزيباني مراكز مسلحة كبيرة عند كابوتزو بالقرب من السلوم وخلف المسيعيد ، وعند مادينا في منتصف المسافة تقريبا ، هذا عدا المراكز المسلحة الصغيرة التي انتشرت على طول هذه الأسلاك الشائكة في سيدى عمر وشيفرزن وغيرها ؛ فنجم عن ذلك أن انقطع تماما مجىء أية إمدادات إلى السيد عمر المختار في الجبل الأخضر .

ومع ذلك فقد ظل المختار في الجبل يقاوم الطليان على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التي كانت تكثفه من كل جانب واستمر الحال على ذلك حتى حدث في يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ أن وصل إلى الحكومة من دودياشى متصرف الجبل برقية تنبئ بأن مصادمات وقعت بين المجاهدين وقوة من خيالة الحكومة بالقرب من سلطنة ، وأن رجلا من الأهلين وقع في أسرهم وقد عرفه الجند وقالوا إنه عمر المختار نفسه . وكان لهذه البرقية أثر بالغ في دوائر الحكومة ؛ فغادر دودياشى في التو والساعة بطريق الجو إلى مكان هذا الحادث حتى يقف بنفسه على الحقيقة ، لأن دودياشى سبق له أن قابل المختار وتحدث معه في أثناء المفاوضات الطويلة خلال عام ١٩٢٩ . فسهل عليه التعرف على السيد عمر ، كما أعلن المختار عن شخصه فأرسله دودياشى إلى سلطنة ومن سلطنة أرسل المختار بحراسة قوية إلى مرسى سوسة (أبولنيا) فبلغها في اليوم نفسه ، ثم نقلته مركب حربية إلى بنغازي .

وقد فصل أحد الكتاب ما وقع للسيد عمر فقال إن المختار كان قد جرى على عادة

الانتقال في كل سنة من مركز إقامته إلى المراكز الأخرى التي يقيم فيها اخوانه المجاهدون لتفقد أحوالهم . وكان إذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارئ ، يأخذ معه قوة كافية تحرسه من العدو الذي يقربص به الدوائر في كل زمان ومكان ، ولما أراد الله أن يختم له بالشهادة ذهب في هذه السنة كما دته في نفر قليل يقدر بمائة فارس ، ولكنه عاد فرد من هذا العدد ستين فارسا وذهب في أربعين فقط . ويوجد في الجبل الأخضر واد عظيم معترض بين المجاهدين اسمه وادي الجريب (بالتصغير) وهو صعب المسالك كثير الغابات ، كان لا بد من اجتيازه ، فر به السيد عمر المختار ومن معه ، وباتوا فيه ليلتين ، وعلمت بهذا إيطاليا بواسطة جواسيسها المنتشرين في كل مكان ، فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع الجهات بعد أن جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة ، فما شعر السيد عمر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو ، ورأى أنه لا خلاص له من هذا المأزق إلا بالهجوم . فأمر من معه بالهجوم على من يقربهم من العدو في الجهة القبلية ، ودامت المعركة بينهما يومين كاملين . وعلى الرغم من الاحتياطات الشديدة التي اتخذها العدو ، وعلى الرغم من كثرة عدده وعدده تمكن السيد عمر المختار ومن بقي معه من خرق صفوف العدو إلى أن خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا إلى غربي سلطنة ، ففاجأهم قوة طليانية أخرى غير القوة التي حاصرتهم في الوادي ، وكانت ذخيرتهم على وشك النفاذ فاضطرتهم إلى الاشتباك معها في معركة جديدة قتل فيها جميع من بقي معه ، وقتل حصانه أيضا ووقع عليه ، فتمكن من التخلص من تحته ، وظل يقاتل في تلك القوة وحده إلى أن جرح في يده ، ثم تكاثرت عليه الأعداء وغلب على أمره وأخذ أميرا ، وطير الأعداء الخبر بمجرد أن عرفوا شخصه إلى دودياشي .

وعند وصول المختار إلى بنغازي أودع السجن ، وقابله الشارف الغرياني مقابلة قصيرة . للتأكد مرة أخرى من شخصه ، ورفض المختار مصافحته واتهمه بالحياة ، وعزا المختار في حديثه مع دودياشي عند قدومه إلى بنغازي سبب وقوعه في الأسر إلى نفاذ الذخيرة وعجز المجاهدين الذين كانوا معه عن مواصلة القتال ، وأكد للتصرف أن وقوعه في الأسر لا يضعف شيئا من حدة المقاومة إذ أنه قد اتخذ من التدابير ما يكفل انتقال القيادة من بعده إلى أحد أربعة هم حمد بوموسى وعثمان الشامي وعبد الحميد العبار ويوسف بورحيل المسباري وقد تسلم يوسف بورحيل القيادة فعلا بعد ذلك .

واجتهد المختار حتى يقتنع دودياشي - وعلى أمل أن تقتنع السلطات الحكومية بذلك أيضا - أن نشاط المجاهدين مازال في ذروته وأن النور مازال قويا وأن غياب المختار لن يؤثر شيئا في متابعة الجهاد ضد الطليان . فضلا عن ذلك فقد راح المختار يؤكد أن الهجوم

على جرس بنقندن في نوفمبر ١٩٢٩ كان بناء على الأوامر التي أصدرها هو نفسه ، ذلك بأن بادوايو لم يشأ أن يجيب على الرسائل التي بعث بها المختار إليه يطلب منه فيها تنفيذ العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه ؛ وأخيراً قال المختار : إن القبض عليه ووقوعه في قبضة الطليان إنما حدث تنفيذاً لإرادة المولى عز وجل ، وأنه وقد أصبح الآن أسيراً بأيدي الحكومة فإله سبحانه وتعالى وحده يتولى أمره ، وأما أنتم ، فلمكن الآن وقد أخذتموني أن أن تفعلوا بي ما تشاءون ، وليكن معلوماً أني ما كنت في يوم من الأيام لأسلم لكم طوعاً ، . وكان غزيباني وقت القبض على المختار يقضى إجازته في رومة ويعتزم زيارة معرض المستعمرات الفرنسية المقام وقتذاك في باريس ، فوصله الخبر مساء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٣١ وهو بالقطار الذاهب به إلى باريس ، فلم يتابع رحلته بل استقل طائرة أوصلته إلى طرابلس في يوم ١٣ سبتمبر ١٩٣١ ، ووصل إلى بنغازي في اليوم التالي ، ودعا في التو والساعة المحكمة الخاصة أو المحكمة الطائرة ، إلى الانعقاد في يوم ١٥ سبتمبر . وفي صبيحة اليوم نفسه وقبل المحاكمة رغب غزيباني في الحديث إلى الرجل الذي قاد الجهاد ضد الطليان سنوات طويلة نجى . بالمختار إلى سراي الحكومة وأدخل على غزيباني في مكتبه ؛ وكان المختار مقيد اليدين بالسلاسل والأصفاد ويسير بصعوبة ، ويغطي وجهه بحرامه (الجرده) فبدأ لغزيباني — على حد قول هذا الأخير — ولياً من أولياء الله ، لم ينل الأسر والسجن شيئاً من وقاره وجلال هيئته . ويدون غزيباني ما دار من حديث بينه وبين المختار في كتابه المشهور عن « برقة التي نجح في تهديتها » . وكان يقوم بترجمة هذا الحديث ترجمانه الخاص خليفة خالد الذي أحضره معه من طرابلس — على النحو التالي :

غزيباني — (مخاطباً السيد عمر) لماذا حاربت الحكومة الإبطالية هذه الحرب الشديدة ؟
المختار — لأن ديني وأمرني بذلك .

غزيباني — هل كان لديك أي أمل في أنك سوف تستطيع إخراجنا من برقة بهذا العدد القليل من الرجال الذين يناضلون معك ، وتلك المعدات الضئيلة التي تملكها ؟
المختار — كلا ! فإن هذا على ما يبدو كان أمراً مستحيلاً .

غزيباني — ماذا كان غرضك إذن وماذا كنت تبغي ؟
المختار — كنت مجاهداً وكفى . . . أما ماينجم من هذا الجهاد فالامر فيه موكل لله وحده .

غزيباني — ولكنني أعلم أن كتابك (أبي القرآن البكريم) يفرض عليك الجهاد ضد

الكفار إذا كان هناك أى أمل فى النجاح والنصر فقط حتى لا يضر الأهلون أو يلحق بهم
الذى هل يقول (القرآن الكريم) ذلك حقاً ؟ .

المختار - نعم .

غزيبانى - لماذا إذن حاربت ؟

المختار - لأن دينى يأمرنى بذلك .

غزيبانى - كلا . بل الصحيح هو أنك لم تحارب إلا من أجل السنوسية فحسب

وهذا شئ آخر .

[وهنا انطاع غزيبانى بتعدد السنوسية والدوافع التى جعلت المختار يتابع الجهاد ضد
الطليان ، فلم يجبه المختار بشئ . ولكنه على حد قول غزيبانى كان يظهر فى أثناء ذلك
الما شديداً] .

غزيبانى - لماذا نقضت اتفاق السلام وأمرت بالهجوم على جرس بتقندن ؟

المختار - لأنى ظلمت شهرا بطوله أنتظر ردا على خطابى لى بادوليو ولم يجب

بادوليو بشئ .

غزيبانى - هذا كلام من يريد الاعتذار عن عمل طائش أتاه ولا يصح أن يصدر من

رجل مثلك . والواقع أنك نقضت السلم متعمدا ، وإليك الدليل على ذلك .

[ثم يستمر غزيبانى فيقول وقد قرأت عليه المنشور الذى أمضاه ونشرته الصحف المصرية

- ويقصد غزيبانى نداء المختار الذائع فى ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٨ و ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩

- أما المختار فلم يجب بشئ] .

غزيبانى - هل أمرت فعلا بقتل الطيارين أوبر وبياتى ؟

المختار - نعم ، فإن الرئيس وحده هو الذى يتحمل جميع المسئوليات والحرب هى الحرب

غزيبانى - هذا يكون إذا كان هناك حرب فعلا وليست أعمال لصوصية إجرامية

غتل أعمالكم .

المختار - هذه مسألة رأى .

غزيبانى - لقد أضمت بعملك فى جرس بتقندن كل حق فى طلب الرحمة من الحكومة .

المختار - مكتوب ا ولكنى أريد أن أقول [ننى عندما وقعت فى الأسر لم يكن معى

سوى ست خرطوشات فقط ؛ وربما كان لذلك فى إمكانى أن أقتل الجندى الذى أسرد

أو أقتل أنا .

غزيبانى - ولماذا لم تفعل هذا ؟

المختار - لأن ذلك كان من قضاء الله وقدره . إني رجل كبير السن فدعني أجلس .
[وعندئذ يقول غزيباني إن المختار جلس أمام مكتبه وكشف قليلا عن وجهه ، وكان يبدو عليه الهدوء بعد تأثره الأول ؛ وكان جالسا بصورة تمكن غزيباني من رؤية نصفه الجانبي ، ويسترسل غزيباني فيقول وكان وجه المختار ضاربا إلى الحمرة قليلا ، ولم يتالك أن شعر في قرارة نفسه أنه كان أمام رجل تتجسم في شخصه الزمامة بأوضح معانيها حتى أن غزيباني على حد قوله كان وهو يكتب مؤلفه عن برقة لا يزال يشعر بالآثر الذي أحدثته في نفسه ؛ رؤية المختار ، وكيف أنه أدرك لماذا كان المختار صاحب الكلمة المسموعة والرأي الأعلى بين المجاهدين . وقد فاجأ غزيباني المختار بالسؤال الآتي :

غزيباني - كم من الوقت يكفيك حتى تستطيع بمالك من نفوذ وصوله أن تخضع الثوار في الجبل ؟

المختار - أبدأ أبدأ . إني كاسير لا أستطيع فعل شيء . فضلا عن ذلك فقد أقسمنا جميعاً أن نموت واحداً بعد واحد ولا نسلم أنفسنا بتاتا . ومن المعروف تماما أني لم أسلم نفسي إليكم .

غزيباني - من المحتمل لو أننا كنا على اتصال أكثر ، وزادت معرفتنا لبعضنا بعضا ، لكان من المستطاع بالنظر لما لكم من خبرة أن نعمل سويا من أجل الوصول إلى شيء قد يفيد مصلحة السلام .

المختار - ولماذا لا نسعى في سبيل ذلك الآن ؟

غزيباني - لقد فات أوان ذلك . لقد فات أوان ذلك لأنك صرحت بعدم استطاعتك فعل شيء نتيجة لوقوعك في أمرنا .

[ويقول غزيباني إنه عرض على السيد عمر (النظارات) التي أضعها المختار في معركة وادي السانية ، فعرف المختار (النظارات) وقال إنه أضعها في هذه المعركة .]
غزيباني - لقد تأكد لدي من ذلك اليوم الذي عثرنا فيه على هذه (النظارات) أنك يوماً ما سوف تكون في أسرى .

المختار - مكتوب ! أرجع إلى النظارات لأنني لا أرى بدونها . ولكن ما الفائدة ؟ وأنا الآن في قبضتك مع النظارات !

غزيباني - هل كنت تعتقد أن الله (تعالى) سوف يحميك لأنك تجاهد في سبيل قضية عادلة ؟

المختار - نعم .

غزيباني - انصت لما أقول . لقد فر الزعماء أو ماتوا أمام جيوشنا المنتشرة من نالوت إلى جبل برقة ولم أقبض على واحد منهم وهو ما يزال على قيد الحياة . فلماذا تكون أنت ذلك الرجل الذي لا يقهر ولا يهزم أبداً والذي لا يستطيع أن يأسره إنسان، ويوليه المولى حمايته ، لماذا تكون أنت الآن في هذا المكان ؛ ولماذا لا يكون من حقى أن أعتقد أنا الآخر بأن الله (سبحانه وتعالى) يوليني أنا حمايته ورعايته ؟

المختار - الله أكبر !

غزيباني - لا شك أنك كنت طوال حياتك رجلاً شجاعاً ، وإنى لأرجو أن تظل شجاعاً .
عنهما حدث لك أو نزل بك .

المختار - إن شاء الله .

[ويقول غزيباني إن السيد عمر المختار قد فهم في تلك الآونة مصيره المحتوم] .

تلك كانت رواية غزيباني عن مقابله مع السيد عمر . وما يجدر ملاحظته ، أن غزيباني على الرغم من محاولة إظهار سطوة الحكومة في حديثه مع المختار وجعل المختار يظهر في صورة الزعيم الذي كان لا يرجو أملاً في نضاله فيسلك طريقاً لا يتفق على حد قول غزيباني وتعاليم الدين الإسلامى الحنيف . نقول إن غزيباني على الرغم من ذلك كله كان يريد أن يتخذ من المختار أداة طيعة لإخماد جذوة المقاومة ، ولم يحقق المختار أمه . والواقع أن هذا الحديث الذى دار بين غزيباني والمختار فى أثناء هذه المقابلة له قصة مشهورة معروفة . مازالت تتناقلها الألسن إلى يومنا هذا فى القطر الليبى بأجمعه . ومن الثابت أن غزيباني عرض على المختار عفواً شاملاً لقاء أن يكتب المختار بتوقيعه نداءً للجهادين يدعوهم فيه إلى الكف عن القتال والمقاومة ويطلب إليهم أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم للحكومة . فرفض المختار لأسباب أوضحها لغزيباني هى : أن هذا العمل لا يرضى ضميره ودينه ، وفضلاً عن ذلك فإن أحداً لن يصدق صدور هذا النداء من المختار .

وعلى هذا النحو إذن انتهت المقابلة بين الرجلين . وهى مقابلة لم يكن من ورائها فى واقع الأمر أى طائل اللهم إلا التشفى من رجل جاهد فى سبيل الحق والوطن واستطاع أن يدوخ جحافل الظليان بأسلحتها وطائراتها الحديثة من وقت أن بدأ النضال فى سبيل تحرير ليبيا عام ١٩١١ إلى الوقت الذى شاء فيه القدر أو المكتوب ، على حد قول السيد عمر نفسه أن يسقط هذا المجاهد فى قبضة العدو بعد كفاح مزير استمر حوالى عشرين عاماً . ولم يشأ القدر أو

المكتوب ، أن يستشهد المختار في ميدان القتال ، فوق ذلك الرجل الكريم والبطل المجاهد في براتن أعداء لا يردعهم قانون ولا يرعون شرقاً ولا ذمة .

وفي الساعة الخامسة من مساء هذه المقابلة (١٥ سبتمبر ١٩٣١) جرت تلك المحاكمة التي أعد لها الطليان مكان بناء « برلمان برقة » القديم ، وكانت هذه المحاكمة صورية شكلاً وحقيقة لأن الطليان كانوا قبل بدء المحاكمة يوم كامل قد أعدوا (المشنقة) وانتهوا من ترتيبات الإعدام وتنفيذ الحكم قبل صدوره . فضلاً عن ذلك فإن غرزياتي نفسه قد اعترف في ذلك الحديث ، الذي نقلناه عن كتابه بأنه أشعر المختار بالنهاية المحتومة في أثناء المقابلة أي في صبيحة اليوم نفسه الذي جرت في مسائه محاكمة المختار .

ويصف هذه المحاكمة الصورية أحد أبناء ليبيا الأبرار الذين جاهدوا طويلاً ضد الاستعمار الإيطالي ووضع عليهم الطليان رقابة صارمة محكمة ، وسلطوا على رءوسهم السيوف عند أول بادرة للاقتصاص منهم فلم يستطيعوا حراكاً حتى قبض الله لهم ولأوطانهم الخلاص عند اندحار الطليان وأحلافهم الألمان في الحرب العالمية الأخيرة ، ونعني به الدكتور علي نور الدين العنيزي بن الشيخ عثمان العنيزي ، ذلك الشيخ الوقور الذي ترأس البرلمان البرقاوي عند أول انعقاد له ثم انحرف في سلك أعضائه ، وظل يسدى خدمات جليلة لمواطنيه في أثناء الطغيان الإيطالي حتى وفاته .

يصف الدكتور العنيزي هذه المحاكمة فيقول « جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلاً بالحديد ، وحوله الحراس من كل جانب . وكان مكاني في القاعة بجوار السيد عمر ، وأحضر الطليان أحد الترجمة الرسميين واسمه نصرت هرمس . فلما افتتحت الجلسة وبدأ استجواب السيد ، بلغ التأثير بالترجمان حداً جعله لا يستطيع إخفاء تأثيره وظهر عليه الارتباك فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار ترجمان آخر . فوقع الاختيار على أحد اليهود ، وهو لمبروزو ، من بين الحاضرين في الجلسة . وقام لمبروزو بنور المترجم ، وكان السيد عمر رحمه الله جريئاً صريحاً ، يصحح للحكمة بعض الوقائع ، خصوصاً حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتي . وبعد استجواب السيد ومناقشته وقف المدعى العمومي الكولونيل بدندو فطلب الحكم على السيد عمر بالإعدام . وعند ما جاء دور المحامي المعهود إليه بالدفاع عن السيد عمر وكان ضابطاً إيطالياً يدعى الكابتن لونتانو ، وقف وقال « كجندي لا أتردد البتة إذا وقعت عيناى على عمر المختار في ميدان القتال في إطلاق الرصاص عليه وقتله ، وأفعل ذلك أيضاً كإيطالي أمته وأكرمه ، ولكنني وقد كلفت الدفاع عنه فاني أطلب حكماً هو في نظري أشد هولاً من الإعدام نفسه ، وأقصد بذلك الحكم عليه بالسجن مدى الحياة نظراً لكبر سنه

وشيوخه .. ، . وعندئذ تدخل المدعى العمومي وقطع المحدث على المحامي وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته مستنداً في طلبه هذا إلى أن الدفاع قد خرج عن الموضوع وليس من حقه أن يتكلم عن كبر سن عمر المختار وشيوخه . وواقفت المحكمة ومنعت المحامي من إتمام مرافعته . وفضلاً عن ذلك فإنها لم تعين محامياً بدلاً منه ، بل سأل رئيس المحكمة السيد عمر ، إذا كان لديه ما يقوله ، فلما أجاب المختار بالنفي ، انسحبت المحكمة وبعد فترة وجيزة من الزمن عادت من مداولاتها ونطق الرئيس بالحكم فإذا هو يقضي بإعدام المختار ، فقابل المختار ذلك بقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وأراد رئيس المحكمة أن يعرف ما قاله السيد عمر فسأل الترجمان أن ينقل إليه عبارته ، ففعل . وعندئذ بدأ التأثير العميق على وجوه الإيطاليين أنفسهم الذين حضروا هذه المحاكمة الصورية ، كما أخذوا يعلقون على قسوة هذا الحكم مظهرين كدرهم وإعجابهم بشجاعة المختار وبسالته في آن واحد . .

وأما المحاكمة فقد استغرقت من بدتها إلى نهايتها ساعة واحدة وخمس عشرة دقيقة فحسب من الساعة الخامسة مساءً إلى الساعة السادسة والربع . وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي الأربعاء ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠ و ١٦ سبتمبر ١٩٣١ نفذ الطليان في سلوك حكم الإعدام شنقاً في السيد عمر ، وقد حرصوا على أن يجمعوا حشداً عظيماً لمشاهدة التنفيذ فأرغموا أعيان البرقاويين الذين اعتقلوهم في بيته كما أرغموا أعيان بنغازي وعدداً كبيراً من الأهالي من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ ، فحضر ما لا يقل عن عشرين ألف نسمة على حد قول غرزباني . ويقول الدكتور العنزي ، لقد أرغم الطليان الأهالي والأعيان المعتقلين في معسكرات الاعتقال والنازليين في بنغازي على حضور المحاكمة وحضور التنفيذ . وكنت أحد أولئك الذين أرغمهم الطليان على حضور المحاكمة ، ولكنني وقد استبدتني الحزن شأني في ذلك شأن سائر أبناء جلدتي لم أكن أستطيع رؤية ذلك البطل المجاهد على جبل المشنقة فرضت ، ولم يعفني الطليان من حضور التنفيذ في ذلك اليوم المشؤم إلا عندما يقنوا من مرضى وعجزى عن الحضور ، ويألها من ساعة رهيبية تلك التي سار فيها المختار بقدم ثابتة وشجاعة نادرة وهو ينطق بالشهادتين إلى جبل المشنقة . وقد ظل المختار يردد الشهادتين حتى نفذ فيه الجلادون الحكم وعندما وجد هؤلاء أن المختار لم يمت أعادوا عملية الشنق مرة ثانية . .

وعندئذ نقله الطليان إلى مقبرة الصابري في سيدي عييد بالزيريرية بناحية بنغازي فدقنوا جسده الطاهر في قبر عظيم العمق بنوه بالأسمت المسلح وحرصوا على إجراء عملية

الدفن سرا كما أخفوا معالم القبر حتى لا يعثر عليه أحد . وأقاموا على القبر جندا يحرسونه زمنا طويلا خوفا من أن ينقل مواطنوه جثمانه الطاهر . وكان لاستشهاد المختار رنة ألم وحزن عميقين في جميع الأقطار الإسلامية والعربية . وقد رثاه المرحوم أحمد شوقي بك بقصيدة بطويلة ، منها قوله رحم الله الاثنين :

خيرت فاخترت المبيت على الطوى	لم تبين جأها أو تلم ثراء
إن البطولة أن تموت من الظما	ليس البطولة أن تعب الماء
أفريقيا مهد الأسود ولحدها	ضجت عليك أراجلا ونساء
والمسلمون على اختلاف ديارهم	لا يملكون مع المصاب عزاء
في ذمة الله الكريم وحفظه	جسد بركة وسند الصحراء

أما الطليان فقد ظنوا بعد استشهاد المختار أن الدنيا قد دانت لهم فراحوا ياطخون أيديهم بارتكاب تلك الفظائع والجرائم التي جعلت من استعمارهم في بركة وطرا بلس صحائف سوداء ووصحة عار في جبين الإنسانية .

الفصل الحادي عشر

الاستعمار الإيطالي : صحائف سود

كان لاستشهاد السيد عمر المختار أبلغ الأثر في نفوس المجاهدين في الجبل الأخضر لأنهم حرموا بوفاته قائداً محنكا وزعيما استطاع أن يجمع القلوب حوله ويجذب آلاف المجاهدين للانضواء تحت لوائه في مواصلة الكفاح ضد إيطاليا : يقودهم في معارك ومناوشات عدة طوال عشرين عاما . ومع أن المجاهدين أدركوا عظم الخطب الذي ألم بهم وفداخته باستشهاد المختار فإن اليأس لم يتسرب إلى قلوبهم بل إنهم سرعان ما استأنفوا الجهاد تحت قيادة السيد يوسف بورجيل المسباري خليفة المختار في الجبل ، وهو من نخبة قوادهم الذين اشتهروا بالشجاعة وعرفوا بعمد النظر ، وقد أولاه المختار ثقته العظيمة فلازمه في أكثر مراحل الجهاد وأشدّها عنفا . وبدأ المجاهدون عملهم بالهجوم على مراكز الطليان في القاهرية فأفتوا حاميتها وساقوا ما وجدوه بالقاهرية من إبل وأغنام وأبقار إلى معسكرهم في الجبل . وشاء الطليان أن يقوموا بهجوم مماثل فأغاروا على دور البراعة ولكن المجاهدين صدوا لهم وشتوا قواتهم . ثم استأنف الطليان الهجوم فأغاروا على دور العواقر بتكنس فصد لهم كذلك عبد الحميد العبار بمن معه من المجاهدين وهزمهم شر هزيمة . وعلى هذا النحو بدأ النضال من جديد بين المجاهدين والطليان في منطقة الجبل الأخضر .

يبد أن المجاهدين اليواصل بعد هذه الحوادث ما لبثوا حتى وجدوا أنفسهم في حالة على جانب عظيم من الخطورة ذلك بأن إغلاق الحدود المصرية بسبب الأسلاك الشائكة والحاميات القوية التي أقامها غرزياتي على طول هذه الحدود منع وصول أية امدادات إلى المجاهدين ، فضلا عن ذلك فقد انقطعت كل صلة بينهم وبين الأهالي عند ما حشد الطليان هؤلاء في معسكرات الاعتقال وأحاطوهم بسياج من الأسلاك الشائكة كذلك . أضف إلى هذا أن سقوط الواحات الجنوبية بأيدي الطليان واستباب سلطاتهم في فزان وجالو وأوجله ثم في الكفرة أخيراً جعل المجاهدين في عزلة تامة في منطقة الجبل الأخضر ، فكان من أثر ذلك

كله أنه بات مقضيا في الحقيقة على جهوم بالفشل مهما بذلوا من بسالة وعدم مبالاة بالاستشهاد من أجل تحرير الوطن .

ومنذ أن استشهد الزعيم المختار أدرك غرزياني هذه الحقيقة وأخذ يعد العدة لهيئة الأسباب التي تمهد لانقضاء أمد المقاومة في أسرع وقت وأقصر زمن ، فبادر في اليوم التالي لاستشهاد المختار بإصدار بضعة أوامر لمؤوسيه في ١٧ سبتمبر ١٩٣١ يطلب فيها منهم أن يسلكوا طريق الشفقة والرحمة مع الثوار الذين يسلمون أنفسهم بسلاحهم للحكومة ثم وجه منشورا إلى دور عمر المختار ، يدعو المجاهدين إلى التسليم ويعد من يسلمون أنفسهم و بالنجاة من الموت ، وأراد غرزياني بذلك أن يقيم الدليل - على حد قوله - للعالم الإسلامي وسائر الأمم على أن مسئولية استمرار الكفاح في برقة لا تقع على كواهل الحكومة الإيطالية . ومع أن المجاهدين استمروا في جهادهم على الرغم من هذه الوعود وعلى الرغم مما كانوا فيه من جهد ومشقة ، فقد بدأ فريق منهم يرضخ قسرا للحكومة ، فكلف غرزياني المتصرف دودياشي أن يقيم في شحات ومعه الشارف الغرياني وثلاثة من المشايخ الذين استسلموا للحكومة وهم على بورحيم وفرجاني بوالعجب وحسن بوصالح وذلك لمقابلة المستسلمين وإدخال الطمانينة إلى نفوسهم . وحاول فريق آخر من المجاهدين الخروج إلى برقة والاتجاه إلى القطر المصري خصوصا ، ولكن (الدوريات) الإيطالية نشطت تمنع هذه المحاولات بكل وسيلة واستشهد كثير من المجاهدين في أثناء محاولة اجتياز الأسلاك الشائكة . وفي ١٥ ديسمبر ١٩٣١ أصدر غرزياني منشورا آخر يدعو فيه المجاهدين إلى التسليم ويطمئنهم على حياتهم إذا هم سلخوا طوعا للحكومة ، وأصدر في الوقت نفسه التعليمات إلى المتصرف دودياشي بأن يكرس جهوده لاستمالة المجاهدين بمختلف الطرق للتسليم إلى الحكومة واستثنى من ذلك فقط أعضاء الأسرة السنوسية الذين أصر غرزياني على تعقب أفرادها ومنعهم من العودة إلى الوطن أو البقاء في برقة . وعندما شعر المجاهدون بشدة حروجة مركزهم في الجبل الأخضر واستحالة المضي في النضال قرر زعمائهم وقادتهم اجتياز الحدود إلى القطر المصري بأية وسيلة باستطاع جماعة منهم أن يفعلوا ذلك ولكن عثمان الشامي لم يلبث أن اضطر إلى التسليم للحكومة في يوم ١٦ ديسمبر ١٩٣١ في عين الغزالة ، فأحضره غرزياني بطريق الجو إلى بنغازي ثم أوفده إلى شحات كي ينضم إلى بقية المشايخ الذين كانوا مع دودياشي لاستقبال المجاهدين الذين يسلمون أنفسهم للحكومة . وهكذا بقي السيد يوسف بورجيل المساري وحده يقود البقية الباقية من المجاهدين . على أن نهاية السيد يوسف كانت قريبة ، فقد اشتبك مع قوات الحكومة في معركة كبيرة عند سقيفة حفاز بالقرب من أم ركة في يوم ١٩ ديسمبر ١٩٣١ واشتهد

السيد يوسف بورجيل في هذه المعركة . وأما عبد الحميد العبار وجماعة من المجاهدين فقد استطاعوا الإفلات من قبضة الطليان وتمكنوا بعد مشقة من اجتياز الحدود إلى الأراضي المصرية في ٥ يناير ١٩٢٢ وهكذا لم تنقض أربعة شهور على استشهاد السيد عمر المختار حتى كان الطليان قد أخذوا كل مقاومة في الجبل الأخضر ودانت برقة بأجمعها (وبالتالي القطر الليبي) لسلطانهم . وكان من أثر ذلك أن التي غرزياتي خطبة طويلة في أوائل فبراير ١٩٢٢ في بنغازي ذكر فيها « انتصار ، الحكومة وأشاد بقيمة العمل الذي قام به والتأخر ، العظيمة ، التي يرى أنها عنوان مجد ونخار له . وقال غرزياتي أنه كان ينبغي بعد اخماد هذه الثورة التي أشعلها المختار وصحبه في الجبل أن يغزو مصر ذاتها فلا تقف جنوده على الحدود المصرية ولم ينمه من ذلك سوى عجزه عن تحقيق أمنيته لأن المسؤولين في رومة كانوا يرون خلاف ما يراه ، على أنه لو كان الأمر بيده لانطلق يغزو مصر ذاتها ولاخضع هذه البلاد بكل سهولة . ثم اختتم غرزياتي خطبته موجها الكلام لسامعيه من أبناء العرب فقال « أما أنتم فعليكم الآن أن تمثلوا للقوانين الفاشيستية . قوانين حكومة صاحب الجلالة ملك إيطاليا والصادرة من الدوتشي (موسوليني) ، فإذا فعلتم فانكم تتلون كل خير وهناك لاشك في ذلك ا ،

ولكن كانت هذه وعودا معسولة . وما كان في استطاعة الطليان أن ينفذوا شيئا منها ، وما كان يرجى منهم أن يجلبوا الخير والهناء إلى بلاد بيتوا النية منذ سنوات الغزو الأولى على إقناء أهلها وإبانتهم . بل إن الاستعمار الإيطالي في عهد غرزياتي نفسه صاحب هذه الوعود سرعان ما وصل إلى درجة من الشدة والصرامة كانت تهدد بالقضاء على العرب واجتثاثهم من الأقطار الليبية كلها لولا أن عناية المولى سبحانه وتعالى تداركت العرب فحلت الهزيمة بالمستعمرين الطليان في الحرب العالمية الأخيرة .

وقصة الإستعمار الإيطالي قصة طويلة محزنة تتميز من بدايتها إلى نهايتها بطابع خاص يحم من تلك الجهود التي ظل الطليان يبذلونها نيف وثلاثين عاما من أجل استئصال العرب أهل البلاد وإعادة إنشاء تلك المستعمرة الرومانية القديمة التي كانت للرومان في هذه الأصقاع في العصور الخوالي . ومن بداية عهد احتلالهم للأقطار الليبية (منذ ١٩١١) تجرد الطليان سواء في أثناء عملياتهم العسكرية أو بعدها من كل شعور إنساني فاقرنت أعمالهم بتلك الفظائع التي جعلت من استعمارهم صحائف سود ليس فقط في تاريخهم بل وفي تاريخ الإنسانية قاطبة .

ويمر تاريخ الإستعمار الإيطالي في ليبيا في دورين هامين ، يبدأ أولهما من وقت نزولهم في ليبيا في عام ١٩١١ وينتهي عند الوقت الذي تسلم فيه الفاشيستيون أزمة الحكم في إيطاليا في أكتوبر ١٩٢٢ ، وأما الدور الثاني فيستمر من عهد الانقلاب الفاشيستي إلى

وقت قيام الحرب العالمية الثانية ثم زوال دولتهم نهائيا من ايديا اى حوالى عشرين عاما من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٤٣ . وفى كلا الدورين كانت نكبة الطليان التى جعلتهم ينزلون بالبلاد صنوف الكوارث أنهم لم يستطيعوا بتاتا أن يحرروا أنفسهم من تلك العقدة النفسية ومركب النقص الذى لازمهم وكان ناشئا من دخولهم متأخرين إلى حلبة الإستعمار كدولة حديثة تريد أن تحتل مكانها فى مصاف الدول العظيمة . فقد خيل إليهم الوهم بسبب العقدة النفسية ومركب النقص الذى قض مضاجعهم من زمن طويل أن الإيقاع بالأهلين المسلمين وإنزال صنوف العذاب بهم سواء كانوا رجالا قادرين على حمل السلاح والجهاد ضد العدو أو كانوا نساء وأطفالا وشيوخا لاقدرة لهم ولا حيلة ، من علامات البأس والقوة وجبروت السلطان ، فاقترنت أعمالهم عند غزو البلاد وفى أثناء محاولتهم إخماد مقاومة المجاهدين بالقسوة والصرامة . ومنذ أن وطأت أقدامهم أرض ليبيا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الإعتداءات والجرائم الشنيعة .

ولعل أفظع تلك الجرائم التى ارتكبتها الطليان عند نزولهم فى ليبيا وأسوأها أثرا ما فعلوه عقب سقوط مدينة طرابلس عندما أوقع الطليان بالأهلين فى ناحية المنشية فى ١٢ أكتوبر ١٩٤١ . فقد ادعى الغزاة زورا وبهتانا أن أهل هذه الناحية عمدوا إلى اغتيال الجنود متفرقين وأنه لامعدى لذلك عن الانتقام منهم . فقتل الطليان من الأهلين عددا يتراوح بين أربعة وسبعة آلاف نسمة ومثلوا بالكثيرين وهتكوا أعراض النساء ، وأمعن الغزاة الفاتحون فى التشكيل بهؤلاء الأهالى فنواحوالى تسعمائة منهم وألقوا فى غياهب السجون أعدادا عظيمة من الرجال والنساء ، فكان هذا الحادث فاتحة تلك المأسى التى ذهب ضحيتها مئات الألوف من البرقاويين والطرابلسيين فى الأعوام التالية .

ولما كان المجاهدون قد تقربوا إلى الحرب يصلونها على الطليان نارا حامية ، فقد درج هؤلاء على الإلتقام لكل هزيمة لحقت بهم بالفتك بالأبرياء أو إلقائهم فى السجون أو نفيهم إلى إيطاليا . فضلا عن ذلك فقد أخذوا يدمرون ما كانوا يصادفونه فى أثناء زحفهم من بلدان سائلة وغير محصنة ضارين بإصول الحرب وقوانينها عرض الحائط فعلوا ذلك بقسوة زواره لم تكن محصنة ، وهذا عدا هتك أعراض النساء فى كل بقعة كانوا يحلون بها ، وشتى الرجال من غير تحقيق أو محاكمة جماعات كما حدث فى مدينة طرابلس ودرنه وغيرها ، ولما أعجزتهم الحيلة فى مراحل الحرب الأولى ولم يستطيعوا مغادرة مراكزهم الساحلية ، صاروا يفتكون كل عربى يقع فى أيديهم ويريد عمره على الرابعة عشرة أو ينفونه إلى خارج البلاد بدعوى أن هؤلاء النساء كانوا يحاربونهم فى مؤخرتهم . وكان من حوادث الفتح ، القطيعة ما فعله

الطليان في يوم ٢٦ أكتوبر ١٩١١ عندما أشعلوا الحرائق في أحد الأحياء الواقعة خلف بنك رومة في طرابلس بعد أن ذبحوا أكثر سكان هذا الحي الذي التهمته النيران ، ولم يسلم من فقتهم النساء والأطفال والشيوخ العجزة .

وقد توالى أفعال الانتقام والإبادة والتشريد بصورة جعلت المراسلين الأجانب الذين صحبوا حملة الجنرال كانيقا يحتجون على ارتكاب هذه الفظائع ويعثون بتفاصيلها إلى صحفهم علمهم بذلك يوقظون ضمير الإنسانية من سباته ، ويضعون بفعلهم هذا حداً لفظائع الطليان وجرائمهم . فكتب جرائد مراسل جريدة الديلي ميرور يصف حادثاً اتقم فيه الإيطاليون لهزيمتهم في إحدى المعارك في ٢٧ أكتوبر ١٩١١ بأن أعدموا رمياً بالرصاص حوالي خمسين نسمة بين نساء وأطفال في ثكنة فرسانهم في مدينة طرابلس ، وأن فرانسوا كولا — وهو صحفي إنجليزي رافق الحملة وكان مكاتبا لعدة صحف إنجليزية وأمريكية — أن يبقى مع جيش ، لا هم له — على حد قوله — إلا ارتكاب جرائم القتل ، لأن ما كان يراه من المذابح وترك النساء العرب المريضات يعالجن مع أولادهن سكرات الموت على قارعة الطريق جعله يكتب للجنرال كانيقا كتابا شديد اللهجة ذكر فيه أنه يرفض البقاء مع جيش لا يمكن أن يعتبره جيشا بالمعنى المعروف وإنما مجرد عصابة من قطاع الطرق والقتلة . . وهذا حذو (ما كولا) مكاتب آخر ألماني هو فون جوتبرج فقال : إنه لم يفعل جيش مع عدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس ، فقد كان الجنرال كانيقا يستهين بكل قانون حربي ويأمر بقتل جميع الأسرى سواء كان يقبض عليهم في ميدان القتال أو في بيوتهم ، ويوجد الآن في سيرا كوزه — بجزيرة صقلية — كثيرون من الأسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب ، بل إن أكثرهم كانوا من الجنود الذين تركوا مرضى في مستشفى طرابلس . ووصف (هرمان دنول) المراسل النمساوي كثيرا من هذه الفظائع التي شاهدها وفعل ذلك أيضا سائر مراسلي الصحف الأجانب من إنجليز وفرنسيين وألمان .

وظال الطليان يرتكبون هذه الفظائع في الأعوام التالية ، فاستمروا يشنقون ويعدمون الأهالي الذين بقوا في المدن والقرى والنواجع ولم ينخرطوا في جيش المجاهدين ، ثم ياتقون من نجا منهم في غياهب السجون وينفون جماعة أخرى إلى إيطاليا وصقلية ، كما أنهم ظلوا يهتكون أعراض النساء ويقررون بطون الحبالى منهن ويصادرون أموال أهل البلاد ويغتصبون الأرض منهم . فضلا عن ذلك فقد امتد طغيان الغزاة حتى شمل محاربة المسلمين في عقائدكم فدمر الطليان دون مسوغ حربي مسجد سيدي عزيز في الفناح بالقرب من درنة (١٩١٢) ، وأمعنوا في إهانة الدين الإسلامي ومنعوا الأهالي من إقامة شعائرهم ، وصار

جنودهم يدخلون المساجد وهم عسكريون ازدراء بالمسلمين وتعطيلا لعبادتهم ، وقد منعت الحكومة الإيطالية الأهلين في عام ١٩١٣ من أداء فريضة الحج بدعوى أن الوباء منتشر في الحجاز ، ثم زاد امتياعهم للدين الإسلامي في المدة التالية بدرجة شنيعة فكان من أسوأ فعالمهم أن ألقى قائد طبرق الإيطالي بالمصحف الشريف إلى الأرض ثم أخذ يقرأ عليه بقدمه على مشهد من جماعة من الأهلين وهو يقول ، إنكم معشر المسلمين لا يمكن أن تصيروا بشرا ما دام هذا الكتاب بين أيديكم ، . وعند جنودهم في البيضاء إلى ضريح سيدي رافع الأنصاري الصحابي الجليل فخر به واتخذوا منه ومن غيره من الأضرحة والمساجد (اصطبلات) لدوابهم وخيولهم .

ومنذ عام ١٩١٣ بدأ الطليان يسخرون العرب في بناء القلاع وتعميد الطرق ويستخدمونهم في غير ذلك من الأعمال الشاقة المنهكة . وفي العام التالي ١٩١٤ جند الغزاة حوالي أربعة آلاف مجند من أفضية ترهونة ومسلاتة وزليطن ومصراته واشترك فريق من هؤلاء بقيادة رمضان السويحلي في معركة القرصانية المشهورة ضد السنوسيين وهي المعركة التي انحاز في أثنائها رمضان السويحلي إلى جانب السنوسيين ضد الطليان فهاقت بالطليان الهزيمة في آخر مارس ١٩١٥ . وصمم هؤلاء على الانتقام لأنفسهم فأحضرُوا ما كان لديهم من رهائن من أبناء العرب وقتلوهم صبوا شرقتة ثم تركوا جثثهم طعاما للوحوش غربى قصر سرت ، ثم أمعنوا في انتقامهم فأحرقوا حوالي عشرين نسمة من أهل تاورغة في المحل المسمى قرارة مريم وصادروا أملاكهم . وواقع الأمر أن الطليان بعد هزيمتهم في هذه الموقعة ما لبثوا أن أضاعوا رشدهم كلية فصاروا يقتلون الناس ويحرقون المنازل لمجرد التشنج والانتقام ، وتكررت هذه الفظائع في السنوات التالية . فكثرت أعمال القتل والإرهاب في أفضية مصراته والزاوية وغيرها حتى غدت فظائع الطليان بين عامى ١٩١٤ — ١٩٢١ خصوصا صفحات متسلسلة الحوادث متشابهة الوقائع ، فلم يفتروا لحظة واحدة عن القتل والتعذيب والنكابة بالعرب والضغط على حرياتهم والعبث بأرواحهم واغتصاب أملاكهم ونهب أموالهم وإحراق بيوتهم وسبي نساءهم وتييم أطفالهم وتنصيرهم . فقد نشط الميشرورن الطليان في دعوتهم وعمدت الحكومة إلى إرغام النساء على التنصر والزواج من الطليان ، ثم أخذ هؤلاء يعملون للقضاء على الأخلاق الإسلامية وبث روح الكبت في المدارس بين الأطفال ، والقضاء على معارف أهل البلاد والتعليم الدينى . وتناول نشاط الطليان المكروه ميدان الاقتصاد والمال فأماتوا الصناعات والتجارة الوطنية وصاروا يراحون الأهلين في صناعاتهم البسيطة مهما كانت هذه قليلة الشأن ضئيلة القيمة ، ويدبرون البلاد بالشدة والقسوة حتى عمت الفوضى وقام السيف والمدفع مقام القانون . ومنع الأهلون من رفع ظلامتهم أو

الشكوى مما كان يحل بهم من ضروب التعذيب إلى السلطات المختصة ، وقيد الطليان حرياتهم فنعمهم من محادثة بعضهم بعضا ومن قراءة الصحف والمجلات والكتب الأذبية ومن مراملة أقاربهم أو من كان بينهم وبين الليبيين علاقات في الأقطار الأخرى حتى صاروا في شبه سجن داخل بلادهم محرومين من كل صلة تربطهم بالعالم العربي خصوصا .

وقد بلغ من أثر هذه التدابير الظالمة وخطة الافناء والتشريد التي جرى عليها الطليان أن نقصت النفوس (تعداد اهل البلاد) نقصا هائلا ودرجة مروعة حتى أن هيئة الاصلاح المركزية التي تألقت عقب مؤتمر غريان في نوفمبر ١٩٢١ بادرت بفحص هذه الحالة المحزنة فأسفر ما قامت به من تحقيق دقيق لمعرفة عدد من أبعثوا عن ديارهم ولم يعودوا وأولئك الذين أهلكهم الطليان بوسائل شتى عن إحصاء كل هؤلاء من بداية الاحتلال في عام ١٩١١ إلى وقت تأسيس الهيئة المركزية في عام ١٩٢١ فبلغوا ستا وستين ألف نسمة ، وهذا عدا من استشهد من العرب في ميادين القتال . وقد حدث ذلك كله في مدة عشرين عاما تقريبا من وقت مجيء الطليان إلى ليبيا إلى وقت حدوث ذلك الانقلاب الحكومي الذي مكن الفاشيست من الوصول إلى الحكم في إيطاليا بزعامه بنيتو موسوليني في أكتوبر ١٩٢٢ .

وكان وصول موسوليني وصحبه إلى الحكم كارثة كبرى على الشعوب العربية في برقة وطرابلس لأن مجيء الفاشيست كان مؤذنا في الحقيقة ببداية صفحة أخرى من صفحات الفظائع الإيطالية في ليبيا وهي فظائع فاقت في قسوتها كثيرا كل ما حدث في عهد الحكومات الإيطالية السابقة . ذلك بأن الفظائع الإيطالية بين عامي ١٩١١ - ١٩٢١ كانت نتيجة لاندفاع دولة إيطاليا الموحدة بزعامه بيت سافوي الملكي في طريق الاستعمار لإشباع تلك الشهوة التي نشأت من رغبة الطليان الملحة في التخلص من شعور النقص ومعالجة هذه العقدة النفسية بامتلاك المستعمرات حتى تنخرط دولتهم في سلك الدول الأوروبية العظيمة . وأما الفظائع التي ارتكبتها الطليان بعد ذلك في ليبيا - وكانت أشد وأقسى - فقد نجمت من رغبة الفاشيست في أن يعيدوا مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وكان من وسائل ذلك على حد قولهم أن تصبح ليبيا مقاطعة رومانية لحاودما .

وعلى ذلك فقد قامت خطة الفاشيست أو سياستهم الاستعمارية على أساسين هامين : (أولهما) امتلاك البلدان العربية القائمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وهي المنطقة التي شهدت اتساع الإمبراطورية الرومانية القديمة في مختلف أدوارها ، وأضحى الآن ذلك المجال الحيوي ، والذي لا غنى عنه لتوسع الإمبراطورية الرومانية الجديدة التي يعتزم الفاشيون إنشائها . (وثانيهما) إبادة أهل هذه البلاد العربية وإفنائهم حتى يتسنى إرسال

أبناء الطليان إلى القطر البرقاوى الطرابلسى ، كي يبدأوا به حياة مستقرة موطدة ويجعلوا من هذه الأقطار رقعة لاتينية ، يسهل إدماجها بعد ذلك في جثمان الامبراطورية الرومانية المنشودة . فكان من نتيجة ذلك أن صار يتميز تاريخ الاستعمار الايطالى في ليبيا منذ وصول الفاشية إلى الحكم ١٩٢٢ إلى وقت اشتعال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ بحدوث سلسلة أخرى من الفظائع والنكبات والكوارث كانت تفوق في فداحتها ما وقع من فظائع في السنوات السابقة لسبب واضح جلى هو أن جماعة الفاشيست كانوا يسرون قدما ودون أى تردد نحو غاية واحدة هي إفناء الشعوب العربية بهذه البلاد وإبادتها . ولذلك ففي استطاعة المرء على ضوء هذه الاعتبارات والحقائق أن يرسم صورة كاملة للاستعمار الايطالى في ليبيا في عهد السيطرة الفاشيستية .

ويسير الاستعمار الايطالى في عهد هذه السيطرة في دورين ظاهرين استمر أولهما من وقت حدوث الانقلاب الحكوى في إيطاليا في عام ١٩٢٢ إلى الوقت الذى تقضى فيه الطليان عهودهم بعد اجتماع سيدى رحومه في عام ١٩٢٩ . بينما استمر الدور الثانى من ذلك التاريخ إلى وقت قيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ . والسبب في هذا التقسيم - وهو تقسيم شكلى في الحقيقة أكثر من أى شىء آخر - أن الطليان الفاشيست لم يكونوا في خلال الدور الأول قد أتموا استعدادهم لتصويب ضربتهم القاتلة للقضاء على حركة المقاومة والجهاد في برقة وطرابلس فاعتمدوا أكثر ما اعتمدوا في هذا الدور على المختاتلة والمراوغة ونقض العهود وكسب الوقت ومحاوله إغراء المجاهدين حتى يرضوا بالعيش الذليل في كنف الدولة المستعمرة ، فبدأ الطليان في هذه المرحلة تلك المفاوضات الطويلة التى سبق ذكرها مع السيد عمر المختار وصحبه . حتى إذا أتموا استعداداتهم العسكرية وتبين لهم في الوقت نفسه عبث محاولاتهم السياسية ، كشفوا القناع عن نياتهم الصحيحة وانطلقوا ينفذون « برنامجهم » الاستعمارى بكل قسوة فأعدموا المختار وقضوا على قوات المجاهدين وأفتوا مئات الألوف من العرب في سنوات قليلة ولم ينقذ البلاد من الفناء والإبادة سوى قيام الحرب العالمية الثانية وانضمام الشعب اللبى الباسل إلى جانب الأمم الديمقراطية يكافح من أجل الخلاص من ربة الاستعمار والتحرر من طغيان الفاشيستية . وعلى ذلك فقد تميزت فعال الطليان في هذه المرحلة بأمر معين . أولها نقض العهود التى ارتبطوا بها مع الأمة اللبية ، ثم ارتكاب الفظائع ليس فقط لإبادة العرب وإفنائهم بل ولمجرد الانتقام من الأهلين المسلمين مما كان يلحق بهم من هزائم على أيدي المجاهدين بقيادة زعيمهم السيد عمر المختار ، وأخيرا الامعان في

وسائل الاغتصاب والإبادة والإفناء لتحقيق برنامجهم الاستعماري وتحويل البلاد إلى مقاطعة «لاتينية» .

ونقض الطليان لعهودهم قصة طويلة تبدأ من الوقت الذي غزوا فيه ليبيا في عام ١٩١١ ، فقد قطعت إيطاليا على نفسها العهود والمواثيق عند ما عقدت مع تركيا معاهدة أوشى في ١٨ أكتوبر ١٩١٢ ، ومع سمو السيد إدريس معاهدة طبرق أو عكرمة في ١٤ إبريل ١٩١٧ ، وأصدرت القانونين الأساسيين لبرقة وطرابلس في غضون عام ١٩١٩ ، ثم أبرمت معاهدة الرجعة مع السيد إدريس في ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ ، ووافق بادوليو على الشروط التي قدمها السيد عمر المختار في سيدي رحومة في يونيو ١٩٢٩ . وفي كل هذه العهود والمواثيق تعهدت إيطاليا باحترام الدين الإسلامي والمحافظة على شعائره واحترام لغة البلاد وتقاليده العرب وأعلنت أنها لا تتوى أصلاً أن تمتلك أراضي الأفراد أو الجماعات أو الزوايا السنوسية ، وأن تصون حقوق الملكية والحريات الشخصية وأن تفتح باب العمل في ميادين النشاط الحر أمام أهل البلاد وتمكينهم من شغل الوظائف الإدارية والعسكرية على قدم المساواة مع الطليان أنفسهم . وفضلاً عن ذلك فقد تعهدت إيطاليا بإنشاء الحكومة النيابية وإشراك الأهالي في برقة وطرابلس في إدارة شئونهم بأنفسهم واعترفت بالأمارة السنوسية ، وبأن يكون لأهل طرابلس الحق في اختيار الأمير الذي ترضى بإمارته أي الحق في اختيار سمو السيد إدريس للإمارة على نحو ما فصلناه في الفصول السابقة

ولكن ماذا فعل الفاشيون بجميع هذه العهود التي قطعها الحكومة الإيطالية على نفسها؟ لقد تقدم كيف راوغ الطليان في تنفيذ القانون الأساسي في طرابلس حتى عقد العرب مؤتمر غريان وبايع الطرابلسيون سمو السيد إدريس بالإمارة ، وفي برقة سعى الطليان جدياً حتى يقوضوا أركان الحكومة الوطنية الرشيدة التي أنشأها الأمير وبلغ من غدورهم وخيانتهم أنهم دسوا السم للأمير ثم حاولوا القبض على السيد صفي الدين وأمره . وعند ما أفلت السيد صفي الدين من قبضتهم وغادر الأمير برقة صبوا سهام غضبهم على الشيخ صالح العوامي فألقوا به في غياهب السجن في بنغازي . ومع أنهم كانوا قد تعهدوا للسيد صفي الدين بعدم إلحاقه بالأذى به لم تحل من الشيخ المتقدمة وكان يناهز التسعين دون التشكيل به فأنهالوا عليه ضرباً بالعصى حتى استشهد في أيديهم فحملوه إلى مكان مجهول دفنوا به جثمانه إمعاناً في النكاية به حتى بعد وفاته . .

وكان من مظاهر غدور الفاشيست وخيانتهم ما فعلوه مع أحد أعضاء ذلك الوفد الذي تقرر في مؤتمر غريان إرساله إلى رومة للمفاوضة مع ولاية الأمور بها في الظروف التي سبق

ذكرها ، فقد تسنى للحزب الفاشيستي وعلى رأسه موسوليني قبل وصوله إلى الحكم أن يتصل بأعضاء الوفد ، وتعهد موسوليني « بتأمينه لمطالب البلاد الوطنية والقومية وقال إنه لن يتوقف عن إثارة حملة عنيفة ضد حكومته إذا حاولت اكتساح البلاد الطرابلسية البرقاوية بالحديد والنار ، . ولكنه بمجرد أن دانت السلطة للفاشيست ورجع الوفد إلى بلاده صفر اليدين من مفاوضاته بايطاليا قبضت حكومة موسوليني على الدكتور عبد السلام البوصيري (ترجمان) الوفد وأحد أبناء العرب الأذكياء الذي كان قد اضطر إلى التخليف وحكمت عليه بالسجن المؤبد في مدينة طرابلس .

ومع أن جميع الاتفاقات والعهود التي ارتبط بها الطليان كانت تنص على ضرورة احترام العقائد الدينية والشعائر الاسلامية فقد تفتن الطليان في ابتكار الطرق والوسائل التي من شأنها إلحاق الاهانة البالغة بهذه الشعائر والأذى الفادح بشيوخ المسلمين وعلماهم ثم بمساجدهم وأما كن عباداتهم . فالزموا أئمة وخطباء الجوامع بالدعاء على المنابر أيام الجمعة لملك إيطاليا عما توبيل الثالث ، وعندئذ امتنع الناس عن صلاة الجمعة ، فلما ذاع خبر هذا الخبر وسبب هياج الخواطر في العالم الاسلامي وكثرت احتجاجات الصحف في مصر وسوريا خصوصا ، ارغمت الحكومة الايطالية الأئمة والخطباء على كتابة تكذيب ذيلوه بتوقيعاتهم جاء فيه أن الدعاء للملك عما توبيل الثالث إنما كان بمحض ارادتهم ومن تلقاء أنفسهم ومن غير تدخل من جانب الحكومة الفاشيستية .

وفي عهد المارشال بادوليو زاد تدخل الحكومة في شئون الدين فصاروا ابتداء من عام ١٩٢٨ بمنعون الناس من أداء فريضة الحج تارة ويضعون العراقيل في سيلهم تارة أخرى حتى يجبروهم على تركه ، ذلك بأنهم كانوا يخشون من اختلاط الحجاج الليبيين بغيرهم فتسرب أخبار فظائع الطليان إلى العالم الاسلامي . وكان من الوسائل التي ابتدعوها لمراقبة الحجاج الليبيين أنهم أنشأوا في مكة المكرمة داراً كبيرة حتموا على الحجاج من الطرابلسيين والبرقاويين الإقامة بها في أثناء الحج حتى يبعدوهم عن مخالطة اخوانهم من سائر المسلمين . وعلاوة على ذلك فقد دسوا بينهم أناسا من صنائعهم للتجسس عليهم ، وأنذروا كل لبي محمدته نفسه بزيارة السيد أحمد الشريف — وكان رحمه الله يقيم بمكة قبل وفاته في عام ١٩٣٣ — بالعقوبة الشديدة . وفي عام ١٩٣٧ منع الطليان من الحج كل من سبق لهم تأدية هذه الفريضة أو كان لا يبلغ الأربعين من عمره . وعند ما أثاروا بعملهم هذا سخط المسلمين في أنحاء العالم عادوا في العام التالي فسمحوا لقليلين ممن منعوهم من الحج في عام ١٩٣٧ . وكان عهد المارشال بادوليو الذي عين حاكما عاما على ليبيا في عام ١٩٢٩ مليئا بالفواجع

والمآسى ، فقد بدأ الطليان فظائعهم الجديدة منذ عام ١٩٢٨ ، عند ما أخرجوا من واحة الجغبوب العلماء وطلاب العلم فكان من أجلوهم عن هذه الواحة السيد حسن السنوسى شيخ زاوية الجغبوب والشيخ أحمد اليوسف والشيخ الفضيل الكبش وغيرهم ونفوا معهم نساءهم وأطفالهم إلى حيث لا يعلم أحد تعلم اليقين ، وإن كان هناك من يرجح أن الطليان قد أجلوهم إلى بردى سليمان . وقد حدث فى أثناء نقلهم أن سقط من السيارة الشيخ صالح المصهارى فلم يخلوا به فمرت عليه السيارات الأخرى وأودت بحياته .

وفى سنة ١٩٢٩ جمع الجنرال غرزبانى جميع مشايخ السنوسية والذين يتولون أوقافها وآئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة وسجنهم جميعاً فى مركز بنينة وكان بناء قديماً لا سقف له ذاقوا فيه مر العذاب جوعاً وعطشاً ، ثم نقلوا إلى سجون إيطاليا ، وبعد أن مكثوا بها مدة أعيدوا إلى بنينة فهلك منهم كثيرون جوعاً وتعباً ومرضاً . وكان من بين الذين لقوا حتفهم جماعة من أفاضل القوم وخيارهم نذكر منهم السيد عمران السكورى شيخ زاوية المرج وكان السيد عمران فى طليعة المجاهدين الذين لبوا نداء الجهاد عند اعلان الحرب اللبية الإيطالية فى عام ١٩١١ ، ثم السنوسى بن جلول شيخ زاوية البراعصة ، والسنوسى ابن ميلود شيخ زاوية المرازيق والسنوسى الهانى شيخ زاوية أم ركة وادريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . وفى هذا العام أيضاً ١٩٢٩ أجلى الطليان البقية الباقية من الإخوان السنوسيين فى الجغبوب فأرسلوهم مع أسراتهم إلى قضاء جالو مشياً على الأقدام تحت رحمة الجنود الذين ساروا بهم يسوقونهم سرق الأنعام حتى يلحقوهم بأخوانهم فى سجون بنينة وسلوق وغيرها من المعسكرات التى اعتقل فيها غرزبانى عرب برقة بأجمعهم ، فمات كثيرون من الشيوخ والنساء والأطفال جوعاً وتعذيباً . ثم عمد الطليان بعد ذلك إلى إغلاق جميع الزوايا السنوسية ومصادرة أملاكها .

وكان صاحب اليد الطولى فى ذلك نائب اللوالى فى برقة الجزال غرزبانى . فقد اعتبر غرزبانى هذه الزوايا السنوسية مراكز سياسية وإدارية الغرض منها نشر الدعاية للسنوسية والعمل على إنشاء الصلات الوثيقة بين الأهالى والمجاهدين وإطلاع المجاهدين خصوصاً على تنقلات القوات الإيطالية وتدابيرهم العسكرية . وفضلاً عن ذلك فقد كانت هذه الزوايا تجمع أموال الزكاة فترسل أكثرها على حد قول غرزبانى مع الإيرادات المتحصلة من أوقافها إلى أعضاء الأسرة السنوسية ثم يأخذ ما يتبقى منها بعد ذلك مشايخ الزوايا أنفسهم ، وقدر غرزبانى إيرادات هذه الزوايا - ما عدا جغبوب والكفرة - بحوالى مائتى ألف ليرة إيطالية سنوياً . وعلى ذلك فقد شرع غرزبانى بتنفيذ خطته المدبرة فى صيف (عام ١٩٣٠) فبدأ بالقاء القبض على

جميع مشايخ الزوايا في كل برقة في يوم واحد (٢٩ مايو سنة ١٩٣٠) وصادر ما يملكون . وفي أوائل يونية أصدر منشوراً حذر فيه الأهالي من دفع أموال الزكاة وهدد كل من يفعل ذلك بتوقيع عقوبة الإعدام عليه ، وبلغ عدد مشايخ الزوايا الذين قبض عليهم غرزياني واحداً وثلاثين شيخاً جمعهم في باديء الأمر في بنية ثم أرسلهم بعد ذلك إلى أوستيكا ، وقد نقلتهم إلى سيرا كوزة في يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٣٠ . نفس المركب التي حملت السيد حسن ابن الرضا السنوسي إليها . وكان لإغلاق الزوايا السنوسية ومصادرة أملاكها أعظم الأثر في نفوس العرب حتى أولئك الذين كانوا مواليين للحكومة الإيطالية .

وكان في هذه الظروف أن بدأ يكتب في (بريد برقة) — وهي جريدة موالية للحكومة في ظاهرها — في مسألة هذه الزوايا وأملاكها المصادرة ، أحد أبناء برقة الذين حصلوا على قدر كبير من الثقافة واتخذوا من ضرورة الانصياع إلى أوامر السلطات المحلية ذريعة لبذل قصارى الجهد مع المستعمرين العتاة حتى يعدلوا عن ركوب متن الشطط في أساليبهم والمهلكة . ونعني به السيد عمر نغري المحيشي ، وكان من سراة القوم ووالده الحاج سالم باشا المحيشي من أعظم بيوتات بنغازي . وكان عمر نغري المحيشي يتولى رئاسة التحرير في جريدة (بريد برقة) ووجد أن يتخذ من جريدته على الرغم من سيطرة الحكومة عليها وسيلة لإبلاغ إندارات الحكومة وما تتوى فعله إلى المجاهدين في عبارات ظاهرها التشديد بأعمال (الثوار) والخض على التسليم للحكومة ، وفي باطنها وفي خلال السطور إشعارهم بمدى نشاط الحكومة حتى يتخذوا الحيلة لأنفسهم .

وزيادة على ذلك فقد كان من ذاب عمر نغري المحيشي أن يحاول دائماً الحد من بطش وطغيان الحكومة ، فيعند إلى إنشاء المقالات الطويلة يكيل فيها المدح والثناء على أعمالها ، ولكنه يشير بطريق خفي إلى الطريقة المثلى التي يجب عليها اتباعها تحقيقاً للعدالة وتنفيذاً للقانون . وقد ظل المحيشي على عهده ، فكان جندياً مجاهداً وإن اختلف فضاله عن نضال سائر المجاهدين الذين استشهدوا في الحروب التي شنوها ناراً متأججة على الطليان في برقة وطرابلس . وزاد موقف المحيشي خطورة كما زادت قيمة الجهود التي أخذ على نفسه أن يبذلها في خدمة الوطن عند ما نجح الطليان في إخماد المقاومة في برقة ثم انطلقوا في عهد غرزياني وإيتالو بالبو ينفذون برنامج الاستعمار الإيطالي على أساس إبادة العرب وإفنائهم . ولكن المحيشي ظل رابط الجأش يرجو أن يستنقذ من برائن المستعمر بعض الحقوق وأن يخلص أبناء جلدته من الموت والفساء على أيدي الجلادين الطليان حتى دانت ساعة الخلاص واستطاع الإنجليز وأحلافهم أن يجلوا الطليان عن برقة ، وعرف الإنجليز قدره فظل المحيشي

مستمعا بثقة مواطنيه حتى وفاته في بداية الاحتلال الانجليزي الثاني لهذه البلاد في يناير من عام ١٩٤٢ .

وللسيد عمر نغرى المحيشى مقالات عدة في (بريد برقة) طرب منها غرزياني وقتذاك ، ولكنها كانت مليئة بالنصح والإرشاد لمواطنيه المجاهدين وتمنحهم من منية تقديم المصالح الشخصية والعائلية على مصلحة الوطن . وعندما أمر غرزياني باغلاق الزوايا السنوسية ومصادرة أملاكها انبرى المحيشى يكتب في (بريد برقة) في ٦ يونيو ١٩٣٠ مقالا يردد فيه دعاوى غرزياني من أنه لا ضرورة لوجود هذه الزوايا ، ولكنه لم يكن في وسعه أن يمنع الشر وقت نزوله ، حاول في هذا المقال أن يقتنع الحكومة بأن الحق والعدل يقتضيان أن تنفق الأموال المصادرة وإيرادات هذه الزوايا في الأغراض الدينية والخيرية تنفيذا لإرادة الواقفين لأن ذلك من شأنه أن يساعد على حد قوله على إظهار حسن نوايا الحكومة . . . يد أن هذا المقال لم يحدث الأثر المطلوب وعلى نحو ما أراد صاحبه منه ، إذ استصدر غرزياني مرسوما في ٨ يونيو ١٩٣٠ باغلاق جميع الزوايا ومصادرة أموالها وصدر مرسوم ملكي بذلك في ٢٢ ديسمبر . وفي أوائل فبراير من العام التالي أرسلت الحكومة الإيطالية في رومة مستشاراً قضائياً هو الدكتور فرنتدوقالزى لإحصاء الزوايا وتنظيم قيد أملاكها المصادرة ونقل ملكية الزوايا وأوقافها إلى الحكومة . وبدلاً من اتفاق هذه الأموال في أغراض دينية وخيرية ، استخدمتها الحكومة في محاربة الدين الإسلامي وتنفيذ سياستها الاستعمارية على نحو ما سبق بيانه . . .

وعندما اشتدت مقاومة المجاهدين وأدرك الطليان أنه لا سبيل إلى التغلب على العرب إلا باتباع أساليب الإبادة والإفناء ، كان القضاء على اللغة العربية ، لغة الدين ودعاة قومية العرب ، ثم العمل على تنصير العرب وإضعاف الدين والأخلاق من الوسائل التي تدرعوا بها لتحقيق هذه الغاية ، فأغلقوا المكتاتب ودور العلم الوطنية وأنشأوا بدلاً منها مدارس إيطالية ، ثم أكثروا من إقامة دور الفحش والدعارة وعملوا على تنصير المسلمين وإرغامهم على اعتناق الكاثوليكية . وبدلوا في هذا الأمر الأخير جهوداً جبارة ، إذ أنهم سرعان ما صاروا يملأون البلاد بجيش من المبشرين وينفقون الأموال الطائلة في سبيل نشر الكاثوليكية والتبشير بالمسيحية ، ثم أنشأوا كنيسة كبيرة في مدينة طرابلس وعدة كنائس في الزاوية وزوارة ونالوت وفرن وغريان وزليطن والخمس ومصراتة وبنغازي ودرنة ، وهذا عدا الكنائس الكبيرة في الجبل الأخضر . وكانت معظم هذه بلاد لا يكاد يوجد بها مسيحي واحد .

وبلغ امتحانهم بالدين الحنيف درجة جعلت بادوليو يأمر بأن ترصف (الصالة) في قصره بالبلاط منقوش عليه (محمد) صلى الله عليه وسلم تسليماً .

أما القضاء الشرعي في ليبيا فقد أصبح أداة عاطلة باطلة ذلك بأن تعيين القاضي (الشرعي) أصبح في يد الحاكم الإيطالي وهو لذلك تعيين باطل في نظر الدين الإسلامي . وزيادة على ذلك فإنه ما كان ينفذ شيء من الأحكام التي تصدر — على قلتها — إلا إذا وافقت على ذلك دائرة البوليس أو (الكربنيري) . وما زاد الطين بلة وعده المسلمون أهانة بالغة لهم ولدينهم أن الأحكام الشرعية صارت تصدر باسم عماتويل الثالث ملك إيطاليا ، وتسكتب الأحكام الشرعية على ورق مزين برسم الصليب ويرغم القاضي أو كاتبه بكتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) أو (الحمد لله رب العالمين) تحت رسم هذا الصليب في أعلى الورقة .

وتصل ياهانة شعائر الدين الإسلامي محاولة القضاء على اللغة العربية إلى جانب سائر المظاهر الوطنية في القطر الليبي ، ويتناول ذلك شؤون التعليم وطمس معالم العروبة في البلاد فمن المعروف أنه كان في ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي ثقافة إسلامية دينية ذات معاهد أنشئت على وجه الخصوص لنشر هذه الثقافة ، منها جامع أحمد باشا وجامع كورجي ومدرسة عثمان باشا وزاوية الزروق في مصراته . ثم كان الطرابلسيون والبرقاويون يقصدون إلى جانب ذلك الجامع الأزهر الشريف في مصر وجامع الزيتونة في تونس للتزود من الثقافة الدينية بهذه الأقطار المجاورة . وفضلاً عن ذلك فقد كان بالبلاد ثقافة أخرى عصرية عثمانية، إلى جانب هذه الثقافة الدينية ، إذ كانت المدارس أيام العثمانيين في برقة على درجتين : ابتدائية وثانوية (أو رشدية) ، كما أنشئت في طرابلس مدرسة إعدادية للعلوم والفنون العسكرية ؛ وعلى قمة هذه المدارس كان خريجوها يشغلون المناصب الكثيرة في الدولة العثمانية ذاتها . غير أنه حدث عند مجيء الطليان أن انقطع معين الثقافة العثمانية ، وعلى ذلك فقد ظل الأهلون إلى جانب تمسكهم بالثقافة الدينية يرغبون في نوع جديد من الثقافة يجمع بين أمور الدين والدنيا معاً لمصلحة الفرد والجماعة ولخير الملة والوطن . فحرصوا في جميع الاتفاقات التي أبرموها مع الطليان على أن يتعهد هؤلاء بجعل التعليم في برقة وطرابلس موضع عنايتهم على أساس احترام لغة البلاد وتقاليدها . بيد أن الطليان جرياً على عادتهم في نقض عهودهم سرعان ما صاروا ينشئون المدارس التي عنيت فقط بنشر نوع خاص من الثقافة الإيطالية كان يتلاءم مع أغراضهم الاستعمارية فحسب ، أخذوا يدعون إليه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، فبلغ ما أنشأه الطليان من هذه المدارس في ليبيا حتى عام ١٩٣٩ تسعين مدرسة تضم ٩٤٣٣ تلميذاً ، ١٠٥٥ تلميذة ، وجعلوا في كل مدرسة من هذه المدارس نوعين من التعليم : نوع

إيطالي وآخر عربي ، ثم جعلوا للعلم الإيطالي كل السلطة حتى يدير المدرسة كيفما شاءت أهواؤه . وبذلك صار أبناء العرب في هذه المدارس يرغمون على دراسة كل المواد المقررة بها حتى الغناء الإيطالي والنشيد الفاشيستي .

وكانت هذه المدارس بمثابة مدارس ابتدائية يدعى الطليان أنها مخصصة لتعليم العربية إلى جانب الإيطالية . بينما كان أبناء العرب يلقنون بها الحروف الهجائية وشيئا قليلا من القرآن الكريم والحساب وبعض القواعد العربية البسيطة وذلك في مرحلة من التعليم تبلغ خمس سنوات ومنع الطليان - إلا في حالات استثنائية نادرة - أبناء العرب بعد الفراغ من هذه المرحلة من أن يلتحقوا بالمدارس الثانوية التي يجري التعليم فيها باللغة الإيطالية . وأمام هذا النقص الواضح في التعليم وأساليبه رأى الليبيون أن يبعثوا بأبنائهم إلى تونس وإلى مصر إلى (الأزهر الشريف) لتلقى العلم ، وكره الطليان أن يجيء الليبيون إلى الأزهر على وجه الخصوص ، فابتدعوا فكرة (المدرسة الإسلامية العليا) أنشأها إيتالو بالبو ونظم دعابة واسعة عن طريق الإذاعة والنشر في الصحف حتى يحث الناس على إرسال أبنائهم إليها بدلا من إرسالهم إلى الأزهر . ولكنه سرعان ما وضع غرض الطليان من إنشائها هذه المدرسة عند ما وجد الليبيون أنها كانت مقيدة بنفس القيود التي قيد بها التعليم الابتدائي ، واقتصرت مهمتها على تلقين الدروس البسيطة . فضلا عن ذلك فقد نصب الطليان على مدخل (المدرسة الإسلامية العليا) صليبا كبيرا . وفي الوقت الذي فرض فيه الطليان القيود العديدة حتى يقللوا من عدد الراغبين في الحضور إلى مصر للتزود من العلوم التي تدرس بالأزهر الشريف أخذوا يشجعون الليبيين على الذهاب إلى رومه ويصرفون المال لأبناء العرب الذين يذهبون إلى رومه - طلبا للعلم أنى كان وحيثما وجد - من الأوقاف الإسلامية .

فكان التدخل في مسائل التعليم الإسلامي على هذه الصورة من أظهر الوسائل التي عمد إليها المستعمرون للقضاء على الثقافة العربية الصحيحة بأوسع معانيها . وعلاوة على ذلك فقد سعى الطليان سعيا حثيثا حتى يطمسوا في الوقت نفسه كل معالم العروبة في البلاد واتخذوا لذلك تدابير عدة ، فغيروا في المدن أسماء الشوارع والميادين والحارات واستبدلوا بها أسماء إيطالية كتبوها بحروف إيطالية فاخفتت الأسماء العربية القديمة من بنغازي ودرنة والتمس وجميع المدن الساحلية خصوصا .

وكان من أثر محاولاتهم القضاء على اللغة العربية أنهم صاروا يحولون دون وصول الخطابات إلى أصحابها ما دامت هذه غير معنونة باللغة الإيطالية . وزيادة على ذلك فقد دأب الطليان على إظهار إحتقارهم لكل لباس عربي وازدراء صاحبه ازدراء شديدا والسخرية منه حتى إن

كثيرين من الليبيين اضطروا إلى تغيير الزى العربى فرارا من الإهانة فى بلد لا يملكون فيه رفع الأذى عن أنفسهم ، ثم أرغمت الحكومة المديرين والعمد العرب على ترك زيهم وأن يستبدلوا به الزى الأفرنجى .

يد أن هذه المحاولات جميعا ما كانت لتفت من عضد الليبيين الذين ظلوا متمسكين بالعروبة ، فذهبت جميع المساعى التى بذلها الطليان لاجتثاث أصولها أدراج الرياح . وأظهر الليبيون شعورهم المكبوت فى كل مناسبة ، وكانت المناسبات التى أفصحوا فيها عن حقيقة شعورهم كثيرة ، لعل من أبرزها ما حدث فى مدينة طرابلس فى غضون عام ١٩٣٧ عندما حدث فى إحدى دور السينما أن بدت فى أثناء العرض سفينة مصرية تحمل عليها المصرى فآخذ الحواس من جمهور النظارة الليبى كل مأخذ ، واندفعوا يصفقون تصفيقا شديدا وطويلا بدرجة أثار حتى النظارة الطليان وغيظهم فقابلوا هذه المظاهرة بصفير الاستهزاء والسخرية وارتفع الصياح من كل جانب وعلا الضجيج واشتبك الفريقان فى مشادة عنيفة لم يفضها سوى تدخل الشرطة . وقد تكرر هذا الحادث عندما مثلت فى العام نفسه رواية صلاح الدين الأيوبى .

على أن أهم ما لجأ إليه الطليان لتحقيق مآربهم الاستعمارية كان إنزال ضروب التقتيل والتشريد والتعذيب بالليبيين لإبادتهم وإفنائهم حتى إن الطليان ارتكبوا من الفظائع فى العهد الفاشيستي ما لم يحدث له نظير فى كل تاريخ إستعمارهم . ذلك أن الفاشيستي ما لبثوا عند بدء حكمهم فى عام ١٩٢٢ حتى قبضوا على عدد عظيم من العرب القوا بهم فى السجون ظلما وعدوانا لأسباب تافهة أو من جراء وشاية كاذبة .

وبمجرد أن نقضت حكومتهم عهودها واستؤنف الجهاد عند الطليان إلى الانتقام لأنفسهم من المجاهدين بتوقيع عقوبات الإعدام والنفي والتشريد على الأهلىن العزل فى البلدان التى سقطت بأيديهم فقتلوا فى عام ١٩٢٣ من أهالى أفضية جفارة وزليطن ومسلاته ومصراته عند احتلالها ما يزيد على ألف رجل صبوا أمام نسايتهم وأطفالهم ، بل إنهم أمعنوا فى إجرامهم بصورة تجرح العزة الإنسانية وكرامتها وتدل على الجبن والنذالة فأتوا بعشرة سيدات من أهل جفارة فجردوهن من ثيابهن وشنقوهن عاريات وأبقوهن سبعة أيام معلقات على هذه الحالة وعلاوة على ذلك فإنهم ما لبثوا حتى أحرقوا عدة قرى فى ضواحي أفضية طرابلس وبنغازى ومصراته ودرنة كما أحرقوا القرى بمن فيها فى نواحي مسلاتة وزليطن ومصراته عند احتلالها . كان القدر والحياة من الوسائل الفعالة التى لجأ إليها الطليان لإبادة الليبيين وتنفيذ مآربهم إن حكومتهم كثيرا ما كانت تعلن العفو عن الأهلىن وتؤمنهم على حياتهم وأموالهم حتى إذا طمأنت نفوسهم واستسلموا للحكومة فتكت بهم وصادرت أموالهم .

وقد ذهب ضحية هذا الغدر عدد عظيم من رؤساء القبائل وكبار الليبيين ووجهاتهم ؛ ولا يزال الليبيون يذكرون والحسرة تملأ قلوبهم والألم يحز في نفوسهم ما فعله الطليان بهم عندما احتفلوا في مدينة طرابلس في ١٨ أكتوبر ١٩٢٣ بمرور السنة الأولى على زحفهم المزعوم على رومه ، فقد صاروا يطلقون الرصاص في أثناء هذا الاحتفال في الشوارع والطرق ويصوبون أسلحتهم إلى صدور المسلمين ، ثم لم يتورعوا عن اقتحام المساجد وراه اللاتجين إليها ، فظلوا يقتلون ويجرحون من عثروا عليهم في داخل المساجد حتى كانت بحجرة كبيرة لم يوقف شرها بعد فوات الوقت وسفك الدماء الغزيرة سوى تدخل السلطات المحلية ، ثم اتضح فيما بعد أن سبب هذه المذبحة كان رغبة الطليان في الانتقام من هزيمة لحقت بهم على أيدي المجاهدين في زاوية المحجوب بقضاء مصراته .

وواقع الأمر أن حب الانتقام والتشفى من المسلمين كان يزداد لدى الطليان عاما بعد آخر بقدر إصرار المجاهدين على الكفاح وإلحاق الهزيمة بالعدو المغتصب حتى إنه عند مجيء المارشال بادوليو جاكما على برقة - طرابلس في عام ١٩٢٩ كان الضغط على الليبيين قد بلغ أقصى حدوده مما جعل كثيرين منهم يفضلون الموت في أحضان الصحراء المحرقة ، على البقاء في ظل حكومة تريد إفناءهم وإبادتهم . فبلغ عدد الليبيين الذين هاجروا إلى السودان الغربي الفرنسي فرارا من ظلم الطليان وجورهم في مدة ست سنوات فحسب حوالي ربع مليون مسلم . وقد حدث في عام ١٩٢٨ حادثان أليمان دل أحدهما ، ولم يكن الأول من نوعه على أن الطليان ما كانوا يعرفون للأعراض قيمة ، فطالما هتكوا حرمت وتجاوزوا على أعراض نساء شريفات ، وذلك بأن ثلاثة من ضباطهم في قضاء جالو طلبوا ثلاث عربيات للاستمتاع بهن ، فتمكنوا من اغتصاب اثنتين وأما الثالثة فقد قر بها أبوها ، وبجت من برائتهم . وأما الحادث الثاني فكان يدل على تفنن الطليان في ابتكار أساليب التنكيل بالأهلين المسلمين ، وتلخص وقائع هذا الحادث في أنهم ، ألقوا جماعة منهم الشيخ عبد الحسيب أبا عمران البرعصي والشيخ الكدن العبيدي وأحمد خليل السعيطي من طيارة من علوه ، ٤٠ متر من المكان المعروف بجردس الصيد بالجبل الأخضر . وربطوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدي وابن عمه صالح علي بين سيارتين دفعوهما إلى اتجاهين مختلفين فتقطعت أجسامهما إربا إربا أمام قيلتتهما المستسلة القاطنة بجوار المعسكر الفاشيستي في تاكنس .

وعندما فشلت مساعي الطليان في استمالة السيد عمر المختار وبقية المجاهدين إلى التسليم للحكومة نقض بادوليو العهد الذي قطعه على نفسه في اجتماع سيدي رحومة وأحضر الطليان (جزار طرابلس) غرزياتي صاحب السمعة السيئة لقيادة العمليات العسكرية ، وبدأ الطليان

صفحة أخرى كانت من أسود الصفحات التي زخر بها تاريخ استعمارهم ، ذلك بأن غرزياتي ما لبث حتى شمر عن ساعد الهمة والنشاط في تنفيذ خطة الإبادة والإفناء في أشنع صورها . فكانت أهم وسائله في تحقيق ذلك اثنتان : إنشاء المحكمة العسكرية الخاصة أو المحكمة الطائرة ، ثم حشد العرب في المعتقلات التي تحوطها الأسلاك الشائكة . وكان إنشاء المحكمة الطائرة في ابريل ١٩٣٠ ، وعقدت أول اجتماعاتها في المرج وذلك لمحاكمة رجلين من العرب اتهمتا بقتل أحد الطليان ومحاكمة ثلاثة آخرين اتهموا بالتستر ، على المجاهدين . فأصدرت المحكمة حكمها بإعدام الجميع ونفذ الحكم في الرجلين الأولين وأما الثلاثة الآخرون فقد استبدل بهذا الحكم السجن مدة ثلاثين عاماً ، وذلك — على حد قول غرزياتي — لأن هذه كانت أول محاكمة من نوعها . وفي اليوم التالي أصدر غرزياتي منشوراً وجهه إلى مشايخ ورؤساء برقة يذكر فيه ما حدث وينذرهم بأن الحكومة سوف تعتبر المضالعة مع المجاهدين والتستر عليهم خيانة للدولة ، نصيب مرتكبيها الأعدام ، وإن استبدال السجن بالإعدام في هذه الدفعة لم يكن إلا منا من الحكومة وكراً لحسب ، أما وقد أُنذر الأهليون فإن أحكام الأعدام سوف تنفذ في التو والساعة . وقد سوغ رئيس هذه المحكمة الجنرال أوليغيري انشاءها عندما خطب في حضور لسونه وكيل المستعمرات الإيطالي عند زيارته للبلاد في يونيو ١٩٣١ فقال إن هناك صلة قوية تربط بين الثوار ، وبين الأهليين الذين خضعوا لسلطان الحكومة . وأن المشايخ والرؤساء في المناطق الخاضعة للحكومة ما زالوا يمدون المجاهدين بالأموال فيرسلون إليهم العثور — أموال الزكاة — من المرتبات التي كانت تدفعها لهم الحكومة ، ثم هم فضلاً عن ذلك يستخدمون ما لديهم من نفوذ بين الأهليين في مصلحة المجاهدين بينما يتظاهرون أمام الطليان بالولاء للحكومة . وزيادة على ذلك فإن هؤلاء المشايخ والرؤساء كانوا يحثون العرب في المناطق الخاضعة للطليان على الانخراط في سلك الجندية وذلك حتى يستطيعوا إمداد الثوار ، بالسلاح والذخيرة وبعض المال الذي يقطعونه من مرتباتهم . بل إنهم كثيراً ما كانوا ينضمون بأسلحتهم ومؤنهم إلى المجاهدين عند ما يأتيهم الأمر بذلك . وكان مما زاد الطين بلة أن القوات الإيطالية التي تخرج للاشتباك مع العدو ، كثيراً ما كانت تجد نفسها — على حد قول أوليغيري — مشتبكة في مناوشات عدة من جراء الهجوم على جناحها ومؤخرتها ، وما كان يفعل ذلك سوى أولئك الأهالي الذين قدموا خضوعهم للحكومة . وكان بعد أن فرغ أوليغيري من خطبته أن اتخذت عدة تدابير من بينها إقرار المحكمة الطائرة على المضى في خططها من غير شفقة أو رحمة . وكانت هذه المحكمة الخاصة تنتقل بالطائرة إلى المكان الذي يقع فيه الحادث ، حتى تنزل العدالة من السماء ، على حد قول غرزياتي ، فتعقد

جلساتها في الهواء الطلق في الميادين العامة في المدن وعند التواجف . وكانت إجراءات المحاكمة والتنفيذ تتم بسرعة عظيمة فلا يسمح للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم ولا تفحص المحكمة شهادة الشهود ، بل يكفي مجرد الاتهام لاستصدار الحكم بالإعدام على المتهمين . وقد شهد إحدى جلسات هذه المحاكمة الرحالة الدانمركي كنود هلييو الذي زار برقة في غضون عام ١٩٣٠ فوصف إجراءات المحاكمة الطائرة وأساليبها .

فقد وقع حادث في درنة في شهر مايو من عام ١٩٣٠ ملخصه أن رجال الشرطة الطليان (الكربنيري) اكتشف ذات يوم أن أربعة من العرب المقيمين في معسكر أعد لهم خارج أسوار المدينة ، وكان هؤلاء قد استسلموا للطليان فتزعت السلطات سلاحهم ، - اكتشف أن هؤلاء العرب الأربعة قد أعطوا خبزاً وطباقاً إلى المجاهدين في الجبل خفية ، فألقى القبض عليهم فوزاً وأودع الأربعة السجن وأثار القبض عليهم وسجنهم اهتماماً عظيماً في درنة ، فذكر كثيرون كيف أن العرب في معسكرهم كانوا على وشك الموت والهلاك جوعاً لأن المجاهدين من جهة ظلوا يشنون الغارة عليهم بسبب تسليمهم بينما منعهم الطليان من جهة أخرى من الدفاع عن جماهم وأغنامهم بسبب منعهم من حمل الأسلحة . أما أكبر الأربعة الذين قبض عليهم الطليان فكان رجلاً مسناً بلغ السبعين من عمره يعول زوجة وتسعة أولاد ، وكان الثاني يبلغ الأربعين وله ثلاثة أطفال صغار أما الثالث فكان فاقد النطق والسمع ، بينما كان الرابع شقيقاً للأول ولا زوجة له . وقدمت مسألة هؤلاء الأربعة للفحص أمام المحكمة العرفية فأحضرت الطائرة القاضي إلى درنة في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ٢٩ مايو وجرى فحص المتهمين في جلسة علنية حضرها كنود هلييو ، وجرت المحاكمة باللغة الإيطالية وعهد بالترجمة إلى الأستاذ على الجربي - وكان الأستاذ على أسعد الجربي قد اتهم فرصة زيارة الرحالة الدانمركي لبلاده فأمدّه بمعلومات كثيرة تكشف عن حقيقة الاستعمار الإيطالي في ليبيا ، ثم مكن كنود هلييو من أن يتصل في الخفاء بكثير من أبناء ليبيا الذين أرغموا إرغاماً على خدمة الحكومة الإيطالية وسيف القوة الغاشمة مسلط على رؤوسهم ، فاستطاع الرحالة الدانمركي بفضل ذلك أن يرسم صورة واضحة لفعال الطليان بالأقطار الليبية . وقد كلفت السلطات الحكومية عند وقوع حادث درنة الأستاذ على الجربي بمهمة نقل أسئلة المحكمة إلى اللغة العربية ونقل إجابة المتهمين إلى الإيطالية .

وبمجيء المتهمين الأربعة أمام المحكمة التي تألفت من رئيسها وبعض الضباط الطليان ، بدأ القاضي بسؤال أكبر المتهمين سناً ويدعى أحمد بن عبد القادر طالباً منه الاعتراف باعطاء

الخيز والطباق للجاهدين . وعندما صمت المتهم ولم يجب صرخ القاضي في وجهه ووخزه أحد الشرطة في ظهره فأجاب المتهم بالإيجاب ، وعندئذ قال القاضي ، حسنا يكفي هذا ! المتهم الثاني ا ، . وفي أقل من لحظة كان القاضي قد حصل من المتهم الثاني على إجابته تشبه إجابة الأول ، فنحى جانبا . ولما كان المتهم الثالث أصما أبكما فقد ترك دون سؤال ؛ ثم جاء دور المتهم الرابع وهو أصغر المتهمين سنا ويدعى (إدريس) وتبدو عليه النجاسة . فأعاد عليه القاضي نفس السؤال وطلب منه الاعتراف بجرمه . ولكن إدريسا رفض أن يفعل ذلك ، ثم قال : إن المجاهدين ولا شك كانوا يأخذون أغنامنا إذا رفضنا اعطاءهم الخيز والطباق ، وليس لدينا ما ندافع به عن أنفسنا فكيف نستطيع إذن أن نمنعهم ا ، فلما قال القاضي : كان في وسعك أن تطلب (الكرنيري) من درته ، . أجاب : إن القرآن الكريم يمنع تسليم المسلمين للسيحيين ، فلم يأبه القاضي بطبيعة الحال بهذا الدفاع وأصدر حكمه على الفور بإعدام ثلاثة منهم بإطلاق الرصاص عليهم من وراء ظهورهم ، كما يجب أن يعامل أولئك الذين يخونون إيطاليا ، على حد قوله ، وأطلق سراح الأباكم الأصم . ولما سأل أحمد بن عبد القادر بواسطة الترجمان الأستاذ على الجربي ، عما إذا كان مستظاعا أن يخفف هذا الحكم رحمة بأولاده التسعة قال القاضي : لا تعرف المحكمة العرفية سوى أحد أمرين ، إما البراءة وإما الإعدام ا ، . وعندئذ وضعت الأغلال في أيدي الرجال الثلاثة وأركبوا سيارة كبيرة سارت بهم في الطريق المؤدى إل السجن ، ولكن لم يلبث أن انقطع صوت محركها فجأة ، فخيم على المكان سكون عميق ، حتى إذا انقضت خمس دقائق فقط دوى في الفضاء صوت أعيرة نارية كثيرة أطلقت جميعها في وقت واحد ، ثم أعقبها صوت طلق ناري منفصل . فلما استفسر كنود هلييو عن السبب أجابه عربي : لقد تعودنا يا سيدي سماع ذلك لأن هؤلاء النساء لا يموتون سريعا عندما يطلق الرصاص على ظهورهم من الخلف ، ولذلك يتقدم أحد الضباط للأجهاز على كل من يبقى فيه رفق من الحياة بإطلاق رصاصة على رأسه .

تلك كانت قصة المحكمة الطائفة التي ابتكرها شيطان غرزياني « جزار لييا » ويقول غرزياني منشئا أن هذه المحكمة فصلت في أربعائة حادث في المدة المنقضية من وقت انشائها في ابريل ١٩٣٠ إلى شهر مارس من العام التالي أي في أثناء السنة الأولى فقط من حكم غرزياني في برقة . وكان عدد المتهمين الذين اشتركوا في هذه الحوادث سبعائة لم تستطع الحكومة أن تقدم منهم للحاكم سوى ثمانين وأربعين وأربعائة فحسب لأن فريقا من المتهمين تمكنوا من الفرار واضطرت الحكومة إلى حفظ الدعاوى المقامة ضد فريق آخر منهم لأسباب شتى . وأصدرت المحكمة أحكاما بالإعدام والسجن ضد خمسين ومائتين منهم ثم

برأت الباقيين لعدم ثبوت أى شئ ضدهم . ومع ذلك فان غرزيانى وغيره من الطليان لم يذكروا شيئاً عن نشاط هذه المحكمة الطائرة في السنوات التالية . وكان الذى دفع غرزيانى لإثبات هذه الإحصائية خلال عام ١٩٣٠ - ١٩٣١ محاولته أن يدفع عن نفسه تهمة سفك الدماء التى ألصقتها به الصحف فى جميع أنحاء العالم العربى والإسلامى على وجه الخصوص ثم فى بعض البلدان الأوروبية .

على أن ما ارتكبه جزار ليبيا من فظائع تقشعر من هولها الأبدان عند ما حشد العرب فى معسكرات الاعتقال كان يفوق كثيراً تلك المجازر التى وقعت على أيدى قضاة المحكمة الطائرة وجلادها . فقد تقدم كيف أن جمع العرب وحشدهم فى معسكرات الاعتقال كان أحد التدابير التى زعم غرزيانى أنه لا تناس من اتخاذها لمنع كل صلة بين الأهالى والمجاهدين بقيادة السيد عمر المختار فى الجبل الأخضر . وكان القضاء على المقاومة فى الجبل من المسائل التى شغلت تفكير غرزيانى وعكرت عليه صفو الحياة فعقد العزم على اتباع كل طريقة من أجل إخماد هذه المقاومة والقبض على السيد عمر المختار ؛ من ذلك أنه وضع جائزة مالية كبيرة لكل من يأتبه بالمختار حياً أو ميتاً ، وفى ١٨ مايو ١٩٣٠ أرسل منشوراً إلى دوائر الحكومة حتى تبذل قسارى جهدها فى استمالة الأهالى وحضهم على مساعدة الحكومة والابتعاد عن مؤازرة المختار ، بل وحملهم على محاربة الثورة ، ذاتها وفى ٢٢ مايو زار غرزيانى الأيسار وجمع أعيانها وخطب فيهم شارحاً سياسة الحكومة ، ويلغهم عزمها على نزع الأسلحة ويحذرهم من الاتصال بالثوار . فنشرت جريدة (بريد برقة) هذه الخطبة ووزعت منها ألوف النسخ فى أنحاء البلاد . وفى عدد آخر أذاعت (بريد برقة) خبر اجتماع عقده غرزيانى فى مكتبه ، تكلم فى أثنائه عن تلك المرتبات الضخمة التى تدفعها الحكومة للأعيان دون أن يفعل هؤلاء شيئاً فى نظير هذه المرتبات التى يتقاضونها والتى ربما كانت تزيد فى بعض الأحيان على ما يتقاضاه غرزيانى نفسه بوصفه نائب الوالى فى برقة . وكان غرزيانى يقصد بقوله هذا الشارف الغريانى . ثم أضاف دوماً إذا أردتم أن تقيموا البرهان على أنه فى مقدوركم أن توقفوا الثورة فالوسيلة الوحيدة لذلك هى أن تأتوا إلى قائلين أن عمر المختار قد حضر بعساكره أمام أبواب بنغازى يريد أن يسلم نفسه للحكومة دون قيد أو شرط ، . ثم ذكر غرزيانى أنه عمد إلى جمع نواجع الأهالى حول المراکز حتى يقطع كل اتصال قد يحدث بينهم وبين الثوار . وأخذ غرزيانى يصف أعمال العمران التى تمت فى طرابلس نتيجة لانهاء المقاومة بها ووعد بإرسال من يشاء من الحاضرين إلى طرابلس حتى يروا بأنفسهم ما تم من هذه الأعمال العمرانية الباهرة بفضل استقرار السلام والهدوء فى طرابلس . وما يحذر ذكره أن غرزيانى ما لبث أن حقق وعده

فتألف وفد من البرقاويين بضم السيد عمر نخري المحيشي والدكتور علي نور الدين العنيزي والشيخ محمد بن مسعود والشارف الغرياني وجماعة آخرين، وقد سافر هذا الوفد إلى طرابلس. ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتيجة. وعندئذ لم يجد غرزياتي على حد قوله، وكما كتب بعد ذلك يبرر فعلته الشنيعة مناصا من البدء في حشد العرب في المعتقلات بصورة جديدة.

واستغل غرزياتي عمله الوحشي بأن جمع (١٨٩٦) أسرة من قبيلة العبيد وحشدها بالقرب من المرج، ثم جمع (١٤٠٠) أسرة من الدرسة حشدها بالقرب من طليشة، وجمع في منطقة درنة (٣٦٠٠) أسرة كانت تمتد خيامها إلى ناحية المخيلي، وفعل مثل ذلك أيضا في منطقة شحات. وفي شهر يونيو ١٩٣٠ كانت قد اتسعت دائرة هذه الأعمال لحشد غرزياتي جميع أهل الدفنا في عين الغزالة. وكان حشد العرب في عين الغزالة من المآسى التي لا يحو ذكرها الزمن. فقد أُنذرت الحكومة جميع الأهالي في برقة الشرقية بالاجتماع في عين الغزالة في خلال ثلاثة أيام فقط وأُنذرت كل من يتخلف منهم بالشنق ومصادرة أمواله وقهضوا جميعا والقوة تسوقهم سوق الأنعام تاركين أثاثهم وأمتعتهم وغلالهم حتى إذا وصلوا إلى عين الغزالة حصرهم الطليان في أراضى ضيقة وطوقوهم بالأسلاك الشائكة ثم جلدوهم بالسياط كل رجل ثلاثين جلدة، وكل امرأة وطفل خمس عشرة جلدة، وأخذوا عليهم العهود بالألا يخرجوا من نطاق الأسلاك الشائكة، وأنذروا من يفعل ذلك منهم بالقتل رمياً بالرصاص. فهلكت النساء والأطفال من قلة الطعام. وفضلا عن ذلك فقد أمرت السلطات الرجال بالذهاب إلى مقر القيادة. فلما حضروا احتجزتهم أمام الرشاشات بينما انطلق الجنود يفتشون بيوتهم، ويرتكبون فيها الفظائع فهتكوا أعراض الأبنكار والثيبات وفتشوا في الفجور وفعل المنكر والجور ما لا يحظر ببال. وفي الوقت الذي حشد فيه أهل دقنه في عين الغزالة، حشد الطليان العبيدات في درنة والحاسية في شحات والسلطنة والعرقة والعييد في المرج والبراعة في مراوه والواقير بين توكره وسلوق وأهل الأيار في منطة الأيار ذاتها والمغاربة في منطقة سرت وامتدت معتقلاتهم من اجداية ومرسى البريقة إلى العقيلة.

ولما كان المجاهرون في منطقة فايد لا يزالون يبدون من ضروب البسالة ما أثار حفيظة غرزياتي واعتقد جزار لبيبا أن الأهالي جميعا ومن غير استثناء كانوا على حد قوله — يعضدون صم المختار كما اعتادوا أن يفعلوا دائما، فقد قرر غرزياتي في ٢٥ يونيو أن ينقل أهل الجبل الأخضر جميعا إلى طليشة وإلى الجهة الغربية منها. وعلى ذلك فقد تم حشد العواقير في منتصف يولييه داخل مربع من سلوق إلى قينس، إلى زاوية الظيلون إلى جردينة، وكانوا يبلغون سبعة آلاف أسرة. ثم حشد أهل الجبل في معتقل يمتد من طليشة إلى سيدي خليفة

وأقام أهل النواجع بين شحات ودرنة في معتقلات منفصلة . أما أهل دفنا فقد حشد في عين الغزالة وعكرمة وطبرق . وظل المغاربة في معتقلاتهم بين إجداية والعقيلة . وفي آخر يوليه نقل غرزياني قبائل العبيدات إلى بوتزابة أولاً ثم إلى المبنى بالقرب من توكره . ولما كان لا يزال غير مقتنع بما فعل ويرى اتخاذ تدابير أكثر صرامة وشدة فقد قرر غرزياني أن ينقل معسكرات الاعتقال إلى الزاوية الغربية من منطقة سرت . وفي أوائل أغسطس ١٩٣٠ بلغ عدد العائلات التي حوصرت من المغاربة بين العقيلة وإجداية (٢٢٥٢) أسرة ، ثم في سيدي أحمد المقرون (٢٨٦١) عائلة من البراعة والدرسة ؛ ثم بين سلوق وسواني تربة والآيار ، وبين بنغازي في دريانه (٧٤١٧) عائلة من العواقر والعبيد والعرقه ، وبقى في عين الغزالة (١٢٣٣) عائلة وفي الجبل بالقرب من المرج (٥٣٨) عائلة من قبائل مختلفة . وحشد غرزياني في مرسى سوسة (أبولونيا) ١٣٥٤ عائلة من الحاسة ، وفي درنة (١٤٣) عائلة . وقد أحيطت كل هذه المعتقلات بالأسلاك الشائكة ، وصارت توزع الأغذية على هؤلاء البؤساء بقدر معلوم ، ثم منعوا من استخدام المراعي إلا في نطاق ضيق حول هذه المعتقلات ، كما منعوا من مغادرة المعتقلات إلا بتصريح خاصة ، وفي حالات استثنائية نادرة .

وفضلاً عن ذلك فقد أنشأ غرزياني معتقلاً خاصاً في العقيلة ذاع صيته بفضل أعمال القسوة والإبادة والافناء التي كانت ترتكب به . أقامه غرزياني خصيصاً حتى يعتقل به أقارب والثوار ، بدعوى أن هؤلاء كانوا أشد ميلاً من غيرهم لمساعدة المجاهدين والتستر عليهم . ثم اتخذ غرزياني من معتقل العقيلة مركزاً تجرى فيه السلطات الحكومية توقيع العقوبات — من إعدام ونفي وتشريد وجلد — على العرب الذين قد يرتكبون مخالفات ما في المعتقلات الأخرى . ولذلك أطلق على معتقل العقيلة اسم (معسكر العقوبات) وإلى جانب ذلك كله يادر غرزياني بإبعاد (الأعيان) الذين كان يشك في إخلاصهم للحكومة ويعتقد فيهم المضالعة مع الثوار ، أو عرقلة أعمال الحكومة في بنغازي ، فنفاهم إلى جزيرة أوستيكا ، وكان من بين هؤلاء المنفيين عمر باشا منصور الكنخيا .

على أن المعتقلين على الرغم من صرامة الإجراءات المتخذة ضدهم ظلوا يتحينون الفرص للإفلات من هذه السجون الرهيبة والانضمام إلى المجاهدين في الجبل الأخضر ، فاستطاع عدد من قبائل العبيدات والدرسة والعواقر والبراعة والمغاربة والحاسة أن يفرّوا إلى دور المجاهدين في الجبل ، وهدد غرزياني المعتقلين على أثر ذلك بتوقيع العقوبة على عائلات كل أولئك الذين يعمدون إلى الفرار من المعتقلات وينضمون إلى أدوار المجاهدين ، ولما كانت المراعي المخصصة لإبل وأغنام هؤلاء المعتقلين ضيقة ولا يكفي ما بها من كلاً لتغذية الحيوانات

انتقالهم المستمر من مكان إلى آخر هو خطر دائم ، فالواجب يقضى إذن بوضعهم تحت
تراف الحكومة . ولما كانوا لا يستطيعون الاستقرار ومزاولة فنون الزراعة بنجاح ثم
بد أن أقاموا الدليل بعد الدليل على إنهم أداة فساد في كل مكان يحلون به فقد أصبح من
اجب الحكومة أن تعمل على ترحيلهم من الأراضي الخصبة بالجبل الأخضر إلى المنطقة
واقعة عند حافة الصحراء ، أي إلى منطقة المراعي وإحكام الرقابة عليهم وهذا بينما تعطى
لحكومة أرض الجبل الغنية بمخزراتها إلى ألوف الأيدي الإيطالية العاملة التي تنظر بفارغ
صبر العودة إلى هذه المقاطعات الرومانية القديمة وتعميرها .

ذلك كان دفاع غرزياني عن نفسه . وما يجدر ملاحظته أنه اتخذ من محاولة ، تعمير ،
لأرض وتهيئة السبل ، للعميرين ، الطليان حتى يستقروا بالجبل الأخضر ذريعة لارتكاب
لجرائم التي أعطته لقب (جزار ليبيا) عن استحقاق وجدارة . فان هذا ، التعمير ، ذاته
كان كارثة كبرى حلت بالليبيين سوف يأتي ذكرها مفصلاً بعد هنيهة . وفضلاً عن ذلك فان
غرزياني نفسه لم يفعل شيئاً يستحق الذكر في هذه الناحية ، فسار ، التعمير ، بحظي متشاقلة في
عهده . والسبب في ذلك أن كل ما كان يشغله في الحقيقة هو القضاء على الثورة ، والعمل على
إبادة الليبيين وإفنائهم ، ولذلك فإنه كثيراً ما صار يستند في كل ما يقدمه من حجج لتبرير
أفعاله الشنيعة إلى رغبته في منع الاتصال بين الأهالي والمجاهدين في الجبل بقيادة السيد عمر
المختار ، فذكر هذا السبب الواهي في جميع خطابه ، وكانت هذه الحججة العقيمة مثارا لاحتجاج
عنيف من جانب كل أولئك الأحرار الذين قض مضاجعهم رؤية شعب بأكله يفتى في
المعتقلات من غير ما شفقة أو رحمة .

ولا ريب في أن منع الاتصال بين الأهالي والمجاهدين كان من المزايم التي لا يقصد بها
سوى التضليل فحسب ، وصفها المرحوم الأمير شكيب أرسلان بأنها ، كلام فارغ لا يقبله
عقل ولا عدل ، إذ كيف تقدم الحكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مساقط رؤوسها خشية
أن يتصلوا بخمسمائة نائر لا غير ؛ ثم إن الطليان تغلبوا على الثوار المذكورين وقبضوا على
قائدهم عمر المختار الذي ما قتي . يجاهد من عشرين سنة وشنقوه بمحضر جم غفير من أبناء
جلدته فضى إلى ربه شهيداً وبكاه العالم الإسلامي بأجمعه وانطلقت الثورة من كل برقة ، ومع
هذا لم ترض الحكومة الإيطالية أن تعيد هؤلاء الأهالي إلى بيوتهم وأوطانهم بل انتخبت
من بقاياهم أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم إلى الجبل الأخضر يحرثون ويزرعون لا كالكين
بل كعملة في الأملاك التي تزعتها الحكومة الإيطالية منهم وشلتها إلى المستعمرين الطليان ،
وقال عبد الرحمن عزام — ولم يفتر العزام لحظة عن مراقبة الحوادث في ليبيا ، وإن الناس

يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيون بالمسلمين هناك ، وما لهم والأندلس
ولأمور جرت في القرون الوسطى ، فأمام أعينهم طرابلس الغرب ، فليذهبوا ويشاهدوا
بأعينهم في هذه الأيام فظائع لا تقبل عما جرى بالأندلس .

ووصف مراسل جريدة ألمانية مشاهداته بعد زيارة معسكرات الاعتقال في برقة فقال :
« إن الاتقادات التي يوجهها الآن الفرنسي والانجليز إلى خطة الفاشيست في برقة موجبة في
الدرجة الأولى إلى التداير التي اتخذها الجنرال غرزباني لإجلاء ٨٠ ألف بدوي عن أراضيهم
وحشدهم على شاطئ سرت حيث مد الطليان أسلاكاً شائكة حول خيامهم دون أن يراعوا
حالة هؤلاء البدو الروحية أو يلاحظوا تأثير مثل هذا القيد والحصار فيهم . . . ولا يجوز
لأحد أن يخرج من نطاق الحصار إلا في النهار بشرط أن يرجع إلى مكانه قبل أن ينجم الظلام
وكل واحد من رؤساء القبائل والمنفذين مسؤول عن أتباعه فرداً فرداً . . . إننا لا نريد أن
نبحث هنا فيما إذا كان يحق ميدانياً لحكومة أوروبية أن تستولى بالقوة على بلاد شرقية لا تربطها
بها أية رابطة ، وفيما إذا كان يجوز لها أن تسعى — على زعمها — في تمدين السكان رغم
إرادتهم وكراهتهم لهذه المدينة . إننا مرغمون على الاكتفاء بذكر الأرقام التي تعلنها السلطات
الإيطالية نفسها . ومع ذلك يجب أن نقول إن الحالة سيئة للغاية تفوق كل تصور ، فإن معدل
الأموات من الأطفال يبلغ ٩٠٪ وأمراض العيون التي ينتهي أكثرها بالعمى كثيرة جداً
ومنتشرة انتشاراً هائلاً ويكاد لا ينجو أحد من الأمراض . أما غذاء هؤلاء المساكين
فالأحسن أن لا نتكلم عنه بالمرة . ومن الطبيعي أن نرى هؤلاء يتألمون أشد الألم وفي الدرجة
الأولى من هذه الأسلاك الشائكة رمز الأسر ورغم تلاصق الخيام وشدة تقاربها ببعضها فإن
حصرها ضمن أسلاك شائكة يجب أن يعتبر من المتناقضات الغريبة التي لا يتصورها العقل .
إذاً لا يجوز قطعاً الجمع بين الخيام الحرة وبين الأسلاك الشائكة . لكن الطليان يختلف نظرم
هنا عن غيرهم فإنما هم يرمون إلى الاستيلاء على هذه البلاد وإخضاعها لا إلى التفكير في
صالح أهلها .

وليت خطة الإفناء والإبادة التي جرى عليها الطليان اقتصرت على حشر العرب في
معتقلات الموت هذه ، ولكن غرزباني صاحب المحكمة الطائرة العرفية لم يشأ أن يترك هؤلاء
البؤساء وشأنهم ، فقد نزلت محكمته على الأهلين الذين حشروا في عين الغزالة ذات مرة
وحكمت فوراً على ستة أشخاص بالإعدام وعشرين آخرين بالسجن ، وكانت أقل مدة
حكمت بها عشرين عاماً . وفي أثناء حشر العرب في المعتقلات ألحق غرزباني وأعووانه
بزعمائهم وشيوخهم صنوف الإهانات البالغة فزجوا بهم في أعماق السجون وقتلوا من

وجهاً لهم رجلاً يدعى الشيخ سعيد البرقاري مع خمسة عشر شيخاً شرقتة ، ذلك بأن القوا بهم جميعاً من الطيارات من علو شاهق على مشهد من أهلهم . فكان كلما هوى منهم شخص صفق الضباط والجنود ساخرين منادين : قليات نيكم محمد البدوي الذي أغراكم بالجهاد وينتقدكم من أيدينا .

وقد نال الطليان ولا شك بغينهم بفضل هذه الأساليب الجهنمية فنقص عدد أهل البلاد في القطر الليبي نقصاً فاحشاً ، فقال غرزياني في محاصرة ألقاها في ٢٣ نوفمبر ١٩٣٠ ، أتيح لنا بواسطة حشد القبائل في مناطق معينة القيام بإحصاء دقيق لسكان برقة فبلغ ٦٧٩٠٧٢ نسمة فإذا أضفنا إلى هذا العدد ٥٠٠ ألف نسمة تعداد طرابلس يبلغ الجميع ٦٧٩٠٧٢ نسمة . ولما كان معروفاً أن عدد سكان ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي في عام ١٩١١ بلغ خمسمائة ألف ومليون نسمة ، فيكون النقص قد بلغ ٨٢٠٩٢٨ نسمة . وإذا استزلنا من ذلك ٢٥٠ ألفاً اضطروا إلى الهجرة من ليبيا إلى السودان الفرنسي ، يكون من فلك الطليان ٥٧٠٩٢٨ نسمة وأما كيف استطاع الطليان أن يفتكوا بهذا العدد الضخم في مدة العشرين عاماً التي قضوها في هذه البلاد لغاية عام ١٩٣٠ ثم أولئك الذين أفنواهم فيما بعد . فمن الميسور معرفته من مراجعة أمثلة الإبادة والإفناء السالفة ، ثم تلك التي لا متدوحة من ذكرها عند تسجيل فظائع الطليان في المدة التالية .

فقد استطاع غرزياني بعد حشد البرقاريين في المعتقلات أن يتم استعدادهم للزحف على واحة الكفرة فسقطت هذه الواحة في قبضته في الظروف التي سبق ذكرها . وقد ظل المجاهدون على قلتهم يناضلون ضد الطليان حتى استشهد منهم الكثيرون ثم اضطروا بالاقون بعد نفاذ ذخيرتهم إلى الانسحاب من الكفرة فكان انسحابهم وانسحاب بعض الأهالي المسلمين الذين غادروا الكفرة فراراً من ظلم الفاشيست بداية مأساة مروعة . ذلك بأن الطيارات الإيطالية وهجانه الطليان ظلت تطارد هؤلاء المنسحبين في جوف الصحراء مسافة مائتي كيلو متر تقريباً تقتك بهم وتقتل جمالمهم . وعند ما دخل الطليان الكفرة في يناير ١٩٣١ لم يجدوا بها سوى الشيوخ والنساء والأطفال أي أولئك الذين أقدمهم المرض أو ضعف الشيخوخة أو العجز عن اللحاق بالمنسحبين والخروج معهم . ومع ذلك فقد استباح الطليان قرى هذه الواحة ثلاثة أيام بطولها ، ارتكبوا خلالها ما لا تتصوره الأذهان من نهب وسلب وتشنيع وسبي نساء وذبح شيوخ وأطفال وإحراق دور ومزارع وانتهاك حرمة المساجد ودوس المصاحف . وكان من بين الذين لقوا خفتهم في هذا الحادث المروع جملة من أفاضل الشيوخ وعلماء الدين السنوسيين كالسيد محمد بن عمر الفضيل والشيخ محمد والفضيل الديفار وحبيده

الفضيل ثم الشيخ مختار الغدامسى وكان هرما مريضا يبلغ من العمر أرذله (٩٣ عاما) فحملوه مقيدا بالحبال على جمل فمات في الطريق وكان من أجل علماء السنوسيين المعروفين بالزهد والتقوى . وقد وصف أحد الذين شهدوا معركة الكفرة فظائع الطليان فقال : ودخلوا الكفرة التي لم يبق فيها إلا الشيوخ والعجز والنساء والأطفال وانتشروا فيها وفي قرية التاج مستيحيين كل حرقة ونهبوا الأموال وذبحوا الشيوخ والأطفال ذبح الخراف وقتلوا بالنساء فتكا ترتعد له الفرائص وبقروا بطون الحوامل وكان نصيب الكثيرات من النساء الموت الفظيع لدفاعهن عن أعراضهن . وبالجملة فقد هتكوا أعراض ٧٠ عائلة من عائلات السادة الأشراف وجعلوا من الجوامع نخارات شربوا فيها الخمر وكانوا يجبرون النساء المسلمات اللاتي أحضروهن للفحش على شرب الخمر أو الموت شرميته ونثروا جميع المصاحف والكتب الشرعية في زاوية التاج وداسوها وألقوها في الاصطبلات تحت حوافر الخيل والبغال ولعل أفظع ما فعله الطليان إلى جانب دوس المصاحف ، الكريمة كان اغتصاب النساء الأشراف . ويروى الأمير شكيب أرسلان قصة هذه الفعلة الشنيعة فيقول : « وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن إلى الصحراء قبل وصول الجيش الايطالى فأرسلوا قوة في أثرهن فتأثروهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن إلى الكفرة حيث خلاهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن ، وهكذا أنزلوا المعرات بسبعين أسيرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبا لا ترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشارت الصحف الطليانية إلى هذه الحادثة وصرحت في باب الافتخار قائلة : « إن الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء ، وقرأنا ذلك بأعيننا ولحظنا أن مقصود البلاغ العسكرى الايطالى التبرجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرنا إلى الضباط . إلا أننا انتظرنا جلاء الأخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبت فما مضى شهر حتى وردت الأخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بأن هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات في أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن في الصحراء وصرن إلى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزنا . وعلينا أن بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المدكورات قد أمر القائد بقتلهم . » وفي مكان آخر يقول الأمير شكيب أيضا : « إن الايطالين قلبوا زاوية السادة السنوسية في الكفرة إلى دار فسق وسكر وداسوا المصاحف الشريفة بالأرجل وعند ما كانوا يطبخون طعامهم كانوا يوقدون المصاحف تحت القدور . »

وأما من نجا من مجازر الكفرة فقد قصد بعضهم بلاد السودان واتجه البعض الآخر إلى

سيوة والفرافرة والواحات الداخلة ، ووصل أحد اللاتجين إلى ناحية البلاط التابعة للواحات الداخلة في الأراضي المصرية فحدث بما لاقاه في الصحراء من عناء وقال إن كثيرين من إخوانه ماتوا جوعاً وعطشاً كما أن كثيرين منهم لا يزالون تأهين ، فاستطاع السيد عبد الرحمن الزهير مأمور الواحات وقتذاك أن ينقذ من الموت خلال ستة أيام ٤٥٣ نسمة ، ثم كان للمستر كلايتون مفتش الصحارى في مصلحة المساحة المصرية في ذلك الحين فضل كبير في إنقاذ ٣٧ مسلماً من أهل واحة الكفرة ضلوا الطريق في الصحراء الغربية عند مهاجرتهم إلى مصر ومع أن إيطاليا أمام احتجاجات العالم الإسلامي قاطبة على هذه الفظائع لدى عصبة الأمم ولدى موسوليني نفسه حاولت أن تتنق الجرائم التي ارتكبتها في طرابلس وبرقة ليس فقط في حادث الكفرة بل وفي غيره من الحوادث . فقد كان وصول هؤلاء اللاجئين إلى الواحات المصرية برهاناً ساطعاً على كذب الطليان ناهيك عن قسوتهم ووحشتهم ؛ كما قام دليل آخر على كذبهم وإجرامهم عند ما قذف البحر في ذلك الحين وعلى مسافة قليلة من مرسى مطروح بأربعة عشر جثة لمسلمين من ليبيا أغرقوا في البحر مكبلين بسلسلة واحدة . ومع هذا وعلى الرغم من احتجاجات الأقطار الإسلامية والمظاهرات الكثيرة التي قامت في أهم مدنها والبرقيات التي بعث بها أبناؤها استنكاراً لهذه الفظائع واحتجاجاً عليها ، فإن الحكومة الإيطالية لم تجد ما تفعله حيال ذلك كله سوى الإصرار على المضي في خطتها . فيقول (شونفيلد) : « وقد أصبح الجنرال (ثم المارشال) رودلف غرزيباني الخادم المطيع لسيادة الفاشيست . فأطلقت يدها من أجل إخضاع البلاد وهو عمل كان يتفق تماماً مع ميوله وهكذا شرع يحتل أرض ليبيا شبرا شبرا سالكا في ذلك أفسى الطرق الوحشية وأمعنا بعداً عن الإنسانية . وقد استغرق ذلك عشرة أعوام .

وفي عام ١٩٢٨ كانت المقاومة في كل طرابلس قد أخذت بما في ذلك الفزان والواحات الشرقية وأخيراً قضى على المقاومة السنوسية في برقة . وفي أثناء هذا النضال استحق غرزيباني عن جدارة لقب « الوباء » أو الطاعون ، ذلك بأنه ظل شهوراً طويلة يعدم حوالي ثلاثين نسمة يومياً . وأما العرب الذين كانوا يحاولون الفرار فقد كان نصيبهم أن يلقوا من الطائرات حتى يتحطموا على الصخور ، فضلاً عن ذلك فقد سدت الآبار بالاسمنت في هذه الصحارى المحرقة وهلك نصف سكان برقة الوطنيين تقريباً وحشر ثمانون ألفاً منهم مع مواشيهم في صحراء سرت القاحلة . وبين عامي ١٩٢٦ ، ١٩٣٣ . نقص عدد الأغنام من ٨٠٠,٠٠٠ إلى ٩٨,٠٠٠ وعدد الجمال من ٧٥,٠٠٠ إلى ٢,٦٠٠ والماعز من ٧٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ والخيول من ٩٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ والأبقار من ١٠,٠٠٠ إلى ٨,٧٠٠ والحمول من ١٤,٠٠٠ إلى

١٠٠٠ ؛ ويقول غرزياني أن الفرد الواحد من العدو إذا حصل على العفو عنه والصفح عن فعله فإنه يصبح بذلك أشد خطراً (على الحكومة) من ألف من الأعداء (السافرين) . وكان من أسباب الرحمة حقاً ومن حظ الأهالي أن انتهى عهد غرزياني بمجرد انتهاء المقاومة وإخادها . فأرسل بدلاً منه ماريشال الجوا إيتالو بالبو حاكاً في عام ١٩٣٤ . وقد وقع على كامل بالبو تنفيذ الشرط الثاني من برنامج إبادة الليبيين واقفائهم ونفى بذلك اغتصاب الأرض منهم وإعطائها للمعمرين الطليان ، وترك أصحاب الأرض الحقيقيين وأبناء البلاد يتضورون جوعاً هائمين على وجوههم في الشوارع أو يخدمون إذا شاءوا البقاء على قيد الحياة هؤلاء المعمرين خدماً وعبداً لهم .

والحقيقة أن خطة الإبادة والإفناء التي أتبعها الطليان في ليبيا كانت ذات صلة وثيقة بالغاية الكبرى التي سمي هؤلاء بكل حزم وجد من أجل تحقيقها وهي تحويل هذه البلاد إلى قطار لاتينية ، لحما ودما ، على أساس استقدام ملايين الطليان لاستعمارها والإقامة بها . ولما كان لا مناص من أن يمتلك هؤلاء المعمرين - كما اسموم - الأرض الصالحة لسكنائهم حتى يستطيعوا استغلالها واستثمارها فقد دأبت الحكومة الإيطالية من أول الأمر على ستصفاة أملاك وأموال العرب الذين عملت فيهم السيف والمدفع وارتكبت معهم شتى ضروب لغدر والنذالة لإبادتهم واقفائهم والاستيلاء عنوة على أرضهم . وتحتل مسألة اغتصاب لأراضي ، هذه مكاناً هاماً في تاريخ الاستعمار الإيطالي في ليبيا وعلى الخصوص في أثناء لحكم الفاشيستي .

وكانت أساليب الطليان في انتزاع الأرض من الأهالي واحدة في كل من طرابلس وبرقة . قوامها انتقاء الأراضي الجيدة الخصبة والتي تصلح لإقامة (المعمرين) بها ، ثم التذرع شتى الوسائل لطرد أصحابها منها والاستحواذ عليها . وعلى ذلك فإنه لما كانت المنطقة الساحلية ، برقة وطرابلس - أي تلك التي تمتد حوالي ١٨٠٠ كيلومتراً من حدود مصر إلى حدود تونس ، وتتفاوت مسافتها من الشمال إلى الجنوب بين مائتين وعشرين كيلومتراً أخصب . يناطق القطر الليبي وأكثرها عمراناً وتمتاز كثيراً عن المنطقتين الباقيتين أي منطقة الجبل بين جبل نفوسة أو الجبل الغربي وغدامس وجالو ، ثم منطقة فزان أو مرزق الممتدة من حدود الجزائر إلى حدود السودان المصري ، فقد عمدت إيطاليا إلى انتزاع أراضي هذه المنطقة الساحلية واغتصابها من أصحابها دون أن تدفع مقابل ذلك ثمناً ، وإذا فعلت في الحالات لقليلة النادرة دفعت لها أثماناً ضئيلة جداً ثم صارت تعطيها للمعمرين الطليان . وعندما قضت إيطاليا عهدها واستئنفت الحرب بعد الانقلاب الفاشيستي صادرت الحكومة جميع

بممتلكات العرب الذين اشتركوا في الجهاد فاستولت على ما كان في حوزتهم ، من دور ونخيل وأثاث وأموال في البنوك ودكاكين في الأسواق وكل ما ينسب إلى الانسان ، ، وهذا عدا الأرض بدعوى « أنهم اشتركوا في السياسة ضد الحكومة » . وقد أشرف على استغلال هذه الأملاك المصادرة (بنك التوفير) ، ثم أرصدت الأموال الناجمة من استغلالها لمساعدة المعمرين الطليان .

يبد أنه لما كان بعض هذه الأملاك قليل القيمة وبكلف الحكومة لاستغلالها نفقات تزيد كثيرا على ما يمكن أن تحصله هذه منها فقد وجدت الحكومة بعد مدة من الزمن أن ترجع جزءا من هذه الأملاك (الخاسرة) إلى أصحابها الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة واستطاعوا الحضور لاستلامها وفي يناير ١٩٢٨ أعلنت الحكومة استعدادها لبيع قسم آخر من هذه الأملاك إلى أصحابها ، وكانت هذه ذات غلة متوسطة وخشيت الحكومة أن تعجز غلتها عن تغطية ما ينفق عليها من جهد ومال ، فرأت أن تبيعها إلى أصحابها بأثمان مخفضة تخلصا منها من جهة ثم ترغيبا للمهاجرين في العودة إلى طرابلس من جهة أخرى وذلك حتى تجند الحكومة من أهل ليبيا تلك الجيوش التي أخذت ترسلها إلى ميادين القتال في الحبشة وإسبانيا . وبالفعل شكلت الحكومة لجنة لتقدير قيمة هذه الأملاك وبعائها إلى أصحابها إذا حضروا أو إلى أقربائهم أو إلى آخرين إذا تعذر العثور على صاحب العقار أو الأرض أو العثور على قريب له وأما الأملاك ذات الربيع الكبير كالعقارات التي في المدن والأسواق والبساتين الكبيرة فقد أصبحت هذه من أملاك الدولة ولا يمكن ردها بحال . وبعات الحكومة جزءا من هذه الأملاك لحساب خزانتها واحتفظت بأكثرها .

وفي برقة استولى الطليان على جميع الأراضي في منطقة برقة الحمراء ، وتبتدىء هذه المنطقة عند شطوط مدينة بنغازي في الشمال وتنتهي في الجنوب وراء المرج ، ثم تمتد صوب الشرق فتشمل الجبل الأخضر بأجمعه إلى ما وراء مدينة درنة ، وهي أخصب أرض الله في الدنيا . وقد أفاض عليها الجبل الأخضر من أنهاره وعيونها ما جعلها جنة ، وكلها مملوكة لأربابها ، فانتزعتها إيطاليا كلها ولم تبق منها شبرا واحدا لعربي . وأقامت فيها قرى كثيرة لإسكان العائلات الإيطالية . . وأما برقة البيضاء وهي منطقة إجدابية التي تمتد إلى الوادي الفارغ جنوبا وإلى المرج شرقا وإلى شاطئ البحر الأبيض شمالا ، فقد أبقاها الطليان لمن بقي من البادية لأنها أرض ضعيفة قليلة المياه لا تكفي لرعى حيوانات أهل البادية وزراعتهم وتعتمد على المطر فحسب في زراعتها .

ونبتت فكرة الاستيلاء على الأرض على هذه الصورة الواسعة منذ عام ١٩٢٣ أي منذ أن أصبح الفاشيست أصحاب الحكم والسلطان في إيطاليا . وابتكرت الحكومة عدة وسائل

لاغتصاب الأرض وتمليكها للمستعمرين . وخاصة قانها أخذت منذ عام ١٩٢٤ تدعو أصحاب الأراضي الخصبية إلى زرعها وفق الأصول الحديثة ، ثم تحدد لهم زمناً وجيزاً لا يمكن إنجاز ذلك إدم خبرة الأهالي بطرق الزراعة الحديثة ولانعدام الوسائل التي تمكنهم من زرعها في الأجل المحدد ، وعلى ذلك فإنه بمجرد انقضاء المهلة المخصصة لهم دون أن يفعلوا شيئاً مما طلب منهم أسرعته الحكومة فوضعت يدها على تلك الأراضي بعد أن تقدر لها قيمة زهيدة لا تزيد على ١٢٠٠ فرنكا لكل مائة هكتار ، ثم تودع هذا الثمن الضئيل في (البنك) وتدعو أصحاب الأراضي إلى تسلمه منه في مدة معينة وإلا خسروه . وقد بلغ ما اغتصبه الطليان بفضل هذه الطريقة في عام ١٩٢٤ بحسب ٤٢ هكتاراً من أخصب الأراضي وأجودها . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما فعلوه مع قبائل التوائل وخويكد والسعيفات في قضاء زواره ، فقد اغتصبوا من كل هؤلاء الأراضي الخصبية والبساتين الكبيرة وسلبوها إلى المعمرين الطليان بعد أن أرغموا أصحابها على تركها والجلء إلى البادية . وفي عام ١٩٢٩ انتزعت الحكومة من الأهالي ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضي دون أي مقابل فأعطت منها مائة ألف للمعمرين ثم أوعزت إلى الطليان المقيمين بالأرجنتين في أمريكا الجنوبية أن يبيعوا أراضيهم هناك وأن يحضروا إلى ليبيا فتعطيهم الحكومة بدلا منها أرضاً جيدة دون أي مقابل . وفي العام التالي أغلقت الحكومة جميع الزوايا السنوسية - وهذه يزيد عددها على المائة - وصادرت أوقافها ثم اغتصبت جميع أراضي القبائل المنتسبة إلى السنوسية وهي قبائل الجبل الأخضر وورقة العبيدات وفروعها البراعصة والحاسة والدرسة والعرفة والعبيد والفوايد والمرابطين والعواقير والمغاربة . وهذا عدا مصادرة أراضي أخرى كثيرة . وقد بلغ عدد من صادرت أراضيهم وأصبحت ملكاً للحكومة الإيطالية بموجب أمر ملكي ٢٥٠ ألف نسمة . وفي عام ١٩٣٣ وزعت الحكومة ٢٦٠ ألف فدان على ٣٧٨ معمر إيطالي على سبيل التجربة فلما نجح هؤلاء واستقروا في الأراضي المغتصبة نقلت الحكومة إلى طرابلس من إيطاليا الجنوبية ٣٤٠ أسرة . وقد توالى من ذلك الحين نقل الأسرات الإيطالية إلى طرابلس بانتظام حتى بلغ عدد هذه الأسرات في عام ١٩٣٧ ثلاثاً وثلاثين وسبعمئة ألف أسرة يعيشون جميعاً في أملاك الليبيين وتمحيصهم الحكومة بأموالها وقوتها .

ونظم الإيطاليون طرق استثمار هذه الأراضي المغتصبة عند ما وضعوا برنامجاً خاصاً لهذه الغاية بعد أن أظهرت التجارب أن إعطاء المساحات الواسعة من الأرض إلى الأفراد أمر قليل الفائدة وثبت من حالات كثيرة أن مصير هؤلاء الأفراد كان الإفلاس لا محالة إذا أبطأت الحكومة في مد يد المعونة المالية إليهم من (بنك التوفير) الذي أنشأه من أموال العرب

التي صادروها . وعلى ذلك فقد اضطر الطليان إلى العدول عن هذه الطريقة وعمدوا بدلا من ذلك إلى تقسيم الأرض قطعا صغيرة تعطى كل قطعة منها إلى أسرة إيطالية تمدها الحكومة بما يساعد على استغلال الأرض واستقرار الأسرة كإعداد المسكن اللازم لإقامة المعمرين وإمدادهم بالحيوان وآلات الزراعة وما إلى ذلك . على أن تكون هذه القطعة ملكا للأسرة المعمرة بعد عشرين سنة لقاء شروط معينة بالاتفاق مع الحكومة ، فتضمن الحكومة ربحا مزدوجا ، تعمیر الأرض وتكثير الجنس الإيطالي . ولتنفيذ هذا البرنامج إذن أنشأ الطليان إدارتين أو منظمتين عظيمتين : مؤسسة تعمیر ليبيا ، ومؤسسة الإسعاف الاجتماعي ، ثم قرروا تعمیر سبعين ألف هكتار من الأراضي نصفها في طرابلس والنصف الآخر في برقة ، وقسموا هذه المساحة الشاسعة إلى ثلاثة آلاف قطعة تستقر في كل منها أسرة إيطالية .

وقد حدثت عندما زار عمانويل الثالث ملك إيطاليا طرابلس في غضون عام ١٩٣٨ أن عهد بالبو إلى يوسف خريشة بأن يحمل أهل بلده يفرن على تقديم هدية للملك عند زيارته لهم فقدم هؤلاء جوادا مسرجا بسرج عربي هدية للملك ووقف إيتالو بالبو خطيبا يشكر لأهل يفرن صنيعهم الذي يقدره حق قدره هو والملك أيضا ، فوعدهم وعدا قاطعا بأن الحكومة الإيطالية سوف تكافئهم مكافأة عظيمة تقديرا منها لإخلاصهم وولائهم هي أنها سوف تستقدم عشرة آلاف معمر إيطالي لاحتلال مركز يفرن ! وكان بالبو بيت النية وقتذاك لاستقدام أكبر فوج من هؤلاء المعمرين عرفته ليبيا . وبالفعل بر بالبو بوعدده فأحضر الفوج الأول من هؤلاء المعمرين في نوفمبر من السنة نفسها وكان يتألف من ثمانمائة وألف عائلة يبلغ عدد أفرادها عشرين ألف نسمة . ولم يكن مجيء هؤلاء في الحقيقة سوى تنفيذ لأحد التدابير التي اعتمزم بالبو اتخاذها من أجل استقدام خمسة ملايين نسمة من فقراء الطليان قررت الحكومة نقلهم إلى ليبيا على أن يجري نقل ٢٥,٠٠٠ إيطالي كل سنة ويخصص لهذه الغاية مائة مليون فرنك سنويا في ميزانية وزارة أفريقية ، وعند وصول هذا الفوج الأول وزعت العائلات الإيطالية على مناطق الزاوية و ترهونة ومصراته عدا مناطق برقة فأنشئت لهم في الزاوية ثلاث قرى هي (ييانكي) و (أوليقيتي) و (جورداني) ؛ وفي ترهونة قرية واحدة هي (بريفييري) ؛ وفي مصراته قرستان هما (كرسبي) و (جودا) ؛ وفي برقة أربع قرى هي (باراكا) و (أوبردان) و (دانونزبو) ، (بانيسني) ؛ وكانت كل قرية من هذه القرى تشمل على عدة بيوت وكنيسة ومدرسة ومكتب بريد . وتم توزيع الأراضي على هذه العائلات بنسبة عشرة هكتارات إلى خمسين هكتارا للعائلة الواحدة . ولم تعد هذه المناطق جزء من المستعمرة ، الليبية شأنها في علاقاتها مع رومة شأن سائر البلاد البرقاوية

الطرابلسية ، بل أنه سرعان ما استصدرت الحكومة الإيطالية مرسوما (في عام ١٩٣٨) جعل من مقاطعات طرابلس ومصراته وبنغازي ودرنة ، شاطئا رابعا ، من شواطئ إيطاليا ، ومعنى ذلك أن يكون هؤلاء المعمرين الطليان في هذه المناطق نفس الحقوق التي يستمتع بها مواطنوهم في إيطاليا كما هم يعيشون في شبه الجزيرة الإيطالية ذاتها .

وأما اختيار هؤلاء المعمرين فقد حدث بدقة عسكرية متناهية ، إذ تشكلت لجنة لفحص طلبات المهاجرين ثم وقع الاختيار على المعمرين بعد أن خصت اللجنة فصا طيباً ألوفا عدة من الراغبين في الذهاب إلى ليبيا ، واتخذت جميع الاستعدادات لنقلهم من مواطنهم إلى الأماكن التي يجري ترحيلهم منها إلى ليبيا وهي موانئ جنوى وناپولي وسيرا كوزة بنظام عسكري . وأوصى موسوليني نفسه هؤلاء المهاجرين بأشياء ثلاثة هي أن يعتبر كل فرد منهم نفسه جندياً خاضعاً لأوامره ، وأن يذكر دائماً أن الدوتشي لا يقهر أبداً ، وهو يقود الجميع إلى النصر أتى سار وحيثما وجد ، وأن يعلم أن إرادة موسوليني ورغبته هي أن يعمل هؤلاء المعمرين كي يجعلوا من صحراء ليبيا حديقة زاهرة ، وعليهم أن يطيعوا أوامره . وقد جاء في كتاب (جبهة العرب في طرابلس الغرب) تعليقا على هذه الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الإيطالية في اختيار المعمرين ما نصه : وهكذا يختار هؤلاء المهاجرون بدقة عسكرية ، وبهذه الوصايا الثلاثة يوصيهم موسوليني . إذا فالمسألة مسألة تعبير طرابلس فحسب ، بل ووجود قوة عسكرية في طرابلس أيضا يعتمد عليها موسوليني لتهديد مصر وتونس . وهذا يؤيد ما نشرته الإهرام يوم ١٣ سبتمبر ١٩٣٨ وهو أنه يوجد بين العائلات الإيطالية في طرابلس عشرون ألفا تتفاوت أعمارهم بين العشرين والسادسة والثلاثين مستعدين للخدمة العسكرية . ويوافق أيضا ما صرح به بالبو وهو قوله « إن توطين ألوف عديدة من الإيطاليين في هذه الأراضي بعد أن توفرت فيها المياه يغير مشروع زعماء إيطاليا الحريين الخاص باستعدادهم للحروب المقبلة ، ، إذا فالخطر الفاشستي الموجود في طرابلس الغرب لا يهدد الطرابلسيين وحدهم وإنما يهدد مصر وتونس أيضا .

والحقيقة إن الحكومة الإيطالية كانت تبغى من وراء إبادة العرب وإفنائهم وجلب المعمرين لاستثمار الأراضي التي اغتصبوها من أصحابها ليس فقط لإنشاء مقاطعة تكون لاتينية ولحا ودما ، يسهل عليهم إدماجها في بنيان الامبراطورية الرومانية التي أرادوا إحياءها ، بل وإنشاء مخفر من المخافر العسكرية الأمامية وقاعدة يديرون منها أعمال الحرب والغزو المنتظر من أجل إعادة مجد هذه الامبراطورية الرومانية ذاتها . وآية ذلك أنه ظهر مرارا من الخطبة التي ألقاها موسوليني في مناسبات شتى ومن أقوال الصحف الإيطالية أن الرغبة في امتلاك

ليبيا كان منشؤها اعتقاد الفاشيست الجازم بأن ، أفريقية قد ألقت اليهم وخدمت بقايلها عن طريق طرابلس ذاتها ، . ونشرت جريدة الأهرام برقية جاءتها من تونس في ١٨ يناير ١٩٣٩ ذكر صاحبها أنه « يؤخذ من أقوال اللاتجيين الطرابلسيين الذين وصلوا أخيراً إلى تونس أن نجدة من الايطاليين وصلت من طرابلس في آخر ديسمبر الماضي (١٩٣٨) وأوائل يناير الجاري ، وقد وزعت هذه النجدة على طول الحدود وأرسل بعضها إلى واحة نالوت ، .

وللمره أن يتساءل الآن وماذا كان نصيب أهل البلاد أنفسهم من الأرض التي كانوا يملكونها ويملكها أجدادهم من قبلهم ؟

وللإجابة على هذا السؤال قد يكفي أن ثبت ما ذكرته الأهرام كذلك في خبر نشرته في ١٥ يناير ١٩٣٩ فحواه : أنه سيجرى تحقيق المشروع العظيم لزيادة عدد السكان في لوييا وفي جزئه الأكبر من منطقة واسعة للإنتاج وبين القرى الزراعية الإسلامية الخمس التي ستنشأ غضون هذا العام ، ستنشأ واحدة ذات صبغة زراعية بين توكره وطلبيثة ، واثنان للرعى من حيث تقوم الأولى في إقليم بنغازى والثانية في إقليم درنة ، . وحتى هذا المشروع العظيم ، كان مصيره الفشل السريع . وفي عام ١٩٣٩ كان قد بلغ مقدار ما منحتة الحكومة إلى المعمرين الطليان مما استولت عليه من الأراضى ٦٢٢ ألف فدان من الأراضى التي كانت مستغلة فعلاً وهذا عدا تلك التي كانت ما تزال في طريق الإصلاح لاستقبال بقية من تقرر نقلهم من المعمرين إلى ليبيا ، وتقع هذه المساحة الهائلة كلها في منطقة الساحل . ومع ذلك فإن عدد الطليان القاطنين في هذه المنطقة الشاسعة كان في عام ١٩٣٩ لا يتجاوز ١٣٥ ألفاً .

وفي الوقت الذي اغتصب فيه الطليان الأرض حرموا أصحابها كذلك من جميع الحقوق التي يتمتع بها الفرد في بلدان العالم الأخرى . فلا مساواة ولا عدل ولا كرامة . وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب إذا عرفنا أن الحكومة كانت تطبق على الايطالى القانون الرومانى بينما تطبق القوانين الاستثنائية على أبناء البلاد العرب ولم ينب عننا كذلك أن إيطاليا نقضت جميع عهودها السابقة . فلم يكن هناك مجالس نيابية أو أى ضمان لمبادئ العدل والمساواة الأولية فأصبح الحاكم العام أو الوالى الايطالى مصدر السلطات في البلاد فيما يتعلق بالعرب ، وخدمهم ، ثم قصرت الحكومة وظائفها على الطليان وأقصت الليبيين ليس فقط من أعمال الحكومة بل ومن جميع المهن والخدمات العامة حتى إن ، وظيفة كنس الشوارع وساعى البريد ، كان يستأجرها إيطاليون فقط ، وتعذر على الليبي أن يطالب بحق من الحقوق أو أن يدافع عن هذا الحق بنفسه عند ما جعلت المرافعات أمام المحكمة باللغة الايطالية فلم يكن هناك أمل ما فى أن ينال عربى شيئاً من حقوقه إلا إذا أقام عنه محامياً إيطاليا واستخدم (ترجمانا)

لينقل أقواله . وفضلا عن ذلك فإن المحاكم ما كانت تنظر قط في قضية عربي قبل أن تفرغ من نظر قضايا الطليان أنفسهم . وامتحن الليبي في وطنه امتحاناً كبيراً فنتحته الحكومة من أن يجلس بزيه العربي في الأماكن المخصصة للطليان بالدرجة الأولى في سيارات النقل ، كما منعت من ارتياد الأندية والمقاهي التي قد يؤمنها الطليان وهو بهذا الزى أيضاً أو زيارة دور التمثيل . ثم منع الليبي منعا باتا من استخدام عربة للركوب يتربع في دستها حوذي إيطالي ، وكان لهذا التحريم أثر دعا إلى الإشفاق والسخرية عند ما ضج أصحاب العربات والحوذيون الطليان وصاروا يتصايحون بالشكوى من هذا الظلم الجائر ، وبطالبون الحكومة بإلغاء هذا التحريم الذي يسلبهم دراهم معدودات من كسب يومهم الحلال فأذعنت الحكومة واضطرت صاعرة إلى إجابة رغبتهم وقد كان غرض الحكومة من هذا ومن غيره إضعاف روح الليبيين المعنوية وإماتتها حتى إذا ماتت في الشعب معنويته وتضعف كيانه النفساني أضحت عملية إفنائه وإبادته سهلة هيثة .

ومن وسائل الإمعان في إذلال العربي وإهاتته ، أن الطرابلسي كان يحكم عليه بالجلد وينادي في الناس بالحضور لمشاهدة تنفيذ الحكم فيه وي طرح في السوق وعلى قارعة الطريق ويجلد أمام هذا الجمع من الناس الذين جيء بهم لمشاهدة هذا المنظر الفظيع ليلقوا في روح الناس ما يمت فيهم الشعور بالكرامة ، وكذلك الحال إذا حكم عليه بالإعدام ، فلا يكون شتقه إلا في وسط السوق بعد أن ينادي في الناس بالحضور لمشاهدة التنفيذ . أما الإيطالي فلا يحكم عليه بالجلد مطلقا ، وفيما عدا ذلك يعامل كما يعامل الأفراد في الأمم الحرة بالعدل والانصاف ، . وكذلك كان من ضروب إماتة الشعور بالكرامة ما اعتاد الطليان أن يفعلوه عند زيارة عظيم من عظمائهم ، إذ كانوا يحشرون الناس حشراً لمقابلته من كل النواحي البعيدة والقريبة ويجمعون للاحتفاء به ، مشايخ الطرق بأعلامهم ودفوفهم ويؤتون أيضا ببعض القسوة للزغاريد ويبقى الناس في طرقات المدينة وعلى أرصفة الشوارع يومين أو ثلاثة ، وما كان هؤلاء يحضرون باختيارهم وإنما يرغمون على الحضور إرغاماً فيهددهم الطليان بالسياط وفرض الغرامات الثقيلة عليهم إذا هم تخلفوا . وعلى هذا النحو استطاع الطليان عند ما زار موسوليني طرابلس في مارس ١٩٣٧ أن يحشدوا لاستقباله أربعة آلاف فارس من الجرب جيء بهم من كل مكان بكل قسوه وشدة . ثم فعلوا مثل ذلك أيضا في أثناء زيارة ملك إيطاليا في العام التالي . وأما قصة زيارة موسوليني لطرابلس فقد كانت قصة طريفة حقا وتحتل مكانا بارزا بين قصص هذا البطل ، ومسرحياته المتعددة .

فقد عقد الليبيون المضالمون مع الحكومة آمالا عظيمة على زيارة المنقذ المتظر للشعب

المظلوم ، وكان منشأ هذه الآمال أن الحكومة الإيطالية تُعند اشتبا كما في حرب الحبشة (١٩٣٥ - ١٩٣٦) كانت قد جندت من الليبيين بضعة آلاف لم يعد منهم من ميادين القتال البعيدة سوى قليلين ، بين صحيح مريض وعليل عاطل ، وسخا الطليان على عادتهم في وعودهم لأهل البلاد تمويها على الليبيين وتخديراً لأعصابهم حتى لا يحدثوا أنفسهم بانتهاز فرصة إنشغال إيطاليا بالحرب في الحبشة تم انفاسها بعد ذلك في الحرب الأهلية بإسبانيا فعلنوا الثورة عليها في ليبيا . فقطعت على نفسها العهود ، بإعادة الحرية ووضع قانون صالح وعفو عام ورد الأملاك المصادرة وإعادة اخوانهم الذين نفوا إلى الخارج إلى ذويهم وأوطانهم ، . وكان لهذه الوعود أثرها المطلوب ، واستعد كل أولئك الذين انتظروا تحقيقها لاستقبال موسوليني

أما البوتشي فقد وصل إلى سيدي بوغرارة قرب طرابلس عن طريق طبرقي في يوم ١٨ مارس ١٩٣٨ ، ومن وقت نزوله إلى طرابلس بدأت المسرحية العجيبة ، إذ امتطى موسوليني صهوة جواد عربي أعده ايتالو بالبو خصيصاً لهذه المناسبة ، ووقف موسوليني بجواده على ربوة تشرف على الألوف العديدة التي أحضرتها الحكومة قسراً لاستقباله . وعندئذ تقدم إليه يوسف خريشة على رأس وفد من الأعيان ، فقدم إليه يوسف خريشة سيفاً عربياً مرصعاً سماه « سيف الإسلام » فأخذه موسوليني ثم استله من غمده « بقوة وعزة » وأخذ يهزه (مراراً في الفضاء وهو يصيح يا أولاد المرردا بذلك بأعلى صوت الحتاف الطرابلسي المشهور في ساحات الوغى ، . فردد الحاضرون هذا النداء ثلاثاً . وانتهى الحفل ولم يذكر موسوليني شيئاً بطبيعة الحال عن تلك العهود المعسولة . وفي ٢١ مارس كانت « قد أعدت كومة من الرمل الأحمر الناصع خصيصاً للخطابة في ميدان السراية الحمراء ، بمدينة طرابلس ، فاعتلى موسوليني بجواده العربي ربوة الخطابة ، وخلفه الماريشال بالبو حاكم طرابلس العام والسفير لیسونا وزير المستعمرات يتقدمه جنديان يحمل كل منهما حزمة القضبان والناس رمز حزب (الفاشيست) وشعار هذا الرسول - أي موسوليني - الذي جاء ليطرد الاستعمار ويحل محله الحرية والإخاء والمساواة المطلقة : واستل السيف من غمده ثم نادى الألوف الحاشدة المنتظرة البشرية من أبناء العروبة المسلمين فقال : « يامسلي طرابلس وليبيا : يا شبان الليتوريو : إن مولاي الجليل ذي الشوكة فيكتور عمانوئيل ملك إيطاليا وأمبراطور الحبشة أرسلني ثانية إليكم بعد إحدى عشرة سنة للتحقق من رقي هذه الديار المرفرف عليها علم إيطاليا مثلث الألوان : وللوقوف على ما تحتاجون إليه وإجابة رغباتكم المشروعة ، إنني إذ أتقبل هديتكم هذه (يشير إلى السيف) لا بد لي من أن أبين لكم إنه قد استهل في تاريخ ليبيا عهد جديد : لقد بزهنتم على إخلاصكم الشديد لإيطاليا فلم تحيدوا قط عن النظام يوم

كانت إيطاليا رهين حرب شعواء في بلاد بعيدة وكان لكم نصيب ثمين في إحراز الظفر بألوف المتطوعة منكم ، إلى أن قال : « ومحتلون عن قريب مما ستأتي به روما من القوانين مبلغ اهتمامها والسير بكم في طريق التحسين ، . وختم خطبته بقوله ووعد الصريح « إنى كما تعلمون لست ، ن يكثرون الوعود ، على إنى إذا وعدت وعداً فلا بد من إنجازه ، . وفى يوم هذه الخطبة نفسه (٢١ مارس) غادر موسوليني طرابلس وانتهت فصول المسرحية وعادت الأمور سيرتها الأولى . وظل الطليان يسلبون أموال الشعب الليبى ويهقونه بالقوانين الاستثنائية والأحكام الجائرة .

وكان بعد هذه الزيارة أن أخذت تترى القرارات بعضها إثر بعض لتنفيذ تلك الخطة المرسومة التى وضعها الطليان لإبادة الليبيين وإفنائهم واغتصاب أموالهم وممتلكاتهم وإلحاق الأذى بهم وإهانتهم فى شعورهم وكرامتهم . فاستبدلت « وزارة أفريقية الإيطالية ، بوزارة المستعمرات ثم تقرر عدم عودة الأملاك التى صادرتها الحكومة من الزعماء والمجاهدين العرب إلى أصحابها ، بل تقوم الحكومة بإتفاق ريعها على المشروعات العمرانية عن طريق البلديات فى المدن « فى صالح المسلمين ، وقد علق على هذا القرار أحد الكتاب الليبيين - وكان أحد أولئك الذين اطمأنوا طويلاً إلى وعود الطليان حتى زالت الغشاوة عن أعينهم - فقال « وهذا القرار يكاد يكون سخريه بالشعب وأهل البلاد - مشاريع عمرانية عن طريق البلديات من الأموال المصادرة ؟ يعنى معنى هذا القرار أن الحكومة تمنع رجوع الوطنيين الذين فى الخارج وتسترد العفو المتور الذى أعلنته من أجل الدعاية الجوفاء ، لأن المهاجرين واللاجئين السياسيين هم أصحاب الأملاك المصادرة . وكثير من أمثال هؤلاء لا يزالون معتقلين من أجل السياسة إلى يومنا هذا رغم العفو الكاذب الذى يدعوته . ومن هؤلاء السجناء من تجاوز عمره السبعين عاماً يوجد قسم منهم فى (بورتا قرقارش) وقسم فى (بورتا بنيتو) ، وكثيراً ما ترى حزب الاستعمار فى طرابلس يكتم أمرهم وينقلهم من مكان لآخر ويحرمهم الاستفادة من قوانين العفو لغاية فى النفس ثم يبلغ دوماً بأنه قد أخلى سبيل السجناء السياسيين ؟ ومن هؤلاء المنكوبين جماعة فى طرابلس من أصحاب الأملاك المصادرة ، تراهم أموات أحياء بين الجوع والعراء ، فالحكومة بحرمانهم من أملاكهم تحول دون رجوع من كان منهم فى الخارج لبلادهم وتحكم عليهم بالبقاء متشردين وإلا فكيف يرجعون وبماذا يعيشون ؟ هى بكلمة واحدة قد عدلت عن كل الوعود ، وتقضت العهد فهى توعده ولكن لا توفى بوعد . ثم هى تنشر الدعايات الواسعة عن حسن معاملتها للطرابلسيين وتبحث عن العدالة والإنصاف تقريباً للعالم الإسلامى لتجذب بذلك قلوب الغرب فى أنحاء الأرض ؟

بينما هي تعمل للقضاء على تلك الأمة وتسيء إليها بنصب حربيتها ومصادرة أملاكها وتشريد أفرادها وإفساد أخلاقها وآدابها وتهجير جماعاتها وإسكان الإيطاليين في بيوت العرب ومزارعهم وتمليكهم كل ما كان للعربي من مال وحيوان ،

وفي أوائل ديسمبر ١٩٣٨ قرر المجلس الفاشيستي الأعلى إصدار (قانون الجنسية) ، ذلك القانون الذي اتخذه الطليان أداة لجعل الليبيين يتجنسون بالجنسية الإيطالية . وكان غرضهم من ذلك القضاء على البقية الباقية من أبناء العرب ، وكان هؤلاء لا يزيدون على نصف مليون نسمة بعد أن كانوا مليوناً ونصف مليون عند مجيء الطليان إلى بلادهم ، فلا يبقى في ليبيا بفضل تنفيذ هذا القانون غير الطليان وحدهم . ولذلك فقد سعت حكومتهم سعيها حثيثاً لإقناع العرب أو إرغامهم إرغاماً - إذ لم يقتعوا - بقبول الجنسية الإيطالية . ثم بعثوا برسول باباوى حتى يخطب في الأهلين خطبة طويلة يحضهم فيها على التجنس بالجنسية الإيطالية وعمدت الحكومة إلى استخدام عدة وسائل لإعلان المزاي التي سوف يتمتع بها المتجنسون ، وكانت تلخص في ضمان الحرية الشخصية وعدم الاعتداء على حرمة منازلهم وصون أملاكهم ثم المنافسة في الحصول على الوظائف المدنية في المستعمرات وممارسة الحرف والصناعات وحمل السلاح طبقاً للوائح الخاصة بالتجنيد ، وحق الاشتراك في التشكيلات الفاشيستية الإسلامية ، - وكان الطليان قد أرغموا الليبيين على الانضمام إلى فرق (الباليل) وغير (الباليل) تمهيداً لإرسالهم إلى ميادين القتال في الحبشة وإسبانيا - ثم حق الترقية في الرتب العسكرية في الوحدات الليبية ، والتمتع بمنصب العمودية في الطوائف التي تتألف من سكان ليبيا وملء مناصب شيخ البلد في الطوائف التي تتألف من خليط من السكان ، ثم تولى المناصب الإدارية في نقابات العمال ، وحق الاشتراك في اللجان التعاونية في ليبيا والمجالس البلدية إلى جانب تلك اللجان الخاصة بالتعاون الاقتصادي .

تلك كانت الحقوق التي وعد بها الطليان المتجنسين بالجنسية الإيطالية وقد قال المهاجرون الطرابلسيون في كتاب وثائقهم التي نشرها في عام ١٩٣٩ بعد أن مردوا كل هذه (المزاي) ولم يبق شك بعد هذا التصريح في أن من لم يتجنس فحرته الشخصية غير مضمونة وكذلك حرمة منزله غير مكفولة وليس له حق في أن يتمتع بواحدة من هذه المزاي العشر . وكذلك أملاكه غير مضمونة من الاعتداء عليها وواقع الأمر فإنه لما كانت نية الطليان الحقيقية هي إفناء العرب وإبادتهم ، لم يعد من المنتظر أن يبقى لقانون الجنسية أية قيمة . وبخاصة عندما تأثر الفاشيون بحلفاتهم النازيين في ألمانيا فأخذوا منهم أخيراً مبادئ العنصرية وشروعوا يطبقون في إيطاليا وفي مستعمراتها (قانون حماية العنصرية) وهو قانون على حد

ما جاء في تصريح وزير الخارجية الإيطالية في يناير ١٩٣٩ كان يشمل (أولا) الطليان الذين يقطنون المملكة أى أولئك الذين يعدون من الشعب الإيطالي وإن لم يكونوا مواطنين إيطاليين ، وهذا النص ينطبق على سافوي ونيس وكورسيكا ومالطة . (ثانيا) الطليان بالولادة حتى إذا كانوا قد اقتبسوا الجنسية الأجنبية . ومقابل ذلك يعد جميع الأجانب المتجنسين بالجنسية الإيطالية أجنبيا ، ومعنى هذا كما هو واضح إخراج العرب الذين أرحموا إرغاما على التجنس بالجنسية الإيطالية من عداد المواطنين الطليان وحرمانهم بالتالى من جميع المزايا السابقة .

وقد أدلى وقتذاك أمير الأقطار الليبية سمو السيد محمد إدريس بتصريح إلى مكاتب جريدة (بارى سوار) الفرنسية ، تحدث فيه عن أخطار ظاهرة العنصرية فقال بعد بيان الأساليب التى ابتدعها الطليان فى تشريد العرب وإبادة أبناء البلاد وإفنائهم : « فن كان هذا حالهم كيف تكون معيشتهم ، وكيف يكون مستقبلهم ، وخصوصا بعد أن اخذت الدولة الإيطالية عن زميلاتها الدكتاتوريات (ألمانيا) مبادئ العنصرية وسن قوانينها ، قوانين التشريد والإبادة مع ما هيا لهم من فتح باب التجنس على مصراعيه ... والعنصرية رأينا الكثيرين من مواطنينا من استساغ وجودها واطمأن حيث أنه بذلك يؤمن جانب الإندماج والتجنس بالجنسية الإيطالية الذى كان يخشاه . وغاب عن صاحب الفكرة الخطر الذى تحمله العنصرية فى برائيتها ونحن وإن كان لا يغرب عن فكرنا تأمين جانب الإندماج إلا أننا نعلم أن هذه الظاهرة الجديدة تحمل لنا الفناء العاجل والإبادة فى أمد قصير حيث لا يعقل أن تبقى أقلية مضطهدة فى أعماك أكثرية ساحقة ترمى تلك الأقلية بعين الغدر وتتحكم فى شئون مصيرها ، وتصدر لها فى كل مناسبة قانونا ناسخا لما سبقه من تلك القوانين . »

تلك صورة موجزة لما كانت تفعله إيطاليا فى ليبيا ومع هذا فقد درجت دعايتهم وقتذاك على رسم الاستعمار الإيطالي فى تلك البلاد فى صورة قشبية زاهية وإن كانت لا تمت بأية صلة لما كان يجرى ويحدث فعلا من ضروب الإذلال والإهانة أو العمل على إبادة العرب وإفنائهم وكان مما قوى أمل الطليان فى إمكان نجاح دعايتهم أنهم اعتمدوا على فصل القطر الليبى بأجمعه عن سائر أقطار العالم وإغلاقه إغلاقا محكما حتى أصبح أكثر الشبه بصندوق مقفل ، منه بأى شئ آخر . وآية ذلك ما صادفه الرحالة المسلم الدانمركى كنود هلميو الذى حاول زيارة هذه الأصقاع فى غضون عام ١٩٣٠ من صعوبات كادت تحول دونه وهذه الزيارة حتى استطاع ذلك بعد مشقات عظيمة متخفيا فى زى عربى . وكل ذلك بسبب العراقيل العديدة التى وضعتها الطليان فى طريقه لمنعه من الاتصال بالعرب والوقوف على حقيقة أساليب الاستعمار

الايطالى . وقد يكفى ذلك دليلا لبيان مبلغ ما ذهب إليه الطليان حتى يجعلوا من ليبيا صندوقا مقلدا حقيقة فلا يخرج منه أو يدخل إليه شيء حتى يظل العالم الخارجى مجهل ما يدور بداخله وحتى يظل اللييون أنفسهم مجهلون ما يجرى فى هذا العالم خارج أوطانهم .

واقضى تحقيق عزلة الليبين الحجر على حرية الرأى والفكر ومكافحة الاجتماع والنشر يشى الوسائل التى أتقنتها الديكتاتوريات الغابرة ، فتمنع الطليان إنشاء الجمعيات الخيرية والإسلامية وتشكيل الأحزاب السياسية وإقامة النوادى العامة ، وحرموا الاجتماعات مهما كان نوعها ، فمنعوا اجتماع صديق بأكثر من صديق واحد حتى ولو كان اجتماع الأخصاء والأصدقاء لأمر عادى أو لمجرد التسلية والمسامرة ، من أمثلة ذلك ما حدث عند ما اجتمع بعض طلبة العلم فى ليالى رمضان فى أحد الفنادق ليقضوا شطراً من الوقت فى مطالعة الكتب والدرس ، فإنه لم يمض على اجتماعاتهم أكثر من خمس ليال حتى كانت قد دهمتهم الشرطة وساقتهم إلى السجن ، أو ما حدث لطلبة آخرين كانوا يجتمعين لقراءة كتاب للمرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فدهمتهم الشرطة كذلك وأردعوا السجن .

وأما النشر فكان لا يوجد من أسبابه سوى جريدتين صغيرتين هما (العدل) و (بريد برقة) ، وهاتان الجريدتان كانتا تطبعان على نفقة الحكومة وتعملان تحت إشرافها ولحسابها ، وعلاوة على ذلك فقد صدرت فى ذلك العهد مجلة (ليبيا المصورة) لخدمة مآرب الطليان والمعمرين . ولا يسع المرء عند ذكر هذه الصحف الثلاث فى العهد الايطالى أن يترك الحديث دون الإشارة إلى تعدد الصحف فى هذه البلاد فى عام ١٩١٩ خصوصا أى قبل التغلب على الحركة الوطنية وإخمادها ، إذ كانت هناك طائفة من الصحف تذكر منها (اللواء الطرابلسى) و (الرقيب) و (العدل) — قبل أن تنقلب حكومية — و (الذكرى) و (الوقت) — وهذه كانت تصدر أسبوعية وبصورة منتظمة ، وقد انقطعت هذه الصحف عن الظهور منذ أن استتب الأمر للطليان إلا ما رضى منها بالعمل لحساب الحكومة . ولما كانت الإذاعات اللاسلكية (الراديو) من وسائل النشر الحديثة وأداة تساعد على اقتحام ذلك الصندوق المقل ، الذى حرص الطليان على أن يظل مغلقا ، امتدت يد الحجر والرقابة من مراقبة المطبوعات السياسية أو الحماسية كالجرائد والمجلات والرسائل الخصوصية ، إلى مراقبة الإذاعة ، فحرمت السلطات الايطالية فى يناير ١٩٣٩ على الأهلين فى ليبيا سماع الإذاعات المرسلة من محطة تونس اللاسلكية ، وفرضت على كل من يخالف هذا القرار غرامة أولى قدرها خمسمائة ليرة حتى إذا أعاد الكرة حكم عليه بالحبس شهراً . وفضلا عن ذلك فقد منعت الحكومة الاستماع للإذاعات

موسكو وبرلين أى إذاعات حلفاء الطليان كما منعت بعض الاذاعات الأوروبية الأخرى ووقعت عقوبة السجن على الذين يخالفون أوامرهما .

ومع هذا وعلى الرغم من هذه التدابير العاشمة جميعها ، فقد كان من المتعذر أن تظل ليبيا ذلك ، الصندوق المقفل ، الذى أرادته الطليان ، فقد كانت الأنباء تسرب منها إلى المهاجرين فى مصر والسودان وتونس واستطاع العالم الإسلامى خصوصا أن يقف على شيء كثير مما كان يعانى به الشعب الليبى من ضروب العنت والارهاق وما كانت تفعله فيهم أساليب الإبادة والإفناء للقاسية ، وعرف العالم أجمع أن الطليان كانوا يزعمون أرواح الليبيين ويسلبونهم أموالهم ويفتصبون أراضيهم ويعملون على إذلالهم وإهانتهم ويحاولون تبصيرهم . وهذا فضلا عن تجنيدهم مرغمين للقتال فى ميادين الحبشة وإسبانيا ، وعرف العالم قاطبة وقتذاك أن موسوليني كان جادا الجذبة كله عند ما نقشت نصائحه على اللافتات فى الميادين والشوارع ، كن جنديا عند اللزوم ، ، ولكن هازلا الهزل كله عند ما ظهر بجوار هذه اللافتات ، لافتات أخرى تحمل عبارة الفرور والكبرياء . الأجوف ، موسوليني يقودك إلى النصر دائما ، . وكانت سخرية ما بعدها سخرية عند ما وقف بالبو خطيباً فى الطرابلسيين الذين اشتد تدمرهم من التجنس بالجنسية الايطالية فقال « إن قانون التجنيس إنما هو منحة منحها لهم الدوتشى نظير خدماتهم الجليلة فى الحرب الحبشية ! ، فضلا عن ذلك فقد عرف العالم أجمع أن الأمة الليبية ما كانت لترضى بالعيش الذليل تحت كنف الفاشستية الطاغية ، وأنه لا مناص من قيامها عن بكرة أبيها لاسترداد حقوقها والعيش فى أوطانها فى عزة وأباء عند سنوح أول بادرة تهيء لأبناء هذه الأمة الباسلة مواصلة ذلك الجهاد الذى ما فترت عزائمهم لحظة عن حمل لوائه مدة ثلاثين عاما بنامها . وأما معقد آمال الأمة الليبية الباسلة فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها فكان زعيمها وأميرها السيد محمد إدريس السنوسى ، الذى ظل طوال سنوات الكفاح المريرة الماضية يسعى جاهداً لإنقاذ الوطن حتى سنحت الفرصة عند نشوب الحرب العالمية الثانية .

الفصل الثاني عشر

التحرير والخلاص

ما كاد الأمير السيد إدريس يصل إلى القاهرة في ٢٧ يناير ١٩٢٣ حتى أخذ نطس الأطباء يعالجون سموه ؛ على أن المرض لم يمنعه من متابعة الحوادث في برقة بكل بهمة وعناية فلم يمض زمن طويل على وجوده بمصر حتى أعلن (البروفاندى) الوزير الإيطالي سمو الأمير في يوم ٢ مايو ١٩٢٣ أن جميع الاتفاقات التي سبق أن أبرمتها الحكومة الإيطالية مع سموه قد صارت لاغية ولا أثر لها ؛ فكان نقض الطليان عهدهم على هذه الصورة مؤذنا ببداية النضال من جديد بين الطليان وبين العرب في برقة . وكان غرض الأمير ، على نحو ما سبق ذكره ، أن يبذل قصارى جهده حتى يبقى الباب مفتوحا باب الإمدادات والتجارات من مصر إلى برقة لمساعدة المجاهدين في كفاحهم المنتظر . فضلا عن ذلك فقد كان سموه يريد بالاتفاق مع رؤساء المجاهدين وزعمائهم أن تظل مصر مفتوحة لاستقبال اللاجئين الذين أخذوا يفدون عليها فرارا من بطش الطليان وغدرهم . والسبب في ذلك أن الطليان بدأوا منذ أن يتوا النية على نقض عهدهم يسعون لدى الحكومتين المصرية والانجليزية من أجل إغلاق الحدود الغربية بين مصر وليبيا ومنع إرسال التجارات والتبرعات من مصر إلى برقة ؛ وإزداد الطليان نشاطا في سعيهم عند ما رأوا السيد عمر المختار يحضر إلى مصر ويجتمع بالأمير ويتلقى منه التعليمات المفصلة ، ثم أحسوا بأن الأمير على الرغم من بقاءه بعيدا عن وطنه كان على اتصال دائم بزعماء الجهاد ويبعث إلى هؤلاء بإرشاداته .

وقد بدأ الأمير كذلك في غضون عام ١٩٢٣ مسعاها دبلوماسية ، لدى السلطات الإنجليزية في مصر حتى وضع للاجلاء حقيقة الموقف في برقة ، فاختار لهذه المهمة المجاهد الأمين وموضع ثقة الليبيين جميعا عبد الرحمن عزام (باشا) أو ه العزام ، ذلك الرجل الذي قض مضاجع المستعمرين في القطر الليبي ثمانية أعوام تقريبا . فقابل العزام من رجال دارالمنذوب السامى في ذلك الحين المايجور تويدى وتحدث إليه طويلا ولكن دون جدوى إذ رفض الاجليز أية مساعدة . على أن هذا الرفض لم يمنع سمو الأمير من أن يطلب إلى السلطات الإنجليزية أن تترك لأبناء البلاد من المصريين الذين أظهروا مروءة وشهامة عظيمة عند بدء

الجهاد ضد إيطاليا في الحرب الليبية الإيطالية السابقة مطلق الحرية في تقديم ما يشاءون من معونة أدبية ومادية للمجاهدين .

ولكن هذا السعى لم يسفر كذلك عن أية نتيجة ، وكانت دعوى الإنجليز أن مصر قد أضحت بلدا مستقلا وأنهم لا يسعهم أن يتدخلوا في شأن اعتبروه من شئوننا الخاصة بها . وعندئذ اقترح عبد الرحمن عزام على سمو الأمير أن يرجو المغفور له سمو الأمير المصري عمر طوسون أن يرأسه اكتابة ، من أجل مساعدة المجامعين في ليبيا فرحب السيد إدريس بذلك وقابل من فورده الأمير عمر طوسون ولقيت الفكرة قبولا في بادئ الأمر لدى الأمير المصري ولكنه طلب مهلة قصيرة حتى يتدبر الأمر ، ثم اتضح فيما بعد أن هناك صعوبات تحول دون تنفيذها ، فأوقف العمل بها .

ولا جدال في أن السبب في إخفاق كل هذه المساعي كان مرده إلى نشاط الحكومة الإيطالية التي ظلت تسعى سعيا حثيثا لدى الحكومتين المصرية والإنجليزية حتى تقيد نشاط الأمير السيد إدريس قيودا كبيرا ، وحتى تقنع الحكومة المصرية بضرورة الحصول على وعد من سموه بعدم الاشتغال بالسياسة ، ولما كان السيد إدريس لا يزال في حاجة ملحة للمعالجة في هذا القطر فقد وجد الأفاضل من إعطاء هذا على أن الوعد بعدم الاشتغال بالسياسة، أي عدم إبداء أي نشاط سياسي في مصر لم يكن معناه أن يتمتع الأمير عن تنفيذ اتفاقه مع السيد عمر المختار فقد ظل الأمير على نحو ما بينا في الفصول السابقة يمد المختار بالمعونة اللازمة ، ويبعث إليه برأيه في كل ما يحدث من أمور ويرغب المختار استشارة سموه بشأنها ، عن طريق الحاج التواتي البرعصي . ثم استمر سموه كذلك يعمل من أجل تسهيل إيواء التجار اللاتنيين الليبيين الذين قصدوا إلى مصر فرارا من الطليان وبطشهم . ووقفت الحكومة الإيطالية على حقيقة هذه الجهود ووجدت مساعيها لإبطائها ، وتذرعت في ذلك بما وقفت عليه من معلومات في هذا الشأن تمسكها من أن تخطو خطواتها الثانية لدى عظيم مصر وعاهلها المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول فرفعت إلى مسامع جلالاته ما وصل عليها من أخبار عن إصرار سمو السيد إدريس على المضي في مساعدة المجاهدين وإنعاش الحركة في ليبيا من مقر سموه بمصر .

وكان لجلالة العاهل الراحل العظيم في هذه المسألة موقفا راتعا حقا . فقد طلب جلالاته من السيد إدريس في مقابلة بالاسكندرية في صيف عام ١٩٢٤ م أن يظل في سكون . ثم انبرى رحمه الله يدفع عن السيد كيد الإيطاليين ، ويضفي على السيد إدريس في الوقت نفسه نوعا من الموازنة والتعظيم كان له أبلغ الأثر في ذهاب مساعي الطليان ضد سموه أدراج الرياح واستطاع الأمير في المدة التالية لإبان (مفاوضات الجغبوب) أن ينشر آراءه وآراء المجاهدين

في هذه المسألة بصراحة وحرية كاملة . ويقول الأمير السيد إدريس وهو يشيد بذكر العاهل العظيم ، إن سعيد ذوالفقار باشا كبير الأماناء بلغنى مرارا أن الطليان كثيرا ما كانوا يحملون على جلالة الملك فؤاد رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته بدعوى أن جلالة يسكت ، عن عمل (السيد إدريس) ونشاطه ؛ ولكن جلالة كان لا يني في الدفاع عن (السيد) ويقول للطلين إن الأخبار التي وصلتهم غير صحيحة . وأن السيد أدريس يساكت ، وهادي . وأنه لا يفعل شيئا عما يقوله الطليان .

وقد وجد الطليان إزاء اشتداد مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر عقب عودة السيد عمر المختار من مصر إلى برقة وبسبب فشلهم في منع السيد إدريس من مساعدة المجاهدين وإيواء اللاجئين وتدير الحملات ضد الطليان بالنشر والكتابة في الصحف المصرية يكشف عن نواياهم ويفضح للدلاء أساليبهم ، وجد الطليان أن يحاولوا الاتفاق مع سموه بالطرق الودية على إنهاء النضال في برقة . فبعث وزير المستعمرات الإيطالي إلى مصر في غضون عام ١٩٢٥ مستشرفا إيطاليا هو الأستاذ الكومنداتور ماربو مورينو حتى يجتمع بسمو السيد إدريس للمفاوضة معه وكانت عروض ماربو مورينو تلخص في أن تعهد إيطاليا بكل ما يضمن أسباب الراحة والرفاهية لسمو السيد ولأفراد الأسرة السنوسية ، لقاء أن يقبل سموه الإمارة على الواحات الجنوبية في برقة فحسب . فلم تلق هذه الفروض إقبالا من سموه أو موافقة عليها ، ذلك بأن السيد رفض المفاوضة مع الحكومة الإيطالية إلا على أساس واحد هو استقلال البلاد وتمتعها بحريتها الكاملة .

وفي الواقع كان الاتفاق بين سمو السيد وبين الطليان على غير أساس الاستقلال من الأمور التي يستحيل تحقيقها وكان من أسباب ذلك أن المفاوضات بين مصر وإيطاليا بشأن تعديل الحدود المصرية الليبية كانت قد بدأت بصورة جدية على أساس إدخال واحة الجغبوب ضمن الحدود الليبية أي تمكين الطليان من الاستيلاء على هذه الواحة وبسط سلطانهم عليها . وقد انجبه الرأي في أول الأمر إلى إنشاء منطقة حرة « محايدة » على طول الحدود المصرية البرقاوية تدخل في دائرتها واحة الجغبوب ذاتها ويتعهد الفريقان الإيطالي والمصري « بعدم دخول تلك المنطقة » ، ونظرت الحكومتان هذا المشروع في إبريل ١٩٢٥ ، وكان الرأي الذائع على نحو ما بشرته الصحف وقتذاك أن الحكومتين قد قبلتا إنشاء منطقة حرة أو منطقة حياد على الحدود . بيد أن المفاوضات الإيطالية في مصر ما لبثت حتى بادرت بتكذيب هذه « الإشاعات » في أوائل يولية من العام نفسه . وفي شهر أغسطس عنيت اللجنة المصرية المكلفة بالمفاوضة مع مندوبين الطليان « بوضع المذكرات وتهيئة المستندات التي تثبت حق مصر في واحة جغبوب لتكوين لجنة عند البدء في المفاوضات المزمع الشروع فيها بعد عودة رئيس هذه اللجنة (معالي) إسماعيل

صدق باشا وكان (معاليه) قد أبحر إلى أوروبا في منتصف هذا الشهر .
وفي سبتمبر ١٩٢٥ قبل اسماعيل صدق باشا رئاسة لجنة الحدود الغربية نهائيا ، وفي ٢
نوفمبر عقدت لجنة الحدود جلستها الأولى . وفي ٢ ديسمبر قالت جريدة المقطم « يلوح لنا
من المعلومات التي استقينها من المصادر العليمة أن اللجنتين المصرية والإيطالية اللتين عينتا
للفصل في مسألة الحدود بين مصر وطرابلس أو شكنتا أن تصلا إلى حل نهائي فاعدته ترك
واحة الجغبوب للايطاليين مع بقاء مقام السيد المهدي السنوسي وجيرته حرما . وهذه الجيرة
تشمل مسجدا وبئرا ماؤها أجاج ومباني يسكنها طلبة المسجد ونحلا . ويقال إن الاتفاق
يتناول وجوب محافظة الايطاليين على حدود مصر الغربية محافظة تامة . وقد تنازلت إيطاليا
لمصر مقابل ذلك عن بئر في جهة السلوم تملكها إيطاليا وهي تبعد ٧ كيلو مترات عن النقطة
التي يربط فيها الجيش المصري ، وهذه الكيلو مترات ملك لايطاليا ، والبحث يدور الآن
على اتباعها للبئر وبالتالي للحكومة المصرية . فاذا تم ذلك فالمرجح أن اللجنة المصرية تنصح
حكومتنا بقبول هذا الحل قبولاً نهائياً بين مصر وإيطاليا .

وفي ٢ ديسمبر ١٩٢٥ تم الاتفاق بين مصر وإيطاليا بشأن تعيين الحدود الغربية للقطر
المصري ، ووقع الاتفاق عن الحكومة المصرية صاحب الدولة أحمد زيور باشا رئيس
مجلس الوزراء ووزير الخارجية ، وعن الحكومة الإيطالية الماركيز نجر تو كاميازو . وكان
هذا الاتفاق يتألف من عشر مواد تناولت المادة الأولى منها تخطيط الحدود المصرية البرقاوية
بصورة تدخل الجغبوب ضمن الحدود الليبية ، وأعدت خريطة تبين خط الحدود المعين في
هذه المادة وهي تعد جزءاً مهماً للاتفاق حسب المادة الثانية . ثم نصت المادة الثالثة على أن
« تعين السلطات العليا لكل من الحكومتين المتعاقدين في ظرف ثلاثة شهور من تاريخ اعتماد
هذا الاتفاق لجنة مختلطة لتحديد في الأراضي نفسها خط الحدود المبين في المادة الأولى ، وفي
المادة الرابعة تعهدت الحكومتان المصرية والإيطالية ، بضمان حرية مرور القوافل الإيطالية
والمصرية المتوجهة من السلوم إلى جغبوب ضمناً تاماً على طرق القوافل ، ولا يدفع أي رسم
أو أية ضريبة لمرور هذه القوافل التي يجوز لها تماماً أن تستمر في استعمال مياه الصهاريج
لحاجتها العادية وكذلك المآوي الموجودة بالقرب من الطرق المشار إليها . ونصت المادة
الخامسة على أنه « رغبة في توفير مياه الشرب لسكان السلوم تتنازل إيطاليا لمصر عن ملكية
بئر الرملة التي تستغلها الآن الحكومة الإيطالية وعن منطقة تحيط بالبئر المذكورة وعمر من
الأرض يكون اتجاهه على محور وادي الرملة يكفي لإبصال هذه البئر بالحدود المصرية ،
وجاء في المادة السابعة « وتتعهد إيطاليا ومصر باتخاذ الوسائل اللازمة لمنع غارات العربان كل
فيما يتعلق بأراضيها .

وتعهدت الحكومتان الإيطالية والمصرية في المادة الثامنة بأن تعينا ، في خلال الثلاثة الشهور التالية لاعتماد هذا الاتفاق لجنة مختطة لتسوية المسائل الآتية :

(١) جنسية سكان المنطقة الداخلية في العشرة الكيلومترات شمالي السلوم وسكان مجموعة واحات جغبوب لتقرير ما إذا كان يصح منح حق اختيار وإلى أى ماوى وإلى أى السكان أو بعضهم .

(٢) رسوم المرعى والسقاية والبذر فيما يتعلق بالسكان الرحل الذين ينتقلون على خط الحدود على قاعدة مبدأ تبادل الإعفاء من كل رسم وضريبة .

(٣) النظام الجمركى للتجارة على الحدود على قاعدة التساهل من الجانبين فيما يتعلق بتعريف الرسوم الجارية العمل بها الآن مراعاة للحالة التى يكون عليها سكان الحدود على أثر تعيين خط الحدود بين مصر و برقة تعيينا نهائيا .

(٤) المسائل القضائية الخاصة بالأشخاص الرحل لتقرير محاكمة هؤلاء الأشخاص سواء أكانوا إيطالى التبعية أم مصريين أمام المحاكم وهيئات القضاء فى مناطق الحدود التى يوجدون فى دائرتها . ويكون من المفهوم أيضا إذا قام هؤلاء الأشخاص مدة تزيد على سنة فى إحدى مناطق الحدود يكونون خاضعين لنظام الضرائب المقررة على الرحل المعمول به فى المنطقة المذكورة .

وأما إذا وقع خلاف فى تطبيق الاتفاق فقد نصت المادة التاسعة على أن يعرض هذا الخلاف على لجنة تحكيم من مندوبين عن الدولتين إيطاليا ومصر ؛ ونصت المادة العاشرة والأخيرة على اعتماد هذا الاتفاق بعد التصديق عليه من برلمان كل من الدولتين .

وكان لإبرام هذه الاتفاقية وقع سيء فى مصر وحملت الصحافة المصرية وزارة أحمد زيور بإشارحه الله مسئولية ضياع وأحة الجغبوب : وكان من مظاهر الاحتجاج إضراب التلاميذ فى دور العلم ، وكتبت الصحف المقالات الطويلة تنعى على الحكومة تصرفها فى هذه المسألة الخطيرة ، من ذلك مقال شديد العبارة نشرته جريدة (الأخبار) فى عدد ٧ ديسمبر ١٩٢٥ تحت عنوان « ماتت جغبوب لتجيا جغبوب » هو الحى الباقى ١ .

وترجع مساعى إيطاليا للاستيلاء على هذه الواحة التى هى مركز السنوسية العتيد فى برقة والتى ظلت القاعدة التى يستند إليها الجهاد فى القطر الليبى ضد الطليان منذ أن أغار هؤلاء على برقة وطرأ بلس حتى عام ١٩١٥ ، فقد رأى الخلفاء فى الحرب العالميه الأولى حتى يجتذبوا إيطاليا إلى جانبهم فترك دول الوسط وتضمن إليهم أن يبذلوا لها الوعود السخية ، فأرمت فى لندن فى غضون عام ١٩١٥ إتفاقية بين إنجلترا وإيطاليا . نصت مادتها الثامنة-

على أنه في حالة الانتصار والفوز وفي مقابل تبادل المنافع الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا على حساب ألمانيا يكون لإيطاليا حق تعديل حدود مستعمراتها الإفريقية في برقة والصومال وبناء على ذلك فقد دارت المفاوضات في عام ١٩١٩ بين اللورد ملر عن إنجلترا والسنيور شالويبا عن إيطاليا للبحث في أمر تعديل حدود الصومال الإيطالي على أساس تنازل إنجلترا عن جوبا ، ثم في أمر تعديل حدود طرابلس الغرب على أساس تنازل إنجلترا كذلك عن جنجوب وقد أسفرت هذه المباحثات السياسية عن مشروع اتفاق قدمته وزارة الخارجية الإنجليزية للسنيور شالويبا في أبريل ١٩٢١ ؛ وقد سألت وقتذاك الحكومة الإنجليزية رأي الحكومة المصرية في هذا الموضوع في شهر يونية من العام نفسه ، ولكن الحكومة المصرية قررت الاحتفاظ برأيها ولم يجب بشئ . وفي شهر أبريل ١٩٢٢ طلب السنيور شالويبا تعديلات كثيرة أراد إدخالها على هذا المشروع ، ووقفت المفاوضات بين الدولتين عند هذا الحد ، حتى إذا كان شهر يونية من العام نفسه استأنفت إيطاليا المفاوضات مع بريطانيا ، فأحالتها هذه على مصر التي أصبحت دولة مستقلة وصار قبولها لذلك ضروريا لعقد الاتفاق . وقد طلبت الحكومة الإيطالية بعد ذلك من الوزارة المصرية برئاسة المغفور له سعد زغلول باشا في غضون عام ١٩٢٤ البحث في هذا الموضوع ، ولكن سفر الرئيس إلى إنجلترا لإجراء المفاوضات الخاصة بالمسألة المصرية مع حكومة المستر رامزي ما كدونالد من جانب ، ثم وقوع حادث اغتيال السير لي ستاك باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام وماتبع ذلك من حوادث أجل البحث في موضوع جنجوب ، حتى تألفت وزارة أحمد زيور باشا . فبدأت المفاوضات جديا ، وهي المفاوضات التي انتهت بإبرام اتفاق ٢ ديسمبر ١٩٢٥ . وقد تشكلت على الأثر اللجنتان التي نص على تأليفهما في المادتين الثالثة (لرسم الحدود) والثامنة (لبحث مسائل الجنسية وغيرها) ؛ وفي غضون عام ١٩٢٦ شرعت اللجنتان تنظران هذه المسائل .

وأما السيد محمد إدريس فقد أظهر خلال ذلك كله منذ مجيئه إلى هذه البلاد يقظة كاملة ، وبذل جهودا كبيرة حتى يحول دون وقوع الجفوب في قبضة الطليان . و منذ أن بدأت المفاوضات جديا في أوائل عام ١٩٢٥ أظهر استعدادا لأن يبسط آراءه على جانب عظيم من الأهمية ، للجنة الحدود الغربية التي تألفت لبحث مسألة الجفوب قبل الفصل في مصير هذه المسألة وإبرام الاتفاق النهائي . وأخذ سموه ينشر المقالات في جريدتي المقطم بالقاهرة ووادي النيل بالإسكندرية في صيف عام ١٩٢٥ ، وانبرى الكتاب من المصريين الذين اشتركوا في وقائع الجهاد إبان الحرب الإيطالية الليبية والزعماء المجاهدين كالاستاذ

عبد الرحمن عزام (باشا) - وكان العزام على ما عهدناه فيه دائما في طليعة المجاهدين والسياسيين الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن حقوق العرب في ليبيا ومكافحة الاستعمار الإيطالي . - انبرى كل هؤلاء يثيرون الرأي العام المصري بفضل ما نشروه من بحوث ومقالات عن (واحة الجغبوب) في كثير من الصحف المصرية . وكان المقفور له أحمد حسنين (باشا) من كبار المؤيدين لهذه الحركة وكان من بين الذين كتبوا في موضوع واحة الجغبوب وتعديل الحدود المنتظر إلى جانب العزام ، اليوزباشي محمد إبراهيم لطفى المصرى . - وقد اشترك إلى جانب المجاهدين في برقة والجبل الأخضر والبطنان بين عامى ١٩١٢ ، ١٩١٥ - ثم لطفى المندراوى وكان يشغل منصب كبير المترجمين للجيش البريطانى في حدود مصر الغربية إبان الحرب العالمية الأولى .

وكان مما اهتم به السيد محمد إدريس بعد إبرام اتفاق الجغبوب في ديسمبر ١٩٢٥ أن يتاح للعرب القاطنين ، في المنطقة الداخلة في العشرة الكيلومترات شمالى السلم وسكان مجموعة واحات الجغبوب ، التجنس بالجنسية المصرية ، وذلك حتى يتسنى لهؤلاء النجاة من طغيان الطليان وبتطشهم . فبعث سموه إلى جريدة المقطم بمقال نشر في ٢٨ أغسطس ١٩٢٦ جاء فيه : اطلعت على رسالة مراسلكم بالأسكندرية عن المفاوضات المصرية الإيطالية بشأن جنسية السنوسيين ولا يسعنى إزاء ما جاء فيها من الحقائق إلا أن أقدم لكم ومراسلكم الشكر على صبركم المستمر لاستكشاف الحقيقة ونشرها على الجمهور وخاصة في المسائل التى تحيطها السياسة بالإبهام والغموض . . (إلى أن قال سموه) . . إن إيطاليا تعطل تمسكها بإدخال السنوسيين تحت جناح الجنسية الإيطالية بأنها تخشى أن يقوموا ضدها في برقة لا طرابلس ، ولكن هؤلاء السنوسيين الذين رغبوا في الجنسية المصرية وأصرروا على المطالبة لا يجهلون أن القانون المصرى شديد جدا على من يتحرف عنه وعلى من يخجل به وهم لم يقدموا على التجنس بالجنسية المصرية والخضوع لهذا القانون الشديد إلا وهم على ثقة تامة بأنهم خاضعون كل الخضوع لقوانين الحكومة المصرية وليس من المعقول أن الحكومة المصرية تعجز عن تأمين إيطاليا من أفراد قلائل بينما هى تنشر الأمن على ملايين النفوس . ومهما يكن الأمر فإننى على اعتقاد تام أن هذا الزعم الواهى سيزول أمام الحق الثابت الذى يتمسك به السنوسيون ، حق الحرية في اختيار التجنس بالجنسية المصرية . .

ولما كان قد تم الاتفاق بين الحكومتين المصرية والإيطالية عند التوقيع على معاهدة الجغبوب في ٢ ديسمبر ١٩٢٥ على أن تصدر الحكومة الإيطالية مرسوما بالعفو العام عن الجرائم والجنح السياسية التى وقعت حتى يوم إبرام الاتفاق من سكان المناطق التى حددت،

فقد أصدرت إيطاليا هذا العفو طبقا لما تعهدت به وأبلغ أمره إلى الحكومة المصرية في أكتوبر ١٩٢٦ وقد انتهز سمو الأمير السيد إدريس هذه الفرصة فأدلى بتصريح لمكاتب المقطم بالإسكندرية ونشرته جريدة المقطم في ١٤ أكتوبر ١٩٢٦ جاء فيه : أن السنوسيين لا يعلقون أهمية على العفو المذكور لأن المسألة في نظرهم تتعلق بالوطنية وأن مثل هذا العفو لا يحول دون استمرارهم في المطالبة بالجنسية المصرية .

وقد طلبوها منذ عهد بعيد من الحكومة المصرية ، وهم يعتقدون بأنهم في منطقة مصرية بحجة احتلتها إيطاليا فأصبح لأهلها حسب الاتفاقات الدولية حق اختيار الجنسية التي يريدونها وأن العفو مسألة ثانوية لأن السنوسيين يتمتعون قبل كل شيء بالوصول إلى حقهم في اختيار الجنسية وقد اختاروا الجنسية المصرية . (ثم قال سموه) أما إذا أرادت إيطاليا الانتفاع بخدمات السنوسيين ومنزلاتهم فلتعلم أنهم إذا خدموا فانما خدمتهم محصورة في مصالح البلاد التي ينسب أهلها اليهم ، (وزاد سموه على ذلك) أنه لا الحكومة المصرية ولا الحكومة الإيطالية أبلختهم هذا العفو رسميا فلم يعرفوا عنه شيئا إلا من المقطم (وقال) أنه لا يظن أن أحدا من السنوسيين المقيمين بمصر يقبل الذهاب إلى برقة أو طرابلس ويتنازل عن طلب الجنسية المصرية ، وأنه لا يميل إلى تصديق الإشاعات التي يؤخذ منها أن الحكومة المصرية قد تكتفى بالعفو الإيطالي وتسمح لنفسها بأن توعد إلى السنوسيين المقيمين بمصر بمغادرتهم بحجة أنهم في أمان وطمانينة . ونحن معتقدون بأن حكومة مصر أرسخ قدما في عالم السياسة من أن توجه إلى ضيوفها والراغبين في جنسية بلادها كلفة تتم على الطرد من هذه البلاد وهي إسلامية شرقية تعمل في سبيل نهضتها واستقلالها ، وكان لهذا التصريح ولاشك أثره في أن تسير الأمور بعد ذلك بما يتفق ورغبات سموه ، وبقي السنوسيون والأشجون الليبيون في مصر وفضلا عن ذلك فقد أضحيت مصر في السنوات التالية وعند اشتداد وطأة النضال في برقة ضد الطليان ، ماوى رحيا لكل أولئك اللاتجيين الليبيين الذين استطاعوا الإفلات من الحدود التي عزز الطليان حماياتهم وأقاموا الأسلاك الشائكة على طولها . وأما البت في مسألة الجنسية فقد أرجىء إلى مفاوضات مقبلة بين مصر وإيطاليا .

وكان في غضون عام ١٩٢٦ كذلك وفي أثناء المباحثات التي قامت بين مصر وإيطاليا بشأن رسم الحدود بين مصر وليبيا وغيرها من المسائل التي نص اتفاق ٦ ديسمبر ١٩٢٥ على ضرورة تشكيل للجان لبحثها ، أن جددت الحكومة الإيطالية مساعيها من أجل استمالة سمو الأمير إلى إنهاء خلافاته معها . وعلى ذلك فقد أرسل الطليان غداة التوقيع على اتفاقية جنجوب ، أجد أعضاء مجلس النواب الإيطالي الدكتور أنريكو أنساباتو ، فوصل

إلى القاهرة في يناير ١٩٢٦ وطلب مقابلة السيد ، وصار إنسلباتو يجتمع بالأمير تارة في فندق شبرد وتارة في منزل سموه وقتذاك بالزيتون ، وقد تبسط الرسول الإيطالي في أحاديثه فادعى القدرة على إقناع موسولينى بالمواقفة على جميع مطالب الأمير ، فأعد له السيد ادريس مذكرة بهذه المطالب ، وجوهرها تنفيذ الاتفاقات السابقة على أساس معاهدة الرجعة . غير أنه حدث بعد ذلك أن حضر من قبل الطليان إلى مصر أحد مندوبيهم يخبر السيد بأن الدكتور أنسلباتو ما كان يتحدث إلى سموه على لسان حكومته ، وأن الحكومة الإيطالية لا تربط بشيء . فمما قد يكون النائب الإيطالي قد أدلى به في أحاديثه مع السيد . وعلى ذلك فقد رفض السيد أن يتحدث مع هذا المندوب الأخير إلا إذا حضر تفويضا من حكومته بخوله حق التكلم باسمها ، وفي شهر مايو من السنة نفسها جدد الطليان مساعيهم ، فوسطوا في هذه المرة السيد مرغنى الادريسي شيخ الطريقة الإدريسية بمصر كي يتفاوض مع الأمير في عودته إلى الوطن ، وفي المطالب التي يطلبها سموه ، فأصر السيد محمد ادريس على ضرورة أن ينفذ الطليان كل الموائيق التي ارتبطوا بها سابقا وخصوصا معاهدة الرجعة . ولم تسفر هذه المفاوضات عن شيء .

وكان الموقف في برقة في هذه الأثناء قد زاد خطورة على خطورته ، وتصرت الحكومة الإيطالية على أن يبدأ واليا في برقة تيروتزي العمليات العسكرية الكبيرة للقضاء على مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر واحتلال سرت والواحات الداخلية ؛ وقد وجد تيروتزي على نحو ما سبق ذكره أن القيام بهذه العمليات العسكرية الواسعة يتطلب جهودا شاقة واستعدادات عظيمة وأن من الأوفق الاعتماد على الطرق الدبلوماسية لإخضاع المغاربة من جهة ولوقف نشاط المجاهدين بقيادة السيد عمر المختار من جهة أخرى ، وذلك بأن تبدأ بين المختار ومندوبي الحكومة الإيطالية تلك المفاوضات التي كان من أهم أغراضها كسب الوقت لحسب إلى أن تكمل استعدادات الحكومة العسكرية . ولما كان عمال الحكومة الإيطالية ورجالها في برقة يعتقدون أن السيد عمر المختار إنما يتبع في كل أعماله التعليلات والإرشادات التي كانت تأتيه من سمو الأمير في مصر لدرجة أن الطليان اعتقدوا (كما سبق القول) أن نداء المختار المشهور في ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩ كان قد جرى إعداده من قبل إذاعته تحت إشراف الأمير في مصر ، فقد وجد الطليان أن من حسن السياسة لنجاح حملتهم السياسية في برقة أن يصلوا في الوقت نفسه إلى اتفاق وتفاهم مع السيد إدريس في مصر . وفضلا عن ذلك فإن السيد عمر المختار نفسه كان في أثناء كل مفاوضاته مع الطليان سواء في سانية القصب أو الشلپوني أو قندوله أو سيدى وحومة أو غيرها بكرر القول للطليان أنه

لا مناص من الرجوع إلى رأي سمو السيد ادريس في نهاية الأمر ، وأن اتفاقا لا يجوز رضاه سموه لن يستطيع السيد عمر المختار قبوله . وعلى ذلك فقد طلب (ديمنكي) وزير ايطاليا المفوض في مصر في شتاء ١٩٢٩ مقابلة السيد ادريس ؛ وكان سمو السيد وقتذاك مقبلا بالاسكندرية ، فتوسط في هذه المقابلة عثمان باشا مرتضى ، وذهب الوزير الايطالى إلى الاسكندرية بصحبه الكومنداتور ديلارمى أحد المديرين بوزارة المستعمرات الايطالية ، وقابل الأمير محصور عثمان باشا مرتضى في فندق كلاريدج . وأعرب ديمنكي عن رغبته في أن يكون واسطة التفاهم بين الأمير والسيور موسولينى رئيس الحكومة .

وقد تمسك الأمير على غرار ما فعل دائما في المناسبات السابقة - بضرورة أن يقوم أى اتفاق بينه وبين ايطاليا على اعتراف الحكومة الايطالية اولا بجميع العهود التى قطعها على نفسها من حيث احترام حقوق الليبيين الوطنية وضمان حرياتهم وتنفيذ الاتفاقات التى أبرمتها مع سموه وفى مقدمة هذه معاهدة الرجعة التى أبرمت فى اكتوبر ١٩٢٠ . ولما كانت ايطاليا قد ارتكبت فعلتها الشنيعة بالقبض على السيد محمد الرضا غدرا وخيانة وأبعدته منقيا إلى أوستيكا ، فقد اصبح الافراج عن السيد الرضا وعودته إلى الوطن دليلا لا غنى عن تقديمه إذا شاءت الحكومة الايطالية أن يثق العرب فى حسن نواياها . وقد أصفى ديمنكى إلى كل هذه المطالب باهتمام زائد ووعد بأن يبذل قصارى جهده لإقناع رئيس حكومته بإجابتها . وبالفعل غادر ديمنكى البلاد إلى ايطاليا . وكان ديمنكى صادقا فى مسعاه فأرجعت الحكومة الايطالية السيد محمد الرضا إلى بنغازى فى مارس ١٩٢٩ . وكان مما أيد مسعى ديمنكى فى هذا السبيل أن السيد عمر المختار كان هو الآخر يلح من جانبه فى ضرورة حضور السيد الرضا المفاوضات الدائرة فى برقة بينه وبين عمال الحكومة الايطالية سيشليانى ودودياشى وأولى وغيرهم . بيد أن ديمنكى كما أثبتت الحوادث فى ذلك الوقت أخفق فى مسعاه الآخر وهو أن تجيب ايطاليا مطالب الأمير وتعيد إلى البلاد حرياتهما المغصوبة وإلى الوطنيين حقوقهم المسلوية وتعمل على تنفيذ معاهدة الرجعة . والواقع أن ايطاليا كانت فى هذه الآونة تسهر على إنجاز استعداداتها العسكرية وتبيت التية على استئناف النضال بمجرد وصول الامدادات والنجدات إلى برقة . وعلى ذلك فإن هذه المفاوضات التى دارت فى شتاء عام ١٩٢٩ فى مصر وبرقة معالم تسفر عن شيء ، وقطعت العلاقات بين المجاهدين والطلليان فى برقة واستأنف السيد عمر المختار النضال فى برقة على النحو الذى سبق ذكره .

واتخذ النضال ضد الطليان صورا شتى . فإنه إلى جانب استئناف الجهاد بزعامة المختار فى برقة كان الوطنيون الليبيون الذين اضطروا إلى مغادرة أوطانهم والمهاجرة إلى سوريا وغيرها

من البلدان الإسلامية العربية قد شجروا هم الآخرون عن ساعد الجهد والعمل . فتأسست في دمشق في عام ١٩٢٨ (جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بالشام)؛ أسسها المجاهد والزعيم الليبي القديم بشير بك سعداوى وانتخب رئيسا لها . وكانت هذه الجمعية تضم إليها صفوة من المجاهدين كسكرتير الجمعية عمر فائق شنيب (بك) ، وأمين الصندوق فوزى النقاش ثم عبد الفتى الباجقى وكامل عياد وعبد السلام أدهم والبباشى طارق ومحمد ناجى التركى ومصطفى بن نوح وأحمد راسم وأبو بكر قدورة ومنصور بك بن قدارة وأبو بكر التركى وخليفة شعبان . وعمل هؤلاء السادة جميعا على إعداد البحوث التى تكشف عن أعمال الطليان وفضائهم فى القطر الليبي وصاروا ينشرونها فى الصحف ، وأبدى بشير السعداوى نشاطا فائقا فنشر بحوثا ومقالات كثيرة ، وحذا حذوة عمر فائق شنيب . وفى عام ١٩٢٩ وضعت الجمعية (الميثاق الوطنى) المشهور (للشعب الطرابلسي البرقاوى)؛ فنصت المادة الأولى منه على تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس - برقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة، وطلب الميثاق فى مادته الثانية دعوة جمعية تأسيسية لمن دستور البلاد، وفى المادة الثالثة وانتخاب الأمة مجلسا نيابيا حائزا على الصلاحية التى منحوله إياها الدستور، وفى المادة الرابعة واعتبار اللغة العربية الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم، وفى المادة الخامسة والمحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليد القطر فى جميع أرجائه، وفى المادة السادسة والعناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية منتخبة، وفى المادة السابعة والعفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه، وفى المادة الثامنة وتحسين العلاقات والمصالح بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاملة خاصة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابى . وما تجدر ملاحظته أن البند الأول من هذا الميثاق كان يتفق مع ما اجتمعت عليه كفة المجاهدين الليبيين فى قصر سرت قبل ذلك بسبعة أعوام (١٩٢٢) ، وكان الأساس الذى قامت عليه فى الواقع بيعة أهل طرابلس بالإمارة للسيد محمد إدريس على القطر الليبي بأجمعه . وعلاوة على ذلك فإن نصوص الميثاق الأخرى كانت تتضمن كل تلك المبادئ التى تضمنها القانونان الأساسيان اللذان استصدرهما الطليان لقطرى برقة وطرابلس فى غضون عام ١٩١٩ وكانت تتضمنها كذلك معاهدة الرجة التى وقعها الأمير السيد محمد إدريس بعد ذلك مع الحكومة الإيطالية ولم ينفذ الطليان شيئا من ذلك كله .

وكان من عوامل نجاح (جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بالشام) إلى جانب نشاط مؤسسها بشير السعداوى وما اتصف به من سداد الرأى وبعد النظر ، أن سمو السيد إدريس أولاها عناية الفائقة ، فصار يمددها بالمساعدات القليلة ، يرسل لها الامدادات المالية حينما

ويبعث إليها بواسطة رساله الموثوق بهم بالمعلومات حينما أخرى ثم يزودها بالاخبار التي كانت تعينها على معرفة مايجرى في أرض الوطن من احداث وما كان يرتكبه الطليان من فظائع . وكان بفضل هذه المساعدات المستمرة أن تمكنت الجمعية من دعم مركزها ومتابعة النشر والقيام بحملة صحافية واسعة تهب بالعالم العربي والاسلامي أن ينهض لموازرة المجاهدين في الاقطار الليبية بكل الطرق ، ونشرت (اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية) نص الميثاق وقدمت له بندا غاطبت فيه مواطنيها في الاقطار العربية ، جاء فيه « أيها الاخوان الاعزاء . إن الواجب يقضى عليكم أن تعملوا لخير بلادكم وذلك بتنظيم صفوفكم وجمع كلمتكم وأن تؤلفوا في كل قطر تسكنونه (جمعية) تلم شعتم وتجمع شملكم وأن توطنوا نفوسكم على التضحية والقيام بالواجب الوطني قاله لا يضيع أجر من أحسن عملا ؛ وارفعوا أصواتكم بالشكوى عما تلاقيه أمتكم البائسة من مظالم الأيطاليين واملؤوا الصحف بالمقالات والقضاء بالاحتجاجات والنشر والنشرات وقفوا للحوادث بالمرصاد وانتهزوا الفرص وفكروا فيما يعود على وطنكم بالنفع ؛ فالفكره الناضجة تكون الأمم وتبعث فيها ووح اليقظة والانتباه ؛ ثم ربوا نشأكم على حب الوطن والحرية والاستقلال ، أروضوهم هذه المبادئ . مع اللبان وانفثوها في صدورهم منذ عهد الصبا ونعومة الأظفار . علموهم مناقب السلف الصالح وأبطال التاريخ والفتح الإسلامي فإنها تبت في نفوسهم علو الهمة وروح الشهامة والمبادئ الوطنية . وليكن شعاركم الاستقلال وتخليص وطنكم من الأغلال . وفكروا في الوسائل التي تقربكم من هذه الغاية الشريفة . فإن الدولة الإيطالية مهما اشتد بها الصلف والغرور إذا رأتنا أمامها أمة ناهضة منتشرة في الآفاق واقفة لها بالمرصاد تحارب الظلم والاستبداد ولا تدين لسنن الاستعمار والاستعباد لا بد أن تدعن لمطالبنا الحققة وميثاقنا القومي الذي عاهدنا الله على تحقيقه يبذل النفس والنفيس والله مع الصابرين . »

وقد استطاعت الجمعية أن توسع دائرة نشاطها فطلبت من المرحوم الأمير شكيب أرسلان في عام ١٩٢٩ وكان الأمير شكيب وقتذاك بالحجاز أن يعاونها ، فلي الأمير شكيب هذا الطلب وأخذ من ذلك الحين ينشر الشيء الكثير عن فظائع الطليان في ليبيا في الصحف والمجلات وفي نشرات صغيرة يسهل تداولها ؛ وأفلح رحمه الله في أن يسترعى انتباه العالم إلى ما كان يفعله الطليان في برقة وطرابلس وما يرتكبونه من فظائع ومنكرات ، وبخاصة عندما دانت لهم الكفرة وغيرها من المراكز الدينية الإسلامية في البلاد وبما يجدد ذكره أن الأمير شكيب ظل مثابرا على الدفاع عن القضية الليبية حتى عام ١٩٣٤ . واستطاعت الجمعية أن تؤسس فرعا في تونس في عام ١٩٣٠ أنشأ المجاهدون الليبيون الذين لجأوا إلى تلك الديار . وأحكم فرع

الجمعية بتونس صلاته مع المركز الرئيسي بدمشق ، ثم والت الجمعية نشاطها فاستمرت تصدر النشرات تصف فظائع الطليان وتحذر فيها الأمم العربية من تصديق دعايتهم الكاذبة المغرضة وتسوق الحججة بعد الحججة في الدفاع عن حقوق البلاد . وابتكرت الجمعية وسائل عدة لإيصال هذه النشرات إلى داخل القطر الليبي نفسه ، وبذلت جهودا كبيرة لتوزيع نشراتها في جميع أنحاء العالم العربي . وفي عام ١٩٤٠ أعيد تشكيل الجمعية من جديد في دمشق برئاسة الدكتور كامل عباد يضم إليه نخبة من أفاضل المجاهدين كالسيد عبد الغنى الباجقى (أميناً للسر) وأبي بكر قدورة وغيرهما ، وبقيت الجمعية تعمل من ذلك الحين تحت إرشاد الأمير السيد إدريس وتوجيهه .

وفضلاً عن ذلك فقد استمر الأمير في خلال عامي ١٩٣٠ ، ١٩٣١ بمد المجاهدين في الجبل الأخضر بكل معونة أمكن سموه أن يجد سبيلاً إلى إيصالها إليهم . وبما يجدر ذكره أن المرحوم الأمير عمر طوسون ظل يعضد مساعي السيد إدريس لنجدة المجاهدين كلما أمكن ذلك . وعند ما بلغ السيل الزبي واشتدت صرامة الطليان وقسوة عملياتهم العسكرية ضد المجاهدين ثم اتخنوا تلك التدابير التي كان الغرض منها منع اتصال المجاهدين بالجبل الأخضر بالأهالي ومنع وصول أية إمدادات إليهم عبر الحدود المصرية ، فأنشأوا المعتقلات التي سبق الحديث عنها ومدوا الأسلاك الشائكة المكهربة وعززوا مراكزهم المسلحة على طول هذه الأسلاك الشائكة ، بات من الصعوبة بمكان إرسال الإمدادات إليهم وانصرف الاهتمام بعد ذلك إلى إرسال عدد من (المقصات) التي يستطيع بها المجاهدون إذا حاولوا الإفلات من الحدود أن يجدوا لهم منفذاً من سياج الأسلاك الشائكة . وقد استمر الحال على ذلك حتى وفاة السيد عمر المختار في سبتمبر ١٩٣١ . وقد سبق القول كيف أن استشهاد المختار كان مؤذناً بانتهاء المقاومة الجدية في برقة .

والواقع أن الطليان تمكنوا بعد ذلك من السير حيثما في تنفيذ برنامجهم الاستعماري القائم على إبادة العرب وإفنائهم ، وبأنت الأحوال درجة عظيمة من الخطورة ، وصار من المتعذر اسداء أية معونة جدية إلى فلول المجاهدين الذين حاولوا هم الآخرون الإفلات من قبضة الطليان على نحو ما سبق تفصيله . وفي هذه الاثناء ظل الأمير السيد إدريس ملاذاً لكل لاجئ إلى القطر المصري . وكان أكبر اهتمام سموه في هذه الفترة العسيرة أن يعمل على تنوير الرأي للعالم ليس فقط في العالم العربي والاسلامي بل وفي جميع الاقطار الأخرى . وأقام سموه ردها من الزمن في حمام مريوط قريبا بقدر المستطاع من شعبه البائس . وكان في أثناء إقامة السيد إدريس في حمام مريوط أن زار مصر ملك إيطاليا عمانويل

الثالث في غضون عام ١٩٣٣ . فقيدت حركة الأمير إلى وقت انتهاء هذه الزيارة . وشغل العالم في السنوات القليلة التالية بظهور ذلك المشروع ، العظيم ، الذي استعدت إيطاليا لتنفيذه منذ عام ١٩٣٣ من أجل إنشاء امبراطوريتها العتيدة في إفريقيا الشرقية وذلك بالإغارة على الحبشة وافتتاحها . وفي العام التالي (١٩٣٤) اتخذت إيطاليا من بعض المنازعات القبلية ذريعة لزحف جيوشها على الحبشة ، وما أن حل خريف عام ١٩٣٥ حتى كانت قد نفذت مشروعها ، العظيم ، وعندئذ وقعت عصبة الأمم الماضية العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، ولكن دون جدوى قم للطلبان افتتاح الحبشة ، وضمها إيطاليا في ٩ مايو ١٩٣٦ . فأضحت جزءا من امبراطوريتها واتخذ ملك إيطاليا لقب امبراطور اثيوبيا . وكان من نتائج هذا الحادث أن ساءت العلاقات بين إيطاليا وانجلترا على وجه الخصوص لاسباب عدة ، منها موقف الانجليز من مسألة توقيع العقوبات الاقتصادية على ايطاليا وعدم استقرار سياستهم قبل ذلك بصدد أطماع ايطاليا الاستعمارية . وبلغت الامور من الحرج بين الدولتين درجة جعلت كثيرين من المجاهدين الليبيين يتوقعون أن يسفر تازم العلاقات بين انجلترا وايطاليا عن استئناف الجهاد في ليبيا بصورة جديدة وبموازرة بريطانيا العظمى في هذه المرة ، وقد حدث فعلا وقتذاك ما عزز هذه الآمال كثيرا .

فقد قابل الكولونيل برملو (بك) الأمير السيد إدريس في حمام مريوط في غضون عام ١٩٣٦ إبان اشتداد الازمة بين انجلترا وإيطاليا وفي الوقت الذي كانت فيه جيوش الطليان المجهزة بالأسلحة الحديثة والطائرات والغازات السامة قد قضت على مقاومة الحبشان . وفي هذه المقابلة أخبر برملو السيد إدريس أن أميرال الأسطول الانجليزي الرابض بالإسكندرية يبغى مقابلته والتحدث اليه في أمور شتى . فذهب السيد لمقابلة أميرال الانجليزي واختفى به الأميرال وتحدث إلى سموه عن المستقبل ، الطيب ، الذي ينتظر الأقطار الليبية . ولكن هذه المقابلة وتلك الأحاديث لم تسفر عن شيء . لأن انجلترا لم يكن في استطاعتها وقتذاك إعلان الحرب على إيطاليا . أضف إلى هذا أن رجال حكومتها كانوا شديدي الحرص على السلم في أوروبا والعالم ويعتزمون المضي في تلك السياسة التي صارت تعرف في التاريخ الأوروي المعاصر باسم سياسة التسكين والتهدئة . فكان من أولى آثار هذه السياسة بالنسبة لإيطاليا رفع العقوبات الاقتصادية عنها نهائيا في أواسط عام ١٩٣٧ . وعلى ذلك فإنه بمجرد انتهاء حادث الحبشة لم يتجدد البحث في ذلك المستقبل الطيب الذي كان ينتظر الأقطار الليبية وأما ما فعله الطليان في ليبيا نفسها في أثناء هذه الحرب من تجنيد ألوف الليبيين فقد سبق ذكره .

وكانت إيطاليا قد عمدت الى بذل المال بسخاء والى نشر دعاية واسعة بين اللاجئين والمهاجرين في مصر وغيرها تستميلهم الى العودة الى ليبيا للانخراط في الجيش المعد لغزو الحبشة . ووعدت الحكومة الايطالية هؤلاء الراجعين بإعطائهم عند وصولهم الى أرض الوطن الإبل والماشية بأثمان يدفعونها أقساطا صغيرة للحكومة العسكرية فانخدع عديدون بهذه الأقوال والوعود المعسولة وغادروا مصر إلى برقة ، فكان الطليان عند وصولهم إلى درنة ينتقون الصالحين منهم للخدمة العسكرية ويجنّدونهم ، وأما غير الصالحين للخدمة في الجيش فاتهم كانوا يسرحونهم دون أن يعطوهم شيئا عما وعدوهم به .

وواقع الأمر أن اعتداء الطليان على الحبشة كان وبالاً عليهم لعدة أسباب يتصل بعضها بالموقف السياسي في أوروبا ذاتها وما لحق بإيطاليا من ضعف على أثر استنفاد قوتها ومواردها في الحرب الحبشية ثم في الحرب الأهلية الإسبانية التي رأى موسوليني أن يساهم فيها بنصيب وافر . وفضلا عن ذلك فإن إيطاليا التي كان دأبها نقض عهودها مع الليبيين سرعان ما سببت تدمراً عميقاً بين أولئك الليبيين الذين أرغمتهم الظروف على مؤازرة إيطاليا في حكم بلادهم أو اعتقدوا أن من مصلحة البلاد قبول الحكم الإيطالي مادام الجهاد قد بات متعذراً في طرابلس وبرقة معا . فقد وعدت الحكومة الإيطالية أن تعيد للبلاد حرياتهما وتضمن للشعب الليبي السعادة والرفاهية ، وتعلن العفو العام وتعيد الأملاك المصادرة إلى أصحابها ، وكل ذلك ثمناً لتلك الجهود العظيمة التي بذلها الليبيون في مؤازرة الطليان في الحرب الحبشية عندما جند من العرب في عام ١٩٣٥ حوالي أربعين ألفاً . وقد شاهد أهل البلاد فلول هذه القوة اللبية المحاربة تعود إلى أوطانها وأكثر أفرادها الذين كتب لهم الخلاص والبقاء على قيد الحياة في حال يرثى لها بسبب المرض وما أصابهم من طامات وجراح بالغة . ومع ذلك فإن الطليان لم ينفذوا شيئاً من وعودهم وقد سبق القول كيف عقد الليبيون آمالاً عظيمة على زيارة موسوليني لبلادهم في عام ١٩٣٧ ، ولكن هذه الزيارة لم تسفر عن شيء ، بل مضى بالبو ينفذ مشروعات « تعمير » الأراضي ويجلب ألوف الطليان للتوطن والاستقرار في ليبيا . فكان من أثر ذلك كله أن بدأ الموالون للحكم الإيطالي في ليبيا يتحرفون رويداً رويداً عن تأييده ، وكان مما زاد في نفورهم أن الطليان المقيمين بالبلاد والذين أسموا أنفسهم أو أطلق عليهم العرب اسم (حزب الاستعمار الإيطالي) صاروا يستبدون بالأمر ويتمتعون بنفوذ ملحوظ في الدوائر الحكومية ، بل ويوجهون سياسة الحكومة الإيطالية المحلية في ليبيا ، وإلى حد كبير كذلك سياسة الحكومة المركزية في رومة بصورة تمنع كل لبي من مشاركة هؤلاء الاستعماريين فيما صاروا يدعون أنه « خبزهم أو عيشهم هم وخدمهم فقط » فيسدون على الليبيين أهل البلاد أبواب الرزق ويعملون على تشريدهم . وعلى ذلك فإنه ما جاء عام ١٩٣٩

حتى كانت الحال في داخل البلاد قد بلغت غاية الخطورة واشتد التدمير بين طبقات الأهاليين جميعا وبات من المنتظر إذا وقع جديد في أفق السياسة الدولية وشغلت إيطاليا في حرب ضروس أخرى أن ينقلب عليها أهل البلاد قاطبة عند أول بادرة . وكان المحك الذي أظهر فشل الاستعمار الإيطالي في ليبيا أمام العالم نشوب الحرب الكونية الثانية .

وبدأت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ باعتداء ألمانيا النازية على بولندا ، وحرصت إيطاليا في أول الأمر على عدم خوض غمارها حتى إذا رأت فرنسا تنهار على أثر الزحف الألماني الخاطف عليها ، أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا في ١٠ يونيو ١٩٤٠ . فهدت بذلك العمل إلى زوال امبراطوريتها الأفريقية وانهيار دولتها الفاشيستية في النهاية . وكان دخول إيطاليا الحرب إلى جانب حليفها المحورية ألمانيا ضد بريطانيا الفرصة التي ظل الليبيون في المهاجر وفي أوطانهم ينتظرونها للتحرر والخلص واسترداد حقوقهم التي اغتصبها العدو أعواما طويلة ، فما دخلت إيطاليا الحرب حتى شرع الليبيون في العمل ، فاقبل فريق منهم بالمفوضية الفرنسية بالقاهرة وغادروا مصر فعلا إلى الجزائر حيث اتصلوا بالجزال (نوجس) واتفقوا معه على أن يجهزوا حملة من الليبيين الموجودين في الجزائر وتونس للعمل ضد الطليان في ليبيا ، غير أن استسلام فرنسا قضى على تنفيذ هذا المشروع . وفي نفس الوقت ظل فريق آخر من الليبيين يعمل تحت رئاسة الأمير السيد ادريس ، الذي كان يتخذ الأهمية لهذه الساعة الفاصلة من بداية الحرب الهنزية .

ذلك أنه منذ أن بدأ النازيون اعتداءاتهم بغزو بولندا وظهر أن حربنا عالمية لا محالة واقعة . عظم نشاط الأمير ثم سرعان ما أخذ ينفذ إلى مقر سموه بالاسكندرية كبار اللاتجيين العرب من أهل ليبيا يبحثون جميعا في احتمالات الموقف ووضع الخطة التي يجب أن يسيروا عليها . وكانت الحكومة المصرية قد جمعت من قبيلة أولاد علي جيشا يشبه الجيش المرابط سمته (سرايا العرب) جعلت مهمته النهير على حماية الحدود الغربية . وعندما وقعت الحرب ، طلبت الحكومة من مشايخ المهاجرين وكبارهم في حدود الصحراء الغربية الانضمام إلى هذه السرايا ، ولكن هؤلاء رفضوا حتى اتصلوا بسائر إخوانهم في الصعيد والفيوم والبحيرة ، وبالفعل ذهب منهم وفد لمقابلة رؤساء المهاجرين في هذه الجهات ، ثم قر الرأي على أن يعقد الجميع اجتماعا في منزل الأمير سمو السيد ادريس بالاسكندرية لبحث الموضوع واتخاذ قرار نهائي . وفي يوم ٦ رمضان ١٣٥٨ (٢٠ أكتوبر ١٩٣٩) اجتمع حوالي أربعين شيخاً من رؤساء الليبيين وزعمائهم الموجودين بمصر في منزل سمو السيد محمد ادريس في جهة فكتوريا يرمل الاسكندرية ، وظلوا يتباحثون ثلاثة أيام بتامها ، وأسفر تبادل الرأي عن اتخاذ

تقرر بتفويض الامير في أن يقوم بمفاوضة الحكومة المصرية أو الحكومة الانجليزية بشأن تكوين جيش سنوسى مهمته الاشتراك في افتتاح الاقطار الليبية واسترجاع أرض الوطن عند دخول ايطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا، وأكدوا اختيارهم لسيد ادريس ووضعوا ثقتهم الكاملة في سموه حتى يمثلهم تمثيلا كاملا في جميع ما يعرض من شئون ثم وقعوا على وثيقة بهذا المعنى في يوم ٩ رمضان ١٣٥٨ (٢٣ اكتوبر ١٩٣٩) جاء فيها :

بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، قد اجتمع زعماء ومشايخ الجالية الطرابلسية البرقاوية المهاجرين بالديار المصرية في اليوم السادس من شهر رمضان المعظم ١٣٥٨ بالاسكندرية وتشاوروا في حالتهم الاستقبالية وقرروا على انتخاب من يمثلهم في كل الامور ويعرب عن آرائهم وبذلك وضعوا ثقتهم في سمو الامير السيد محمد ادريس المهدي السنوسى الذى يمثلهم تمثيلا حقيقيا لما له من المكانة الرفيعة في نفوسهم حيث يرونه أحسن قدوة يقتدى بها . وقد قبل منهم ذلك على أن تكون هيئة منتخبة شورية مربوطة به ومربوط بها لتكون الاداة المبلغه والمعربة عن منتخبها وهى التى تمثل جميعهم تمثيلا صحيحا وأن يعين وكيلا لها يقوم مقامه فى حالة الغياب ويكون من أفراد الهيئة فى حالة حضوره والهيئة الحق فى تثبيت هذا الوكيل أو رفضه بأغلبية الأصوات وعليه حرر هذا للتوقيع رؤساء القبائل الطرابلسية البرقاوية . والمولى سبحانه وتعالى يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه .

وقد بلغ عدد الذين وقعوا على هذا التفويض من ترهونة ومطراتة وبنغازى وورقلة وغريان والقصور والمنفة والعواقر والبراعصة والعييد والمغاربة والحاسنة وغير ذلك من القبائل الطرابلسية والبرقاوية أحد وخمسين شيخا منهم من المجاهدين القديما عبد السلام الكزة عن قبيلة العواقر وصالح الاطيش رئيس قبيلة المغاربة وعبد الجيد العبار وعون محمد سوف وأحمد شتيوى وعبد الحميد أبو مطارى ومحمد توفيق الغريانى وابراهيم احمد الشريف السنوسى وغيرهم .

وعلى ذلك فقد اجتمع سمو الامير بالجنرال ويلسن Wilson قائد الجيوش البريطانية العام فى القطر المصرى ، وتحدث إليه فيما اتخذه الرؤساء اللييون من قرارات ، وابلغه استعداد الليبيين الموجودين بمصر للدفاع عن الحدود المصرية والزحف مع الجيوش الحليفة إلى بلادهم إذا أعلنت ايطاليا الحرب ودخلت هذه الجيوش الاراضى الليبية .

وكان لهذا القرار الحكيم صداه فى دوائر المجاهدين القديما فى خارج القطر المصرى وعلى وجه الخصوص فى دمشق ، فقد بادرت (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى) بمجرد أن

وصلتها أخبار اجتماع الاسكندرية ، بعقد اجتماع في دمشق في يوم ٢٩ شوال ١٣٥٨ (١١ ديسمبر) ، واطلعت على صورة القرار الموقع عليه من زعماء ورؤساء المجاهدين في القطر المصري بتاريخ ٩ رمضان ١٣٥٨ (٢٣ أكتوبر ١٩٣٩) وهو القرار الذي يتضمن على حد قول جمعية الدفاع ، أن جميع الزعماء ورؤساء القبائل وكبار المجاهدين بدون استثناء اتفقت كلمتهم وتعاهدوا جميعا على أن يدينوا بالولاء والطاعة والاخلاص لسمو الأمير السيد محمد ادريس المهدي السنوسي وأنهم عقدوا عليه الآمال في حالهم ومستقبلهم ليمثل أمام الحكومات والسلطات والهيئات آمانى القطر الطرابلسى البرقاوى تمثيلا حقيقيا صحيحا ، ويتكلم باسم الجميع على أن تكون له هيئة منتخبة منهم وله نائب يقوم مقامه عند مسيس الحاجة ، وتليت التوقيعات فبين أنها هي توقيعات من بأيديهم الحل والعقد في القطر الطرابلسى البرقاوى من الاحرار الذين عاهدوا الله على الدفاع عن الوطن وحقوق الأمة ، فكان لما جاء فيه من الغاية السامية أبلغ الأثر في نفوس الجميع لأنه حقق رغباتهم الصادقة في توحيد الكلفة وبرهن على ثبات هذه الأمة في المطالبة بحقوقها وولائها للأمير المحبوب . ولما كان الأمير المشار إليه مبایع له بالإمارة أولا وآخرا وهو محط آمال الجميع في الحاضر والمستقبل لإخلاصه للوطن ودفاعه المجيد عنه ولا يوجد من يشذ عن آرائه الصائبة ولا من يخالفه في التضحية بالنفس والتفيس في سبيل سعادة الوطن والأمة واعلاء كلمة الله ، قرر الجميع تأييد قرار إخوانهم الطرابلسيين البرقاويين في القطر المصري بدون قيد ولا شرط ، وكلفت الهيئة تنظيم هذا القرار الاجماعى للأعراب لسمو الأمير السيد محمد ادريس المهدي السنوسي عن الثقة التامة به والولاء الكامل له ما دام متمسكا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم متخذنا التأهبات اللازمة للقيام بعمل جدى حين تدعو الظروف إليه . وهذه تواقيعنا تشهد أمام الله والوطن والأمة بعهدتنا هذا . ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه ، والله ولى الجميع . .

وحفظ الليبيون عمودهم ، فانه بمجرد أن أعلنت إيطاليا الحرب في يونيه سنة ١٩٤٠ نقل الأمير السيد ادريس مقر إقامته من الاسكندرية إلى مزارعه بجبهة كرداسة قريبا من القاهرة وذلك حتى لا يكون بعيدا عن مقر القيادة العليا للشرق الأوسط التي اتخذت مكانها في القاهرة وتدفق على مقر سموه سيل الليبيين المجاهدين القدماء يطلبون الإنضمام الى جانب إنجلترا ومساعدتها في وقت كانت قد اشتدت المحنة بهذه الدولة العظيمة عقب انهيار فرنسا ، ويغنون الاشتراك في الحملات التي توقعوا بدءها قريبا ، على أن يكون ميدان العمل في برقة والكفرة والفران وطرابلس بالزحف عليها جميعا . وأسفرت مباحثات السيد ادريس مع القيادة العامة

بالقاهرة عن موافقة الانجليز أن يبدأ فوراً تكوين فصائل من القبائل السنوسية العربية لاسترداد حريتهم واستخلاص بلادهم من أيدي الإيطاليين الظلمة وإعادة الاستقلال مرة أخرى . وعلى ذلك فقد دعا سمو السيد إدريس مشايخ القبائل وزعماء المجاهدين الموجودين بالقطر المصري أو أولئك الذين كانوا في عارجه وذلك للاجتماع في مكان بالقاهرة في يوم الخميس ٨ أغسطس سنة ١٩٤٠ من أجل ، المباحثة في شروط الخدمة المقترحة . وكان من بين الذين وصلتهم دعوة الأمير اليوزباشي الشيخ عمر فائق شنيب في درنه ، وذلك حتى يستوضح منه الأمير — على نحو ما جاء في كتاب سموه إليه عن عدد الرجال الذين يمكنه أن يعتمد عليهم في تنفيذ مشروع تكوين الجيش السنوسي المنتظر .

وانعقد الاجتماع قبل الموعد المعين يوم واحد في أحد أحياء القاهرة (جاردن سيتي) في منزل أعدته السلطات الانجليزية لهذا الغرض خصيصاً ، واستمر البحث طيلة يومى ٧ و ٨ أغسطس ، وفي يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٤٠ وصلت (الجمعية الوطنية الليبية) الى القرارات الآتية :
١ - وضع الثقة في دولة بريطانيا العظمى التي مدت يد المساعدة لتخليص الوطن الطرابلسي البرقاوى من براثن الإستعمار الإيطالى الفاشم .

٢ - إعلان الامارة السنوسية والثقة التامة بالأمير السيد محمد إدريس السنوسى المهدي بالمبايع له بالامارة على القطرين .

٣ - تعيين هيئة تمثل القطرين طرابلس وبرقة تكون مجلس شورى للأمير المشار اليه
٤ - خوض غمار الحرب ضد إيطاليا بجانب الجيوش البريطانية وتحت علم الامارة السنوسية
٥ - تعيين حكومة سنوسية تدير الشؤون اللازمة في الوقت الحاضر مؤقتاً .
٦ - تعيين هيئة مجنيد يكون مقرها ضمن مقر الحكومة السنوسية .
٧ - التوسل لدى الحكومة البريطانية بواسطة الأمير المشار إليه بطلب المخصصات اللازمة للتجنيد وإدارة الحكومة وتعيين ميزانية خاصة ونظام مؤقت مستمد من الميثاق الوطنى حسب عوائد وتقاليد العرب .

٨ - تفويض سمو الأمير بمراجعة الدولة البريطانية لعقد الاتفاقات والمعاهدات السياسية والمالية والحربية التي توفى هذه الغاية وتضمن للوطن حريته واستقلاله .

وبعد تلاوة هذا القرار (بصورة علنية وبعد قراءته) وقع عليه الحاضرون (وعاهدوا الله على اتباعه والعمل بموجبه تحت رعاية أميرهم السيد محمد إدريس السنوسى . وكان من هؤلاء صالح الأطيوش وعبد الجليل سيف النصر وعبد الحميد العبار وعبد الحميد أبو مطارى والحامدى عبد الرحمن ، وعمر فائق شنيب وغيرهم .

وفي يوم ٩ أغسطس حضر الجنرال ويلسن إلى مكان الاجتماع فاستقبله سمو الأمير مرحبا وشكره على (ضيافة الجماعة) ، وأبدى الجنرال رغبته في لقاء كلة على الزعماء والمشايخ المجتمعين ، فقال : (إن اشتراككم مع قوات صاحب الجلالة في سحق العدو المشترك هو تحرير لوطنكم واسترداد أملاككم وحريةكم واستقلالكم) ؛ ثم أضاف أنه على استعداد لتزويد الجيش بكل ما يلزمه من أسلحة وعتاد . ثم اتدب سمو الأمير بعد ذلك خمسة من الزعماء الحاضرين لتقديم القرارات التي وصلوا اليها إلى الجنرال ويلسن هم صالح باشا الاطيوش وعبد الجليل سيف النصر وعمر فائق شنيب وعبد الحميد العبار وسعيد الشلي . فقدم هؤلاء هذه القرارات إلى الجنرال كلايتون حتى يسلمها بدوره إلى الجنرال ويلسن ، بيد أنه لما كانت صعوبة المواصلات وقتذاك تحول دون وصول جواب وزارة الخارجية البريطانية بسرعة فقد كان من رأى الجنرال ويلسن المبادرة بتشكيل الجيش السنوسي ، وبدأ العمل فوراً ، فأسس أول مكتب للتجنيد بالقاهرة في يوم ١٢ أغسطس ١٩٤٠ وعين لقيادة الجيش السنوسي العامة الكولونيل بروملو Bromlow ، ثم عين الكابتن أندرسون ضابط اتصال انجليزي واليوزباشي عمر فائق شنيب ضابط اتصال عربي وخصص للخدمة في الجيش السنوسي أربعة ضباط من الانجليز ، وبدأ العمل بكل همة في تأليف الجيش السنوسي . وكان مما طلبه اللييون أن تكون الأوامر الصادرة إلى الضباط العرب باسم أمير البلاد السيد إدريس جري الاتفاق على الصيغة الآتية : « بناء على اختيار سعادة الكولونيل بروملو قائد الجيش السنوسي البريطاني لما رآه في حضرته من الأهلية والكفاءة — وطبقاً لمواقفة الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسي ، أنا القائد العام للجيش البريطاني في القطر المصري أوجه رتبة في الجيش السنوسي البريطاني إلى حضرة اعتباراً من تاريخ هذا الأمر الصادر في الإمضاء (ويلسن) القائد العام » .

وكان أبناء الأسرة السنوسية الشريفة أول من جندوا وانخرطوا في سلك هذا الجيش وأخذ اللييون الذين بادروا بتقديم أنفسهم حتى يجندوا يتدققون على مكتب التجنيد بالقاهرة وجعل عمر فائق شنيب بك رئيساً لهذا المكتب ، وكان سكرتيره محمد افندي المجون ، ثم انشأ معسكر كبير بجهة أبي رواش (مركز امبابه) لتدريب المتطوعين ، وأكثر سمو الأمير من زيارة هذا المعسكر والإشراف بنفسه على حركة التطوع وتدريب المجندين . ولما كان المجندون من المجاهدين أبناء ليبيا الذين لم تكن حياة الحرب والكفاح جديدة عليهم فقد أمكن تدريبهم بسرعة عظيمة على الأساليب الحديثة . واستطاع جيش كبير منهم (عدد أفراد ١٤ ألف من الجنود و ١٢٠ من الضباط الليبيين) أن يشترك إلى جانب الجيش البريطاني

في المارك التي نشبت بعد ذلك مباشرة عندما بدأ الطليان زحفهم على الحدود المصرية بعد أقل من شهر واحد تقريبا من تأسيس مكتب التجنيد . وتاريخ الجيش السنوسي الباسل في الحرب العالمية الثانية إنما هو تاريخ (حملة ليبيا) بأكملها في خلال سنوات ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ .

فقد بدأ الطليان بقيادة المارشال غرزياني (جزار ليبيا) زحفهم على الحدود المصرية في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٠ واحتلوا السلوم في يوم ١٣ سبتمبر ، وبعد ثلاثة أيام وصلت طلائعهم إلى سيدي براني وعندئذ أرسلت القيادة العامة الفصائل السنوسية التي تم تدريبها في معسكر أبي رواش (وغيره من المعسكرات التي أقيمت بعد ذلك) إلى الحدود المصرية الغربية فصدت القوات المتحدة من بريطانية وسنوسية العدو ، وفي ٨ ديسمبر بدأت هذه الجيوش بقيادة الجنرال ويقل Wavell القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط زحفها على العدو ، ثم استولت على سيدي براني في ١١ ديسمبر وطردت العدو من مراكزه . فكان خروج الطليان من سيدي براني مؤذنا ببداية ذلك الزحف الحاطف الذي مكن ويقل في خلال شهرين فقط من الاستيلاء على برقة . فقد استعادت القوات البريطانية والسنوسية السلوم ، ثم سقطت في أيديهم بردي سليمان (البردية) بعد حصار قصير في ٥ يناير ١٩٤١ ، على الرغم من مقاومة العدو الشديدة ، وكذلك سقطت طبرق بعد حصار شاق في ٢٢ يناير وهذا بينما كانت قوات أخرى من جيوش الحلفاء قد بدأت حصار واحة الجغبوب منذ ١٤ يناير ، ولم ينقض شهر يناير حتى كان العدو قد طرد من درنه ، وبدأ الزحف على الجبل الأخضر فسقطت شحات وميناء سوسة والنخيلي وماره وسلنطة ، ودخلت الجيوش المتحالفة المرج في ٦ فبراير وبنغازي في اليوم التالي ، ثم احتلت اجدابية في اليوم الثالث والعقيلة في ٩ فبراير سنة ١٩٤١ .

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش السنوسي يشترك مع البريطانيين في مطاردة العدو واحتلال هذه المواقع في برقة الشمالية كانت قوات أخرى من السنوسيين والعرب الذين هاجروا من واحات الكفرة وقت استيلاء الطليان عليها (١٩٣٠) قد انضمت إلى جيوش الفرنسيين الأحرار في السودان الغربي واستطاع هؤلاء الوصول إلى الكفرة في نفس اليوم الذي دخلت فيه جيوش ويقل بنغازي في ٧ فبراير ١٩٤١ ، وفي مدى خمسة أيام فقط كان قد تم لهم الاستيلاء على جميع واحات الكفرة (١٢ فبراير) . وفي ٢١ مارس سلبت الحامية الإيطالية في الجغبوب بعد حصار دام ستة وثلاثين يوما .

على أن هذا الانتصار السريع الحاطف ما كان يمكن أن يتم بهذه السهولة في هذا الزحف

الأول وفي الزحفين الثاني والثالث بعد ذلك ، إلا نتيجة لعوامل عدة منها ما كان متعلقا بخطط القيادتين البريطانية والاطالية العسكرية ، ومنها ما كان متعلقا بنشاط أهل البلاد الليبيين أنفسهم . ذلك بأن سمو السيد إدريس لم يكتف بتشكيل الجيش السنوسي للزحف إلى جانب البريطانيين في حملة ليبيا . بل إن سموه سرعان ما صار يرسل الرسل إلى المدن والقرى ومواطن البادية ، ينشرون في طول البلاد وعرضها أوامر السيد . فضلا عن ذلك فقد وقع سموه على النشرات التي صارت تلقيها الطائرات على الشعب الليبي ، واستصرخ الشعب لمناصرة بريطانيا من محطات الاذاعة وزود ضباط الاستعلامات البريطانية الذي يعملون خلف خطوط الأعداء سرا بالرجال الأسماء والتوصيات للزعماء وأهل الوطن لإخفائهم وإرشادهم وإمدادهم بالمساعدات والمؤن ، فهب الشعب الليبي على بكرة آيه رجالا ونساء كل يعمل على قدر استطاعته خلف خطوط الأعداء في إخفاء ضباط الاستعلامات وتمويثهم وانقاذ الجرحى وتمريضهم وإخفائهم وتهريب الأسرى من الضباط والجنود البريطانيين والطيارين الذين وقعوا في قبضة الأعداء وإبلاغهم مآلهم وإظهار عورات الأعداء بواسطة الأدلاء على محال قوتهم واستحكاماتهم وطيرانهم ووقودهم وتدمير أدوات حربهم ومؤنهم . . .

وكان الطليان قد أرغموا كثيرين على الخدمة العسكرية كي يحاربوا في صفوفهم عند بدء الحرب في الصحراء ، فعنيت قيادة الجيش البريطاني العامة بأمر هؤلاء الليبيين وعملت على استمالهم إلى ترك صفوف الطليان ، فأصدر الجنرال ويقل منشورا سريا يدعوهم فيه إلى الانضمام إلى الجيش السنوسي . وعلى ذلك فإن هؤلاء ما أن شاهدوا أعلام وطنهم المقدسة ، تخفق على الدبابات والمصفحات وترقف على طلائع الجيش الزاحف حتى بادروا بتسليم أنفسهم على الفور فبلغ عدد المستسلمين حوالي سبعة عشر ألف جندي ليبي اشتركوا في المعارك التالية إلى نهاية الحملة الليبية وطرد القوات الايطالية والالمانية نهائيا من كل ليبيا واستشهد منهم ألوف في ساحات القتال .

وقد كان من أثر ذلك كله أن اضطر العدو إلى الاحتفاظ بقسم كبير من قواته العسكرية في داخل البلاد لمراقبة الأهلين والتكامل بهم وبخاصة عندما ثبت لديه أن ضباط الاستعلامات البريطانية كانوا يحضرون اجتماعات الأعداء سرا بدون أن يعرفوا بينهم وذلك من تدابير زعماء الوطن . . .

وظهرت قسوة الطليان وأحلافهم الألمان في الانتقام من الأهالي عندما اضطرت جيوش ويقل إلى الارتداد السريع أمام قوات روميل الألماني الذي جاء خصيصا إلى ليبيا لتولي القيادة إلى جانب المارشال غرزياني . وكان زحف روميل المشهور زحفا خاطفا . إذ بدأ

روميل عملياته العسكرية بالزحف على العقيلة ودخولها في أول ابريل ١٩٤١ ، وفي اليوم التالي استولت القوات المحورية على البريقة والقطوفية وتم انسحاب ويثل بكل سرعة فدخل العدو إجداية ثم بنغازي . وفي يوم ٤ ابريل زحفت قوات روميل من بنغازي إلى الجبل الأخضر فسقطت درنة ، وفي يوم ١٣ ابريل وصلت جيوشه إلى بردي سايان (البردية) وحسن كابتزو ، وكان كل ما احتفظ به البريطانيون والسنوسيون ميناء طبرق وواحة الجغبوب بينما احتفظ أحلافهم الفرنسيون ومعهم القوات السنوسية في الجنوب بوحات الكفرة . وفي أثناء هذا الزحف الخاطف وقع كثيرون من الجنود البريطانيين في أسر العدو ؛ وأما الجيش السنوسي فقد تمكنت أكثرية العظمى من النجاة لمعرفة بطرق الصحراء ودرورها فوصلوا سالمين إلى الحدود المصرية ومعهم كل سلاحهم ومعداتهم .

وما أن استرد الطليان وأحلافهم بلاد برقة حتى أخذوا ينتقمون لأنفسهم من الأهالي انتقاما مروعا على معاونتهم لجيوش ويثل ، واتخذ هذا الانتقام صورا عنيفة ، فارتكب الطليان الفظائع وخرّبوا برقة وشتتوا أهلها وقتلوا أغلبهم ظلما وعدوانا ، وكان من أعمالهم الانتقامية أنهم شنقوا من أهل المرج ثلاثمائة رجل دفعة واحدة ثم وضعوا الجميع في حفرة ورددوا عليهم بالتراب ؛ وارتكبوا مثل هذه الفظائع في طبرق وبنغازي ودرنة وسرت وطرابلس وغيرها من المدن . ويصف أحد أبناء ليبيا طرفا من هذه الفظائع التي ارتكبتها الطليان مع الأهالي في خطاب أرسله إلى أحد قدماء المجاهدين ، توفيق نوري البرقاوي ببغداد في مارس ١٩٤٢ ؛ فيقول : ومن ضمنهم (أي من ضمن العائلات التي مثل الطليان بأفرادها) عائلة جودة (وكان أحد أفراد هذه الأسرة ضابطا بالجيش السنوسي) ، وهم ساكنين بالبركة بشارع العرفية قدخلوا عليهم الإيطاليين ومعهم رشاشة وقنابل يدوية بين نساءهم وأطفالهم الصغار وقتلوا الحاج صالح وابنه إبراهيم وعثمان وأخيه موسى والوطني الغيور أبي بكر وامرأتين في ساعة واحدة . ثم عائلة صالح الطويل ، فقد اعتدوا على العرض وقتلوا من وجدوه من الرجال ، وعائلة بوشعالة وغيرهم وغيرهم مما يضيق سرد أسمائهم في هذه المجاعة . دع ما جرى في بنغازي من السيشلياني وهم وحدهم جعلوا مجزرة في شوارع المدينة . عبد الرحيم الشطاط قتل أمام سوق الظلام من أحد الإيطاليين وهو ذاهب لبيته وقد ترك وراءه ستة أولاد وأخته وأمه وأكبر أولاده لا يزيد على ٨ سنوات . دع عنك تحطيم أبواب المنازل وأخذ كل ما وجدوه من عفش ووثونة . وكان البعض حاسب حساب المجاعة فاخترن من كل شيء من المواد الغذائية . أما من القوارشة غربا وهي تبعد ١٢ كم على بنغازي والكوفية شرقا وهي ٨ كم فكل العربان مسلحين ، والنواجع انضمت لبعضها بعض حتى

كادت تكون كتلة واحدة ولم يجرأ الا ايطاليين ولا ساداتهم الالمانيين على الاقتراب من بيوتهم لانه حربوهم فردوهم بعدما قتلوا منهم الثلثين تقريباً خائبين .

ويشير صاحب الخطاب في كتبه هذه إلى مسألة اغتصاب جنود غرزياني وزوميل لكل ما كان لدى الأهلين من مؤن اختزنوها في بيوتهم خوفاً من المجاعة على حد قوله ، وتفصيل الأمر أن السلطات المحورية قبل الزحف البريطاني الأول واضطاروا إلى الانسحاب أمام جيوش ويقل كانت قد جمعت كل ما كان بالبلاد من مؤن وأقوات لتموين جيوشها . فوجد البريطانيون عند حضورهم أهل البلاد على وشك الهلاك جوعاً . فجاءوا بالغلل والمواد الغذائية المختلفة ، لإنقاذ الأهلين ووزعوها عليهم وادخر هؤلاء كميات كبيرة منها في بيوتهم وامتلات الأسواق والمخازن بالأرزاق . وعلى ذلك فإنه بمجرد انسحاب جيوش ويقل عمد الطليان وحلفاؤهم الألمان إلى جمع هذه الأقوات واغتصابها من أصحابها ، قهبوا الأسواق والمخازن والحوانيت واقتحموا البيوت واستولوا على كل ما ادخره أصحابها منها . وكان في أثناء تفتيش البيوت أن هتك الطليان والألمان الأعراض وقتلوا الأنفس ومثلوا بالأهلين أفظع تمثيل انتقاماً منهم لمعاوتهم الجيوش الزاحفة لتخليص ليبيا . ثم تكررت هذه المآسي عند ما استولت الجيوش البريطانية والسوسية على البلاد ثم اضطروا إلى الانسحاب منها مرة ثانية على نحو ما يأتي ذكره .

فقد نقل الجنرال ويقل من قيادة الشرق الأوسط إلى القيادة البريطانية العامة في الهند في بداية شهر يولييه من عام ١٩٤١ ، ونقل مكانه من الهند السير كلود أوكنلك ، فوصل القائد العام الجديد إلى القاهره في ١١ يولييه . وبدأ في التو والساعة عملية استكشاف واسعة خلف خطوط العدو ، فأرسل السيارات المصفحة بقوات من الفدائيين (الكوماندو) سار فريق منهم من الحدود المصرية إلى منطقة العقيلة ، وسار الفريق الآخر من واحات الكفرة وهذه كانت قد بقيت بأيدي الفرنسيين الأحرار والسوسيين على الرغم من انسحاب جيوش ويقل في الشمال — فتقدمت هذه القوة الثانية وسط الفزان إلى مرزق . وكان مع الفدائيين في هذا الزحف المحفوف بالمخاطر عبد الجليل سيف النصر ، واشترك عبد الجليل سيف النصر في المعارك التي نشبت ، ولكنه عاد سالماً مع هذه الجماعة إلى الحدود المصرية . وزيادة على ذلك فقد عادت الجماعة الأولى من مهمتها في العقيلة بعد أن تكلفت جهودها كذلك بالنجاح . وكانت عودة الفريقين في أوائل أغسطس . وقضى أوكنلك ما يقرب من ثلاثة شهور ونصف شهر يتأهب للزحف الجديد . وفي ١٨ نوفمبر ١٩٤١ بدأت الجيوش البريطانية والسوسية زحفها الثاني على ليبيا ، فوصلت بعد يومين إلى نقطة الناصورة على بعد

عشرة أميال إلى الجنوب الشرقى من طبرق ، ثم اتخذ الزحف طريقين أحدهما بمحاذاة الساحل والآخر في داخل برقة ، فاحتلت القوات الزاحفة في الداخل واحتى أوجلو وجالو في يومى ٢٥ و ٢٦ نوفمبر ، بينما وصلت الجيوش البريطانية والسوسية الزاحفة على امتداد الساحل إلى عين الغزالة في ١٢ ديسمبر ثم إلى عين التيمى وأم الرزم بعد ذلك بثلاثة أيام ، ثم احتلوا درنة في ١٩ ديسمبر ، وفي الوقت نفسه احتلت القوات الأخرى المنجلى ثم تابعت القواتان زحفهما على بتغازى فدخلتا جيوش أوكنك في ٢٤ ديسمبر . وفي ٢٥ ديسمبر تقدم الجيش الزاحف من مسوس فاستولى على شلظيمة وسلوق وقينس وجردينة ، وطوق إجداية التي سقطت بعد حصار قصير فاحتلها البريطانيون والسوسيون في ٧ يناير ١٩٤٢ . ثم زحفت بعض الوحدات الميكانيكية على واحة مرادة فاحتلتها في ١١ يناير . فضلا عن ذلك فقد قامت قوات فرنسا الحرة بقيادة الجنرال جاك فيليب ليكلير بزحف كبير من منطقة تشاد بالسودان الغربى ومعها قوات المجاهدين من أهل طرابلس والفران وبرقة بزعامه أحمد بك سيف النصر وغيره من كبار المجاهدين القدماء فتمكنت هذه القوات الباسلة من الاستيلاء على القطرون جنوب مرزق ثم زحفت على زويلة واحتلتها واستولت بعد ذلك على واو الكبير (أو واو الشعوف) ثم اتجهت شمالا بغرب فاحتلت واحة تيمسه . وبذلك أصبح جنوبي الفران في قبضة الحلفاء بمعاونة المخارين من أهل ليبيا .

وساهم الجيش السوسى مع القوات البريطانية وساهم المجاهدون الليبيون مع القوات الفرنسية الحرة في كسب هذه الانتصارات السريعة ، وكان لهذه المعاونة أثر عميق في نفوس الشعب البريطانى قاطبة حتى إن وزير خارجية بريطانيا في ذلك الوقت العصيب ، المستر أنطونى إيدن ما لبك أن ألقى في مجلس العموم البريطانى في ٨ يناير ١٩٤٢ بالتصريح التالى رداً على سؤال وجهه إليه أحد النواب ، فقال : إني أصرح بأن السيد إدريس المهدي السوسى اتصل بالهيئات البريطانية المسؤولة بمصر في خلال شهر من اتيار فرنسا في وقت لم يكن فيه الموقف العسكرى في افريقيا ملاماً لنا على الاطلاق . فتألف فيما بعد جيش سوسى يضم أتباعه الذين قد تخلصوا من نير الظلم الإيطالى بين حين وآخر في خلال العشرين سنة الماضية . وقام هذا الجيش بمساعدات قيمة أثناء القيام بتلك العمليات الحربية الموفقة في الصحراء الغربية في شتاء ١٩٤٠ و ١٩٤١ وهو الآن يقوم أيضا بنصيب قيم في الحملة العسكرية الحالية . فانهز هذه الفرصة لأعبر عن التقدير التام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به وما زال يقوم به السيد إدريس السوسى وأتباعه في المجهود البريطانى الحربى . وإننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية في

مهمة سحق العدو المشترك . وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهى الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين في برقة تحت النير الإيطالي مرة أخرى بأى حال من الأحوال .

على أنه ما كاد يمضي أسبوعان على صدور هذا التصريح حتى كان روميل قد اتخذ عدته الكاملة للقيام بهجوم سريع على مراكز البريطانيين وخطوطهم . فانقضت قواته فجأة وبسرعة خاطفة في يوم ٢٣ يناير ١٩٤٢ على خط البريطانيين والسنوسيين الممتد من العقيلة إلى إجداية واستطاع أن يقتحم هذا الخط في يوم واحد حتى إذا كان مساء اليوم نفسه قضى روميل بعض الوقت في إجداية للراحة والاستجمام استعدادا لاستئناف الهجوم والزحف . وفي اليوم التالي (٢٤ يناير) وقعت معركة كبيرة في المثلث المحصور بين إجداية وتساونو وعين الثلاث كان النصر فيها حليف روميل فاستطاع أن يحتل مسوس في اليوم التالي وتقدم إلى منطقة الرجمة إلى الجنوب الشرقي من بنغازي وقريبا منها فاضطرت جيوش أوكنلك إلى الانسحاب من بنغازي في يوم ٣٠ يناير . وكان زحف روميل بعد ذلك سريعا فوصل إلى درنة في ٣ فبراير وانحرف إلى الجنوب الشرقي فاحتل مرتوبة بعد ثلاثة أيام ثم تابع زحفه فاحتل أم الرزم شمال خليج البمبة ، وعندئذ تقهقر البريطانيون إلى عين الغزالة ثم تحصنوا في إقليم البطنان واتخذوا لدفاعهم خطا يمتد من عين الغزالة على الساحل شمالا إلى بئر حكيم في الجنوب بينما انسحبت قواتهم في المنطقة الجنوبية من مرادة ووحدات جاو وأرجلة وجخرة ؛ فكان انسحابهم من برقة والجبل الأخضر انسحابا تاما ؛ ولم يبق للحلفاء سوى وحدات الكفرة والمنطقة الجنوبية الشرقية من إقليم فزان إذ ظلت القوات الفرنسية الحرة وقوات المجاهدين الليبيين محتفظة بها .

وكانت خطوة روميل التالية أن يعمل على اخراج جيوش البريطانيين والسنوسيين من إقليم البطنان تمهيدا لاختراق الحدود المصرية والزحف نحو مريوط والامكندرية من جهة ثم صوب واحة سيوة من جهة أخرى وغزو القطر المصري . وبدأ روميل عند تنفيذ هذه الخطة بالهجوم على بئر حكيم في ٢٧ مارس ١٩٤٢ ؛ ثم اتسع ميدان القتال حتى شمل المنطقة بأكملها من عين الغزالة في الشمال إلى بئر حكيم في الجنوب ، وكانت تقوم بالدفاع عن بئر حكيم قوة من الفرنسيين الأحرار أبدت من ضروب البسالة ما يزال ذكراه ماثلا بالأذهان ، ولكنها اضطرت في آخر الأمر إلى إخلاء بئر حكيم بعد أن تكبدت خسائر فادحة في يوم ١١ يونيو ١٩٤٢ . وعندئذ تحطم خط الدفاع فاستولى العدو على عين الغزالة في ١٥ يونيو ، وبعد خمسة أيام فقط كان إقليم البطنان بأجمعه في أيدي الجيوش

الزاحفة . وفي يوم ٢١ يونية دخلت جنود روميل ميناء طبرق بعد أن أبدت القوات البريطانية والسوسية من ضروب البسالة كذلك شيئاً عظيماً . وفي اليوم نفسه سقطت في أيدي العدو بردي سليمان (البردية) وفي صبيحة اليوم التالي كان العدو يتأهب لاختراق الحدود المصرية . فبدأ الزحف فعلاً في يوم ٢٣ يونية وسقطت سيدي عمر وقلعة السلام المصرية ثم تبعها سقوط بقبق وسيدى برانى وفي ٢٧ يونية أستولى روميل على مرسى مطروح وكانت الجيوش البريطانية والسوسية في أثناء ذلك قد ارتدت إلى خط دفاع جديد يمتد مسافة خمسين كيلو متراً من العلمين عند خليج العرب في الشمال إلى حافة وادي القطارة جنوباً . وأخذت الإمدادات والنجدات تتدفق بسرعة عظيمة على هذه المنطقة لتعزيز مراكز الدفاع الجديدة وحشدت أكثر القوات في منطقة العلمين . وكان اختيار خط الدفاع الجديد اختياراً موفقاً . فقد وصلت قوات روميل في فجر يوم أول يولية ١٩٤٢ إلى مسافة قريبة من العلمين ، ولكن روميل لم يتمكن من اختراق الخط لحول جهوده إلى سيوة على أمل أن تستطيع قواته الميكانيكية التقدم إلى قلب الحدود المصرية ، فتم له احتلال هذه الواحة في ٢٤ يولية ولكنه لم يتقدم أبعد من ذلك . وكان من الواضح أن معركة مصر الفاصلة سوف تدور رحاها في ميدان العلمين قريباً .

وهكذا بات الموقف في شهرى يولية وأغسطس من عام ١٩٤٢ ينذر بمخاطرة عظيمة . فأخذ البريطانيون من جانب والسوسيون من جانب آخريّنظمون قواتهم من جديد ويعززونها بمختلف الوسائل . فحضر رئيس الوزارة البريطانية مستر تشرشل إلى مصر في شهر أغسطس ليجتث الموقف بنفسه واتخذت عدة اجراءات كان منها نقل الجنرال أوكنلاك من القيادة العليا في الشرق الأوسط وإسناد هذا المنصب إلى الجنرال السير هارولد الكستدر في ١٩ أغسطس ١٩٤٢ . ثم أسندت قيادة الجيش الثامن الذي خاض معارك ليبيا ورابط عند العلمين إلى الجنرال مونتجومري ؛ وزاد تدفق الذخائر والعتاد والأسلحة على العلمين بسرعة كبيرة ؛ ثم أخذ سمو الأمير محمد ادريس يعمل من جانبه بعد تبادل الرأي مع القيادة الجديدة لاتخاذ الخطوات اللازمة لتعزيز القوات السوسية ، وبذل الأمير في هذا السبيل جهوداً صادقة ، فقام بزيارات عدة لمعسكرات تدريب السوسيين وأكثر من الاجتماع بالضباط والجنود السوسيين يتحدث إليهم ويرعى شؤونهم ، ويتناول معهم الطعام ويشرب الشاي على عادة العرب حتى يثبت في نفوسهم الثقة والطمأنينة ويشجعهم على المضي في تدريبهم بكل همة ونشاط . وأخذت لسموه صور عديدة مع جنوده في أثناء هذه الزيارات ؛ وكان لزيارات سموه لهذه المعسكرات ولا شك أعظم الأثر في سرعة تشكيل الفصائل الجديدة ووقوفها على قدم الاستعداد

للخدمة في الميدان عند أول ساعة . وتعددت معسكرات التدريب ومواقع السنوسيين في البرلس والسويس وجنيفه والصحراء الغربية والفيوم وغيرها . وكان الجيش السنوسي إلى جانب الاشتراك في الزحفين السابقين على برقة قد اضطلع شطر منه كذلك بحراسة مهمات الجيش الثامن بالقطر المصري ومخازن الذخيرة ومراكز المخبرات اللاسلكية والموانيء عند تفريغ السفن المحملة بالعتاد والأسلحة والمطارات . والجنود السنوسيون هم الذين تولوا حراسة المطار الذي هبط فيه المستر تشرشل بطائرته عند مجيئه إلى مصر، كما تولوا حراسة الطائرات التي أحضرته ثم عادت به إلى بلاده .

وعند ما تمت الاستعدادات بدأ متجو مري هجومه التاريخي البارح على مراكز العدو في يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ فدارت رحى معركة العلين الباهرة ؛ وحفظ الجيش السنوسي مؤخرة الجيش الثامن في أثناء المعركة . وكانت معركة العلين معركة فاصلة فاستطاع شطر من الجيش الثامن أن يزحف بمجازاة الساحل بينما تقدم جزء آخر في الداخل ، فوصل الفريق الأول إلى بلدة سيدي عبد الرحمن في يوم ٣ نوفمبر ووصل الفريق الآخر في اليوم نفسه إلى جهة العقاقير ؛ وكان هذا التقدم مؤذنا بانتهاء هذه المعركة التاريخية الحاسمة ، وهي معركة كلفت العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد فبلغ عدد القتلى عشرة آلاف ؛ ومن بين هؤلاء الجنرال فون شتومي الذي كان يلي روميل في القيادة ، ثم وقع في الأسر تسعة آلاف من بينهم الجنرال ريتز فون توما قائد الفيالق الإفريقي . وبعد هذا النصر الحاسم كان الزحف عبارة عن نزهة عسكرية ، فدخل البريطانيون والسنوسيون فوكة في ٤ نوفمبر وأنزلوا بالألمان والطلبان خسائر جسيمة ووقع في الأسر من جنود الطليان وخدم أربعة آلاف من بينهم قائد فرقة ترنتو الإيطالية ورئيس أركان حربه ، ثم توالى هزائم المحوريين فاسترد الجيش الثامن مرسى مطروح بعد يومين وخسر الطليان في هذه المرة حوالي عشرين ألف محارب سلخوا بأسلحتهم وذخائرهم ، وفي ٩ نوفمبر سقطت السلوم ؛ ثم بادر العدو بإخلاء سيوه ؛ وفي اليومين التاليين احتلت البطنان وسقطت طبرق ، وفي ١٧ نوفمبر تم احتلال درنة . وفي ٢٠ نوفمبر دخل البريطانيون والسنوسيون بنغازي واضطر العدو إلى التقهقر منها بعد أن أضرم فيها النار ودمر معظم المدينة . وفي ٢٣ نوفمبر دخلت الجيوش المظفرة إجداية وبعد يومين وصلت إلى العقيلة . وفي الوقت نفسه كانت قوات أخرى تقوم باحتلال واحات جنزة وجالو وأوجله التي أخلاها العدو بكل سرعة (٢٣ نوفمبر) وتقدمت في زحفها إلى واحة مرادة (٢٦ نوفمبر) . وكانت الخطوة التالية الزحف على طرابلس .

وعلى ذلك فقد بدأ متجو مري زحفه من العقيلة في يوم ١٢ ديسمبر ، وحاول روميل أن

يصد بما كان لديه من قوات متعبة بين العقيلة والنوفيلية فنشبت معركة حامية في يوم ١٣ ديسمبر كان النصر فيها حليف الجيش الثامن فاضطر روميل إلى الارتداد واحتل الجيش الثامن للنوفيلية في ١٨ ديسمبر وبعد يومين بدأ الجيش الزاحف في حصار سرت بينما تقدم شطر منه جنوب بويرات الحصون بين سرت ومصراة ، فكان من أثر هذا التطويق أن سقطت سرت في يوم ٢٥ ديسمبر ووقع في أيدي البريطانيين آلاف الأسرى ، واتسع نطاق العمليات العسكرية في طرابلس بعد هذه الانتصارات الرائعة التي أضعفت قوة العدو وانهكتها ، فاستطاعت جيوش فرنسا الحرة والمجاهدين الليبيين بقيادة الجنرال جاك فليب ليكثير أن تزحف من مراكزها في الفزان صوب مرزق العاصمة فبلغتها في يوم ٦ يناير ١٩٤٣ ثم تقدمت شمالا في زحفها حتى وصلت إلى براك في وسط الفزان بعد يومين فقط ، ثم استولت على غات ولما ينتصف شهر يناير وأبدى العدو مقاومة بسيطة . وفي الوقت نفسه استأنف الجيش الثامن زحفه فاحتل ورفلة في يوم ١٦ يناير ثم سقطت بعد يومين في أيدي شطر من القوات البريطانية والسنوسية مصراة ثم زليطن في اليوم التالي (١٩ يناير) ثم الخمس في ٢٠ يناير . وفي اليوم نفسه كان الجيش الزاحف من ورفلة قد احتل ترهونة . وعندئذ أخذت القوتان تأهبان للزحف على مدينة طرابلس في وقت واحد . وفي يوم ٢٣ يناير ١٩٤٣ دخلت جيوش مونتجومري مدينة طرابلس وتقهقر روميل بكل سرعة . وكان من أثر تقهقره السريع وتحطيم خطوط المحوريين أن تمكن جيش الجنرال ليكثير الزاحف من الفزان من الوصول إلى غدامس ثم الاتجاه صوب الشمال الشرقي فاحتل مزده ، وقد التقت قواته بالقوات الزاحفة من الشرق على جنوبي طرابلس فظهرت القوتان المنطقه الجنوبية بأكلها من العدو . وهكذا لم تغرب شمس يوم ٧ فبراير ١٩٤٣ حتى كانت جيوش روميل المنهزمة قد أخلت القطر الطرابلسي بأجمعه . وأما قصة تقهقر روميل بعد ذلك وتحصنه في تونس من ذلك الحين إلى أن ضيق الحلفاء عليه الخناق في شبه جزيرة بون ، ثم نزول الحلفاء في جزيرة صقلية وسقوط موسوليني ونزول الجيوش الظافرة في شبه الجزيرة الإيطالية ثم تسليم إيطاليا دون قيد أو شرط فإن ذلك كله من تاريخ الحرب العالمية الثانية ، ويكفي أن يذكر المرء أن معركة العلين الحاسمة كانت البداية لكل تلك الانتصارات الباهرة السريعة التي ضمنتم للحلفاء ضمنا كبيرا كسب الحرب العالمية في النهاية .

وكان لجلاء العدو عن طرابلس واحتلال القوات البريطانية والسنوسية لعاصمتها رنة وفرح وسرور عظيم لدى الليبيين . وقد عبر أمير البلاد سمو السيد محمد ادريس عن شعور الشعب الليبي قاطبة عندما قال في حديث نشره (للمصور) بعدد ٢٩ يناير ١٩٤٣ . أي بعد

استرجاع مدينته طرابلس بستة أيام فقط ، إنى أحمد الله الذى جعلنى أشهد خروج هؤلاء (الطليان) الظالمين من بلادنا ، . وأقام الجيش السنوسى عقب استرداد بنغازى مهرجاناً عظيماً فى مصر احتفالاً بهذا النصر حضره سمو السيد ادريس فى أحد معسكرات الجيش بالصحراء ، فتمهد السيد فصائل الجيش ، بعد أن أدى الجنود لسموه التحية العسكرية ثم اصطف الجنود على شكل مربع حول فراغ ليتسنى للجميع سماع صوت الأمير الذى أخذ يتحدث فى جنوده مؤكداً لهم ، أن بريطانيا لاترغب فى الاستيلاء على أراضيهم واستعمارها كما فعل الايطاليون ، وأنهم الآن سوف يعودون إلى أوطانهم قريباً حيث يعهد اليهم بالاشراف على الامن وتوطيد دعائم السلام بالبلاد ، وأوصاهم سموه أن يكونوا مثالا فى حسن السلوك وقدوة طيبة لأهل بلادهم .

ولا جدال فى أنه كان يحق لليبيين عموماً والسنوسيين خصوصاً أن يطربوا ، وحق لهم كذلك أن ينتظروا التحرير والخلاص من كل استعمار أجنبي وهم أولئك للشجعان البواسل الذين اشتركوا اشتركا فعلياً فى تحرير بلادهم وطرده العدو الذى اغتصب منهم أوطانهم سنوات كثيرة ، وأسدوا لجيوش الحلفاء خدمات جليلة كان البريطانيون أنفسهم أول من اعترف بها ، على نحو ما صرح به وزير خارجيتهم أنطونى إيدن فى يناير ١٩٤٢ ، وعلى نحو ما أثبتته صحفهم بعد معركة العلمين خصوصاً . فقد نشرت جريدة (إچيشان غازيت) بمصر فى شهر نوفمبر ١٩٤٢ مقالا طويلا وصف فيه كانبه بسالة الجيش السنوسى وحادث تسليم آلاف الليبيين الذين جندهم الطليان قسرا إلى الجزائر ويقل إبان الزحف الأول ، وقال إن جنود الجيش العربى كانوا آخر من غادر بنغازى ودرنه عندما ارتدت (الجيوش البريطانية) وبرهنوا على أنهم كانوا أدلاء ومغيرين وفدائين ورجال مخبرات ذوى نفع لا يقدر ، إلى أن قال ، وكان الليبيون مرغحين على الخدمة مع الطليان إرغاما ومحارين متطوعين مع البريطانيين بمحض إرادتهم ، بل إن أحد ضباطهم قضى ثلاثة أشهر فى سجن طرابلس قبل أن يستطيع الفرار من السجن وعندئذ تحمل متاعب جسيمة عندما بدأ رحلة طويلة شاقة سيرا على قدميه مئات الأميال عبر صحراء لا ماء فيها حتى يعود إلى قواعد الجيش . فضلا عن ذلك فقد كان بين هؤلاء الجنود البواسل شبان لا يزيد عمرهم على السادسة عشرة وشيوخ مسنون سبق لهم الجهاد ضد العدو سنوات طويلة . وفى ٢ أكتوبر ١٩٤٣ نشر المستر ه . م . فوت Foot فى (مجلة المنتدى الفلسطينية) مقالا بعنوان صفحة جديدة فى تاريخ ليبيا جاء فيه ، إن تلك الشجاعة التى اشتهر بها السنوسيون عن جدارة واستحقاق قد تبنت مرة أخرى فى الحملات الأخيرة . فنحن لا نزال نجمل قسطاً كبيراً من المساعدة التى قدموها لنا خلف خطوط

الاعداء . كما أن مساعداتهم الفردية لكثير من الضباط البريطانيين شواهد ناطقة على الكرم العربي وحب العرب للجازفة . يقول هؤلاء الضباط أن كل خيمة عربية كانت بمثابة ملجأ وأن كل عربي كان بمثابة دليل ؛ ومن طريف ما يروى أن أحد المدفوعين البريطانيين أصيب بجرح فأواه عربي إلى أحد الكهوف وسهر على راحته ستة أشهر . فلما تماثل للشفاء حمله فوق جملة مسافة . . . ميل وأوصله إلى العلين . قام العربي بكل ذلك وسلم الجندي الجريح إلى إحدى الوحدات دون أن يعلن عن اسمه أو يطالب بمكافأة . وليس هذا الحادث الوحيد من نوعه فإنه ما كان ليتسنى لثلاث من جنودنا أن يعودوا إلى وحداتهم دون مساعدة العرب ، تلك المساعدة التي كانوا يقومون بها عن طيب خاطر والتي كانت تعرض حياتهم لخطر الموت . ولم يتطرق الوهن إلى قلوب العرب حين كنا تراجع تراجعاً كلياً وحين ظن الناس أن الدائرة قد دارت علينا بل كانوا أبداً على استعداد لتقديم المساعدة . وقد جرى أثناء إحتفال عظيم في درنة أقامه الطليان على أثر استيلاء المحور على طبروق أن كان بين النظارة ضابط بريطاني متخف فلم يفكر واحد من الأهلين أن يكشف أمره ويفضحه ، . وقد ذكر اللييون أنفسهم شيئاً من الخدمات التي أدوها لجيوش ويقل وأوكنكك ومونتجومري في أثناء الحملة الليبية ، فقالت (مجلة عمر المختار) الصادرة في بنغازي في عدد ذي القعدة ١٣٦٢ (نوفمبر ١٩٤٣) عن ذكر الحرب وحوادثها ، قابلتها الأمة عن طيب خاطر وضحت بأبنائها ومالها في سبيل الوصول إلى الغاية التي قامت تدافع عنها منذ ١٩١١ وسرعان ما وصل الخبر إلى من هم تحت سمع الايطاليين وبصرهم فجمعوا أمرهم وتعاهدوا على أن يقدموا كل مساعدة لحليفهم ولو كان في ذلك خراب يوتهم لأنهم يطلبون حقاً طبعياً أنكر عليهم فصمموا على أن ينالوه مهما يكلفهم من خسارة ، فالحرية تنهب ولا توهب ، أفسدوا على الايطاليين خططهم بإفشائها لحلفائهم وتحملوا في ذلك كل مشقة وأصبح كل ليبي وكل ليبية خطراً على الايطاليين . آووا في مساكنهم الضباط البريطانيين وساعدوهم على الحصول على ما يبتغونه من أسرار الايطاليين وأعمالهم وأنقذوا من تخلف منهم عن اللحاق بفرقتهم وحافظوا عليه حتى بلغ مأمنه . ولم يكن الدافع إلى ذلك مالا يطلبونه (بل قدم) اللييون خدماتهم عن طيب خاطر إجابة لنداء الواجب ولطلب أميرهم لا غير ، . فالبيوت تهدم والأعمال تعطل ومع ذلك فقد كان سرور اللييين عظيماً لأن في ذلك إذلال للطلين ، وكل ذلك لم يخف على الايطاليين بل سجلوه في مذكراتهم الخاصة والعامة وتوعدوا بالعقاب متى حانت الفرصة ، فقد أصبح عندهم عقيدة أن فشلهم في برقة يتحمل أهل برقة الشيء الكثير عنه وهذا حق ولكنهم ما دروا أن ذهاب بنغازي من أيديهم كان تذكيراً بزوال امبراطوريتهم من أول اختلال لها . وعلى كل فقد رجعوا إليها وخرجوا منها ورجعوا ثانية وخرجوا منها ولكن إلى غير رجعة ا ،

وما أن خرج الطليان وإحلافهم حتى شرع سمو الأمير السيد إدريس يتخذ العدة لتوجيه شعبه الوجهات النافعة لاستئناف الحياة الجديدة ؛ وشعر الليبيون من جانبهم بأن حياة جديدة قد بدأت حقا فأخذوا هم أيضا ينفذون عن أنفسهم غبار العهد الإبطالي البائد ويتسمون قسامات الحرية ويعيشون عيش الأحرار الطليقيين الذين اعتزوا بوطنيتهم وقوميتهم طوال السنوات المفجعة الماضية ، وأرادوا الآن أن يعززوا هذا الشعور السامي . وقد عاد إلى الوطن كثيرون من الليبيين الذين أرغمهم قسوة الطليان وحكومتهم الغاشمة على الهجرة من البلاد ؛ وقام (المكتب) الذي أسسه الأمير عند بدء الحرب بخدمات جليلة لكل أولئك الذين رغبوا في العودة السريعة ؛ وأمر سموه بعد استياب الأحوال في برقة والكفرة وطرابلس وفزان بنقل جميع معسكرات التدريب السنوسية في القطر المصري إلى ليبيا على أن تصبح القوات السنوسية نواة لجيش وطني نظامي جديد . وكان أول احتفال أقامه الليبيون بعد تحرير بلادهم أنهم بادروا بالاحتفاء بذكرى وفاة مؤسس السنوسية العظيم الإمام السيد محمد ابن علي السنوسي الكبير ، فأقيم الاحتفال هذه الذكرى في مدينة بنغازي بجامعة الكبير في يوم الأحد ٩ صفر ١٢٦٣ (١٤ فبراير ١٩٤٣) ، وألقى الأستاذ محمد محمد عامر خطبة ضافية تناول فيها تاريخ السيد الإمام ونهضته الدينية والعلمية العظيمة ، ثم اختتم هذه الخطبة بقوله اللهم يا علام الغيوب نسألك كما كشفت عن هذه البلاد ما قاسته ثلاثين عاما من أنواع الكروب أن توفق أميرها وميدها وقائدها سيدنا السيد محمد إدريس المهدي السنوسي المحبوب لما فيه خيرنا وخير المسلمين والإسلام وتؤيده بروح منك ويحقق على يده إعلاء منار الحق والدين حتى تصبح بلادنا بمساعده المشكورة سعيدة مطمئنة . وفضلا عن ذلك فقد أنشأ الليبيون في بنغازي جمعية وطنية ثقافية أسموها (جمعية عمر المختار) وأصدرت الجمعية مجلة ثقافية أسمتها مجلة عمر المختار ، تخليدا لذكرى الزعيم والشهيد الراحل ؛ وقد أفصحت هذه المجلة عن الغرض من إنشاء جمعية عمر المختار فقالت في عددها الأول «وهذه جمعية عمر المختار قد قامت لتؤدي الواجب عليها نحو وطنها وأميرها (سمو السيد إدريس) كما أداه عمر المختار على الوجه الأكمل ؛ وهي جادة في الوصول إلى ذلك لا يعيقها عائق ويسرها أن تعلن أن الدلائل تدل على أنها في طريق النجاح إلى تحقيق الأمنية العظمى لها وهي توحيد الصفوف بين الأفراد لافرق بين جماعة وأخرى والسعي لنشر الثقافة بين المواطنين وتنمية الروح الرياضية بين الجماعة لا تقصير ولا تواني حتى تحقق الغاية العظمى : شعب متحد وأمير واحد .»

أما سمو الأمير السيد إدريس فقد أيد تأسيس جمعية (أو نادي) عمر المختار لما بدا لسموه عن أن غاية الجمعية الجديدة العمل على جمع كلبة الأمة ونبد الخلافات ظهريا والانكباب على

تثقيف العقول وتقوية أجسام الناشئة الجديدة على خير قواعد الصحة وأساليبها الحديثة . وفي ١٦ مايو ١٩٤٣ نشرت (جريدة بنغازي) رسالة بعث بها الأمير إلى (حضرات القائمين بإدارة نادي عمر المختار) قال فيها سموه وتلوت بكل سرور واعتباط ماورد من النشاط الذي أبداه الشباب الليبي بأن أسس نادي عمر المختار لاجتماع الكهول والشبان فيه ليثقفوا عقولهم ويقووا أجسامهم ويتعارف بعضهم إلى بعض في غير سياسة ولا حزبية ولا عصبية ولقد سرتني بطريقة خاصة ذلك التأكيد القوي والعزم الصلب اللذان لاحتكما من بين خلال الأسطر في أن الشباب قد عقد الحنصرووطد العزيمة على ألا ينظر إلا إلى شيء واحد هو الوطن ولا يسعى إلا إلى هدف واحد هو الأمة ومصصلحة الأمة لا فرق بين إبادتها وحاضرها ومسلميها وإسرائيلها وحاسيها وبرعصيها إلى آخره . وبمقدار ما يسرتني هذا قد يفضيني أن أسمع خلاف هذا الاتجاه . ومن سلك ما يخالفه فقد أراد للبلاد الفساد وفتح باب الفتنة وعاق التقدم المنشود وسار بالبلاد القهقري من حيث تريد لنفسها السير إلى الأمام .

و رغبتي أن توسس في كافة أنحاء البلاد فروع لهذا النادي على أن لا يعدو نشاطها الغايات التي ذكرت وهي : الثقافة والرياضة والتعارف والاقتصاد ونشر العلم والأخلاق القويمة وتهذيب العامة وإلقاء المحاضرات مع الابتعاد عن ميادين السياسة ؛ وأحب أن تصلني تقارير فيما قد تم في هذا الشأن بما تقدم . هذا وإني أمضى تعيين مجلس الإدارة وأضع ثقتي في حضرات أعضائه وأؤكد لهم أني أرقب عن كسب الخطوات التي يخطوها شعبي الكريم نحو العلا والتقدم خاصة في نقطة التحول هذه من تاريخنا . وحقق الشعب الليبي رغبات أميره ؛ وبدأت بالبلاد نهضة يظهر من بوادرها أنها سوف تكون عظيمة ؛ والنف الشعب الليبي حول أميره ؛ وفي أول أغسطس ١٩٤٣ صدر العدد الأول من مجلة عمر المختار بحوى مقالا كبيرا بعنوان (الوطن والأمير) مداره ضرورة الأخذ بتصائح الأمير والعمل بتوجيهات سموه وإرشاداته لإدخال الإصلاحات النافعة في شتى نواحي الحياة الاجتماعية والصحية والاقتصادية في البلاد وتقديم مصلحة الوطن فوق كل مصلحة ونبتد الخلافات وتوحيد الصفوف حتى تسير ليبيا العزيزة بخطى ثابتة في طريق الرفعة والرقى ، يلتف أبنائها البررة حول أميرهم البار ، لأن الأمير - على حد ما جاء في هذا المقال - هو الشخصية العالية التي تمثل فيها حياة الأمة كلها وإجماع آرائها واتفاق أغراضها وانضواؤها تحت علم واحد وزعامة واحدة حكيمة ورشيدة كفيلة بأن تسير بالأمة في طريق العظمة والمجد وتسجل اسمها في سجل الأمم العظيمة الخالدة ، ؛ وقد أهاب صاحب المقال بأبناء الوطن الليبي ، في هذه الفترة التكوينية ، التي يجتازونها أن يكونوا متمسكين بمبادئ

الوطنية الصحيحة ، وفتوى جميع الواجبات التي يحتمها علينا ووطننا العزيز : نعمل على تقوية كيانه ونثبته أركانه وننشر العلم والصناعة والأدب ومكارم الأخلاق بين أفراد أمتنا ونبذل قصارى جهدنا في كل ما يساعد على الإصلاح ويعاون على تحقيق هذه النهضة القومية التي نحن ساعون في سبيلها . وكذلك يجب أن يكون مقربنا ومحبتنا وطاعتنا لأميرنا المحبوب سمو الأمير مولانا محمد إدريس السنوسي حفظه الله وأيده ، فنعمل كل ما يرضيه ويرى فيه مصلحة لوطنه وتنفيذ أوامره بكل طاعة وإخلاص ونسير إلى الأمام في طريق الحضارة والمدنية والمجد على ضوء إرشاداته الحكيمة وأرائه الصائبة حتى نصل بحول الله وقوته إلى ما نصبوا إليه وتمناه لوطننا العزيز من رفعة ومقام عظيم .

وكانت توجهات السيد الأمير كثيرة وإرشادات سموه صائبة وحكيمة وندائاته عديدة نذكر على سبيل المثال ذلك النداء الذي وجهه سموه من القاهرة في ٢٦ صفر ١٣٦٢ (٣ مارس ١٩٤٣) إلى (بنى وطنه الأعزاء) يدعوهم فيه إلى تأسيس شركة مساهمة ليلية وتضم صفوف جميع طبقات الشعب في عمل اقتصادي عام شامل يكفل للبلاد نهضتها الاقتصادية في جميع وجوه النشاط التجاري والمالي والصناعي ويضمن للفرد عملا مجديا وعيشا غدا في نطاق مشروع قومي ؛ فالمساهمون لليون والعمال لليون والشركة ليلية وليبيا ولليبيين ، وقد انتدب سموه الدكتور على نور الدين العيزي وذلك حتى يفصل لأبناء الوطن ما أجمل ، سموه في هذا النداء وفضلا عن ذلك فقد أمر سموه بأن تجعل البلاد من يوم ٩ أغسطس من كل عام عيدا قوميا تحتفل به الأمة بأسرها لأنه اليوم الذي تم فيه الاتفاق بزعامة سمو الأمير مع رجال الدولة البريطانية في عام ١٩٤٠ على أسس الجهاد من أجل طرد العدو الغاصب من الأقطار الليبية وتحرير أرض الوطن . وفي يوم ٩ أغسطس ١٩٤٣ احتفلت الأمة الليبية بهذا العيد القومي لأول مرة بعد اندحار الطليان وأحلافهم الألمان وتخليص البلاد من شرورهم نهائيا .

وكان احتفالا رائعا ، فزار المحتفلون ضريح السيد عمر المختار وترحموا على البطل الشهيد وقرأوا فاتحة الكتاب ، وألقى الشيخ عبد الحميد الديباني قاضي القضاة خطبة نفيسة ، واشتركت في هذا الاحتفال الطائفة الاسرائيلية واشتركت كذلك السلطات الانجليزية في الإدارة ، فخطب كثيرون من بينهم الشيخ خليل الكوافي رئيس جمعية عمر المختار ، ثم أرسل المجلس البلدي في بنى غازي بهذه المناسبة برقتين إحداهما إلى الأمير والأخرى إلى البريجادير كن والى برقة . وفي ١٦ سبتمبر ١٩٤٣ قامت المظاهرات في كل مكان وأقيمت الاحتفالات تخليدا لذكرى الشهيد السيد عمر المختار ، وكان الاحتفال في بنغازي احتفالا كبيرا ، فتوجه القوم

في صبيحة الخميس ١٦ رمضان ١٣٦٢ (١٦ سبتمبر ١٩٤٣) إلى مقبرة سيدى محمد عبيد للترحم على الفقيد ، وفي عصر اليوم نفسه ألقى الأستاذ مصطفى بن عامر محاضرة في الجامع الكبير ، ذكر فيها جهاد المختار ضد العدو الغاشم وقارن بين برقة وبين الأمم الغابرة ، وفي مساء ذلك اليوم أقيمت حفلة تأبين في جمعية عمر المختار فاعتلى منصة الخطابة الأستاذ محمود مخلوف والسيد عبد السلام بيسكري والسيد الحاج سليمان الصلابي والأستاذ الشريف بومدين والشيخ صالح أبو بصير وغيرهم . وعلى هذا النحو إذن استطاع الليبيون في هذين الاحتفالين (في يولي ٩ أغسطس و ١٦ سبتمبر) أن يفصحوا عما كان يحبس في صدورهم من معاني العزة القومية وعما كانت تمتلئ به نفوسهم من رغبة صادقة في تحقيق آمانيهم الوطنية . ثم اتبحت الفرصة للليبيين حتى يعبروا عن كل هذه المشاعر العظيمة عندما احتفلت الهيئات بذكرى مرور عام على طرد العدو من بلاد برقة ودخول الجيوش البريطانية والسنوسية بنغازي (في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢) ، فرفعت هيئة المجلس البلدى ببني غازي هذه المناسبة إلى السلطات الادارية (المؤقتة) تقريرا ضافيا عرضت فيه حوادث الماضي وما تحمته البلاد من ويلات الحرب ، وطالبت بتحقيق آمال الأمة القومية والوطنية واجابتها الى مطالبها وحقوقها الطبيعية في حاضرها ومستقبلها . وحدث عندئذ أن أعلن متصرف بنغازي تبا ووصول السادة رسل (الأمير السيد ادريس) وآل البيت السنوسى المجيد لزيارة بنغازي قريبا ، فاستبشرت الأمة بهذه الزيارة واعتبرتها فاتحة عهد جديد كله عمل للحياة ومن أجل الحياة الحرة وأخذت تتبها لإستقبالهم وتعد العدة لذلك .

وكان وفد الأمير يتألف من السيد صفي الدين رئيسا والسيد محي الدين الشريف والسيد محمد الصديق رضا والسيد شمس الدين الخطابي والسيد أحمد بن ادريس والسيد عز الدين هلال يصحبهم كل من السيد ابى القاسم الشريف والسيد الصديق عابد . ووصل هذا الوفد الى بنغازي حوالى ظهر يوم الاثنين أول ذى الحجة ١٣٦٢ (٢٩ نوفمبر ١٩٤٣) . وكانت بنغازي قد أخذت أهبتها لهذه الزيارة فأقيمت الزينات واصطف الأهلون على طول الطريق الساحلية الى مسافة ثلاثين كيلومترا في شرق المدينة لإستقبال الوفد واحتشدت الجماهير في (ميدان ٩ أغسطس) أمام السراى المعدة لنزول الوفد بهذا الميدان وخرج المستقبليون في سيارات عدة من الصباح الباكر لإستقبال «الوفد الأميرى» - وفد سمو الأمير السيد محمد ادريس . وخرج مع المستقبلين متصرف منطقة بنغازي الانجليزى وهيئة المجلس البلدى وشباب جمعية عمر المختار ؛ ثم انتظر المستقبلون هذا الوفد في مكان يبعد مسافة أربعة كيلومترات شرقى سيدى خليفة ؛ وما ان وصل الوفد حتى نزل السادة من السيارات ونزل معهم « كمن » ، والى برقة ، فأشد شباب عمر المختار نشيد العلم

تحية لهم وألقى قاضي القضاة خطاب ترحيب قيم ، ثم استأنف الراكب سيره حتى دخل مدينة بنغازي وسط مظاهر الفرح العظيم . وكانت مظاهرة كبيرة عند وصول أعضاء الوفد الى السراي المعدة لنزولهم وحضرت الهيئات المختلفة لتهنئتهم بسلامة الوصول وازدحم الميدان بالجمهير ، وحياء أعضاء الوفد هذه الجماهير ، فكان مما قالوه « إن أفراد الأسرة السنوسية لم يألوا — ولن يألوا — جهدا في خدمة الوطن العزيز وتأييد قضيته بالنفس والنفيس . إن جهاد الأمة في سبيل حريتها طوال ثلاثين سنة لن يذهب سدى » . وأقام المتصرف « الكولونيل بيلي » ، مأدبة ترحمة احتفاء بالوفد . وفي اليوم التالي « ٢ ذى الحجة ١٣٦٢ ، ٢٠ نوفمبر ١٩٤٣ » احتفلت جمعية عمر المختار بالوفد الاميري ؛ وفي يوم أول ديسمبر ظهرت « مجلة عمر المختار » . تحوى أبناء هذه الزيارة ووصف الاحتفالات التي أقيمت تكريما لأعضاء وفد الأمير ، فقالت « لقد انقضى يوم وصولهم واليومين التاليين والبلاد من أقصاها إلى أقصاها في مهرجان واحد يتنقل من جهة إلى أخرى والهناف يتصاعد من الحناجر بحياة الوطن والأمير » .

على أن هذه الاحتفالات على روعتها ، وهي احتفالات أتاحت الفرصة للشعب الليبي وللقاويين خصوصا حتى يظهروا شدة تمسكهم بإمارة السيد محمد إدريس المهدي السنوسي عليهم وتعلقهم بالبيت السنوسي المجيد لم تلبث أن بذتها وفاقت عليها احتفالات أخرى كانت أعظم روعة وأبلغ أثرا عندما قرر سمو السيد إدريس زيارة الوطن في شهر يولية من العام التالي (١٩٤٤) . وكانت زيارة الأمير ولاشك زيارة تاريخية لأسباب عدة منها أن سموه جاء بزور الوطن للمرة الأولى بعد أن تحررت من نير ذلك العدو الذي ظل ثلاثين عاما ونيف يحتمل ربوعه ، وبعد أن اضطر الأمير بسبب نقض الطليان لعهودهم ومواثيقهم إلى العيش بعيدا عن بلاده حوالي أكثر من عشرين عاما . وفضلا عن ذلك فقد تحدث سمو الأمير في أثناء هذه الزيارة إلى كبار المواطنين ورجال الأمة وخطب في جموع الأهلين الذين احتشدوا في كل مكان قصد إليه الأمير لسماع نصائحه وإرشاداته ، فأوضح سموه في هذه الأحاديث والخطب الجامعة أهداف البلاد بعد تحررها وخلصها ورسم خطوط السياسة القومية التي يجب أن تسترشد بها الأمة في حاضرها ومستقبلها ، فكانت أحاديث سموه وخطبه بمثابة دستور يعين بعالم الطريق لرعاياه حتى يسلكوه هؤلا . آمنين مطمئنين في حياتهم المستقبلية عاقدين العزم على بلوغ غايتهم في ظل الإمارة العتيدة .

وتبدأ هذه الزيارة السعيدة من وقت وصول الأمير إلى طبرق في يوم الاثنين ٢٦ رجب ١٣٦٢ (١٧ يولية ١٩٤٤) إلى وقت انتهاء الزيارة رسميا في يوم ٦ أغسطس ١٩٤٤ . نالت مجلة عمر المختار بمناسبة عودة الأمير لبلاده « في كل بلد وفي كل مركز وفي كل ناحية

من طريق شرقا إلى إجداية غربا ومن بنغازى إلى سلوق جنوبا ومن شروق شمس يوم ١٧ يوليه إلى غروب يوم ٦ أغسطس ١٩٤٤ والبلاد من أقصاها إلى أقصاها في مهرجان واحد واحتفال متصل ، فلا ترى إلا مظاهرات رائعة منقطعة النظير ومهرجانات شائقة ، كلها شاهد الإنسان جهة أخذت بمجامع قلبه وتطلع أن لا يكون أحسن وأجمل منها ، فعلق بذهنه منها ما علق ، فبرى في اليوم الثانى غيرها فتحول الصورة المستحسنة في ذهنه إلى أحسن وأجمل . وهكذا دواليك فلا ترى إلا جموعا تندفق في الطرقات من ميدان إلى آخر بالآلاف وبضع الآلاف وعشراتهما هاشين باشين شيوخا وكولا شبانا وأطفالا رجالا ونساء والجميع وقد اعتلى وجوههم البشر معبرة عما امتلئت به قلوبهم من السرور والفرح مبتهجين مغتبطين . وكل فرد أخذ بنصيبه مشاركا الأمة في ابتهاجها باستقبال أميرها المحبوب وقائدها العزيز منقذها من هاوية الهلاك إلى ساحل السلامة والنجاة ليُشاهد طلعتة ويخطى برويته ، :

غادر سموه القاهرة في قطار خاص إلى طريق في يوم ١٦ يوليه وكان يصحبه عمر فائق شنيب بك سكرتير سموه الخاص وإبراهيم بك الشلحي ناظر خاصته وصالح باشا الأطيوش والمرحوم الشيخ عبد الحميد العبار والشيخ ناصر الكزه والشيخ حسين عبد الملك والشيخ قدور بو بريدان ، وكل أولئك من قادة الحركة الوطنية وزعماء الجهاد ضد الظلم من قديم وهم كذلك من أعضاء الجمعية الوطنية العمومية التي أخذت على عاتقها مسؤولية الاشتراك مع بريطانيا في الحرب وفق قرار ٩ أغسطس ١٩٤٠ ؛ فبلغ سموه طريق في ضحى الاثنين ١٧ يوليه ١٩٤٤ (٢٦ رجب ١٣٦٣) ؛ وكان في استقبال سموه والى برقة البريجادير كمن وكبار رجال الإدارة العسكرية المؤقتة من الإنجليز ، واستعرض سموه حرس الشرف الذى أدى له التحية العسكرية ، ثم اعتلى سيارة أعدت خصيصا للأمير وجلس إلى جانبه والى برقة واعتلى الآخرون السيارات ، وسار الركب في الطريق المعتد من طريق إلى إجداية مركز الإمارة السنوسية القديم قبل ذلك بحوالى عشرين عاما تقريبا . فاخترق ركب الأمير المدن والقرى على طول هذه الطريق من طريق إلى المرصص إلى أم الرزم ثم درنة والقبة والبيضاء (سبى رافع) وشحات والغريب والمرج وجرى العبيد وبنغازى . وكان المجلس البلدى في إجداية قد أعد قبل ذلك برنامجا لاستقبال الأمير والحفاوة به منذ ١٣ يوليه . وبما يجدر ذكره أن السيد يوسف لنتى بك من سراة البرقاويين ومن كبار رجالاتهم القدامى المجاهدين ، وأظهر أعضاء المجلس البلدى العاملين كان قد قام بأعباء رئاسة لجنة الاستقبال فكان يوسف بك في طليعة شعب الأمير ذلك الشعب البار الذى أراد الانصاح عما تكنه ضمائره من أصدق آيات الولات والمحبة لأمير البلاد وسيدها ، فوافقت لجنة الاستقبال على

طلب يوسف لتقى بك أن ينحرف يوسف بك الذبايح احتفاءً بقدوم الأمير وأن يقيم مأدبة باسم مدينة بنغازي لسمو الأمير علي نفقته الخاصة في داره ، وأن يساهم بنصيب وافر من نفقات الاحتفالات الأخرى . وكان من برنامج لجنة الاستقبال توزيع مقادير كبيرة من المؤن على فقراء المدينة وإعداد سيف من صنع مدينة بنغازي يهدى إلى سمو الأمير نقش على عقده بيتان من نظم الأستاذ محمد بن عامر .

ادريس ان السيف قد أردى به الشعب عداك
فاحرص عليه فإنه (عهد) بأنهموا فداك

و متبعض هذا السيف من الذهب الخالص جعل له زائدة تغطي فوهة الغلاف من الذهب أيضا زاد في جمالها حجرة حمراء . نقش على هذه الزائدة (بنغازي ٨ شعبان ١٣٦٣) ؛ ثم إن الغلاف له قبضتان من الفضة ويثبتها قبضة من الجلد الأسود نقش عليها اسم بنغازي في الوسط وهلالان وتجمتان رمز العلم القومي وذلك يخيظ الحرير الفضي . وفي هذا الغلاف حلقتان من الفضة وله حمال من الشريط الفضي والملف الأحمر وضع له صندوق من خشب اللوز الهندي مفرش بالقطيفة الزرقاء ، وكذلك كان من ضمن برنامج الاحتفال ، أن يهيا رسم زيتي كبير لسمو الأمير الجليل بريشة الرسام الفني عوض افندي عبيده يعرض على الشعب في ميدان البلدية مدة إقامته ثم يهدى لسموه .

وفي يوم الجمعة ٢٨ يولييه ١٩٤٤ ذهب أعضاء المجلس البلدي وأعضاء لجنة الاستقبال وشباب جمعية عمر المختار وأعضائها إلى مركز الكريفية حيث أقامت اللجنة قوس نصر استعدادا لاستقبال الأمير وتدفقت الجماهير ، فماتت الطرق والميادين . فما أن بدت طلائع الموكب الأميري حتى تعالت الأصوات (الله أكبر ، الله أكبر) ودخل الأمير مدينة بنغازي تحف به كوكبة من الفرسان العرب ، وأدى سموه فريضة صلاة الجمعة في الجامع العتيق وقضى بقية اليوم يشرف بحضوره الاحتفالات التي أقيمت لاستقباله وأهدى إلى سموه السيف . وفي اليوم التالي (٢٨ يولييه) حضر سموه احتفال المحكمة الشرعية ثم تحرك ركابه السامي قاصدا منزل يوسف بك لتقى في حديقة خارج المدينة ، وشرف سموه مأدبة الخداء الفاخرة التي أقامها يوسف لتقى لسموه باسم مدينة بنغازي ، على نفقته الخاصة ، فكانت من أجمل وأنقر المآدب حضرها دولة الوالي وسعادة قائد الجيش وكيار الضباط وأعضاء المجلس البلدي والوجهاء والأعيان الذين يتجاوزون مائة مدعوا . وقد توالت المآدب والاحتفالات في اليوم التالي (الأحد ٣٠ يولييه) وحضر سموه احتفال جمعية عمر المختار وفي مساء اليوم نفسه ألقى سموه خطابه التاريخي الجامع من شرقه السراي المعدة لإقامة

سموه ونقلت هذا الخطاب مكبرات الصوت إلى آلاف المستمعين الذين غص بهم الميدان حتى ضاق على رحابته . وفي هذا الخطاب التاريخي سجل سموه المبادئ التي نادى بها دائما والتي أضحت دستورا تمسك به البلاد وتسترشده في تحقيق غاياتها الوطنية . قال سموه بعد أن حمد الله و الرحيم القادر العظيم جامع الشتات ميد الطغاة ، . . .

و أما بعد فإني أقف اليوم في وسط عاصمة البلاد وكل شوق وغبطة وتقدير لهذه الأمة النبيلة التي حبتني بكرمها وإخلاصها ، فهنيئا لها بخلاصها وتحريرها من نير الظلمة الذين لم يرقبوا فيها إلا ولا ذمه . آسفا أشد الأسف على ما أصاب هذه الحاضرة الجميلة من أضرار الحرب متمنيا لها عودة العمران ولأنه لها حظا سعيدا مدى الأزمان ...

و إخواني : ليس لي مأرب ولا غاية في هذه الحياة الفانية إلا أن أرى أهل وطني أعزاء متمتعين بحريتهم ضمن حلف دفاعي وتعاون مع بريطانيا العظمى مثل باقي الأمم العربية . هذه هي غايي وهذا ما سعيت إليه . وهو الحق الطبيعي للشعب على ما أرى فقد ضحى من أجله بما يقارب من نصف عذده من خيرة أبنائه البررة فيما يقارب ثلث قرن ؛ وهذا ما حدا بي للتعاون مع دولة بريطانيا العظمى في صيف ١٩٤٠ - الوقت الذي قل فيه الأصدقاء الأوفياء فاخترت لشعبى أن يكون أول صديق وفي في ساعة الشدة لبريطانيا العظمى صديقة العرب الشغوفة بالحرية لنفسها ولغيرها ذات المبادئ الشريفة في تحرير الأمم الضعيفة .

و إخواني - لم أتقدم لدولة بريطانيا وقتذبسوى ما قدمته لجنة التعاون الوطنية المتكونة من زعماء البلاد نيابة عن جميع سكان بلادهم في ٩ أغسطس ١٩٤٠ من الأمان القومية والآمال الوطنية في تحرير البلاد واستقلالها فأيدتها كل التأييد .

و إخواني - لقد ضربنا رقما قياسيا في التضحية والجهاد . فلو قيس ما ضحيت به أمتنا بالنسبة إلى عددها وعدتها وقورون بما فعلته الأمم الأخرى التي نالت حقوقها واستقلالها لوجدنا لبلادنا المقام الأول . إذن لقد حق لهذا الشعب أن يتبوأ مقامه بين الأمم كسائر الشعوب العربية في جميع اعتباراتها وكيانها السياسي ، وذلك بمساعدة دولة بريطانيا العظمى وحلفائها الكرام . لهذه الغاية السامية عملنا وعلى هذه الأهداف الشريفة اشتركنا وإلى هذا الغرض المقدس نسعى .

و إخواني - إن ماضيكم ساطع لامع ، فلا يتطرق إلى قلوبكم اليأس والوهن وإن الحلفاء أوفياء وإن الميثاق الاطلنطيق والنبل الانجليزي هما أكبر عون لنا بعد الله على تأمين حقوقكم المشروعة بعد الحرب ، فلنرقب ذلك اليوم بكل حكمة وسكينة وثقة بأنفسنا . إن

الدولة البريطانية مقدرة لمساعداتكم وتضحياتكم معها في هدد الحرب . غير أن ظروفها الدولية وحالة الحرب التي لا تزال قائمة تحول دون إبداء رأيها في مصيركم الآن رغم إلحاحي ونصحي بسرعة إعلان رغبتها . لهذا تروني أنظر إلى المستقبل بعين الأمل . وأما ماتروته مخالفا لتقاليدكم أو مضرا باقتصادياتكم من نقص في التجارة والزراعة والصناعة والمواصلات فهو ناشئ عن حالة الحرب القاسية . وآمل أنه سيزول تدريجيا كما آمل أن يزول كل ما يشتكي معه .

• إخواني — إن الجمعية العمومية الوطنية التي أخذت على عاتقها مسئولية الاشتراك مع الدولة البريطانية في ٩ أغسطس ١٩٤٠ والتي نابت عن الأمة نظراً للبوانع التي كانت تحول دون الاجتماع بجميع زعمائها قد أدت واجبها الوطني نحو الوطن وأهله بكل إخلاص وأمانة، أما وقد فتحت البلاد وتم الاتصال فما على زعماء الشعب إلا أن يتحدوا ويعملوا بذا واحدة لإتمام ما بدأت هذه الجمعية من خير لصالح الأمة ليقوم كل فرد بواجبه نحو وطنه . وأما ما أوصى به فهو الاتحاد ونبذ الشقاق وتقديم المصلحة العامة ونكران الذات في سبيل صالح الوطن وأن لا يتجاوز أحد اختصاصه إلى اختصاص الآخر . فليعمل كل شخص في دائرة اختصاصه بكل أمانة واستقامة ، فإذا سلك كل فرد منا هذا المسلك فقد أدى لوطنه وأمه خدمة قيمة . وإياكم والغرور والتحاسد والتباغض والتسرع في الأمور فإن في ذلك مجلبة للأضرار وضياع للصالح العامة .

• إخواني — إن العلم هو النبراس الذي تستضيء به الأمم فابشوا أبناءكم إلى المعاهد والمدارس .

• إخواني — إن الاعتماد على النفس هو خير وسيلة للتقدم في مضمار هذه الحياة التي أصبحت فيها الساعة بمثابة شهر والشهر بمثابة دهر فليكنم بالجد والاجتهاد في العمل والصبر على المكاره والتأخي والاخلاص لا فرق عندي في توجيه خطابي هذا بين النحل والديانات والمعتقدات إذ كلكم أبناء وطن واحد يظلمكم علمكم الوطني وإن للوطن عليكم حقا أن تكونوا أبناء البررة .

• إخواني — لا أرغب وجود جمعيات متعددة ولا أحزاب مهما كانت الغاية صالحة فإن الأمة عائلة واحدة وجمعية واحدة . وما جمعية عمر المختار أو بالأصح (نادي عمر المختار) إلا رمز لتأخي ومعهد للرياضة والثقافة والأعمال الخيرية . ونأمل أن يكون هذا النادي نواة صالحة لهضة الشباب رجال الغد . فعلى سواعدهم وحسن ثقافتهم ينهض الوطن . وإن عبيد أمتنا وثقة ثروتنا لا يمتثلان تعدد الجمعيات . أما ضرر كثرة الأحزاب فقد أصبح

أمرأ حتى في الأمم التي سبقتنا بمراحل شاسعة في المدنية والحضارة . كما أوصي الشباب بأن ينسوا تقاليدهم العائلية القديمة بل يحافظوا عليها وأن يحترموا شيوخهم وذوي الرأي فيهم على الشيوخ أن يعطفوا على الشباب ويحسنوا إرشادهم . فقد جاء في الحديث الشريف « من يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا فليس منا » . وإن الحكيم العربي يقول .
ولاخير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرها
ولاخير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدرها
« عليكم بحكمة الشيوخ وقوة الشباب ، فلاغنى لإحداهما عن الأخرى . وإنی أنصح لقائمين بإدارة نوادي عمر المختار بتوحيد شؤونها وربط فروعها برئاسة واحدة مع مراعاة لاقتصاد وتفسيق شؤونها بحالة تلامم الغاية المطلوبة منها . »

وبعد أن تحدث سموه في بعض الشؤون الاقتصادية من حيث التموين وغيره مما كانت تهتم به البلاد وقتذاك وامتدح الجهود التي كان يبذلها والى برقة في سبيل إنعاش الحياة الاقتصادية على الرغم من ظروف الحرب القائمة في ذلك الحين ، اختتم الأمير خطابه التاريخي الجامع بقوله « وإن أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقني فيما أتقدم به كأهلي . وأن يعينني على خدمتكم وخدمة الوطن العزيز في تحقيق أمانيه التي يصبو إليها في الحال والاستقبال إنه على كل ما يشاء قدير . »

وزار الأمير مراكز القطر البرقاروي الأخرى ومدائنه ، فعادر بنغازي إلى سلوق (٣١ يوايه) فبلغها عند الظهر وفي مساء اليوم نفسه ألقى خطابا كبيرا في عشرات الألوف من رجال القبائل والأهالي الذين احتشدوا لاستقبال سموه ، وقدم أهل سلوق ومنطقها هدية تذكارية ثمينة إلى الأمير . وفي أول أغسطس غادر سموه سلوق إلى إجداية فاستقبل سموه بها استقبالا فخما عظيما . قالت مجلة عمر المختار - « بماذا يستطيع الواصف أن يصف منظر احتفال إجداية بمقدم الأمير ؛ إجداية المدينة النائبة الهادئة كيف استعالت إلى حركة متصلة وجموع محتشدة أين ما أجال الإنسان بصره لا يرى إلا الجموع تلو الجموع وكل فرد يسعى ويتقدم لمشاهدة الأمير مغتبطا فرحا مصرغا يحيا الأمير عاش الأمير . ترى بإجداية خلف الجموع كتائب الجمال آلافا مندفة وترى الأبسطة الصغيرة مدلاة عليها بما يزيد في بهجتها وقد ركب على كل جمل واحد أو أثنان بينادقهم فإذا مر بهم الموكب حيوه بألاف الطلقات النارية مجتمعة فيخيل لسامعها كأنها قعقة رعد تسبح بحمد الله تعظيما وإجلالا ثم ترى مئات الفرسان تلوها مئات تتسابق في العدو أمام الموكب ووراءه وعن يمينه وعن شماله وتتصاعد من فوهات البنادق الطلقات النارية بما يأخذ بمجامع القلوب فيذهل الإنسان ويحار

و فن يبحث على رفيقه و صديقه لا يجده حيث حال بينهما تدفق الجماهير ، و إذا نادى عليه بأعلى صوته لا يسمعه و من سمع من يناديه لا يبصره . فن عبارات الفرسان و تحمس الجموع لها إلى جماعة الأناشيد الوطنية إلى جموع الطرق الصوفية بطبولهم و أعلامهم إلى ألعاب الطوائف السودانية إلى دوى الطلقات النازية المتكررة . كل ذلك مزيج صاحب وضوء متواصلة و القوم جميعهم كأن أجسامهم من حديد لا يشعرون بالتعب ولا بحرارة شمس الصحراء المحرقة و قد ترى مئات البيوت - الخيم - منتصبة بجانب بعضها في كل جهة كسرادقات مفروشة بأنواع الأبسطه تعلوها الأعلام الوطنية ليأوى إليها المستقبلون ولكن القوم في شغل شاغل عن المأوى فكانهم لم يشعروا بحاجتهم للراحة فيها قط . و في يوم ٣ أغسطس ألقى سمو الأمير خطبة عظيمة فذكر تلك المبادئ التي تضمنتها خطبته التاريخية السابقة في بنغازي ثم اختتمها أعزه الله بقوله - فكونوا عباد الله إخوانا و على البر أعوانا (ولا تنازعوا ففشلوا و تذهب ربحكم و اصبروا إن الله مع الصابرين) و إنني أوصيكم بتقوى الله العظيم و اتباع سنن نبيه الكريم و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لتنالوا بذلك الفوز الأكبر في الدارين و استغفر الله لي و لكم إنه هو الغفور الرحيم .

و قد عاد سموه من إجداية إلى بنغازي فوصلها في ظهر اليوم نفسه و كان في شرف استقبال سموه عند مركز سواني تيكه يوسف بك لتي (رئيس الاحتفالات) و نخبة من الوجوه و الأعيان و متصرف بنغازي بالنيابة ، و حضر سموه حفلة مباراة لكرة القدم بين المنتخبين البرقاري و اليوقاني ثم حضر الحفلة التي أقامها الاسرائيليون لسموه في مدرسة (التلاموذ) و ألقى رئيس الطائفة و بعض أعيانها خطبا أعربوا فيها عن إخلاص و ولاء الاسرائيلين جميعهم في برقة لسموه و ترحيبهم بالأمير . و في المساء أقيم الحفل الذي اختتمت به حفلات استقبال الأمير و قدمت لسموه في أثنائه الصورة الزيتية التي رسمها الفنان عوض عبيدة فقبلها سموه شاكرًا ثم أهداها لجمعية عمر المختار - كذكرى تاريخية للزيارة الميمونة . و في ضحى اليوم التالي (الجمعة ٤ أغسطس ١٩٤٤) غادر سموه بنغازي ، فر القطار بمركز بنينه و الرجعة قبل وصوله إلى الآبار . حيث استقبل سموه بهذا المكان الأخير أهل الآبار و أعيانها يتقدمهم مدير الآبار السيد علي جعودة و متصرف المرج و بعض الضباط . و في يوم الأحد ٦ أغسطس ألقى سموه خطابا رائعا على جنوده البواسل قوة دفاع برقة - في مركز أبو بريدان ، حيا فيه أبناءه الأعزاء و هنأهم بما قدموه لوطنهم من تضحيات في الذود عن حياضه . و قد توجه سموه بعد ذلك إلى البيضاء (سيدي رافع) فأقام بها حتى نهاية الأسبوع الأول من شهر رمضان ١٣٦٣ (اواخر أغسطس ١٩٤٤) .

وعندئذ توجه لمقابلة سموه في البيضاء السيد يوسف بك لنتقى ، ورجاه باسم الشعب البرقاوى أن يطيل إقامته بين رعاياه المحبين فعاد سموه إلى بنغازى وأعد يوسف بك لنزول سموه دارا كبيرة في الفويحات فظل الأمير في بنغازى حتى يوم ٤ شوال (٢٢ سبتمبر ١٩٤٤) ثم غادر برقة إلى القطر المصرى . وكان على أثر انتهاء الزيارة الرسمية في الشهر السابق أن تقدم يوسف بك لنتقى رئيس لجنة الاستقبال والاحتفالات إلى بحجة عمر المختار يطلب إليها باسم اللجنة إصدار عدد خاص ، لتخليد ذكرى زيارة الأمين ، فصدر عدد خاص يحوى وصفا شاملا للزيارة ويجمع بين دفتيه تلك الخطب التاريخية التي ألقاها سمو الأمير على شعبه في بنغازى واجدايه وأبو بريدان وكذلك في درنة . وكان خطاب سمو الأمير في درنة في يوم ١٩ يوليه أسبق الخطب التي ألقاها سموه . وقد عرض فيها سموه إلى ذكر الحقوق التي تمسكت بها البلاد في كل زمان وجاهدت في سبيل استقلالها جهاد البواسل ، كما أوضح سموه غدر البليان ونقضهم لمواثيقهم ، ثم أكد سموه تلك الغاية العليا التي يعمل لتحقيقها وهي الاستقلال . قال سموه : إن في الماضى لعبرة والأمم الحية تستخلص من ماضيها آيات بينات لتكيف بها حاضرها ومستقبلها . فاضيقكم كان ساطعا لامعا مجاهدكم وإخلاصكم لقضية بلادكم وتضامنكم في الدفاع عنها وتمسككم بحقوقكم الطبيعية التي سفكتم من أجلها دما نكم وأفنيتم فيها أموالكم . تلك الحقوق التي كانت لكم قبل الأتراك وفي زمنهم . وقد صرحت بها تركيا في معاهدة أورشى وقد وافقت عليها إيطاليا ثم نقضت عهدتها وأخيرا تعاهدت معنا على شيء منها ثم غدرت ثانية شأنها في نقض العهود حتى مع من هم أشد منا قوة وبأسا - الأمر الذى حدا بنا إلى امتشاق الحسام مرة أخرى ضدها . كذلك بما يكسبنا هذا الحق الطبيعى تعاوننا وتضحية شعبنا داخلا وخارجا وتعاون جيشنا مع جيش بريطانيا العظمى ، وتلوه غايات الحلفاء السامية كيثاق الأطلنطيقى لإنالة الشعوب الضعيفة حقوقها وإعادة الحرية والسلام لها بعد الحرب . كل ذلك يجعلنى أنظر إلى المستقبل بعين الأمل . . أرجو أن لا يتطرق إلى أذمانكم إنى تهاونت أو أتهاون فى المطالبة بحقوقكم الشرعية ألا وهى الاستقلال ضمن قرار الجمعية العمومية للوطن المقدم من لدنها إلى الحكومة البريطانية يوم ٩ أغسطس ١٩٤٠ . والمؤيدة منا فى عدة مناسبات . .

ولا جدال فى أن كل هذه الأقوال قد فعلت فعل السحر فى النفوس . إذ أن الأمير إلى جانب تطمين البلاد على نوال حقوقها الكاملة التي جاهدت فى سبيل الحصول عليها جهادا شاقا مضنيا طويلا قد أوضح لشعبه المبادئ التي استرشد بها قاداته وزعمائه عندما دخلوا ميدان الكفاح إلى جانب بريطانيا على أساس ذلك الميثاق (ميثاق الأطلنطيقى) الذى كفل

لشعوب المناضلة بجوار الديمقراطيات الكبيرة بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية
التحرر والخلاص والاستمتاع بحقوقها الوطنية كاملة في ظل سلام يسود العالم قاطبة .
وقد أحدثت الاحتفالات الرائعة في برقة وتلك الخطب القيمة التي ألقاها سمو الأمير على
شعبه في أثناء هذه الاحتفالات أثرا عميقا في نفوس أهل القطر الشقيق المجاور ، طرابلسيين .
فوقد على سموه عقب الانتهاء من جولته المظفرة في برقة ، جماعة من وجوه الطرابلسيين
يطلبون من سموه أن يزور طرابلس . ولكنه لما كان الأمير قد غادر برقة بعد ذلك إلى مصر
فقد تعذرت الزيارة ، ومع ذلك فقد أعد أهل طرابلس (بيعة شرعية) جددوا بها بيعتهم
السابقة لسموه في ٣ ذى الحجة ١٣٤٠ ، ١٧ يولييه ١٩٢٢ ، أي قبل ذلك بعشرين عاما .
أما البيعة الجديدة فكانت محررة في ٢٨ روضا المعظم ١٣٦٣ ، ١٦ سبتمبر ١٩٤٤ وجاء فيها
ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين — حضرة صاحب السمو الجليل السيد محمد إدريس
المهدي السنوسي أمير ليبيا العظيم . إن لكم في عنق الأمة الطرابلسية بيعة شرعية في اختياركم
أميراً للقطر الليبي بواسطة ممثليها الشرعيين حرصا منهم على سعادة بلادهم وجمع كلمتها تحت
إمرة رجل ذي حسب ونسب وكفاءة للقيام بهذه المهمة الخطيرة وما يتطلبه هذا المنصب
السامى من جهود جبارة . وقد وجدت فيكم المثل الأعلى فبايعتكم وأمرتكم برضى منها
وطيب خاطر . وقد حالت حوادث الدهر وظلم الغاصبين بينكم وبين أمتكم وبيننا وبين
رغباتنا حقبة من الزمان . وهما هو بمن الله سبحانه وتعالى قد حررت بلادنا بواسطة
صديقة العالم الاسلامى وحليفته بريطانيا العظمى التي وجدت في شخصكم الكريم خير حليف
مساعد بتفوزه وأتباعه قام بما طلب منه خير قيام . وبما أن الحرب قد أصبحت على وشك
الانتهاء ، وسيكون النصر فيها حليف حلفائكم الديمقراطيين فقد قنا بتحرير هذه الوثيقة
مجددين لكم تلك البيعة التي لازلنا متمسكين بها أى بيعة مؤتمر غريان المنعقد في ٣ ذى الحجة
١٣٤٠ هجرية ، قائمين بما تفرضه علينا البيعة المذكورة من واجبات واجين منكم السعى في
تحقيق رغبات الأمة من إحرازها للحكم الذاتى وغير ذلك مما يجلب لها الراحة والهناء .
وتحقيق أمانها التي كفلها الميثاق الاطلائى ، والتي تقايل الدول الديمقراطيه من أجلها وإن
الأمة التي قامت بتأكيد بيعتها مستعدة للقيام بما تطلبه البيعة من واجبات . »

وهكذا انعقدت كلمة الليبيين قاطبة في برقة وطرابلس على الانضواء تحت لواء إمارة
السيد محمد إدريس المهدي السنوسي ، تلك الإمارة التي شيد صرحها مؤسس السنوسية الإمام
السيد محمد بن على السنوسى الكبير في الثالث الأول من القرن الماضى واعترفت بها الدولة

العثمانية حقيقة واقعة بعد ذلك ثم أيدت هذا الاعتراف رسمياً منذ أن بدأ النضال المرير ضد
الطليان إبان الحرب الليبية الإيطالية ، ولم يجد الطليان أنفسهم مناصاً من الاعتراف بها
كذلك في اتفقاتهم مع السيد محمد إدريس ثم حال دون تنفيذ هذا الاعتراف ما جرى عليه
الطليان من عادة نقض العهود والمواثيق . وقد أثبتت الحوادث أن الشعب الليبي قاطبة لا يرضى
عن هذه الإمارة السنوسية بديلاً حتى يستمتع بحقه في الحياة الحرة كاملاً : شعب واحد وإمارة
واحدة ، تضم الأقطار الليبية من حدود مصر شرقاً إلى حدود تونس غرباً ، ومن شاطئ
البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى نهاية حدود برقة وفزان جنوباً وينتعد لواؤها للأمير
السيد محمد إدريس المهدي السنوسي .

الفصل الثالث عشر

خاتمة القول

بين الماضي والمستقبل

كأنت الأمة الليبية طويلا في سبيل حريتها واستقلالها ، فلم تدعن لسلطان الطليان ، بل شن الليبيون حربا شعواء على أولئك الذين اغتصبوا بلادهم حوالى ثلاثين عاما ضحوا في أثنائها بالنفس والنفيس ، فاستشهد منهم من استشهد ونفى وشرذ عديدون ؛ وبطش الطليان بهم بطشا ، ولكن ذلك لم ينل من قوة إيمانهم شيئا ولم يضعف ثقتهم في عدالة قضيتهم . بل ظلوا يتربصون بالعدو الفاتك الدوائر حتى دنت ساعة الخلاص عندما بدأت الحرب العالمية الثانية وزجت إيطاليا بنفسها زجا في أتونها المستعر ، فراحوا يجندون الجيوش وينخرطون في سلك القدائين إلى جانب الديمقراطيات العظيمة كحلفاء صادقين لدولة بريطانيا العظمى في أحلك أيامها سوادا وأعصبا شدة يبغون التحرر والخلاص من طغيان الطليان ويفشدون الحرية والاستقلال ولا يرغبون عنهما تبديلا .

وكان بعد أن قرر الليبيون بزعامة السنوسية العتيدة أن يخوضوا غمار الحرب العالمية الثانية بأيام معدودات أن وقع فرانكلين ديلا نوروزفلك رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الراحل والمستر ونستون تشرشل (ميثاق الاطلنطي) في ١٤ أغسطس ١٩٤١ . فاطمأنت نفوس الليبيين إلى المستقبل ، ذلك بأنهم عقدوا آمالا عظيمة على تلك المبادئ الحرة التي تضمنها ذلك الميثاق ، وهي مبادئ إذا عمل بها في ميدان السياسة الدولية لاستطاعت الأمم والشعوب الصغيرة والمييضة الجناح أن تعيش موفورة الكرامة مرفوعة الرأس ، متمتعة بحقوقها كاملة في الحياة الحرة الطليقة .

وقد تدعمت آمال الليبيين عندما أسفر مؤتمر (دمبارتون أوكس) في أكتوبر ١٩٤٤ عن تقديم مقترحات معينة لإنشاء هيئة دولية أغراضها المحافظة على السلم والأمن الدوليين وتعزيز السلام العام وإنماء العلاقات الودية بين الأمم وتحقيق التعاون الدولي في حل المسائل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية على أن تعمل هذه الهيئة الدولية وفق مبادئ عدة لعل أهمها — في نظر الليبيين — تحقيق مبدأ المساواة في السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام وتسوية ما قد ينشأ من خلافات بين الأمم بالوسائل السلمية وامتناع أعضاء

هذه الهيئة عن استعمال القوة في علاقاتهم الدولية ، وعلى أن تعمل الهيئة على أن تقف الدول غير الأعضاء فيها موقفا يتفق مع هذه المبادئ ، بالقدر الذي يقتضيه صون السلم والأمن في العالم .
وما أن لاح في أفق السياسة الدولية مسعى العرب من أجل إنشاء جامعة الدول العربية حتى شمر الليبيون عن ساعد الجدد والعمل حتى تضم الجامعة بين أعضائها ثلثين عن القطر الليبي ، فأعد الأمير السيد محمد إدريس السنوسي تقريرا ضافيا قدمه إلى وزراء خارجية الدول العربية وجاء أن يبحث مؤتمر المنعقد في ١٤ فبراير ١٩٤٥ ما تضمنه هذا التقرير من حجج تسوغ تمثيل الشعب الليبي في الجامعة العربية ، ثم موازنة هذا الشعب في وأن يكون له حقه الطبيعي في تقرير مصيره وشخصيته الدولية مثل باقي الشعوب العربية ، .
غير أنه لما كانت جامعة الدول العربية تتألف من الدول العربية المستقلة فحسب والتي وقعت على الميثاق ، فقد تعذر قبول ليبيا ضمن أعضاء الجامعة ، ومع ذلك فإنه ما وقعت الدول العربية على ميثاق هذه الجامعة في ٨ ربيع الثاني ١٣٦٤ ، ٢٢ مارس ١٩٤٥ حتى غدت المسألة الليبية أحد الموضوعات التي استأثرت بقدر عظيم من اهتمام جامعة الدول العربية .
واستطاع الليبيون أن يجدوا طريقهم إلى عرض قضية بلادهم على الدول التي يتألف منها مجلس الجامعة العربية ، ولقيت القضية الليبية تأييدا صادقا من جانب هذه الدول . آية ذلك التصريحات العديدة التي جاءت على لسان أمينها العام والمجاهد العربي الكبير معالي عبد الرحمن عزام باشا .

قال معاليه في حفلة الشبان المسلمين التي أقيمت لتكريم وفود الجامعة العربية في يوم ١٢ أبريل ١٩٤٦ . « ولنا جار شقيق عزيز علينا وهو طرابلس الغرب الذي لازالت الجامعة العربية منذ الصيف الماضي تكافح من أجله ويلم المستعمرون شبكاتهم ليدفعونا عنه ، ولكننا سننتصر عليهم بفضل جهود الجامعة وجهاد أهل طرابلس أنفسهم . وبيننا في هذا الحفل سيد هو نجل المجاهد العظيم السيد المهدي السنوسي الذي أصلى الاستعمار الفرنسي حربا عوانا لا من أجل طرابلس بل من أجل المغرب العربي كله . ولما امتدت أعناق الطامعين من الطليان الى طرابلس قام الشعب العربي فيها بدفاعه المجيد عنها . وأبلى الأسرة السنوسية في محاربة الأجنبي المجتاح بلاءها المعروف . والسيد الحاضر هو السيد إدريس السنوسي وارث رسالة ذلك البطل العظيم في الجهاد . في لوييا أباة مغاوير رافق بعضهم صفحات الجهاد الرائع أما البعض الآخر فقد ولد تحت قصف المدافع وصليل السيوف وهؤلاء هم حاملو رسالة طرابلس ، .

وقد نشط الليبيون سواء منهم الموجودون بمصر أو المتزعمون للجهاد في أوطانهم حتى يبينوا للعالم أجمع ولسائر الشعوب العربية على وجه الخصوص عدالة مطالبهم التي أكدوها

حررة بعد أخرى منذ أن تحررت بلادهم من نير الطليان المعتصين . وكانت وما تزال هذه المطالب ثلاثة : (أولا) حق الامة الليبية في الحرية والاستقلال ، (ثانيا) وحدة البلاد من حدود مصر إلى حدود تونس والجزائر ، (ثالثا) الانضمام إلى الجامعة العربية . فقدم الليبيون العاملون في مصر إلى الجامعة العربية في غضون عام ١٩٤٦ مذكرات وافية وتقارير ضافية بسطوا فيها هذه المطالب الحققة وما تستند اليه من حجج قوية دامغة وحذا حذوهم مواطنوهم المجاهدون في ليبيا ذاتها .

وجاء في تقرير الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عن الأعمال التي تمت في المدة بين الدورتين الثالثة والخامسة العاديتين ، وعن الاجراءات التي اتخذت لتنفيذ قرارات المجلس أنه : بناء على تكليف المجلس بقراره الصادر في دورته الثالثة العادية بتاريخ ١٦ أبريل سنة ١٩٤٦ قامت الأمانة العامة في قضية طرابلس بإرسال مذكرة إلى وزراء خارجية الدول العظمى في باريس والدول التي دعيت للاشتراك في مؤتمر الصلح مع إيطاليا ، وقد تضمنت تلك المذكرة رفض الشعب الليبي يظاهرة العالم العربي لأية فكرة ترمي إلى تقسيم ليبيا ومعارضة تقرير مصيره دون استفتائه تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية في شكل الحكومة التي يرتضيها كما تضمنت أن أي ادعاء يصدر من الجانب الإيطالي بإعادة أي ارتباط بين ليبيا وبين إيطاليا بإقامة أي نوع من أنواع النظام الحكومي سيقاوم بكافة الوسائل التي تتوفر لدى الشعب الليبي . وقامت الأمانة العامة بمداومة المساعي لتحقيق وحدة واستقلال طرابلس عملا بما نص عليه التكليف الصادر به قرار المجلس المتقدم الذكر ، .

وكان نصرا عظيما ولاشك لكل تلك الجهود عند ما تفضل عاهل مصر العظيم ومؤيد العربوبة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر وصاحب بلاد النوبة والسودان وكردفان ودارفور فدعا أصحاب الجلالة والفتخامة والسمو ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم لاجتماعهم في زهراء أنشاص في يومى ٢٨ ، ٢٩ مايو ١٩٤٦ فلبى الدعوة الملكية السكريمة حضرة صاحب الفتخامة السيد شكري القوتلى رئيس الجمهورية السورية وحضرة صاحب الجلالة الملك عبد الله ملك شرق الأردن وحضرة صاحب السمو الملكي الأمير سيف الإسلام عبد الله نجل جلالة المرحوم الإمام يحيى ملك اليمن . فقد صدر بيان عن زهراء أنشاص في يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ (٢٩ مايو ١٩٤٦) كان من بين ما جاء فيه أن أصحاب الجلالة والفتخامة والسمو قد تناولوا بالبحث مسألة طرابلس وبرقة ووجدوا أنفسهم متفقين تمام الاتفاق على أن استقلال هذه البلاد أمر طبعى وعادل ، وأن حكوماتهم متفقة على ضرورته لأمن مصر والبلاد العربية ، وأن على جامعة الدول العربية التي قضى ميثاقها برعاية شؤون

العرب ومصالحهم أن تهيء الأسباب لهذا الاستقلال وأن تصحده في بادئ الأمر بالرعاية اللازمة لظهور حكومة عربية في تلك البلاد ومعاونتها إداريا وماذا حتى تستطيع النهوض بمسئوليتها داخلا وخارجا كعضو من أعضاء جامعة الدول العربية .

وقد وافق مجلس الجامعة العربية في دورته الاستثنائية ببلودان على ما جاء في هذا البيان بشأن قضية ليبيا والعمل على استقلالها وإقامة حكومة عربية فيها كما وافق على أن ترسل الأمانة العامة برقية إلى وزراء خارجية الدول العظمى على أثر ما أذاعته بعض وكالات الأنباء متعلقا باقتراح بريطاني بإرسال وفد من الدول المذكورة لتعرف رغبات أهل ليبيا ؛ وقد بعثت الأمانة العامة بتلك البرقية بتاريخ ١٠ يونيو ١٩٤٦ من بلودان ، وقد جاء فيها : إن كل تحقيق تقوم به الدول العظمى في هذا الشأن يهم الجامعة العربية التي تعتبر طرابلس وبرقة شعبا من الشعوب العربية كما يقضى عليها ميثاقها أن تنظر شؤونها ومصالحها وتحرص أن تشترك الجامعة العربية في الهيئة التي أشار إليها الاقتراح البريطاني وتود إذا اتفق على هذا الاقتراح أن تدعى للاشتراك وأن تحاط علما بالإجراءات والمواعيد . فضلا عن ذلك فقد بعثت الأمانة العامة على أثر ما تلقت من الشكوى من هجرة الطليان غير المشروعة إلى طرابلس بمذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية وتلقت منها ردا بأنها تتخذ كل ما يمكن لوقف الهجرة المشار إليها ويحدث أن انعقد اجتماع وزراء خارجية الدول العربية بمدينة الإسكندرية في ١٢ أغسطس ١٩٤٦ (للبحث في مسألة فلسطين) فقرر الوزراء - من بين ما قرروا - أن توفد كل من الدول العربية إلى لندن مندوبين عنها ، وسافر ممثلو دول الجامعة إلى لندن في شهر سبتمبر ؛ وانتهز معالي الأمين العام عبد الرحمن عزام باشا فرصة وجوده بلندن ، فعنى عناية خاصة بالمشكلة الليبية ، وبذل كثيرا من الجهود لإيضاحها وإظهارها للعالم على حقيقتها وعرضها على مقامات لندن الرسمية وغير الرسمية على وجهها الصحيح .

وفي غضون الشهور الستة الأولى من عام ١٩٤٧ تآلفت في القاهرة (هيئة تحرير ليبيا) فانضم إليها نخبة من أبناء ليبيا المجاهدين برئاسة المجاهد الليبي ومن كبار زعماء النهضة الاستقلالية في الوطن حضرة صاحب السعادة بشير بك السعداوي . وقد أبدت هذه الهيئة نشاطا عظيما سواء في القطر المصري أو في ليبيا ذاتها ، فعملت على جمع الكلمة وتوحيد الجهود ، وتنوير الرأي العام في الاقطار الشقيقة ، وبسط القضية الليبية بسطا عادلا جامعا شاملا وانبرت هذه الهيئة تدفع مفتريات الطليان الأخيرة وادعائهم ، وتشدقهم (على وجه الخصوص) بما أدته إيطاليا لمستعمراتها السابقة من خدمات وما أسبغت عليها من نعم . يحدو إيطاليا إلى ذلك ورغبتها بضرورة تولى هذه المستعمرات من جديد تحت ستار الوصاية . الأمر الذي

يرفضه الليبيون جميعا رفضا باتامقاطعا . إذ قد صمم الشعب الليبي — على حد ما جاء في بيان هيئة تحرير ليبيا ذاتها — تصميا قاطعا قويا أن يحقق استقلاله التام مهما كلفه هذا من تضحيات، وبذل في الدماء والبنين والحياة .

وفي مايو ١٩٤٧ أعدت الهيئة ، مذكرة من ممثلي الشعب الليبي إلى وزراء خارجية الدول الكبرى في شأن استقلال ليبيا ، بسطت فيها من جديد مطالب ليبيا القومية ، وهي — كما كانت دائما — مطالب ثلاثة : ليبيا وحدة لا تتجزأ ، ليبيا تطالب بالاستقلال ، وليبيا تريد الانضمام إلى الجامعة العربية . وقد اختتمت الهيئة هذه المذكرة التاريخية بالفقرات التالية :
« وتحصل وجهة نظر أهل ليبيا من ناحية وضعهم السياسي في أن إيطاليا قد تنازلت في معاهدة الصلح عن كل حق لها في بلادهم — وإن كانوا لم يسلموا لها يوما ما بأي حق ما . ولما كانت الدولة العثمانية قد تنازلت من قبل هي الأخرى عن كل حق لها في بلادهم وذلك في معاهدة لوزان المعقودة بتاريخ ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ ومعاهدة لوزان التالية في ٢٤ يولية ١٩٢٣ .
فقد تحررت بذلك بلادهم من كل سلطان أجنبي واستعادت سيادتها واستقلالها . وقد أقاموا الدليل فيما تقدم على أهليتهم لإدارة شئون بلادهم وحكم أنفسهم بأنفسهم . غير أن مجلس وزراء الخارجية قد قرر على الرغم من ذلك إيفاد لجنة للبحث والتحري في شئون البلاد .
ولما كنا قد عهدنا إلى جامعة الدول العربية أن تسعى إلى تحقيق استقلال بلادنا ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، فإن رغبتنا الإجماعية هي أن تشترك هذه الجامعة في أعمال اللجنة التي توفد إلى البلاد . هذه رغبتنا نعلنها إليكم مرة أخرى ، ونطلب إليكم العمل على إنفاذها تطبيقا لنصوص ميثاق الأمم المتحدة . بل إنا نعلن إليكم فوق ذلك على ما سبق لنا القول إننا نقر ونأيد عدم الاعتراف بأعمال أية لجنة لا تشترك فيها جامعة الدول العربية . بيد أن هيئة تحرير ليبيا سرعان ما وجدت لزاما عليها أن تعالج الموقف بما كانت تقتضيه خطورته من حكمة وعزم عند ما أوفد مجلس نواب وزراء الخارجية (لجنة تحقيق الرباعية) من مندوبي المملكة المتحدة — إنجلترا — والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وفرنسا لفحص أحوال المستعمرات الإيطالية السابقة والوقوف على رغبات أهلها قبل البت في مصيرهم فشددت هيئة تحرير ليبيا رحالها إلى أرض الوطن في فبراير ١٩٤٨ .

حقيق الله آمال الأمة الليبية المجاهدة وبوأها مركزها اللائق بأبنائها اليواصل بين مجموعة لدول المستقلة والأمم الحرة الناهضة الطليقة .

مصادر البحث

(١) روايات المعاصرين :

اليبيين

(سمو الأمير) السيد محمد إدريس السنوسى
السيد محمد الرضا السنوسى
السيد محمد صفي الدين السنوسى
السيد محمد الصديق السنوسى
(سعادة) بشير بك العداوى
يوسف بك القى
عمر فائق شبيب بك
الدكتور على نور الدين العنيزى
الأستاذ على أسعد الجربى

المصريين

(معالي) عبد الرحمن عزام باشا
(معالي) محمد صالح حرب باشا
(الرحوم) عبد الستار الباسل بك
(ب) مراجع عربية وتركية :

- ١ — ابن غلبون الطرابلسى (أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون)
تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار القاهرة — ١٣٤٩
- ٢ — أبو العاصم سعيد يحيى البارونى
- ٣ — زعيم المجاهدين الطرابلسيين سليمان باشا البارونى — القاهرة ١٣٦٠
أحمد بك النائب الأنصارى الطرابلسى أحد أعضاء مجلس (شهر أمانت) الجليلة بدار السعادة
كتاب المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب — استانبول ١٣١٧
- ٤ — أحمد حسنين (باشا) فى صحراء ليبيا
- ٥ — السيد أحمد الشريف السنوسى — الكوكب الزاهر فى سماء مجلى الظلام الماكر (مخطوط)
- ٦ — أحمد محمود (طاهر أحمد الزاوى)
عمر المختار — الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطنى فى طرابلس الغرب — القاهرة ١٣٥٢
- ٧ — الجبهة الوطنية المتحدة
مذكرة عن الحكم الإيטالى فى ليبيا وطلبات للمستقبل — طرابلس ١٩٤٦
- ٨ — اللجنة الطرابلسية بمصر
من الأمة الطرابلسية إلى العالم الإسلامى — الأمة الطرابلسية تستغيث من فظائع الايطاليين
(بدون تاريخ)

- ٩ — الكتاب الأخضر — الحدود الغربية لمصر — الاتحاق الإيطالي المصري المؤرخ ٦ ديسمبر ١٩٢٥ (وثائق خاصة . الملكة المصرية . وزارة الخارجية رقم ١ — ١٩٢٦) القاهرة ١٩٢٦
- ١٠ — المهاجرون الطرابلسيون في القطر المصري
تجربة العرب في طرابلس — الاسكندرية ١٩٣٩
- ١١ — أمين سعيد
الدولة العربية المتحدة — الجزء الثالث — تاريخ اليقظة القومية عند العرب وبرنامج لإنشاء
الدولة العربية المتحدة — القاهرة ١٩٣٨
- ١٢ — بشير السعداوى بك
فظائع الاستعمار الإيطالي الفاشيستي في طرابلس — برقة (بدون تاريخ)
- ١٣ — بيان من الجمعية الطرابلسية بالقطر المصري عن الحكم الإيطالي في طرابلس الغرب مقدم إلى ملوك
العرب وأمراءهم ورؤساء الحكومات والأحزاب السياسية ... الخ — مصر ١٩٣٨
- ١٤ — تحسين العسكري بك
مذكرات عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية (مجلة فتي النيل) القاهرة ١٩٤٥
- ١٥ — توفيق نوري البرقاوى
البطش والكرب في برقة وطرابلس الغرب — مطبعة الفرات ١٩٤٢
- ١٦ — حلمى — شهبندر زاده فلبه لى أحمد
تاريخ إسلام (جزءان) استانبول ١٣٢٦ — ١٣٢٧
- ١٧ — خالد (مختار)
طرابلس غرب ولايتى پانوراماسى — استانبول ١٣٢٧
- ١٨ — سليم قبعين
تاريخ الحرب العثمانية الإيطالية — الجزء الأول انتصار العرب في درنة — مصر ١٩١٢
- ١٩ — سنوسيلر — وأون أوجونجى عصراك اك بيوك متفكر اسلاميسى السيد محمد السنوسى
استانبول ١٣٢٥ .
- ٢٠ — شكيب أرسلان — فظائع الطليان في طرابلس الغرب (بدون تاريخ)
- ٢١ — عبد الحميد محمود الطرابلسى (الشيخ)
نبذة من أعمال إيطاليا في طرابلس الغرب (بدون تاريخ)
- ٢٢ — عجاج تويهض
حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثرروب ستودارد الأمريكى (ترجمة) وفيه فصول وتعليقات الخ
بقلم الأمير شكيب أرسلان — القاهرة ١٣٥٢
- ٢٣ — عمر فائق شنيب
للحقيقة والتاريخ — ليبيا مهد البطولة وعرين الأسود ليست سلعة للمساومة — القاهرة ١٩٤٦
- ٢٤ — محمد ابراهيم لطفى المصرى (اليوزباشى) — تاريخ حرب طرابلس — بنها ١٩٤٦
- ٢٥ — م . أسعد الحكيم — ليبيا الحديثة — دمشق ١٩٣٩
- ٢٦ — محمد الأخضر العياوى (الشيخ) — رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار — القاهرة ١٩٣٦
- ٢٧ — محمد بن على السنوسى الخطابى (مولانا الأستاذ السيد)

- كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة المراصد ، وبهامشه كتاب السليل المعين في الطرائق الأربعين — طبعه حفيد المؤلف السيد محمد إدريس المهدي السنوسي — القاهرة ١٣٥٣
- ٢٨ — محمد بن علي السنوسي الخطابي — (الاستاذ الشيخ سيدي) طبعه حفيد المؤلف السيد محمد إدريس المهدي السنوسي — القاهرة ١٣٥٧ — ١٩٣٨
- ٢٩ — محمد بن علي السنوسي الخطابي — (مولانا الاستاذ السيد) الدرر السنية في أخبار السلافة الأدرسية — طبعه حفيد المؤلف السيد محمد إدريس المهدي السنوسي — القاهرة ١٣٤٩
- ٣٠ — محمد حلمي — (ابن عبد المعطي صالح) كتاب المذكرات الحلمية عن الحرب الطرابلسية بقلم المتطوع بالجيش العثماني في الحرب الإيطالية الطرابلسية سنة ١٩١١ — النيا ١٣٣٠ .
- ٣١ — محمد علي الحداد — حاضر طرابلس الغرب (الجزء الأول) — بغداد ١٩٣٧
- ٣٢ — محمد علي الشافعي
- ٣٣ — صفحات مدونة من فظائح الطليان في طرابلس الغرب و برقة ١٩٣١ — (كتاب طرابلس الغرب في برائن الاستعمار الإيطالي — صحائف سود) — بدون تاريخ
- ٣٤ — محمد محمد علي الطرابلسي
- كتاب قذائف الكتلة الطرابلسية وجمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي لك حصون الدعاية الإيطالية الفاشستية — مصر — بدون تاريخ
- ٣٤ — منشورات جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي
- الذكرى السابعة والعشرون لاجتلال إيطاليا طرابلس — برقة (تشرين الأول ١٩١١) الجالية الطرابلسية البرقاوية — بدون تاريخ . (١٩٣٨ ؟)
- (ح) مراجع أجنبية :

- 1—Abbott, G F. The Holy War in Tripoli. London 1912.
- 2—Adolfo Sommerfeld. La Guerra Italo-Turca e le sue conseguenze (Trad. di Mario Mariani). Berlin 1912.
- 3—Barclay, Sir Thomas. The Turco-Italian War And Its Problems, with Appendices etc. London 1912.
- 4—Bennett, E.N. With the Turks in Tripoli-Being some Experiences in the Turco-Italian War of 1911. London 1912.
- 5—Cachia, A.J. Libya Under the Second Ottoman Occupation 1835-1911. Tripoli 1945.
- 6—Charles Féraud, L. Annales Tripolitaines. Paris 1927.
- 7—Chekib Arslan (L'Emir) - (1) Les Plaintes des Musulmans de Libye- (2) Les Juifs se rappellent maintenant que les Arabes ont souffert en Libye. (La Nation Arabe- Revue mensuelle Nos 20-21- VIII e Année) Geneve 1938.
- 8—Duveyrer. H. La Conferérie Muslmanne de Sidi Mohammed Ben Ali Es Senoûsi. Paris 1886.
- 9—Federzoni, E. Venti Mesi di Azione Coloniale. Roma.
- 10—Fidei, C. Revue des questions Coloniale et Maritime. Paris 1922.
- 11—Fidel, C. La Condamnation du tribunal militaire de Zavia. Paris 1927.
- 12—Forbes, Rosita (Lady). The Secret of the Sahara-Kufara. London 1921.
- 13—Gabelli, Ottone. La Tripolitania Della Fine Della Guerra Mondiale All' Aventodel Fascismo (2 vol.) Roma 1932.
- 14—Girard, B. La Tripolitaine ou Régence de Tripoli. (1899).

- 15—Graziani. R. *Verso il Fezzan*. Tripoli 1930.
- 16—Graziani. *Cirenaica Pacificata*. Milano. 1932.
- 17—Hassanin, Ahmed. *The Lost Oases*. London 1925
- 18—Hodson. J.L. *War in the Sun*. London 1942.
- 19—Homo. L. *Experiences africaines d'autrefois et d'aujourd'hui*. Paris 1914
- 20—Jean Despois. *La Colonisation Italienne En Libye-Problèmes et methodes*. Paris 1935.
- 21—Jean Despois. *Le Djebel Nefouse (Tripolitaine) Etude Géographique*. Paris 1935.
- 21A—Kennedy Shaw, W.B. *Long Range Desert Group*. London 1942.
- 22—Knud Holmboe. *Desert Encounter — (Through Italian Africa)* London 1941.
- 23—*La Libia in venti anni di occupazione Italiana (La Rassegna Italiana)*. 1932.
- 24—Lapworth, Ch. *Libya and the New Italy*. London 1912.
- 25—*Le Front National Uni-Memorandum sur la Libye sous le Gouvernement Italien et demandes pour l'avenir*. Tripoli 1946.
26. Maugini. A. *Tripolitania e Cirenaica di fronte al problema della colonizzazione*. Atti. III.
- 27—Mezzetti, Ottorino. *Guerra in Libia-Recordi ed isperienze (1933)*.
- 28—Miller, F.T. *History of World War II*. Tronto 1945.
- 29—Mohammed Ben Otsmane El-Hachaichi. *Voyage au Pays Des Senoussia*. (Trad. par V. Serres, et Lasram) Paris 1912.
- 30—N N. *Zanie ed Ichuan Senussite della Tripolitania (1917)*
- 31—(Piccioli). *La Nuova Italia d'Oltremare*. (2 vols). Milano 1934.
- 32—Rapex, R. *L'Affermazione della sovranità italiana in Tripolitania (1937)*.
- 33—Rinn, L. *Marabouts Et Khouan. Etude sur l'Islam en Algerie avec une carte indiquant la marche, la situation et l'importance des ordres religieux Musulmans*. Alger 1894.
- 34—Rodd. F.R. *The People of the Viel*. London.
- 35—Savarese, E. *Le terre della Cirenaica secondo la legislazione fondiaria ottomana e le consuetudini della Tribù*. 2 vol. Bengasi 1926-1927.
- 36—Schenfield, H.J. *Libya. (Islam To Day. Edited by A.J. Arberry and Rom Landau.)* London 1943
- 37—Serra, F. *Italia E Senussia. (Vent' anni di Azione Coloniale in Cirenaica)* 1933.
- 38—St. Gsell. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. Paris 1913—1927.
- 39—Teruzzi, J. *Cirenaica Verde. Due Anni Di Governo Dicembre 1926 — Gennaio 1929. Con Prefazione Di Benito Mussolini*. (1931)
- 40—Tomaso Sillani. *La Libia In venti Anni Di Occupazione Italiana. Studi E Documenti*. Roma 1932.
- 41—Volpi, Comte Guisepe. *La Rinascita della Tripolitania*. Milano 1926
- 42—War Office-British Military Administration of Occupied Territories in Africa during the Years 1941-1943. etc. London 1945.

(و) الصحف والمجلات :

- الإخوان المسلمون
الأهرام
الشورى
العدل (استانبول ١٣٣١)
الفتح (القاهرة ١٣٥٥)
المصري
المقطم
المنتدى (الفلسطينية)
برقة الرياضية
جريدة البلاد (البغدادية ١٣٥٥)
جريدة بنغازى
فتى النيل
ليبيا المصورة
مجلة عمر المختار

The Egyptian Gazette

The Egyptian Mail

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هويتا سيدي مرتبة و طبيب العافية العالم الفاضل والفقير الكليل المحترم بجهده وعونه والمفتي
 بالمرجع في الفقه والحسن. صلى الله عليه وسلم السيد محمد المهدي الشوملي نفعنا الله في بلادنا المحمية
 وعهدنا الله عند كل تواجد. اما بعد في ارضنا دعة واثرة سرية قد عرفنا بكنهكم ابي الهادي المحترم
 حجة مهديه الفقيه والناقد في المعارف الدينية والدراسات الخيرية التي عرقتنا بتلك
 الظواهر وتوسيعها. اسراءكم ابناكم المحترم التي بحسب النزعة الصالحة وما انشأه لاختيار
 خليفة سيدي الفقيه ابو المصنف فادم الحجة شريفة اذنا السلام الالهي. اذ الله في نفسه وفي
 حفظنا ابيه قطع ومجد الورد الفقيه في ذلك وجهه فوط الاستاذ ووفور لوجهه طاب المقام
 اسراء بفرقة الالهي صدمه في ابيه. الله ينظر بناهكم نياحة عهدنا للمعاليمة ويحكم بالبدع
 الكريمة التي في دولته فيكم جود الالهي في نفسه. وفيه التاكيد الملمة التي نلتها بتفانيه
 دولته المحيية التي بجهد اثاره في كراهة الواقع والواقع والواقع والواقع في عهدنا
 بعبارة بكافة ارواها المحمودية على وجه العارضية الموجودة ونزول الدعوات في افضاء الكلام
 العالي والخير من الحالة او ابتاع اذنا في سائر الامور ومضامير ومهذبات ايضا تحري في
 صوره لعله على وجهه الى المهدي المذكور. والاول بالله نفع سيدي لانه لو صدر الالهي
 ما يبرمج في رضاء في ذلك. وحفظكم التي بحسب العزلة اذنا الموصولة في عهده لانه الالهي
 مرفاثة فهداياه اسود ورواياته يتبع في دولته التي بوجهه فخرنا ما بقية تقا
 وفانية رونا في بلدنا بالالهي في كل وقت من العزلة وقد عرفنا على الالهي في جميع ما امر
 وافيا. فحكم الالهي ودمت في حفظه وكرمه عليه افع

الالهي
 ابراهيم درويش
 في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٩٥ هـ



١ - خطاب ابراهيم درويش باشا ياور اكرم حضرة السلطان (عبد الحميد)
 الى السيد محمد المهدي الشوملي في ١٨ جماد اول ١٣١٣ و ٣ نوفمبر ١٨٩٥.
 (أنظر صفحة ١٥)

بلور كاتيب

بانت كتابت داره

باسم سبحان الى حفره العالم الفاضل ولاسه ذاك الامير السيد شيخ محمد بن محمد بن السيد السنوسي المحترم اتم التوقيع قري من نعم ائمتنا
قد وصل من طرفكم الى هذا الجانب جدا بما علمكم عبد العبر افندي ومقدما الاطراف المباركة التي اهدتتموها لسيدينا وفضل امير المؤمنين والقيده
مسيد المرسلين وعلماي الشرع الانور المير ابي عبد الله ونعم الله وعلما داره كثره الله في بلاد ائمتنا وقد رقت الى المصير العاقب التوفيق
الذي انفق قد اوجب تدبيرها كمال المحطية من لدن الحضرة حسنة وقرتها في الاوقات المباركة والساعات العظيمة لارادت على المصير على الوجه
الماثور وكونكم عن استوداد الله تعالى تشبه الطريقة وتعليم احكام الشريعة واشتكم من يعلم عن الخلافة الكبرى وشان الامانة الاسلامية العظيمة
وجيشان الخلافة المنصورة العتبية والامانة المقدسة الاسلامية قد اثبت الله عند مائة من السنين في البيت العالي الشاهي وجرها بحق
عبرودها وقد صرح من نصرته حق الخلافة الموقرة العتبية وطاعتها على كل مسلم يؤمن بالله ويومئذ يصر في العالمين والماقرسياني مثل هذا
فان لا خيار من الكفار واللاحق والمارقين والفسدين من جميع الاقطار تجوزون وتولون في السمر والعلو عصوة للسنة النبوية على رسوله
صانها في العتبية الاسلامية (وياتي الله الا ابراهيم حوره) وحتى من السمر ان جماعة من الاثكثير الاثاليان وغيرهم قد تزجوا الى طرفكم
مطربون مسيعة وتم تطولون بالعرسة وتزجوا الى احوال ما في انفسهم وما يباح سائرهم من القاصد الصلت للدين والمسلمين كادل ما يرون
منكم وان كان هو القصد من كماله عدم ابراهيم حورككم ان توردوا اذهان حيككم ومن يوليككم من الطعة والامانة قراءة في جميع الاقطار
التي تسبح بها كلنكم وتؤثر بها نصيحتكم بصدق الاخلاص للخلافة المقدسة العتبية والامانة الكبرى الاسلامية (التي لا تسبح الله ولا تدر
بديع الاعداد والملاحق فيها ابراهيم لانهم لا يهدم شرف الدين المير وتفرقة شيئا مما عاتت المسلمين وتصارت الامانة فرقا فرقا وتفرقت اثارها
والقذا والعياذ بالله يكون ولا تكن موحد على وجه الارض بالطول والعرض بل هو مما يخرق شأن التسديد ويجعلها بعد الفرو صبيحة وذلك
مما يخرق القلب الاظهر الاقدس النبوي في الصريح الانور المصطفى وحق انصار الخلافة المقدسة في كل عصر ومن ان اشتكم من العلماء الذين
يخشون الله ويحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والامل بصدقكم وديانتكم وهديت ان تغفروا من الاعداد وان تبطوا قلوب الاعداد
لقيام الخلافة السعيد بطا صالحا شرعيا يتبع ودا خالصا وجيها فان امك سيدنا وعلو الامانة حقيقه المصطفى اعظم على الله عليه وسلم السلطان
وعظم ايدى الله وسلم بصدقكم وكمال فطانتكم فوق هذا على ان القصد العالي انحاء المسلمين كما امر به العالمين وما الغاية من هذا كله
ان المدافعة عن الحقوق الدينية والسلامة والامن في الممالك المورثة الاسلامية العتبية من التحويلات الغير المتروكة من اولى المطامع التي
الردية وعلما بكم بكل ذلك ولعلنا لدنا من طرفكم خاتمة ومن جهة الميرين واللائق عامة نضع سيده المظلم وسلطان حفظ
في زانه وداره قنين لمصركم ان قد وليج سيدينا ابي عبد الله كتاب صحيح النجاشي الشريف وقد استودع كتابكم نسخة منكم خاصة ويسير
اش الله من عشرة اوسح اخر تقطعي من طرفكم لمن يده لا اله الا الله كل ادم رفع قننه او حاجبه للحجاب العالم الموكافي فيركنكم سيدنا
بالبريد رأسا الى مقام الكتابة الجليله او بواسطة رسول من طرفكم صمما تقارون والقصود هذا وشكم كما هي عادكم على هذا الموضع
فيما الخليفة نصره مع التواضع الباركي والوداد والمحبين ويكن سبكم عدولا لا ذكر وحرد كل ذلك مع وحين السلام عليكم
وبين المظولية السنية تنكم باياد وسلوا حضرت امير المؤمنين بعد ذلك العيين والرجو دعاكم ودام بعاكم ائمتنا
وبين طرفكم ان من السمر ان بعضا من رهبان لعلمهم بان السودان اكثرهم على جهل وفجادة ويرجعون بالحرز وشذ من الامتد للامانة
فهم ياخذون نوا الكتب ويذهبون الى بلاد السودان ومعلم ترجمه الاجيل وغيره من كتبهم بالعربية بعد الهدا والاغيا اشيا
من الحرز واتاد يفرزون لهم من كتبهم واثانهم من دعاظ الاسلام وبالتدريج يضاوتهم والعايز بالله ويدخلونهم في دينهم
فذلكه الاتهام بهذا الشأن بواسطة العطاء والصلحا من تلامذتكم هو من القم المرات الدينية يلزم به بدل الوسخ ونعا لوجه الفرض
الديني وقباما بوجبه لاهوت الاسلاميه وقد آتى سيدنا حضرت الله ان يسئل اليكم ساقه تكون في الاوقات التي تذكره لكم
بصاغ وهو كتم لينا العالي ان كانت ليست بشي غير ان القصد انما علام توجهات السنية ومن جهة توجهات السنية الخليفة
المنظم التي هي دائمة في حقكم قد يرسل مير لاي حاوي كما احد البادان الحضرة الموكاتيب الى صوبكم حوزة بالرفاقه بعد العرقه فبدي
المري ابو ورم بعاكم امين اربع الاصله

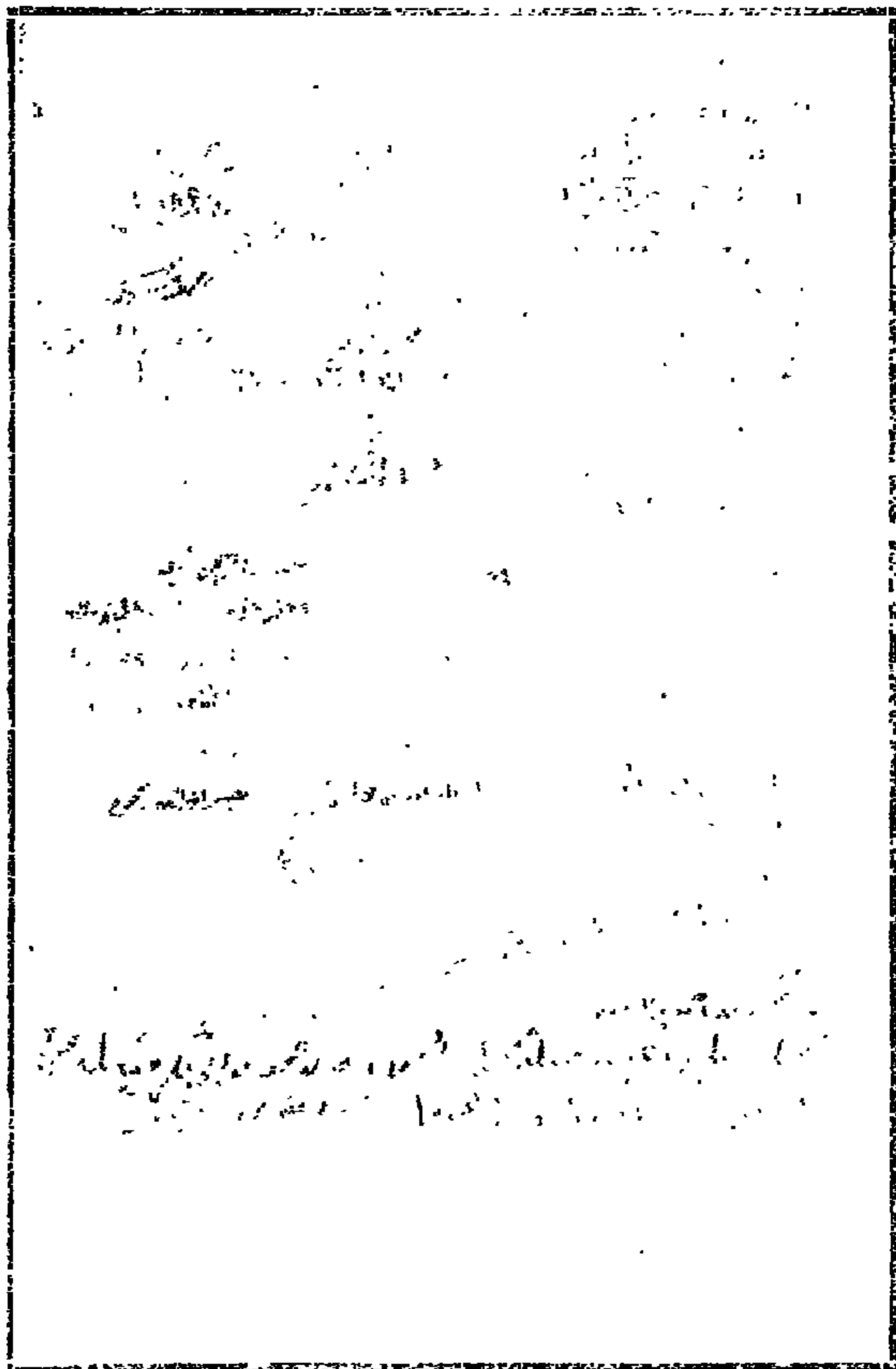


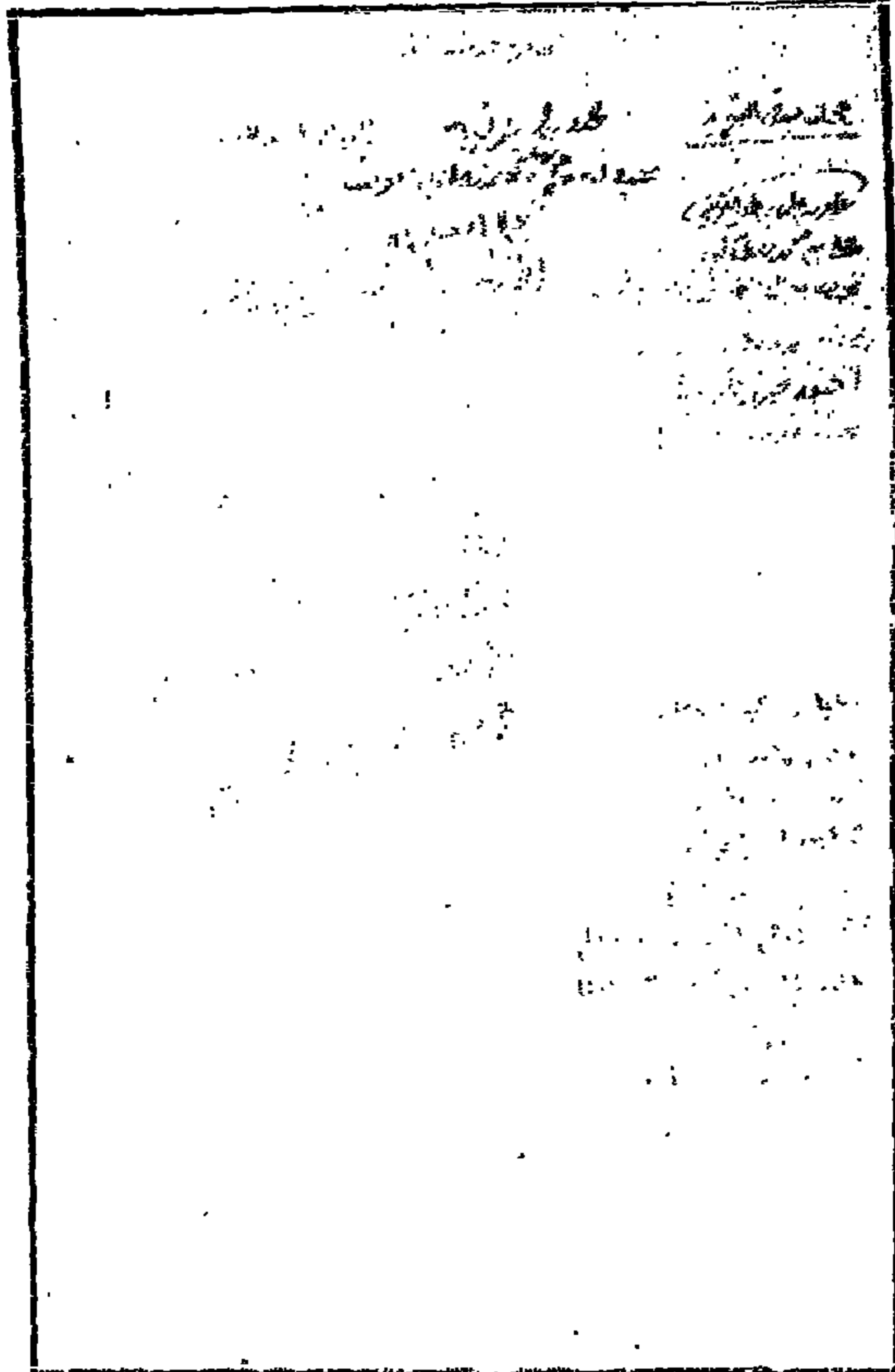
مستحق
 في سنة ١٩١٤
 في سنة ١٩١٥
 في سنة ١٩١٦
 في سنة ١٩١٧
 في سنة ١٩١٨
 في سنة ١٩١٩
 في سنة ١٩٢٠
 في سنة ١٩٢١
 في سنة ١٩٢٢
 في سنة ١٩٢٣
 في سنة ١٩٢٤
 في سنة ١٩٢٥
 في سنة ١٩٢٦
 في سنة ١٩٢٧
 في سنة ١٩٢٨
 في سنة ١٩٢٩
 في سنة ١٩٣٠
 في سنة ١٩٣١
 في سنة ١٩٣٢
 في سنة ١٩٣٣
 في سنة ١٩٣٤
 في سنة ١٩٣٥
 في سنة ١٩٣٦
 في سنة ١٩٣٧
 في سنة ١٩٣٨
 في سنة ١٩٣٩
 في سنة ١٩٤٠
 في سنة ١٩٤١
 في سنة ١٩٤٢
 في سنة ١٩٤٣
 في سنة ١٩٤٤
 في سنة ١٩٤٥
 في سنة ١٩٤٦
 في سنة ١٩٤٧
 في سنة ١٩٤٨
 في سنة ١٩٤٩
 في سنة ١٩٥٠
 في سنة ١٩٥١
 في سنة ١٩٥٢
 في سنة ١٩٥٣
 في سنة ١٩٥٤
 في سنة ١٩٥٥
 في سنة ١٩٥٦
 في سنة ١٩٥٧
 في سنة ١٩٥٨
 في سنة ١٩٥٩
 في سنة ١٩٦٠
 في سنة ١٩٦١
 في سنة ١٩٦٢
 في سنة ١٩٦٣
 في سنة ١٩٦٤
 في سنة ١٩٦٥
 في سنة ١٩٦٦
 في سنة ١٩٦٧
 في سنة ١٩٦٨
 في سنة ١٩٦٩
 في سنة ١٩٧٠
 في سنة ١٩٧١
 في سنة ١٩٧٢
 في سنة ١٩٧٣
 في سنة ١٩٧٤
 في سنة ١٩٧٥
 في سنة ١٩٧٦
 في سنة ١٩٧٧
 في سنة ١٩٧٨
 في سنة ١٩٧٩
 في سنة ١٩٨٠
 في سنة ١٩٨١
 في سنة ١٩٨٢
 في سنة ١٩٨٣
 في سنة ١٩٨٤
 في سنة ١٩٨٥
 في سنة ١٩٨٦
 في سنة ١٩٨٧
 في سنة ١٩٨٨
 في سنة ١٩٨٩
 في سنة ١٩٩٠
 في سنة ١٩٩١
 في سنة ١٩٩٢
 في سنة ١٩٩٣
 في سنة ١٩٩٤
 في سنة ١٩٩٥
 في سنة ١٩٩٦
 في سنة ١٩٩٧
 في سنة ١٩٩٨
 في سنة ١٩٩٩
 في سنة ٢٠٠٠
 في سنة ٢٠٠١
 في سنة ٢٠٠٢
 في سنة ٢٠٠٣
 في سنة ٢٠٠٤
 في سنة ٢٠٠٥
 في سنة ٢٠٠٦
 في سنة ٢٠٠٧
 في سنة ٢٠٠٨
 في سنة ٢٠٠٩
 في سنة ٢٠١٠
 في سنة ٢٠١١
 في سنة ٢٠١٢
 في سنة ٢٠١٣
 في سنة ٢٠١٤
 في سنة ٢٠١٥
 في سنة ٢٠١٦
 في سنة ٢٠١٧
 في سنة ٢٠١٨
 في سنة ٢٠١٩
 في سنة ٢٠٢٠
 في سنة ٢٠٢١
 في سنة ٢٠٢٢
 في سنة ٢٠٢٣
 في سنة ٢٠٢٤
 في سنة ٢٠٢٥
 في سنة ٢٠٢٦
 في سنة ٢٠٢٧
 في سنة ٢٠٢٨
 في سنة ٢٠٢٩
 في سنة ٢٠٣٠

٣ - تفويض الرقائين والطرابلسيين المهاجرين بالديار المصرية والصادر إلى سمو السيد محمد إدريس عدينة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين
الذين هدى الله لخير ما يشاءون
وأما بعد
فإنني قد اجتمع مع فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد
القيصيني في مدينة القاهرة بتاريخ ١١ من شهر رمضان المبارك
سنة ١٣٦٣ هـ الموافق ١٦ من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٤ م
لنقد مخطوطة بعنوان "الطرباسيون بحدود بيعة غريان بالأمارات
على القطر الليبي لسمو السيد محمد إدريس السنوسي" في
٢٨ رمضان ١٣٦٣ و ١٦ سبتمبر ١٩٤٤
(أنظر صفحة ٤٠٦)

٤ - الطرباسيون بحدود بيعة غريان بالأمارات على القطر الليبي لسمو
السيد محمد إدريس السنوسي ؛ في ٢٨ رمضان ١٣٦٣ و ١٦ سبتمبر ١٩٤٤
(أنظر صفحة ٤٠٦)





مطبعة الاعتماد بمصر

Bibliotheca Alexandrina



0426122

٥٠
الدين